أضواء على الهند

الهنـــد

كانت كلمة « الهند » حينما يذكرها الكاتب قبل سنة ١٩٤٧ يريد بها تلك البلاد الواسعة التى تشمل دولتى باكستان والهند الآن .. ونحن حينما نؤرخ للهند نريد بها ذلك المعنى الواسع . . ولم يكن الكاتب أو المؤرخ بحاجة إلى مثل هذا التنبيه قبل سنة التقسيم أعنى سنة ١٩٤٧ أما الآن فأجدنى محتاجا إلى هذا حتى لا يلتبس الأمر على القراء . .

وتستمد الهند اسمها من كلمة «سندهو» وهو الاسم الهندى لنهر «الأندوس» وهو نهر « السند » ومن هذه الكلمة اشتقت كلمتا « اند » «وهند» (ومعناهما الأرض التى تقع فيما وراء نهر الأندوس) وأصبح سكان هذا الأقليم يسمون الهندوس أو الهنود كما أصبحت بلادهم تعرف بالهندوستان [1])

على أن « جوستاف لوبون » فى كتابه حضارة الهند[2] أبدى رأيا آخر وقال يحتمل اشتقاق هذا الاسم من اسم إله الهنود « اندرا »

وأيا ما كان الأصل لكلمة « الهند » فأننا نعنى بها البلاد الشاسعة التى يحدها من الشمال سلسلة جبال الهملايا ومن الغرب جبال هندكوش وسليمان حيث تقع أفغانستان وإيران ثم تمتد الهند إلى الجنوب فى شبه جزيرة يقع بحر العرب فى غربها وخليج البنغال فى شرقها وسيلان فى طرفها الجنوبى ويتجه الأقليم الشمالى منها إلى الشرق حتى جبال آسام

وإذا أردنا تحديدها بخطوط الطول والعرض أمكن أن نقول إنها تقع شمال خط الاستواء بين خطى عرض ٨ ، ٣٧ . وخطى طول ٦١ — ١٠٠ شرق جرنيتش فهى بذلك تقع فى الأقليم الحار والأقليم المعتدل وفيها من الفصول المناخية ثلاثة : الفصل الحار من إبريل تقريبا إلى يونيو حيث

---

(١) حقائق عن الهند أصدره قلم الاستعلامات الهندى

(٢) ص ٢٥ تعريب الأستاذ عادل زعيتر

تبلغ الحرارة ذروتها ثم يبدأ فصل الأمطار الموسمية التى تخفف قليلا من حدة الحرارة وإن كانت تظل شديدة ويبدأ فى الشمال من يوليو إلى سبتمبر ويبدأ قبل ذلك فى الجنوب ويسقط بغزارة شديدة يصحبه رعد وبرق لم أحس مثلهما فى البلاد العربية وكثيراً ما تسبب هذه الأمطار سيولا وفيضانات تقضى على الحرث والنسل وتخلف وراءها خرائب وبؤسا وأمراضا متعددة وقد شاهدت ذلك وسمعت عنه فى المدة التى قضيتها فى الهند وأغزر مناطق الهند بالمطر هى المناطق الشرقية مثل البنغال وآسام .

ثم يبدأ فصل الشتاء ويكون دافئاً فى الجنوب بينما تبلغ البرودة ذروتها فى الشمال فى ديسمبر ويناير وتسقط الثلوج وتتجمد المياه قريبا من سفوح الهملايا . . وفى هذه السنة أعنى ١٩٥٦ — ١٩٥٧ مات كثير من الناس وهلكت آلاف المواشى من شدة البرد(١) ويوجد فى المناطق الشمالية المصايف الممتعة كما فى سملا ومسورى وغيرها من بلاد الشمال أما كشمير التى تقع فى منتهى الشمال الغربى فهى باردة جداً شتاء بينما صيفها معتدل لا تحس فيه حرارة لا سيما على المرتفعات التى تعتبر من أحسن المناطق الهندية وأمتعها فى الصيف حيث تمتاز بمناظرها الطبيعية الخلابة مع جودة الهواء .

وتبدو لك جدران المدن والقرى وسطوحها أثناء فصل المطر وكأنها حقل نبتت فيه أنواع مختلفة من العشب فأن التراب الذى يعلو سطوحها أو يكون بين الأجر فى جدرانها كثيراً ما يكون فيه بذور أعشاب مختلفة فإذا نزل المطر نبتت هذه البذور ونمت وقد تتسلق الجدار لعدة أمتار وقد شاهدت بعض الأهلين يجذون هذه الأعشاب من فوق السطوح والجدران

---

(١) كما نشرت صحيفة « الجمعية » وغيرها من الصحف الهندية والطبيعة لا تتغير عما كانت عليه قديما

بالمنجل ويقدمونها لدوابهم أو يتركونها تجف للوقود . وحقا كان منظرا فريدا لم أر مثله من قبل . .

أنهارها .

وفى الهند أنهار عظيمة بعضها ينبع من الشمال حيث جبال الهملايا ويصب فى بحر العرب مثل نهر السند أو نهر « الأندوس » وفي مجراه الأعلى تمده بعض الروافد لا سيما تلك التى تجرى فى البنجاب ، أو بلاد الأنهار الخمسة . . فأن « بنج » معناها خمسة « وآب » معناها نهر . . وهى من أخصب بلاد الهند وأكثرها عمرانا . . وبعض هذه الروافد ينبع من كشمير ويعتبر نهر السند من أطول أنهار الدنيا إذ يبلغ طول مجراه ٢٩٠٠ كيلومترا .

ومنها نهر الكنج أو حسب ما ينطقون « گنگا(١) » وهو النهر المقدس لدى الهندوس الذين يغتسلون فى مياهه ليتطهروا من ذنوبهم ويتدفق من جبال الهملايا من ارتفاع أربعة آلاف متر ويعتبر الصعود إلى هذا المكان عند الهندوس من أعظم القربات ويقول « جوستاف لوبون » (٢) « إن الأوربيين هم أول من ارتقى إلى هذا المكان وحاول الهندوس تقليدهم والحج إليه فهلكوا » .

وعلى شواطيء گنگا ، تقوم معابد كثيرة يؤمها الملايين من الهندوس للعبادة أو التطهر . ومن أكبر الأنهار التى تنبع من هملايا أيضاً نهر « جمنا » وقد ذهبت إلى الهملايا حيث منبع ذلك النهر ورأيته يأتى من بعيد وسط الجبال ولم نكن فى فصل الأمطار الكثيرة لذلك رأيته وفيه قليل من الماء الجارى فى قنوات وسط مجراه . .

ويلتقى فى طريقه إلى الشرق بنهر گنگا عند مدينة « إله أباد » أى

---

(١) هذه الكاف ذات الشرطتين « گ » كاف فارسية ونطقها كنطق الجيم عند أهل القاهرة أو كنطق القاف فى الريف بين الجيم والكاف وستمر بك كثيراً .

(٢) ص ٣٨ حضارة الهند

مدينة الله بعد أن يمر جمنا فى طريقة بدلهى وآ گرا وكثير من المدن . . وقريباً من « إله أباد » قامت مدينة بنارس المقدسة عاصمة الهندوسية فى الهند [١] ومن مياه نهر « گنگا » المقدسة كان ولا يزال الهنود يحملون المـاء لغسل معابدهم وتطهيرها . . وفيه يرمى الهنود جثث موتاهم . وقد حاول الانجليز منعهم من ذلك ولـكنهم لم يفلحوا ويقول جوستاف لوبون[٢]: إن الهندوس ثاروا على الانكليز لمـا أرادوا فتح قناة كبيرة تأخذ مياهها من نهر گنگا المقدس ولـكنهم شقوها برغم هذه المعارضة » ويسير « گنگا » حتى يصب فى خليج البنغال . . بعد أن تتصل به كثير من الأنهار الـكبيرة فى الهند . . ويبلغ طوله ٢٤٢٠ كيلو مترا . .

ومن الأنهار الشهيرة أيضاً نهر براهماپترا الذى يجرى فى البنغال آتيا من الشمال الشرقى حيث جبال هملايا وأسام ويلتقى عند مصبه بأحدى التفرعات التى يتفرع إليها گنگا عند مصبه .

وهناك عدا هذه أنهار تجرى فى وسط الهند حيث تنحدر من جبال فى وسطها وتتجه غربا لتصب فى بحر العرب . . ويقدس الهنود إحداها وهو « نربدا » الذى يصب فى بحر العرب قريباً من « سورت » هو ونهر آخر يسمى « تاپتى » وفى جنوب الهند عدة أنهار صغيرة منحدرة تتجه شرقا لتصب فى خليج البنغال أو غربا لتصب فى بحر العرب . .

والذى اطلعت عليه من الـكتب عن أنهار الهند وما لاحظته على العموم فيها أنها غالبا تسير دون حواجز تحكم سيرها حيث لاتجد جسوراً على الجانبين كتلك التى نراها على النيل ولذا تجد النهر يجرى حراً كما يشاء وكلما كثرت

(١) جاء فى مجلة ثقافة الهند مارس ١٩٥٤ « هناك عند ملتقى نهرى كنكا وجمنا » على مقربة من مدينة « إله أباد » اتخذ الهندوس هذا المـكان وما حوله من قديم الزمان تقليداً دينياً هو أن يجتمعوا فيه من كل أقطار البلاد زرافات ليتبركوا بالغسل فيه ويستمر هذا الاجتماع الحاشد شهراً كاملا . . وتدل احصاءات هذا العام على أن أربعة ملايين من الزوار تقريباً حضروا يوم « أشنان » أى الغسل . (٢) ص ٣٩

مياهه فاض على الجانبين وأغرق الزرع والقرى وجرف أمام تياره الكثير منها . . وذلك برغم ما قامت به الحكومات المتعاقبة التى حكمت الهند منذ مئات السنين وبرغم السدود الكثيرة التى أنشئت على بعضها للاستفادة منها فى ضبط مياهها ، واستخراج الكهرباء من انحدارها . .

ومع ذلك فأن هذه الأنهار العظيمة وغيرها من الأنهار الكثيرة لم تف أرض الهند الشاسعة بحاجتها من الماء فإن كثيراً من الأراضى لا تمتد إليه مياه الأنهار ويعيش على الأمطار والآبار الارتوازية فالجهات التى تروى عن طريق الترع والأنهار لا تزيد على ٢٠ ٪ من مجموع سطح البلاد وهذه الجهات هى التى يستطيع الزراع فيها أن يعملوا مدة تتراوح من ستة أشهر أو ثمانية كل عام . أما فى سائر الجهات حيث تعتمد الأرض على الأمطار فى ريها فأن مدة العمل الزراعى بها لا تكاد تتعدى أربعة أشهر فى السنة » (١) .

وهذا الاحصاء على وجه التقريب لأنه يخص الهند الحاضرة لا الهند التى نتكلم عنها وهو على كل حال يعطينا فكرة عامة فى هذا الموضوع . .

أما المدن والقرى فأنها تعيش غالبا على ماء الآبار وتجد فيها حاجتها بسهولة لكثرة ما يتسرب إلى باطن الأرض من مياه الأمطار والأنهار . .

وفيما عدا فصل الأمطار تجد بعض هذه الأنهار العظيمة قد تحولت إلى قنوات صغيرة وظهرت رمال مجرى النهر أو طميه وقام الفلاحون بزراعته . .

وقد مر بى القطار على جسور (كبارى) وصل بعضها إلى ما يقرب من كيلومتر ولم يكن تحته من المياه إلا قناة صغيرة وأما الباقى فكان مزروعا أو يعد للزراعة .. ونهر جمنا الذى يفيض كل عام ويغرق كثيراً من القرى والمزارع ويهدد دلهى وغيرها بالغرق أراه بعد انتهاء فصل الأمطار قناة صغيرة يخوضها الناس بينما تمرح أفواج البقر على شاطىء القناة فوق الرمال

---

(١) من نشرة الحكومة الهندية تحت عنوان « الهند والعالم العربى » ص ٣٤

بعد أن انحسرت عنها المياه ونشرت الملابس البيضاء التى اعتاد الغسالون غسلها ونشرها على الرمال على شاطىء المياه . .

زراعتها :

مما لاشك فيه أن بلاداً واسعة كالهند مختلفة فى تربتها وأجوائها وارتفاعها وانخفاضها يمكن أن تجد فيها من أنواع النباتات ما لاتراه فى غيرها ويمكن أن أترك الكلام فى هذا لأحد علماء الهند الكبار وهو العلامة المرحوم الشريف مولانا عبد الحى الحسنى الذى وضع كتاب « الهند جنة المشرق ومطلع النور المشرق » . وهو لم يطبع حتى كتابة هذه السطور وإن كانت مجلة « ثقافة الهنـــد » قد عنيت بنشر نبذ منه وأنا أنقل لك هذا مما ذكرته المجلة فى عدديها الصادرين فى مارس ويونيو سنة ١٩٥٤ . .

يقول « أما حاصلات هذه البلاد فكثيرة جداً . . اعتنى العلماء بجمع أنواع نباتها وأشجارها فكانت أكثر من ثمانية آلاف نوع من النبات وأربعمائة وسبع وخمسين نوعا من الشجر وما زالوا يكتشفون غيرها فى أجام البلاد ورياضها . .

فمن حاصلاتها الحنطة والشعير والذرة والأرز والعدس بأنواع مختلفة والحمص وغيرها ولا سيما الأرز الذى يذكرون منه سبعاً وعشرين صنفا .

ومنها قصب السكر والقطن والتبغ والتمرت والنارجيل والنخل والخيزران والخشخاش ، الذى يؤخذ منه الأفيون والشاى والتنبول » وهو المعروف فى الهند باسم « البان » يمضغون أوراقه وشجره يشبه العنب غير أنه لا ثمر له وينتفع بورقه فى المضغ وهو عام شائع فى الهند يمضغه الرجال والنساء بعد أن يضعوا عليه القات والنورة (الجير) وقطع الفوفل والحبهان ويسمونه (إيلبجى) وهو معروف فى الحجاز باسم « هيل » وقرنفل وكثيراً مايضيفون إليه التبغ . .

قال الشيخ أحمد بن علان :

لطائف الهند ثلاث أتت ... الأنب والنرجس والبان
قال لى الخان نسيت النسا ... والحق ما قاله الخان

ووصف المسعودى التنبول من تسعة قرون فقال : تنبت أرض الهند ورقا يسمى « التنبول » فإذا مضغوه مضيفين إليه الجص والفوفل تحمر الأسنان كأنها حبات الرمان ، ويمتلىء الفم بالرائحة الطيبة ويفرح القلب .. وأهل الهند لا يستحسنون الأسنان البيضاء التى يصبغها التنبول بالحمرة » اه

ولعل رأيه هذا يرجع إلى زمانه فإن الناس الآن يجتهدون فى إزالة هذا اللون بمختلف المواد ولو أنك تجد أثره دائماً فى أفواههم . وإذا مضغوه تكون لعاب أحمر كثير يتخلصون منه فيخيل لك أنه دم ولا زال الناس فى الهند يتناقلون نادرة علق بها أحد شعراء فارس على هذا المنظر فقال : عجبت فى الهند لرجال يحيضون من أفواههم ..

« ومن أثمارها الموز والرمان والأترج واللوز والعنب والتمرهندى والليمون والأنبه (المانجو) (١) وفى الجهات الشمالية التفاح والأجاص .

---

(١) تكثر أشجاره وتتنوع ثماره حتى ذكروا أن أنواعه تزيد على المائة نوع ويصنعون منه وهو أخضر المخلل . ولا يعرف من عشت معهم فى الهند عصيره كما نعرفه فى مصر .. حتى كانوا يدهشون حين نقدمه إليهم .. وزراعة المانجو فى مصر نقلت عن الهند ولا زلنا نسمي كثيراً من أنواعها بالهندى .

وقد نقل صاحب « جنة المشرق » شعرا لأحد شعراء الهند وهو مولانا ذو الفقار على الديوبندي يتغزل فيه بالمانجو ويذكر أنواعها وأوصافها فيقول :

إن كنت تبغي أطيب اللذات ... فعليك صاح بأنبه الثمرات
فى حسن مرأى فى نباهة سيرة ... فى لطف ذات فى سمو صفات
من طعمها فى كل قلب شهوة ... فكأنها مجموعة الشهوات
ياحسن خضرتها وحمرتها وصفرتها ... على الأشجار فى الروضات
لم تختلف كمثالها الأثمار فى الألو ... ان والأذواق والهيآت
هذا ولا تحسبه صنفا واحداً ... بل جملة الأصناف مختلفات
سبحان من بالفضل فضلها على ... أشهى مذوقات ومشمومات

«ومن الأشجار شجر التيك (المعروف بالساج) الذى تصنع من أخشابه السفن وشجر القرفة والصندل والفوفل والنيل والآبنوس» وكثير من الأشجار ذكر المؤلف اسمها بالهندية حيث اصطلاحهم الذى لا نعرف مدلوله . .

وقد ذكر جوستاف لوبون مثل هذا وتكلم عن زراعة الخشخاش وما ينتجه من الأفيون الذى يعد من أهم صادرات الهند التى تسببت فى الحرب بين الانكليز والصين «وهى الحرب المعروفة بحرب الأفيون» حيث أرغموا الصين على إدخال أفيون الهند إليها . . وتحدث عن زراعة القنب والحبوب الزيتية الكثيرة وعن الشاى ومركز الهند من حيث تجارته وعن خشب السال وما ينتجه من القطران والصمغ وعن شجر التيك (الساج) الذى يتحول بعد حرقه إلى فحم جيد وقد شاهدت كثيراً من أشجار السال تكسو منحدرات جبال الهملايا عند زيارتى لها . كما شاهدت أماكن تحويل الخشب إلى فحم . .

وأشجار الصنوبر تكسو أعالى الجبال كما توجد أشجار البلوط هذا عدا أصناف الفواكه ونباتات المنطقة الحارة التى تنبت بالجنوب . .

وقدشاهدت فى الهند أشجاراً لم أرها فى حياتى كما شاهدت كذلك أزهاراً غريبة فى ألوانها وروائحها . .

وكثير من الفواكه والمحصولات لا نزرعها فى مصر مع اعتقادى أنه يمكن زرعها هنا لو عنينا بزراعتها . .

حيواناتها :

لعل أقرب شىء إلى تصور الانسان حين يذكر الهند هو الفيل وكثيراً ما تسمع فى مصر هذه الجملة «الهند والسند وبلاد تركب الأفيال» ويتفنن الخيال فى هذه الناحية فيصور للانسان أن الأفيال كثيرة فى الهند كثرة الغنم فى مصر . . ولكن سرعان ما يتبدد هذا الخيال عند ما يسير الانسان فى الهند ويمكث فيها كثيراً فلا تصادفه الأفيال التى كان ينتظرها . وقد مكثت أكثر من سنتين ولم أر إلا عدداً قليلا جداً من الأفيال ولا يزيد عن عشرة مع

أنى تنقلت فى أكثر بلاد الهند . . وعرفت أن ثمن الفيل يبلغ أربعة آلاف روبية على الأقل أى ٣٠٠ جنيه وليس هذا هو المهم بل المهم بعد ذلك هو تغذيته التى تتطلب نفقات كثيرة ، وقد كانت من قبل يستخدمها الملوك فى الحروب والزينة كما تستعمل فى حمل الأثقال ولكن ذلك العهد كاد ينقضى أو انقضى بالفعل وأصبحت رؤية الأفيال أو اقتناؤها شيئا نادراً فى الهند ولا يقتنيه إلا الحكومة ويذكر « جوستاف لوبون » من ثلاثة أرباع قرن تقريبا أن الناس يصطادون منها كل سنة نحو مائة بالكمين والفخاخ حتى تكاد تبيد وأكثر ما توجد فى غابات آسام كما يوجد فيها وفى جبال هملايا كثير من الوعول والتيوس والدببة والحيوانات المفترسة وإن كانت الآساد تكاد تبيد كذلك . . أما النمور فكثيرة فى الغابات لايطاردها الناس عادة لما تتمتع به من إحترام الهنود وما تقوم به من افتراس بعض الحيوانات الضارة فى الوقت الذى لا تهجم فيه على أحد . . وإذا صادف النمر وهجم على أحد نتيجة لشدة الجوع فأنه يصبح خطراً بعد ما يتذوق طعم لحم الإنسان إذ أنه لا ينفك عن مهاجمته أينما وجده حتى يخرب بلادا بأكملها ويفتك بالمئات من الناس . ومن العجيب أن النمر يتحول فى هذه الحالة إلى نوع من القداسة التى يمنحها الهندوس لآلهتهم كما يفعلون أكثر من ذلك مع الحية الخطيرة المعروفة « بالكوبرا » إذ يقدسونها نتيجة لما تبعثه فى نفوسهم من الخوف (١) .

وبجوار هذه الحيوانات توجد التماسيح والكركدن والضباع والقردة.. وهذه توجد بكثرة وفى كل مكان تقريبا حيث تعتدى على المزارع والبيوت وكثيرا ما شاهدتها فى أسفارى تعلو القطارات فى المحطات الكبرى وتقفز من أحدها إلى الآخر كما شاهدتها فى دلهى ولكهنو وسهارا نبور وغيرها من المحطات . . وقد حدث لى مرة أننى كنت أضع بجانبى فى القطار شيئاً من الموز وكنت فى محطة « روركى » قادما من « مراد أباد » « إلى سهارا نبور »

---

(١) وقد رأيت المعابد وقد رسم عليها صور كثيرة للحية .

أتحدث مع زميلى فأذا بالقرد يدخل بخفة وسرعة من النافذة ويخطف الموز ولم نحس به إلا وهو خارج ثم وقف بعيدا منا وأخذ يقشره ويأكل وهو ينظر إلينا كأنه يغيظنا ويشمت بنا ومن يدرى لعله يهزأ بالانسان وهو ينظر إلينا .. وبجوار هذه الحيوانات توجد أنواع كثيرة أخرى لا يمكن أن تجدها فى غير الهند فالطاووس يمكن أن تجده كثيراً فى الأراضى يختال بذيله الطويل فى الفضاء . وكنت أنظر إليه وأتصور تلك المرات القليلة التى رأيته فيها فى حديقة الحيوان فى مصر محبوساً داخل الأسوار . . وقد حاول بعض الاصدقاء الذين كنا فى زيارتهم أن يصيدوا لنا منها ولو واحدا وكان قريبا منا فى متناول البندقية لكنهم لم يستطيعوا أن يقربوه لما يتمتع به من تقديس لدى أغلبية سكان المنطقة من الهندوس ، وصيده يجر مشاكل وثورات لا حد لها وربما يعقب ضحايا من المسلمين والهندوس على حد سواء وتساءلت : فكيف تصطادونه إذن ؟ قالوا فى الصحراء حيث لا يعلم الهندوس وبعد ذلك أصطادوا طاووسا كبيرا ولحمه يفضل لحم « الرومى » المعروف فى مصر وأثناء رحلة فى غابات الهملايا مع بعض الأصدقاء من بلدة « بهيت » أصطادوا عدة طواويس وكان عندى واحد ظل فى البيت عدة شهور ، والهند تحرم تصديره أو تصدير ريشة . .

أما الغزلان فكثيراً مارأيناها تعدو أمامنا فى المزارع وهى إن كثرت أتلفت الزرع وضج منها الزراع ، والنسور التى تكثر فى الهند كثرة الغربان فى مصر تجدها فى كل مكان تعلو الشجر بالعشرات أو تتجمع على فريستها التى ألقاها الناس من الحيوانات الميتـه تنهشها وتريح الناس من رائحتها ومن كثير من المواد الضارة فى الأرض ، والحدأة البيضاء الكبيرة الحجم تكثر فى كل مكان ، أما الغربان فهى كالجراد وتكاد تزعجك بأصواتها فى الصباح والمساء ، وكم تجمعت حولنا ونحن نأكل فى حديقه المنزل ، وكثيرا ماكانت تهجم على « هشام » الصغير وتأخذ ما بيده وهو ينازعها وهى تنازعه حتى يستسلم لها وتستولى على ما بيده . .

وفى الصيف تكثر الحشرات وتهجم الثعابين والعقارب على الناس فى بيوتهم . وقد اعتذر تلميذ لى مرة عن حضوره ليلا لأن الحارة التى يسكن فيها يوجد بها ثعبان يهجم على الناس حتى أصاب رجلين . . وفى كل بيت تجد العقارب تمشى وتلدغ من تصادفه .. وقد قتلنا فى البيت فى فصل الصيف نحو خمس وعشرين عقربا كنا نجدها أحياناً بجانبنا ونحن جلوس وربما سعت إلينا ونحن فى السرير[١] وقد أصابنا فزع شديد من هذه الحالة ولكننا رأينا عجباً .. فأن لدغة العقرب لا تفضى إلى الموت كما تشاهد فى مصر .. وكم دهش الذين سمعونا نتحدث عن الموت من لدغتها ، فهم لا يعتبرونها إلا كما نعتبر لدغة الزنبور فى مصر . . وهم يداوونها غالباً بالتعاويذ والتفل على موضعها .

وكنا نكذب أولا مثل هذه الأخبار لكنها تواترت بشكل لا يدعو إلى الشك وفى المكتب حيث كان « محمد » ولدى يحفظ القرآن لدغت العقرب ولداً فأتى ولدى يحدثنى عما فعله « القارى » الذى يحفظهم القرآن وكيف أنه قرأ كلاما ثم تفل على موضع اللدغ فخف الألم وجلس الولد يتابع الحفظ كأنه لم يحدث شىء [٢] .

وبجانب التعاويذ يوجد دواء يحضره الأطباء اليونانيون الذين تشتهر بهم الهند أو تختص بهم ويصنعونه من وضع ذيل العقرب مدة فى الزيت

أما الحشرات الأخرى الصغيرة ولا سيما الطائرة منها فما أكثر أنواعها ولشد ما كانت تضايقنا فى الصيف حتى لنعطل الإنسان عن العمل ليشتغل بكفها بعيدا عنه . . ولكنى كنت مع ذلك أقف مشدوها أمام الفراشات المتعددة الأشكال المتنوعة الألوان الجميلة ، وكان الأولاد يجرون وراءها ويمسكونها ويتفرسون فى أشكالها وكنت أنظر إليها وأرى فى جمالها صنع

---

(١) هكذا كان حالنا فى « ديوبند » البلدة التى كنت أدرس فى كليتها الاسلامية « دار العلوم » .

(٢) وقد قرأت بعد ذلك بحثاً عن العقارب وعرفت أنه يوجد فيها نوعان نوع سام قاتل ونوع آخر لاتفضى لدغته للموت ولعل مافى الهند غالباً من النوع الأخير .

الله الذى أتقن كل شىء . . حقاً إن الهند بلد العجائب .

ومما شاهدته أيضاً نوع من الطيور يسمى « الدراج أو النيتر » وهو نوعان : كبير يتألفه الناس ، ويشبه فى لونه الفراخ الرومى المعروفة فى مصر ، ولو أنه أصغر منها حجما ، وقد أحضرت منه عددا فى البيت إعجابا بشكله وعاش مع الدجاج والبط . . ونوع أصغر منه ويستعمله بعض الناس فى قتال بعضه بعضاً ثم يكسب صاحب الغالب منه الرهان ويتجمع الناس كثيرا لمشاهدة الحرب بين هذين الطائرين . .

وبمناسبة هذا أذكر أيضاً أنى شاهدت كثيرا من الناس يتجمعون حول ما نسميه الحاوى فى مصر يشاهدونه وهو يتولى بأنغام مزماره ترقيص الحيات وقد أبت التقاليد المضروبة على مثلى . أن أشاهد مثل هذا المنظر وهو قريب منى مع شدة رغبتى فى مشاهدته . . وكم وقفت التقاليد بين الإنسان وبين كثير مما يحبه ويشتاق إليه ليرضى رغبة حب الاستطلاع عنده . .

معادنها :

ربما كان ذكر الهند مدعاة لخيال واسع عن ذهبها السيال وغيره من الكنوز التى تتحدث عنها القصص ، وعن الثراء الذى يتحدث عنه التاريخ عندما يقص علينا أنباء الملوك وثرواتهم الذهبية . وسترى فيما سيأتى من أنبائهم أخبارا كثيرة عن الذهب والأحجار الكريمة التى كان الملوك والحكام والأغنياء يزينون بها ملابسهم وتيجانهم ويملئون بها خزائنهم . .

وقد كان ذلك مصدر ثروة فيما مضى . . وإن كان الآن كما يقول جرساف لوبون قد نفد تقريباً . ويوجد خلاف ذلك الحديد ومحاجر الرخام الجيد التى كانت تمد الملوك بما يشيدون به المساجد والمبانى الفخمة وأشهر هذه المحاجر « مكرانه » فى راجبوتانا حيث كانت ولا تزال مصادر الرخام الجيد بأنواعه المختلفة وبجوار ذلك توجد مناجم الفحم الحجرى وجبال الملح كما يسمونها . . وقد كان للملح دور كبير فى حركة التحرير

والعصيان المدنى بالهند حين قام « غاندى » يدعو إلى مقاطعة الإنجليز والاستغناء عن الملح الحكومى » ولا شك أن الطرق الحديثة فى استغلال معادن الأرض تساعد كثيرا على استخراج بعض المعادن التى لم تعرف طريقة استخراجها فيما مضى او تحسين استغلال ماعرف منها من قبل ، حيث أخذت الهند تستغل بشكل واسع مناجم الحديد والمنجنيز وتعد الهند الحديثة ثانى دول العالم فى استخراجه كما تخرج ثلاثة أرباع ما فى حوزة العالم من « الميكا » وهو معدن شفاف من المواد الأساسية فى صناعة الأدوات والأجهزة الكهربائية وتصدر معظم انتاجها منه إلى الولايات المتحدة يضاف إلى ذلك بعض كميات كبيرة من المعادن ذات النشاط الإشعاعى مثل الوريوم والمونازيت ومن المناسب بعد كل هذا أن أذكر هنا ماجاء فى كتاب البلدان لابن الفقيه الهمدانى (ص ٢٥١ طبع ليدن) .

« خص الله تعالى أرض الهند والسند بأنها توجد بها جميع الروائح العطرية والجواهر كالياقوت والماس وغيرها وكذلك الكركدن والفيل والطاووس والعود والعنبر والقرنفل والسنبل والخولجان والدارصينى والنارجيل والهليلة والنوتيا والبقم والخيزارن والصندل وخشب الساج والفلفل الأسود .

صناعتها

على الرغم من أن الهند بلاد زراعية إلا أنه قام بها من قديم عدة صناعات كان أهمها صناعة النسيج فالهند مشهورة به وبأنواع فاخرة منه كانت تصدره إلى أوربا فى عهد الملوك المسلمين وقد كانت الشركة الإنكليزية أول ما جاءت إلى الهند تصدر منها إلى انجلترا البفتة وكثيرا من المنسوجات وكانت أهم مدن الهند فى هذه الصناعة « أحمد أباد » التى لا تزال لها شهرتها للآن وتنتشر المغازل والمناسج اليدوية فى جميع مدن الهند وقراها وإن كان الإنجليز قد حاولوا القضاء عليها ليفسحوا المجال لبضاعتهم فى هذه البلاد الواسعة وسيمر بك الحديث عن هذا فى شىء من التفصيل فى فصول

الكتاب الآتية إن شاء الله ، ومن أهم الصناعات كذلك صناعة الجلود وصناعة الآلات الحديدية التي نمت في عهد الحكم الإنجليزي حتى رأينا الهند تصنع كثيرا مما تحتاج إليه سككها الحديدية وأجهزة السيارات والدراجات وغير ذلك من الأدوات الحديدية هذا بالإضافة إلى صناعة السكر التي تنتشر مصانعها في كافة بلاد الهند وتنتج منه كميات وافرة حتى لتعد أكبر بلاد العالم في إنتاجه . . وكذلك صناعة الجوت الذي تصنع منه الأكياس والزكايب لاستهلاكها وتصدر الفائض منها إلى الخارج وصناعة المطاط الذي تستورده خاماً من البلاد المجاورة فوق ما تنتجه محلياً وتقوم بصنع أشياء متعددة منه .

تجارتها .

ومن المناسب أن نذكر هنا أيضاً أن الهند تصدر كثيرا من منتجاتها الزراعية والصناعية للخارج فهي تصدر الشاى والقطن الخام والمغزول والمنسوجات القطنية والحريرية والعاج وخشب الساج والصندل والروائح العطرية وكثيرا من الحبوب الزيتية والأعشاب الطبية وجوز الهند والتوابل والجوت ومصنوعاته . ولعل مما اشتهرت به الهند من قديم خيراتها الوفيرة التي كانت تصدر إلى البلاد الغربية أعنى التي تقع في الجهة الغربية منها سواء أكانت البلاد العربية أم الإفريقية أم الأوربية وكانت هذه الشهرة مما أسال لعاب الأوربيين وجعلهم يتسابقون إلى الهند ، وكانت تجارتها التي تذهب إلى أوربا مارة بالبلاد العربية ومصر من مصادر ثروة هذه البلاد بما يجبى عليها من ضرائب ، ثم كانت هذه التجارة من عوامل النزاع بين أوربا وبين البلاد العربية ولا سيما مصر ثم بين الدول الأوربية نفسها مثل جنوا والبندقية ومثل أسبانيا والبرتغال وهولندا وانجلترا وفرنسا في استعمار الهند . وكانت صادرات الهند والرغبة في الاستفادة منها سبباً في اكتشاف رأس الرجاء الصالح بل سبباً في اكتشاف الدنيا الجديدة أى الأمريكتين حينما حاول

كولمب . أن يصل إلى الهند عن طريق الاتجاه إلى الغرب بدلا من الشرق . ولمعان اسم الهند وتجارتها فى أوربا فى ذلك الوقت هو الذى سبب كل هذا النشاط ، وهو الذى جعلهم يسمون الجزر التى وصل إليها المكتشفون الأوربيون فى أمريكا باسم جزر الهند الغربية لأنهم ظنوا حينما وصلوا إليها أنها هى الهند .

وهكذا كان اسم الهند وما يحيط بها من أفكار ضوءاً لامعاً يجذب إليها الأنظار مما سبب لها الاستعمار الإنجليزى ذلك الاستعمار الذى ظلت ترزح تحته طويلا وكبدها ما كبدها من متاعب وأهوال ، وكان استعمار الهند مدعاة لأن يؤمن الإنجليز طرقهم إليها فعمدوا إلى استعمار مصر ، ومداخل البحر الأحمر فى عدن والشواطىء الشرقية لأفريقية ثم الشواطىء الجنوبية لجزيرة العرب التى لاتزال تئن من هذا الاستعمار للآن رغم تخلص الهند منه . .

حضارة الهند

تعتبر الهند من الأمم ذات الحضارة القديمة بحيث تزامل فى حضارتها حضارات مصر وبابل وآشور واليونان ، ويقول المؤرخون حين يبحثون فى بدء تاريخ هذه الحضارة إنها بدأت قبل الميلاد بنحو أربعة آلاف سنة فى حوض السند وهو أقرب مكان فى الهند لتلك البلاد ذات الحضارة القديمة ومع ذلك يعجز المؤرخون عن الإتيان بمعارف كاملة متسلسلة عن تاريخ الهند منذ هذه الحقبة .

يقول جوستاف لوبون (١) : « ليس للهند القديمة تاريخ وليس فى كتبها وثائق عن ماضيها ولا تقوم مبانيها مقام الكتب مادامت لاتزيد فى القدم عن ثلاثة قرون قبل الميلاد ، ولولا ما فى قليل من الكتب الدينية من أكداس الأساطير التى تستشف منها الحوادث التاريخية لظل ماضى الهند

(١) ص ٥٠ ، حضارة الهند تعريب عادل زعيتر .

مجهولا ، وأقدم المصادر التى يرجع إليها فى تبين أثر الماضى المفقود أشعار الفيدا الدينية التى كتبت فى أدوار مختلفة والتى تصل فى القدم إلى ماقبل القرن الخامس عشر قبل الميلاد » على أن كثيراً من الآثار التى كشف عنها المنقبون يمكن أن تعطينا صورة عن تاريخ الهند وحضارتها القديمة فقد رأيت آثاراً لأشوكا عند منبع جمنا وهو الذى حكم الهند الشمالية قبل الميلاد بنحو قرنين ونصف ، كما رأيت أثناء زيارتى لـ « بتنا » عاصمة ولاية « بهار » آثاراً ترجع إلى عهده أيضاً حيث كانت « باتلى بوترا » عاصمة أشوكا وهى فى مكان « بتنا » تقريباً كما شاهدت آثار جامعته « نالندا » القديمة التى يقولون أنها كانت تتسع لأكثر من عشرة آلاف طالب والتى تعلم فيها بوذا . . ولذا أقامت حكومة الهند الحالية بجانبها معهداً للبحوث فى الآداب القديمة ولاسيما البوذية منها ، وقد زرته واطلعت على كثير من الكتب النادرة الموجودة فيه والتى استجلبت هى أو صورها من أمكنة متعددة ، وفى المعهد كثير من الطلاب الشرقيين الذين أتوا من بورما وسيام والصين وغيرها ليبحثوا فى آداب البوذية ويعيشون فى بساطة حيث يقيم أكثرهم فى خيام حول مبنى المعهد ذلك المبنى الوحيد فى المنطقة مما جعلنى أسجل إعجابى بهم فى دفتر الزيارات .

الغزو الآرى .

يقول المؤرخون إنه على الرغم من أن الهند محاطة بحواجز طبيعية عزلتها عن العالم على مر السنين إلا أنها تعرضت للغزو دائماً من الغرب حيث توجد الممرات التى تصلها بالدول الغربية منها ، فقد غزاها الآريون المنحدرون من أواسط آسيا قبل الميلاد بنحو ألفى سنة ، ولو أن بعض المؤرخين يرجع ذلك إلى أكثر من أربعة آلاف سنة ، كما غزوا أوربا كذلك . . .

وقد كان لهذه القبائل أثر كبير فى تاريخ الهند إذ يعزى إليها تكوين

اللغة السنسكريتية التى يقول علماء اللغات إنها تشبه اللغات الأوربية القديمة مثل اللاتينى ولغة القوط كما تشبه الفارسية القديمة مما جعلهم يحكمون بأن أصلها جميعاً واحد . . وقد تولد من استعلاء الآريين الفاتحين على سكان الهند الأصليين ومن احتكاكهم بهم تلك التقاليد الهندوسية التى اعتبرت على مر التاريخ دينا يدين به الهنود ويلتزمون بآدابه . .

« والهندوسية أسلوب فى الحياة كامل أكثر مما هى مجموعة من العقائد والمعتقدات وتاريخها يوضح استيعابها لشتى المعتقدات والفرائض والسنن وليست لها صيغ محددة المعالم ولذا تشمل من العقائد ما يهبط إلى عبادة الأحجار والأشجار وما يرتفع إلى التجريدات الفلسفية الدقيقة [1]

غزو الاسكندر .

فى سنة ٣٢٧ قبل الميلاد وصل الإسكندر الأكبر المقدونى إلى أرض الهند بعد ما فتح كل البلاد التى فى طريقه من اليونان إلى الهند وأخضعها لحكمه ، وقد دخل الهند من أرض السند حيث يوجد الطريق الطبيعى الذى يتخذه الغزاة دائماً لغزو الهند وأخضع الإسكندر جزءاً كبيراً من أرضها بعد ما هزم ملوكها . ثم توقف عن الغزو وعاد أدراجه نحو الغرب بعد أن ترك حاميات له فى البلاد المفتوحة .

« ولو نظرنا إلى غزوة الإسكندر من ناحية الفتح لقلنا إنها غير ذات نتائج سياسية لتلاشى الحاميات الإغريقية التى تركها فى أرض الهند فى بضع سنين بيد أنه كان لها نتائج طيبة من ناحية وصلها الهند بأوربا لأول مرة » .

وينبرى لهذا الحكم أحد الكتاب الهنود [2] ويثبت أن الهند كان لها اتصال بالغرب قبل غزوة الإسكندر ويبرهن على هذا بأدلة من التاريخ إلى أن يقول » وينتهى بنا كل ذلك إلى أن الهند قد عرفت الأغريق عن

---

(١) الهند والغرب ص ١٨

(٢) الأستاذ بوذا بركاش فى مجلة ثقافة الهند عدد سبتمبر سنة ١٩٥٠ .

طريق فارس كما عرف الأغريق الهند عن طريقها أيضاً ، ولقد كانت الأقاليم الغربية لنهر السند تكون جزءاً من الامبراطورية الفارسية فى عهد « دارا » ثم فى عهد ابنه ، كما اشترك الهنود فى الجيش الذى قاده ابن دارا إلى اليونان وقد وصف « هيردوت » جنود هذه الحملة بأنهم كانوا يحملون أقواساً من الغاب وحراباً قصيرة ، وأن الهنود منهم كانوا يرتدون بزات من القطن ويحملون أقواساً من الخيزران، وسهاماً ذات رءوس مصنوعة من الحديد .

« ولقد عمل هذا الاحتكاك بين الأغريق والهنود على النفات الهند نحو اليونان ، وكما نقل الأغريق إلى بلاده أقاصيص الهند وأساطيرها التى سمعها فى البلاط الفارسى فقد شرع الهنود يهتمون بالأغريق . ويحدثنا « أرسطو » عن فلاسفة من الهند قدموا إلى أثينا لمحاورة سقراط ومناقشته فى المشاكل الفلسفية التى يعالجها المفكر اليونانى » . ونحن من جانبنا يمكن أن نقول إنه كانت هناك صلة بين الهند والأغريق ، ولكن هذه الصلة قد زادت واتسعت بعد غز الإسكندر ، ذلك الاتساع الذى نلمسه فى عدة مظاهر . أهمها ذلك التصاهر الذى حدث بين الهند والإغريق ، فهناك دلائل تثبت أن « تشاندارجوبتامورا » أحد ملوك الهند قد زوج ابنته من الإسكندر الأكبر توددأ له وتحالفاً ، ويسجل التاريخ أن خلف الإسكندر فى سوريا وبلاد بابل وهو « سيلوكس »[1] زوج ابنته من « تشاندرا جوبتامورا » طمعاً فى مساعدتى وعونه »[2] كما أن ملك سوريا هذا أرسل سفيراً إلى بلاط « تشاندرا » اسمه « ميغاستين » فأقام هـذا السفير فى العاصمة الهندية زمناً طويلا، وكان هذا الاتصال الوثيق باعثاً لأحد الضباط الأغريق « بتروكايس » إلى الارتحال للهند والكتابة عنها ، على أن الاتصال بين الهند والدول الواقعة فى الغرب منها قد اتسع أكثر من ذلك أيام امبراطور الهند

---

(١) ذكره كتاب حضارة الهند ص ٢١ باسم نيكاتوز السلوقي

(٢) ثقافة الهند سبتمبر سنة ١٩٥٠

الشمالية « أشوكا »(١) ذلك الإمبراطور الذى ولى الحكم فى سنة ٢٥٠ قبل الميلاد ، واعتنق البوذية ، وأصبح من أهم دعاتها فى الداخل والخارج ، فأرسل بعثات التبشير البوذية إلى اليونان ومصر وسوريا وشمال إفريقيا ، للتبشير برسالة الحب والسلام والتعالى عن الألم ، تلك المبادىء التى بشر بها بوذا . وقامت بجانب هذه البعثات الرسمية بعثات دينية بوذية أخرى من قبل المؤسسات الدينية البوذية ، لتواصل جهودها فى تلك البلاد الغربية وتبشر برسالة الدين البوذى ، حتى أصبح لهم مكان مرموق فى هذه البلاد ، مما كان له أثره فى بعض الأفكار الفلسفية التى نشأت فيها .. ومما يلاحظه الإنسان بكثير من الدهشة ذلك التشابه الحاصل فيما يقوله أتباع بوذا عنه ، وفيما يقوله أتباع عيسى عليه السلام عنه كذلك مما سنبسط فيه القول إن شاء الله عند حديثنا الخاص عن البوذية :

وأعتقد أنه من الضرورى بعد هذا أن أحدثك عن حالة الهند الاجتماعية ولا سيما الأديان الشائعة فيها من قبل الإسلام لتأخذ فكرة عنها مادمت تريد الوقوف على تاريخ الهند . والأديان فيها تفعل فعلها فى حياة الناس اليومية ، ومعاملتهم بعضهم لبعض ، حتى يقول جوستاف لوبون(٢) : « إن المعتقدات الدينية فى الهند هى أساس جميع النظم الاجتماعية فما فى الهند من نظم اجتماعية ليس بالحقيقة إلا نظماً دينية »

وسترى صدق ذلك فيما يأتى :

---

(١) ويقول جوستاف لوبون فى كتابه حضارة الهند ص ٢١٢ : إن خلفاء الدولة الأغريقية البقطريانية التى أقامها نيكاتور السلوقى فتحوا البنجاب وشادوا عدة ممالك ووصلوا إلى « مترا » وأن أفاقاً اسم ميناندر أسس سنة ١٢٦ ق م مملكة بين نهر جمنة ومصب نهر « نربدا » .

(٢) ص ٢٥٥ فى كتابه حضارة الهند السابق .

شعوب فى شعب واحد

تحدثنا فيما سبق عن مساحة الهند الكبيرة وعن تباين المناخ فيها حسب قربها وبعدها من خط الاستواء وحسب ارتفاعها وانخفاضها وحسب تحكم الجبال والصحارى فى تكييف جوها وحسب تأثير البحر ورياحه التى تهب عليها .

ونضيف إلى ذلك أن سكان الهند يختلفون فى ألوان بشرتهم حيث نجد اللون الأسود غالباً فى الجنوب فإذا سرنا نحو الشمال وجدنا اللون القمحى هو الغالب حتى إذا وصلنا إلى نهاية الشمال وجدنا السكان يمتازون ببياض البشرة كما فى كشمير . .

وقد كانت مساحة الهند الواسعة وتعرضها للغزاة الذين وفدوا عليها من الغرب سببا فى اختلاف الناس كذلك فى الأجناس التى ينتسبون اليها .

وقد تكون هذه الاختلافات السابقة هينة بجانب اختلاف السكان فى اللغة والدين ، فان تباين لغات السكان ولهجاتهم يلمسه كل زائر للهند كما يلمسه سكان الهند أنفسهم الذين يستحيل عليهم التفاهم مع أبناء وطنهم متى غادروا دلهى مثلا ليزوروا الكجرات أو المليبار أو مدراس أو بنغال أو البنجاب أو آسام أو التبت أو بلوخستان أو غير ذلك من المناطق . ويقول العلامة « جوستاف لوبون » : « إن فى الهند ٢٤٠ لغة ونحو ٣٠٠ لهجة ما عدا اللغة الفارسية والبهلوية والصينية والإنجليزية والسنسكريتية ولو أن الأخيرة لا تجد رجلاً واحداً يتكلم بها فى قضاء حاجاته وهى لغة كتب الهند القديمة التى لا يعرفها إلا قلة من البراهمة لمعرفة الكتب المقدسة فقط » وهذا الكلام قد قيل بشأن السنسكريتية منذ ثلاثة أرباع قرن . أما الآن وبعد استقلال الهند فقد عملت الحكومة الهندية على بعث السنسكريتية من مرقدها وذلك بالاقتباس منها فى اللغة الهندية التى جعلتها اللغة الرسمية بجانب الانجليزية وفرضت تعليمها فى مدارسها . وألفت بها عدة كتب ، كما جعلت

بعض الاذاعات بها ، ووضعت النشيد الوطنى بها أيضاً . ومما لمسته أن الأغلبية العظمى من الهنود لا يفهمون جيداً هذه اللغة فيسمعون الاذاعة أو النشيد الوطنى وكأنهم يسمعون لغة أجنبية . وإذا كانت اللغات قد بلغت هذا العدد الضخم فى الهند فان اللغة الأوردية الحديثة التكوين هى التى تحظى أكثر من كل اللغات بعدد أكبر من السكان نسبيا ، ويسميها جوستاف لوبون اللغة الهندوستانية ، يتكلم بها المسلم وغيره على السواء » وقد تكونت فى عهد المغول من اختلاط الفاتحين الذين كانوا يتكلمون ألسنة متعددة منها العربية والفارسية والتركية فنشأت من اختلاطهم بسكان البلاد الأصليين لغة جديدة تتكون من الفارسية والعربية والهندية والتركية أيضاً ، ثم دخلت فيها ألفاظ كثيرة من الانجليزية بعد الاحتلال الانجليزى . . لأنها لغة قام تكوينها على خليط من اللغات فهى لذلك لا ترفض أية كلمة أو أى اصطلاح يأتى من أية لغة أخرى ويصير بعد دخوله فيها لغة أوردية و « أوردو » معناها « معسكر » أى أن اللغة الأوردية كانت لغة العسكر ، لغة الجنود الفاتحين الذين اضطروا إلى خلط عدة لغات بعضها ببعض : لفظ من هنا ولفظ من هناك ليستطيعوا التفاهم ، وقد أخذت هذه اللغة تنمو بتشجيع الملوك المسلمين حتى صارت اللغة الرسمية للدولة المغولية وصارت لغة عدد كبير من الشعب مسلمين وغير مسلمين . وهى الآن بعد استقلال الهند قد نحيت عن مكانتها الرسمية السابقة وأبت الحكومة المركزية وبعض حكومات الولايات أن تجعلها لغة من لغاتها وأخذت الحكومة تزحزحها عن الحياة لتحل محلها اللغة الهندية .

ويجاهد المسلمون جهاداً مستمراً للاعتراف بها ولو فى حكومات الاقاليم الشمالية مثل « أوتر برادش » ولكنهم يلقون للآن صدودا عن الاستماع إلى صوتهم . وقد سمعت من أحد كبار المثقفين المسلمين (١) إن رئيس وزراء « أوتر برادش » ينكر أهمية اللغة الأوردية فى الهند بينما هو فى

---

(١) فى أغسطس ١٩٥٦ .

إنكاره هذا وفى خطبه فى المجتمعات هو وجميع وزراء الحكومة حين يخاطبون الشعب يستعملون اللغة الأوردية ! ! . حتى قال « نهرو » فى هذا الصدد مدافعاً عن الأوردية ومتهكما بالمعارضين لها « إن المخالفين للأوردية يخالفونها بالأورديه » ورأى « نهرو » لا يلزم الحكومات المحلية وبرلماناتها المعارضة للأوردية ، وقد حضرت عدة حفلات بمناسبة تأميم قناة السويس وكان أكثرها من الهندوس فوجدت اللغة الأوردية هى لغة الشعر ولغة الخطابة ولغة الحديث .(١)

وحضرت اجتماع المجلس النيابى لحكومة « بيهار » فلاحظت أن النواب حين يخطبون يختار كل واحد اللغة التى يريدها، فسمعت الأوردية والانجليزية والهندية فى جلسة واحدة .

ولا شك أن اللغة الأوردية تجابه مستقبلا شاقا وتجابه الذخيرة العظيمة من الكتب التى وضعت بها فى مختلف العلوم والفنون مثل هذا المستقبل . ومن المعروف أن اللغة الأوردية هى اللغة الثالثة بعد العربية والفارسية فى تدوين الكتب الإسلامية مع حداثة عهدها . . وإذا كان هذا هو حال الأوردية فى حكومة الهند الحاضرة بعد الاستقلال فأنها فى الباكستان الدولة الإسلامية هى اللغة الرسمية ..

ولكى نتصور مسألة اختلاف اللغات وتعددها فى الهند أذكر لك عدد اللغات التى تذيع بها محطة الهند بعد التقسيم وهى اللغات الهامة التى عنيت الحكومة بالأذاعة بها .. فقد جاء فى مجلة الثقافة الهندية عدد مارس ١٩٥٣ « إن هيئة إذاعة عموم الهند تذيع بست عشرة لغة وعشرين لهجة فى إذاعتها المحلية » ولا شك أنها قبل التقسيم كانت أكثر من هذا مراعاة لسكان الجزء الغربى من الهند الذى يكون باكستان الآن بما فيها من بلوخستان والقبائل الجبلية .

---

(١) ومما هو جدير بالذكر أن بعض الحكومات الفرعية فى الولايات اعترفت بالأوردية فى لغاتها مثل بومباى وأندرا ومدراس .

وقد كان عدم وجود لغة متفق عليها بين الهنود مساعداً للانجليز فى فرض لغتهم فى جميع الهند وجعلها اللغة الرسمية العامة حتى صار لها فى الهند مكاناً ممتازاً وأصبحت هى اللغة العامة التى يستطيع أى هندى التفاهم بها مع أخيه الهندى ولو اختلفت لغتهم الوطنية .

تلك هى الاختلافات بين القوم فى اللغة . .

الاختلاف فى الدين

أما الدين فهم مختلفون فيه أيضاً ولو أنه لا يبلغ فى الكثرة مبلغ اللغات فالأديان المشهورة فى الهند هى الهندوسية والإسلام والبوذية والسيكية . والمسيحية بجوار مذاهب أتباعها قليلون جداً . .

والهندوسية أقدم هذه الأديان فى الهند تليها البوذية التى انتشرت قبل الميلاد بنحو خمسمائة سنة ثم الإسلام ثم السيكية ثم المسيحية التى بدأت تنتشر فى الهند مع بعثات الغرب التجارية وبعد دخول الانكليز واهتمامهم بنشرها وهى فى الجنوب أكثر من الشمال . وهذا لا ينفى أنه كان لليهودية والمسيحية بعض أتباع قليلين قبل الإسلام .

ويكون الاختلاف فى الدين فوارق كبيرة بين سكان الهند لا يكونه الاختلاف فى اللغة لمكانة الدين من التأثير على النفوس فى العادات والعقائد حتى لنشعر بالتفاوت البعيد بين أبناء الوطن الواحد فى أفكارهم وعقائدهم وعاداتهم بل ومظاهرهم التى كثيراً ما تفضح ديانتهم وطقوسهم . .

وسنتكلم إن شاء الله فى شيء من التفصيل عن هذه الأديان لا سيما المحلية التى نتجت فى الهند والتى تعتبر غريبة عن القارىء العربى .

وسكان الهند قبل التقسيم كانوا نحو ٤٣٥ مليون والهندوس هم أكثر السكان إذ يبلغون الثلثين « حوالى ثلثمائة مليون » يليهم المسلمون الذين يبلغون المائة مليون مسلم وتجد بجانب هذا نسباً صغيرة من البوذيين والمسيحيين والسيخ (١) .

---

(١) تكتب سيك وسيخ ومعناها المريدون .

وإن الإنسان ليحتار حين ينظر إلى اختلاف الهنود في ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم وأديانهم وطبائعهم وعاداتهم ويتساءل كيف يتكون من هذا الخليط شعب واحد .

إن الحقيقة الواقعة أنه لا رابطة بين سكان الهند جميعا إلا الإسم فقط ثم تجدهم بعد ذلك يتفرقون ويكونون جماعات أو أجناساً ظلت على مر السنين متباعدة بعضها عن بعض كل يحارب الآخر ليفنيه . وكل يعتز بجنسه وخصائصه ويشعر بالفارق البعيد بينه وبين الآخرين . وقد يكونون مع ذلك متفقين في الدين لكن الطبقة وخصائصها مقدمة في نظرتهم على كل اعتبار . . وهذا يصدق أكثر ما يكون على أتباع الهندوسية . وإن كنا نجد له شبيهاً بين المسلمين حيث قسموا أنفسهم إلى طبقات من حيث نسبتها للأفغان أو المغول أو أحد الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان أو آل البيت من نسل علي رضي الله عنهم أجمعين . . بحيث صار من عدا هؤلاء في نظرهم أحط منهم شأناً حتى لا تجوز مصاهرتهم . وسنذكر ذلك بالتفصيل إن شاء الله . .

ولم تشعر الهند كلها بوحدة سياسية كتلك التي شعرت بها تحت حكم الإنجليز . وإن كان الحكم الإسلامي في عهد « أورنكزيب » آخر ملوك المغول الكبار قد كاد يوحد الهند كلها تحت سلطانه إلا أنه بقيت ولاية في الجنوب لم تخضع له . أما في عهد الإنجليز فقد خضعت الهند كلها لسيطرتهم حتى أصبح الحاكم الإنجليزي العام في دلهي يسيطر على الحكم في جميع أنحاء الهند . ولكن هذه الوحدة السياسية تحت حكم الإنجليز قد انتهت وتحولت الوحدة الهندية نفسها الآن تحت حكم أبنائها وإن كانت انقسمت إلى دولتين . ورب ضارة نافعة . كما يقولون . .

الاديان فى الهند قبل دخول الاسلام

الهندوسية .

سبق أن قلنا إن الديانة الهندوسية عبارة عن تقاليد وأوضاع تولدت من تنظيم الآريين لحياتهم بعد ما وفدوا على الهند واستعمروها وتغلبوا على سكانها الأصليين وطردوهم من ميادين الحياة . .

وأعظم وأقدم كتبهم التى تقوم عليها طقوسهم ويستمدون منها عقائدهم أربعة يرجع تاريخ أقدمها إلى ٤٠٠٠ سنة ق . م . وبعضها إلى حوالى ١٢٠٠ ق . م[١] . وهذه الكتب أربعة .

(١) رگڤيدا[٢] (٢) سام ڤيدا : وهما يشتملان على مجموعات من الأناشيد التى كانوا ينشدونها فى تقديم القرابين للإلهة . .

(٣) يگر ڤيدا وتشتمل على الصلوات والأدعية شعراً ونثراً .

(٤) « أتهرْڤيدا[١] » يصف عقائد الجمهور فى الأرواح الشريرة والرقى والسحر وهو آخر مجموعة من هذه الكتب . ولذا ظل مدة غير معترف به فهو لا يلقى ما تلقاه الكتب الثلاثة السابقة من التقديس[٢] . .

---

(١) المسألة الهندية ص ٤٧ نقلا عن المؤرخ الهندى « تيلاك » وإن كان المؤرخ « مكس موللر » يري أنها ألفت قبل الميلاد بألف سنة كما فى حضارة الهند ص ٢٥٧

(٢) Rigveda معنى « فيدا » مقدس . والفاء تنطق بثلاث نقط فوقها « ورك » بالكاف الفارسية التى بين الجيم والكاف وتشبه نطق القاهرين بالجيم . . ولذلك ترى بعضهم يعربها إلى الجيم كما فى كتاب المسألة الهندوسية لعبد الله حسين وبعضهم إلى الغين كما فى كتاب حضارة الهند أما الفاء ذات الثلاث نقط فبعضهم يعربها بالفاء ، وبعضهم بالواو . . وكثيراً ما تقرأ فى الكتب « الرغ ويدا » العصر الويدي . الفيدا العصر الفيدى . وذلك ناشيء من عدم وجود الفاء ذات الثلاث نقط أو الكاف الفارسية فى اللغة العربية .

(٣) الهاء هنا تنطق مخطوفة كأنها غير موجودة وهي غالبة فى اللغة السنسكرية واللغة الأوردية والتاء مفتوحة والراء ساكنة .

(٤) تاريخ الهند لسيد هاشم ص ١٧ والمسألة الهندية ٤٧ لعبد الله حسين .

وقد لخص جوستاف لوبون المعتقدات التي جاءت في هذه الكتب كما يأتي :

(١) عبادة قوى الطبيعة . (٢) تشخص هذه القوى بأسماء الآلهة . (٣) اعتقاد خلود الروح[١] (٤) عبادة الأجداد (٥) الميل إلى اخضاع الطبيعة والناس والآلهة لإله واحد أقوى منها وهو الآله « اندرا »[٢]، على العموم . (٦) أساس الدين أو حقيقته تنحصر في تبادل الإنسان قرابينه ويقدم فواكهه وأن تمنحه الآلهة الكثر واليسر والمطر المبارك والصحة والكنوز .

ويمضى هذا المؤرخ الاجتماعي في تحليل هذه الأصول والاستشهاد لها ثم يتحدث عن حضارة هؤلاء الآريين التي قامت على أساس كتبهم ويختم حديثه بقوله . « إنك لا تبصر حضارة تساوت هي وحضارتهم في النشوء فاستطاعت أن تتخلص مثلها من بقايا الهمجية الأولى . وإنك إذا قايست بين الشعب الآرى والشعب اليهودى الذى مثل دوراً كبيراً في العالم وجدت ذلك أعلى من هذا ففي تاريخ بني إسرائيل ترى مالا ترى له أثراً في كتب الآريين من الأكاذيب وكفران النعمة والجبن والنذالة والتجبر والبهيمية وسفك الدماء والخرافية الضاربة[٣] .

فكرة الطبقات

وقد بدأت الإشارة إلى الطبقات التي قامت عليها الحياة الاجتماعية للهندوس في الڤيدا ، ومن المهم أن نقول إن هذا التقسيم جاء أولا نتيجة طبيعية لتوزيع الأعمال على الناس في المجتمع . فقد اقتضت حياتهم أن يقوم بعض الناس بالطقوس الدينية بينما يقوم الآخرون بالحروب وكان

---

(١) على أساس فكرة التناسخ . .
(٢) سبق أن نقلنا أن بعض المؤرخين يرى أن اسم الهند مشتق من اسم هذا الآله
(٣) صفحات ٢٨٣ ، ٢٨٨ ، ٢٩٦ .

من الطبيعى أن توجد جماعة تقوم بالعمل فى الحقول ومطالب الحياة حتى يتفرغ الكهان والمحاربون لعملهم ؛ وبالتدريج وجدت الطبقة الرابعة وهى طائفة « الشودرا » التى هى أخس الطبقات والتى عرفت عند كتاب العربية بالطائفة المنبوذة .

وكانت الفواصل بين الطبقات غير واسعة فى مبدأ حياة هؤلاء ، ثم أخذت على مر الأيام تتسع وتتشكل ويوضع لها نظام وحدود . . عنيت بها الكتب التى شرحت هذه الكتب المقدسة وبينت خصائصها ووظائفها وحظها فى الحياة . . وأهم هذه الشروح ذلك الشرح الذى قام به « منو مهارشي [1] »

ومن شروحه وتقنيناته ننقل لك ما نتعرف به على الأوضاع الهندوسية للحياة الاجتماعية ، وقد جاءت هذه الروح فى العصور المتأخرة قبل الميلاد بحوالى خمسة قرون أو ثلاثة على خلاف بين المؤرخين وعلى هذا الأساس الذى وضحه « منو » وقعده قامت الحياة الهندوسية إلى الآن . .

جاء فى شرائع « منو » تحديد الطوائف فى الحياة الهندوسية الاجتماعية هكذا : (١) طائفة البراهمة أى الكهان . (٢) طائفة الاكشترية (وهى الطائفة المحاربة) . (٣) طائفة الفيشية (وهى طائفة الزراع والتجار التى توفر مسائل العيش للكهان والمحاربين) . (٤) وطائفة الشودرا (وهى أسفل الطبقات وليس لها مهنة خاصة ولم يعترف لها بعمل إلا خدمة الطوائف السابقة فى أخس حاجاتها . وهى طائفة المنبوذين وعلى الرجل أن يتزوج من طائفته أو من طائفة أدنى منها [2] . ولكن للرجل

---

(١) معناه : منو الولى الكبير » فإن « منو » معناها فى اللغة السنسكريتية عظيم أو كبير و « رشي » معناها الولي .

(٢) سبب سماحهم للرجل بأن يتزوج من طبقة أدنى منه اعتقادهم بأن الولد يرث أباه فى خصائصه وذلك قاصر على الطبقات الثلاث الأولى كما يتبين مما ذكر بعده .

الذى يتزوج بواحدة من « الشودرا » يصبح مفضوحاً مهتوك الستر ، ويطرد من طائفته ، ويصيبه خزى فى الدنيا والآخرة . فإنه لا يتزوج نساء الشودرا إلا رجال من الشودرا .

ويمكن للبرهمى أن يتزوج امرأة أكشترية أو من الڤيشية ولا عكس[(١)] أى لا يصح للمرأة من طبقة عالية أن تتزوج من طبقة أقل منها ، لأنها حينئذ تلد أولاداً يرثون صفات أبيهم التى هى أقل من صفات طبقة أمهم .

أما الفكرة التى أقاموا عليها هذه الطبقات وجعلوها من المعتقدات فهى كما جاءت فى شريعة « منو » : — « أراد الرب المولى تكاثر الجنس البشرى فخلق من فمه البراهمة ، ومن ذراعه الاكشتريه ، ومن فخذه الڤيشيه ومن رجله الشودرا . . وأراد دوام هذا الجنس فجعل لكل واحدة من هذه الطبقات أعمالا خاصة . . فعهد إلى البراهمة فى درس أسفار الڤيدا وتعليمها وتقريب القربان ، وإدارة ضحايا الآخرين والعطاء والأخذ ، وفرض على الأكشترية حماية الشعب وممارسة الإحسان والتضحية ، وتلاوة الكتب المقدسة وعدم الانهماك فى الشهوات . . وخص الڤيشية بتربية المواشى وإيتاء الزكاة والتضحية ، ودراسة الكتب المقدسة والتجارة والربا والحرث الخ . وأوجب على الشودرا عملا واحداً فقط وهو خدمة تلك الطبقات » .

« ونار جهنم هى دار البرهمى الذى يتزوج امرأة من الشودرا . فإذا ولد له ولد طرد من البراهمة » .

ويعيش البراهمة على ما يقدم لهم من القرابين والهدايا ، وإن كان يؤذن لهم فى حالة الحاجة بالقيام ببعض الوظائف وأعمال التجارة .

« يؤجر الواهب مرة لهبته المال لغير البرهمى ، ويؤجر مرتين على

---

(١) حضارة الهند [illegible]

هيبته الرجل يزعم أنه برهمى ، ويؤجر مائة ألف مرة على هيبته لبرهمى متبحر فى كتب الڤيدا ، ويؤجر أجراً لاحد له على هيبته لبرهمى متبتل فى علم اللاهوت » .

« كل مافى هذا العالم ملك البرهمى ، وللبرهمى حق فى كل موجود بسبب النسب » .

« ولن يدنس البرهمى صاحب الرگڤيدا بذنب ، ولو قتل أهل العوالم الثلاثة »

« وليتجنب الملك قتل برهمى ولو اقترف جميع الجرائم » .

وقد حددت شريعة « منو » العلاقة بين البراهمة والأكشترية حيث قالت « لافلاح للأكشترية بغير البراهمة ، ولا ارتقاء للبراهمة بغير الأكشترية « فتانك الطائفتان إذا مااتحدتا كتب لهما الفوز فى الدارين » .

« ويجب أن يعد البرهمى أباً للأكشترية ، ولو كان عمر البرهمى عشر سنوات وعمر الأكشترى مائة سنة » .

أما الڤيشية وهم الزراع والتجار فهم أقل مرتبة من الأكشترية ، لأنهم وإن كان يجرى فيهم الدم الآرى إلا أنه قليل . . ومنزلتهم من البراهمة هى منزلة الفخذ من الرأس ، وأين ذاك من هذا ؟ !

أما الشودرا : فلا يجرى فيهم الدم الآرى مطلقاً ، فهم من سكان البلاد الأصليين ، وهم خطر على الدم الآرى ، ولذلك وجب أن تتحاماهم الطبقات الثلاثة كما يتحامى الإنسان المرض الخبيث ، ومن هنا جاء التشديد فى شريعة « منو » فى عدم الزواج منهم ، أو محاولة الارتفاع بهم عن طبقتهم السفلى ، حتى لايحدثوا أنفسهم يوماً من الأيام برفعة تسول لهم الزواج من الطبقات العليا . . جاء فى شريعة « منو » .

« يجب على الشودرى أن يمتثل امتثالا مطلقاً أوامر البراهمة » .

« خدمة الشودرى للبراهمة هى أفضل عمل يحمد عليه » .

« لا يجوز للشودرى أن يجمع ثروة زائدة ولو كان على ذلك من القادرين فالشودرى إذا جمع مالا آذى البراهمة بقحته » .

« تقطع يد ابن الطبقة الدنيا إذا علا من هو أعلى منه بيده أو عصاه وتقطع رجله إذا رفسه برجله حين الغضب » .

« وإذا ما دعاه باسمه أو اسم طائفته متهكما أدخل إلى فمه خنجر محمى مثلوث النصل طوله عشرة قراريط » .

« ويأمر الملك بصب زيت حار فى فمه وفى أذنيه إذا بلغ من الوقاحة ما يبدى به رأيا للبراهمة فى أمور وظائفهم » .

« ومن يك ذا علاقات برجل منبوذ أسقط فى نهاية سنة ، ولو كانت العلاقة عن طريق قراءة الكتاب المقدس معه ، ولو كان فى الركوب معه فى مركبة واحدة ، أو الجلوس معه على متكأ واحد أو الأكل معه على خوان واحد » .

على هذا الأساس الذى وضعته الكتب الدينية الهندوسية قامت الحياة الاجتماعية للهندوس . . وظلت كذلك عبر القرون تزداد كل يوم شدة وتمكيناً وتزداد كل طبقة إيماناً بموقفها من غيرها حتى رأيت طبقة الشودرا[1] « المنبوذين » وكأنهم أشد إيماناً بذلتهم من غيرهم فهم لا يسكنون مع بقية الأهالى ، ولكنهم يتخذون لهم مساكن فى أطراف البلد فى غاية الحقارة والضعة ، ولا يحاولون أن يرتفعوا عن وضعهم ، والجهل بينهم متمكن اللهم إلا بعد أن انتشر التعليم حيث استطاع جماعة قليلة منهم المتعلم ومن هنا بدءوا يشعرون بمكانهم المهين فى المجتمع وأخذوا يفكرون فى تغييره .

جاء واحد من هؤلاء إلى بيتى للخدمة التى يمارسها وطلب ماء ليشرب ، فأعطيته الكوب وأنا بعيد الذهن عن فكرة الطبقات . . . ولكن سرعان ما دهشت حين امتنع عن لمسها وابتعد عنى وأشار إلى أن أصب الماء فى يده وهو يشرب ، وعبثاً حاولت إفهامه أن يشرب من الكوب فإنى لا أعتقد أنه نجس . . فقد كانت عدم معرفتى بلغتهم حائلا بينى وبين حسن

---

(١) معنى كلمة الشودرا ، فى اللغة السنسكريتية : المتروك . المهمل . المنبوذ ويسمون فى اللغة الأوردية « مهانكي » أو «أجهوت» مع حذف الهاء في النطق كأنها هكذا «أتشوت»

تفهيمه ولو أن الأشارات أفادت نوعا لـكنه لم يقتنع ففعلت ما أراد . . وكنت كلما اقتربت بالـكوب من يده حتى لا يقع المـاء على الأرض ابتعد هو بيده خوفا من أن يلمس الـكوب ، وتـكررت هذه الحادثة مرة أخرى حين جاءت خادمة من هؤلاء لعملها ، وكنا فى الصيف فطلبت الماء لتشرب فذهبت إليها بنتى «أمال» الصغيرة بالـكوب، وناولتها إياها، ولـكنها امتنعت، ثم أشارت إليها أن تصب الماء فى كفها وأثناء صب المـاء فزعت المنبوذة وارتعدت وابتعدت . فلما تبينت الأمر علمت أن البنت قربت الـكوب منها حتى كادت تلمسها ففرت هى من ذلك على هذه الصورة فتعجبت ، بل رأيت ما هو أكثر، فإن « طلمبة » الماء فى البيت لا تستطيع أن تلمسها لتخرج بها الماء، فإذا أرادت ماء منها نادت أحداً طاهراً يديرلها «الطلمبة» لتتلقى هى الماء من بعيد وتشرب حتى لا تنجس الحديد الذى يلمسه الأطهار . . وقد أيقنت من هذا أن هؤلاء استقر فى طبعهم الذل ، واعتقدوا فى أنفسهم النجاسة بمرور عشرات القرون ، ومن الأسف أن المسلمين يعاملونهم كما يعاملهم الهندوس تماماً دون أن يشعروهم بأنسانيتهم ويفهموهم ألا فرق بينهم . . ان « ديوبند » مثلا نصفها مسلمون ، ولو أن مثل هذه المرأة أو هذا الرجل وجدوا من المسلمين من يشعرهم بأنه لا غضاضة من مثل الشرب من كوبهم أو مجالستهم لما استغربوا من أن تقدم لهم الـكوب ولما امتنعوا عن قبوله بهذه الصورة . .

وأعتقد أن هؤلاء لو وجدوا من المسلمين معاملة تشعرهم بقيمتهم على خلاف معاملة الهندوس لهم لأقبل كثير منهم على الإسلام ولـكن المسلمين تأثروا بمعاملة الهندوس لهم فعاملوهم مثلهم . . على أن الحكام المسلمين الذين حكموا الهند أكثر من ثمانية قرون لو وجهوا عنـايتهم إلى إنصاف هؤلاء لأمكن لهم أن يعتنقوا غرضهم . فقد كانت الدوله الإسلامية حينذاك قادرة على أن تسن لهم القوانين التى ترفع مستواهم ، وتفتح لهم المدارس ، وتعاونهم بالمال ، وتعاملهم معاملة حسنة تشعرهم بما فى الإسلام من حرية

ومساواة وإخاء وحينئذ كان من الممكن أن يقبلوا على الإسلام وهم عشرات الملايين ولكن لم يتجه الحكام لمثل هذا فظل المنبوذون كاهم منذ أن حكمت عليهم شريعة « منو » بأن يبقوا داخل نطاق طائفتهم لا يخرجون عنها ولا يرتفعون إلى غيرها . الأولاد يرثون الآباء فى ضعتهم ومهانتهم ومهنتهم ، ولا ننكر مع هذا أن بعض هؤلاء المنبوذين دخلوا الاسلام بفضل بعض الجهود الفردية للمسلمين فوجدوا معاملة طيبة وكانوا هم وجميع المسلمين سواء إلا فى ناحية الزواج [1] . .

ودليلنا على هذا أن هؤلاء حينما تعلموا وتفتحت عيون المتعلمين منهم إلى مكانتهم الوضيعة فى المجتمع هالهم أمرهم وثاروا على الوضع الذى هم فيه ورفعوا أصواتهم مطالبين بتغييره أو الخروج من الديانة الهندوسية التى تحكم عليهم هذا الحكم القاسى منذ عشرات أو آلاف القرون . . وحينئذ بدأ الناس حولهم يبحثون ويفكرون فى الطرق التى ينبغى اتخاذها لأرضائهم لكى يظلوا فى الديانة الهندوسية أو ليجذبوهم إلى ديانة أخرى يجدون فيها ما يطلبون من الإنصاف . .

وأذكر بهذه المناسبة البعثة الأزهرية التى أوفدها الأزهر سنة ١٩٣٦ إلى الهند لتبحث فى شأن المنبوذين بمناسبة ما أشيع من عزمهم على تغيير دينهم ، وكانت البعثة برئاسة المرحوم الشيخ إبراهيم الجبالى وعضوية المرحومين الشيخ عبد الوهاب النجار والشيخ محمد أحمد العدوى وسكرتيرية المرحوم الأستاذ حبيب أحمد . وقد مكثت البعثة فى الهند عدة شهور تتصل بالمهتمين بالشؤون الإسلامية وتبحث معهم فى إمكانيات العمل الذى يستطيع الأزهر أن يقدمه لهذه الطائفة ترغيباً لها فى الإسلام .

---

(١) تتحكم فكرة الطبقات بين المسلمين فى ناحية الزواج على الأخص ، فهم إما صديق أو فاروق أو عثمانى أو سيد نسبة إلى الخلفاء الأربعة أو أنصاري نسبة لواحد من الأنصار أو أفغانى . . أو مغولى وهذه هى الطبقات العليا ، وتصاهر كل طبقة داخل نطاقها غالبا ، ولا يصاهرون سواهم ، إذ يعتبرونهم غير أكفاء لهم . .

ومما تجدر الإشارة إليه أن البعثة لم تخرج بنتيجة عملية فأنه لم يكن من المعقول أن مصر ببعثاتها أو بماليتها الضعيفة تستطيع أن تؤثر فى هذا العدد الضخم وتجذبه للاسلام بالخطب فى مدة وجيزة بينما كان المسلمون فى الهند عدة قرون فى غفلة عن هذا الأمر بل إنهم كما سبق أن قلت كانوا عاملا منفراً من الإسلام بمعاملتهم السيئة للمنبوذين اللهم إلا بعض أفراد كان لهم جهود ذكرها تقرير بعثة الأزهر ولكنها جهود كانت كذرة فى محيط . . وكان أمل البعثة وكبار المسلمين المعنيين بهذا الأمر معلقا على رئيس المنبوذين الدكتور « امبيدكار » ولكن هذا بدا وسط تيارات تجذبه هنا وهناك فظهر كأنه يتلاعب بالجميع ويختار الورقة الرابحة هنا أو هنا وانتهى الأمر بعدم اعتناقه الإسلام واتجاهه أخيراً نحو البوذية . .

ويحسن بنا أن نستعين هنا بدراسة البعثة حول هذا الموضوع لكى تأخذ صورة شاملة عن هذه الطائفة التى لا يوجد لها نظير فى العالم كله برغم عددها الكبير الذى يزيد على ٦٠ مليوناً من الأنفس . .

فقد جاء فى التقرير ص ٧٧ عن جهود المسلمين لتحويل هذه الطائفة للاسلام « وثمت أمر واحد لا شك فيه هو أن المسلمين لم يحاولوا — قبل العصر الحديث — أن يدخلوا المنبوذين خصيصاً فى الإسلام ولو عنوا بذلك فى وقت من الأوقات لأسلم المنبوذون كافة منذ أجيال » ثم يقول عن جهود جمعيات التبشير المسيحية مع هؤلاء « كان المنبوذون هم الهدف المقصود من أعمال المبشرين ، ولذلك ركزوا جهودهم فى هذه الناحية . . ويصح أن يقال إن بعثات التبشير المسيحية قد جنت ثمرة طيبة فى كفاحها الطويل بين المنبوذين ». وكان نجاحها فى ملابار ومدراس كثيراً كما شاهدت ذلك حين رحلتى فى الجنوب .

ثم يتحدث التقرير عن انتشار التعليم فى عهد الاحتلال البريطانى للهند حيث أتيحت الفرصة لبعض المنبوذين أن يتعلموا فتفتحت عيونهم لما هم فيه من ضعة وبدءوا يهددون بترك الديانة الهندوسية ليجدوا حظهم فى الحياة

كغيرهم وهنا يتنبه بعض رجال الهندوس من ذوى المدارك العالية للخطر السياسى الذى يترتب على انفصال هؤلاء من الهندوسيه وانضمامهم إلى دين آخر من ديانات الهند، إذ أن عدد الهندوس ونفوذهم سيقل تبعا لذلك فيقوم جماعة منهم بدور المصلحين، ويأخذون فى العمل لرفع مستوى هذه الطائفة، وكان على رأس هؤلاء مستر «غاندى» الزعيم الهندى الكبير حيث أراد أن يحمل حزب المؤتمر الوطنى والمجلس التشريعى على اتخاذ قرار بالغاء فكرة النبذ، ولكنه أخفق أمام هجمات الهندوس عليه حتى اضطر لسحبه من المجلس.. وهنا نجد المنبوذين يلجئون إلى القوة فى تحطيم القيود المفروضة عليهم حيث حاولوا عدة مرات اقتحام المعابد المحرم عليهم دخولها ولكن البوليس كان يطاردهم فى كل مرة ويحمى هذه المعابد من نجاستهم..

وقد كان «غاندى» أكثر الناس شعوراً بخطر انفصال المنبوذين عن الهندوس، لذلك رأيناه يصوم حينما قرر الانجليز فى إحدى المؤتمرات بينهم وبين الهند أن يمنحوا المنبوذين مقاعد مستقلة ويجعلوهم طائفة لها كيانها الخاص البعيد عن الهندوس، فشعر أن هذا هو بدء التفرقة التى ستضعف شأن الهندوس سياسياً، فقرر الصيام حتى يرجع الإنجليز عن هذا الرأى، ويتنازل المنبوذون عن فكرة الطائفة المستقلة فى مقابل زيادة عددهم فى المجلس التشريعى.. وقد قبل المنبوذون هذا الرأى ورجع غاندى عن صيامه وكسبوا بذلك مكسباً جديداً. وبالرغم من ذلك ظلت حالتهم كما هى دون تغيير يذكر مهما بلغوا من الثقافة، ولقد واجه زعيمهم الدكتور «امبيدكار»(١) — وهو من كبار المحامين ومن خيرة المثقفين — موقفاً صعباً لأنه من طائفة المنبوذين، فعند ما انتخب عميداً لكلية الحقوق فى بومباى سنة ١٩٣٥ ثارت ثائرة الهندوس لا لشىء إلا لأنه منبوذ مع أنه من أكفأ رجال القانون وكان زعيم الطائفة المتكلم باسمها فى عدة مؤتمرات فى «لندن»،

(١) توفى قريباً واعتنق البوذية قبل وفاته وكان يشغل منصب وزير العدل أخيراً.

وفى عدة مفاوضات واجتماعات بينه وبين رجال حزب المؤتمر فى الهند . ومع كل هذا ثار الهندوس لتعيينه عميداً لـكلية الحقوق .

ولهذا عقد المنبوذون اجتماعا عاما فى اكتوبر سنة ١٩٣٥ حضره عشرة آلاف منهم، وتولى رياسته الدكتور « أمبيدكار » حيث بين للحاضرين أن الطريق الوحيد لعلاج النبذ هو الانسلاخ من الهندوسية إلى دين يضمن لهم الحرية والمساواة . . وقد أعلن المنبوذون فى كل مكان الموافقة على هذا الرأى . وهنا اضطرب الهندوس اضطرابا شديداً لما يترتب على هذا من ضعف قوتهم السياسية بينما يزداد غيرهم ممن يدخل هؤلاء فى دينهم قوة . . وطلب زعماؤهم منه أن يتريث فى تنفيذ هذا القرار . أما أصحاب الديانات الأخرى فقد ظن كل منهم أنهم سيكسبون هذا العدد بجانبهم وأخذوا يتنافسون فى استمالة زعماء المنبوذين إليهم بالمال والبيان . . فسعى إليهم زعماء السيك وجمعوا تبرعات لمساعدتهم فى إنشاء مدارس ومصانع . . كما سعى إليهم المسلمون وبينوا لهم مافى الإسلام من حرية ومساواة وارتفاع بشئونهم فى المجتمع ، وكذلك فعلت جمعيات التبشير المسيحية ولـكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل ، وذلك لأنه كانت هناك عوامل تحول بين المنبوذين وبين تنفيذ قرارهم ، فهم يعيشون على خدمة الهندوس غالبا فإن خرجوا من الهندوسية فقدوا مصدر رزقهم ولم يجدوا عوضا عنه حيث لم يكن فى وسع المسلمين ولاالسيك ولا الجمعيات التبشيرية أن يهيئوا المعيشة الطيبة لهذا العدد الضخم فى جميع أنحاء الهند . . كما أن زعماء المنبوذين الذين قرروا من قبل الخروج من الهندوسية دخل كثير منهم الانتخابات وهم لايستطيعون الحصول على أصوات الهندوس إذاهم تمسكوا بقرارهم ، ولذلك كله تلاشت هذه الحركة وتضاءلت وخفتت الأصوات القوية التى كانت تنادى من قبل بالانفصال الجماعى ، ومع هذا فقد أسلم عدد قليل منهم لاسيما من منبوذى الجنوب فى مليبار وعلى رأسهم الدكتور طايل الذى سمى نفسه بعد

إسلامه «كمال باشا طايل» وأبدى مع بعض زعماء المسلمين نشاطاً ملموساً في دعوة أبناء جنسه إلى الاسلام .

وكان من أثر هذه الحركة من المنبوذين أن أحس زعماء الهندوس بالخطر إذا تحول هؤلاء عن الهندوسية وبدءوا يفكرون في تخفيف حدة النبذ وكان «غاندى» على رأس المجاهدين في هذا الصدد ، فألف جماعة سماها «جماعة خدمة المنبوذين» ، وأخذ يجمع لهم التبرعات ، وينشئ لهم المصانع الصغيرة والمدارس لتعليمهم ، وأنفق الهندوس بسخاء في هذه الناحية . وإذا كنا لانستطيع إغفال الجانب الإنسانى فى جهاد «غاندى» هذا فأنه لايمكننا كذلك أن نغفل أن الناحية السياسية والعصبية الهندوسية كانتا من أكبر الدوافع له على القيام بما فعل نحو المنبوذين ، وقد أثمر اتجاه غاندى فى تقريب المنبوذين وإعطائهم بعض الحقوق فرأينا المدارس المتعددة تفتح لهم ، ورأينا الحكومة الهندية بعد الاستقلال ترحب بهم فى وظائفها بل وتفضلهم على غيرهم أحياناً ، ورأينا بعضهم يرتقون إلى مناصب الوزارة ورأينا الدستور الهندى الحديث يقوم على التسوية العامة بين جميع المواطنين فى الحقوق والواجبات لافرق بين برهمى ومنبوذ ، ورأيناه يجعل ممارسة العبادة فى المعابد حقاً للجميع دون تفرقه بحيث يعاقب من يخل بهذا القانون . وقد علمت أن بعض البراهمة اشتدوا فى محاربة هذه الفكرة ، ولما وجدوا أنفسهم أمام الأمر الواقع ، وأن منع المنبوذين من دخول المعابد يعتبر مخالفة للقانون تركوا هم المعابد ولم يدخلوها . . . وقد حضرت حفلة فى «ديوبند» (١). قدم لى القائمون بأمرها رئيس المنبوذين فيها وقد دعى إلى هذه الحفلة التى جمعت وجوه البلدة ، وكان من قبل رئيساً للبلدية .

وليس معنى هذا أن الدولة بزعمائها وقوانينها . قضت على هذه الفكرة

(١) البلدة التى كنت أقوم بالتدريس فى كليتها الاسلامية التى تسمى دار العلوم وهى أكبر دار للدراسات الاسلامية فى الهند وباكستان والبلاد الآسيويه الشرقية وتقع شمال دلهى بنحو ٩٠ ميلا .

التى ظلت قائمة فى الهند آلاف القرون ملتصقة بعقائدهم الدينية ؛ إذ أنه من الصعب أن يقضى على فكرة كهذه فى وقت قصير بالقرانين . . وأعتقد أن هذه الطائفة ستبقى هكذا أو قريباً مما كانت مادامت حرفة الزبالة والمهن الحقيرة القذرة قاصرة عليهم فى الهند . . وما دام الهندوس يتلون صباح مساء كتبهم المقدسة التى أسست لهم هذا النظام الذى لايوجد مثله فى أى دين أو مجتمع .

إن أقسى القلوب لتحس بالإشفاق لما يعانيه هؤلاء المساكين من احتقار، وأعتقد أنه لاتوجد جماعة فى العالم ترهق بما يرهق به هؤلاء من ازدراء . . ولا يستطيع أى إنسان أن يحس إحساساً حقيقياً بحالة هؤلاء إلا إذا رآهم وشاهد وعرف عن قرب مايلاقونه من هوان ، إن أى قارئ عربى لا يستطيع أن يتصور المهانة التى كان فيها هؤلاء والتى لا يزالون يرزحون تحتها . . كان الواحد منهم لايستطيع أن يقابل هندوسيا برهمياً فى الطريق ، وكان عليه أن يجلس ويدير ظهره للطريق إذا مر به هذا الهندوسى. فحتى مجرد النظر كان محرما !! إنهم حقاً فى حاجة إلى رثاء ، وإن من واجب الحكومة الهندية كحكومة متمدنة متحضرة أن ترفع عن هؤلاء إصرهم والأغلال المضروبة عليهم ، وأن تعمل على إنقاذ هؤلاء أولا من المهن الحقيرة التى يزاولونها ، وهى جمع القذارات المتخلفة من الإنسان صباحاً ومساء، فأن الطريقة البدائية التى يتبعها أهل الهند فى بيوت الخلاء المكشوفة(١) التى تقتضى أن يأتى المنبوذ أو المنبوذة مرتين فى اليوم ليجمع فضلات الإنسان فيها ويحملها تحت إبطه فى سلة مكشوفة ليرميها فى أطراف البلدة . هذه الطريقة يجب أن يقضى عليها ، فأنها من أسباب شقاء هؤلاء المساكين واستقذارهم فوق ماهم فيه ، ويجب أن تبحث الحكومة عن أعمال نظيفة ومهن غير مستقذرة لهم أولا كثرهم ، حيث إن تنظيف البيوت الآن وقف

---

(١) فهى مثل « الكوانين » المعروفة فى الريف وتراها عندهم فى الريف وفى المدن كذلك ، ولكنها تختفي فى المبانى الحديثة بالمدن الان .

عليهم ، فلو أننا غيرنا نظام دورات المياه عما هى عليه الآن لما كانت هناك حاجة إلى هذا الجيش الذى يتردد على البيوت صباح مساء ويملأ الطرقات فى كل مدينة وقرية ، ويصبح من واجب الحكومة حينئذ أن تهيء لهم العمل المناسب بعيداً عن هذه القذارة التى يزاولونها الآن .

أعتقد أنه بهذا يمكن التدرج مع الزمن فى القضاء على هذه السبة وتلك الوصمة ، فأن ستين مليوناً أو أكثر ليس عدداً بسيطا من السهل إغفاله وتركه كالسائمة أو أقل ...

ومن المناسب ونحن فى آخر الكلام عن هؤلاء المساكين أن أنقل لك هنا إحصاء عنهم كما دونه تقرير بعثة الأزهر وقالت إنه يرجع لأحصاء رسمى يرجع إلى سنة ١٩٣٠ . . وهو وان لم يبين الحقيقة كما هى لزيادة العدد الآن عما هو مدون لكنه مما لا شك فيه يعطينا فكرة واسعة عنهم . سواء فيما يختص بعددهم أو نسبة المتعلمين فيهم حتى هذه السنة قال : يبلغ عدد المنبوذين وفق آخر إحصاء رسمى صدر منذ ست سنوات : ٥٠و١٩٥و٧٧٠ نسمة أى بنسبة ١٤٪ من مجموع سكان الهند و بنسبة ٢١٪ من تعداد الهندوس العام .. وتختلف نسبتهم إلى عامة السكان ثم إلى الهندوس بين إقليم وآخر وفيما يلى بيان ذلك : —

فى الهند البريطانيه

الأقاليم	عدد المنبوذين	الأقاليم	عدد المنبوذين
الولايات المتحدة (اوتربرديش)	١١ر٣٢٢ر٠٠٠		
مدراس	٧و٢٣٤و٠٠٠		
بنغال	٦و٩٠٠و٠٠٠	البنجاب	١و٢٨٠و٠٠٠
بهار وأوريسا	٥و٧٧٤و٠٠٠	دلهى	٧٣و٠٠٠
الولايات الوسطى وبرار	٢و١١٨و٠٠٠	أجمير ومروار	٦٧و٠٠٠
آسام	١و٨٢٩و٠٠٠	كرج	٦٥و٠٠٠
بومباى	١و٧٥٠و٠٠٠	بلوخستان	٠٥و٧٠٠

مقاطعة الحدود	٥٠٠و٥	إمارات الهند الغربية	٠٠٠و٣١٨
جزائر أندمان ونيكوبار	١٠و٥	الولايات الوسطى	٠٠٠و٢٥٣
فى الأمارات		« المتحدة	٠٠٠و٣٠٩
حيدر أباد	٠٠٠و٤٧٣و٢	برودا	٠٠٠و٢٠٩
ترافنكور	٠٠٠و٧٧٠و١	كشمير	٠٠٠و١٧٠
راچبوتانا	٠٠٠و٥٦٥و١	كوچين	٠٠٠و١٢٥
ميسور	٠٠٠و٠٠٠و١	إمارات مدراس	٠٠٠و٦٥
إمارات الهند الوسطى	٠٠٠و٧٨٠	« بنغال	٠٠٠و٣١
إمارات بهار وأوريسا	٠٠٠و٦٣٢	سخيم	٠٠٠و٢
إمارات البنجاب	٠٠٠و٣٩٣	إمارات آسام	٤٠٠و١
إمارات بومباى	٠٠٠و٣٤٩	« الحدود	٥٤٠
		« بلوخستان	٠٢٠

ذلك هو عدد المنبوذين فى أنحاء الهند أخذا من الإحصاء الرسمى الذى أجرى منذ نحو ٢٥ سنة ولا شك أن عددهم قد ازداد كما ازداد عدد السكان جميعاً ..

أما نسبة التعليم بينهم فيمكن أن نتبينها بوجه عام من هذا الأحصاء عن بعض الولايات .

فى ترافنكور	فى الألف	١٤٩
« إمارات آسام	« «	١٢٩
« « برودا	« «	١٠٣
« بلوخستان	« «	٦٩
« بنغال	« «	٥٠
« إمارة كوچين	« «	٤٨
« مقاطعة الحدود	« «	٣٦
« إمارات مدراس	« «	٣٥

فى آسام	فى الألف	٣١
« بومباى	« «	٢٨
« إمارات بومباى	« «	٢٨
« « بلوخستان	« «	٢٥
« أجمير	« «	٢٢
« إمارات الهند الغربية	« «	١٩

أما بقية الولايات والأمارات فأن نسبة التعليم فيها تتضاءل بين المنبوذين حتى تصل فى بعضها إلى ٢ فى الألف .

وهذه النسبة قد زادت الآن طبعا للجهود التى بذلت لتخفيف وطأة الاضطهاد عن هؤلاء وإتاحة الفرصة لهم للتعلم . . ومع ذلك فأن كل إنسان يشعر أنهم لا يأخذون حقوقهم كأناس من بنى آدم يجب على مواطنيهم أن يسمحوا لهم بالحقوق التى يتمتعون هم بها . . وأن يعملوا ما وسعهم على تنفيذ القوانين التى تسنها الحكومة لصالح هؤلاء حتى يعيش هذا العدد الضخم كما يعيش بنو آدم فى العالم ويساهموا فى نهضة وطنهم بأعمالهم الفكرية والصناعية والزراعية وغير ذلك من نواحى الأعمال ، لأن الحكم بالموت على هذا العدد الضخم يعتبر أقسى حكم يصدره شعب على شعب آخر فما بالنا إذا تصورنا أنه حكم يصدر من جزء من الشعب على جزئه الآخر . . إن الذى يبعثنى على التطويل فى هذا وربما التكرار هو ما أحسه من الألم لهؤلاء حين رأيتهم ، وما أشعر به من فداحة الخسارة على الشعب الهندى حين يقسو على هؤلاء ويعزلهم عن ركب الحياة ، ويحكم عليهم بالشلل الفكرى والعلمى والصناعى . .

وإذا كانت الحكومة قد أدت شيئا من واجبها وبقى عليها أشياء ، فعلى الشعب الهندى أن يفسح صدره لما تعمله الحكومة ويشجعها على النهوض بهم ففى ذلك الخير لهم جميعاً ولسمعتهم وسمعة وطنهم ، وقبل أن تطالب الهند والشعب الهندى حكومة جنوب افريقيا بعدم التفرقة بين الملونين والبيض

فى المعاملة ، عليها أن تعمل هى وشعبها على عدم التفرقة بين الهنود أنفسهم فى المعاملة ، ليضربوا المثل بذلك على ديمقراطية صحيحة وفهم سليم لمقتضيات الحياة فى العصر الحديث عصر الحرية والأخاء والمساواة . .

وإن أى إنسان لا يستطيع أن ينسى جهاد « غاندى » وإخوانه وتلامذته فى هذا السبيل مهما كان الدافع لهم على هذا الجهاد ؛ فإن المهم أن يصل هؤلاء إلى الحقوق التى يتمتع بها الآخرون . .

تحية للمجاهدين فى سبيل النهوض بهؤلاء المساكين . . وتحية لهؤلاء المساكين أنفسهم . وعفوا إذا أطلت فى الحديث عن هؤلاء ولعل من المناسب بعد هذا أن نتابع البحث فى ديانة الهند .

المذاهب والآلهة الهندوسيه :

تبلورت الديانة الهندوسية ذات الآلهة التى لاحد لها إلى آلهة ثلاثة . .

(١) الأله شيڤا « Shiva » (٢) الأله ڤشنو « Vishnu » (٣) براهما ! أما الأله شيڤا فهو إله الحياة والتبديل ، وأما « ڤشنو » فهو الحافظ ، وأما « براهما » فهو البارىء الخالق . . وهو أعلاها (١) .

وبجوار ذلك نشأ مذهب آخر هو المذهب الجينى . . مستقل عن الديانة الهندوسية . ونكتفى برسم صورة سريعة عن هذه المذاهب .

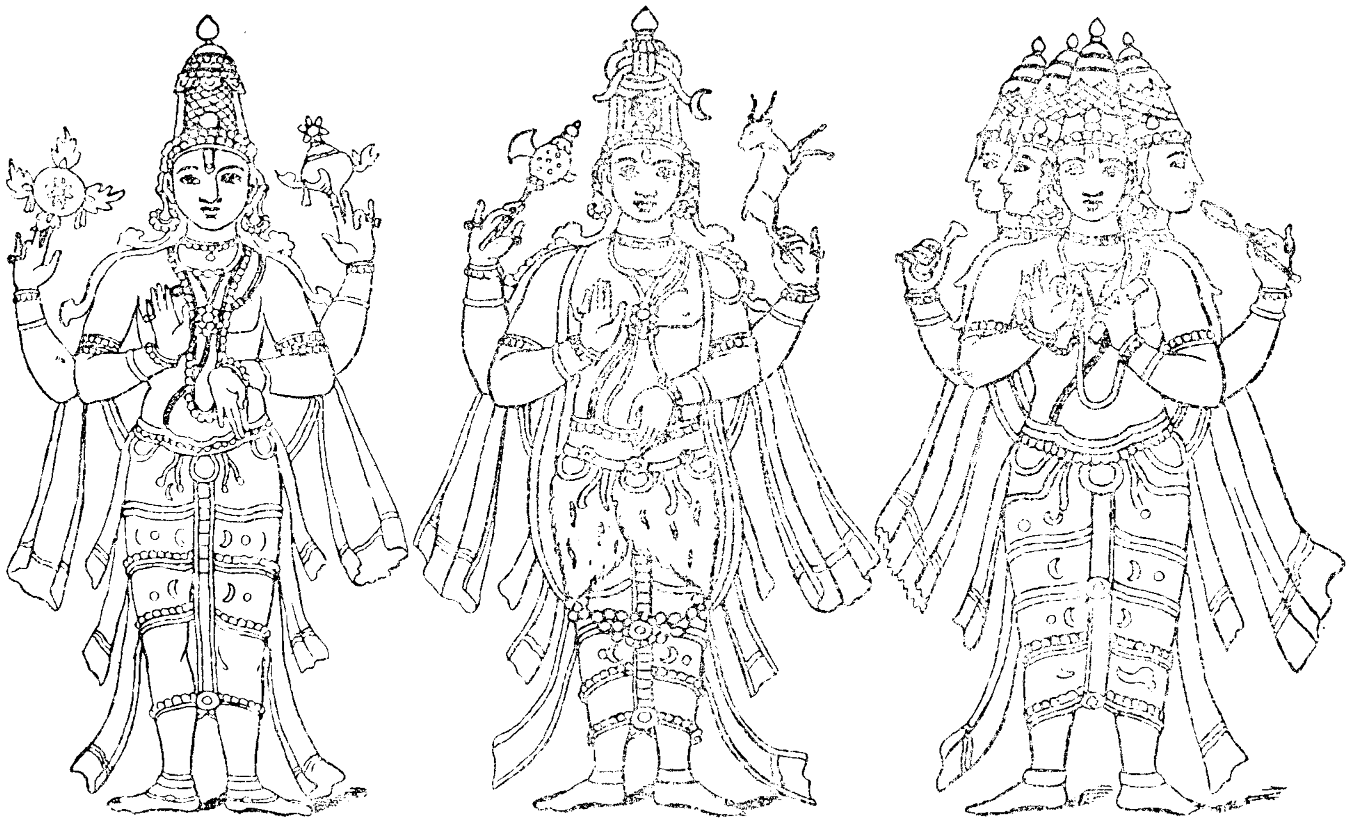
الشيڤى :

هو المذهب الذى يعبد أتباعه الأله شيڤا المختص بالأبادة والموت ، أو على فكرتهم فى التناسخ هو المختص بالتبديل والتحويل إذ أنه لاموت حقيقياً

---

(١) والفكرة التى تقوم عليها عبادة الهندوس كما حدثنى غير واحد منهم أن الله واحد ولكنه حل فى شيفا وفشنو . . الخ وقال لى كاهن إننا لانستطيع تصور المجرد ولذلك رمزنا للاله بهذه الرموز التى سميناها آلهة حتى يمكن تصوره والتوجه له . وقال لى بعضهم إن فكرتنا قريبة من فكرة المسيحين عن حلول روح الأله فى عيسى . وكل فرقة منهم اعتقدت فى حلول الاله فى واحد فعبدوه . وهذا تفسير المثقفين لا العوام .

صور آلهة الهنود كما جاءت فى كتبهم



براهما — شيڤا — ڤشنو

« الصورة مأخوذة عن مجلة ثقافة الهند »

عندهم .. ولم يكتف أتباع هذا المذهب بعبادة الأله « شيڤا» بل أنهم أخذوا يخترعون له أو بمعنى أصح لعمله واختصاصه رموزا ترمز اليه ويعبدونها وقد أداهم فكرهم إلى أن يتخذوا عضوى التناسل فى الرجل والمرأة رمزين لهذا الأله ويعبدوهما بعد أن يقيموا لها تماثيل فى معابدهم « فظهر المذهب القضيبي الذى اتخذ عبادة شيڤا فى صورة عضو التوليد موضوعا له فترى جميع معابدهم مملوءة بهذا الرمز ، ويحملون عليهم تصاوير صغيرة له من ذهب أو فضة على الدوام فيقبلونها بين حين وحين مصلين لها ، وعضو التذكير يمثل الآله شيڤا وعضو التأنيث يمثل زوجته « پاروتى أوكالى » أى إلهة الحياة والموت والأم التى خرج العالم منها (١) .

ويقول جوستاف لوبون تعليقاً على هذا « ولا تجد عبادة أدت إلى مناظر مخالفة للذوق والأدب كعبادة « كالى » الهائلة . . ولا يزال يرى فى معابدها من الفحشاء والمنكر والدعارة ما يستحيل وصفه (٢)

وأكثر ما يكون عباد « شيڤا » وأتباعه فى الوسط والجنوب « وحين قام محمود الغزنوى بغزو الهند سنة ١٠٠١ م كان يوجد اثنا عشر معبدا مشهوراً لتقديس هذا الرمز » (٣) وأتباع شيڤا يخططون على جبهاتهم عادة ثلاثة خطوط أفقية من الزعفران وغيره هكذا « ☰ »

الڤشني

هذا المذهب الذى يعبد أتباعه الإله Vishnu « ڤشنو » إله الحفظ والحب والجمال . .

ولما كان من طبيعة الهندوس أنهم يميلون إلى تمثيل المعانى فى صور حسية لما يدعونه من عدم قدرتهم على تعقل المعانى العليا وإدراكها ، وأنهم لهذا يدعون أن الإله يحل فى صور مادية يتخذونها معبودات لهم ويقدسونها تقديسهم للأله نفسه ، وغالبا ماينسى الناس الأصل ، ويتجهون بكل تفكيرهم وعبادتهم إلى الرمز قال منشئو هذا المذهب إن الأله « ڤشنو » يمكن أن

---

(١) ، (٢) ، (٣) حضارة الهند ص ٦٠٣ ، ٦٠٤

يحل فى كل عظيم وبطل من الإنسان أو الحيوان ، ويضاف حينئذ إلى قائمة المعبودات التى لاتنتهى . . وأشهر ماعرف عندهم من الأبطال الذين حل فيهم الأله « ڤشنو » : راما ، وكرشنا ، فراما هذا إنسان تحول إلى إله معبود بعد أن حل « ڤشنو » فيه ، وتورد كتبهم قصته ، ونحن حين نقرؤها يأخذنا الإعجاب بخيالها الذى يفوق خيال قصص ألف ليلة وليلة، ولكن ماجاء فيها من البطولة الخيالية لراما كان مدعاة لعبادة الناس له ، ولا بأس أن نضع أمام القراء صورة مختصرة لهذه القصة معتمدين على ماجاء عنها فى كتاب حضارة الهند[1] وغيره .

كان ملك الجن المقيمين فى سيلان قد عبث بالكهان فسخطت عليه الآلهة، وعقدت مجلساً لانقاذ البشر منه ، ورأت أن يتجسد أحدها فى صورة إنسان ليقهر ملك الجن « راونا » فتجسد « ڤشنو » فى صورة البطل «راما» وحدث أن اعتدى ملك الجن على زوجة «راما» وهى « سيتا » حيث خطفها من الهند إلى بلاده ، ومع ذلك ظلت وفية مخلصة فى حبها له ويجتهد « راما » لمعرفة مكان زوجته المحبوبة «سيتا» ليسترد ها ويتعب فى ذلك حتى يتقدم أحد القرود فيكشف له عن مكانها ، فيهجم «راما» بمساعدة القرود والدببة على ملك الجن ، ويقضى عليه، ويعود بزوجته راكبين المركبة السحرية حتى وصلا إلى الهند وانتصر بذلك العرق الآرى ممثلا فى «راما» فأصبح معبوداً ومعه «سيتا» منذ ذلك الوقت .

وقد أصبح القرد بسبب هذه المعاونة التى أسداها إلى « راما » من الحيوانات المقدسة[2] وأصبح تاريخ استرجاع « سيتا » وانتصار « راما »

---

(١) ص ٤٦١ وقد وجدت فى مطالعاتى شبها قويا بين أساطير الهنود وأساطير قدماء المصريين حول آلهتهم . وقد انقرضت أساطير قدماء المصريين ولم يبق لها وجود إلا فى باطن الكتب بينما ظلت الأساطير الهندية للآن مسيطرة على عقول الهنود كأصل من أصول دياناتهم .

(٢) ذكرت الصحف أخيرا أن الحكومة الهندية اعتذرت عن عدم تصدير القرود للخارج لما فى ذلك من مصادرة لعقيدة الشعب .

عيداً دينياً يحتفل به الڤشنويون كل عام . . وقد شاهدت احتفالهم بهذا العيد ورأيتهم يطوفون البلدة والكهان فى مركبة كتلك المركبة التى ركبها « راما » فى عودته مع « سيتا » للهند . . و بيوتهم ومعابدهم ممتلئة بصور وتماثيل لهذا وتلك ، ويقومون فى كل صباح يقدمون خضوعهم لهذه الصور أو التماثيل المعلقة فى بيوتهم ثم يذهبون لأعمالهم .

وبجوار « راما وسيتا » يأتى بطل آخر حل فيه « ڤشنو » فصار معبوداً كذلك وهو « كرشنا » « Krishna » وبطولته تتمثل فى الحب واجتذاب قلوب النساء إليه حتى فتن به ، وأصبح هو مع « راما » يمثلان عاطفة قوية من عواطف الهندوس ، هى عواطف الحب والوفاء والعشق والغرام ، فأصبحا لذلك مهوى أفئدة العاشقين ، الوالهين ومهوى أفئدة الأمهات المحبات العطوفات . . ويعلق العلامة جوستاف لوبوف على هذا فيقول [١] :

«وما فى ديانة « ڤشنو » من الغرام يأتى فى الهند ذات الجو المحرق وذات السكان الملتهبى المزاج بنتائج مخالفة للآداب الأوربية » . هكذا إلى هذا الحد !! مع ماتعلمه عن المجتمع الأوربى وآدابه المنحلة .. ثم يقول : « وتجد فى گجرات على الخصوص بعض المذاهب القائلة بعبادة « كرشنا » فيدعى كهانها « بالمها راجوات » فمن أقصى آمال النساء أن يصبحن عاشقات لكرشنا أى لممثليه أولئك الكهان الذين يبيعون قضاء الأوطار بأعلى الأسعار » ثم ينقل عن الكاتب الهندى السيد مليبارى قوله « قد يرى الأوربيون أن المهاراجويه « الكهان » خرافة شائنة أو طريقة شهوانية ساقطة ، بيدأن ألوف الأسر الهندوسية ستظل رازحة تحت نيرها البهيمى مابقى هذا النير مستتراً تحت رائحة الطهر » وفى مكان آخر من الكتاب [٢] ينقل عن هذا الكاتب الهندوسى قوله عن أتباع هذا المذهب : « إن المهاراجا هو الكاهن

---

(١) ص ١٤٤ (٢) ص ٦١٠.

الذى يؤله أى الذى يتجسد فيه « ڤشنو وكرشنا » فيقف عليه كل ڤشنوى تقى جسمه وروحه وملكه وأهله وتوابعه . .

وإليك بعض ما يجبيه المهاراجا من عباده الأتقياء : خمس روبيات [1] للتشرف برؤيته ، ٢٠ روبية لمسه ، ٣٥ لغسل رجليه ، ٦٠ للجلوس بجانبه ، ٥٠ — ٥٠٠ للثواء بغرفته ، ١٣ ليتفضل فيضرب به بسوطه ، ١٩ لشربه من غسالته أو غسالة ثيابه القذرة ، ١٠٠ — ٢٠٠ من النساء اللاتى يقضين معه روح اللذة » .

ولم يقف الكاتب الهندى عند هذا السرد . بل أبدى تعجبه من مسألة « قضاء روح اللذة » وإغضاء رجال غيارى ونساء محصنات عن أعز المشاعر [2] ولكن الكاتب والمؤرخ الاجتماعى الفرنسى الكبير يعلق على هذا فيقول : وأرى مع ذلك أنه ليس فى الأمر مالا يمكن إيضاحه مع وقفه للنظر . فقد ظل الإيمان الدينى أقوى العوامل فى توجيه النفوس على الدوام ، : . . ولكن أى توجيه هذا وللناس عقول ؟ !!

لقد كانت فكرة الحلول عند الهندوس سبباً فى سهولة اعتقادهم وعبادتهم لأى عظيم وأى قوى . . فكل قوى لا بد أن يكون قد حل فيه الأله وإلا لما صار قويا . .

ومن هنا تعددت الآلهة وتعددت المذاهب وإن كانت كلها داخل الهندوسية التى أوحت بمبادئها وأفكارها بإيجاد وخلق مثل هذه المذاهب وهذه الاعتقادات ، فالهندوسى لا يرفض تقديس أى قوى ، ومن الممكن بكل سهولة أن يضيفه إلى قائمة القديسين فى المعبد أو البيت ؛ فالبقر مقدس لما يدره من خير على الحياة فى الهند ، والأفعى مقدسة لقدرتها على الضر ،

---

(١) الروبية تساوي سبعة قروش ونصف الآن .

(٢) حدثنى كبير الأساتذة بدار العلوم « ديوبند » أنه رأى فى بلده كاهنا هندوسيا يجلس عاريا فى أحد البيوت وهو مضطجع وعورته بارزة للجميع وكل واحد من أتباعه يتهافت عليه ويقف أو يقعد أمامه ويؤدى تحية الخضوع والتقديس لهذه العورة البارزة أمامه . .

والنمر حين يذوق طعم لحم الإنسان فيصبح مفترسا وخطرا على الإنسان لايحاولون قتله، بل إنه ينقلب فى نفسهم إلى قديس يعبد لقوته وسطوته .. والقطار لا مانع من عبادته لقوته الخارقة فى قطع المسافات وحمل المسافرين وأثقالهم . . وهكذا نجد صورة للبقرة وصورة للأفعى فى المعابد وتقدم إلى هذه الصور مراسيم العبادة حين تهفو نفس الهندوسى للتبتل والعبادة . . ولقد حكى لنا العلامة جوستاف لوبون أن ولى عهد انكلترا حينما زار الهند أحيط بمظاهر التقديس والاجلال لاعتقادهم أن روح الأله « ڤشنو » قد حلت فيه . .

والباب مفتوح يدخله كل بطل وكل قوى وطريقه إلى المعبد سهل لتصبح صورته مكان التقديس والاجلال تعنو لها الجباه وتخشع لها القلوب..

وأتباع ڤشنو يكثرون فى الشمال وهم يرسمون غالبا على جبهاتهم ثلاثة خطوط رأسية هكذا « ! ! ! »

وأما الذين يضعون نقطة وسط جبهتهم فهم من أتباع كريشنا . .

الچينية

إحدى الديانات المنتشرة فى الهند ، وإن كان أتباعها الآن قليلين مثل البدهية أوالبوذية كماتذكر فى الكتب العربية.وإذا كانت الشيڤية والڤشنوية مشتقتين من الديانة القديمة الهندوسية التى تقوم على الكتب المقدسة الهندوسية من الڤيدا وغيره فأن الچينية يعتبرها أتباعها ديانة مستقلة كالبوذية لا تعترف بالڤيدا. ويدعى الچينيون أن ديانتهم أقدم الديانات فى الهند ، ولكن المؤرخين لا يعرفون الچينية حقيقة إلا منذ القرن السادس قبل الميلاد، ويعرفون مؤسسها أو منظمها الأخير « مهاويرا » الذى يؤرخون ميلاده بسنة ٥٩٩ قبل الميلاد أى قبل ولادة بوذا التى كانت سنة ٥٥٧ ق .م وتعاصرا فى الحياة ثلاثين سنة ، ولكنهما لم يتقابلا، مع أنهما كانا فى منطقة واحدة تعرف الآن باسم « بيهار » وقد مات مهاويرا قبل بوذا بحوالى

خمسين سنة ، ولكن بعض المؤرخين يعتبرون الجينية مشتقة من الهندوسية. وقد قامت الجينية كما قامت البوذية فى وقت ثارت فيه الطبقة المحاربة على البراهمة لاختصاصهم بجميع الامتيازات . وكان « مهاويرا » من هذه الطبقة المحاربة فأسس هذه الديانة التى تختلف عن البرهمية الهندوسية، لاسيما فى القول بتقسيم الناس إلى طبقات وفى عدم الاعتراف بآلهة الهندوسية الثلاثة. برهما وشيفا وفشنو، وإن اعترفوا ببعض آلهة أخرى، ولكن لم يعبدوها ، فأن هذه الديانة تقوم على عدم الاعتراف بالروح الأكبر أى الخالق وإن اعترفت بوجود أرواح خالدة ، وهم يتجهون فى عبادتهم إلى أبطالهم الذين يعتبر «مهاويرا» آخرهم، فهم يعبدون الأنسان عوضا عن الله ، ويتخذون الأصنام للعبادة فى معابدهم(١)، وتخالف الجينية الهندوسية أيضاً فى أنها لاتعترف بمسألة تعدد الولادة التى يقول بها الهندوس نتيجة لفكرة التناسخ التى تقول بأن الأنسان لايزال يموت ويولد حتى تطهر نفسه تماما فتصل إلى الخلود والنعيم .

أما الجينية فتقول إن الإنسان يستطيع أن يتحرر من دورة الولادة هذه بتعطيل حياته ، وذلك بالتخلى عن كل عمل وكل ما يغذى جسمه حتى تنتهى حياته ، وكأنها ترغب بذلك فى الانتحار حتى سميت بالأنتحارية . .

وأهم شيء فى الجينية هو الدعوة إلى تجرد الأنسان من شرور الحياة وشهواتها حتى تدخل النفس فى حالة من الجمود والخمود لاتشعر فيها بأى شيء مما حولها ، والناسك الحق هو الذى يقهر جميع مشاعره وعواطفه وحوائجه. فلايحتاج إلى شيء حتى اللباس، لأنه لايشعر بحر ولا برد ولا حياء، ويهتم الكهان الجينيون بنتف أشعارهم كلها كدليل على أنهم لا يهتمون بالجسد المادى ؛ لأن الذى يشعر بالحياة — وبالتالى بحاجته إلى ستر عورته ، وأن فى الحياة خيراً وشرا وحسنا وقبحا — معناه أنه لا يزال متعلقا بها خاضعا لمقاييسها

---

(١) ثقافة الهند ديسمبر سنة ١٩٥١ م

ويقولون إن آدم وحواء كانا يعيشان فى الجنة بطهر كامل لا يشعران بحياء ولا خير ولا شر ، ولا يحملان هماً أو غماً حتى تسلط عليهما الشيطان ليحرمهما من هذه اللذة ، فحملهما على أن يأكلا من شجرة العلم بالخير والشر، فأخرجا من الجنة ، وبهذه النظرية يعيش نساكهم عراة لا يسترهم شيء مطلقاً لأن هذا هو المثل الأعلى عندهم، إذ معناه أن الناسك تجرد من كل إحساس بالدنيا وآراء الناس فيها ، فأصبح لا يهتم فيها بخير أو شر أو حسن أو قبح .

ويفلسفون هذا المعنى فيقولون إن الشعور بالحياء يتضمن تصور الأثم ، فلو لم يكن الأثم فى الحياة لما كان الحياء ، فترك اللباس هو ترك للأثم وتصوره ، وعلى ذلك يجب على كل ناسك يريد أن يحيا حياة بريئة من الأثم أن يعيش عادياً ويتخذ من الهواء والسماء لباساً له .

وهكذا نرى السمات البارزة لهذا الدين هى : المساواة وعدم الاعتراف بإله مع الاعتراف بالروح ، والرغبة فى الانتحار البطىء للوصول إلى سمو الروح وتخلصها من الآلام ، والرغبة فى العرى واعتباره مثلا أعلى للناسكين حتى سمى هذا الدين : بدين العرى .

وقد حدثنى بعض الأساتذة أنه رأى فى بلده مرة ناسكا چينيا يسير عارياً فى ذهول شديد ، وكان يتحاشى أن يمر على ماء ! ! حتى دخل بيتاً من بيوت الچينيه ، فعد ذلك شرفاً كبيراً لأهل البيت ، وأعدوا طعاماً ، لكنه لم يتناول منه إلا شيئاً بسيطاً ، والباقى من الطعام أصبح مقدساً يهدونه لأحبابهم للتبرك به .

وقد انقسم الچينيون إلى فرقتين : إحداهما تميل إلى التقشف التام وإنكار الذات متخذة من حياة « مهاويرا » المتقشفة شعاراً لها . أما ثانيتهما فمعتدلة فى شؤون الحياة، متخذة من حياة «مهاويرا» الأولى فى كنف والديه حين كان يتمتع بالخدم والملذات قدوة لها .. ولكل وجهة .

وأتباع هذا الدين لا يصلون إلى المليون، ولكن معظمهم من أغنى الأغنياء وأنجح الناس فى التجارة والمداولات المالية ، حتى ليعتبرون اليوم

من الطبقة العليا اجتماعياً ، واقتصادياً ، وقد ساهموا مساهمة لا يستهان بها فى تراث الهند الثقافى والعقلى . . وهم بمقتضى أصول دينهم سلميون هادئون منصرفون إلى العمل الهادىء المنتج ، ولرهبانهم نفوذ كبير عليهم جعلهم يتجهون دائماً إلى الخير فى عملهم مبتعدين عن الأذى حتى للحيوانات .

ولهذا نجدهم على مر التاريخ قد اكتسبوا حب الحكام وإعجابهم وتقديرهم ، فكان ذلك يدفعهم إلى التقدم المالى والاجتماعى فى جميع مظاهر الحياة المادية والأدبية والفنية ، حتى فى عهد ملوك المسلمين نالوا كل احترام وتقدير ، ووصلوا إلى درجة عالية من العز والرفعة ، حيث استخدمهم الحكام المسلمون فى رعاية الأمن والسلام ، وحتى خلع الامبراطور « أكبر » على المعلم الجينى « هيراويجيا » لقب معلم الدنيا ، وحصلت العائلات الچينية العليا على نفوذ عظيم فى الديوان الملكى المغولى[١] » .

البدهية أو البوذية

إحدى الديانات التى نبتت فى الهند وسيطرت على المجتمع الهندى مئات السنين ، ثم انتقلت من الهند إلى ماحولها فى سيلان وبورما وسيام والهند الصينية والصين واليابان، حتى أصبحت هذه البلاد الآن هى الموطن الحقيقى لازدهار البوذية بعد أن اضمحل شأنها وتقلص ظلها فى الهند نفسها ، وحتى يقدر معتنقوها فى هذه البلاد بحوالى خمسمائة مليون .

ولد «بودا» « Boddha » فى القرن السادس قبل الميلاد سنة ٥٥٧ ق.م[٢] وبودا هذا لقب له ، ومعناه « العارف المستنير » ، أما اسمه فهو « كوتاما » « Gautama » أو سدهارتا « Siddhartha » وكانت ولادته فى أسرة حاكمة مترفة من الأكشترية فنشأ على طبع أسرته مترفاً منعما . ولكن لفت

---

(١) ثقافة الهند سبتمبر سنة ١٩٥٦ م .

(٢) هذه المعلومات عن مجلة ثقافة الهند ديسمبر ١٩٥٣ ، وحضارة الهند ص ٣٥٩ لجوستاف لوبون .

نظره ما كان يراه أحيانا من مظاهر البؤس والمرض والشقاء والتفاوت بين الطبقات ، فأخذ يفكر فى هذه المظاهر حتى نغص عليه تفكيره هذا ما كان فيه من نعيم وترف ، واستمر يفكر فى هذه الحياة وفى لذاتها وانقطاعها بعد حين ، فأفزعته هذه الحقيقة ، وانقطع يفكر ويبحث عن مخرج من هذه الآلام ، وهام على وجهه تاركا القصور والنعيم يبحث عن حقيقة السعادة فى الحياة ، وكان يلازم شجرة يجلس تحتها ويفكر ، وقد صارت هذه الشجرة بعد ذلك ذات مكانة مقدسة ما زال البدهيون ينظرون إليها نظرة تقديس ، وتحيطها الحكومة الهندية بضروب العناية حتى تبقى عليها وعلى ما حولها من أشجار مقدسة ، وهى الآن فى منطقة گيا « Gaia » من ولاية « بيهار » . . واستمر هائماً على وجهه بين الغابات وفى الصحارى يعانى آلام البؤس والفاقة والجوع . ويمارس أنواع الرياضات الجسمية والروحية حتى استطاع أن يصل إلى حالة من التجرد عن الماديات ، ويعلو بنفسه على الشهوات حين أدرك أن الشهوة هى أم الشرور فى الحياة ، وأنه لا بد من القضاء عليها ، حتى يحس الانسان بالسعادة والراحة، يقول بوذا : « لما أدركت هذا تحررت عن شرور الهوى والخطأ والجهل » فأخذ يدعو الناس إلى هذا التحرر نحو أربعين سنة مرتحلا من مكان إلى مكان يبشر بالمحبة بين الناس ، وبأن يعطف الانسان على كل مخلوق ولو كان حيواناً ، فلا بد أن ننظر إلى المخلوقات كلها نظرة فيها عطف وحنان بعيدا عن التعالى والغرور ، والتفانى فى الاعتداد بالنفس والجرى وراء شهواتها ، وعمل « بوذا » بما كان يدعو إليه من مبادىء ، فقاسم الناس آلامهم وهو يتنقل بينهم يدعوهم إلى مبادئه الرحيمة ، مبادىء الحب والرحمة والتسامح . .

وكانت البلاد ظامئة إلى روح جديدة تنزل على قلوبها الملتهبة بالحقد والشهوة برداً وسلاماً . . وتزيل منها ما علق بها من أفكار سيئة عن الطبقات والتعالى والغطرسة من جانب ، والذل والعبودية من جانب آخر .

لقد كان الناس يعيشون مثقلين تحت وطأة الأفكار الهندوسية التى

تقسم الناس إلى طبقات حتى ظهر «بوذا» وكأنه واحة وارفة الظلال، فوجد فيها الكثير من الهنود الملجأ الذى يمكن أن يستظلوا بظله، ويرتووا بمائه فأقبلوا ينضوون تحت لوائه، وظل هكذا يبشر بمبادئه حتى توفى سنة ٤٨٠ق.م ولفتت هذه المبادىء السمحة نظر الامبراطور «أشوكا» امبراطور الهند الشمالية فى القرن الثالث قبل الميلاد بعد أن خاض حروباً قاسية رأى فيها من العنف والفظاظة ما جعل نفسه تحس بظمأ شديد إلى حياة الرحمة واللين والحب، فوجد فى دعوة «بوذا» ما يشفى نفسه من سقمها، فاعتنقها ودعا إليها فى حماس وأخذ يشكل حياته على أساس مبادئها ويرسل رسله إلى الممالك المختلفة يبشرون بها، وكان عمله واندفاعه نحو تحقيق مبادىء الحب والعطف والتسامح فى رعيته، بل وفى الحيوانات أيضا لافتاً لنظر الكثيرين، وداعياً عملياً للبوذية، حتى انتشرت واكتسحت فى طريقها الديانة الهندوسية القديمة وظل الأمر بها كذلك عدة قرون حتى أخذت تضعف شيئاً فشيئاً، بينما كانت الهندوسية تسترد مكانتها الضائعة شيئاً فشيئاً، حتى انحسرت البوذيه عن موطنها الأصلى فى الهند، واسترجعت الهندوسية سيطرتها على الشعب، ولم يعد للبوذية فى موطنها إلا قليل من الأتباع يستوطن أكثرهم شمال الهند فى «نيبال» بينما ازدهرت خارج بلادها كما سبق أن قلنا فى سيلان وبورما وسيام والصين الخ..

إن المؤرخين الذين يؤرخون لبوذا يذكرون عنه أنه كان نبيل الفكر قوى الروح ماضى العزيمة واسع الصدر عزوفا عن الشهوات، زاهداً كريم النفس حسن المعاشرة، بريئاً عن الحقد والعدوان، جامدا لا ينبعث فيه حب ولا بغض، ولا تحركه عواطف، ولا تهيجه نوازل. وكانت مكانته رفيعة فى أعين الناس والملوك والأمراء والبراهمة والرهبان، فكانوا يزورونه ويتبركون به، وينتظرون أيام قدومه ويحتفون به. وكان مجلسه دائماً حافلا بالأمراء والوزراء والعلماء والعارفين والرهبان.

وكانت البوذية فى أول أمرها مذهباً خلقياً يرمى إلى تزكية النفس

وتحررها من الشهوات ، ويدعو إلى الحب والتسامح ، والعمل بقدر ما يمكن للتخفيف من آلام الإنسان ، لا فرق بين إنسان وآخر . فالكل فى نظرها سواء على عكس الهندوسية . . ثم أخذت تتشكل و تتعقد وتتشعب حسب أفكار وعقول أتباعها الدارسين لها الداعين إليها ، حتى أصبح لكل قرن بوذية تختلف قليلا عن البوذية السابقة واللاحقة ، وتفلسفت وصارت أفكارا منظمة ، ومدارس فلسفية تعددت حسب وجهات نظر الباحثين ، وشتان ما بين الأولى والثانية . فالأولى تزكية وتربية ، والثانية دراسة وفلسفة ، وإن كان لايمكن إنكار الأسس الأخلاقية التى تقوم عليها هذه أو تلك . .

ولم تبحث البوذية فى أمر الأله كما هو الشأن فى الهندوسية ؛ إذ كان جل مقصد بوذا هو تطهير النفس من شهواتها ، وتحليتها بمكارم الأخلاق فى معاملاتها مع الناس .

ولذا نجد تعاليم بوذا تدور كلها حول هذا الأساس الخلق : لاتقتل . لاتسرق مالا . لاتشرب خمراً . لا ترقص . لاتكذب . لاتزن . لا تكن مترفا . الخ . وكان أهم شىء اتجهت إليه نفسه هو العمل على إلغاء نظام الطبقات الذى أوجدته الديانة البرهمية القديمة ، لأن الناس عنده سواسية لافرق بين صغير وكبير ، وتفاوتهم يكون حسب طهارة نفوسهم وما تتحلى به من حب وعطف وتسامح نحو الآخرين .

لذلك لم يعن « بوذا » كثيراً بالبحث عن الأله . فإن للبرهمية آلهة ولكن الناس شقوا بها . فالأولى إذن أن يتجه لتخليص الناس من هذه الآلام التى يئنون من عذابها . وكان هذا المظهر الخلق الرائع سبباً فى جذب كثير من الناس إلى دعوته ، لكنهم كانوا حينما يدخلون هذه الدعوة ويعتنقون مبادئها لايجدون فيها توجهاً لأله يعبدونه ، والناس دائماً بطبعهم منساقون إلى الاعتراف بأله أقوى منهم يتجهون له ساعة البأس والشدة . . فلذلك كان الداخلون فى البوذية كثيراً مايظلون على اعترافهم بآلهتهم التى

كانوا يعبدونها فى البرهمية . . ومن هنا بدأت البوذية تختلط فى مظاهرها بالهندوسية ، وبدأ البوذيون الذين يقوم مذهبهم على عدم الاعتراف بالأله يعترفون بالآلهة ، ويتقربون إليها ، لذلك لم تكن مظاهر البوذية خالصة للبوذية ، بل كانت خليطاً منها ومن الهندوسية ، ومن هنا أخذت البوذية تتلاشى شيئاً فشيئاً ، ويندمج أتباعها فى تقاليد وطقوس الهندوسية وآلهتها ، حتى ظهرت البوذية بمظهر الهندوسية ، وبدأت معابدهم تظهر فيها آلهة الهندوس ، بل أصبح بوذا بعد حين إلها يعبده البوذيون ، وبذا مهد السبيل لانحسار موجة البوذية من الهند ورجوع الهندوسية إلى مكانتها القديمة . هكذا يعللون انتشار البوذية وتغلبها على الهندوسية أولا ، ثم تغلب الهندوسية عليها بعد مرور ألف سنة من ولادتها أعنى فى نحو القرن السادس المسيحى ..

ومما يلاحظ أن البوذية الأصيلة لا تحتفل بالطقوس البرهمية الرسمية من الغسل فى الأنهار المقدسة ، والمداومة على الصيام والاشتغال بالعبادات المتعبة ، والجولان عراة حفاة ، والتزى بزى الرهبان من حلق الرءوس أو تلبيد الشعر ، وتتريب الجسد وعرض النذور والقرابين ، فكل ذلك ليس له حظ فى النجاة عند البوذية. يقول بوذا: « التعرى وتلبيد الشعر والتعهد بالأوساخ والصوم وتتريب الجسد . . الخ . . كل ذلك لا يطهر فانيا لم يقهر شهواته » ثم يقول « لا يطهر نهر رجلا متعهداً للسيئات ، مضمرا للمقت ، مرتكبا للجناية » وقال فى موضع آخر « النجاسة يستحدثها الغضب وشرب الخمر والغرور والحقد لا أكل اللحم[1] » والعمل الصحيح فى البوذية هو تطهير الباطن من حب النفس والشح والحقد والغلظة والشهوة والغضب ، وهو غض البصر عن عيوب الناس ، والتأسى بهم فى أحزانهم وأوجاعهم ، والأخذ بالتقوى فى شعابها المتعددة من الاجتناب « عن قتل كل ذى روح ، وعن سلب أموال الناس ، وعن النظر إلى نسائهم ، وعن قول الزور ، وشرب المسكرات ، والتعدى بالجوارح » .

---

(١) لأن الهندوسية تحرم أكل اللحم . .

وهكذا تقوم البوذية على السمو الأخلاقى والطهر النفسى غير عابئة بمظاهر العبادة التى لا تؤدى لهذه الغاية فى نظرها . .

وتجد البوذية الآن من حكومة الهند عناية خاصة من جهة الأبحاث، ففى منطقة « نالندا » قريباً من « بتنا » فى « بهار » أقامت معهدا للبحوث فى الثقافة والتعاليم البوذية بجانب الجامعة القديمة التى اكتشفوا مبانيها والتى ترجع إلى مئات من السنين قبل الميلاد، وقد زرت هذه المنطقة بصحبة أحد وزراء بهار (شاه محمد عزيز منعمى) وبعض علمائها ، وقضينا وقتاً قصيراً فى المعهد تعرفنا فيه على مهمته، ونظرنا بعض الكتب النادرة المستقدمة من جميع أنحاء العالم للبحث عن البوذية وآدابها وتعاليمها ، وكان بعض هذه الكتب قد كتب على خوص النخيل المعروف فى الهند باسم « التار » ويمتاز بأنه عريض وأملس . .

ولاحظنا بالمعهد طلابا من جميع الأمم الشرقية التى تعنى بالبوذية ، وسجلت كلمة إعجاب بالروح التى أملت قيام هذا المعهد، ودفعت هؤلاء الشبان إلى التخصص والتفرغ لما يعنى به من الدراسات القديمة . .

ومما يلفت النظر حقا هذا التشابه الكبير بين ما نسج حول « بوذا » وولادته وحياته ، وبين ما قاله أتباع عيسى عليه السلام عنه ، وإن الإنسان ليتأمل كثيراً ويقف عند هذا التشابه الذى يكاد يكون تاما بين التفكيرين البوذى والمسيحى مع العلم بأن بوذا سابق على عيسى عليه السلام بأكثر من خمسمائة سنة ، وأن البوذية وأفكارها تسربت إلى البلاد الغربية من الهند بوساطة دعاة « أشوكا » والمبشرين بالأفكار البوذية . وقد سبقت الإشارة إلى ما كان بين الهند وهذه البلاد من صلات قوية بعد غزوة الاسكندر للهند . .

وبودى أن أضع أمامك هذه المقارنة التى عقدها الأستاذ محمد أبو زهرة أستاذ الشريعة فى كلية الحقوق وأستاذ الملل والنحل فى كلية أصول الدين بالأزهر سابقا ، وذلك فى كتابه « الملل والنحل » عن التشابه الكبير بين

مايقوله أتباع بوذا عنه وما يقوله أتباع عيسى عليه السلام ..

أقوال البوذيين عن بوذا بوذا ابن الله	أقوال المسيحيين عن المسيح عيسى بن الله
كان تجسد بوذا بوساطة حلول القدس فى العذراء مايا	كان تجسد المسيح بواسطة حلول روح فى العذراء مريم
دل على ولادة بوذا نجم ظهر فى أفق السماء	ودل على ولادة عيسى نجم ظهر فى المشرق
وعرف الحكماء بوذا وأدركوا أسرار لاهوته	وقد زارالحكماء يسوع وأدركوا سر لاهوته
وأهدوا بوذا وهو طفل هدايا من مجوهرات	وأهدوا يسوع وهو طفل هدايا من ذهب وطيب
لما كان بوذا طفلا قال لأمه مايا إنه أعظم الناس جميعاً	لما كان يسوع طفلا قال لأمه مريم أنا ابن الله
لما كان بوذا ولداً مخيفاً سعى الملك وراء قتله	كان يسوع ولداً مخيفاً فسعى الملك وراءقتله كيلا ينزع الملك منه
وصعد بوذا إلى السماء بجسده	وصعد يسوع إلى السماء بجسده بعد صلبه
وسوف يأتى بوذا مرة ثانية للأرض ويعيد السلام	ولسوف يأتى يسوع مرة ثانية ويعيد السلام

وعلى هذا النمط من التشابه التام أتى الأستاذ بست وأربعين نقطة . .
وكذلك لاحظ هذه الناحية المؤرخ جوستاف لوبون حيث قال [١] ، تجد أوجه شبه شاملة للنظر فى حوادث حياته (بوذا) الخرافيه وبعض أقاصيص الإنجيل . .

---

(١) ص ٣٤٤ حضارة الهند ..

لقد وقفنا كثيراً مع بوذا والبوذية فيكفيها هذا ، وما أردنا إلا رسم صورة عامة عن هذا الدين الأخلاقى الذى نبت فى الهند ، ثم انحسر عنها لينتشر ويزدهر فى بلاد غيرها . .

وهذه الأديان التى سبق الكلام عنها هى الأديان التى كانت تتقاسم الهند وقت ظهور الإسلام وزحفه إلى هذه البلاد الواسعة . .

الزحف الإسلامي نحو الهند

بدء دخول الاسلام فى الهند

سبق أن أشرنا إلى الصلات التى كانت قائمة بين الهند والبلاد الغربية من قبل الميلاد ، وكان التجار العرب هم واسطة هذه الصلات تقريباً ، أو كانوا هم أكثر أهل البلاد الغربية صلة بالهند ، فبلادهم قريبة من الهند تقع على بحر العرب كما تقع الهند ، وسفنهم هى التى كانت تقوم بنصيب كبير فى نقل التجارة بين الهند وبين هذه البلاد ، ومن الطبيعى أن يكون التجار والبحارة العرب بحكم عملهم أكثر صلة بالهنود ، كما كانت لهم معرفة ودراية بالمدن الهامة الواقعة على الساحل الطويل لبحر العرب ، بل كانوا يذهبون إلى ما وراء ذلك فى خليج بنغال وبلاد الملايو وجزر اندونوسيا حتى كونوا لهم جاليات عربية فى بعض ثغور هذه البلاد ,

وحين ظهر الإسلام ودخل العرب فى دين الله أفواجا كان منهم هؤلاء التجار والبحارة العرب من الحضارمة وغيرهم ، فحملوا معهم دينهم الجديد إلى البلاد التى يتعاملون معها ، وكان من الطبيعى أن يتحدث هؤلاء فى حماس وإيمان عن دينهم الجديد ، وعن الرسول الذى ظهر فى بلادهم ، يدعو الناس إلى التوحيد والأخاء والمساواة والمعاملة الحسنة بين الناس جميعا . وكانت الهند تئن حينئذ من التفرقة ونظام الطبقات القاسى الذى تقوم عليه دياناتهم ، فكان حديث التوحيد والمساواة نغمة جديدة يحلو لهم أن يسمعوها ، وأن يقارنوا بينها وبين ما هم فيه من أوضار التفرقة وأثقالها ، وكانت النتيجة أن تتفتح القلوب لهذا الدين ويقبل الناس عليه ليتخلصوا من العناء النفسى والاجتماعى الذى كانوا يعانونه ، كما ينفضون عنهم الوثنية الهندوسية المحشوة بالخرافات والأساطير . . ولذا وجد الإسلام فى الهند أرضا خصبة سهلة ، وأصبح فى كل ميناء أو مدينة اتصل بها المسلمون جماعة اعتنقوا الإسلام ، وأقاموا المساجد ، وباشروا شعائرهم فى حرية تامة لما كان للمسلمين والعرب فى ذلك الوقت من منزلة عند الحكام باعتبارهم أكبر العوامل فى رواج

التجارة الهندية التي كانت تدر على هؤلاء الحكام الدخل الوفير .

وكانت سواحل السند و مليبار الواقعة على بحر العرب من أسعد هذه البلاد بالدين الجديد هي وجزيرة سيلان أو جزيرة « الياقوت » كما يسميها المؤرخون القدامى . .

ولم يكن من السهل على كتب التاريخ أن تتبع الجهود الفردية التي يبذلها هؤلاء التجار والبحارة العرب في سبيل الإسلام ، ولذلك اكتفتْ بذكر العنوان لهذه الجهود بينما عنيَتْ كعادة كتب التاريخ بذكر حادثة وقعت لأحد حكام مليبار الذين سمعوا عن الإسلام وأقبلوا عليه . .

ونحن ننقل هنا ما ذكره الشيخ زين الدين (١) صاحب كتاب « تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتغاليين » في القسم الخاص بظهور الإسلام في مليبار قال : — ،

إن جمعا من اليهود والنصارى دخلوا بلدة من بلاد « مليبار » يقال لها « كدنكلور » وهي مسكن ملكها في مركب كبير بعيالهم وأطفالهم وتوطنوا فيها ، وبعد ذلك وصل إليها جماعة من فقراء المسلمين معهم شيخ قاصدين زيارة قدم أبينا آدم عليه السلام بسيلان (٢) .

---

(١) هو الشيخ زين الدين بن عبد العزيز المعبري عائلته يعرفها أهل مليبار حتى اليوم بأنها عائلة علم وورع وتقوي وكان جده زين الدين أبو يحي من كبار العلماء المتصوفين وصاحب تصانيف كبيرة باللغة العربية . بنى جامعا في « بنانى » وحوله مدرسة وزاوية كانت تأوى العلماء والمتصوفين القادمين من مصر وسوريا ومنهم الشيخ شهاب الدين أحمد ابن حجر الهيتمي سنة ٩٠٩ هـ حيث علم فيها دروس التفسير والحديث وتتلمذ عليه الشيخ زين الدين هذا وقد نقل كتاب التحفة من العربية إلى البرتغالية سنة ١٨٩٨ هـ والانكليزية سنة ١٨٢٣ والأوردية . . ويعتبر من الكتب الموثوق بها . .

وقد زرت « بنانى » في ١٧ نوفمبر ١٩٥٧ وزرت المسجد الجامع الذى يوجد بجوار جداره الجنوبي قبر الشيخين ووقفت عند الباب الموصل للقبور وسلمت عليهما ودعوت لهما ونظرت من الباب فوجدت الحشائش والأشجار تملو القبرين . وقابلني أفراد من ذريتهم يسمون الان « بالمخدومين » ولهم مقام خاص بين المسلمين هناك وأكثرية سكان هذه المدينة مسلمون بفضل جهاد هؤلاء العلماء الأعلام وذريتهم . .

(٢) حكاية اهتمام المسلمين بزيارة قدم أبينا آدم عليه السلام في سيلان شيء أشك فيه =

فلما سمع الملك بوصولهم طلبهم وأضافهم، وسألهم عن الآخبار، فأخبره شيخهم بأمر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وبدين الإسلام وبمعجزة انشقاق القمر، فأدخل الله سبحانه وتعالى فى قلبه صدق النبي صلى الله عليه وسلم فآمن به، ودخل فى قلبه حب النبي (صلى الله عليه وسلم) وأمر الشيخ أن يرجع هو وأصحابه إليه بعد زيارة قدم آدم عليه السلام ليخرج هو معهم، ومنعه أن يحدث بهذا السر المليباريين. ثم إنهم سافروا إلى سيلان ورجعوا إليه، فأمر الشيخ بأن يهيء مركبا لسفره من غير أن يعلم به أحد. وكان فى البندر المذكور مراكب كثيرة للتجار الغرباء، فقال الشيخ لصاحب مركب «أنا وجماعة من الفقراء يتوقعون أن يركبوا فى مركبك» فرضى بذلك. ولما قرب وقت السفر نهى الملك أهل بيته ووزراءه أن يدخل أحد منهم عليه مدة سبعة أيام، ورتب أمور البلاد من بعده.. والحكاية مشهورة عند كفرة مليبار أيضاً..»

ثم إن الملك ركب مع الشيخ والفقراء ليلا، وسار المركب حتى وصل إلى «شحر»[1] ونزل فيها هو ومن معه أياما سنح لهم فيها ترتيب بعثة تبشيرية من المسلمين تقصد مليبار تدعو الناس للإسلام وتنشيء المساجد، ولكن فوجيء الجميع بمرض الملك مرضا شديدا، ولم يفته وهو فى شدة مرضه أن يوصى الدعاة ألا يتأخروا عن السفر إذا مات، وكانوا «شرف بن مالك وأخاه مالك بن دينار، وابن أخيه مالك بن حبيب بن مالك» فقالوا له، لانعرف موضعك ولا حد ولايتك، وإنما أردنا السفر بصحبتك فتفكر الملك ساعة، ثم كتب لهم ورقة بخط مليبارى عين فيها مكانه وأقرباءه وأمرهم أن ينزلوا فى «كدنكلور» أو «دار مفتن» أو «فندرينه» أو «كولم»

= كثيراً فأنه لم يكن ذلك شيئاً يهتم به بين المسلمين فى تلك الأيام كما أعرف فلنمر على سبب الزيارة مر الكرام دون أن نتشكك فى وجود هؤلاء بمليبار.. ومدينة «كدنكلور» هذه تسمى اليوم «كرنكاور» على مقربة من ميناء «كوتشين» على ساحل مليبار وكانت التجار العرب والروم يأتون لهذه البلدة للتجارة..

(١) على الشاطيء الجنوبي لجزيرة العرب.

وقال لهم لاتخبروا أحداً بمرضى أو بموتى إن مت ، ثم إنه توفى إلى رحمة الله ، وبعد ذلك بسنين سافرت البعثة مع أسرها إلى مليبار فوصلوا إلى « كدنكلور » ، ونزلوا فيها ، وأعطوا مكتوب الملك المتوفى إلى الملك الذى فيها ، وأخفوا خبر موته ، فلما قرأها وعلم مضمونها أعطاهم الأراضى والبساتين على مقتضى ما كتبه ، فأقاموا فيها وعمروا بها مسجدا ، وتوطن فيها «مالك بن دينار» وارتحل ابن أخيه «مالك بن حبيب» للدعوة للإسلام وبناء المساجد ، فوصل إلى « كولم » بأسرته وعمر بها مسجدا ، ثم خرج منها بعد ماخلى زوجته فيها إلى « هيلى ماراوى » وعمر بها مسجدا ثم إلى « باكنور » وعمر بها مسجداً ثم رجع إلى « منكلور » وعمر بها مسجدا ، ومنها إلى « كانجركوت » وعمر بها مسجدا ، ثم ذهب إلى « جرفتن » ومنها إلى « شاليات » وعمر بكل منهما مسجدا ، ثم عاد إلى « كدنكلور » عند عمه « مالك بن دينار » . . ثم خرج ومعه عمه مالك إلى هذه المساجد التى بناها حيث صلى فى كل منها ورجع إلى « كدنكلور » شاكرا لله وحامدا له ظهور دين الإسلام فى أرض ممتلئة كفرا ، ثم خرج « مالك بن دينار » « ومالك بن حبيب » مع الأصحاب والعبيد إلى « كولم » وتوطنوا فيها إلا « مالك بن دينار » وبعض أصحابه ، فإنهم سافروا إلى « شحر » وزاروا قبر الملك المتوفى فيها ، ثم سافر مالك إلى خراسان وتوفى فيها هو وزوجته . أما مالك بن حبيب فإنه رجع إلى مليبار وترك بعض أولاده فى « كولم » واتخذ لنفسه وزوجته مستقرا فى « كدنكلور » حتى انتقلا لرحمة الله (١) هذا خبر أول ظهور الإسلام فى ديار مليبار ، وأما تاريخه فلم يتحقق عندنا ، وغالب الظن أنه كان بعد المائتين من الهجرة ، وأما مااشتهر عند مسلمى مليبار من أن إسلام الملك المذكور كان فى زمن النبى (صلى الله عليه وسلم) برؤيته انشقاق القمر وأنه سافر إلى النبى وتشرف

---

(١) قبره معروف فى شمال مليبار باسم قبر سيدنا مالك للآن كما سمعت من كثيرين حين زيارتى لمليبار فى نوفمبر ١٩٥٧ .

بلقائه الخ فلا يكاد يصح منها شيء » .

أما المؤرخ « فرشته » الذى كتب تاريخ الهند فى عدة أجزاء بالفارسية وترجمه للأوردية فقد ذكر أيضاً أن هذه الحادثة وقعت فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن السامرى رأى بنفسه معجزة شق القمر ، وسافر وقابل الرسول ، ومات حين رجوعه فى ظفار بعد ماذكر الرواية الأولى دون أن يرجح إحداهما [١] .

وهكذا يظهر لنا أن أصل الحادثة لا اختلاف عليها وإنما الخلاف فى تعيين زمن وقوعها . .

ويوجد فى « المكتب الهندى » « أندياأفس » مخطوطتان منظومتان باللغة العربية وفيهما شرح لحوادث اعتناق الملك للدين الإسلامى ، وقدوم المسلمين إلى مليبار ، وفى واحدة منهما كتب اسم الملك « شكروتى » وفى الأخرى « شكرورتى» وتنطق«چكرورتى» ومعنىالكلمة الملك والامبراطور. ونحن لا يهمنا كثيراً البحث فى اسم الملك بقدر ما يهمنا وقوع الحادثة نفسها كدليل على انتشار الإسلام فى مليبار . . على أنه إذا صح أن هذه الحادثة وقعت فى القرن الثالث الهجرى كما يؤكد بعض المؤرخين فأنه مما لا شك فيه أن الاسلام قد وصل إلى مليبار قبل ذلك بكثير على يد التجار والبحارة العرب الذين كانت لهم صلة تجارية وثيقة بهذه البلاد . . فأن الاسلام قد وصل إلى سيلان على يدهم أيضاً فى وقت مبكر جداً وهى أبعد من مليبار . . وتكون عناية الكتب بذكر حادثة اعتناق الملك للاسلام راجعة لأهميتها ، لأنها وقعت من ملك، والكتب التاريخية دائماً تعنى بحوادث الملوك قبل أن تعنى بالحوادث الفردية . .

ونحن لا نزال نرى للآن أثر العرب فى مليبار متمثلا فى بعض الأسر العربية الأصل ، وفى عناية هذه البلاد أكثر من غيرها من بلاد الهند باللغة

---

(١) تاريخ فرشته الترجمة الاوربية ص ٨٣٤ ج ٤ نقلا عن مجلة ثقافة الهند عدد سبتمبر ١٩٥٥ من مقال للاستاذ محي الدين الالوانى المليباري . « والسامرى » لقب للملهم وينطقونه أحيانا « الزامورين » .

العربية كما شاهدت ذلك بنفسى حين رحلتى اليها فى نوفمبر ١٩٥٧ ويحكى لنا الشيخ زين الدين فى كتابه[1] عن ازدهار الإسلام وانتشاره فى هذه البلاد برغم أن حكامها لم يكونوا من المسلمين ، وذلك بفضل نشاط المسلمين ومركزهم المالى والتجارى فى البلاد ، فكانوا يبنون المساجد ويقيمون الجمع والأعياد وينفذون فيما بينهم أحكام شريعتهم . وينظر الهندوس المحليون إليهم نظرة إكبار وتقدير ، وإذا اعتنق هندوسى الإسلام ولوكان من الطبقة السفلى فأنه ينال نفس الاحترام والتقدير ، مما كان سببا لدخول كثير من المضطهدين فى الإسلام .

وبودى أن أضع أمام القراء مقتطفات من بحث طويل فى هذا الموضوع للباحث الهندى الدكتور « تاراشند » نشرته له مجلة « ثقافة الهند » (مارس سنة ١٩٥٠) .

قال « أما كيف وصل المسلمون إلى الهند ؟ فنقول :

« إن الروابط بين الهند والبلاد الغربية : القطر العربى وفلسطين ومصر : قديمة جداً فالملك سليمان كان يستورد الذهب والفضة والعاج والطواويس من بلاد الهند . . وأنشأ البطالسه موانئ على البحر الأحمر لتنشيط التجارة الهندية . . وكانت فى الاسكندرية جالية هندية ذبحت بأيدى « كارا كالا » فى أوائل القرن الثالث . . . ووجدت نقود الأمبراطورية الرومانيه من زمن « أغسطس » (١٤ م) إلى زمن الامبراطور زينو (٤١٩ م) فى حفريات الهند الجنوبية ، وهذا دليل حسى على سعة التجارة الهندية مع العالم الغربى .

وقد أبدى الفرس نفس النشاط الذى اتصف به الرومان . . ثم قال : وقد كان من الطبيعى أن يهتم العرب بالتجارة بين الشرق والغرب ، وقد فعلوا ذلك . . إلى أن قال : قال « رينود » كل شىء يحملنا على اليقين بأنهم (العرب) باشتراكهم مع الفرس تمتعوا فى هذه السواحل الهندية إلى القرن

(١) وقد عاش فى القرن العاشر الهجرى . .

الرابع عشر بالنفوذ الذى تمتع به البرتغاليون من بعدهم »

« وكانت السفن العربية تبحر من سواحل البحر الأحمر أو من السواحل الجنوبية ، فتتجه إلى مصب السند أو ساحل مليبار ، وكانت الرياح تسهل مجراها إلى « كولم » والموانئ الأخرى ، كما كانت السفن المبحرة من الخليج الفارسى تتخذ نفس الطريق ، وبمساعدة الرياح تصل حتى جزائر الملايا وساحل الصين .

« ومن هذا القرن (الثامن الميلادى) أخذ نفوذ المسلمين يزداد ، وفى خلال المائة التالية استقروا بساحل مليبار كل الاستقرار ، ورحبت بهم الحكومة الوطنية كتجار ، وسهلت لهم السبل للمكث والتملك ، وأطلقت لهم الحرية الدينية » . .

« وقبل أن يتقدم القرن التاسع انتشروا على ساحل الهند الغربى كله ، وأحدثوا ضجة بين أبناء البلاد من الهندوسيين بمعتقداتهم وعباداتهم وتحمسهم لنشر دينهم » . « وقد كانت الهند الجنوبية إذ ذاك مسرحا للمصادمات الدينية بين الهندوسية والبوذية والجينية . كما كان هذا العصر من الوجهة السياسية كذلك . فكان الناس بطبيعة الحال مضطربين مستعدين لقبول أفكار جديدة . فظهر الإسلام بدين سائح يدعو إلى عقائد بسيطة ، وعبادات سهلة ، وإلى المبادىء الجمهورية فى الهيئة الاجتماعية . فكان للاسلام دوى عظيم » .

ثم ذكر قصة اعتناق أحد الملوك للإسلام . ثم قال : ولايخفى ما يكون لاسلام الملك من تأثير عميق فى رعاياه ، وتذكار هذا الحادث ظل حيا فى مليبار . فمثلا جرت التقاليد أن زامورين (راجا) عندما يرتقى العرش يحلقون رأسه ويكسونه كواحد من المسلمين ، ويتوجه رجل من « مابلا » المسلمين (أشرافهم) ويزعمون أن زامورين ليس جلوسه على العرش إلا كنائب عن الملك الغائب ، وهو ينتظر رجوعه من البلاد العربية ، وكذلك أمراء « تراڤنكور » . حينما يتوجون ويحملون السيف يعلن كل واحد منهم

فى دوره قائلا. إنى أحافظ على هذا السيف حتى يرجع العم الغائب الذى رحل إلى مكة »[١] .

وبعد ماشكك الكاتب فى تفاصيل حادثة إسلام الملك قال « ولكن كما قال المؤرخ إنيس » «Innes » لنا أن نستنتج من الحكاية أن الأسرة الحاكمة فى « كارانفانور » انتهت بأسلام ملك يحمل لقب بيرومل وعزله فى القرن التاسع « والظاهر أن المسلمين فى هذا العهد وصلوا إلى نفوذ كبير فقد كانوا يلقبون بكلمة «مابلا » وهو لقب احترام . وخص المسلمون بمظاهر الاحترام الأخرى. وقد كان من عطف « زامورين » وحمايته ومساعدته أن كثر عدد التجار العرب فى مملكته ، وهم ساعدوه مساعدات عظيمة ، ليس بتوفير ثروته وتعمير بلاده فحسب بل فى حروبه كذلك » .

وأسرة «على راجا » [٢] المسلمة التى كانت تنجب أمراء البحر والوزراء لملوك « كولاترى » أسسها رجل من العرب الذين استقدمهم من بلادهم الملك « شيرا من بيرومل» وكان « زامورين » يثق بالمسلمين ثقة عظيمة، حتى أنه كان يرغب بنفسه الناس إلى اعتناق الاسلام، وذلك لتقوية أسطوله الذى كان فى أيدى المسلمين ، بل إنه أصدر أمراً يحتم على كل أسرة من السماكين فى مملكته أن تربى واحداً أو اثنين من أبنائها على الديانة الاسلامية » . . وتقول الروايات إن تاجرا مسلما كان يتاجر مع البلاد العربية أقام سوقا فى

---

(١) سألت أهل مليبار عن هذا التقليد وهل بقى للآن، فقالوا. ليس له وجود فى هذه الأيام .

(٢) في أثناء رحلتى إلى ملابار زرت هذه الأسرة فى « كننور » شمالى كاليكوت بدعوة منهاوتناولنا الشاي عندها وعلمنا أن آخر أمرائها كانت أميرة أوسلطانة كمايقولون توفيت فى أكتوبر ١٩٥٧ وكانوا يحكمون فى « كننور» وما حولها وبعد تقسيم الهند زال حكمهم، ولكن بقى للامرة مجدها فاجتمعوا وانتخبوا كبيرا لهذه الأسرة وشاهدت الحراس بأزيائهم الزاهية حسب تقاليدهم القديمة ويحافظون على الطربوش فى الأسرة وأهدونى صورة السلطان الذي كان واليا قبل السطانة واسمه « محمد على راجا » والمسلمون هناك يؤدون لهم مايليق بهم من تحية وإكبار ويسمون بيتهم بيت السلطان . . وبيت الملك .

مكان يسمى « ويلابورم » شاء القدر أن تكبر السوق ويصير مكانها ثغرا عظيما وهى التى يسمى الآن « بكاليكوت » (١) .

ثم ذكر بعد ذلك مارآه الرحالون ودونوه عن حال المسلمين فى هذه البلاد ، وكيف أنهم كثروا وازداد عددهم وجاءوا إليها من البلاد العربية . . وذكر أقوالا عن هؤلاء الرحالة كالمسعودى الذى زار الهند فى أوئل القرن العاشر (٩١٦ م) ووجد عشرة آلاف مسلم من مسلمى السرف وعمان والبصرة وبغداد فى « سى مور » « شول » الحاضرة . عدا كثيرين من ذرية العرب المولودين فى البلاد وكذا أبو دلف المهلهل ، وابن سعيد فى القرن الثالث عشر وماركوپولو ، وأبو الفداء ثم ابن بطوطه فى القرن التاسع عشر الذى ذكر الكثير عن أحوال المسلمين الحسنة فى هذه البلاد ، وكان مما ذكره أن رئيس التجار فى « كاليكوت » كان من المسلمين واسمه « إبرهيم شاه بندر » من البحرين . ثم قال أخيراً :

« فهذه التصريحات ناطقة بأن المسلمين سكنوا الساحل الغربى الهندى قديما وازدادوا فيه عددا وثروة ومنعة ، . . ووصلوا إلى مقام ونفوذ كبير عند ملوك ملابار الهندوس . . . »

هذا القدر الذى لخصه هذا الكاتب بعد تفصيل هو مانريد إثباته ولعلنا

---

(١) زرت هذه المدينة الكبيرة عدة مرات وأقمت فيها أياما وهى تقع على ساحل بحر العرب وتعتبر ميناء صغيرا ولاتزال السفن الشراعية الكبيرة تأتى لها من البلاد العربية وتعود محملة بالاخشاب والحبال وجوز الهند والفلفل وشاهدت بها مسجدا قديما جدا يقال إنه يرجع إلى الف سنة مضت ، وقابلت بها بعض العرب من البحرين والكويت الذين استوطنوها وأصبحت لهم تجارة كبيرة مثل « يعقوب الصقر » من الكويت وغيره وكثير من الأسر فيها يفتخر بأن أصله عربى وبها نشاط إسلامى فى المدارس الدينية ودور اليتامى والتربية الأسلامية وتصدر فيها الصحيفة الأسلامية « الهلال » « تشانداريكا » باللغة الملابارية التي تنطق باسم حزب « مسلم ليك » أى الرابطة الأسلامية وفيها عائلة « بافقية » العربية وتعتبر نفسها من الاشراف وعميدها هو السيد عبد الرحمن بافقية رئيس الحزب الاسلامى .

نكون قد أطلنا فى هذه النقطة ، ولكن لا بأس مادام الحديث يستدعى ذلك لاسيما إذا استشهدنا بأقوال مؤرخين من غير المسلمين . . والمهم بعد هذا أن الاسلام انتشر فى هذه البلاد بجهود الأفراد ولم يكن هناك حاكم إسلامى يقال إنه يجبر الناس على الأسلام أو يرعى شؤون المسلمين ، ولكنها جهود الأفراد وقوة نفوذ الاسلام وبساطته هى التى مهدت له السبيل . .

فى سيلان :

وحينما نتحدث عن الاسلام فى سيلان فإننا لا نحيد عن الحديث عن الهند ، فسيلان والهند شيء واحد تقريباً وإن كانت السياسة جعلت منهما حكومتين . . على أن حديثنا عن الإسلام فى سيلان يعزز حديثنا عنه فى الهند فإن التجار المسلمين قبل أن يذهبوا إلى سيلان ويؤثروا فيها لا بد أن يمروا بالهند ويتركوا أثرهم فيها أيضاً .

تقول كتب التاريخ إن سيلان اهتمت بالإسلام منذ عهده الأول حينما سمعوا عنه من التجار العرب .

جاء فى كتاب « عجائب الهند » لمؤلفه الرحالة « بزرك بن شهريار »(١) (١٠١٣م — ٤٠٤ هـ) : لما سمع أهالى سيلان عن الرسول العربى أوفدوا رجلا ممتازاً إلى جزيرة العرب للاستطلاع عن حالات ودعوة الرسول الجديد ليبلغهم كما رأى وسمع . فوصل ذلك المبعوث إلى جزيرة العرب فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه (١٣-٢٣ هـ — ٦٣٤-٦٤٤ م) فتشرف بمقابلة الخليفة وتحدث معه عن دعوة الرسول وتاريخ حياته وجمع معلومات، ثم عاد إلى سيلان ولكن فاجأه الموت فى الطريق وهو فى «مكران» ، وكان معه خادم هندى فعاد إلى «سيلان» وبلغ أهلها عن مشاهداته ومعلوماته ، وبين لهم ما سمع عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن أبى بكر الصديق

(١) ص ٥٦ نقلا عن ثقافة الهند سبتمبر ١٩٥٥ مقال للأستاذ محي الدين الوائى .

الخليفة الأول وكذلك كشف لهم تفاصيل المحادثات التى جرت بينهما وبين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال : إن عمر بن الخطاب رجل تقى شجاع يلبس الثوب المرقع وينام فى المسجد[١] ، ولا شك أنه كان لهذا الحديث نتائجه فى إقبال الناس على الإسلام . على أن التاريخ يحدثنا أيضاً عن الأسر المسلمة العربية التى سكنت سيلان واستقرت بها مما سيمر بك قريباً عندما نذكر أسباب فتح السند إن شاء الله ..

ومن كل هذا نعرف شيئاً عن دخول الإسلام فى جزيرة سيلان التى يوجد بها الآن عدد كبير من المسلمين لهم مقام ممتاز فيها ..

فتح الهند

كان حديثنا الماضى عن الجهود الفردية السلمية الهادئة لنشر دعوة الإسلام فى الهند . والأمر فى هذا السبيل لم يقف عند هذا الحد ، فقد كان هناك تفكير مبكر قام فى رءوس الحكام المسلمين نحو هذه البلاد ونشر دعوة الإسلام فيها وضمها إلى رقعة الدولة الإسلامية التى أخذت تتسع حتى وصلت شرقاً إلى حدود الهند حينما وطئ المسلمون أرض فارس وقوضوا عرش كسرى ، وانطلق الفاتحون المسلمون وراء انتصاراتهم يضيفون نصراً إلى نصر وأرضاً إلى أرض ..

لقد بدأ هذا التفكير فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين فكر واليه على البحرين وعمان وهو «عثمان بن أبى العاصى الثقفى» سنة ١٥هـ فى تسيير جيشه إلى الهند .. يقول البلاذرى فى كتابه « فتوح البلدان ص ٤٣٨ » : ولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه عثمان بن أبى العاصى الثقفى البحرين وعمان سنة ١٥ هـ فوجه أخاه الحكم بن أبى العاصى إلى البحرين ومضى إلى عمان فأقطع جيشاً إلى « تانه »(١) فلما رجع الجيش كتب إلى عمر يعلمه ذلك فكتب إليه عمر : يا أخا ثقيف حملت دوداً على عود ، وإنى أحلف بالله أن لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم : ووجه الحكم أيضاً إلى بروص (« Broach »(٢)) ووجه أخاه المغيرة بن أبى العاصى إلى خور الديبل فلقى العدو فظفر به .. » .

ويبدو من كتاب عمر رضى الله عنه لواليه أنه كان يخشى على المسلمين

---

(١) تانه تقع شمال بومباى قريبة منها على بعد نحو ١٥ ميلا ، وهى تقع على بحر العرب وقد حدثنى أحد العلماء المعنيين بالتاريخ فى بومباى أنه شاهد بها بعض المقابر الإسلامية القديمة التى يعتقد المسلمون أنها ترجع إلى هذا العهد القديم ..

(٢) تقع الآن شمال سورت بينها وبين نهر نربدا وكانت ميناء قديماً لكنه فقد أهميته على مر الزمن وقد مررت بها عند ذهابى إلى بلدة «سورت» فى أكتوبر ١٩٥٦

من المجازفة بركوب البحار . وتلك فكرة خاصة بسيدنا عمر وجدنا أثرها كذلك حين منع معاوية واليه فى الشام من ركوب البحر الأبيض لفتح إحدى الجزر الواقعة قريباً من ساحل الشام . .

ولا شك أن عثمان بن أبي العاصى قد استعان فى توجيه حملته إلى الهند بالسفن العربية وبحارتها المسلمين الذين كانوا يعرفون جيداً هذه البلاد ، وكانوا سادة البحر فى هذه الناحية من قديم ، ولم يكن هناك ما يخشى منه على المسلمين لكن الخليفة كانت له هذه الفكرة الخاصة التى لم يشاركه فيها عثمان ابن عفان رضى الله عنهما حين ولى الخلافة ، فأذن لمعاوية بالغزو عن طريق البحر كما بدأ يفكر فى الهند ويرسل رسله ليعرف أخبارها وطرقها لينفذ فكرة غزوها . .

ولذلك لا أوافق على رأى الأستاذ حبيب الذى كتبه فى مذكرته لطلاب كلية أصول الدين بالأزهر والذى ينفى فيه أن عمر رضى الله عنه كان يخاف على المسلمين من ركوب البحر .. إذ أن هذا الخوف تمثل جليا فى منعه معاوية كما ظهر بصورة أوضح فى كتابه لواليه حين قال له : « حملت دودا على عود » .

ولا شىء على عمر فى خوفه وإشفاقه على المسلمين ، فالأمر لا يعدو احتياطاً من ناحيته لأمور المسلمين الذين يرعاهم ويسأل عن سياستهم وتوجيههم ولا يريد أن يزج بهم فى طريق يخاف عليهم منه . . وقد رأينا إشفاقه هذا يتمثل فى كتابه لعمرو بن العاصى بعد أن وجهه لفتح مصر يأمره بالرجوع عن غزو مصر إن لم يكن قد دخل حدودها ، فإنه لم يفعل هذا إلا خوفاً على المسلمين من الابتعاد عن مركز الخلافة ووجود مسافات وحوائل ، ربما تحول بينه وبين إمدادهم حين يحتاجون للمدد . فهو احتياط على كل حال لا عيب فيه ، بل إنه يمدح عليه . . ولكل وجهة . .

يقول البلاذرى « فلما ولى عثمان رضى الله عنه وولى عبد الله بن عامر

ابن كريز العراق كتب إليه يأمره أن يوجه إلى ثغر الهند من يعلم علمه وينصرف إليه بخبره فوجه « حكيم بن جبلة العبدى . . فلما رجع أوفده الى عثمان فسأله عن حال البلاد فقال: ياأمير المؤمنين قد عرفتها . قال : فصفها لى قال : « ماؤها وشل وتمرها دقل[1] ولصها بطل . إن قل الجيش فيها ضاعوا ، وإن كثروا جاعوا » فقال له عثمان : أخابر أم ساجع ؟ قال : بل خابر » . فلم يغزها أحدا . . فلما كان آخر سنة ٣٨ ﻫ وأول سنة ٣٩ ﻫ فى خلافة على بن أبى طالب (رضى الله عنه) توجه إلى ذلك الثغر « الحارث ابن مرة العبدى » متطوعا بأذن على فظفر وأصاب مغنما وسبيا .. الخ »

وقد ظل القواد المسلمون يطرقون أبواب الهند ويصيبون من أطرافها حتى كان زمن الحجاج بن يوسف عامل الوليد بن عبد الملك على العراق، وبدأت الحملة القوية المنظمة تتجه إلى الهند لفتحها وضمها إلى رقعة البلاد الإسلامية ..

ويختلف المؤرخون فى ذكر السبب الذى حدا بالحجاج إلى تسيير حملة على الهند فيذكر البلاذرى أنه كان فى سيلان أو جزيرة الياقوت كما يسميها نسوة من العرب المسلمين مات عنهن آباؤهن، فأراد ملك الجزيرة أن يجامل الحجاج، ويرسل له هؤلاء النسوة ، أو حسب ما ذكره البلاذرى يهديهن إليه تقرباً منه ، فأركبهن سفينة إلى البلاد العربية، فعرض للسفينة قوم من ميد الديبل فى بوارج، فأخذوا السفينة بمافيها، فنادت امرأة منهن — وكانت من بنى يربوع — « ياحجاج » ، وبلغ الحجاج ذلك، فقال : «لبيك» فأرسل إلى « داهر» يسأله تخلية النسوة . فقال : إنما أخذهن لصوص لا أقدر عليهم » ، فحمل ذلك الحجاج على غزو السند مملكة « داهر » .

ويذكر بعض المؤرخين[2] أن سبب الحملة هو هجرة جماعة إلى السند من بنى هاشم فراراً من ظلم الحجاج وعسفه بالعراق ، فكتب الحجاج إلى

---

(١) وشل : قليل ، دقل : ردىء .

(٢) (رايس) عن مجلة الثقافة الهندية مارس سنة ١٩٥٠ مقال الدكتور تاراشند عن وصول المسلمين للهند ، وتاريخ الهند لسيد هاشمى بالأوردية .

ملك السند يطلب منه تسليم الفارين، ولكنه لم يظفر بما يريد، فقرر أن ينتقم لنفسه من ملك السند .

ولا تناقض فى رأيى بين السببين، فيصح أن يكون كل منهما قد حدث ، فحفزا الحجاج لغزو هذه البلاد ..

وقد وجه الحجاج أولا بعض قواده إلى هذه البلاد ، ولكنه فشل فى مهمته ، فرأى أن يوجه حملة أخرى جعل على رأسها ابن أخيه الشاب الشجاع محمد بن قاسم الثقفى، وذلك سنة ٧١١ م — سنة ٩٢ هـ . وكان عمره إذ ذاك لم يصل إلى العشرين، ولكنه عرف بالصلابة والشجاعة . وقد جهزه الحجاج بجيش قوى حشد له فيه كل ما يحتاج إليه حتى الخيوط والمسال ، وعمد الحجاج إلى القطن المحلوج ، فنقع فى الخل الأحمر الحاذق ، ثم جفف فى الظل ، وقال لهم، إذا صرتم إلى السند فإن الخل بها ضيق (أى قليل) فانقعوا هذا القطن فى الماء ، ثم اطبخوا به واصطبغوا . وسار محمد بجيشه من جنوب فارس قريباً من الساحل، حيث كانت سفن الحملة تحمل ما تحتاج إليه من العدة والمؤن .. حتى وصل الديبل[1] يوم جمعة ، ووافته سفنه التى كانت تحمل العتاد ، فخندق وركز الرماح تجاه المدينة ، ونشر الأعلام وأنزل الناس على راياتهم ، ونصب منجانيقاً تعرف بالعروس ، وكان بالديبل « بد » عظيم « والبد » فيما ذكروا منارة عظيمة فى بناء لهم فيه أصنامهم (أى معبد) . وكل شىء عظموه من طريق العبادة فهو عندهم « بد » والصنم بد أيضاً . وقد أمر محمد بن قاسم أن يرمى البد بالمنجانيق فكسره ، ثم دار قتال انتهى باستيلاء المسلمين على المدينة ، ومكث محمد يقتل من فيها ثلاثة أيام، وهرب عامل «داهر» عنها واختط للمسلمين بها ، وبنى لهم مسجداً ، فكان أول مسجد بهذه المنطقة ..

ثم تابع محمد سيره والبلاد تخضع له صلحاً أو عنوة و« داهر » مستخف به لاه عنه، حتى تلاقى الجمعان ، واقتتلوا قتالا شديداً وكان «داهر» يركب

---

(١) الديبل كان موقعها قريباً من كراتش واندرست الآن . . جاء فى صبح الإعشى ص ٦٤ ج ٥ أنها « الديبل » بلدة على ساحل البحر وفى تقويم البلدان بلدة صغيرة على ساحل ماء السند شديدة الحر وقال ابن سعيد أنها فى خليج السند أكبر فرص السند (موانيها) واشهرها

فيلا كعادة ملوك الهند ، ولكنه لم يمكث طويلا حتى قتل وانهزم أصحابه ، وتبعهم المسلمون يقتلون كيف شاءوا ، وبذلك خلا الجو للمسلمين فى هذه البلاد التى كان يملكها « داهر » ، واتجه محمد بجيشه نحو الشمال يريد الرور، وكانت البلاد تقابله مستسلمة طالبة منه الأمان حتى وصل إلى « ملتان » فقاتله أهلها ، ولكنهم انهزموا فى النهاية بعد حصار شديد فقتل منهم « محمد » المقاتلة وسبى الذرية كما سبى سدنة البد ، وأصاب ذهباً كثيراً لا سيما ذلك الذى كان يهدى إلى صنمهم ، وسيقت الغنائم إلى الحجاج ، فسر بها ورأى كيف نجحت الحملة نجاحاً عظيما فقال : شفينا غيظنا ، وأدركنا ثأرنا ، وازددنا ستين ألف ألف درهم ورأس « داهر »[1] .

وفى الوقت الذى كان فيه قائدنا ينتقل من نصر إلى نصر ، مؤملا أن يضم إلى المملكة الإسلامية مملكة الهند الشمالية وعاصمتها « قنوج » جاءه خبر وفاة عمه الحجاج سنة ٩٥هـ ، وبعد قليل جاءه خبر وفاة الخليفة «الوليد بن عبد الملك» — وكان سنده وسند عمه الحجاج — وتولية « سليمان بن عبد الملك » وكان عدوا للحجاج وأسرته لضغائن قديمة بينهما . . فولى صالح بن عبد الرحمن على العراق، وكان الحجاج قد قتل أخاه، وولى « يزيد بن أبى كبشه » السند، وأمر بعزل محمد بن قاسم ، وحمله إلى العراق مقيدا بالسلاسل مع معاوية بن المهلب حيث حبس فى سجن « واسط » حتى وافاه مصيره المحتوم بعد عذاب شديد سلط عليه . .

ولم يكن لمهارة القائد الشاب، ولا لبلائه فى توسيع رقعة الدوله الإسلامية ، ولا لانتصاراته الرائعة فى الهند ، لم يكن لذلك كله من قيمة أمام حقد الخليفة وواليه فى العراق على الحجاج ، وإذا كان الحجاج قد مات، ونجاه الموت من القشنى ، فقد لقى ابن أخيه ما كان ينتظره لو بقى حيا .. وهكذا كانت الاحقاد والأضغان تلعب بمصائر عظماء القادة والرجال ، ولعلنا نذكر بهذه المناسبة أيضاً مصير قائدين عظيمين من قواد الدولة الأموية وهما قتيبة بن مسلم ، وموسى

---

(١) فتوح البلدان ص ٤٤٥ الطبعة الأولى مطبعة الموسوعات بالقاهرة .

ابن نصير بعد أن فتحا المغرب والمشرق ثم آل أمرهما إلى مثل ما آل إليه أمر الشاب البطل محمد بن قاسم ، مما جعله يتمثل بقول الشاعر .

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

وقد حز هذا المصير فى نفوس كثير من أهل الهند فبكوه كما بكاه الشعراء وانطلقت ألسنتهم ترثيه فقال أحدهم :

إن المروءة والسماحة والندى لمحمد بن القاسم بن محمد
ساس الجيوس لسبع عشرة حجة ياقرب ذلك سؤدداً من مولد

أما هو فقد رثى نفسه وهو فى سجنه حيث قال :

فلئن ثويت بواسط وبأرضها رهن الحديد مكبلا مغلولا
فلرب قينة فارس قد رعتها ولرب قرن قدتركت قتيلا(١)

على أن الذى يسترعى الاعجاب بشخصية هذا القائد الشاب ليس هو هذه الفتوحات العظيمة فحسب ، بل حسن سياسته للبلاد المفتوحة ، وتدبير أمورها وتأليف قلوب أهلها ، وهذه هى ميزة القواد المحنكين رزقها هذا القائد العربى الشاب .

يقول الأستاذ عبد الله يوسف فى كتابه « تكوين الهند » معلقا على حملة ابن قاسم « سر نجاح المسلمين فى هذه الحملة كان مزدوجا ، فلقد كان الهنود الذين يحاربونهم على حال من الفوضى والشقاق، بينما كانت سياسة محمدبن قاسم سياسة صلح وكياسة ، فلما استتب له الأمر ، وكل الأمور الادارية للهنود نائبين عنه ، وكانت سياسة الحكم العليا خيراً مما جرت به التقاليد المحلية ، ومما يؤثر عنه أنه لم يخن عهداً قطعه على نفسه ، ولقد كتب له الحجاج مرة يشيد بمزاياه العسكرية ، ويمتدح له تجشم المشاق فى سبيل إسعاد الشعب وتحسين أحواله ، ويثنى عل سياسة الحكم التى اتبعها ، إذ حدد الخراج الذى

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ملخصا ، وتاريخ الأمم للخضرى .

تدفعه كل قرية على حدة ، وشجع كافة طبقات الشعب على اتباع القانون ، والوفاء بما يقطعون لبعضهم من عهود فارتفعت بذلك سمعة الحكم الآدبية»[1]

وكان من الطبيعى بعد ماجرى لهذا القائد الفاتح أن توجد الفرصة لمن يريد استرداد ملكه أو الرجوع عن الإسلام ، لذلك ثارت القلاقل فى البلاد المفتوحة مما اضطر والى السند إلى الحرب من جديد لاسترداد مافتحه محمد ابن قاسم من قبل، حتى كان عهد «عمر بن عبد العزيز» فكتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام والطاعة، على أن يظلوا فى مراكزهم ، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وقد سبقته سيرته الطيبة إلى أسماع هؤلاء ، فأسلم بعضهم وتسموا بأسماء العرب ، واستمر الحال هكذا فى هذه البلاد : أمير يأتى من قبل الخلافة وأمير يذهب ، وكل منهم مشتغل بتوطيد الحكم الإسلامى فى السند .

وفى أيام أحد هؤلاء الولاة، واسمه الحكم بن عوانة الكلبى بنى مدينة سماها «المحفوظة» وجعلها مأوى للمسلمين، كما بنى مدينة أخرى سماها «المنصورة»[2] صارت مركز الولاة فيما بعد . .

ولما انتقل الحكم إلى الدولة العباسية انتقل حكم السند كذلك إليها ، وأرسل خلفاء الدولة العباسية الولاة إلى السند، فجعلوها تابعة لهم، واستقر الأمر لهم فيها ، وزادوا فى عمارة «المنصورة» ، حتى إذا كان عهد أبى جعفر المنصور تم فتح كشمير والملتان . .

واستمر الأمر على ذلك حتى ضعف سلطان الخليفة العباسى ، وبدأت

---

(١) نقلا عن مذكرة الأستاذ حبيب أحمد .

(٢) ولكن جاء فى صبح الاعشى ص٦٣ ج٥ عن المنصورة : سميت بذلك لأن عمر ابن حفص المعروف بهزار مرد بناها فى أيام أبي جعفر المنصور وسماها بلقبه . وقد صارت مع المحفوظة مدينتين بائدتين اليوم. جاء فى تعليق للاستاذ حبيب : « ويقدر السير إيليوث انهما كانتا واقعتين إلى شمال نهر السند بين الديبل والرور على الضفة الشرقية للنهر، وعلى بعد منه ، وقد أثبتت الكشوف الأثرية صحة هذا التقدير .

الأطراف تنفصل عن مركز الخلافة فى بغداد ، فانفصلت السند كذلك ، وقامت فيها حينئذ ولايتان أو إمارتان للمسلمين، إمارة فى الجنوب وعاصمتها «المنصورة» ، وإمارة فى الشمال وعاصمتها «ملتان»، وقد أتيح الاستقرار لهاتين الأمارتين بما توفر لهما من خيرات البلاد، ومن التجارة الواسعة التى كانت بين السند، وبين الشرق والغرب ، وكان من الطبيعى أن تزدهر العلوم والحضارة العباسية فى هذه البلاد وتصبح ملجأ للفارين من بطش الحكام فى بغداد ، حيث يجدون الأمن والسلام [1] .

ومما لا شك فيه أن وجود المسلمين فى أرض السند وفى ملتان وكشمير كان نقطة ارتكاز للدعاة المسلمين الذين كانوا يقومون فى حماس وصفاء نفس بنشر دعوة الإسلام فى البلاد الهندية كلها، مما كان له أثره — ولاشك — فى انتشار الاسلام رويدا رويدا فيها .

على أن الفتوحات الأسلامية قد توقفت تماما ، وظلت الهند بعيدة عن أى غزو إسلامى، حتى طرق بابها طارق قوى ، كتب بطرقاته هذه صفحات جديدة فى تاريخ الهند والاسلام .

وكان هذا الطارق هو الفاتح المسلم الشجاع السلطان محمود الغزنوى .

---

(١) تاريخ الهند لسيد هاشمى .

الدول الإسلامية في الهند

الدّولة الغزنويّة

كان خليفة المسلمين فى بغداد يمد ظله على كل البلاد الإسلاميه شرقا وغربا، وشمالا وجنوبا، وحين كانت له قوة تؤيد ظله وتؤكد نفوذه تظل هذه البلاد خاضعة لكلمة العاصمة « بغداد » .

فلما ضعف الخليفة، وأصبح خاضعا لقواده من الأتراك والفرس اشرأبت أعناق حكام الأطراف إلى الاستقلال ، وكان هذا هو التفكير الطبيعى لولاة مغامرين يحبون السيطرة والحكم ، والاستقلال بشؤونهم ، فعملوا كذلك ، واستقل كثير منهم ، وكان الخليفة نفسه فى حالة ضعف لاتمتد معها آماله فى حكم هذه الولايات ، وهو لايستطيع حكم بغداد نفسها ، فبقى له اسم الخلافة العباسية ، يمنح بركاته ونفوذه الاسمى لكل من يسترضيه بشىء ما من حكام الولايات ، وكان الحكام يلجئون إلى هذه البركات كيما يدعم لنفوذهم وقوتهم الحربية ، إذ كان الشعب المسلم لا يزال ينظر إلى الخليفة نظرة إجلال باعتباره من سلالة البيت النبوى الكريم .

والذى يعنينا الآن من أمر هذه الولايات ولاية قامت فى أفغانستان ، واتخذت من «غزنه» عاصمة لها ، وقام عليها إسحاق بن «ألبكتكين» واليا من قبل السامانيين الذين كانوا تابعين بالاسم للخلافة العباسية . . ولما توفى إسحاق اجتمع القواد والكبراء على اختيار « سبكتكين » ، لما عرفوه من عقله ودينه ومروءته .

كان «سبكتكين » من غلمان « إسحاق بن ألبكتكين» ، والمقدم عنده فى شؤونه، وعليه مدار أمره، واشتهر بالعقل والعفة ، وجودة الرأى والصرامة . فلما ولى أمر « غزنه » حقق ظن الناس فيه ، وساس أمورهم سياسة حسنة ، وجعل

نفسه كأحدهم فى الحال والمآل[1] وبذلك قامت الدولة الغزنوية السبكتكينية سنة ٩٧٧ م و ٣٦٦ ﻫ وظلت تحكم زهاء قرنين من الزمان . .

وعندما استقر له الأمر فى «غزنه» فكر فى أمر الهند، وبدأ يرسل جيوشه إلى أطرافها الغربية ، وهنا رأى « جيبال » ملك الهند أن ينازله حتى يحد من شوكته، ولكنه هزم، وتعهد بدفع غرامة ،ثم نكث عهده ، فسار إليه سبكتكين وهزمه مرة ثانية ، فعظم شأنه وعلت هيبته فى النفوس .

وكان ولده « محمود » عضده وساعده الأيمن فى كل حروبه ، سواء مع الهند أو مع غيرها من الولاة المسلمين حول إمارة « غزنه »

وبعد ملك دام عشرين سنة توفى ناصر الدين سبكتكين (سنة ٣٨٧ﻫ ٩٩٧م) بعد أن عهد بالملك من بعده لابنه الصغير إسماعيل، وكان محمود غائبا عن العاصمة ، فقدم إليها ، ودارت بينه وبين أخيه مناوشة انتهت بتغلبه وقبضه على ناصية الحكم بعد نحو سبعة أشهر من وفاة أبيه، ولكنه كان كريما مع أخيه فعامله معاملة حسنة كريمة . .

محمود بن سبكتكين الغزنوي

٣٨٧ﻫ ٩٩٧م إلى ٤٢١ﻫ ١٠٣٠م

محمود بن سبكتكين أو محمود الغزنوى — كما اشتهر فى التاريخ — اسم لامع يذكره التاريخ بأعماله وبطولاته، كما يذكره كل هندى مسلم وغير مسلم، باعتباره الرجل الذى أسس بشجاعته وجرأته حكما اسلامياً فى الهند، ظل يزدهر ويقوى من بعده على يد عدة أسر نحو ثمانية قرون ونصف قرن ، حتى انطوت صفحته على يد الإنجليز نهائياً سنة ١٨٥٧م . .

---

(١) تاريخ الأمم للخضري ج٣ ونزهة الخواطر للعلامة عبد الحي الهندى ج١ ص ٧١

ولد محمود سنة٣٥٧هـ ٩٦٧م[1]، وارتقى أبوه عرش الملك فى غزنه وهو صغير لم يعد العاشرة من عمره، فشب واكتمل شبابه فى رعاية أبيه، وأتيح له أن يشارك فى الحروب الكثيرة التى قام بها أبوه حتى اشتهر أمره، وسمى سيف الدولة، كما لقب أبوه بناصر الدولة . . .

ولما انتصر على أخيه إسماعيل بعد شهور من وفاة أبيه، وامتلك زمام الحكم بدأ يتجه إلى من حوله من أمراء المسلمين الذين يخشى منهم على مملكته، فقامت بينه وبينهم حروب انتهت بانتصاره حتى على الدولة السامانية التى كان يتبعها اسمياً، فتخلص من هذه التبعية، وكتب للخليفة العباسى يلتمس منه الاعتراف به أميرا على «غزنة»، فأرسل إليه الخليفة القادر يقره أميرا عليها، وأنعم عليه بالخلع الخليفية، ثم بعد مدة أنعم عليه بلقب أمين الملة، ثم بلقب يمين الدولة بعد انتصاراته بالهند .

كان محمود طموحا جريئاً، وكان متديناً غيوراً، وقد رنى ببصره إلى الساحات التى يرضى فيها طموحه وغيرته، ولم يمكث طويلا حتى اتجه إلى الهند التى كان قد طرق أبوابها، وخاض حروبا مع بعض ملوكها فى عهد أبيه . . ففيها يجد مايرضى طموحه وغيرته الاسلامية . . فهى بلاد واسعة مترامية الأطراف، يحكمها ملوك مختلفون، ويسكنها أناس لايزالون يعكفون على أصنام لهم . فهى إذن ساحة الجهاد التى تناسبه . .

ولقد قضى محمود الفترة الأولى من حكمه يحارب أمراء مسلمين، وكأنه وجد عمله هذا فى نهايته أمرا غير مرغوب فيه، فاتجه للهند عله يكفر عما كان بينه وبين المسلمين من حروب، ونجد هذا الإحساس واضحا حين أعلن أنه يريد أن يغزو الهند غزوة تكون كفارة لما كان منه من قتال المسلمين[2]، ونتيجة لهذا أمضى محمود نحو خمسة وعشرين عاما فى حرب

---

(١) يقول ابن الاثير أنه ولد فى يوم عاشوراء سنة ٣٦٠هـ .

(٢) ابن الاثير ص٥٨ جـ ٩ .

وجهاد ، وفتح لبلاد الهند ، ورفع للواء الإسلام فوق أراضيها ، فحقق بذلك أمنيته، وأخذت شهادة التوحيد يتردد صداها في بلاد مترامية الأطراف، بينما تتداعى الأصنام والهيا كل واحدا بعد الآخر ، وتقوم على أنقاضها وبدلا منها بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، وكان السلطان محمود كلما غزا غزوة ،وأحرز انتصارا وجمع غنائم رجع إلى عاصمة ملكه «غزنه» ، وعلى جبينه أكليل النصر ، وبين يديه الغنائم الوافرة يوزعها على شعبه ، ويستعين بها فى مشاريعه وإصلاحاته العديدة ، ويستريح ويباشر أمور الحكم ، بينما قواده ونوابه يوطدون سلطانه فى الهند ، ثم يعود من جديد إلى ميدان الجهاد ليحرز نصرا وفخرا ، ويضم بلادا جديدة إلى مملكته التى تتسع يوما بعد يوم . .

* * *

بدأ محمود غزواته للهند فى سنة ٣٩٢هـ - ١٠٠١م حيث التقى بالملك «چيبال» فى المحرم من هذه السنة ، وكانت عدته من المحاربين نحو خمسة عشر ألفاً ، أما «چيبال» فكان معه نحو ١٢ ألف فارس ، ٣٠ ألفاً من المشاة ، ٣٠٠ فيل وبالرغم من كثرة عدد العدو ، واستماتته فى القتال فأن «محموداً» تغلب عليه ، وأسر «چيبال» مع ١٥ رجلا من أبنائه وأقربائه بعد أن أعمل القتل فى جنوده . .

وقد غنم محمود غنائم كثيرة ، منها قلادة ثمينة كانت فى عنق چيبال، يقول عنها ابن الأثير(١)، إنها كانت من الجوهر العديم النظير ، قومت بمائتى ألف دينار وأصيب أمثالها من أعناق الأسرى قدرها المؤرخ فرشته(٢) بنحو خمس

---

(١) ص ٥٩ ج ٩ (٢) ج ١ واسم هذا المؤرخ الهندي «الحكيم محمد قاسم البيجابورى» واشتهر تاريخه باسم تاريخ فرشته فى أربعة أجزاء كتبها بالفارسية وترجمت للأوردية ، ويمتاز بالأسهاب فى ذكر الجزئيات عن تاريخ الهند . . . واسم الكتاب فى الأصل «كلزار ابراهيمى» فرغ من تصنيفه سنة ١٠١٥هـ وقد خدم المؤلف فى مملكة أحمد نكر بالجنوب، ثم انتقل إلى إبراهيم عادل شاه ملك بيجا بور وصنف له هذا الكتاب وكان شيعيا من كبار العلماء. نزهة الخواطر ج ٥ ص ٣٨٥ مختصرا

عشرة قلادة من الجواهر النفيسة قدرت كل واحدة منها بنحو ١٨٠ ألف دينار ، كما استولى محمود على كثير من الأسرى . . ويقول ابن الأثير « فلما فرغ محمود من غزواته أحب أن يطلق «چيبال» ، ليراه الهنود فى شعار الذل، فأطلقه بمال قرره عليه فأدى المال . ومن عادة الهنود أن من وقع فيهم أسيرا فى أيدى المسلمين لم تنعقد له بعدها رياسة، فلما رأى « چيبال » حاله حلق رأسه ، وألقى بنفسه فى النار . .

أما محمود فبعد استيلائه على « بشاور » سافر إلى « بهندا » أو « ويهند » فحاصرها حتى استسلمت ، ثم رجع من الهند فى المحرم سنة ٣٩٣ هـ ١٠٠٢ م .

***

وفى سنة ٣٩٥ هـ ١٠٠٠ م رجع محمود إلى الهند ليغزو « بهاطيه » بجانب « ملتان » وكان واليها « راجابجى راؤ » أو « بجيرا » كما يسميه ابن الأثير ، وكانت مدينة محصنة يحيط بها خندق عميق ، وكان واليها مغتراً بكثرة جنوده وأفياله، ويظهر عدم المبالاة بمحمود ونوابه ، فلما التقى الجمعان استمرت الحرب سجالا ثلاثة أيام ، ثم انتهت بانتصار محمود ، وفرار الوالى بما بقى من جيوشه إلى داخل المدينة ، فسبقهم المسلمون إلى مداخلها واستولوا عليها ، وفر الوالى وجماعة معه إلى صحراء السند ، فتعقبه المسلمون، حتى إذا وجد نفسه سيقع فى أيديهم قتل نفسه ، وقطع المسلمون رأسه، وأرسلوا به إلى محمود ، كما قتلوا كل من كان معه ، وتم لمحمود النصر ، وغنم غنائم كثيرة من الأموال والأفيال ، وأقام بها مدة يصلح شئونها ، ثم رجع إلى غزنة بعد أن ترك بالهند من يرعى أمرها ، ويعلم الناس الأسلام فيها . .

***

وفى سنة ٣٩٦ هـ — ١٠٠٥ م . توجه محمود لفتح « مولتان » ، وكان حاكمها المسلم الشيخ « حميد لودى » مطيعا له ، ولما توفى استخلف « أبا الفتوح » الذى اشتهر عنه خبث اعتقاده وإلحاده، ودعوة الناس إلى الألحاد، واستجابتهم إليه ، فرأى محمود أن يجاهده ليرجعه عما هو عليه، فسار إليه

واضطر قبل أن يحاربه أن يؤدب « أمنديال » أو « أنديال » كما يسميه ابن الأثير، وكان واليا على لاهور، وذلك لاستنجاد أبي الفتوح به، وقيامه لنصرته ومنازلته لجيوش محمود، وكانت النتيجة إنهزام جيوشه وفراره حتى بلغ كشمير. فتركه محمود وسار إلى « مولتان »، فلما رأى واليها ما أصاب هذا الملك القوى داخله الرعب، وأعلن الاستسلام لمحمود، وندم على ما فعل، ورجع عن إلحاده، ورضى بأن يرسل إلى السلطان عشرين ألف دينار كل سنة، فقبل محمود منه ذلك وأقره على ولايته « مولتان » .

هذا مايقرره المؤرخ « فرشته »، أما ابن الأثير فيقول إن محمودا اضطر لحرب « أنديال » لأنه لم يسمح لمحمود بالمرور من أراضيه، كما يقول: إن أبا الفتوح لم يستسلم، بل نقل أمواله إلى « سرنديب »، وترك مولتان فوصلها محمود، وحاصرها حتى افتتحها عنوة، فوجد أهلها فى ضلالهم يعمهون، وألزم أهلها بعشرين ألفا عقوبة لهم ..

* * *

ويضيف ابن الأثير أن السلطان الغزنوى سار بعد ذلك فى هذه السنة سنة ٣٩٦ هـ إلى قلعة « كواكير » وكان بها ستمائة صنم، فافتتحها وحرق أصنامها، فهرب صاحبها إلى قلعة « كالنكر » فسار خلفه، وكانت حصناً كبيراً يسع خمسمائة ألف إنسان، وفيه خمسمائة فيل، وما يكفى الجميع مدة، فلما وصل إليها محمود حاصرها ثلاثة وأربعين يوما، ثم بلغته أنباء سيئة عن خراسان، فقبل ما عرضه عليه الوالى من الصلح على خمسمائة فيل وثلاثة آلاف مَنّ من الفضة(١)، ولبس الوالى الهندى خلعة يمين الدولة، وطلب أن يعفيه من شد المنطقة، فلم يستجب له، فشدها وقطع خنصره، وأرسلها إليه

---

(١) عرفت أثناء إقامتى بالهند أن المن أربعون سيرا أى ثمانون رطلا، ووجدت فى التعليق على رحلة ابن بطوطه فى الهند أن المن رطل ولعل ذلك كان فيما مضى وهو ما يميل إليه العقل فى مثل حالتنا هذه ..

توثقة لعهده فيما يعتقدونه ، وعاد يمين الدولة إلى خراسان لأصلاح الأمور بها . .

* * *

وفى سنة ٣٩٩ هـ ١٠٠٨ م ، خرج محمود من غزنه لاخضاع « أنديال » نهائيا، وكان قد حاربه وتعقبه حين سار إلى مولتان ، ولكنه فر إلى كشمير، وتركه محمود ، وسار إلى مولتان . . ولما علم « أنديال » بخروج محمود أسقط فى يده ، ثم رأى أن يراسل ملوك الهند ، يستعين بهم لصد هذا الغازى المسلم الذى يعتبر خطراً عليهم جميعاً ، فاستجاب له ملوك « أجين وگواليار وكالنگر وقنوج . وأجمير، ودهلى، وأرسلوا جيوشهم إلى البنجاب ، وعسكر الجمعان فى صحراء بشاور ، وكانت جيوش الهندوسيين تتزايد يوما بعد يوم.

وهنا نجد عملا جليلا فى معناه تقوم به النساء المسلمات ، فقد تبرعن بحليهن — كما يروى ابن الأثير — ، وبما استطعن جمعه من المال إلى الجيش الاسلامى فى الهند ، ورأى محمود إزاء تكاثر العدو كل يوم أن يحتاط فى الحرب ، فحفر الخنادق ثم تقابل الجيشان ، ودارت المعارك العنيفة ، وابتلى المسلمون وزلزلوا زلزالا شديداً ، لكن الله أراد لهم النصر فى النهاية ، فأن الفيل الذى كان يركبه « أنديال » أصابه ذعر أثناء المعركة ففر به ، ورأى جنوده أن ملكهم قد فر،فتابعوه وتبعهم المسلمون يعملون فيهم القتل حتى قتلوا ثمانية آلاف منهم ، ورجعوا إلى محمود بما حملوه من غنائم كثيرة .

* * *

ثم سار محمود إلى قلعة « نگركوت » أو « بهيم » واستولى عليها ، وكان الهندوس قد جعلوها مركزا وخزانة لصنمهم الأعظم ، ينقلون إليها أنواع الجواهر وأنفسها تقربا إلى آلهتهم ، فاجتمع فيها على طول الأزمان مالم يسمع بمثله عند أحد الملوك من النقود واللآلى واليواقيت ، وقد اضطر الهندوس للتسليم ، لما رأوه من حرص المسلمين على القتال واستبسالهم فيه ، وفتحوا

باب القلعة ، وصعد يمين الدولة إليها مع بعض خواصه ، فأخذ منها من الجواهر مالا يحد، ومن الدراهم تسعين مليونا، ومن الأوانى الذهبية والفضية سبعمائة ألف وأربعمائة مَنًّا .

وذكرها «فرشته» هكذا ٧٠٠ ألف دينار من الأوانى ، والحلى سبعمائة من من الذهب والفضة ، ومائتى منّ من الذهب الخالص، وألفين من الفضة الجيدة وعشرين منا من اليواقيت والأحجار الثمنية . استولى عليها كلها ، ورجع بها إلى غزنة ، حتى إذا وصل إليها بسط كل غنائمه أمام الناس الذين أخذوا يفدون من كل مكان ليروا هذه الغنائم العجيبة والخيرات الوفيرة الثمينة ،وبقى هذا المعرض هكذا ثلاثة أيام ، وقد اجتمع عنده رسل الملوك، وأخذ يقسم هذه الأموال على الفقراء والمساكين وغيرهم ممن أراد أن يؤلف قلوبهم .

ولاشك أن مثل هذا المعرض وما حواه من نفائس كان بجانب الروح الدينية أكبر حافز على التطوع فى جيش هذا الغازى المنتصر، والذهاب إلى أرض الهند ، حيث يجدون النصر والذهب والجواهر الثمينة . .

* * *

وفى سنة ٤٠٢ هـ — ١٠١١ م كما يذكره فرشته أو ٤٠٥ هـ كما يذكر ابن الأثير توجه محمود لغزو «تهانسير»[1] لما سمعه من أن الهندوس يتخذون فيها صنما يعتقدون قدم وجوده، ويحيطونه بضروب التعظيم، فأراد محمود أن يقضى على هذا الصنم، ويذكر ابن الأثير أنه لقى فى طريقه كثيرا من ضروب المشقات ، لكنه استطاع التغلب عليها والاتصال بعدوه والانتصار عليه .

أما فرشته فيذكر قصة يحسن أن نوردها، لما تنطوى عليه من دلالة طيبة، فقد ذكر أن أحد الملوك الهندوس ـ وكان على صلح ومودة مع محمود ـ كتب إليه حين علم بتوجهه إلى تهانسير يقول له بعد أن عرض إخلاصه وطاعته

(١) يذكرها ابن الأثير ص ٨٤ جـ ٩ باسم تانيشر . ولكن الأسم الأول هوالذى ينطقونه للآن .

إننى أعرف أن هدم المعابد الهندوسية شىء تتقربون به إلى الله ، وقد حصلتم على هذا التقرب بما هدمتم من معابد، لاسيما فى قلعة «نكركوت»، ونحن على استعداد لدفع ما تريدون من مال وجواهر ، وأرسل لكم زيادة على ذلك خمسين فيلا كل عام ، على أن تترك المعابد ولا تهدمها .

فأجابه محمود: إننا نحن المسلمين نعمل أولا على نشر الإسلام وهدم معابد الأصنام، ونعتقد أننا سنجد على ذلك أضعافا مضاعفة من الأجر والثواب عند الله ، ولا حاجة لنا إلى المال . .

ولما سمع ملك دلهى عن قصد محمود هدم هذا المعبد ،كتب إلى ملوك الهند يستحثهم على الوقوف فى وجه هذا الفاتح المعتدى على أصنامهم ، فلما عرف محمود ذلك أسرع فى الهجوم قبل أن يتجمعوا، فهدم المعبد وكسر مافيه من أصنام إلا صنما كبيراً أرسله كما هو إلى « غزنه » حيث ألقاه فى الطريق يمر عليه الناس، ويطئونه بأقدامهم .. وقد ذكر المؤرخون أنه غنم من هذا المعبد ياقوتا كان وزنه ٤٥٠ مثقالا عاد به مع الغنائم الأخرى إلى غزنه ظافراً منتصراً، وقد صارت غزنه لكثرة مافيها من الأسرى الهندوس كأنها مدينة هندية . .

* * *

وفى سنة ٤٠٦ هـ ١٠١٥ م ، توجه يمين الدولة إلى كشمير ، ويختلف المؤرخون فى نتيجة هذه الحملة ، فالمؤرخ « فرشته » يذكر أنه لم يستطع فتحها لكثرة الثلوج وشدة البرد فرجع عنها . أما ابن الأثير فيذكر أن صاحب كشمير قابله حين اقترب منه وأسلم على يديه .

* * *

ثم سار محمود إلى الشرق يتابع انتصاراته وإخضاع الولاة فى طريقه إلى « قنوج » وكان فى شعبان سنة ٤٠٧ هـ ١٠١٦ م ، أما فرشته فيقول إنه سار من غزنه فى سنة ٤٠٩ هـ ١٠١٧ م إلى «قنوج» ويتفق الأثنان على أن ملكها

على عظمته وهيبته بين ملوك الهند لم يستطع مواجهة محمود، بل ترك عاصمته وفر، فدخلها محمود وكسر أصنامها وغنم ما فيها من أموال، وإن كان فرشته يذكر أنه حضر إليه خاضعا فعفا عنه وأدخله فى خواصه، وقيل إنه بعد ذلك أسلم . . . ثم أخذ محمود بعد ذلك يوالى زحفه وانتصاراته فاستولى على قلعة « ميرت » « وكلجند » « ومترا » التى كانت تابعة لملك دلهى، والتى بهرته بما فيها من غنائم ثمينة، وما كانت عليه من المبانى الفخمة العالية، حتى كتب رسالة إلى غزنة يصفها ويذكر عجائبها . ثم استولى على قلعة « جنديال » ثم قلعة « شروه » وكان صاحبها « جندرائى » .

وهكذا انتقل يمين الدولة من نصر إلى نصر، لم يقف أمام أى حصن، ولم يأبه لأية صعوبة، ورجع إلى غزنه محملا بالغنائم ذات الأرقام الخيالية من الجواهر والذهب والفضة والأفيال والأسرى . .

ولما عاد من هذه الغزوة أمر ببناء جامع غزنة فبنى بناء لم يسمع بمثله حتى قيل انه أنفق ماجمعه فى هذه الغزوة على بنائه، كما أمر ببناء مدرسة كبيرة أمام المسجد كانت مكتبتها تحوى آلاف الكتب النادرة التى لاتوجد إلا فى غزنة . .

وفى سنة ٤١٠ھ ١٠١٩م كتب محمود إلى الخليفة العباسى فى بغداد يخبره بفتوحاته فى الهند، فابتهج الخليفة وأعلن هذا النبأ السار على الناس، فشاركوه ابتهاجه، وعقدت المجالس المتعددة لأعلان هذا الابتهاج، والدعاء لمحمود الذى اعتبروه مجددا لعهد الصحابة فى فتح البلاد ونشر راية الإسلام، وكان ذلك بمثابة عيد عظيم فى بغداد، وأنعم عليه الخليفة بالألقاب والخلع(١) .

وفى سنة ٤١٣ ھ ١٠٢٢ م توجه محمود إلى « گواليار » جنوب دلهى بمسافة كبيرة، فحاصر قلعتها عدة أيام حتى اضطر ملكها إلى الصلح معه وتقديم الأموال اليه . .

---

(١) تاريخ فرشته ص ٩٤ ج ١

فى سومنات :

ولنترك هذا لننتقل إلى غزوة أخرى هامة من غزاوت البطل الناجح . ففى سنة ٤١٦ هـ ١٠٢٥ م . توجه محمود إلى « گجرات » وكان يقصد بالذات « سومنات » ومعبدها الشهير فى الهند على شاطئ بحر العرب(١) . .

كان فى هذا المعبد صنم يعرف بسومنات، وكان من أعظم أصنام الهند يحجون إليه كل ليلة خسوف، وتزعم الهنود أن الأرواح إذا فارقت أجسادها اجتمعت عنده ، لينشئها من جديد فى جسم آخر على حسب ما كانت عليه من خير أو شر ، وذلك على أساس فكرتهم فى التناسخ . وكان « شيفا » عندهم هو إله الحياة والتبديل ، وكأن سومنات أصبح عندهم هو القائم بهذا العمل ، وكان يدعون أن المد والجزر الذى يحدث عندهم فى البحر إنما هو عبادة البحر له على حسب مايستطيع ، وكان المعبد مبنيا على ست وخمسين سارية من الساج المصفح بالرصاص ، أو بصفائح الذهب المرصعة بالأحجار الكريمة كما يقول « چوستاف لوبون » ! أما سومنات الصنم نفسه ، فكان من حجر طوله خمسة أذرع ، ثلاثة مدورة ظاهرة، واثنان فى البناء ، وكان فى حجر ذمظلمة تضيئها قناديل الجوهر الفائق . . كما كان عنده سلسلة ذهبية وزنها مائتا منّ ، وعنده خزانة فيها عدة من الأصنام الذهبية والفضية ، وعليها الستور المعلقة المرصعة بالجواهر ، كل واحدة منسوبة إلى عظيم . .

فقد كان الهندوس يحملون إليه كل نفيس، ويغدقون على سدنته ، وله من الوقف مايزيد على عشرة آلاف قرية ، فاجتمع فى البيت من نفيس الجواهر مالا تحصى قيمته ، وكان من شدة تعظيمهم له يحملون له الماء من نهر « گنگا » المقدس على بعد مئات الأميال ، ويكون عنده من البراهمة كل

---

(١) وقد رسمها المرحوم الأستاذ حبيب فى خريطة بكتابه ص ٨ بين دلهى وعليكره فى الشمال، وهو خطأ أظن أن منشأه هو وجود محطة قبل عليكره اسمها قريب الشبه من هذا الأسم ، وقد لفت التشابه نظرى حين مررت عليها . .

يوم ألف رجل لعبادته وتقديم الوفود إليه . وثلاثمائة رجل يحلقون رءوس الزوار ولحاهم ، وثلاثمائة رجل وخمسمائة أمة يغنون ويرقصون . ذلك هو معبد سومنات . .

ولقد كان موقعه فى أقصى جنوب الكجرات على شاطىء بحر العرب ، والطريق إليه من الشمال صعب تحفه الأخطار . . فما الذى حمل محمود على ركوب هذه الأخطار ، والمجازفة بجيشه فى عبور الصحراء ، وقطع المسافات الشاسعة ؟ .

هنا يحدثنا المؤرخون أن الأخبار وصلت إلى سمعه ، أن الهندوس يحكون فيما بينهم كلما هدم معبداً وحطم صنما أن « سومنات » غاضب على هذا الصنم ، ولو كان راضياً عنه مااستطاع محمود أن يحطمه ، ولهلك قبل أن يبلغه ، فعزم على غزوه وتحطيمه ، ظناً منه أن الهنود إذا فقدوه ، ورأوا ما حل به عرفوا كذب ادعائهم وفاقوا إلى رشدهم ، ورجعوا عن عبادة الأصنام ودخلوا فى الإسلام . . وهكذا سيرته عقيدته الدينية التى تستسهل الصعب ولا تعرف الخطر . .

فسار من غزنه فى شعبان سنة ٤١٦ هـ ١٠٢٥ م ومعه ثلاثون ألف فارس سوى المتطوعين ، وقبل أن يخوض الصحراء تزود لها ، وزاد على حاجته عشرين ألف جمل تحمل الماء والزاد ، فاجتاز الصحراء فى سلام حتى وصل إلى كجرات ، ومنها إلى سومنات مستولياً على البلاد والقلاع التى فى طريقه دون مشقة . .

وكان وصوله إليها فى منتصف ذى القعدة سنة ٤١٦ هـ ١٠٢٦ م . فوجد حصناً عالياً منيعاً مبنياً على ساحل البحر ، ورأى أهل سومنات قائمين على الأسوار يتفرجون على المسلمين ، وكأنهم ينتظرون مصيرهم المحتوم على يد سومنات ، فقد كانوا واثقين أنه سيقطع دابرهم ، وسيأخذ بثأر الأصنام منهم وكانوا يقولون : تعالوا يا معشر المسلمين ، لقد دعاكم سومنات ليهلككم جميعاً ، ويأخذ بثارات الأصنام التى كسرتموها .

ولكنهم ما لبثوا أن أفاقوا من أوهامهم ، وسيوف المسلمين تحصدهم حصداً ، وهنا يتقدم جماعة منهم إلى سومنات يلوذون به ، ويسألونه النصر ويعفرون وجوههم ، ولكن برغم ذلك كثر القتل فى الهنود حتى انهزموا ، ولجأوا إلى المعبد يدافعون عنه، وكانوا يدخلون إلى صنمهم يعانقونه ويبكون، ثم يخرجون للقتال ، وكان قتالا دموياً حاراً، لعبت فيه العقيدة دورها فى دفع أهلها إلى الاستبسال فى الدفاع أو الهجوم ، ولكن استبسال الهنود لم يجد نفعاً أمام المسلمين ، بل دفعهم إلى الفناء جماعة بعد جماعة ، حتى لم يجدوا بداً من الفرار ، وترك معبدهم فى يد المسلمين يفعلون به ما يشاءون ، ولاذوا بالمراكب، ولحقهم المسلمون فقتلوا بعضاً وأغرقو بعضاً . وهكذا تم النصر للمسلمين ، واستولى محمود على كل ذخائر المعبد ومجوهراته بعد أن هدمه وحطم صنمهم . وقد توسل الكهنة ألا يمس معبودهم ويعطوه ماشاء من مال، ولكنه أبى ، فإنه لم يخرج لطلب المال، وإنما خرج لإعلاء كلمة الله وهدم هذه الأصنام التى تعبد من دون الله .

وقد قدر ابن الأثير قيمة ما غنمه محمود من هذا المعبد بعشرين ألف ألف دينار (٢٠ مليوناً) . أما الصنم فقد كسره محمود ، وأخذ بعضه وجعله فى عتبة المسجد العظيم الذى بناه فى غزنه ، كما أخذ أبواب سومنات ، وحملها معه إلى عاصمة ملكه « غزنه » .

وبمقدار ما فرح المسلمون وهللوا وكبروا لتحطيم هذا المعبد والقضاء على أوهام الهندوس حوله، استولى الحزن والكمد على نفوس الهنود، وبقى أثره البعيد الغور فى نفوسهم جيلا بعد جيل .

ولقد رأينا حكومة الهند بعد أن ظفرت باستقلالها تعمد إلى إعادة بناء هذا المعبد من جديد ، وافتتحه رئيس الجمهورية فى احتفال عظيم (١) .

(١) والمسلمون يتناقلون فيما بينهم أن كل مولود فى باكستان ولد فى يوم افتتاح هذا المعبد سمى باسم « محمود » كما يقولون إن أحد الشعراء قال شعراً يناجى فيه محمود الغزنوى بهذه المناسبة ، هكذا سمعت من الكثيرين ..

وفى طريق محمود إلى غزنه أخضع بعض البلاد وضمها إلى مملكته الواسعة ..

وقد ظل محمود بعد هذا يواصل جهاده وحروبه، سواء أكان فى الهند أم فى خراسان وغيرها، حتى مرض وظل مرضه سنتين ، ومع ذلك لم يحتجب عن الناس ، وظل يباشر أمور ملكه حتى توفى قاعداً فى شهر ربيع الثانى سنة ٤٢١ هـ — أبريل سنة ١٠٣٠ م بعد أن أوصى بالملك لابنه الصغير محمد ، تاركا ولده الكبير مسعود ، كما فعل أبوه من قبل معه ..

وكان قد أقام أحمد بن نيالتكين نائباً عنه ، وقائداً لجيوشه فى الهند .. وقد دفن بغزنه فى قبر يحيط به مسجد عظيم ، وقد احتفظ فيه ببعض آثاره من الهند منها القضيب الذى كان يحطم به الأصنام، وكذلك أبواب سومنات ، وظلت هذه الآثار باقية فى أفغانستان حتى سنة ١٨٣٢ . فاختفى القضيب ، ونقلت الأبواب الأثرية إلى الهند حينما غزا الانجليز الأفغان سنة ١٨٣٩[١] .

محمود فى نظر التاريخ :

مات محمود وأصبح فى ذمة التاريخ ، وشغل المؤرخون وتعبوا فى تتبع أعماله وسردها .. وما دونوا كل أعماله حتى ليقول ابن الأثير بعد أن كتب الكثير العظيم عنه، هذا هو بعض ما بلغنا عن أعماله وفتوحاته ..

وإن الإنسان ليدهش حين يقرأ ما قام به ، كيف استطاع أن يقوم بكل هذا، ويقطع كل هذه المسافات، ويفتح هذه الفتوحات ؟ ! ولكن هكذا يكون النادرون من عظماء الرجال ننظر إليهم وكأنهم عمالقة ، نسرح ببصرنا إلى أعلى فيأخذنا الدوار من طول النظر . . وما بلغنا الإحاطة بمن ننظر إليه . .

(١) مذكرة الأستاذ حبيب نقلا عن الأستاذ عبد المجيد العبد . ولكن أخبرنى مولانا حفظ الرحمن مدير جمعية علماء الهند وعضو البرلمان المركزى فى دلهى، أن الانجليز نقلوه إلى بلادهم لا إلى الهند ..

يقول ابن الأثير عنه[1]: كان يمين الدولة عاقلا ديناً عنده علم ومعرفة، صُنف له كثير من الكتب فى فنون العلم، وقصده العلماء من أقطار البلاد، وكان يكرمهم ويقبل عليهم ويعظمهم ويحسن إليهم، وكان عادلا كثير الإحسان إلى رعيته والرفق بهم، كثير الغزوات ملازماً للجهاد، وقد ذكرنا منها ماوصل إلينا على بعد الدهر». ويقول المؤرخ «فرشته»: اتفق المؤرخون على أن السلطان محمودا كان جامعاً للمحاسن الدينية والدنيوية، كما عرف بسياسته وشجاعتـه وعدله، وكان أكثر غزواته لإشاعة الإسلام، وإقامة العدل واستئصال الظلم، وكان من أشجع الملوك، يمشى إلى الحروب كالسيل لا يبالى الخطر بل يركبه..

ثم يقول ومع هذا فقد اتهمه بعض المؤرخين بالحرص والطمع، وهذا غير صحيح. حقيقة إنه كان يحب أن يجمع المال، لكن لا ليدخره، بل لينفقه على مصاريفه من الفقراء والمساكين والعلماء والشعراء. فقد اجتمع فى بلاطه من العلماء والشعراء وأهل الفن مالم يجتمع عند غيره، وما كان يمكن هذا إلا بالبذل والعطاء[2]. وقال الأستاذ عبدالله يوسف فى كتابه «تكوين الهند»[3].

لقد وصف المؤرخون السلطان محمود الغزنوى بأنه متعصب طامع متعطش للدماء مغرم بالتدمير، ولكنها صورة تبعد عن حقائق التاريخ كل البعد، فقد كان فى سبيل الله محاربا موهوبا، نصب نفسه للقضاء على عبادة الأصنام، وقد رأى والده، فيما يرى النائم الرسول عليه السلام، وهو يقول أن مملكة غزنة ستكون من نصيبه جزاء له على حسن صنيعه، وأضاف

---

(١) جزء ٩ ص ١٣٩ .

(٢) ج ١ الطبعة الأوردية .

(٣) نقلا عن مذكرة الأستاذ حبيب، وأعتقد أن هؤلاء المؤرخين الذين يشير اليهم مؤرخون غربيون أوغير مسلمين، يرون فى تحطيم الأصنام تعصبا وغراما بالتدمير:

الرسول إلى ذلك قوله « لاتجعل جبروتك يطغى على فضائلك ، وثابر على إسداء الخير للانسانية » . وقد كانت هبات السلطان محمود لشاعره الفردوسى أقل مما كان الشاعر يتخيل — بخياله الخصب — أنه سيكون من نصيبه،(١) ولكن السلطان محمود كان سخياً فى عطائه لرجال بلاطه من العلماء ، وكان أكثر ذلك سخاء فى هباته للمكتبة والمتحف ، والمساجد العديدة والمبانى العامة التى شيدها فى عاصمة ملكه .

وجاء فى كتاب حاضر العالم الإسلامى(٢) .

يعترف مؤرخو الأفرنج بأن محمودا الغزنوى لم يكن فاتحا غازيا عالى المكانة من الجهة العسكرية فقط ، بل إنه كان سلطانا عاقلا أديباً كيسا جامعاً بين دولتى السيف والقلم ، وقد ضم بلاطه الفارابى والفردوسى والبيرونى. وقد كان السلطان محمود هو الذى اقترح على الفردوسى نظم الشاهنامه، ووعده بأن يكافئه على كل بيتين قطعة من الذهب ، إلا أن ذلك أثار عليه غضب حساده ، فوشوا به إلى السلطان، فبدل الفضة بالذهب ، فغضب الفردوسى وفر وهجاه هجوا مرا ، وندم السلطان وأمر من يرجعه إليه، ولكن الفردوسى كان قد مات . . وقد نبغ فى أيامه بديع الزمان الهمذانى ، وكان عامله على هراة وأبو بكر الخوارزمى » .

وجاء فى نزهة الخواطر(٣) .

كان السلطان من أعيان الفقهاء له مؤلفات . منها التغريد فى الفروع ، وهو مشهور فى بلاد غزنة فى غاية الجودة، وكثرة المسائل، وبه نحو ستين ألف مسألة ، ولاندرى متى تفرغ لمثل هذا التأليف ولكن لاعجب فقد كان صاحب

---

(١) يشير بذلك إلى حادثة الفردوسي مع السلطان التي يأتي ذكرها نقلا عن كتاب حاضر العالم الأسلامي . . .

(٢) ص ٢٨٩ جـ ٤ للامير شكيب أرسلان (٣) جـ ١ ص ٩٠ للعلامه عبد الحي الحسني الهندى .

السيف والقلم . . ويقول جوستاف لوبون[١] .

« وماتم على يد محمود الغزنوى من فتح فذو طابع دينى سياسى ، فمحمود الغزنوى كان مسلما متين العقيدة تواقا إلى رفع شأن الشريعة النبوية ، فأعلن فى كل مكان أنه ناشر لدين العرب وحضارتهم ، فأنعم عليه خليفة بغداد بلقب يمين الدولة » .

ذلك هو محمود الغزنوى كما تصوره أعماله وكما كتب عنه المؤرخون . . رجل عظيم ونادر بين العظماء ، ومهما حاول بعض المؤرخين أن يلصقوا به بعض العيوب فعلى فرض ثبوتها فأنها تتضاءل بجانب نواحيه العظيمة الكثيرة ، فأن الرجل لا يقاس على أساس أنه معصوم من العيوب ، ولكن على قدر محاسنه وعيوبه تقاس عظمته بين العظماء . . .

لقد وضع بجهوده النادرة وجهاده المخلص أساس دولة إسلامية عظيمة فى الهند ظلت أكثر من ثمانية قرون تقوى وتزدهر . . وليس هذا هو المهم وحده ، فإن الملايين ممن هداهم الله للإسلام ، وما زال يهديهم بسبب ماخطه هذا البطل العظيم فى أرض الهند ، ليذكر كل من أتى بعده بعظمته وبما قدم للاسلام من خدمات ، وإن المسلمين الذين يعدون فى الهند بعشرات الملايين ، وما أضافوه ولا زالوا يضيفونه للاسلام من قوة ، وما خدموه به من فكر ورأى ليمثلون أمام الأجيال من بعده عظمة ماقام به هذا البطل المسلم عليه رحمة الله[٢] .

---

(١) ص ٢١٨ من كتاب « حضارة الهند »

(٢) لاحظت أثناء اقامتي فى الهند شدة تقدير المسلمين لمحمود الغزنوي على عكس نظرة الهندوس الذين ينظرون اليه والى أعماله نظرة عداء . وبهذه المناسبة أذكر ما سمعته كثيراً من أن الهندوس يكرهون بل يمقتون كلمة الجهاد والمجاهدين .

خلفاء محمود فى الهند

بعد وفاة محمود تابع خلفاؤه من الملوك الغزنويين حكمهم لأرض الهند وتوسعهم فى ضم أراض جديدة منها إلى حكمهم . .

جاء بعده ولده « مسعود » الذى أخذ الملك من أخيه محمد بعد وفاة والده بشهور ، فتابع سياسة أبيه فى الفتح والتوسع « وكان شجاعا كريما محبا للعلماء كثير الأغداق عليهم ، صنفوا له التصانيف الكثيرة كالقانون المسعودى فى الرياضة للبيرونى(١) ، والكتاب المسعودى فى الفقه الحنفى للقاضى أبى محمد الناصحى »(٢) وقتل مسعود أثناء ذهابه للهند سنة ٤٣٢ هـ/١٠٤٠ م على يد أخيه ، محمد وأولاده ، وجاء بعده ابنه « مودود » وسار سيرة أبيه وجده فى التوسع بأرض الهند ، وتوالى الملوك الغزنويون على عرش غزنة والهند . . إلا أن تناحرهم فيما بينهم أضعفهم ، وجعل البلاد التى فتحوها تتمرد عليهم ، كما أطمع فيهم من حولهم . حتى سقطت عاصمتهم « غزنة » سنة ٥٤٧ هـ ١١٥٢ م فى عهد آخر ملوكها « بهرام شاه » .

---

(١) « البيرونى » بكسر الباء نسبة الى منطقة فى ضواحى خوارزم تسمى بيرون خاصة بالغرباء ولد بها سنة ٣٦٢ هـ — ٩٧٣ م واتجه الى دراسة الفلك والرياضة حتى نبغ فيهما ، دخل فى حاشية محمود الغزنوى العلمية وألف كتباً عدة ، وتجول فى السند وكتب « كتاب الهند » من ناحيته التى نبغ فيها ، ولما أتم كتابه « القانون المسعودى » فى الرياضة والفلك ونسبه الى السلطان مسعود سنة ٤٢٧ هـ كافأه عليه بفيل وما يحمله من فضة فاعتذر شاكراً ، وكان يعرف عدة لغات : العربية والفارسية والسنسكريتية وعندما زرت مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد فى ديسمبر سنة ١٩٥٧ وجدتها قد طبعت القانون المسعودي لأول مرة سنة ١٩٥٥ م وتوجد منه ست نسخ مخطوطة موزعة فى مكاتب العالم ، واحدة فى اكسفورد وهي مكتوبة سنة ٤٧٥ هـ ، ونسخة فى برلين ، ونسخة فى المكتبة الأمبراطورية فى كلكتا ، وواحدة فى مكتبة لتن بعليكره ، وواحدة فى مكتبة ملافيروز فى بومباى .

وقد توفى البيرونى فى يوم الجمعة ٢ رجب ٤٤٠ هـ ١١ سبتمبر ١٠٤٨ م

(٢) نزهة الخواطر جـ ١ ص ٩٨

الدّولة الغوريّة

بجانب الدولة الغزنوية وفى جبال غور أو غورستان ، نشأت الدولة الغورية ، وقوى أمرها فى الوقت الذى كانت فيه الدولة الغزنوية تسير فى شيخوختها نحو الغروب ، وعلى يد هذه الدولة الناشئة كانت نهاية الدولة الغزنوية فى غزنة وفى الهند . قام الحسين بن الحسن الملقب بعلاء الدين وأسس ملكه فى منطقة جبال غورستان(١) ، ثم زحف بجيشه إلى «غزنه» فى عهد ملكها « بهرام شاه بن مسعود بن محمود الغزنوى » فاستولى عليها، وفر بهرام سنة ٥٤٧ هـ سنة ١١٥٢م، ولكنه استطاع أن يرجع إلى ملكه بمساعدة الأهالى الذين انقضوا على نائب علاء الدين ، وخلعوه ومثلوا به ثم استرجعها علاء الدين من خسروشاه بن بهرام و نكل بالأهالى ، وظلت بيده حتى توفى ، فحاول الغزنويون استرداد ملكهم وتم لهم ذلك . .

ولكن خلفه غياث الدين أبو الفتح محمد بن سام وأخوه شهاب الدين أبو المظفر محمد بن سام استطاعوا الاستيلاء على غزنة ثانياً ، ومكنوا ملكهم فيها حيث ظلت تحت حكمهم ، وانقضى نهائيا ظل الغزنويين منها سنة ٥٦٧هـ ١١٧١ م ، وأصبحت تابعة للدولة الغورية . .

شهاب الدين الغوري

لما فر خسروشاه الغزنوى من غزنة إلى الهند واصل حكم الغزنويين لها، واتخذ « لاهور » عاصمة له ، ولما توفى سنة ٥٥٥ هـ ١١٦٠ م خلفه ابنه « خسروملك » ، وظل بها حتى زحف شهاب الدين إليه، واستولى على لاهور

---

(١) جاء فى حاضر العالم الإسلامى ج ٤ ص ٢٩٠ « وهؤلاء الغوريون أمراء « فيرزكوه » قاعدة بلاد الغور والغور (بضم المعجمة) هى بلاد فى الجبال بقرب هراة ومعنى (فيرزوكوه) الجبل الأزرق .

سنة ٥٨٢ هـ ١١٨٦ م وبدأ بذلك حكم الغوريين للهند، وزال عنها حكم الغزنويين بعد أن حكموها من ٣٩٢ هـ إلى ٥٨٢ هـ سنة ١٠٠١ م إلى ١١٨٦م، وقد قبض شهاب الدين الغوري على «خسرو ملك» الغزنوي بعد أن استولى على لاهور، وأمنه على نفسه، وبقي كذلك شهرين مكرما عنده حتى أرسل غياث الدين إلى أخيه يأمره بإيفاد خسرو إليه، فأرسله ومعه ولده، وكان يحس نهايته فتمثل وهو في طريقه بقول الشاعر:

وليس كعهد الدار يا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل

فلما وصلا إلى بلاد الغور لم يجتمع بهما غياث الدين، بل أمر أن يوضعا في قلعة، وظلا بها حتى انتهت حياتهما..

وقد جعل الملك غياث الدين أخاه شهاب الدين نائبا عنه في حكم الهند، فأخذ هذا يعمل لكي يخضع الهند له ويوسع ملكه فيها، متخذا من لاهور عاصمة له في الهند..

وقد لعب شهاب الدين دوراً في الهند يشبه إلى حد كبير دور محمود الغزنوي فيها، فقد كانت لكل منهما حروب وفتوحات، عقد عليه فيها لواء النصر، ومكن لحكم الإسلام فيها..

وقبل أن يستولى شهاب الدين على لاهور كان قد استولى على مولتان من القرامطة التي يحكمونها، وذلك سنة ٥٧٢ هـ سنة ١١٧٦ م وبعض البلاد الأخرى في الهند.

وبعد أن استولى على لاهور سار إلى قلعة بتهنده وكانت تحت يد ملك «أجمير» واستولى عليها.

وإزاء الخطر الذي بدا من شهاب الدين وانتصاراته في الهند تجمع بعض الملوك الهندوس وعلى رأسهم راجا پتهورا، وحشدوا جيوشهم لمقابلته صفا واحداً، والتقى الجمعان سنة ٥٨٧هـ ١١٩١م على نهر «سرستي» على بعد ثمانية أميال من دلهي. في موضع مشهور الآن باسم «تراوري»، وكان القتال حاراً دارت فيه الدائرة على المسلمين، فانهزموا أمام الكثرة الهندوسية، وسقط شهاب

الدين جريحا حتى ظن أنه قتل ، وحمله بعض رجاله من ميدان المعركة حتى بلغوا به مأمنه ، وتوافد عليه الناس يهنئونه بالسلامة .. وكان أول ما فعله بعد ذلك أن أخذ أمراء الغورية الذين انهزموا عنه وأسلموه ، فملأ مخالى خيلهم شعيرا وحلف لئن لم يأكلوه ليضربن أعناقهم ، فأكلوه ضرورة (١).

وقد كان لانهزام شهاب الدين أثر شديد على نفسه ، حتى إنه أقسم ألا يقرب النساء ، ولا يغير ملابسه حتى ينتصر وينتقم ويغسل مالحقه من عار .

وفى سنة ٥٨٨ ﻫ ١١٩٢ م كون جيشا عظيما وسار به إلى الهند ، وتقابل الجيشان فى نفس الموقع الذى انهزم فيه من قبل على نهر « سرستى » ، وقد كتب له ملك أجمير يهدده وينذره بالمصير الذى لقيه من قبل، فخادعه شهاب الدين، ثم انقض عليه وأعمل فى جيشه القتل حتى انهزم ، وتمكن المسلمون من أسر الملك ، وصعد شهاب الدين إلى الحصن ، وأخذ ما فيه من الأموال واستولى على البلاد ، ثم ضرب عنق الملك ، وأقام ابنه حاكما مكان أبيه على أن يدفع له الجزية ، ورجع إلى « غزنه » بعد أن أقام مملوكه قطب الدين أيبك نائبا عنه فى البلاد التى خضعت له . .

« فتح دهلي »

وكان قبل رجوعه قد توجه إلى دلهى للاستيلاء عليها ، ولكن ملكها تقدم له بالخضوع والهدايا ، فرأى أن يتركه فى مملكته ، ولكن قطب الدين توجه إلى دلهى بعد ذلك ، واستولى عليها وضمها إلى البلاد الإسلامية ، وجعلها عاصمته فى الهند ، وكان ذلك سنة ٥٨٩ ﻫ — ١١٩٣ م . .

ومنذ ذلك الوقت احتفظت بمكانتها كعاصمة للدولة الإسلامية، وإن اتخذ بعض الملوك عاصمة غيرها أحيانا ، لكنها ظلت محتفظة بمركزها بين المدن الهندية الكبرى كمركز للفكر والحكم الإسلامى ، حتى دخلها الانجليز

---

(١) ابن الأثير ص ٦٥ ﺟ ١٩ .

واستولوا عليها ، وزال عنها السلطان الإسلامى سنة ١٢٧٤ ﻫ سنة ١٨٥٧ م ومع ذلك ظلت محتفظة بمكانتها الفكرية الإسلامية للآن [١] .

وقد قام قطب الدين بتوسيع رقعة الدولة الإسلامية فى الهند بنفسه أحيانا ، وبواسطة بعض القواد الشجعان أحيانا أخرى ، وذلك مثل اختيار الدين محمد بن بختيار الخلجى الذى اتجه شرقا بجيشه ، فاستولى على بيهار وأنزل بالبوذية فيها ضربة لم تقم لها قائمة بعدها ، واتجه شرقا يفتح البلاد ويدعم هيبة الحكم الاسلامى فيها ، وينشىء المدارس والمساجد حتى وصل إلى البنگال ، وصار حاكما لها [٢] ، بينما كان شهاب الدين يأتى أحيانا ليقود جيشه فى الهند إلى فتوحات وانتصارات يوسع بها رقعة المملكة ، ويوطد ملكه ويغنم الغنائم الكثيرة ، ويرجع إلى غزنه .

فى سنة ٥٨٩ ﻫ ١١٩٣ م توجه بجيشه إلى « قنوج » واستولى عليها وغنم منها الغنائم الكثيرة ، ثم علم أن ملك « بنارس » يستعد لحرب المسلمين ، وكان واسع الملك قويا معتدا بقوته ، معه سبعمائة فيل وعدة آلاف من المقاتلين ، ولما التقى الجيشان اقتتلا قتالا عنيفا كان النصر فى آخره للمسلمين ، وكثر القتل فى الهنود حتى امتلأت الأرض بهم وجافت ، وكان المسلمون لا يأخذون إلا الصبيان والجوارى ، وأما الرجال فيقتلون ، وقتل ملك بنارس ولم يعرفه أحد إلا من شريط ذهبى فى أسنانه ، ودخل شهاب الدين البلاد ،

---

(١) بنيت دهلى فى عهد أحد الملوك الهنود واسمه « واديته » الراجبوتي سنة ٣٠٧ ﻫ — ٩١٨ م وسميت دهلى لأن أرضها كانت لينة غير متماسكة لأن « دهول » فى اللغة الهندية معناه التراب الغير المتماسك . وقدجاء بعد هذا الملك عدة ملوك تداولوا عليها حتي سقطت فى يد قطب الدين أيبك وصارت عاصمة الدولة الاسلامية سنة ٥٨٩ ﻫ ١١٩٣ م . . اﻫ فرشته ج ١ باختصار . والنطق القديم لها هو « دهلى » . ولكن الانجليز حرفوه الي « دلهى » فصارت تنطق بهذا أيضاً ونحن لم نلتزم واحداً منهما فتارة وتارة . . ويلاحظ أن مكان المدينة تغير على مر الزمن فقد قامت أولا حول المكان الذي يشغله « منار قطب » الآن قريبا من المطار ثم أخذت تزحف نحو الشمال حتى صارت على شاطىء نهر « جمنا » وأقفر مكانها الأصلى . .

(٢) المسألة الهندية ص ١١٠)

وحمل من خزائنها على ألف وأربعمائة جمل[١]، وعاد إلى « غزنه » ومعه الفيلة التى غنمها ، وكان من جملتها فيل أبيض امتنع عن خدمة شهاب الدين دون بقية الفيلة[٢] » .

وبذلك دخلت هذه البلاد فى حكم المسلمين ، وتم ذلك فى سنة ٥٩٠ هـ ١١٩٤ م ، وقد ظل شهاب الدين وقواده يغزون ويواصلون فتح البلاد وإخضاعها ، فتم لهم إخضاع « تهنكرا » وكواليار ، ونهروالا » .

ولما مات أخوه غياث الدين فى سنة ٥٩٩ هـ ١٢٠٣ م أصبح شهاب الدين ملكا بعده على المملكة الغورية ، كما أصبح سيدا على الهند الشمالية كلها تقريبا من السند إلى البنگال الشرقية . .

وقد وقعت له بعض المتاعب بسبب قتاله مع خوارزم شاه ، وانهزامه أمامه وأمام خلفائه ، حتى أشيع أن شهاب الدين قد قتل فى الحرب ، فشقت كثير من بلاده عصا الطاعة عليه ، مثل مولتان ولاهور وغيرها ، فسار إليها شهاب الدين سنة ٦٠١ هـ — ١٢٠٥ م ، وقضى عليها وعلى فتن غيرها بمساعدة قطب الدين أيبك نائبه فى الهند وعاد إلى غزنه . .

لكنه فى طريق عودته داهمه رجال مجهولون وقتلوه غيلة وهو فى خيمته . يقول ابن الأثير قتله جماعة من الكوكرية الكفار ، حيث اغتنموا فرصة وجوده وحده وانشغال الحراس عنه ، فدخلوا عليه وطعنوه اثنتين وعشرين طعنة ، ودخل عليه أصحابه فوجدوه على مصلاه قتيلا وهو ساجد . . وقيل قتله جماعة من الاسماعيلية ، وكانت له قوة تحارب بعض قلاعهم فى خراسان ، وقد حمله أصحابه وأخفوا خبر موته ، وساروا به وبغنائمه وخزائنه حتى وصلوا إلى غزنه ، ودفنوه بها فى شعبان سنة ٦٠٢ هـ ١٢٠٦ م .

وشهاب الدين الغورى هو بطل حديثنا عن الهند ، فأن عمه علاء الدين أو

---

(١) يقول جوستاف لوبون فى حضارة الهند ص ٢٢٠ « إنه حمل غنائم على أربعة آلاف جمل ، كما هدم ألف معبد فى بنارس ، وربما تكون فى هذه الأرقام مبالغة » .

(٢) ابن الأثير ص ٤١ ج ١٢

أخاه غياث الدين لم يكن لها فى مجرى الحوادث بالهند ما كان له ، ولذا نقصر حديثنا فى هذه الدولة عليه ، لاسيما وأن الهند بعد وفاته لم تعد تابعة « لغزنه » حقيقة ، بل استقل بالعمل والحكم فيها مملوكه ونائبه قطب الدين ، الذى أقام بها أسرة مالكة أعقبتها لفترة طويلة أسر كثيرة مالكة ، لم تكن لها صلة بالنسبة للغورى ، بل كانت كلها من المماليك كما سنعرف فيما بعد . .

شهاب الدين فى نظر التاريخ :

إن شهاب الدين بحروبه وانتصاراته فى الهند ليشبه إلى حد كبير — كما قلت من قبل — سلفه الأسبق محمود الغزنوى ، فكلاهما كان له قدم راسخة وجهاد مشكور فى فتح الهند ، وتحطيم أصنامها ، والعمل على رفع راية الإسلام بها . .

« وقد كان شهاب الدين شجاعا مقداما كثير الغزو ، عادلا فى رعيته حسن السيرة فيهم ، حاكما بينهم بما يوجبه الشرع المطهر ، وكان العلماء يحضرون عنده فيتكلمون فى المسائل الفقهيه وغيرها ، وكان فخر الدين الرازى صاحب التفسير الكبير يعظ فى داره ، فحضر يوما ووعظ وقال فى آخر كلامه : ياسلطان ، لاسلطانك يبقى ، ولاتلبيس الرازى ، وأن مردنا إلى الله . . فبكى شهاب الدين حتى رحمه الناس لكثرة بكائه » [1]

وقال المؤرخ الفرنسى « رينيه غورسه » [2] : إن محمود [3] الغورى أسس ملكا عظيما ثابتا وطيدا ، تعاقبت عليه الدول الاسلامية التى جاءت بعده من

---

(١) ابن الأثير جـ ٢ ص ٨٤ (٢) نقلا عن حاضر العالم الاسلامى ص ٢٩١ جـ ٤

(٣) لعله أراد محمد الغوري فأن كتب التاريخ التى اطلعت عليها ذكرت أن اسمه هو (أبو المظفر شهاب الدين محمد بن سام الغوري) لا محمود . حتي كتاب حاضر العالم الاسلامى ذكر أن اسمه هو (محمد الغوري) فى عدة مواضع ولكنه ترك كلام « غروسه » بدون تعليق أما الذى يسمي محمود فهو الذى خلف محمد الغوري وهو محمود بن غياث الدين الغورى وقد رفض أن ينتقل من بلاده إلى « غزنه » ليتولى منها حكم ملك آبائه فى أفغانستان والهند ، كما أنعم على قطب الدين أيبك بالخلع والهدايا وبوثيقة إعتاقه وتفويضه التام فى حكم الهند . كما جاء فى تاريخ فرشته جـ ١ ص ٢٣٥ .

ترك وأفغان وطغلوقيين وسادات وتيموريين ، وكان دستور هذا الملك وحدة الدولة ، وحق الإسلام فى السلطنة العامة على الهند ، مما بقى إلى زمن استيلاء البريطانيين » .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الشيخ معين الدين حسن بن الحسن السجزى الاجميرى المشهور باسم معين الدين الچشتى منبع الأولياء والكرامات فى الهند قدم إليها فى عهد السلطان محمود الغورى ، وتنقل فى مدنها حتى استقر أخيراً فى « أجمير » ، ودفن بها سنة ٦٢٧ هـ — ١٢٢٩ م ، ويعتبر قبره أكبر مزار فى الهند ، ويتناقل الناس أنه أسلم على يديه كثير من الهندوس يبلغون تسعة ملايين ، لما رأوه من كراماته وأحواله العجيبة ، وإليه وإلى تلامذته الصوفيين يرجع الفضل فى إسلام الكثير من الهندوس . .

دولة المماليك

اقتصر حكم الدولة الغورية للهند على عهد غياث الدين وأخيه شهاب الدين الذى تولى فتح الهند وتدويخ ملوكها ، وبعد قتله شغل الغوريون بالخلافات والحروب بينهم بشأن الملك ، بينما كان « قطب الدين أيبك » قائماً فى الهند بشأن الحكم فيها ، مستقلا بأمورها بعد أن وافق الملك الغورى الذى خلف شهاب الدين ، وهو « محمود بن غياث الدين » على اضطلاعه بالحكم فيها ، وبذلك أتيح لقطب الدين أن ينشىء دولة مستقلة فى الهند يتولاها المماليك من أسرته ، أو ممن يقوى منهم على انتزاع الحكم له بأى أسلوب يوصله إليه ، كما كان الحال مع المماليك فى مصر . .

جاء فى كتاب « حاضر العالم الإسلامى »(١) نقلا عن « رينيه غروسه » صاحب تاريخ آسيا .

(١) ص ٢٩٢ ج ٤

« كان بين أولئك الغزاة الذين يقصدون الهند للجهاد كثير من المماليك ، وكان شأن هؤلاء المماليك فى الهند شأنهم فى مصر . أصلهم أرقاء من أجناس مختلفة ، اندمجوا فى الجيش فامتازوا بالبسالة والأقدام وحسن التدبير ، فكان بعضهم يرقى من درجة إلى درجة إلى أن ينال الامارة ، وأحيانا السلطنة كما كان يقع فى مصر ، ولم يكونوا ممن يقتنع بالملك دون إبقاء المآثر ، والطمع فى تخليد الذكر ، فكما أن سلاطين المماليك بمصر ملأوا مصر والشام مساجد وعمارات ، كذلك سلاطين المماليك بالهند كانوا على هذه الطريقة »

قطب الدين أيبك

المشهور باسم « لك بخش »

كان أحد مماليك شهاب الدين الغورى ، جلب من تركستان فى صغر سنه ، فاشتراه أحد القضاة فى نيسابور ، وعنى بتربيته وتعليمه حتى تبحر فى العلوم ، ولما توفى القاضى اشتراه أحد التجار ، ثم دخل بعد ذلك فى ملك شهاب الدين الغورى ، وقد جمع من الصفات الطيبة ما حببه إلى قلب سيده ، فقربه إليه ، كما أبدى من ضروب الشجاعة والاقدام ما جعله أميراً لجيش شهاب الدين ونائبا له فى الهند . .

ولقد كان لقطب الدين فضل كبير ويد طولى فى كل ما أحرزه شهاب الدين وجيشه فى الهند من انتصارات وفتوحات كما سبق أن عرفنا ذلك ، وكان يعتبر الحاكم الفعلى ، والقابض على شئون العمل والتصرف فى الهند ، لذلك لم يتبدل الأمر بها عندما قتل شهاب الدين ، وشغل الغوريون بعده بالنزاع على الحكم ، فقد كان بالهند حاكمها الفعلى ، وقائد جيوشها ، فظل قابضا على ناصية الحكم ، ولم يجد خلف شهاب الدين بدا من إقراره على الهند ، بل إقطاعها له ، فأعتقه وأرسل له المظلة الملوكية ، وغيرها من إمارات السلطنة جريا على عادتهم . فجلس على عرشها يوم الثلاثاء الثامن عشر من ذى القعدة سنة ٦٠٢ هـ — ١٢٠٦ م .

ولم تمتد أيامه فى السلطنة كثيراً ، فقد توفى بعد ذلك بمدة قصيرة سنة ٦٠٦ هـ ١٢١٠ م ، ودفن بلاهور على أثر حادث أصابه وهو يلعب لعبته الرياضية المحببة إليه « البولو » . .

وكان عادلا كريما باسلا مقداما يضرب به المثل فى الشجاعة والكرم ، وكان يعطى الناس أكثرمما يستحقون ودون حساب ، حتى اشتهر باسم « لك بخش » أى معطى المائة ألف . .

وقد انصرف قطب الدين إلى القيام ببعض الإصلاحات ، وبناء بعض المساجد مثل المسجد الكبير الذى شيده فى دلهى والذى اشتهرت منارته التى لاتزال معروفة للآن باسم « قطب مينار » أى « منارة قطب » ، كما بنى مسجدا معروفا باسمه فى أجمير (١) وجاء فى كتاب « بين الآثار الاسلامية (٢) » إن قطب الدين أسس مسجد قوة الإسلام تخليدا لذكرى استيلائه على دلهى . . وهو من أعظم المساجد فى العالم . . ثم المنار الذى يحمل اسم « منارقطب » ويعد أفخم بناء من نوعه وقد أتمه خلفه . .

وقد زرت بقايا هذا المسجد فى ٢٧ يناير ١٩٥٨ وهو يبعد عن القلعة الحمراء فى دلهى بمسافة ١٢ ميلا ، ولم تصل إليه مبانى نيودلهى للآن على رغم امتدادها ، وكانت دلهى فى الوقت الذى استولى فيه قطب الدين عليها فى هذا المكان حول مسجده ، ولكنها تحولت بعد ذلك على شاطىء نهر « جمنا » ، كما نراها الآن ، ووجدت على باب المسجد لوحة كتب عليها « مسجد قوت الاسلام ، أصل مسجد السلطان قطب الدين أيبك بناه عام ١١٩١ م وأكمله ألتمش » سنة ١٢٣٠ م ووسعه علاء الدين خلجى سنة ١٢٩٥ م »

والمسجد قد تهدم ، ولم تبق منه إلا بعض الجدران بدون سقوف ، ولا تزال بالأرضية حجارتها الكبيرة . ورأيت على واجهة الباب البحرى كتابة

---

(١) من حاضر العالم الاسلامى ص ٢٩٢ (٢) ص ٥٢ وهو للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق أستاذ الآثار الإسلامية المساعد بجامعة الاسكندرية . وقد لاحظت أن المؤلف اختلط عليه الأمر فذكر أن قطب الدين تسلم قيادة فرقة محمود الغزنوى بعد وفاته والصحيح أنه تسلم الأمر فى الهند بعد الغورى لا الغزنوى . .

باللغة العربية بحروف بارزة من الحجر عن أمر إنشائه وسنته هكذا « بسم الله الرحمن الرحيم والله يدعوا إلى دار السلام . . »

ثم كتب تحت ذلك « جرت هذه العمارة بأمر .. الخ » ولم أستطع قراءة الباقي ، وبجانب المسجد كانت مدرسة كبيرة تهدمت أيضاً . ويظهر من آثارها الباقية ضخامتها واتساعها . .

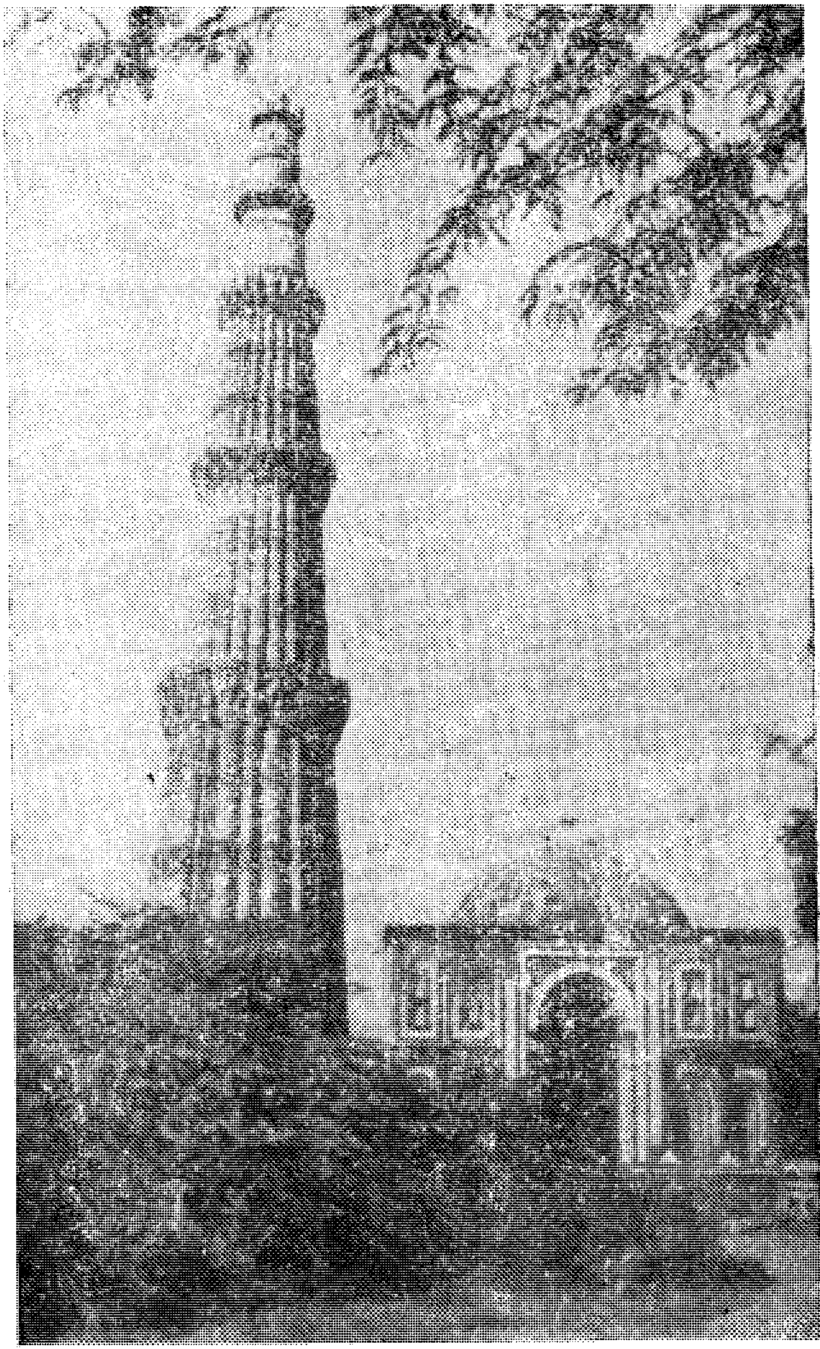
ورأيت فى وسط المسجد عموداً حديدياً قديما ، أمر بصنعه الملك « دهاوا » الهندى ، ويرجع تاريخه للقرن الرابع الميلادى ، وقد رأيت المئات من الزوار يتنقلون بين هذه الآثار ، وقد اصطف الكثير منهم فى شكل طابور للصعود فوق المنارة ، بينما صعد بعضهم على طوابقها المتعددة حتى أعلاها ، وأخذوا يلوحون بأيديهم للذين لايزالون على الأرض . والمنارة كانت مكونة من سبع طبقات ، لكن الموجود منها الآن خمسة فقط ، طولها ٢٣٨ قدما ، ومحورها من أسفل ٤٧ قدما ، ومن أعلى ٩ أقدام فقط ، ويقول المؤرخون إن الطابق الأول أسسه آخر حاكم لدهلى وهو « راجا برتوى » الذى انتصر عليه قطب الدين أيبك ، فنقش عليه بعض آيات القرآن واشتهر باسمه سنة ١٢٠٠ م ، ثم بنى ألتمش الدورين الثانى والثالث سنة ١٢١٠ م .

ثم زاد فيروز تغلق شاه الرابع والخامس سنة ١٣٥١ م وهى على شكل مخروطى ، وارتفاع الأول ٩٥ قدما والثانى ٥٠ ، ٨½ بوصة ، والثالث ٤٠ قدما ، ٣½ بوصة ، والرابع ٢٥ قدما ، ٤ بوصات ، والخامس ٢٢ قدما ، ٤ بوصات ، وقد أجرى فيروز تغلق سنة ١٣٥١م وبهلول لودى سنة ١٣٨٨م بعض ترميمات فى المنارة . وفى كل طابق نقش حول المنارة آيات من القرآن الكريم وبعض مكاتيب السلطان .

وهى من الحجر الأحمر ، ولكنها من فوق يختلط المرمر مع الحجر الأحمر والطبقة السادسة كانت ١٢ قدما ، ١٠ بوصات . ولكنها سقطت بسبب زلزلة سنة ١٨٠٣ م ثم أعيد بناؤها سنة ١٨٢٩م ولكن حاكم الهند العام أمر بإزالتها نهائياً خوفا من خطر وقوعها . أما السابعة فلم يعرف لها تاريخ(١) .

---

(١) من دليل آثار دهلى .



منار قطب وبجانبه « بوابة علاء الدين » المعروفة في الهند باسم « علائي دروازه »

شمس الدين ألتمش

بعد وفاة قطب الدين اجتمع كبار رجال الدولة، واختاروا «شمس الدين ألتمش» سلطانا خلفا لقطب الدين، وكان ذلك سنة ٦٠٧ هـ، ١٢١١م، وقد كان مملوكا لقطب الدين، جلب فى صغر سنه إلى «بخارى»، وبقى يتنقل من سيد إلى سيد، حتى اشتراه قطب الدين ورباه فى مهد السلطنه، وأخذ يتدرج فى المناصب، حتى صار أميراً على الجند وزوجه السلطان بابنته .. ويقول ابن بطوطة(١) «لما مات قطب الدين استبد بالملك، وأخذ الناس بالبيعة، فأتاه الفقهاء يقدمهم قاضى القضاة إذ ذاك «وجيه الدين الكاسانى»، فدخلوا عليه وقعدوا بين يديه، وقعد القاضى إلى جانبه كالعادة، وفهم السلطان عنهم ما أرادوا أن يكلموه فيه، فرفع طرف البساط الذى هو قاعد عليه، وأخرج لهم عقداً يتضمن عتقه، فقرأه القاضى والفقهاء وبايعوه جميعا».

وقد شغل عقب توليته بالحروب فسار إلى أوريسه وبنكال، وگواليار وغيرها من البلاد التى ثارت على حكم دلهى بعد موت قطب الدين وأخضعها تماما.

وفى عهده سنة ٦١٧ هـ — ١١٢١ م غزا جنكيز خان البنجاب الغربية، ولكنه رجع عنها وإن كان المغول قد أصبحوا أداة تهديد خطير للدولة يهاجمونها بين حين وآخر، وهكذا شغل «ألتمش» بالحروب حتى استتب له الملك ..

ثم توفى سنة ٦٣٣ هـ ١٢٣٥ م(٢) بعد أن أوصى بالملك لابنته «رضية»

---

(١) ص ٣١ مهذب الرحلة جـ ٢

(٢) ودفن بمسجد قوة الإسلام الذى أتمه بعد وفاة قطب الدين، وقد زرت قبره بين الآثار المتهدمة من مسجد قوة الإسلام، وهو وسط حجرة لا تزال متماسكة، بناها لنفسه وكتب على جوانب القبر من سورة الواقعة بالخط الثلث المنحوت فى الحجر بحروف بارزة «والسابقون السابقون أولئك المقربون. الآيات» وفى الحائط الغربى ثلاثة محاريب أوسطها أوسعها وكتب فى أعلى المحراب بحروف المرمر «إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون» وفوق محراب آخر كتب «كل من عليها فان» وعلى الجدران بعض آيات وأذكار مكتوبة بالخط الكوفى أيضاً ..

فكان ذلك سبباً لقيام خلافات بينها وبين إخوتها ، وبينها وبين كبار رجال الدولة انتهت بقتلها ، وكان « التمش » ملكا فاضلا عادلا يقول ابن بطوطه عنه[١] « ومن مآثره أنه اشتد فى رد المظالم وإنصاف المظلومين ، وأمر أن يلبس كل مظلوم ثوباً مصبوغا ، وأهل الهند جميعا يلبسون البياض ، فكان متى قعد للناس أو ركب فرأى أحداً عليه ثوب مصبوغ نظر فى قضيته وأنصفه ممن ظلمه ، ثم إنه فكر فى ذلك فقال : إن بعض الناس تجرى عليهم المظالم ليلا ، وأريد تعجيل إنصافهم ، فجعل على باب قصره أسدين مصورين من الرخام موضوعين على برجين هنالك ، وفى أعناقهما سلسلتان من الحديد فيهما جرس كبير ، فكان المظلوم يأتى ليلا فيحرك الجرس فيسمعه السلطان وينظر فى أمره للحين وينصفه » وكان يتردد على العلماء والصوفية ولا سيما الشيخ قطب الدين[٢] بختيار الكعكى ويلتمس منه الدعاء ويخدمه ويجلس عند رجليه يدلكهما .

ويقول عنه رينيه غورسه[٣] : « كان من عظام السلاطين المدبرين ، وطد أركان السلطنة ، وأكمل فتح الهند الشمالية ، وأعلى من هذا كله أنه حفظ الهند من جائحة المغول ، لأنه فى زمان ألتمش هذا زحف الجنكيزيون على إيران وأزالوا سلطنة خوارزم العظيمة ، وفر الأمير جلال الدين ما نكبر دى الخوارزمى شريداً ملتجئا إلى ألتمش فكان من حسن تدبير هذا أنه رد غارة المغول على البنجاب ، لكنه لم يتهور فى إصراخ جلال الدين إلى محاولة إعادة ملكه له ، وشن الغارة على المغول مما لم تكن تؤمن عاقبته » .

---

(١) ص ٣١ ج ٢ من مهذب الرحلة . .

(٢) هو الامام العارف بالله قطب الدين بن كمال الدين الكعكى الاوشى من كبار الأولياء ، أصله من بلدة « أوش » من بلاد ما وراء النهر ، رحل إلى بغداد وسعد بملازمة ولى الله الشيخ معين الدين السجزي الاجميرى وفاز منه بالخلافة ، ثم رحل الى الهند ودخل دهلى فأكرمه السلطان « التمش » وكان يتردد عليه الكثير من الناس الذين يتزودون من فيضه وهديه . وقد عاش عزبا وكان يستمع للغناء فيغيب عن رشده ويغشى عليه حتى مات وهو كذلك بعد ثلاثة أيام لم يصح فيها من استغراقه وكان ذلك سنة ٦٣٣ ﻫ وعمره حوالى الخمسين سنة . . ومدفنه قريب من « منار قطب » نزهه ص ١٩٦ ج ١ .

(٣) عن حاضر العالم الاسلامى ص ٢٩٢ ج ٤

بعد ألتمش

ذكرنا أن ألتمش أوصى بالملك لابنته « رضية » تاركا إخوتها [١]، وقد تولت الحكم سنة ٦٣٣هـ ١٢٣٥م ومكثت أربع سنين، وكانت تركب كما يركب الرجال ولا تستروجهها، ثم إنها اتهمت بعبدلها من الحبش، فخلعت عن العرش وتولى مكانها أخوها الأصغر محمود ناصر الدين، وكان فى السابعة عشرة من عمره، فاختار « بالبان » أحد مماليك أبيه الشجعان وزيراً له، فأبدى من الكفاية والمقدرة وحسن تدبير الأمور ما جعله الحاكم الفعلى للبلاد، وقد حاولت أخته « رضية » أن تنزع الملك منه وتسترده لنفسها، ولكنها هزمت وقتلت بعد أن فرت هائمة على وجهها. قتلها أحد الزراع طمعا فى مالها وملابسها — بعد أن أمدها بكسرات من الخبز — لما عرف من ملابسها الداخلية الثمينة أنها امرأة . . وبذلك خلا الجو لناصر الدين بن ألتمش، ووزيره « بالبان » الذى استطاع أن يخمد الثورات التى قامت فى عهده، كما تمكن من صد غارات المغول التى أخذت تكثر على الهند . .

وقد جاء فى نزهة الخواطر [٢] عن ناصر الدين أنه كان « أنموذج الخلفاء الراشدين، نادى برفع المظالم، وأظهر العدل والكرم، وكان ورعا متعبداً ذا حلم وأناة ورأفة، راغبا فى الخيرات مع الزهد والتقشف، وكانت له عناية عظيمة بالأدب، ومعرفة حسنة بالكتابة، ومن أخباره أنه كان يكتب القرآن

---

(١) هذا ما يذكره كتاب المسألة الهندية للمرحوم الاستاذ عبد الله حسين ص ١١٢ . أما ابن بطوطه فيذكر أنه بعد موت التمش بويع ابنه ركن الدين فعمد الى قتل أخيه مما جعل أخته تثير عليه الشعب فيقتله وتجلس هى على العرش ولكنها بعد أربع سنين أبعدت عنه وجلس مكانها أخوها الأصغر ناصر الدين . وغيرهما يقول انه جلس بعدها أخوها معز الدين بهرام شاه ثم بعده علاء الدين مسعود بن ركن الدين ثم جلس ناصر الدين بن محمود ألتمش وهذه تفصيلات لا يهمنا أصحابها كثيراً فأنهم لم يتركوا أثراً يذكر ولذا نقف عند أحدهم أو آخرهم ناصر الدين . .

(٢) جـ ١ ص ٢٢٨

الكريم : نسختين منه كل سنة فيبيعهما ويقتات بثمنهما[1] وأن زوجته سألته أن يعطيها جارية تكفى مؤنتها فى طبخ الطعام وغيره من أمور البيت فأبى » .

وتوفى ناصر الدين سنة ٦٦٤ هـ — ١٢٦٦ م . . وبوفاته انتقل الملك من أسرة شمس الدين ألتمش إلى أسرة أخرى من المماليك ، هى أسرة « غياث الدين بلبان » . .

« غياث الدين بلبن[2] »

كان غياث الدين من الأتراك أخذه المغول من تركستان وباعوه ، وانتقل من يد إلى يد حتى وصل إلى يد الشيخ جمال الدين البصرى فى بغداد ، فجاء به إلى الهند فاشتراه منه السلطان ألتمش. يقول « فرشته » إن جمال الدين عرف أنه من أسرة ألتمش حاكم الهند ، فجاء به مع عبيد آخرين وباعه له ، وتوسم فيه « ألتمش » نجابة الأصل فقربه إليه ، ثم ظهر له أقرباء فى حاشية السلطان ، فأخذ يترقى ويتدرج فى المناصب لذلك ولما أبداه من الكفاءة والمقدرة ، ثم زوجه السلطان بابنته ، وظل يترقى حتى كان وزيراً لناصر الدين محمود بن ألتمش، وكان له الفضل الكبير فى إدارة الحكم ، وقمع الغارات والثورات — كما سبق — وظل وزيراً نحو عشرين سنة ، ولما مات محمود قام بالملك بعده سنة ٦٦٤ هـ ١٢٦٦ م، ولم يكن يهتم بثورات الهندوس كما كان يهتم بغزوات المغول . وفى أول أمره وجد الخطر عليه من « جماعة الأربعين » المماليك الذين كانوا يتلاعبون بالملك ، فقضى على نفوذهم، ونظم الدفاع عن الحدود ضد غارات المغول، كما أخمد ثورة البنگال وعين أحد أبنائه حاكما عليه «وهو بغراخان» .

على أن ولى عهده « محمد خان » قتل سنة ٦٨٤ هـ ١٢٨٥ م أثناء دفاعه عن المولتان ضد غارات المغول ، فحزن عليه حزناً شديداً ، حتى توفى بسبب حزنه عليه . .

---

(١) يقول ابن بطوطه « وقد وقفنى القاضى كمال الدين على مصحف بخطه متقن محكم الكتابة » .

(٢) جاء ضبطه فى رحلة ابن بطوطه بفتح اللام « بلبن »

وإن التاريخ ليذكر له بالخير والتقدير موقفه الكريم إزاء الأمراء وأبناء الملوك الذين فروا من وجه المغول، والتجئوا إليه من بلاد تركستان وما وراء النهر وخراسان والعراق وآذربيجان وفارس والشام وغيرها، فوجدوا عنده الأمن والإكرام والإعزاز، وكان فيهم بعض أبناء الخلفاء العباسيين الذين كان ينزلهم منزلة خاصة ويجلسهم معه فى مجلسه الخاص، وقد بنى لهؤلاء الذين التجئوا إليه عدة أماكن، وجهزها تجهيزا طيباً يتناسب مع مقامهم وسماها: محلة عباسى، محلة سنجرى، محلة خوارزم شاهى، محلة ديلمى، محلة علوى، محلة أتابكى، محلة غورى، محلة جنكيزى، محلة رومى، محلة سنقرى، محلة يمنى محلة موصلى، محلة سمرقندى، محلة كاشغرى محلة خطائى، وكان «بلبن» يجد فى إكرامه لضيوفه هؤلاء لذة ونعمة يشكر الله عليها»(١)

ويقول ابن بطوطة «إنه بنى دارا سماها دار الأمن، فمن دخلها من أهل الديون قضى دينه، ومن دخلها خائفا أمن، ومن دخلها وقد قتل أحداً أرضى عنه أولياء المقتول، ومن دخلها من ذوى الجنايات أرضى من يطلبه. وقد دفن بتلك الدار»

«وقد كان بلبن من خيرة السلاطين سيرة فى رعيته، بذل جهده فى تعمير البلاد وسد الثغور. وكان عادلا فاضلا حليما محبا لأهل العلم محسناً إليهم، يتردد فى كل أسبوع بعد صلاة الجمعة إلى بيوت كبار المشايخ فيحظى ويفرح بصحبتهم، ويتردد إلى مقابر الأولياء فيزورها وإلى مجالس التذكير، ويقعد بها كآحاد الناس، ويداوم على الصلاة بالجماعة، والصيام فرضاً أو نفلا وعلى صلاة الضحى والتهجد، وكان لا يداهن فى العدل والقضاء ولا يسامح أحدا ولو كان من ذوى قرابته(٢)

ومن أجل ذلك حكم الدولة حكما مقرونا بالحزم مستخدما العنف مع

---

(١) تاريخ فرشته ج ١ ملخصا

(٢) نزهة الخواطر ص ١٩٢ ج ١

العصاة الثائرين ، والمجرمين المفسدين ، والحكام الملوثين ، والقواد الخاسرين ، فكان إداريا قديرا وحازما عادلا ، كتب له النجاح والتوفيق إلى آخر حياته » .

وقد توفى آخر سنة ٥٨٥ هـ ١٢٨٧ م بعد حياة ، حافلة وبعد أن أوصى بولاية العهد إلى حفيده « كى خسرو » ابن ابنه محمد الذى قتل فى حروبه مع المغول ، وكان يحبه كثيرا كما حزن عليه كثيرا ، ولعل هذا بالإضافة إلى عدم ميله لابنه « بغراخان » هو الذى جعله يعهد بالملك إلى حفيده مع أنه كان شابا صغيرا ليست له تجربة .

ومع ذلك فإن « كى خسرو » لم يتول العرش بعد وفاة جده . فإن نائب السلطان كان يكره والده فعمل على ألا يمكن ابنه من العرش ، فدبر حيلة للتخلص منه وتولية « كيقباد » بن بغراخان بن بلبن ، وقد تم له ذلك فعلا وخرج « كى خسرو » من دلهى شبه فار ، وبقى كيقباد متصرفا فى شؤون الملك فى دلهى ، وكان أبوه لايزال حاكما فى البنكال ، ومع ذلك لم يكن له من الملك إلا اسمه إذ كان منصرفا إلى اللهو والفساد والشراب تاركا الأمور لنائبه . وقد كادت الحرب تقع بينه وبين أبيه حين تقابل جيشاهما ، ولكنهما تلاقيا وتصافيا وأقر الوالد ابنه على عرشه ، وقدم له نصائحه التى لم يستمع إليها بل ظل غارقا فى لهوه وشرابه حتى مرض بسبب ذلك وأصابه الشلل ، فأفاق حينئذ من سكرته ، ولكن بعد فوات الأوان .

وفى مرضه قام خلاف بين الأتراك والأفغان ، وكل له وجهة ومطمع ، فالأتراك يريدون أن يستمر الملك فى أسرة بلبن ، والأفغان يريدون الاستيلاء على الملك منهم ، وجعل « جلال الدين فيروز الخلجى » سلطانا ، وكان كيقباد قد عينه نائباً عنه فى آخر حياته ، بعد أن سم نائبه الأول حين تنبه لسوء عمله واستقلاله بتصرفه ، وقد شاء الله للأفغان أن ينتصروا ، فتولى جلال الدين الملك ، وقبض على ناصية الأمر ، ودخل قصر السلطان بعد

حصاره ، وقتل « كيقباد » .. ويقول ابن بطوطه : « حدثنى من شاهد ذلك أن السلطان معز الدين « كيقباد » أصابه الجوع فى تلك الأيام ، فلم يجد ما يأكله ، فبعث له أحد الجيران الشرفاء ما أقام أوده ، ثم دخل عليه القصر فقتل » .

وكان ذلك سنة ٦٨٩ هـ ١٢٩٠ م ، وبذلك انتقل الملك إلى أسرة أفغانية ، هى أسرة الخلجى[١] ، وهى الأسرة التى كان منها « اختيار الدين الخلجى » الذى قام بالفتوحات فى بهار والبنگال أيام شهاب الدين الغورى ، وكان حاكما للبنگال فى ذلك الوقت .

(١) نسبة إلى خلج موضع قرب غزنة .

السلاطين الخلجية

جـــلال الدين فيروز شاه

٦٨٩ هـ : ١٢٩٠ م — ٦٩٥ هـ : ١٢٩٦ م

استطاع جلال الدين الخلجي أن يستخلص الملك لنفسه من بين أنياب الأتراك المؤيدين لأسرة « غياث الدين بلبن » ، والذين عملوا على أن يولوا الطفل الصغير ابن « كيقباد » الملك ، حتى لايخرج الحكم من أسرة بلبن ، برغم هذا استخلص جلال الدين الملك لنفسه ، وكانت سنه حينذاك سبعين سنة ، وقد كان من المقربين لغياث الدين بلبن وحفيده كيقباد الذى اختاره فى أواخر أيامه نائبا عنه ، ثم صار ملكا سنة ٦٨٩ هـ — ١٢٩٠ م .

وقد اشتهر جلال الدين فيروز شاه بالحلم الذى لم يعرف عن أحد من الملوك ، وكانت سنه لها دخل كبير فى سلوكه الحليم هذا ، حتى أنه جىء له ببعض الثائرين عليه مكبلين بالأغلال بعد انهزامهم ، فلم يسعه إلا أن يأمر بفك قيودهم وإكرامهم ، وأجلسهم بمجلسه ، وأخذ يهون عليهم ، ويقول لهم : كنتم زملائى ، وقد جعلنى الله ملكا ، فأنا أشكر الله على نعمته ، ولا أنسى الماضى ، وأنتم بوفائكم لأميركم من آل بلبن قد قمتم بالواجب عليكم ، ولا يمكن أن أحاسبكم على هذا الوفاء ، فإنى وفى كذلك لنعمة غياث الدين بابن ، وكان من وفائه لبلبن أنه يذهب لقصره ، وفيه آل بلبن ، فيترجل عن فرسه حين يقرب منه تعظيما لذكرى هذا القصر وساكنيه ، وكان يكرمهم ، ويخصهم برعايته ، وإن كان قد اضطر إلى قتل الأمير الصغير الذى عين ملكا فى عهد أبيه ؛ لخشيته على نفسه منه ، حيث كان الأتراك يتجمعون حوله .

وقد حدثت فى أيامه بعض الثورات ، لكنه قمعها ، كما رد بعض غارات المغول ، وكان له ابن أخ يسمى « علاء الدين » ، وكان طموحا وثابا ، وكانت هناك شبه جفوة بينه وبين عمه برغم أنه تزوج ابنته ، وقد ولاه إحدى

الولايات «كره ومانكبور» . وقد ذهب علاء الدين مرة إلى الجنوب بحجة أنه خارج للصيد ، حتى وصل إلى بلاد «ديوكره»[١] فى الدكن ، وهناك باغت بمن معه من الجيش هذه القلعة ، فاضطر ملكها إلى الصلح معه على مال كثير يؤديه له ، فرجع به وبالهدايا التى أهديت إليه ، ولم يذهب إلى دلهى ، بل ذهب إلى «كره» ولم يبعث إلى عمه شيئا ، فأغرى الناس عمه به . فبعث إليه فامتنع من الوصول إليه ، فقال السلطان : أنا أذهب إليه فإنه بمقام ولدى ، وذهب إليه فى عساكره ، وركب النهر للوصول إلى ابن أخيه ، حيث تواعدا على اللقاء فى النهر ، على أمل أن ينتهى اللقاء نهاية سعيدة مثل ما حدث بين السلطان «كيقباد» وأبيه «بغراخان» ، ولكن علاء الدين كان يضمر الغدر لعمه ، فدبر حيلة لقتله حين اللقاء به ، والتعانق معه . وهكذا تم له قتل عمه الذى ساقه حلمه وظنه الحسن إلى حتفه . وكان ذلك آخر سنة ٦٩٥ هـ : ١٢٩٦م .

علاء الدين الخلجى

المشهور باسم «اسكندر الثانى»

٦٩٦ هـ : ١٢٩٦ م — ٧١٦ هـ : ١٣١٧ م

بعد أن غدر علاء الدين بعمه وقتله على هذه الصورة ، زحف بجيشه إلى دلهى ، وكانت زوجة السلطان المقتول قد عملت على المناداة بابنه سلطانا خلفا له . واستعد لملاقاة علاء الدين ، ولكنه لم يستطع الثبات أمامه ، فدخل علاء الدين دلهى واستولى على العرش سنة ٦٩٦ هـ ١٦٩٦ م ، ونكل بأسرة عمه ، وسمل أعين ولديه[٢] .

(١) يقول المؤرخ فرشته إن علاء الدين وصل بعساكره إلى بلاد لم يصل إليها مسلم من قبل غازيا .

(٢) جاء فى مذكرة الأستاذ حبيب ص٢ ه مايفيد أن علاء الدين لم يكن ابن أخى فيروزشاه ، وهذا خلاف ما ذكره المؤرخون ، فقد ذكروا كما ذكرت أن فيروزشاه كان عم علاء الدين . قال ابن بطوطه ص ٣٩ ج ٢ (وكان للسلطان جلال الدين ولد اسمه ركن الدين وابن أخ اسمه علاء الدين زوجه بابنته الخ) .

ولما استقرت له الأمور بدأ يتجه لشؤون الدولة الحربية والاجتماعية ، والحق أنه كان سلطانا قويا فى سطوته ، منظما لأمور دولته ، اتسعت رقعة المملكة فى أيامه اتساعا لم تشهده قبله . .

شهدت الهند فى أيامه سنه ٧٠٤ هـ - ١٣٠٤ م غارة كاسحة للمغول تحت قيادة « على بيك جنكيزى وخواجه تريال » ، حتى وصلوا إلى أبواب دلهى وحاصروها ، فجهز لهم علاء الدين جيشا عدته ثلثمائة ألف رجل . وألفان وسبعمائة من الفيلة بقيادة ملك نايب ، فقاتلهم قتالا شديدا حتى هزمهم وداست الفيلة رؤساءهم فى دلهى . إلا أن كثيرا منهم تفرقوا فى البلاد ، واستوطنوا فيها ، وصاروا بعد قليل عنصر قلق وخطر على علاء الدين ، فاضطر لتعقبهم ، والقضاء على عشرات الآلاف منهم ، والاستراحة من شرهم ، وكان ذلك سنة ٧٠٥ هـ - ١٣٠٥ م .

وفى سنة ٧٠٦ هـ ١٣٠٦ م أرسل جيشه إلى الدكن بقيادة « خواجه حاجى وملك نايب » ، فتم لهم الانتصار على حاكمها ، وضموا بلاده إلى مملكة علاء الدين ، ثم قصد جيشه قلعة « ديوكره » ، ويسميها ابن بطوطه « الدويقير » ، وتأتى فى بعض الكتب باسم « ديوكير » ، فأعلن صاحبها الاستسلام ، وقدم لعلاء الدين التحف والهدايا حين قدم عليه فى دلهى مذعنا خاضعا ، فأكرمه وجعله واليا على بلاده وما حولها من قبل سلطان دلهى . .

وقبل ذلك استولى على الكجرات من الراجبوت ، ولكى نصور الحروب التى قام بها ، والفتوحات التى تمت له فى اختصار ننقل لك ما جاء فى حاضر العالم الإسلامى عنه (١) : —

« وسنة ١٢٩٠ م انتقلت سلطنة الهند من أيدى المماليك إلى « آل قليجى » الأفغانيين ، فامتاز من هؤلاء السلطان « علاء الدين » ، الذى كسب للمسلمين فتوحات جديدة ، فأخضع بهوپال ، واجتاح بلاد المهرات — فى مقاطعة

---

(١) ص ٢٩٣ ج ٤ . وكأن المؤرخ ينسب هذه الأسرة « آل قليجى » إلى قالج خان . وكان رأس هذه الأسرة . كما تنسب أحيانا إلى « خلج » وطنهم الأصلى فيقال خلجى .

بلاد بومباى الحاضره ـ وضرب على راجا المهرات الجزية ، وفتح مدنا ، وقفل بغنائم كثيرة ، وعام ١٢٩٧ م زحف ١٠٠ ألف مغولى مما وراء النهر ، يقودهم أمير من ذرية جنكيزخان قاصدين البنجاب ، فالتقى بهم علاء الدين ، وهزمهم شر هزيمة بقرب « لاهور » ، فعادوا سنة ١٣٠٥ م ، وتقدموا نحو دلهى ، فكسرهم علاء الدين كسرة أشنع من الأولى ، وأسر منهم جانبا ، رماهم تحت أرجل الفيلة فداستهم ، ثم عاد علاء الدين إلى إتمام فتح الهند الوسطى فاستولى على مملكة گجرات ثم غزا مملكة « چيتور » ، وبعد حرب ضروس التجأ ملكها إلى جبال « أرافالى » ، فلم يرجع علاء الدين عنه إلا بعد أن أقر له بالطاعة ، وفى سنة ١٣٠٨ م سير علاء الدين أحد قواده « الملك كافور »[1] لغزو مملكة دكن ، وامتنع راجا مملكة مهرات عن دفع الجزية ، فغزا بلاده ، ومملكة «تلينگانا» ، وفتح عنوة عاصمتها فارا نگال ، واستولى على خزائن ملكها ، وفى سنة ١٣١٠م غزا مملكة «ميسور» واجتاح مدينة «هاليبيد» العظيمة . ثم فى أثناء إيابه لدلهى قتل راجا المهرات الذى عاود العصيان ، وضم المهرات إلى سلطنة دلهى . وفتح الدكن لم يتيسر لا للاسكندر ، ولا لمحمود الغزنوى ، ولا لمحمد الغورى ، وكل من هؤلاء الفاتحين العظام لم يصل إلى بلاد الدكن فى غزواته » .

وهكذا كتب النصر لعلاء الدين فى كل الحروب التى خاضها جيشه حتى لقب باسكندر الثانى ، وكان من أشهر قواده : كافور ، وظفرخان ، وألغ خان ، وألماس بيك ، وقد قال بعض المؤرخين : « إن عدة المعارك العلائية كانت أربعا وثمانين وفى كلها ظفر وغنم »[2] . ولكن كان كافور هو نائب السلطان وأشهر القواد وأقربهم إليه ، وقد سكر علاء الدين بنشوة

---

(١) كان يسمى « كافورا » « وملك نايب » وكان هندوسيا فأسلم ، وهذا الأسم الأخير « ملك نايب » يظهر أنه أضيف إليه لما عينه الملك نائبا له فصار نائب الملك . ولكنهم يقدمون المضاف إليه فيقولون « ملك نايب » ولهذا كانت هذه التسمية « الملك كافور » غير صحيحة كما يظهر لى .

(٢) نقلا عن نزهة الخواطر ج ٢ ص ١٥٢ .

الانتصار الذى كان ملازما له ، ولم يكن على قدر من العلم ، فسولت له نفسه أن يخترع دينا جديدا يضع فيه نفسه موضع التقديس ، غير أن صاحبه « علاء الملك » قاضى قضاة دلهى أقنعه بالعدول عن مثل هذه الأفكار (١) .

وإذا كنا للآن قد شغلنا مع علاء الدين بحروبه وانتصاراته ، فإن هناك جانبا هاما من أعماله نحب أن نقف عنده ، وكان هذا الجانب خليطا من الظلم والقسوة ، ومن رعايته لشؤون شعبه فيما يختص بأسعار حاجات المعيشة .

ذلك أن بعض أفراد أسرته حدثته نفسه بالقضاء عليه ، فكان رد علاء الدين عليه أن فتك به وبكل من حامت حوله شبهة فى ذلك ، وأخذ يعامل الأمراء بالشدة ، وبث حولهم العيون ، حتى أصبحوا فى فزع من أن يتكلموا بشىء ، كما قيد حريتهم ، وأمرهم ألا يتصاهروا إلا بإذنه ، وصادر كثيرا من ثرواتهم ؛ فقد قيل له إن الحرية التى أعطيت لهم ، والمال الكثير الذى صار فى أيديهم هو الذى دفعهم إلى الثورة عليه ، فكان رده على ذلك أن صادر حرياتهم ، والمال الذى فى أيديهم ، ومنع شرب الخمر والمخدرات . وقد أصدر بعض القوانين التى تحد من زيادة الثروة فى أيدى الناس ؛ ومنها - كما جاء فى نزهة الخواطر : (١) أن يؤخذ نصف غلات الأرض لبيت المال بغير استثناء . (٢) ألا يزيد أحد مهما كان على امتلاك أربع بقرات (ثيران) للزرع ، وجاموستين وبقرتين واثنى عشر رأسا من المعز (٣) وأن تؤخذ الضريبة على علف الدواب .

على أن عنايته بتسعير مواد المعيشة وغيرها يوحى إلينا بمقدار حرصه على راحة شعبه ، وتوفير حاجاته بثمن معتدل لاظلم فيه على المنتج أو المستهلك .

يقول ابن بطوطة عنه : « كان من خيار السلاطين ، وأهل الهند يثنون عليه كثيرا ، وكان يتفقد أمور رعيته بنفسه ، ويسأل عن أسعارهم ، ويحضر

---

(١) كما جاء فى مذكرة الأستاذ حبيب وفى المسألة الهندية للأستاذ عبد الله حسين ، وقد لاحظت فى المسألة الهندية أن المؤلف كثيراً ما يحرف الأسماء نظرا لنقله عن الانجليزية فيذكر مثلا اسم « خوارزم » هكذا « خوارا سام » ويذكر اسم قائد علاء الدين « خواجه حاجى » هكذا « خاجا هاجى » .

المحتسب - وهم يسمونه الرئيس - فى كل يوم لذلك ، ويذكر أنه سأله يوما عن سبب غلاء اللحم فأخبره أن ذلك بسبب كثرة المغرم « الضريبة » على البقر فأمر برفع ذلك ، وأمر بإحضار التجار ، وأعطاهم الأموال وقال لهم : اشتروا بها البقر والغنم وبيعوها للناس . وما يرتفع من ثمنها لبيت المال ، ويكون لكم أجرة على بيعها ، ففعلوا ذلك . وفعل مثل هذا فى الأثواب التى يؤتى بها من « دولت أباد » ، وكان إذا غلا الزرع فتح المخازن ، وباع الزرع حتى يرخص السعر ، ويذكر أنه ارتفع السعر ذات مرة ، فأمر ببيع الزرع بثمن عينه ، فامتنع الناس من بيعه بذلك الثمن ، فأمر ألا يبيع أحد زرعا غير زرع المخزن (يريد مخزن الحكومة) ، وباع للناس منه ستة أشهر ، فخاف المحتكرون فساد زرعهم بالسوس ، فرغبوا أن يؤذن لهم فى البيع ، فأذن لهم على أن يبيعوه بأقل من القيمة الأولى التى امتنعوا عن بيعه بها » .

وقد عنى صاحب نزهة الخواطر[١] بتفصيل هذا الجانب من أعمال علاء الدين فقال :

إنه أسس قواعد السعر للأطعمة والأقمشة ، وكل مايحتاج إليه الناس ، ثم بين قواعد تسعير الأطعمة بتوليته محتسبا يشرف على سوق الأطعمة وأسعارها ، وتحصيل الضريبة على الزرع عينا ، وتخزينها فى مخازن الحكومة ليخرجها حين تقل الأطعمة أو يرتفع السعر . وتخصيص تجار الأطعمة بالسكنى والبيع فى مكان معين على نهر « جمنا » ، كما منع الزراع من خزن مازاد عن حاجتهم ، وأمر بعرض الأسعار كل يوم عليه ، وكان يتفقد بنفسه هذه الأسعار .

ثم ذكر القواعد التى اتخذها بخصوص الأقمشة ، وكيف بنى لها سوقا خاصا عند الباب البدايونى بدهلى ، وأعد دفاتر لحصر المعاملات ، وتقييد أسعارها وكميتها ، وأعطى تجار « ملتان » مبالغ كبيرة ليتولوا بأنفسهم جلب الأقمشة من البلاد الأخرى وبيعها ، بالأسعار المعهودة .

---

(١) كما عنى المؤرخ فرشته كذلك بتفصيلها .

وهكذا فعل بتجارة الخيول والبقر والجواميس والإبل والمعز والضأن، وكل شيء يحتاج إليه الناس من الأبرة فما فوقها على ماينا سبه الزمان .

وقد توسع صاحب نزهة الخواطر فى ذلك حتى ذكر الأسعار التى عينت لهذه الأشياء كلها حسب التعامل فى ذلك الزمان ، وهذا وإن كان لايعنينا الدخول فى تفاصيله ، إلا أننا نأخذ منه صورة عامة عن سياسة علاء الدين ، واجتهاده لتأمين شعبه فى معيشته ، وتوفير أسباب الرخاء له . بقدر مايمكنه ، ولا شك أن ذلك جهد يستحق التقدير ، وعناية يقابلها المؤرخ بالثناء . .

ومما ورد فى الأشياء المسعرة « السكر القالب المصرى » مما يدلنا على أن مصر كانت تصدر إلى الهند هذا النوع ، وإلا فمن أين جاءت هذه التسمية ؟! وللآن لازال الناس يسمون السكر باسم « مصرى » كما سمعت مرارا ، كما يسمون نوعا من العدس باسم « مصرى دال » أى عدس مصرى . . وهو العدس المقشور المعروف فى مصر . وفى الهند أصناف من العدس قد تصل إلى العشرين. ونختم كلامنا عن علاء الدين بما جاء فى تاريخ البرنى عنه ، قال [١] :

«إن حدود مملكته اتسعت لدرجة لم تتذق لملك من قبله ، وتوطدت الأمور وسار كل شيء طبق رغائبه ، وامتلأت خزائنه بالذهب والفضة والجواهر ، وكان كثير البذل سفاكا للدماء ، أميا لايعرف القراءة والكتابة ، إلا أنه كان موفقا فى كل مقاصده ، خبيرا فى قيادة الجيوش وإدارة الأحكام ، وحينما اغتصب الملك من الشاه فيروز صار ينثر الذهب فى طريقه على أعوان الملك السابق استجلابا لهم ، وكسبا لولائهم ، فلما تم له ذلك قلب لهم ظهر المجن وقبض عليهم جميعا ، فقتل البعض منهم وسمل عيون الآخرين ، وصادر أموالهم ، واستصفى أملاكهم ، ولم يستثن إلا ثلاثة تنزهت نفوسهم عن قبول الرشوة ، وارتكاب الخيانة لسيدهم السابق ، فأعطى بذلك درسا عظيما للذين لاوفاء لهم ولا عهد ، والذين يلبسون ثوب زيد لعمرو طبقا للظروف ، وتماشيا

---

(١) نقلا عن مذكرة الأستاذ حبيب ص ٣ ه وكذلك جاء فى تاريخ فرشته ج ٢ .

مع الهوى ، ولقد بالغ علاء الدين فى احترام القواد الثلاثة الذين حافظوا على ولائهم لفيروز ، فأفاد بذلك الجيل المعاصر له درسا أخلاقيا متينا ».

وإننا من جانبنا نعتبر هـذا التصرف دليلا على العقلية الواسعة ، والنفسية الكبيرة لهذا السلطان ، وقـد توفى فى شوال سنة ٧١٦ هـ ١٣١٧ م ، فيكون قد مكث فى الحكم عشرين سنة حافلة بجلائل الأعمال . ومن آثاره الباقية فى دهلى حتى الآن الجزء الذى أضافه لمسجد «قوة الإسلام» من الناحية الجنوبية ، والأبواب الضخمة التى عملها له ، وتعرف باسم « علائى دروازه » أى بوابة علاء ، وقدشاهدتها ، ولا تزال متينة وتعلوها قبة كبيرة ، وكلها من الحجر الأحمر .

ومما تجدر الإشارة إليه أنه فى أيام هـذا السلطان وسلفه وخلفائه أيضا عاش رجلان عظيمان لهما فى تاريخ الصوفية والشعر مقام ملحوظ فى الهند ، أولهما : الشيخ نظام الدين البدايونى الصوفى الكبير ، ولد فى بدايون سنة ٦٣٦ هـ ١٢٣٨ م وانتهت إليه الرياسة فى دعاء الخلق إلى الله ، وكان جلال الدين فيروز الخلجى وعلاء الدين يحترمانه ، ويحاولان مرارا أن يزوراه ، ولـكنه كان يمتنع عن مقابلتهما وقد توفى سنة ٧٢٥ هـ ١٣٢٤ م[1] ودفن فى دهلى وقبره مشهور وتسمى منطقة كبيرة فى دهلى باسمه « نظام الدين أولياء » وتتخذ جماعة التبليغ فى الهند مركزها الرئيسى فى مسجده .

وثانى الرجلين الشاعر الصوفى العظيم « الأمير خسرو » بلغ مرتبة عظيمة عند الملوك ، وكان شاعرا متفننا وصوفيا مخلصا . وكان تلميذ الشيخ نظام الدين وصفيه . تأثر لوفاته فمات بعده بقليل . ودفن بجواره سنة ٧٢٥ هـ ١٣٢٤ م .

خلفاء علاء الدين

كان لعلاء الدين من الأولاد : خضر خان ، وشادى خان ، وأبو بكر خان ، ومبارك خان الذى لقب بقطب الدين ، وشهاب الدين .

وشاء الله ألا يبارك فى هذه الذرية ، فـكان نصيبهم جميعا القتل .

(١) فى عهد غياث الدين طغلق شاه .

سجن خضر خان فى عهد أبيه فى حصن گواليار لغضبه عليه ، وتوفى علاء الدين وابنه فى سجنه ، وعهد « كافور » الذى كان قد بلغ منزلة كبيرة فى عهد علاء الدين إلى «شهاب الدين» الابن الأصغر للسلطان ، ونصبه على العرش لينفرد بالسلطة ، فقد كان عمره ست سنوات ، وقبض على أبى بكر خان ، وشادى خان وسمل أعينهما وأرسلهما إلى السجن مع أخيهما خضر خان الذى سمل عينيه أيضا ، ونجا قطب الدين من سمل عينيه ، وبجوار ذلك أساء « كافور » معاملة الملكة الوالدة ، واغتصب أملاكها وسجنها ، وظن أن الأمر بذلك قد استتب له ، ولكن الله سلط عليه عبدين مخلصين لذكرى سيدهم وهما « بشير ومبشر » فقتلاه ولما يمض عليه عدة أسابيع ، فأخذ جزاءه .

وتولى الملك « قطب الدين مبارك » فى محرم سنة ٧١٧ هـ ١٣١٧ م بعد أن خلع أخاه الصغير « شهاب الدين » وسمل عينيه هو الآخر وسجنه مع أخويه ، وكانت هذه القلاقل والحوادث فى العاصمة باعثة بلاشك على خروج من يستطيع الخروج عليها ، فاضطر قطب الدين أن يسير إلى الدكن لتأديب الخارجين عليه هناك ، وقبض على رأسهم « هريال ديو » وسلخ جلده ، وحين أحس بحركة ترمى إلى تولية ابن أخيه خضر خان بدله ، أخذ ابن أخيه هذا وكان يرانقه ، وسنه عشر سنوات ، وأمسك برجليه ، وضرب برأسه الحجارة حتى نثر دماغه كما يقول ابن بطوطة ، ثم بعث برسول إلى القلعة التى سجن فيها خضر خان وإخوته ، فقتلهم جميعا ، كما قتل أطفالهم ، وأخرج نساءهم من البيوت ، ويقول ابن بطوطة « ولما أتوا بخضر خان ليضربوا عنقه فزع ، وكانت أمه معه ، فسدوا الباب دونها وقتلوه ، وسحبوهم جميعا ورموهم فى حفرة دون تكفين وغسل ، وعاشت أم خضر خان مدة ورأيتها بمكة سنة ٧٢٨ هـ(١)

ولم يسر قطب الدين سيرة أبيه ، فانفرط عقد الدولة ، كما انصرف هو إلى اللهو والشراب ، وقد سلط الله عليه من يقتص منه للقتلى الذين قتلهم ، وكان

---

(١) مهذب ابن بطوطة ج ٢ ص ٤٤ .

أحب النـاس وأقربهم عنده ، وأكثرهم تسلطا عليه وهو « خسروخان » أحد قواده المحببين لديه حيث دبر مؤامرة لقتله(١) ، وتم له ذلك ، ورمى بجثته من سطح القصر إلى صحنه فى ربيع الأول سنة ٧٢١ هـ — ١٣٢١ م ، وأرسل خسروخان إلى الكبراء والأمراء — وكان كبير وزراء قطب الدين — فجاءوا إليه وهم لا يعلمون ما حصل . وكلما دخلت طائفة وجدوه على سرير الملك ، فبايعوه باسم ناصر الدين خسروخان وأغدق عليهم العطاء ، ولكن سيرته فيما بعد كانت شاذة لم تشهد البلاد مثلها ، ففوق أنه قبض على نساء قطب الدين ، وانتهك حرماتهن ، ووزعهن مع بناته على الأشراف من أعوانه ، كان ميالا إلى الهندوس ، فقد كان هندوسيا وأسلم . فاحتضنهم وبلغ الأمر به أن وزع بعض بنات الأشراف عليهم ، كما حرم ذبح البقر مراعاة لهم . وكان الجهال من أتباعه الهندوس يتخذون المصاحف كراسى يجلسون عليها(٢) ويضعون الأصنام فى المساجد .

وقد ضج الناس من هذه التصرفات الشاذة ، واستغاث أشراف دلهى وأعيانها بحاكم لاهور « غازى ملك » أو الملك الغازى « طغلق » الذى لم يقر تصرفات خسرو من أولها ، وغضب عليه لخيانته سيده وقتله إياه ، فوجد الفرصة سانحة للزحف إلى دلهى ، وتخليص البلاد من شر هذا السلطان ، الذى سمى نفسه « مساعد المؤمنين خسروخان » ! ! ! فتم له وللشعب ما أرادوا ، وتخلصوا منه وسقوه من الكأس التى سقى منها غيره ، وكان ذلك فى شعبان سنة ٧٢١ هـ — أغسطس سنة ١٣٢١ م بعد حكم لم يدم أكثر من خمسة أشهر .

وبذلك انتقلت سلطنة دلهى إلى أسرة « طغلق(٣) » .

---

(١) ذكر تفاصيلها ابن بطوطة جـ ٢ ص ٤٥ ، وكان خسروخان هندوسياً وأسلم وقربه السلطان إليه .

(٢) تاريخ فرشته جـ ١ ص ٤٢٧ (٣) تكتب « طغلق » و « تغلق » بالتاء والطاء .

الدولة الطغلقية

غياث الدين طغلق شاه

٧٢١ هـ الموافق ١٣٢١ م إلى ٧٢٥ هـ الموافق ١٣٢٥ م

يقول المؤرخ فرشته : إن مؤرخى الهند القدامى والمحدثين أهملوا ذكر نسب طغلق ، وأنه لذلك ذهب لأحد حكام لاهور يسأله عن هذا النسب ، ثم ذكر أن والده كان من غلمان السلطان غياث الدين بلبن ، وكان تركيا .

ويذكر ابن بطوطة[١] ويعتبر مرجعا مهما فى تاريخ طغلق وابنه محمد نظرا لأنه زار الهند فى أيام الأخير وكتب ماشاهده وسمعه - يذكر أن طغلق كان من الأتراك القروانة ، وهم قاطنون بالجبال التى بين بلاد السند والترك ، وكان ضعيف الحال ، فقدم السند فى خدمة بعض التجار ، وذلك فى أيام السلطان علاء الدين الخلجى ، وأمير السند إذ ذاك أخوه « أولغ خان » ، فخدمه طغلق وتعلق بجانبه ، ثم ترقى فى خدمته حتى صار أميرا للخيل ، ثم من الأمراء الكبار.

ولما تولى قطب الدين ولاه مدينة « ديال پور » وعمالتها ، وجعل ولده محمدا أمير خيله ، ثم لما قتل قطب الدين، وولى خسرو خان أبقاه على إمارة الخيل.

وقد أبلى طغلق فى حرب المغول[٢] بلاء حسنا ، حيث كان قريبا من الحدود، فقام بصدهم عن دخول الهند ،فسمى بالملك الغازى ، ويقول ابن بطوطة: إنه دخل المسجد الجامع بملتان فوجد مكتوبا على مقصورته « إنى قاتلت التتر تسعا وعشرين مرة ، فهزمتهم، فحينئذ سميت بالملك الغازى » .

ولما أراد « طغلق » أن يسير إلى دلهى لمقاتلة خسرو خان ، كتب إلى كشلو خان وهو يومئذ بملتان ، وإلى غيره من الحكام يطلب منهم القيام بنصرته ، ويذكرهم بنعمة قطب الدين عليهم ، كما كتب إلى ولده « محمد » - وكان أمير الخيل عند السلطان خسرو خان - أن يأتى إليه ، ففر إلى أبيه بالخيل التى

---

(١) ص ٤٧ وما بعدها ج ٢ . (٢) ينطقها أهل الهند (مغل) وهو النطق الصحيح كما سنعرف بعد ، ولكننا جارينا النطق المشهور لتعود الناس عليه .

كانت تحت يده ، وجهز طغلق الجيش ، وسار به مع كشلو خان إلى دلهى ، فهزم جيش « خسرو خان » الذى خرج لمقابلته بقيادة أخيه « خان خانان » ، وسار طغلق حتى وصل دلهى ، والتقى بجيش السلطان ، ودار قتال عنيف انتهى بانتصاره بعد أن كاد يهزم ، ودخل القصر السلطانى .

وقال الكشلو خان : تكون أنت السلطان ، فقال له : بل أنت تكون السلطان وتنازعا ، ثم قبل طغلق أن يتولى الملك ، أما خسرو فكان قد فر ، وأخيرا جىء به بعد أن قبض عليه ، فقال للسلطان إنى جائع فأمر له بالطعام والشراب فلما أكل وقف وقال : ياطغلق افعل معى فعل الملوك ، ولا تفضحنى ، فقال له : لك ذلك ، وأمر به فضربت رقبته ، وذلك فى الموضع الذى قتل هو فيه قطب الدين ، ورمى برأسه وجسده من أعلى السطح ، كما فعل هو برأس قطب الدين ، وهكذا كانت نهاية هذا المعتدى ، وكما تدين تدان ، وكان ذلك سنة ٧٢١هـ - ١٣٢١م .

وأسس طغلق شاه أسرة حكمت الهند نحو مائة سنة وبعد ما استقرت له الأمور جعل ابنه « محمدا » — وكان يسمى « جونه » و « ألغخان » — وليا للعهد ، وسيره على رأس جيش للجنوب ، حيث خرج عليه راجا ورنكال وبلاد التلنك ، وهناك أراد ابنه أن يخرج على أبيه بوسوسة بعض قواده ، ولكن الآخرون امتنعوا عليه ، فلما علم أبوه بذلك مؤخرا عاقب بعضهم ، وفر الآخرون ، والتجئوا إلى سلطان بنكال من أسرة غياث الدين بلبن . . وفى ذلك الوقت اشتكى أميران من أمراء بنكال مما فعله بهما أخوهما السلطان هناك ، فرأى طغلق أن يسير بنفسه إليه ، ويترك ابنه « ألغخان » ولى عهده نائبا عنه فى دلهى ، فسار للبنكال وحارب السلطان وهزمه ، وجاء به أسيرا إلى دلهى ، وعين بدله أخاه ناصر الدين أحد أخويه اللذين فرا لدلهى من قبل ، فقضى بذلك على استقلال بنكال ، وجعلها تابعة لدهلى .

ولكنه لم يتمتع طويلا بثمرة انتصاراته ، ففى أثناء عودته دبر ابنه له مؤامرة ، حيث بنى له بيتا من خشب يستقبله فيه حين قدومه ، فلما استقر فيه جاء بالفيلة واستعرضها أمامه فى ناحية منه فوقع البيت عليه ، ودفن تحت

أقباضه ، يقول ابن بطوطة : بعد أن طعم الناس وانصرفوا استأذن ابنه فى أن يعرض الفيلة أمامه ، وكان قد أقامه بواسطة الملك زاده واسمه « أحمد بن إياس » كبير وزراء السلطان ، بحيث إذا وطئت الفيلة ناحية منه سقط كله ، فلما وطئته سقط البيت عليه وعلى ولده « محمود » ، فأمر ابنه أن يؤتى بالفئوس والمساحى للحفر عنه ، وأشار بالإبطاء ، فلم يؤت بهما إلا وقد غربت الشمس ، فأخرجوه فوجدوا أنه قد أحنى ظهره على ولده ليقيه الموت ، ودفن فى مقبرته التى بناها من قبل فى « طغلق أباد(١) » وكان ذلك سنة ٧٢٥ هـ — ١٣٢٥ م .

ويذكر المؤرخون عن « غياث الدين طغلق » أنه كان عادلا فاضلا كريما حليما متورعا حسن الأخلاق راجح العقل متين الدين ، كان يلازم الصلوات الخمس بالجماعة ، ويجلس للناس فى الديوان العام من الصباح إلى المساء ، ويتفقد بنفسه أحوال الناس ، ويكرم العلماء والمشايخ ويعظمهم تعظيما بالغاً(٢) .

محمد طغلق شاه

٧٢٥ هـ - ١٣٢٥ م إلى ٧٥٢ هـ ١٣٥١ م

سبق أن ذكرنا أشياء من حياته ، ولما توفى أبوه تولى هو الملك باسم « محمد طغلق » وكنيته « أبو المجاهد » وكان اسمه « جونه » (٣) ، ثم سماه أبوه « ألغ خان » وهو ولى العهد . يقول عنه صاحب نزهة الخواطر (٤) : « إنه السلطان الجائر المشهور بالعادل ، وكان من عجائب الزمن ، وسوانح الدهر ، لم يرى مثله فى الملوك والسلاطين فى بذل الأموال الطائلة ، وسفك الدماء المعصومة » .

وجاء ابن بطوطة إلى دلهى فى زمانه سنة ٧٣٤ هـ ١٣٣٧ م ، ودون كل ما شاهده وما سمعه عنه ، ويقول (٥) : — « أما أخبار هذا الملك فمعظمها مما

(١) معنى أباد : عمران . وكذلك معنى « پور » وقد صارت هذه المدينة الآن آثاراً وخرائب جنوب دهلى .

(٢) نزهة الخواطر ص ١٠١ جـ ٢

(٣) وسميت مدينة « جونبور » المعروفة فى الهند باسمه للآن .

(٤) جـ ٢ ص ١٢٩

(٥) ص ٥٢ وما بعدها جـ ٢

شاهدته أيام كونى ببلاده ، ثم يصفه فيقول : وهو « أحب الناس لإسداء العطايا وإراقة الدماء ، فلا يخلو بابه من فقير يغنى ، أوحى يقتل . « ثم يقول » وسنذكر من أخباره عجائب لم يسمع بمثلها عن تقدمه ، وأنا أشهد الله وملائكته ورسله أن جميع ما أنقله عنه من الكرم الخارق للعادة حق يقين ، وكفى بالله شهيدا ، وبعض مآثره لا يسعه عقل كثير من الناس ، ولذا يعدونه من باب المستحيل عادة ، ولكنه شىء عاينته ، وأخذت بحظ وافر منه ، ولا يسعنى إلا قول الحق فيه » ، وابن بطوطة لم يقتصر على ذكر كرمه ومدائحه ، ولكنه ذكر بجانب ذلك فظائعه وجرائمه التى ارتكبها ، ومن أجل هذا نعتقد أن ابن بطوطه لم يجامل بل ذكر - كما يقول - كل ما رآه ، وهو من أجل ذلك يعتبر من أوثق المصادر عن تاريخ هذا الملك . وتذكر بعض كتب التاريخ عنه (١) . أنه كان متدينا لا يشرب الخمر ، وقائدا شجاعا وإداريا قديرا ، يعتبر أحد القواد والإداريين العظام . غير أنه كان شديدا فى معاملة رعاياه إلى حد القسوة . يقتل أحدهم على الذنب الصغير .

وجاء فى كتاب حاضر العالم الإسلامى (٢) : - « وظهر من بنى طغلق هؤلاء سلطان اسمه « محمد » اشتهر بالعنف والعسف ، فغاظ بسياسته الهنود والمسلمين معا ، فانتبذ كل أمير فى مملكة ، وأعلن انفصاله عن دلهى ، فملك فى الدكن ، وملك فى مالوا ، وملك فى البنغال .. الخ ، وكلهم أصبحوا مستقلين بأنفسهم ولم يبق بيد حكومة دلهى سوى دواب (٣) والبنجاب ، وهذه أيضا تعرضت لفادحة كبرى ، وهى غارة المغول . ويقول المؤرخ فرشته (٤) : إن محمد طغلق ورث ملكا واسعا مستقرا ، واستمر كذلك وهو يحكم البلاد من دلهى مباشرة أو بوساطة الراجاوات ، وكان المال يتدفق كالمطر على الخزينة

(١) مثل المسألة الهندية ص ١٢٥ (٢) ص ٢٩٣ ج ٤

(٣) اسم للأراضى الواقعة شرق دلهى بين نهرى جمنا وكنكا و « دواب » معناها النهران. لأن « دو » معناها اثنان « وآب » معناها الماء أو النهر . ومثل هذا « بنجاب » أى الأنهار الخمسة . « بنج » معناها « خمسة » . وهو اسم للمنطقة التى تجرى فيها الأنهار الخمسة .

(٤) ص ١٢ وما بعدها ملخصا ج ١ .

العامة للدولة ، لكن هذا الملك المستمر اضطربت دعائمه بعد ذلك ، وأخذت الولايات تنفصل عن دلهى وتستقل عنها ، ويذكر أسبابا عدة لذلك . منها : كثرة الإنفاق على الحملات الحربية التى وجهها إلى الأطراف ، وكثرة سفكه للدماء دون مراعاة لخلق أو دين ، ثم كثرة الضرائب التى اضطر إلى فرضها لمجابهة الإنفاق والعطايا الكثيرة . ثم ما أحدثه من نظام النقد بغير الذهب والفضة » .

وبالإضافة إلى هذا تلك المجاعة وهذا القحط الذى حدث فى أيامه ، وسبب له وللدولة وللشعب متاعب كثيرة ، وهكذا نجد الملك العريض الذى ورثه لم يستطع أن يحافظ عليه ، برغم ما تصفه بعض كتب التاريخ من أنه كان من الإداريين والقواد العظام .

* * *

والواقع أن شخصية هذا السلطان تتعب المؤرخ الذى يريد أن يصدر الحكم عليه نظرا لأفعاله المتناقضة ، ولا أستطيع إلا أن أقول إنه كان من أصحاب الشخصيات المزدوجة ، يجمع فى وقت واحد بين شخصيتين : شخصية متمسكة بالدين متواضعة غاية التواضع ، كريمة غاية الكرم ، وشخصية أخرى بعيدة عن الدين كل البعد ، حين يسرف فى سفك الدماء دون رعاية لخلق أو دين أو إنسانية ، لا فرق عنده بين مسلم وغير مسلم ، بل ربما كان نصيب المسلمين من ظلمه أكثر .

وأحب بعد ذلك أن أضع أمامك بعض الحوادث التى ذكرها المؤرخون، وأولهم ابن بطوطة الذى أغدق عليه وولاه القضاء .

بعد أن سرد ابن بطوطة أخباره الغريبة فى البذل والعطاء دون حساب ، ذكر حكايات فى تواضعه وتمسكه بالشريعة يتخيل الإنسان منها أنه من طراز الخلفاء الراشدين . قال :

ادعى عليه رجل من كبار الهنود أنه قتل أخاه من غير موجب ودعاه للقاضى،

فمضى على قدميه ولا سلاح معه إلى مجلس القاضي ، وكان قد أمره قبل ذلك ألا يقوم له . فحكم عليه القاضي ، ونفذ حكمه ، وأغرب من هذا ما حكاه عن أمير صبي ادعى على السلطان أنه ضربه من غير موجب . ورفعه إلى القاضي فحكم عليه بأن يرضيه وإلا أخذه بالقصاص .

يقول ابن بطوطة : فشاهدته يومئذ ، وقد عاد لمجلسه ، واستحضر الصبي وأعطاه عصا ، وقال له : وحق رأسي لتضربني كما ضربتك ، فأخذ الصبي العصا وضربه بها إحدى وعشرين ضربة ، حتى رأيت الكلاه (القلنسوة) قد طارت عن رأسه » .

ثم يقول : وكان السلطان شديداً في إقامة الصلاة، آمرا بملازمتها في الجماعات، يعاقب على تركها أشد العقاب ، ولقد قتل في يوم واحد تسعة رجال على تركها، كما أمر أن يطالب الناس بعلم فرائض الصلاة والوضوء وشروط الإسلام ، فكانوا يسألون عن ذلك فمن لم يحسنه عوقب .

وينتقل ابن بطوطة بعد هذا لذكر الجانب المظلم من أعماله فيقول: وكان على ما قدمنا من تواضعه وإنصافه ورفقه بالمساكين ، وكرمه الخارق للعادة ـ كثير التجاسر على إراقة الدماء ، لا يخلو بابه عن مقتول إلا في النادر ، وكنت كثيرا ما أرى الناس يقتلون على بابه ويطرحون هنالك ، ولقد جئت يوما فنفر بي الفرس، ونظرت إلى قطعة بيضاء في الأرض ، فقلت ما هذه ؟ فقال بعض أصحابي : هي صدر رجل قطع ثلاث قطع ، وكان يعاقب على الصغيرة والكبيرة ، ولا يحترم أحدا من أهل العلم والصلاح والشرف .

ثم يذكر ابن بطوطة بعض حوادث القتل والتعذيب . ومنها هذه الحادثة التي وقعت للشيخ شهاب الدين ابن شيخ الجام الخراساني . وكان من كبار الصلحاء ، يزوره السلطانان السابقان قطب الدين وطغلق ، ويعظمانه ويتبركان به . فلما تولى محمد طغلق أراد أن يستخدمه جريا على عادته من استخدام الفقهاء والصلحاء ، محتجا بأن الصدر الأول من المسلمين كانوا يستعملون أهل الصلاح، وحدث الشيخ في ذلك بمجلسه العام فامتنع ، فغضب عليه ، وأمر الشيخ الفقيه

المعظم « ضياء الدين السمنانى » أن ينتف لحيته ، فأبى ضياء الدين ذلك . وقال لا أفعل هـذا ، فأمر بنتف لحية كل منهمـا فنتفت ، ونفاهما من دلهى ، وبعد أن ذكر بعض أحوال الشيخ شهاب الدين بعيدا عن دلهى قال : إن الملك عاد بعد سنين وطلب منه أن يلي بعض الأعمال . فقال لا أعمل لظالم . فبلغ الملك ذلك ، فأتى به ، فأصر على قوله ، وقال له : أنت تعرف أنك ظالم ، فقيده وغل يديه ، ومكث على ذلك أربعة عشر يوما لا يأكل ولا يشرب . وفى كل يوم يحضره أمام الفقهاء الذين يلحون عليه بالرجوع عن قوله ، فيزداد إصرارا عليه ، فأمر السلطان أن يطعم الشيخ العذرة « الغائط » فمدوه على ظهره وفتحوا فمه بالكلبتين ، وحلوا العذرة بالماء وسقوه ذلك . ثم ضربت عنقه » .

* * *

وهكـذا كان هذا السلطان يتصرف ، على أن تصرفه لم يقف عند إعدام الأشخاص والقضاء عليهم ، بل تعداه إلى الحكم على العاصمة « دلهى » بالإعدام والتخريب . وذلك عندما أمر أهلها بالهجرة منها وتركها . فصارت مسكنا للبوم والغربان والهوام والحشرات بعد أن كانت تزهو على المدن ببهائها ، ونعيم سكانها . يقول ابن بطوطة « ومن أعظم ما كان ينقم بسببه على السلطان إجلاؤه لأهل دلهى عنها .

وسبب ذلك أنهم كانوا يكتبون بطائق فيها شتمه وسبه ، ويختمون عليها ويكتبون عليها « وحق رأس خوند عالم (أى سيد العالم) ما يقرؤها غيره ، ويرمونها بالقصر ليلا . فإذا فضها وجد فيها سبه وشتمه ، فعزم على تخريب دلهى ، واشترى من أهلها جميعاً دورهم ، وأمرهم بالانتقال عنها إلى « دولت أباد » فى الدكن فأبوا ، فهددهم فلم يجدوا مناصا من الخروج ، وتركوا المدينة خاوية على عروشها . وصعد السلطان مرة إلى سطح قصره ، ونظر إلى دلهى وليس بها نار ولا دخان ولا سراج فقال : الآن طابت نفسى وهدأ خاطرى ! ، وهكـذا . وجدناها لمـا دخلناها خالية ليس بها إلا قليل عمارة » اهـ

صور متناقضة من أعمال هذا السلطان لا نملك معها إلا أن نقول بأنه كان

ذا شخصيتين متناقضتين .. فكان يقسو إذا اشتم روح الخروج عليه وعلى أمره وهيبته ، لا يراعي دينا ولا خلقا ، بينما كان فى الوقت نفسه يبالغ فى التمسك بما يظنه هو الدين فقط كالصلاة والصيام ومظاهر التواضع والعدل .

وقد عدد المؤرخ فرشته[١] أعماله الحسنة والسيئة كما ذكر علمه وفضله والعلوم التى كان يتقنها حتى كان يعرف العربية ويقول الشعر بها ، وقال : إنه حقا كان نموذجا للرجل الصالح والرجل الطالح : ، وقد قضى أيامه التى قاربت الثلاثين عاما فى متاعب لاسيما فى آخر أيامه ، حتى توفى وهو راجع من إحدى الحروب على نهر السند ، بعد أن أصيب بالحمى فى المحرم سنة ٧٥٢ هـ - ١٣٥١ م . ولم يترك ذرية ترث العرش ، فقد كانت به علة تمنعه من النسل كما جاء فى نزهة الخواطر .

وقد كان محمد طغلق متيما بحب الخلفاء العباسيين ، مستجلبا رضاهم بعد أن انتقلوا إلى القاهرة . وفد عليه أحد أبنائهم فبالغ فى إكرامه بما لم يفعله مع أحد . ويحكى ابن بطوطة عنه ، أنه شعر مرة بعدم رضاه عنه، فذهب إليه . وأخذ يستعطفه ثم قال له : لا أشعر بأنك راض عنى إلا إذا وضعت رجلك فوق عنقى ، ولما تم ذلك بعد إصرار السلطان قال : الآن علمت أنك راض عنى .

ومرة حكى له الشيخ عبد العزيز الأردبيلى أحاديث فى فضل العباس وابنه وشيئا من مآثر الخلفاء فأعجب به حتى قبل قدميه وأغدق عليه العطايا .

وهكذا كان متطرفا وشاذا فى كل ناحية من نواحى حياته ، حتى ليبلغ فيها مالا يبلغه أحد . . ولله فى خلقه شؤون .

---

(١) ص ٩٥ جـ ٢

فيروز شاه الطغلقى

٧٥٣ هـ - ١٣٥١ م إلى ٧٩٠ هـ - ١٣٨٨ م

لم يترك محمد طغلق وارثا للعرش من ذريته ، وكان فيروز وفيا ومخلصا له ، لازمه فى أيام مرضه يخدمه ، فأثر ذلك فى نفسه فتكلم وهو مريض ، وأشار أن يكون فيروز ولى عهده ، ولكن لم يعلن ذلك رسميا ، ولما مات حدث بعض الهرج ؛ نظرا لعدم وجود ولى عهد معلوم عند الجميع ، وأراد بعض زعماء الجنود الذين أتوا مما وراء النهر وغيرها لمساعدة محمد طغلق أن ينتهزوا هذه الفرصة لإشباع أغراضهم ، إن لم يكن فى تولى الملك ، فبالاستيلاء على بعض الخزائن والجوهرات ، وإزاء هذه الحالة اجتمع كبار رجال الدولة والأمراء والأولياء ، ورأوا أن يكون « فيروز » سلطانا ، ولما أبلغوه قرارهم لم يوافق عليه ، وأظهر لهم أنه يريد الحج ، ولكنهم أصروا عليه أن يتولى السلطنة ، فقبل أخيرا إزاء هذا الإصرار . ويقول المؤرخ فرشته : إن سنه كانت فى ذلك الوقت نيفا وخمسين سنة ، وإن كانت بعض كتب التاريخ الأخرى تفيد أنه كان حول الخامسة والأربعين ، وأياما كان فقـــد تولى الملك فى المحرم سنة ٧٥٢ هـ ١٣٥١ م . وقد تربى فى حجر عمه غياث الدين طغلق ، وابن عمه محمد طغلق ، وولى الحجابة مدة من الزمان ، ومرت عليه الأحداث التى جرت فى عهد ابن عمه ، وكان ذا قلب رقيق ، لكنه لم يكن يستطيع تعديل شذوذ ابن عمه ، فلما ولى الملك جعل همه فى إرضاء نفسه وحسه ، وتعويض الشعب المرهق والتخفيف عنه ، فساس دولته سياسة الحكام العظام الذين يعنون بشعوبهم ، ويسهرون لتوفير الراحة لهم فى كل ناحية من نواحى حياتهم .

وقد كان ساعده الأيمن وزيره « مقبول خان » الذى كان هندوسيا وأسلم ، وحسن إسلامه وإخلاصه ، مما جعله يثق به ، ويغدق عليه العطايا جزاء إخلاصه وخدماته .

إصلاح الماضى :

رأى السلطان « فيروز » كل ما فعله ابن عمه ، ولكن لم يكن يملك له دفعا . رأى الدماء التى سفكت ، والأسر التى نكبت ، ورأى الشعب يئن تحت أثقال الضرائب الفادحة التى فرضها عليه السلطان ، وبالغ المحصلون فى جمعها ، بل وجمع مازاد عليها ، لذلك جعل همه حين تولى الملك أن يعمل على إزالة هذه المظالم ، وإصلاح الأخطاء التى ارتكبها سلفه . . فأخذ يواسى المنكوبين ، ويدفع لهم التعويضات لعلها تخفف عنهم ، وقد دفعته رغبته ونيته الطيبة ، ووفاؤه لابن عمه ، وحبه فى التخفيف عنه فى قبره إلى أن يستكتب المظلومين الذين يسترضيهم إقرارات بأنهم سامحوه وعفوا عنه ، ثم جمع كل هذه الإقرارات ، وفتح قبر ابن عمه ، ووضعها فيه على ظن أن ذلك يخفف من ذنوبه وحسابه ، ويعفو الله عما اقترفه . . هكـــذا كان يظن ، وهكذا فعل !!

واتجه إلى الشعب الذى فدحته الضرائب ، وأفقرته المجاعة وأنهكته ، فأعفى المزارعين من الديون التى كانت عليهم ، وأحرق صكوكها التى كانت تحت يد الحكومة ، ثم خفف عنهم الضرائب وشدد فى إشرافه على المحصلين لها حتى لا يظلموا الشعب ، كما أنه ألغى نظام الإقطاع الذى كان سائدا فى ذلك الوقت ، والذى كان يقضى بإعطاء أراض لرجال الجيش والأمراء ، فجعلها تابعة للحكومة ، مما زاد فى دخلها ، وبالتالى فى رفاهية الشعب .

مشروعاته العمرانية :

وكان لفيروز اتجاه خاص نحو المشاريع العمرانية ، فأكثر من حفر الترع والأنهار والآبار ، وبناء المساجد والمدارس والحمامات والمستشفيات والمقابر والقصور وإقامة الجسور والقناطر وإنشاء الحدائق. كل ذلك بصورة لم تتوفر لغيره ، وقد ذكر المؤرخون إحصاءات لكل هذا ، وجاء اختلاف بينهم فى ذكر الأرقام ، وإن كانوا يجمعون على كثرتها والإشادة بها . يقول صاحب

نزهة الخواطر:[١] « وبالجملة فإنه حفر خمسين نهراً ، وبنى أربعين مسجداً ، وعشرين زاوية ، ومائة قصر ، وخمسين مارستانا (مستشفى) ، ومائة مقبرة ، وعشر حمامات ، ومائة جسر ، ومائة وخمسين بئراً ، وأما الحدائق فإنه أسس ألفا ومائتى حديقة بناحية دهلى وثمانين حديقة بناحية سادرة ، وأربعين حديقة بناحية چتور ، كانت فيها سبعة أقسام من العنب » وذكر « فرشته » مثل ذلك وزاد عليه : ثلاثين مدرسة ، ولا ريب أن مثل هذه المشروعات العمرانية تعود بالدخل الوفير على الشعب والدولة معا ، مما جعل فيروز يغدق على العلماء وغيرهم من أرباب الحاجات ، ويرتب الأرزاق للمدرسين والأئمة والقائمين بالعمل فى الزوايا والقصور والمستشفيات ، ويستمر فى إصلاحاته العمرانية ، وهذا كله من سمات الدولة الراقية المستقرة . .

وقد أنشأ مع ذلك مدينة جديدة قرب دهلى سنة ٧٥٥ هـ سنة ١٣٥٤ م وسماها فيروزأباد ، وحفر لها نهراً من جمنا كما أجرى إصلاحات فى « منارقطب » كان يحتاج إليها ، على أن الذى يدلنا أكثر من هذا على رقى الدولة ، وصلاح الحكم واتجاهه نحو رعاية الشعب هو ماقرره فيروز شاه من ضمان الدولة لمعيشة المقعدين العاجزين عن العمل ، وكذلك المرضى وعلاجهم ، مماسنه عمر رضى الله عنه من قبل ، وإن كان العصر الحديث يفتخر بأنه من اختراعه . وكان فيروزشاه مع تسامحه مع الهندوس ، ومعاملته الحسنة لهم ، لايحب مظاهر العبادة الوثنية الهندوسية ، ولا التظاهر بها ، كما كان شديد الوطأة على الملحدين ، وأصحاب المذاهب الإسلامية الشاذة ، حريصا على نشر دعوة الإسلام ، وجذب الناس إليه ، حتى كان يعفى من الضرائب ، أو يمنح الهدايا لكل من يعتنقه ، مما كان له أثره الطيب فى دخول كثير من الناس فى الإسلام .

وكان سلفه محمد طغلق يحكم فى أول أمره نحو ثلاثين ولاية تابعة له . ولكن أمراءها أخذوا يستقلون حتى مات ، ولم يبق تحت حكمه إلا نحو ربعها . فلما جاء فيروز كان من الصعب عليه أن يسترجع كل مافقده سلفه[٢] . استقلت

---

(١) ص ١١١ جـ ٢ (٢) تاريخ الهند لسيد هاشمى ص ١٤٠

الدكن فى عهد محمد طغلق على يد علاء الدين البهمنى ، وجاء « فيروز » وكان الطريق إليها محفوفا بالمخاطر ؛ لأن بعض الولايات التى فى طريقها ليست خاضعة له ، كما أنه جاءته رسالة سنة ٧٥٧ هـ ١٣٥٦ م من الخليفة العباسى فى مصر « الحاكم بأمر الله أبى بكر بن أبى ربيع بن أبى سليمان » يطلب منه أن يعفو عن حاكم الدكن ويتركه ، وأرسل له مع ذلك خلعة وقرارا بتعيينه نائبا عنه فى الهند ، فلذلك تركه ، وتأسست الدولة البهمنية الإسلامية فى الدكن من ذلك الوقت .

أما البنگال فقد كانت تحت حكم « شمس الدين حاجى إلياس » فذهب إليه فيروز سنة ٧٥٤ هـ ١٣٥٣م . وبعد حصاره رجع دون أن يخضعه . وبعد حين أرسل له حاكم البنگال كثيرا من التحف والهدايا طالبا منه العفو والصفح ، فعفا عنه وتركه مكتفيا بتقديم الهدايا إليه وإعلان الخضوع له .

ولكنه عاد فى عهد ابنه « اسكندر خان » إلى مهاجمة البنگال سنة ٧٦٠ هـ ١٣٥٩ م ولم ينجح بسبب كثرة الأمطار فتركه وعاد ، ثم عاود السفر للمرة الثالثة بقصد إخضاعها ، وبعد حصارها مدة قدم له « اسكندر خان » الهدايا والتحف وطلب العفو وتركه ، فقبل فيروز شاه وأقره على حكم البنگال ورجع .

ولما قامت الثورة فى السند ذهب بنفسه لإخضاعها ، ولكنه بعد حصار الثوار رجع عنها إلى گجرات دون إخضاعها . وقضى فصل المطر هناك ، ثم رجع للسند ، ولكن حاكمها الثائر طلب العفو عنه ، فجاء به إلى دلهى مع الأسرى وأكرمه ، وأطلق الأسرى وأرجعهم لبلادهم ، وهكذا تبدو من خلال تصرفات فيروز ميله إلى حقن الدماء والسلم والعفو بقدر المستطاع .

وقد حدث أن ثار عليه أحد الثوار ، فأبعده عن الهند ، ولكن الخليفة العباسى فى القاهرة كتب إليه يطلب الصفح عنه ، فاستجاب له ، وأكرم الثائر ، وخلع عليه الخلع والألقاب .

ولما ذهب إلى قلعة « نگركوت » حاصرها وفتحها ، وحطم أصنامها ، ووجد فيها مكتبة هندوسية تضم ألفا وثلثمائة كتاب فى مختلف العلوم ، فأمر

أن تترجم الكتب الثمينة فيها من السنسكريتية للفارسية ، فترجمت عدة كتب في الرياضة والنجوم والأدب والموسيقى . نقل منها الشيخ عبد العزيز بن شمس الدين الدهلوي كتابا كان يشتمل على مائة وأربعة أبواب ، فترجم منها مائة باب في أحكام الكسوف والخسوف وكائنات الجو وعلامة المطر وعلم القيافة والفال وغيرها ، وهذا الكتاب محفوظ في المكتبة الحبيبية بقرية « بهيكن بور » من أعمال عليگره . وصنف له علماء زمانه عدة كتب بأمره وتوجيهه فنظم أعز الدين الخالدخاني كتابا في الحكمة الطبعية والتفاؤل والتطير ، وسماه « دلائل فيروز شاهي » ، وكذلك صنف عن الملك كتبا بأمره ، وصنف القاضي ضياء الدين البرني تاريخا أسماه « التاريخ الفيروز شاهي » في تاريخ ملوك دلهي من عهد بلبن إلى أيامه [١] .

على أن الذي يدعو للعجب أن السلطان نفسه كان مشتغلا بالتأليف والبحث ، برغم مشاغله العديدة في إدارة الحكم ، وأمور الحرب ، فألف كتابا في الرياسة والسياسة رتبه على ثمانية أبواب ، وأمر أن ينقشوها في الأحجار ، وينصبوها في المنارة المثمنة من الجامع الكبير بفيروز أباد دهلي ، كما اخترع السلطان ساعة عجيبة يخرج كل ساعة منها صوت عجيب يترنم ببيت من الشعر ، يذكر الملك بأن كل ما دقت الساعة يعلم أنه قد نقص من عمره ساعة ، وكانت تستخرج منها أوقات الليل والنهار ، ووقت إفطار الصائم ، وكيفية الأظلال وزيادة اليوم ونقصانه باعتبار الفصول ، ونصبت تلك الساعة بمدينة فيروز آباد [٢] .

* * *

(١) ، (٢) نزهة ص ١١٢ ج ٢ . وهذا البيت هو : —

هر ساعتى كه بردرشه طاس ميزنند نقصان عمر مى شودآن يادمى دهند

وضياء الدين البرنى كان من مشاهير الفضلاء وأعرفهم بالتاريخ وسياسة المدن وقرض الشعر ، وكانت بينه وبين الأمير خسرو الشاعر الكبير مودة ومبادلة في قرض الشعر وإنشاده ، كما كان من أصحاب ولي الله الشيخ « نظام الدين » المعروف قبره الآن باسم قبر « نظام الدين أوليا » في دهلي وكان من أعظم الأولياء في أيامه .

وعلى كل حال يمكن من خلال أعمال « فيروز شاه » التى سردناها أن نكون فكرة عن شخصيته واتجاهه فى الحكم ، ذلك الاتجاه المحمود الذى تنشده الرعية فى راعيها وحاكمها دائما ، لقد كان فيروز يحرص باستمرار على أن يسمى نفسه « الحقير المذنب فيروز بن رجب » ، ولم يكن تواضعه هذا يحمل معه جانبا آخر من القسوة والشدة كما كان ابن عمه محمد طغلق ، بل كان تواضعا خالصا ، ورغبة طيبة فى خدمة الشعب . وكان يعلن فى كل ما يعمله أنه يعمله بعناية الله وتوفيقه ومن أجل عباده لعلهم يذكرونه بالخير ، وقد قص المؤرخ « فرشته » قصة وقعت لابنه « فتح خان » وهى كافية لأن تكون عنوان العهد الفيروزى . فقد كان ابنه وولى عهده « فتح خان » هذا يتعلم فى مدرسة ، وعاد منها متعبا وقت الظهيرة ، فانتهزت فرصة مروره عجوز ، واشتكت له ما حدث لزوجها وأولادها التجار الذين أخذ الجيش الفيروزى كل ما كان معهم وقبض عليهم ظنا أنهم من الجواسيس ، فقال لها إيتينى بالشهود ، وتعالى إلى القصر ، ولكنها قالت له : لا أستطيع دخول القصر إن أتيت بالشهود ، فقال لها : حسنا سأنتظرك هنا حتى تأتينى بهم . فوقف وقت الظهيرة ، وفى حر دلهى مدة ينتظرها حتى طال الانتظار ، وكلما زين له مرافقوه أن ينصرف قال : لا . . لا بد أن يكون الأمراء أوفياء لشعبهم ، وجاءت المرأة بمن شهد على صدقها فأخذهم جميعا إلى القصر ، فوجد أباه نائما ، فانتظر معهم دون أن يتناول الطعام أو يلجأ إلى النوم حتى استيقظ أبوه ، وعرض عليه القصة ، وعوض الشاكية بما أرضاها .

ذلك ما فعله فتح خان بن فيروز . والولد سر أبيه . . وقد عجل الموت باختطافه سنة ٧٧٦ هـ ١٣٧٤ م ، فحزن عليه أبوه حزنا شديداً ألجأه إلى الاعتكاف عن الناس ، ولم يخرج منه إلا بعد أن نصحه خلصاؤه بأن أمر الملك لا يستقيم مع هذه العزلة ومع هذا الحزن . .

وكان هذا الحزن الدائم مع كبر السن سببا فى ضعفه عن تحمل أعباء الملك

كلها، فجعل ابنه « محمدا » يتولى الأعمال عنه ، ولكنه لم يحسن فى تصرفاته ، فثار عليه الشعب وغضب عليه أبوه وجعل ولاية العهد لحفيده « طغلق » ابن ولده فتح خان بعد أن فر محمد . وتوفى فيروز سنة ٧٩٠ هـ - ١٣٨٨ م ..

خلفاء فيروز شـــاه

بعد وفاة فيروز كان حفيده « طغلق » هو السلطان ، وسمى باسم « غياث الدين طغلق الثانى » ، ولم يكن كفئا للمنصب ؛ إذ كان شابا لاهيا عن تدبير أمور السلطنة ، وقد كانت عاقبته أن قتله « أبو بكر بن ظفرخان بن فيروز » فى صفر سنة ٧٩١ هـ - ١٣٨٩ م ، وتولى « أبو بكر » هذا مكانه ، ولكن عمه « محمد » الذى فر فى حياة أبيه بعد الثورة عليه إلى « نكركوت » أخذ يعمل للاستيلاء على دلهى ، فهجم عليها ثلاث مرات انتهت بانتصاره . فسجن « أبا بكر » فى إحدى القلاع فى ذى الحجة سنة ٧٩٢ هـ - ١٣٩٠ م كما فى تاريخ فرشته ، وإن كان المؤرخ « سيد هاشمى » فى كتابه « تاريخ الهند » يختلف معه فى تحديد التاريخ ..

وتولى « محمد بن فيروز » الملك باسم « ناصر الدين محمد بن فيروزشاه » ، واستمر حتى توفى بمرض السل فى ربيع الأول سنة ٧٩٦ هـ - ١٣٩٤ م ، وجاء بعده ابنه « اسكندر » ، ومكث فى الحكم نحو شهر ونصف توفى بعده ، فاشتد الخلاف بين أركان الدولة على من يستولى السلطنة ، واستمرت دلهى بدون سلطان خمسة وأربعين يوما ، ثم نادوا بمحمود بن محمـــد بن فيروز سلطانا على دلهى ، وكان صغير السن سبقته عهود من القلاقل التى صاحبت تغير السلاطين واحداً بعد الآخر ، مما كان له أثره الملموس فى ضعف هيبة الحكم ، وقيام كثير من الولايات التابعة لدهلى - على قلتها - بثورات لطلب الاستقلال : قامت ثورة من الهندوس فى شرق الهند ، فذهب إليهم « خواجه

جهان ، على رأس جيش فأخضعهم ، ولكنه طمع فى الاستقلال ، واتخذ مدينة « چونپور » عاصمة له ، ولقب بلقب « سلطان الشرق » ، وأخضع قنوج وبهار ، وجاءت له الهدايا من البنغال ، وأسس أسرة حاكمة تعرف باسم ملوك الشرق[١] ، وفى بنجاب وغيرها قامت الثورات وأخذ سلطان دهلى يتضاءل .

ومن هذا الوقت والهند تموج بالخلافات والثورات ، والهندوس فى كل مكان يقومون ضد سلطان دهلى ، وكذلك أمراء المسلمين ، فى هذا الوقت هجم « تيمور » على الهند ؛ ليخضعها لسلطانه بعد أن أخضع كثيرا من الممالك الإسلامية ، وكان هجومه سنة ٨٠١ هـ ١٣٩٩ م . فاستولى على دلهى ، وفر السلطان محمود إلى گجرات أولا ، فلم يحسن « مظفر خان » استقباله خوفا على مصالحه السياسية ، فذهب إلى « دلاور خان » حاكم « مالوا » . فأحسن استقباله ، ومكث عنده حتى عاد إلى دلهى بعد خروج تيمور كما سيأتى بيانه إن شاء الله ..

(١) وكانت هذه الدولة من أفضل الدول ، وسلاطينها من أفضل السلاطين الذين عرفتهم الدول الإسلامية فى الهند إصلاحا وصلاحا .

تيمور فى الهنـــد(١)

شهدت الهند قبل ذلك عدة غارات من المغول ، كان سلاطين المماليك يتولون ردها ودفع أخطارها عن البلاد ، فلم يتمكنوا من إقامة حكم فيها . وكانوا يخرجون من وسط آسيا كالجراد المنتشر لا يبقى ولا يذر ، وكأنهم كانوا فى سجن فانطلقوا منه ، وكأن بهم سعارا إلى الدماء والتخريب والتدمير ، كانوا من عباد الأوثان وقوى الطبيعة ، وامتازوا بالقوة والشجاعة . وعدم المبالاة بما اعتاد الناس أن يتحرزوا عنه ، كل همهم السلب والنهب والحصول على الغنائم ، وانحدروا من وسط آسيا إلى البلاد الإسلامية فدمروها ، وأتوا على حضارتها كأن لم تغن بالأمس ..

وكتب التاريخ العربى كثيراً ما تذكرهم باسم « التتار » ، ولكن كتب التاريخ فى الهند كثيراً ما تتحرى ذكرهم باسم « المغول » وهو أقرب مايكون إلى الحقيقة .

والمغول والتتار كلاهما من أتراك وسط آسيا ، وكانا أبناء عم ، مثل ربيعة ومضر فى العرب ، فالمغول ينتسبون إلى « مغل خان » والتتر ينتسبون إلى أخيه « تترخان » ، وقد وقعت حروب كثيرة بين أبناء العمومة ، فكان يتغلب فيها أحدهما على الآخر ويحكمه ، وظلوا فى أراضيهم لا يتعدونها ، حتى وقع خلاف بين ملكهم « جنكيزخان » وبين « خوارزم شاه » ، وكان « جنكيز » من المغول ، فزحف بجيش جرار مكتسحا فى طريقه « بخارى وسمرقند » منكلا بأهلها ، ولم يستطع خوارزم شاه أن يقف أمامه أو يقابله

---

(١) يكتب اسمه دائماً فى الكتب العربية « تيمورلنك » وكلمة « لنك » بالكاف الفارسية التى تشبه فى نطقها الجيم عند أهل القاهرة معناها الأعرج فى اللغة الفارسية ، وكان تيمور بكسر التاء كما ضبطها بعض المؤرخين أعرج ، فالتصقت الصفة به لكن كثيراً ممن ينطقونها لايعرفون دلالتها .

وجها لوجه ، حتى استطاع أن يصل إلى حدود العراق ، وتم له ذلك فى سنة ٦١٧ هـ — ١٢٢٠ م .

وفى عهد حفيده « هولاكو » تم للمغول الاستيلاء على بغداد سنة ٦٥٦ هـ — ١٢٥٨ م ، وقضوا على الخلافة والحضارة العباسية فيها ، كما زحفوا على البلاد الإسلامية الأخرى ، حتى بلغوا الشام وقصدوا مصر ، ولكن ملكها « سيف الدين قطز المظفر » وحد كلمة المسلمين فى مصر والعرب ، والتقى بالمغول الزاحفين فى « عين جالوت » ، ثم فى « بيسان » ، وانتصر عليهم بعد معارك عنيفة ، وردهم عن مصر ، وقضى على خطرهم الكاسح الزاحف ، حتى أخرجهم من الشام كلها بمساعدة قائده « ركن الدين بيبرس » ، وفى الوقت الذى تم فيه للمغول اجتياح البلاد الإسلامية على هذه الصورة ، لم يستطيعوا دخول الهند كما عجزوا عن دخول مصر ، فظلت الدولة الإسلامية فى كل منهما قائمة تحت سلطان المماليك ، تصد غاراتهم ، وتحول بينهم وبين دخول البلاد ، وكان السلطان بالهند فى ذلك الوقت الذى سقطت فيه بغداد هو « ناصر الدين محمود بن ألتمش » ، فكانت دلهى فى عهده وعهد خلفه « السلطان غياث الدين بلبن » ملجأ وملاذا للأمراء والكبار الفارين من وجه المغول فى بغداد وغيرها من البلاد الإسلامية التى اجتاحوها ، ووجد هؤلاء الفارون من سلاطين دلهى المسلمين كل إكرام وإعزاز ، كما سبق أن أشرنا إليه أثناء الكلام عن « غياث الدين بلبن » .

وكان المغول فى ذلك الوقت يعبدون قوى الطبيعة ، فلما اختلطوا بالمسلمين فى البلاد المفتوحة بدءوا يعرفون الإسلام ويعتنقونه ويتحمسون له . وبذلك دخل فى الإسلام عنصر قوى ، ودم جديد متحمس ، سواء فى ذلك المغول المقيمون فى الهند وغيرها من البلاد الإسلامية ، أم المغول الذين يقيمون فى بلادهم بعد احتكاكهم بالمسلمين .

وكان «تيمور» من هؤلاء المغول المسلمين ، أهلته جرأته وإقدامه إلى الاستيلاء على « سمرقند » وما وراء النهر وتركستان وخوارزم وكاشغر وبلوخستان

وخراسان والعراق وغيرها من البلاد الإسلامية متخذاً من «سمرقند» عاصمة له، وكان يتصل من جهة أمه بالقائدين السابقين العظيمين «جنكيزخان» وحفيده «هولاكو» ولكنه كما يقول المؤرخ الهندى سيد هاشمى : لم يكن من المغول المتوحشين الذين جاءوا للهند فى عهد المماليك فى جيش غير منظم وغير مهذب، بل كان جيشه منظما تحت قيادة علمية حكيمة .

ولقد استطاع تيمور أن يستولى على البلاد الإسلامية ويفتحها ، حتى بلغ الشام ، وطلب من حاكم مصر التسليم وكان السلطان «برقوق» ، فأبى واستعد للحرب ، ولكنه مات ، فقام خلفه ابنه السلطان «فرج» لقتاله حتى هزمه قرب دمشق[1] واضطر تيمور أن يطلب الصلح فأجابه إليه ، ولكن الفتنة التى قامت فى جيش المماليك جعلت السلطان يترك الشام ويعود إلى بلاده ، مما أتاح لتيمور دخول دمشق وتخريبها سنة ٨٠٣ هـ ١٤٠٠ م ولكنه لم يستطع الزحف إلى مصر .

قبل ذلك كان «تيمور» قد أغوته الهند كما أغوت سابقيه ، وشجعه على ذلك اضطراب الحكم فيها ، وقيام الفتن والثورات الداخلية وضعف السلاطين المسلمين ، على أنه مع ذلك قد صبغ هجومه عليها صبغة دينية إسلامية ، حيث رأيناه يعلن بأن هجومه «لمحض الرغبة فى محاربة الكفار ، ونشر الدين الحق طبقا لما جاءت به تعاليم محمد صلى الله عليه وسلم . ولتطهير البلاد من رجس الكافرين ، وتحطيم أصنامهم ، وهدم معابدهم ، ولكى نصير غزاة مجاهدين وقادة لجيوش المؤمنين»[2]

---

(١) وهكذا لم يذق المغول طعم الهزيمة إلا على يد الجيش المصرى سواء فى عهد هولاكو أم تيمور ، وهذا مما تفتخر به مصر فى تاريخها المجيد وان كانت الهند قد صمدت طويلا أمام غارات المغول كما أشرنا من قبل لكنها أخيرا خرت أمامهم . ومن الموافقات العجيبة أن سلاطين المماليك فى مصر والهند هم الذين تصدوا للمغول .

(٢) من مذكرة المرحوم الأستاذ حبيب . ص ٧١

وقد اجتاح « تيمور » البنجاب ، ونراه فى هجومه يحرص على أن يظهر بمظهر المسلم الغيور ، فيزور قبر ولى الله الشيخ « فريد الدين شكر گنج » ، كما نراه ينتقم لأحد المسلمين الذى قتله الهندوس مع خمسمائة كانوا معه ، فيقتل بهم ألفا من الهندوس ، ولما حاصر إحدى قلاع الأمراء الهندوسيين « راى جندل » وانتصر عليه ، طلب منه العفو فلم يقبل ، فأرسل إليه الراجا الهندوسى رجلا شريفا من السادات ، فقبل « تيمور » وساطته ، وعفا عن الراجا(١)

وتقدم « تيمور » إلى دلهى ، ومعه غنائمه وأسلابه ، وحينما وصل قريبا من دهلى كان معه نحو مائة ألف من الأسرى الهندوس ، فقال له بعض أمرائه إنا نخشى إذا تلاقينا مع جيوش دهلى أن ينتهز هؤلاء الفرصة ، ويكونوا حربا علينا ، لاسيما إذا لم نحرز النجاح فى هجومنا ، فأمر تيمور أن يقتل جميع الأسرى الذين يزيد عمرهم عن خمس عشرة سنة ، أما الصغار فيظلون عبيدا فى خدمة الجنود ، فكانت مجزرة رهيبة ، ثم لم يجد كبير عناء فى الاستيلاء على دهلى ، وفر السلطان «محمود» ووزيره «إقبال خان» إلى گجرات « ثم إلى مالواه تاركين العاصمة له سنة ٨٠١ هـ - ١٣٩٨م ، وحين تم له النصر صلى ركعتين بجوار قبر « فيروز شاه » شكرا لله ، وأقام فى ميدان المصلى ، فحضر إليه الأشراف والمشايخ ، فأكرمهم وأجابهم إلى ملتمسهم أن تسلم بلدتهم من السلب والقتل ، ولكن المدينة تعرضت مع ذلك لأقسى غارات النهب والسلب ، وحملات القتل والتدمير ، ولم يسلم منها إلا حى الأشراف والسادات احتراما لمركزهم الدينى .

ويفسر المؤرخون ما حصل لدهلى بأن الجنود انتشروا فى البلد يبحثون عن المجرمين المختفين ، فأدى ذلك إلى حوادث صغيرة بينهم وبين الأهالى ، كانت سببا فى ثورة الجند وقسوتهم على الأهالى فى السلب والنهب والقتل ، وكان أمراؤهم يحاولون إيقاف ثورتهم ، لكنهم لم يستمعوا ، وكان تيمور فى ذلك الوقت محتجبا فى قصره لعدة أيام ، فلم يسمع شيئا من ذلك ، ولم يستطع أحد إبلاغه نبأ ماحدث . وأنا أستبعد هذا التعليل الذى يحاول به المؤرخ تبرئة « تيمور »

---

(١) تاريخ فرشته جـ ٢ ص ٧٩ .

من نقضه لعهده ؛ لأنه من البعيد جدا أن يحدث مثل هذا فى دلهى ولا يعرفه « تيمور » ، ومن البعيد أن يظل فى قصره جاهلا بما يجرى حوله . وهو القائد الفاتح المحارب الذى يعرف مايجب على القائد من اطلاعه ووقوفه على الأمور أولا بأول .

وهناك مؤرخون آخرون يعللون هذا تعليلا أقرب مايكون إلى القبول فيقولون : إن الجنود انطلقوا فى البلد يحصلون الأموال التى فرضت على الناس ، ولكن الأهالى لم يستجيبوا لهم ، وكان فى الجنود غرور وقسوة ـ كما هى عادة الفاتحين المنتصرين ، ولا سيما إذا كانوا من جنود المغل ـ فأدى ذلك إلى احتكاك بينهم وبين الأهالى قتل بسببه بعض الجنود ، فبلغ ذلك الأمر إلى « تيمور » ، فاستشاط غضبا ، وأمر بحملة القتل والتأديب لهؤلاء المتمردين ، فأعمل الجنود قسوتهم مع الناس جميعا مسلمين كانوا أم هندوسا ، ولم ينج من انتقامهم إلا الأشراف والسادات والحى الذى يسكنون فيه[١] .

وقد مكث « تيمور » فى دلهى خمسة عشر يوما ، كانت فى الواقع أقسى أيام عرفتها ، ثم تركها بعد هذه الأيام تعانى آلام القتل والتدمير والفقر ، ولم يترك إلا حامية صغيرة لحراسة الأشراف والسادات ، وسار متجها إلى البنجاب ، فمن قدم له الهدايا والخضوع قبل منه ذلك ، ومن أظهر العصيان والتمرد لقى جزاءه . وتعرضت بلاده للتدمير ، حتى خرج من الهند ـ دون أن يحكمها كما كان يعلن ـ حاملا معه الأسلاب والغنائم من الذهب والفضة والجوهرات ، متجها إلى البلاد الإسلامية فى الغرب وأخيرا توفى سنة ٨٠٧ هـ ١٤٠٤ م ودفن فى سمرقند . وقد كان « تيمور » محبا للفنون ، أعجبته مبانى مسجد محمد طغلق وغيره ، وأحب أن يقيم مثلها فى « سمرقند » عاصمة ملكه ، فجمع أساطين الفن والعمارة من دلهى وأرسلهم إليها .

وبخروج تيمور من دلهى ومن الهند أتيح للسلطان محمود ووزيره إقبال

---

(١) تاريخ فرشته ج ٢ ص ٨٠ وما بعدها ملخصا .

الفارين من وجهه قبل ذلك أن يرجعا إلى عرش السلطنة ، ولكن أية سلطنة كانت ؟!

لقد كانت سلطنة إسمية ليس لها نفوذ حقيقى ؛ فقد ضاعت هيبتها ، وأتيح لكل من له غرض أو شهوة فى الحكم والسيطرة أو التمرد أن يعلن ما يريد ، ولم يمكث محمود طويلا حتى فقد وزيره « إقبال » فى البنجاب ، ثم مكث بعده نحو اثنى عشرة سنة ، حيث توفى فى ذى القعدة سنة ٨١٥هـ - ١٤١٢م بعد أن ظل على العرش ما يقرب من عشرين سنة ، ملئت كلها بالفتن والأحداث كما رأيت . . وبموته انتهت أسرة طغلق الحاكمة ، وحاول «دولت خان لودى» أن يحكم خلفا له ، ولكن « خضر خان » ـ وكان حاكم « لاهور » ـ زحف إلى دلهى ، واستولى عليها ، وقبض على « دولت خان » وسجنه حتى مات فى سجنه ، بعد أن حكم سنة وثلاثة شهور ، واستولى « خضر خان » على الحكم فى ربيع الأول سنة ٨١٧هـ - ١٤١٤م .

وبه بدأ حكم السادات فى دلهى . .

حكم السادات

٨١٧هـ - ١٤١٤م إلى ٨٥٥هـ - ١٤٥١م

أسس « خضر خان » أسرة جلست على عرش دلهى نحو سبعة وثلاثين عاما ، كانت كلها مليئة بالفتن والثورات ، وتقلص فيها نفوذ دلهى إلى حد كبير ، واستقلت الأطراف ، ففى الشرق مملكة « چونبور » ، وفى الجنوب « مالوا » ، وهكذا لم يعد لملوك دلهى شىء من السلطان ، حتى على دلهى نفسها ، بعد أن فقدوا هيبتهم ، وضاعت منهم كل أملاكهم . وقد ادعى « خضر خان » حين جلس على العرش أنه نائب عن تيمور ، ولعله أراد بذلك مصانعة المغول أو الاعتراف بجميل تيمور على السادات ، وعلى كل حال تعاقب على دلهى فى هذه المدة «خضر خان» من سنة ٨١٧هـ ١٤١٤م — ٨٢٤هـ ١٤٢١م ، ثم ابنه

« مبارك شاه » إلى سنة ٨٣٩ هـ - ١٤٣٥ م ، ثم « محمد شاه » ابن فريدخان بن خضرخان إلى سنة ٨٤٩ هـ - ١٤٤٥ م ، ثم ابنه « علاء الدين » إلى ربيع الأول سنة ٨٥٥ هـ - ١٤٥١ م ، وكان مشهوراً بلقب « شاه عالم » ، ولم يمتد نفوذه إلى أكثر من أطراف دلهى ، حتى تندر الناس والمؤرخون بهذه العبارة ، التى تدل على مقدار سلطنته : « ملك شاه عالم من دهلى إلى پالم » ، و پالم مكان فى أطراف نيودلهى يقوم به المطار الآن .

وقد انتهى ملك السادات فى زمنه ، حيث استولى على العرش « بهلول لودى » وهو من أسرة أفغانية كانت تحكم لاهور ، وبه بدأ حكم اللوديين فى دلهى .

حكم أسرة لودى

٨٥٥ هـ - ١٤٥١ م إلى ٩٣٢ هـ - ١٥٢٦ م

وهذه هى الأسرة الثانية التى بدأ حكمها وسطوع نجمها فى لاهور أيضا ، ثم زحفت منها إلى دلهى حيث استولت عليها ، وحكمت منها ، فقد كان خضرخان رأس الأسرة السابقة حاكما فى لاهور ، وفى عهد « شاه عالم » كان بهلول حاكما على لاهور كذلك ، ولما رأى ضعف العاصمة ، وتعرض نفوذ المسلمين فيها للضياع ، وكثرة الفتن والأحداث ، زحف إلى دلهى واستولى عليها ، وبايعه جميع الأفغان فى ربيع الأول سنة ٨٥٥ هـ - ١٤٥١ م ، وفر شاه عالم ، واختفى عن الأعين ، وعاش فى « بدايون » كفرد بسيط لا يعرف عنه أنه كان ملكا ، حتى توفى سنة ٨٨٣ هـ - ١٤٧٨ م وكان « بهلول » رجلا عاديا فى أول أمره ، ثم سعى الحظ فى ركابه ، حتى صار حاكم « لاهور » ومنها قفز إلى دلهى .

والمؤرخون يذكرونه بالتقدير من ناحية أخلاقه وسيرته ومعاملته للناس ، ولا سيما العلماء ، وتواضعه مع رعيته حتى كأنه واحد منهم ، وكان عماله من المسلمين والهندوس على السواء .

وقد مكث فى الحكم نحو سبعة وثلاثين عاما . حيث أعاد الروح إلى عرش دلهى ، حين جعل لاهور والولايات التى كان يحكمها تابعة له ، ثم حارب السلطان « حسين شاه الشرقى » ملك « جونبور » الذى هجم على دلهى مرات بقصد الاستيلاء عليها ، فكان نصيبه الفشل . وضياع ملكه ، وضمه إلى ملك دهلى ، وأقام « السلطان بهلول » عليه ابنه « باربك » نائبا عنه ، وفر حسين الشرقى إلى أطراف بلاده ، وأقام هناك قانعا بقليل من العيش .

وقد وسع بهلول ملكه كذلك من ناحية الجنوب فى وسط الهند ، وبذلك استعادت سلطنة دهلى مكانتها واتسع نفوذها .

وكان بهلول فى قومه مثال الملك الصالح ، مقداما شجاعا صادق القول متورعا ، يجالس العلماء ويذاكرهم فى مسائل الشريعة ، ويبذل جهده فى متابعة النبى صلى الله عليه وسلم ، ويحسن إلى قومه الأفغان ، ويبالغ فى إكرامهم ، ولا يجلس على السرير فى حضرتهم ، ويتردد إلى بيوتهم ، ويتناوب الطعام فى بيوت الأمراء ، ويركب أفراسهم عند الحاجة(١) .

وتوفى بهلول سنة ٨٩٤ هـ - ١٤٨٨ م . وخلفه ابنه السلطان عادل نظام الدين المشهور باسم « اسكندر شاه اللودى » .

وقد وقع نزاع بينه وبين أخيه « باربك » حاكم « جونبور » الذى لم يسلم له بولاية الملك بعد أبيه ، وانتهز « حسين الشرقى » الفار الخلاف بين الأخوين ، فشجع « باربك » وانضم إليه ، ولكن اسكندر انتصر على أخيه ، وفر حسين إلى البنگال ، وخضعت ولاية جونبور لسلطنة دهلى كما كانت ، فاتسعت حتى وصلت إلى « بندهيل كهند » ، وتجاوزت بنارس .

وفى سنة ٩٠٩ هـ - ١٥٠٣ م ترك « اسكندر شاه » مدينة دهلى إلى « أگرا » ، وسكن هناك بناحية منها ، لا تزال تسمى باسمه للآن « سكندرد » .

وكان اسكندر من خيرة السلاطين ، تقيا عالما محسنا متواضعا ، يحب العلماء

---

(١) نزهة الخواطر ج ٣ ص ٤٣

ويكرمهم ، ويسهر على راحة شعبه ، مجتهداً فى تطبيق العدالة بين رعاياه ، وتوفى فى سنة ٩٢٣ ﻫ — ١٥١٧ م .

وقام بعده ابنه السلطان « إبراهيم اللودى » ، فلم يحسن تدبير ملكه ، فقامت ثورات فى كل مكان ، كما قامت حرب بينه وبين أخيه « جلال الدين » حاكم « چونبور » انتهت بانتصاره وقتل أخيه ، ولكن كثيراً من الولايات التابعة له قد استقلت ، وفر كثير من أتباعه وقواته ، ولحقوا بأعدائه خوفا على أنفسهم من القتل وسوء المعاملة ، بعد ما دبر إبراهيم مؤامرة للكثير من رجاله الذين أساء الظن بهم وقتلهم . . حتى حاكم لاهور « دولت خان اللودى » أحد أفراد أسرته الذى ثار عليه ، وزحف بجيشه على « دلهى » ، وكاد يستولى عليها ، لولا أن جنوده شغلت بالسلب والنهب بعد ما تم لهم النصر ، فهجم عليهم « إبراهيم » وهزمهم ، واضطر « دولت خان » للفرار من دلهى ، والاستنجاد بالحاكم التيمورى « بابر » الذى كان يسيطر على كابل وما حولها غربى الهند ، فانتهز « بابر » هذه الفرصة ، وسار بجيش قليل ، ولكنه منظم مزود بالأسلحة الحديثة ، فتم له النصر على « إبراهيم اللودى » الذى قتل فى معركة « پانى پت » سنة ٩٣٢ ﻫ — ١٥٢٦ م ، فدخل بابر دلهى ، واستولى على عرشها ، وبدأ به حكم دولة إسلامية جديدة هى دولة المغول .

الدول الإسلامية الأخرى فى الهند

ركزت الأضواء كلها للآن على الدولة الإسلامية التى قامت فى دلهى ، واتخذت منها عاصمة ؛ لأنها هى الدولة الكبرى التى كانت تتجه إليها الأنظار ، وكانت حين قوتها تسيطر وتتسع سيطرتها ، وحين تضعف تستقل بعض الأطراف عنها ، فكانت لذلك بمثابة القلب فى الهند .

وهناك دول إسلامية أخرى كانت تقوم على أنقاض ضعف سلطان دهلى ، وتعيش مستقلة حتى إذا قوى سلطان دهلى أعادها مرة ثانية إلى سلطانه ، وقضى على استقلالها فتصير تابعة لدهلى .

من هذه الدول : دولة قامت فى الكجرات ، وأخرى فى الدكن ، وثالثة فى البنگال ، ورابعة فى جونبور وخامسة فى مالوا .

ولا أريد الآن أن أستقصى لك أحوال هذه الممالك ؛ فإن ذلك يستدعى كتبا مستقلة تتتبع أحوال الملوك ، وكيف وصلوا إلى الحكم ، وكيف حكموا ، وكيف قامت الحروب بينهم وبين غيرهم .. الخ ..

لكن إذا كان المقام لا يتحمل التفاصيل ، فإنه يتسع للإجمال ، لكى نرسم صورة عامة عن أحوال هذه الممالك وملوكها حسب ما يتسع له المقام .

الدولة الإسلامية فى الـكجرات (١)

٨١٠ هـ ١٤٠٧ م إلى ٩٦٥ هـ - ١٥٧٢ م

كانت الـگجرات تابعة لدهلى، وحين قامت فيها ثورة أرسل لها سلطان دلهى « ناصر الدين محمد الطغلق » أحد قواده وهو « ظفرخان » سنة ٧٩٣ هـ - ١٣٩٠ م لإخمادها ، فنجح فى ذلك ، وظل مقيما بها نائبا عن السلطان فى حكمها ، محافظا على ولائه لدهلى ، حتى حين خرج عليها كثير من الولاة ، واستقلوا بولاياتهم ، ولما هجم « تيمور » سنة ٨٠١ هـ ١٣٩٨ م على دهلى فر سلطانها إلى گجرات ، واحتمى بها مدة ، ثم انتقل إلى « مالوا » ، وظل بها حتى خرج تيمور من الهند ، ورجع السلطان إلى عاصمته مرة ثانية ، لـكن دهلى اعتراها الضعف الشديد ، فلم يجد « ظفرخان » مناصا من الاستقلال بها ، فأعلن استقلالها ، وسمى باسم « مظفر الأول » وكان ذلك سنة ٨١٠هـ-١٤٠٧م. ذكر عنه صاحب نزهة الخواطر (٢) أنه « السلطان الصالح المجاهد فى سبيل الله الغازى ، كان من أمراء فيروز شاه الدهلوى ، ولاه السلطان « محمد بن فيروز » على گجرات سنة ٧٩٣ هـ ، فساس أمور الملك بالعقل والدهاء والتدبير والسياسة ، وغلب على أرض گجرات كلها ، ولما تزلزل بنيان السلطنة بدهلى ، وتلاشت أجزاؤها استقل بگجرات سنة ٨١٠ هـ ، ولقب نفسه « بمظفرشاه » ، وكان عادلا فاضلا كريما ، رحيما شجاعا مجاهدا فى سبيل الله ، متعبدا حسن العقيدة والفعال ، سموه فى كبر سنه فمات ، وكانت وفاته فى سنة ٨١٣ هـ - كما فى « مرآة سكندرى » أى ما يوافق سنة ١٤١٠ م .

---

(١) تقع الـكجرات الآن فى شمال ولاية بومباى من ولايات الهند . وجنوبها يطل على بحر العرب وأشهر مدنها « أحمد أباد » التى تعتبر عاصمة البلاد الـكجراتية ، وكانت لهـا صلات تجارية وثقافية فى الماضى مع البلاد العربية ، وتتكلم اللغة الـكجراتية .

(٢) ص ١٦٩ جـ ٣ .

أحمد شـاه

وقام بعده بالملك حفيده « أحمد شاه » بوصية منه ، فساس أمور الدولة بالعدل والإحسان ووسع رقعتها ، وأنشأ مدينة جديدة قريبة من سركيج أو « سرغيز » التى كانت مقر الحكم ، سمى هذه المدينة الحديثة باسمه واسم شيخه « أحمد الكهتوى » وكان صوفيا كبيراً [١] وهى مدينة « أحمد أباد » الشهيرة فى الماضى والحاضر . والتى صارت عاصمة الكجرات منذ ذلك الوقت.

اجتمع عنده أهل العلم من كافة الأقطار ، لما عرفوه عنه من التدين ، وتشجيع العلم وإكرام العلماء ، وحثهم على التصنيف ، ومن هؤلاء العلماء الشيخ بدر الدين محمد بن أبى بكر الدمامينى [٢] الذى صنف له شرح التسهيل لابن مالك ، ومصابيح الجامع فى شرح البخارى . وعين الحياة وهو مختصر حياة الحيوان الكبرى للدميرى ، وتحفة الغريب فى شرح مغنى اللبيب .

وتوفى أحمد شاه فى سنة ٨٤٥ﻫ - ١٤٤٢م فتولى الملك ابنه محمد شاه إلى سنة ٨٥٥ ﻫ - ١٤٥١ م ثم قطب الدين بن محمد إلى سنة ٨٦٢ ﻫ - ١٤٥٧ م ثم داود بن أحمد شاه الذى لم يلبث أن عزل وتولى بعده محمود شاه

---

(١) هو الشيخ الزاهد شهاب الدين أحمد بن عبد الله الكهتوى السركيجى أحد المشايخ المشهورين فى الهند فى التصوف ، طلب منه مظفر شاه أن يقيم معه فى سركيج ، فأقام فيها ، وبايعه أحمد شاه ، وأخذ عنه طريقته لشدة حبه وتقديره له. ولد سنة ٧٣٧ ﻫ ١٣٣٦م وتوفى سنة ٨٤٩ ﻫ ١٤٤٥ م ودفن فى سركيج بجوار مقبرة السلاطين ، وقد زرت قبره حين ذهبت لأحمد أباد ، ورأيت آثار هذه المدينة البائدة « سركيج » فى ٢٩ اكتوبر سنة ١٩٥٦ .

(٢) ولد بالاسكندرية وتلقى العلم بها وبالقاهرة ثم أخذ يتنقل فى البلاد الإسلامية حتى وصل إلى كجرات فى أيام السلطان أحمد شاه سنة ٨٢٠ ﻫ ١٤١٧ م فأكرمه وأغدق عليه ، وأقبل الناس على علمه ، ثم رحل إلى الدكن وتوفى بها ودفن بمدينة كلبركه « إحسان أباد » سنة ٨٢٧ ﻫ ١٤٢٣ م .

محمود شاه

أحد مشاهير ملوك هذه الأسرة وهو المعروف باسم « محمود بيگرو »[١]، وبيگرو تتألف من كلمتين « بي » ومعناها اثنان، و « گرو » ومعناها قلعة، أى صاحب القلعتين، واشتهر بهذا الاسم لفتحه قلعتين من أمنع القلاع، وهما « جيرنار وشاميانير » تولى الملك سنة ٨٦٣هـ - ١٤٥٨م، وظل فى الحكم خمسة وخمسين عاما، كانت كلها حافلة بجلائل الأعمال، قام بحروب عظيمة، فتح فيها القلاع والحصون، ووسع ملكه، لكنه تحاشى أن يكون ذلك على حساب جيرانه من المسلمين، فقد كان هذا السلطان تستولى عليه عاطفة إسلامية، مع رجولة نادرة، تجعلنا نقف عندها لنقص شيئا من قصصها. وكان حريصا على أن يسود التوفيق حكام المسلمين جميعا، فلا يطغى منهم قوى على ضعيف، فإذا حدث ذلك من أحدهم هب لنصرة الضعيف فى شهامة تحمدله على مر التاريخ.

حدث سنة ٨٦٦ هـ - ١٤٦١ م أن وصله رسول من أم نظام شاه البهمنى صاحب الدكن الإسلامية، يخبره أن « محمود شاه الخلجى » سلطان « مالوا » خرج إلى الدكن بعساكره ويستنجد به، وكان محمود فى رحلة للصيد، فقطع رحلته، وجهز جيشه لينجد الدكن، فلما علم الخلجى بذلك رجع، ثم حدث مثل ذلك فى العام الذى يليه، ولما رجع الخلجى كتب إليه محمود كتابا يقول له فيه : ليس من المروءة قصد طفل لم يبلغ الحلم، وقد التزمت حفظ ملكه، حتى يبلغ مبلغ الرجال، فإن دخلت حده دخلت فى حدك. وفيما يليك من جهات الكفار مايغنى عنه، ويرفع درجتك بالجهاد.

ومع ذلك لما بلغه أن محمود شاه الخلجى توفى ترحم عليه، وعمل له زيارة، ولما زين له بعض جلسائه انتهاز الفرصة والاستيلاء على ملكه قال لهم : ليس من الفتوة اجتماع مصيبتين على أهل بيته فى وقت واحد : فقد ذاته وخلل جهاته.

---

(١) كان معاصرا له من سلاطين دلهى السلطان « اسكندر لودى » وكانت بينهما محبة، وأرسل له اسكندر التحف والهدايا.

ولما سمع بعد ذلك أن ناصر الدين الخلجى سم أباه غياث الدين خلجى قصد تأديبه ، ولم يرجع عنه إلا بعد أن أظهر براءته .

وهكذا تراه من خلال هذه الحوادث رجلا مسلما شهما ، قل أن يوجد نظيره فى الرجال .

وكان بجانب شهامته هذه معنيا بتعمير البلاد ، وتأسيس المساجد والمدارس والحدائق ، والإكثار من الزراعة وغرس الأشجار وحفر الآبار ، ولذلك أقبل عليه أهل الفن والحرف من كل البلاد ، فارتقت گجرات فى عهده من النواحى العلمية والزراعية والصناعية ، وكانت تصدر الثياب الفخمة إلى كثير من البلاد حتى أوربا .

وكان يكرم العلماء ويقربهم، ولذلك اجتمع فى بلاطه كثير من علماء الهند والعجم والعرب ، واشتهرت گجرات فى أيامه بدراسة الحديث . وفد عليه جلال الدين ابن محمد المالكى المصرى فقربه إليه ، ولقبه بملك المحدثين[1]. كما وفد عليه العلامة مجد الدين محمد الأيجى[2] ، فأكرمه وعهد إليه بتربية ابنه « مظفر » الذى ولى الملك بعده ، وصنف له بعض العلماء كثيرا من الكتب ، كما ترجم له أحد العلماء تاريخ ابن خلكان للفارسية[3] ، وقدم عليه أبو القاسم بن أحمد المكى المعروف بابن فهد ومعه فتح البارى بخط أبيه وعمه ، وقدمه إليه فأكرمه .

وفى أيامه أخذ البرتغاليون يهاجمون سواحل الگجرات ، فاستعان هو

---

(١) ولد بمصر سنة ٨٥٦ هـ ١٤٥٢ م وتعلم بها ثم ارتحل إلى مكة ، وقرأ على شمس الدين السخاوى كتب الحديث ، ثم سافر إلى اليمن ، ثم إلى الهند فى عهد السلطان محمود ، فأكرمه كثيرا ، حتى إذا مات وخلفه ابنه مظفر حصلت بينهما جفوة بسبب الدس عليه ، وبقى فى أحمد أباد حتى توفى سنة ٩٢٩ هـ ١٥٢٢ م ودفن بها .

(٢) من العلماء المشهورين بالحديث ، لقبه السلطان محمود برشيد الملك . ولما تولى « مظفر » الحكم قدمه على جميع الأمراء ، وجعله وزيرا له سنة ٩١٧ هـ ١٥١١ م واستمر وزيرا أربع عشرة سنة ، ثم فى عهد ابنه بهادور شاه منحه النيابة المطلقة ، فقام بها خمس عشرة سنة ، ولما جاء همايون شاه التيمورى ، واستولى على كجرات أخذه معه إلى أكرا وقربه إليه ، حتى إذا فر همايون وتولى شير شاه السورى أذن له فى الرجوع لكجرات ، فرجع إلى أحمد أباد ، ولما مات دفن بها .

(٣) سماه منظر الإنسان — ترجمة تاريخ ابن خلكان .

والزامورين ملك المليبار الهندوسى بالأسطول المصرى فى عهد « قانصوه الغورى » وكان البرتغاليون كثيراً مايعتدون على السفن المصرية فى بحر العرب والبحر الأحمر ، فاستجاب لهما سلطان مصر، وأرسل الأسطول بقيادة الأمير حسين ، ووقعت بينهم وبين البرتغاليين معركة بحرية أمام « كاليكوت » فى مليبار ، تحطم فيها الأسطول البرتغالى سنة ٩١٤ هـ - ١٥٠٨م غير أن الأسطول البرتغالى . جمع شتاته وسار شمالا إلى «ديو» فى الگجرات حيث كان الأسطول المصرى والگجرانى هناك ، وفى هـذه المرة استطاع أن يهزم الأسطولين بسبب خيانة حاكم ديو ، وتواطئه مع البرتغاليين ، ومنعه تموين الأسطول المصرى ؛ مما جعله يغادر مياه الهند راجعا إلى مصر ، فقوى شأن البرتغاليين بعد هذه الموقعة .

وفى آخر أيام السلطان محمود توجه إلى «نهرواله» ، وزار أئمة الدين أحياء وأمواتا ، وعقد مجلسا خاصا لمذاكرة التفسير والحديث ، وأكثر من العطايا ، ثم رجع إلى سرگيچ ، وأكثر من أعمال البر، والتردد على قبر الشيخ أحمد كتو.

وكان قد أنشأ لنفسه مقبرة ، فذهب إليها وفتحها ، وجلس عند القبر وقال: اللهم هذا أول منازل الآخرة فسهله لى ، واجعله من رياض الجنة ، ثم ملأه فضة . وتصدق بها على المحتاجين . .

ثم توفى فى يوم الاثنين الثانى من شهر رمضان سنة ٩١٧ هـ - ١٥١١ م بعد أن مكث فى الحكم خمساً وخمسين سنة .

مظفر الحليم

وخلفه ابنه « مظفر » الذى اشتهر باسم السلطان مظفر الحليم الـگجراتى .

كان هذا السلطان نموذجا عاليا للملوك ، جمع الفضل من أطرافه ، ويطيب لى أن أسترسل قليلا فى ذكر تاريخه الحسن ، فمثله قليل فى الملوك ، وبسيرته الطيبة النادرة يتعطر التاريخ .

عنى والده بتربيته على يد العلماء والمشايخ ، ووكل به العلامة الشيخ المحدث مجد الدين الأيجى ، حتى صار من حفاظ القرآن ، ومن المحدثين الفقهاء . اشتهر بالتقوى والعفو والتسامح حتى أطلق عليه « السلطان الحليم » ، وكان مع ذلك عارفا بالموسيقى ، ملما بعلوم زمانه ، ماهرا فى الفنون الحربية وفى الخط بجميع أنواعه ، كتب مصحفين بيده وأرسلهما إلى الحرمين الشريفين(١) .

وقد حدث فى ايامه أن أغار ملوك الهندوس على مملكة « مالواء » الإسلامية التى يحكمها آل خلجى . فاستنجد محمود شاه الخلجى الثانى به ، فسار إليه بجيشه ، وكانت موقعة جمع فيها الهندوس قوات ضخمة ، فنازلهم جيش « مظفر » وهزمهم ، ودخل القلعة التى كانوا قد استولوا عليها ، وأعمل فيمن فيها القتل ، حتى سالت الدماء أنهارا ، وفر من نجا بنفسه ، ودخل مظفر القلعة مع محمود الخلجى وطافا بها ، وتقدم إليه السلطان الخلجى يقول له : الحمد لله الذى بهمتك رأيت بعينى ما كنت اتمناه لأعدائى ، والآن لم يبق لى أرب فى شىء من الدنيا ، والسلطان أولى بالملك منى ، فرد عليه مظفر الحليم وقال له : إن أول خطوة خطوتها إلى بلادك كانت فى سبيل الله تعالى ، والثانية كانت لنصرتك ، والحمد لله قد تم لنا النصر ، فبارك الله لك فى ملكك ، ووعده بأن ينصره ويعينه دائما . وأبقى عنده بعض جيوشه لمساعدته ..

ومن الحوادث ذات الدلالة على تدين هذا السلطان ، أن الخلجى أخذه

---

(١) قال الآصفى فى تاريخه : إنه كتبهما بالخط الثلث بماء الذهب ، وخص بهما إمام الحنفية ، وجعل لهما وقفا يصرف لمن يقوم على حفظهما ، ومن يدعو له عند ختمهما ، والسقاء الذى يسقى القراء والفراش كذلك .

وطاف به فى أنحاء قصره ؛ حتى وصل إلى مكان خرج فيه نساء متزينات يحملن مختلف الجواهر ، ونثرنها تحت أقدامه ، فلما رأى ذلك أشار بأن تحتجب النساء ؛ لعدم جواز النظر إليهن ، فقال له الخلجى : إنهن ملكى ، والعبد وما ملكت يداه لسيده . ثم قفل راجعا إلى گجرات ، وكان ذلك فى صفر سنة ٩٢٤ هـ - ١٥١٩ م .

وهكذا فعل هذا السلطان صاحب النفس الكبيرة التى قل أن يحملها مثله من السلاطين ، فعل ذلك مع أن سلاطين آل خلجى كثيرا ماوقفوا مواقف عدائية ضد گجرات ، متعاونين مع الهندوس ، وفى أول هذه الحرب ، حينما كان الخلجى مشتبكا مع الهندوس ، أشار بعض قواد مظفر عليه أن ينتهز هذه الفرصة ، ويهجم على «مالوا» ويأخذها ، ولكنه أجاب بأنه ليس من الرجولة والشهامة فى شىء أن نجتمع مع الهندوس ضد الخلجى ، وننتهز فرصة انشغاله ونأخذ ملكه . ويذكر المؤرخون عن تدينه وتقواه الكثير ، ويذكرون الحكايات التى وقعت له فى هذا الصدد .

يذكرون أنه كان شديد التمسك بالسنة فى كل قول وعمل ، كثير الذكرى للموت ، كثير البكاء كلما ذكره ، محافظا على الوضوء والصلاة فى جماعة ، لم يقرب الخمر قط ، وكان شديد العناية بأحوال رعيته ، حتى كان يتنكر ويخرج بنفسه بالليل والنهار ؛ ليقف على شؤون شعبه بنفسه .

ومما ذكره الآصفى فى تاريخه (١) أن تاجر خيل خاصمه عند القاضى ، فخرج إليه ماشيا حتى إذا حضر عنده لم يتحرك القاضى من مجلسه ، ونصحه ألا يترفع عن خصمه ويجلس معه ، وهو مطيع لأمر القاضى ، فلما حكم عليه بدفع ثمن الخيول للتاجر ، ودفعها إليه ، قال القاضى للتاجر : هل بقيت لك دعوى عليه ؟ فقال : لا .. وحينئذ قام القاضى من مجلسه ، وسلم على السلطان ، وقدم له فروض الطاعة ، ملتمسا منه العفو عن معاملته فى مجلس القضاء .. فقام السلطان ، وأخذ بيد القاضى وأجلسه فى مكانه ، وجلس بجانبه وشكره على عدالته ، وعدم تمييزه على

(١) نقلا عن نزهة الخواطر ص ٣٥٦ ج ٤ .

خصمه ، وقال له : لو لم تفعل هذا وراعيتنى لانتصفت للعدالة منك ، وجعلتك كآحاد الناس ، فجزاك الله عنى وعن الحق خيرا ، فمثلك يكون قاضيا ، فتهلل وجه القاضى ، وأثنى عليه وقال له : ومثلك يكون سلطانا ..

هذه الحادثة تكفى لأن تكون عنوان الحكم فى هذا العهد ، وتكفى وحدها لأن تكون تاريخا له .

ومن بره لأهل الحرمين أنه كان يرسل لهم العطايا والأقمشة ، وأنشأ فى مكة رباطا ومدرسة وسبيلا للماء ، وجعل لها وقفا يرسل إلى مكة ينفق منه على المدرسين والطلبة ومن يقيم بالرباط ..

وقد حدث فى سنة ٩٣١هـ - ١٥٢٥ م أن خرج السلطان لصلاة الاستسقاء ، فأكثر من الصدقة على المحتاجين ، وتقدم للصلاة وأخذ يدعو ، وكان آخر ما دعا به « اللهم إنى عبدك ولا أملك لنفسى شيئا ، فإن تك ذنوبى حبست القطر عن الناس ، فها هى ذى ناصيتى بيدك ، فأغثنا يا أرحم الراحمين » . قالها وهو واضع جبهته على الأرض يكرر قوله : يا أرحم الراحمين : فما رفع رأسه حتى هاجت الرياح والبرق والرعد وأمطر الناس ..

وعند ما مرض ، وشعر بدنو أجله جمع عنده كثيراً من العلماء والصوفيين ، وأخذ يتحدث معهم فيما يصلح أن يكون بلاغا للآخرة ، ويذكر لهم ما من الله به عليه من حفظ القرآن والحديث ، وقال : ما من حديث رويته عن أستاذى المسند العالى مجد الدين الأيجى بروايته له عن مشايخه إلا وأحفظه وأسنده وأعرف حالة راويه ، وما من آية إلا وقد من الله على بحفظها ، وفهم تأويلها وأسباب نزولها وعلم قراءتها . وأما الفقه فقد عرفت منه ما أرجو به أن أكون ممن قال فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » ، وإنى منذ مدة وأنا أحاول أن أتشبه بعمل الصوفية ، وأشتغل بتزكية النفس ، عملا بما قيل « من تشبه بقوم فهو منهم » ، وإننى أطمع فى شمول بركاتهم متعللا بعسى ولعل .. ثم أخذ يكثر من التصدق ،

وزيارة الأولياء حتى توفى إلى رحمة الله سنة ٩٣٢ هـ — ١٥٢٦ م ، ودفن فى سركيج بجوار والده .

وقد زرت هذه المقابر[١] ، ويقابلها قبر الشيخ أحمد كتو . شيخ السلطان أحمد ، وهى فى مسجد عظيم ، واسع الرحاب فسيح الجنبات متين البنيان ، على بحيرة كبيرة ، كانت بيوت هؤلاء الملوك تقوم عليها ، فأصبحت الآن أثرا بعد عين ، تهدمت البيوت ، وبقى المسجد والمقابر تشهد بعظمة هؤلاء الملوك ، بقدر ما تثير فى النفس من ألم دفين ، فقد بقى المسجد وسط خرائب ومزارع ، وخلا من العابدين الساجدين إلا قليلا ممن يقوم على حفظه ، ولا يتردد عليه إلا طلاب الذكريات ، وقد أقام أمامه بعض الأهالى «أكشاكا» متداعية تحوى بعض الضروريات للزوار . جلست مع أصحابى بعد أن تعبت من الطواف بنواحى المسجد على شاطىء البحيرة ، بجانب قبور السلاطين العظام ، وأنا أردد النظر فى هذه الآثار العظيمة ، التى ظلت بعد أصحابها تقاوم الظروف والصروف . وأذكر عنها ماقاله المويلحى فى حديث عيسى بن هشام عن الآثار المصرية « خبر صادق ، ولسان ناطق ، تنطق بالعبر ، وتحدث عمن غبر »

* * *

وبعد وفاة « مظفر شاه » قام خلاف بين أركان الدولة على من يتولى الملك من أبنائه ، كان من نتيجته أن قتل « اسكندر » ثم نودى بأخيه الطفل «محمود» ملكا ، ولكن أخاه الكبير « بهادر » سرعان ماعاد من سفره ، ونادى بنفسه ملكا سنة ٩٣٢ هـ - ١٥٢٦ م ، وقتل أخاه « محمودا » سرا ، وقمع ثورة «لطيف خان » ثم قتله ، فاستقر له الملك ، وسار بجيشه إلى « چتور » ، وأخضعها وإلى « مندو » عاصمة الدولة الخلجية ، فقاتل ملكها « محمود شاه الخلجى » وأسره سنة ٩٣٧هـ - ١٥٣١م . ثم توجه إلى أچين ، وسارنگبور ، وبهلسه ، وكاكرون ، وكانور ، وهوشنگ أباد ، وإسلام أباد ، ومندسور . وفتحها كلها ، ثم عاد إلى « چتور » وسلط مدافعه على القلعة حتى تم فتحها ، وتقدم له « راناسانگا »

(١) فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦

بالطاعة ، وأهدى إليه كل ماظفر به من أملاك محمود الخلجي وجواهره ، ثم سار إلى « رنتهمبور » ، وفتحها عنوة ، وعاد إلى «چتور» مرة ثالثة وأخضعها . وهكذا قضى هذه السنين فى حرب كتب له فيها النصر دائما .

وكانت دولة المغول التى قامت فى دلهى سنة ٩٣٢ هـ - ١٥٢٦ م لم تتعرض للدولة الإسلامية بالـگجرات ، حتى طمع « همايون بن بابر » فى ضمها إلى ملكه ، فسار إليه ، والتقى بجيشه ، ودار قتال عنيف انتهى بانتصار همايون ، وفرار بهادر إلى « ديو » سنة ٩٤٢ هـ - ١٥٣٦ م ، ولكن لم يجن « همايون » ثمرة النصر ، فقد خرج عليه « شيرشاه السورى » وهزمه ، وفر همايون إلى إيران ، فانتهز « بهادر » الفرصة ؛ وكر راجعا إلى بلاده ، طاردا نواب همايون منها ، لكنه هو الآخر لم يتمتع طويلا بلذة العودة إلى بلاده ، فقد بلغه ان البرتغاليين هجموا على « ديو » فسار إلى ملاقاتهم ، وهناك خدعه القائد البرتغالى ، وادعى أنه إنما جاء لتهنئته بعودته للحكم ، لكنه لايستطيع النزول إلى البر لمرضه ، فسار إليه « بهادرشاه » ، وركب سفينة ؛ ليصل إلى القائد البرتغالى فى مركبه ، وبعد ماتقابلا عاد « بهادر شاه » ، لكنه وهو فى طريق عودته غدر به البرتغاليون ، وهجموا على سفينته ، فتنبه للخديعة ، وثبت لهم ، وأخذ يحاربهم ، ولكن بدون جدوى ، وسقط شهيداً فى البحر سنة ٩٤٣ هـ ١٥٣٧ م . .

وقد اتسعت المملكة فى أيامه اتساعا لم تشهده من قبل ؛ لما عرف به من الشجاعة وعلو الهمة ، وكان جوادا معطاء لا يجرى على لسانه فى العطاء أقل من لك تنكه [1] مما جعل وزراءه يغيرون قيمة التنكه .

وبموته قامت القلاقل فى مملكته ، وظلت كذلك حتى استولى عليها الامبراطور المغولى « جلال الدين أكبر » سنة ٩٧٨ هـ ١٥٧٢ م فى عهد مظفر شاه الثالث ، وانطوت بذلك صفحة مملكة عظيمة جادت على الزمان برجال عظماء ، سجلوا لهم فى التاريخ ذكرا وفخرا . .

(١) اللك يساوى مائة ألف ، فاضطر وزراؤه إلى تغيير قيمة التنكة ، وهى الصفيحة ، كما هو معروف فى الحجاز . .

سلاطين مالوا

كانت إمارة « مالوا » تقع فى وسط الهند ، بين گجرات والدكن وأگرا، وفى عهد محمد شاه بن فيروز شاه تغلق عين « ظفرخان بن وجيه الملك » حاكما لگجرات ، و «خضرخان» حاكما على لاهور ، « ودلاورخان غورى» حاكما على مالوا ، وظلت هذه الولايات تابعة لسلطان دلهى ، حتى إذا ضعف عمل كل حاكم من هؤلاء على الاستقلال بحكم ولايته ، وكان «السلطان محمود» قد فر من دلهى حين هجم عليه تيمور سنة ٨٠١ هـ ، وتوجه إلى گجرات ، ولكن ظفرخان لم يحسن استقباله لاعتبارات سياسية ، ولعله خاف من تيمور ، فاتجه السلطان محمود إلى « دلاور خان » فى مالوا فأحسن استقباله ، وأكرمه ، حتى عاد إلى دلهى بعد خروج تيمور ، كما سبق . وحينئذ رأى دلاور خان ألا وجه لبقائه تابعا لسلطنة متهالكة تركها تيمور جثة هامدة طمعت فيها النسور ، فاستقل بحكم مالوا ، وأسس أسرة حاكمة بها هى أسرة الغورى التى يرجع نسبها إلى شهاب الدين غورى فاتح الهند ، ولم يمكث دلاور خان طويلا بعد أن استقل بأموره ؛ فقد مات سنة ٨٠٨ هـ - ١٤٠٥ م فتولى الملك من بعده ابنه :

هوشنگ

وقد اتهم بوضع السم لأبيه ، ولذا غضب عليه السلطان ظفرخان أو مظفرخان كما سمى بعد استقلاله بگجرات ؛ للصداقة القديمة التى كانت بينه وبين زميله « دلاور خان » ، وسار إلى هوشنگ بجيشه ، فانهزم أمامه ، والتجأ إلى القلعة ، وطلب منه العفو والصفح ، ولكن مظفرخان لم يقبل منه ، وقبض عليه وسجنه فى القلعة ، وبعد سنة فك قيده ، وظل فى الحكم حتى توفى[١] ، وخلفه ابنه « غزنين محمد شاه » الذى كان آخر أسرة غورى فى

---

(١) لاتزال إحدى المدن الكبيرة فى وسط الهند تسمى باسمه « هوشنگ أباد » ، وهى محطة كبيرة من محطات القطار ، مررت عليها حين رجوعى من حيدرأباد لدلهى فى ديسمبر سنة ١٩٥٧ .

الحكم ، فأن أحد الأمراء فى عهده استطاع بعد موته أن يقبض على الحكم ، ويؤسس أسرة حاكمة أخرى هى أسرة خلجى وهذا الأمير هو :

محمود الخلجى

وقد قبض على الحكم فى آخر شوال سنة ٨٣٩ هـ ١٤٣٦ م ، وعمره أربع وثلاثون سنة . وبقى به حتى توفى سنة ٨٧٣ هـ ١٤٦٩ م فيكون قد مكث فى الحكم أربعا وثلاثين عاما ، قضاها كلها فى الحروب ، حتى كأن راحته كانت فى الضرب والطعان واقتحام الأهوال . وقد كان محمود من السلاطين العظام الذين اتسموا بحسن السياسة فى السلم والحرب ، فوفد على بلاطه العلماء والكبراء من كل البلاد فى الهند ، وخارج الهند وكان يكثر العطاء ، ويكرم العلماء ، حتى وفد عليه سنة ٨٧٠ هـ - ١٤٦٥ م رسول الخليفة العباسى فى القاهرة ، المستنجد بالله يوسف بن محمد العباسى بخلعة الخلافة ، فأكرمه وذكر الخليفة معه فى الخطبة.

وقد ذكر المؤرخون كثيرا من أحوال هذا السلطان ، وأرى ألا بأس من الاستطراد ولو قليلا معه .

هاجمه أحمد شاه الگجراتى ، وظلت الحرب بينهما مدة دون أن يظفر أحدهما على الآخر ، حتى تفشى الوباء فى جيش أحمد شاه ، فاضطر للرجوع(١) ثم سار محمود إلى ملك گواليار الهندوسى الذى اعتدى على بعض أطراف مملكته ، ففر أمامه واستولى على قلعته .

وأرسل له علماء وكبراء دلهى وميوات أن يأتى إليهم لينقذهم من ظلم سلطان دلهى ، وكان من أسرة السادات التى وليت الحكم بعد انتهاء أسرة طغلق ، فسار إليهم وجرت الحرب بينه وبين جيش دلهى سجالا ، وفى صباح

---

(١) يقول المؤرخ فرشته ج ٤ إن أحد الصالحين الذين كانوا يرافقون السلطان أحمد قص عليه أنه رأى الرسول فى منامه يقول له : قل لأحمد شاه يرجع عن محاربته المسلمين وإلا تفشى الوباء فى الجند ، ولكن أحمد لم يستمع إليه ، واستمر حتى أصيب الجيش بالأمراض ومات الكثير منه .

أحد الأيام قام من نومه مذعورا مهموما لرؤيا رآها [١] ، وصادف أن جاءه رسل سلطان دلهى يطلبون الصلح ، فاستجاب له ورجع سنة ٨٤٥هـ - ١٤٤١م .

وفى سنة ٨٥٥هـ - ١٤٥١م استعان به أحد الهندوس «راجا گنگ داس» ضد سلطان الگجرات « محمد شاه بن أحمد شاه »، وفى أثناء ذهابه توفى محمد شاه وخلفه ابنه قطب الدين . فاستمر محمود فى حملته ، واستولى على « برودا »[٢]، ثم تابع سيره حتى التقى الجيشان فى « چانبور » ، وبالرغم من فرار كثير من أمراء جيشه مع جنودهم ، إلا أنه ظل يحارب ويناوش ، حتى استطاع الفرار ليلا ، وفى طريقه إلى « مندو » أصيب بخسائر كثيرة من المهاجمين الهندوس .

ولعل هذه هى الهزيمة الوحيدة له فى حكمه الطويل ، ولما رأى نفسه مشغولا بحرب الهندوس ، وخشى أن يهاجمه ملك الگجرات كتب إليه أنه لا يليق أن يحارب المسلمون بعضهم بعضا ، وأمامهم الهندوس عدوهم المشترك ، وطلب الصلح ، فأجابه قطب الدين إليه .

ولكننا مع ذلك نراه يهاجم مملكة الدكن الإسلامية فى عهد علاء الدين البهمنى الذى تمكن من صده ، فرجع ليشتغل بالحرب مع الهندوس الذين كانوا يخرجون عليه ، أو الذين كان يريد ضم بلادهم إليه ، وكان الانتصار حليفه دائما ، وكان كثيرا ما يهدم المعابد . ويقتل الهندوس حين ينتصر ، حتى يقول المؤرخون : إنه فى ذلك أعاد ذكرى محمود غزنوى .

وفى سنة ٨٦٦ هـ - ١٤٦١ م . هجم على مملكة الدكن الإسلامية ، منتهزا صغر ملكها الطفل «نظام شاه بهمنى» الذى استنجدت أمه بالملك محمود الگجراتى ، فتجهز لنجدتها . وأنذر محمود الخلجى ، فرجع كما سبق أن أشرنا إلى ذلك عند الكلام عن السلطان محمود .

---

(١) يقول فرشته إنه رأى أن أحد الهندوس هجم على العاصمة « مندو » واستولى عليها .

(٢) زرت هذه المدينة بصحبة المرحوم مولانا حسين أحمد مدنى شيخ الإسلام فى ٢٥ أكتوبر ١٩٥٦ وكانت قبل استقلال الهند يحكمها راجا هندوسى ورأيت فيها مظاهر الرقى والعمران والتقدم حيث كانت عاصمة الراجا . وهى على طريق القطار بين دلهى وبومباى .

وهكذا ظل فى حرب مستمرة حتى توفى سنة ٨٧٣ هـ - ١٤٦٩ م أثناء قيامه بإخماد فتنة فى «كجوارا» ، وكان عادلا منصفا حازما ، يذكر المؤرخون أن الناس فى عهده لم يعرفوا أو يسمعوا عن سرقة . وإذا أتلف جيشه شيئا للناس عوضهم عنه . وبعده تولى الملك ابنه :

غياث الدين :

وكان قد قضى مع أبيه أكثر من عشرين سنة فى حرب وجهاد ، فمال إلى أن يستريح ، ويترك الحرب ، وكانت الظاهرة الغريبة فيه أنه يميل إلى جمع كثير من النساء فى بيته من مختلف الأجناس ، لكنه كان يعنى بتعليمهن وتثقيفهن ، حتى علمهن فنون الحرب ، وألبسهن ملابس الرجال ، ووجه كثيرا منهن لحفظ القرآن ، كما عنى بتربية الحيوانات والزواحف ، وعين لها الطعام والخدم ، ومع ذلك ظلت أمور الدولة فى أيامه مستقرة ، لم يحدث شىء فيها إلا أن «بهلول لودى» ملك دهلى أغار على أطراف المملكة ، فسار إليه ولكن بهلول أسرع بالرجوع ، فأرسل وراءه الجيش ، مما اضطر بهلول معه أن يقدم الهدايا لأمير الجيش راغبا فى الصفح والمسالمة ، فاستجاب له القائد ورجع. ولغياث الدين قصص وطرائف أحب أن أذكر بعضها هنا ملخصة لما فيها من الطرافة .

كان «غياث الدين» مشغولا بجمع النساء من كل مكان وكأن لذته فى رؤيتهن أمامه ، حتى جمع نحو عشرة آلاف امرأة ، ومع ذلك كان يقول : لم أر فيهن امرأة جميلة . ومرة طمع أحد أخصائه أن يقدم له امرأة جميلة فخرج فى البلاد وطاف بها ، حتى وقعت عينه على بنت فقيرة لأحد الرعايا ، فاحتال عليها حتى جاء بها إلى القصر ، ولكن أباها فزع وجاء إلى العاصمة يطلب بنته، وفى موكب غياث الدين وقف الرجل ، وقال له : إنصف أيها الملك . فوقف غياث الدين ، ونزل عن فرسه ، وقال لا أبرح مكانى حتى يفتى العلماء فى أمرى وتأخذ حقك ولو بإقامة الحد على ، وإزاء هذا أظهر الرجل سروره بأن تكون

بنته عند الملك ، وجاء العلماء وحكموا بأنه مادام السلطان لايعلم أنها جاءت بهذه الطريقة فلا حرج عليه .

وجاء رجل بدوى مرة يريد مقابلته ليطلب منه مساعدة فى زواج بنته . ولم يجد حاجبه الشيخ لقمان طريقة لوصول هذا البدوى إلى غرضه إلا أن يدبر حيلة يقول عنها للملك إن بدويا أحضر له هدية ، ويريد مقابلته فأخبره وأذن للرجل ، وأعطى لقمان للبدوى حفنة قمح وعلمه أن يقول لاأعطيها للملك إلا فى المسجد . وتمت هذه الخطة وقام الرجل فى المسجد ، وطلب من الملك أن يتلقى هديته فى حجره ، ثم ألقى فيه حفنة القمح ، وأمر الملك للرجل بعطاء كبير .

ولعل مغزى اتجاه الرجل للملك يطلب مساعدته أكبر من باقى القصة كلها .وكان غياث الدين مع انشغاله بأمور الدنيا كثير التفكير فى أمور الآخرة ، كان كلما لبس ثوبا جديدا أمر النساء الحافظات أن يقرأن القرآن ، وينفثن عليه لحصول البركة ، وكان يأمر خواصه بأنهم كلما رأوه منشغلا بأمور دنياه يحضرون أمامه ثياب الكفن ، فكان إذا رآها انقطع عن أمور الدنيا ، واتجه للعبادة والتفكير .

وقد ضعف غياث الدين فى اخر أيامه ، وقام خلاف بين ابنيه «شجاعت خان » المعروف بعلاء الدين ، و « ناصر الدين » حول الاستئثار بالحكم ، انتهت بغلبة ناصر الدين الذى قبض على مخالفيه وحبسهم ، وكان ذلك فى عهد أبيه الذى كان يؤيد « شجاعت خان » . وظل أبوه مقيما فى القلعة حتى توفى سنة ٩٠٦ هـ — ١٥٠١ م واتهم ناصر الدين بأنه دس السم له ..

واستقل « ناصر الدين » بالحكم بعد ذلك وقد حدثت بينه وبين ابنه شهاب الدين حرب انتهت بفراره ، ولكن أباه لم يتعقبه لشفقته عليه ، وكان شهاب الدين يسيء الظن بأبيه ، ويرى أنه دس السم لجده غياث الدين ، وظل ناصر الدين فى الحكم حتى سنة ٩١٧ هـ - ١٥١١ م ، وكانت مدته ١١ سنة و ٤ شهور . وقام بالملك بعده ابنه محمود

محمود الثانى الخلجى :

وكان سيء التدبير واقعا تحت تأثير « مدنى راى » أحد راجوات الهندوس الذى أفسد بينه وبين إخوته ، مما جعل الفساد يدب فى جهاز الدولة ، وقامت حرب بينه وبين بعض الأمراء انتهت بفرار محمود ، ثم ساعده « مدنى راى » على الرجوع لملكه ، وحينئذ أخذ النفوذ الهندوسى يطغى على نفوذ محمود ، فشكا المسلمون إلى سلاطين دلهى وگجرات والدكن ، فهبوا لنجدتهم ، ولكنهم لم يصيبوا نجاحا ، وسارت الأمور هكذا حتى تغلب « مدنى راى » الهندوسى على محمود الخلجى نهائيا ، واضطر للفرار بحيلة الاصطياف ، واستغاث بالسلطان « مظفر الحليم الگجراتى » فهب لنجدته وذهب إلى « مندو » ، وطرد الهندوسى منها ، وسلمها إليه ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك عند الكلام على السلطان مظفر ..

وقد ترك السلطان مظفر بعض قواته لمؤازرة محمود خلجى ضد أعدائه ، ولكن هؤلاء الأعداء غافلوا هذه القوات وانقضوا عليها حتى كادوا يفنونها وبالرغم من ضعف قوات الخلجى إلا أنه قرر أن ينتقم من هؤلاء الهندوس، فنازلهم فى حرب عنيفة أتت على كل قواته تقريباً ، حتى لم يبق معه إلا عشرة من الفرسان ، ومع ذلك قرر أن يخوض بهم المعركة ، حتى قتلوا جميعا ، وبقى محمود وحده ، وحينئذ قرر أن يستمر فى القتال وحده حتى يفوز بالشهادة ، وهجم وحيداً دون مبالاة فقتل كثيراً ، وأصابه أكثر من عشرين جرحا ، ومع ذلك استبسل فى الهجوم ، واستمر فى الضرب ، والهندوس من حوله يحاربون وهم فى ذهول مما يفعله هذا الملك الشجاع ، وأخيراً سقط من فوق فرسه ، وهنا يقص التاريخ أروع ما سجله فى صفحاته ، فقد استولى على الهندوس الراچبوت الإعجاب بهذا البطل الشجاع الذى لم يسمعوا بمثله فى التاريخ ، وأخذتهم نشوة الإعجاب التى هزت فيهم مخايل الشهامة والمروءة ، فتقدموا للبطل ، وحملوه وأكرموه ، وقدموا له الدواء ، وتقدموا بين يديه كما

يتقدم الأمراء الخاضعون لمليكهم ، وأحاطوه بكل أنواع التكريم ، حتى أجلسوه على العرش ، وعاد ملكا كما كان(١) .

هذه حادثة قل أن يكون التاريخ قد ظفر بمثالها . أبطال يكرمون بطلا عدوا لهم إلى هذا الحد بعد أن حاربهم إلى آخر رمق؟!! إن هذا شيء يستحق الإعجاب حقا بهؤلاء الأبطال الشجعان ، وبهـــذا الملك الذى رزقه طلب الاستشهاد كل هذا التكريم ، وحقا : اطلبوا الموت توهب لكم الحياة ..

وعاد محمود الخلجى للملك للمرة الثالثة ، وكانت المرة الأولى حين أعانه مدنى راى ، الهندوسى على العودة ، بعد أن غلبه بعض قواده (صاحب خان ، ومحافظ خان) ، والمرة الثانية حين أعاده مظفر شاه الكجراتى بعد أن تغلب عليه (مدنى راى) كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، ولكنه مع هـذا لم يتمتع طويلا بهذه العودة ، فقد سار إليه بهادر شاه الكجراتى ، وحاصره فى قلعة (مظفر أباد) وقبض عليه سنة ٩٣٧ هـ — ١٥٣١ م ، وعاد به أسيرا إلى أحمد أباد ، لكنه قتل فى الطريق ، وهكذا انتهت الأسرة الخلجية الحاكمة فى «مالوا» ، وانضمت هذه البلاد إلى حكم كجرات ..

---

(١) وردت تفاصيل هذه الحادثة فى تاريخ فرشته حـ ٤ ص ٥٩٨ .

مملكة الدكن البهمنية

٧٤٨ ﻫ - ١٣٤٧ م إلى ٩٣٤ ﻫ - ١٥٢٧ م

كانت المملكة البهمنية فى الدكن أسبق إلى الوجود من زميلتيها فى مالوا وگجرات بنحو ثلاثة أرباع قرن تقريبا ، إذ تأسست هذه الدولة فى أواخر عهد السلطان محمد تغلق ؛ وكان بعدها عن دلهى أكبر مساعد لها على الاستقلال ثم الاحتفاظ بهذا الاستقلال مدة كبيرة ، حيث ظل سلاطين دلهى عاجزين عن الوصول إليها بجيوشهم ، حتى قامت دولة المغول وعظم شأنها ، فضمتها إلى سلطانها . وقد أسس هذه المملكة :

علاء الدين حسن گنگو بهمان

ويذكر المؤرخون عنه أنه كان فى مبدأ حياته خادما لمنجم كبير ، له نفوذ واسع عند الملوك ، وكان « حسن » ذا طموح عجيب استطاع أن يتقرب إلى شاه محمد تغلق حتى صار من أمرائه والمقربين لديه ؛ وسار معه فى حملته لبلاد الدكن ، ولما تم له إخضاعها مكث حسن هناك حاكما صغيراً ، فلما ساءت أعمال السلطان ، وضعف نفوذ دلهى على الأطراف استطاع حسن بالاتفاق مع بعض أمراء الجند أن يستقلوا بحكم الدكن ، ثم أتاحت له ظروفه أن يظهر على بقية حكام المنطقة ، ويتولى قيادة الجيش ضد الهندوس ، وينتصر عليهم ، ويصبح الحاكم الفعلى لبلاد الدكن سنة ٧٤٨ﻫ-١٣٤٧م ويؤسس بذلك أسرة ظلت تحكم الدكن قريبا من قرنين من الزمان ، وقد اتخذ مدينة « گلبرگه » المعروفة باسم « إحسان أباد » عاصمة له ، وتوفى فى ربيع الأول سنة ٧٥٩ ﻫ -١٣٥٦م بعد أن حكم البلاد حكما ناجحا وقسمها إلى أربعة ولايات[١] ، حتى يسهل ضبط أمورها ، كما ضم بعض بلاد الهندوس المجاورة إليه بعد أن هزمهم ، وغنم منهم الغنائم الكثيرة ، واستمر فى الحكم نحو إحدى عشرة سنة

(١) وهى كلبركة ، ودولت أباد ، وبيرار ، وتاليكايا الإسلامية .

وجاء بعده ابنه : محمد شاه بهمنى

وكان قويا شديد الوطأة على الهندوس الذين غدروا بالمسلمين ، فأقسم ليفتقمن منهم شر انتقام ، وسار إلى راجا (ڤيجايانگر) وغيره ، وأعمل فيهم القتل ، حتى قيل إنه قتل منهم مئات الألوف ، واضطرهم لدفع الجزية كل سنة ، وقد أسس محمد فى عهده حكومة تشبه حكومات العهد الحالى ، حيث قسم الحكم إلى وزراء كل له اختصاصه ، وجعل لهم رئيسا ، فوزير المالية ووزير الخارجية ، وهكذا ، كما أعطى لحكام الأقاليم مايشبه الاستقلال الذاتى فى شؤون ولاياتهم .

وقد عمد فى أيامه إلى سك نقود ذهبية خاصة بمملكته ، ولما أساء المصرفيون الهندوس التصرف بإذابة هـــذه النقود وتخبئها بإيعاز راجا (ڤيجايانگر) وراجا فارانكل قام بقتل جميع المصرفيين الهندوس ، مما أفضى إلى حرب عنيفة بينه وبين راجات الهندوس المتقدمين ، وهذه الحرب هى التى ذبح فيها نحو أربعمائة ألف منهم .

وقد أنشأ محمد فى العاصمة مسجدا كبيراً ، ثم توفى سنة ٧٧٦ هـ - ١٣٧٥ م

وجاء بعده ابنه مجاهد شاه

وكان فاتحا مقداما ، قامت الحرب بينه وبين راجا (ڤيجايانگر) « كشن رائى » فهزمه ، وغنم الغنائم الكثيرة ، وفى أثناء عودته قتله عمه داود سنة ٧٧٩ هـ - ١٣٧٨ م وتولى الملك بعده ، ولكنه لم يلبث أن قتل وهو يصلى سنة ٧٨٠ هـ - ١٣٧٩ م

وتولى محمود شاه بهمنى

وكان من خيار السلاطين فى هذه الدولة ، عارفا باللغة العربية والفارسية ، قصده العلماء والشعراء من كل ناحية ، وكان الحافظ الشيرازى الشاعر الفارسى المشهور من أقرب الناس لديه ، وأكثرهم نوالا من عطائه ، وقد عنى بأحوال

رعيته ، وتوفير الأرزاق لهم ، كما عنى بإنشاء المدارس والتكايا ، وترتيب الأرزاق لليتامى والمقعدين والطلاب والعلماء ، وتوفى سنة ٧٩٩ هـ - ١٣٩٧ م بعد أن حكم قريبا من عشرين سنة .

ومن أشهر ملوك هذه الأسرة « فيروز شاه بهمنى » الذى اختير للملك بعد فترة قصيرة من القلاقل وأحداث القتل ، تلت وفاة عمه السلطان محمود ، وقد تم اختياره للملك سنة ٨٠٠ هـ - ١٣٩٨ م ، وقد تربى فيروز تربية علمية على يد الشيخ فضل الله الشيرازى ، وكان شديد الذكاء سريع الحفظ ، ولذا لم تشغله أمور الدولة عن الاشتغال بالعلم والتدريس ، فكان يقوم بالتدريس ثلاثة أيام فى الأسبوع وكان من الكتب التى يدرسها شرح المقاصد ، وتحرير اقليدس والمطول ، ونال الطلاب والعلماء كثيراً من عنايته وعطائه ، ولشغفه بالعلوم بدأ فى إنشاء مرصد للنجوم فى « بالا گهات » قريبا من دولت أباد ، وكان مع ذلك ولوعا بالنساء والخمر والغناء ، حتى زين له شيخه الشيرازى حل المتعة ، فوجدها فرصة تحقق غرضه ، فتمتع بمئات النساء ، وقد بنى بلدة سماها « فيروز أباد » .

ومما يجدر ذكره أن « تيمور » قد غزا الهند فى مبدأ أيام فيروز ، فبادر بإرسال الهدايا والتحف إلى فاتح الهند الذى سر بهديته وبروحه الطيبة ، وأرسل له التحف والهدايا مع كتاب رقيق يثنى عليه فيه الثناء الجميل .

وفى آخر أيامه كانت الخمر والنساء قد أضعفت صحته ، وأنهكت قواه ، فتمكن أخوه « أحمد شاه » من الاستيلاء على الملك سنة ٨٢٥هـ - ١٤٢٢م ، ولم يلبث فيروز أن توفى بعد ذلك بأيام ، وكان أحمد شاه من كبار القواد فى أيام أخيه . ولما تولى الملك قام بحملات تأديبية على الهندوس الذين نقضوا عهودهم ، فذبح منهم الآلاف ، وأرغمهم على دفع مال له كل سنة ، وقد عنى بتأسيس المساجد والتكايا كما أسس مدينة سماها « أحمد أباد بيدار » وجعلها عاصمة ملكه ، وتوفى فى رجب سنة ٨٣٨ هـ ١٤٣٥ م وجاء بعده :

علاء الدين شاه الثانى :

وقد عاصر جلوسه على العرش قيام الدولة الخلجية فى مالوا على يد محمود الخلجى، الذى طمع فى الدكن وهاجم أطرافها فصده علاء الدين ، وقد كثرت فى عهده الفتن والمنازعات بين المسلمين السنيين ، وبين الشيعة ، وكان أكثرهم من الأجانب الوافدين على الدكن من الخارج ، ولكن علاء الدين قمع هذه الفتن فى حزم وشدة ، بعد أن قتل كثير من الشيعة الأجانب فيها ، وقد قام علاء الدين بحروب متعددة مع ملوك الهندوس المجاورين له فى ڤيجايانكر ، وكوكن وغيرها كتب له فيها النصر ، ويذكر المؤرخون عنه أنه كان عادلا حازما ، لايتهاون فى إقامة العدل بين الناس لافرق بين كبير وصغير ، ويحكون عنـــه أنه كان يخطب على المنبر ذات يوم ، فذكر عن نفسه : أنه السلطان العادل الكريم الحليم الرءوف بعباد الله .. الخ ، فقام أحد تجار الخيول العرب من أهل الإحساء فى الجزيرة العربية ، وكان السلطان قد اشترى منه بعض الخيول ، ولكن الوزراء لم يعطوه الثمن ـ قام هذا التاجر العربى وباغته بقوله : لا والله لا عادل ، ولا كريم ، ولا حليم ، ولا رءوف أيها الظالم الكذاب ، تقتل الذرية الطاهرة (لعله يشير إلى ما حدث من قتل الشيعة) ، وتتكلم بهذه الكلمات على منابر المسلمين ، فتأثر السلطان وفاضت عينه بالدمع ، وغضب على وزرائه غضبا شديدا ، ودخل بيته ولم يخرج منه إلى أن مات[1] ، وقد توفى سنة ٨٦٢هـ — ١٤٥٧ م ، ودفن فى أحمد أباد الدكن ..

وجاء بعده ابنه « همايون » الذى اشتهر باسم « همايون الظالم » لما عرف عنه من شدته وقسوته ، وكثرة الدماء التى أراقها ، ومعاملته الوحشية لبعض قواده وكثير من جنوده وزوجاتهم ؛ لاتهامهم بخيانته .

وبعد أن قتل خلفه ابنه الطفل نظام شاه ثم أخوه « محمد الثالث » سنة ٨٦٧ هـ — ١٤٦٢ م ، وكان فى وصاية أمه حتى بلغ سن الرشد ، وقد طمع

(١) نزهة الخواطر ج ٣ ص ١٠١

الهندوس المجاورون له فى مملكته ، لكن وزيره القوى خواجه عماد الدين محمود الكيلانى[1] تمكن من صدهم ، والمحافظة على المملكة ، حتى بلغ الملك سن الرشد ، وأمسك بزمام الأمور فى يده ، ولكن محمودا ظل مع ذلك حارس الدولة ومدبرها القوى ..

وقد خاض محمد شاه مع قواده كثيرا من المعارك العنيفة ضد الهندوس المجاورين ، كتب له فيها النصر ، حتى اتسعت مملكته من ناحية الغرب إلى البحر ، مستوليا على « گوا » ، كما استولى على كانشى إحدى المدن السبع المقدسة عند الهندوس ، واتسعت المملكة من الجنوب والشرق ، حيث أخضع أوريسه على الساحل الشرقى على خليج البنگال ، وكان محمد شاه مفرطا فى الشراب ، لم يعمر طويلا حيث توفى قبل الثلاثين من عمره ، وكان ذلك سنة ٨٨٧ هـ — ١٤٨٢ م .

وخلفه ابنه الصبى « محمود » ، وبدأت الدولة تضعف فى عهده وعهد خلفائه ، وطمع حكام الأقاليم فى الاستقلال ، فاستقلوا بولاياتهم وأنشأوا ممالك مستقلة[2] بها ، وبقى السلطان فى العاصمة لا نفوذ له حتى تولى الملك

---

(١) مشهور باسم محمود كاوان ، ويقال له ملك التجار وخواجه جهان . كان من أبناء الملوك والوزراء ولد فى بلاد العجم سنة ٨١٣ هـ — ١٤١٠م ورحل إلى القاهرة ، وتلقى عن ابن حجر العسقلانى ثم رحل إلى الشام يطلب العلم والتجارة ، ثم جاء إلى الهند وسنه ٤٣ وقصد بلاد الدكن فى عهد علاء الدين الثانى ، وتقرب إلى السلاطين حتى صار وزيراً وكان عالما بارعاً فى المعقول والمنقول كريماً شجاعاً يغدق على أهل العلم فى كل الأقطار ، وكان مع سعة ثروته لا يدخر منها شيئاً وترك آثاراً خالدة فى هذه الناحية منها مدرسة عظيمة فى أحمد أباد الدكن اشتملت على مسجد ومكتبة وقاعة للمطالعة وأماكن للتسلية . وإلى محمود هذا يرجع الفضل فى توطيد المملكة حين هبت عليها الأعاصير ولكن حساده نقموا عليه قربه من الملك فدسوا عليه خطاباً مزوراً لأحد أعداء الملك الذى تعجل بقتله سنة ٨٨٦ هـ — ١٤٨١ م ثم ندم على ذلك ندماً شديداً — اهـ نزهة جـ ٣ ص ١٦٢ .

(٢) كانت خمس دول مستقلة : الأولى دولة بريد شاه فى بيدار (١٤٩٠ — ١٦٥٧) (الثانية) دولة عماد شاه فى بيرار (١٤٨٤ — ١٥٧٢) ومؤسسوها كانوا هنوداً أسلموا (الثالثة) دولة نظام شاه فى أحمد نكر (١٤٩٦ — ١٦٠٠) ومؤسسوها كانوا كذلك هنوداً وأسلموا (الرابعة) دولة قطب شاه فى گولكنده (١٥١٢ — ١٦٨٧) ومؤسسوها أصلهم فارسى ، (الخامسة) دولة عادل شاه فى بيجابور (١٤٨٩ — ١٦٨٦) وقيل إن مؤسسها من أمراء الأتراك العثمانيين الفارين وكان شيعياً (حاضر العالم الإسلامى ص ٢٩٥ جـ ٤)

« كليم الله بهمنى » ، وفى أيامه جاء « بابر » إلى الهند ، وفتح دلهى ، فكتب إليه كليم الله أن أمراءه غلبوا عليه ، ولم يعد له نفوذ ، وأنه أصبح كالأسير ، وطلب منه أن يحضر لإنقاذه ، على أن يتنازل له عن بعض أجزاء مملكته ، لكن « بابر » كان عنه فى شغل ، فاضطر بعد هذا إلى الفرار والالتجاء عند حاكم « أحمد نگر » ، وكان ذلك سنة ٩٣٤ هـ — ١٥٢٧ م ، حيث بقى هناك فى رعاية سلطانها حتى توفى ، وبذلك انقضت الدولة البهمنية فى الدكن من الوجود ، أما الدول الإسلامية التى قامت على أنقاضها منذ ضعف شأنها فقد ظلت فى صراع بعضها مع بعض ، وبعضها مع الهندوس أو البرتغال ، حتى ضمت كلها نهائيا للامبراطورية الإسلامية فى دلهى ، وكان آخر ما ضم منها سنة ١٠٩٨ هـ — ١٦٨٦ م فى عهد الامبراطور المغولى « أورنگزيب » كما سيأتى .

وبجوار هذه الممالك التى قامت فى گجرات ومالوا والدكن وتكلمنا عنها سابقا كانت هناك ممالك إسلامية أخرى ، قامت فى البنگال وچونپور ، والسند ، وغير ذلك ، وكان ضعف سلطان دلهى يؤذن دائما باستقلال الأطراف ، وقيام ممالك متعددة منفصلة عنها إسلامية وهندوسية ، حتى إذا ردت الروح لدلهى ، وقوى شأنها أخذت تستعيد سلطانها ، وتقضى على استقلال هذه الممالك ، وتضمها إلى مملكتها . كذلك كان الشأن عند ما ضعفت دلهى فى أواخر عهد محمد تغلق ، ثم لما جاء حكم المغول ، وقوى شأنهم أخذوا يوسعون ملكهم على حساب هذه الممالك المستقلة ، حتى إذا ضعف المغول بعد أورنگزيب عاد الأمر كما كان من قبل ، وأصبح فى الهند عدة دول إسلامية وهندوسية متفرقة متحاربة ، مما سهل للغزاة الغربيين التسلط على الهند .

هذه فكرة إجمالية عن الحالة فى الهند ، أما الكلام عن هذه الدول كلها بتفصيل ولا سيما الإسلامية منها فإنه لا يتسع له المقام فى هذا المؤلف . وقد أفرد لها المؤرخ « فرشته » مجلدين كبيرين من تاريخه ، فلنكتف بما قدمنا من الطواف خارج دهلى ، ولنعد إلى حديثنا عن شئون الملك فى عاصمة الهند الكبرى « دهلى » .

دولة المغول

أو : الدولة التيمورية

٩٣٢ هـ - ١٥٢٦ م إلى ١٢٧٣ هـ - ١٨٥٧ م



تيمور رأس الأسرة التيمورية



بابر مؤسس الدولة المغولية التيمورية

سبق أن تحدثنا فى اختصار عن استيلاء « بابر » على دلهى بعد أن استعان به حاكم لاهور .

ولما كان « بابر » يعتبر مؤسسا للدولة التيمورية العظيمة فإننا نعيد الكلام عنه هنا فى تفصيل ، وفاء بحق هذا المؤسس والقائد العظيم ، وقد اشتهر هذا المؤسس باسم « بابر شاه » (١) ، واسمه الكامل « ظهير الدين محمد بابر » وهو ابن عمر الشيخ ملك فرغانه ابن أبى سعيد بن ميران شاه بن تيمور ، وأمه كذلك من أسرة جنكيزخان ، فهو من جهة الأب والأم ينتسب إلى جنكيزخان « والانتساب إلى جنكيز هو فى العالم التوارنى أقصى ما تتخيله الأمانى لملك أو أمير ، كما هو الشأن عند العرب فى الانتساب لآل البيت » (٢) .

---

(١) وينطق « ببر » ومعنى كلمة « بير » فى اللغة الهندية النمر

(٢) حاضر العالم الإسلامى جـ ٤ ص ٢٩٦ .

ولد بابر فى المحرم سنة ٨٨٨ هـ - ١٤٨٣ م وقد نشأ فى بيت الملك ، وحرص أبوه على تثقيفه ، فتعلم العلوم المختلفة والفنون الحربية ، وتوفى أبوه وهو صغير ، فجلس على العرش ، وسنه اثنا عشر عاما سنة ٨٩٩هـ - ١٤٩٤ م ، وقد لقى كثيراً من الشدائد منذ صغره ، فبعد أن ضم إليه مملكة ما وراء النهر فقد ملكه ، وسار إلى أفغانستان منهزما أمام ملك بخارى ، ثم استطاع أن يوطد أقدامه فى « كابل » بعد ذلك ويؤسس مملكة سنة ٩١٠ هـ - ١٥٠٤ م ، وأخذ يوسع مملكته ، ويقوى حكمه ، حتى استنجد به اللودى حاكم لاهور ضد ابن عمه ابراهيم اللودى حاكم دلهى - ، وكانت الهند وحديثها مما يسيل له لعاب الفاتحين والمغرمين بالحروب والغنائم ، لاسيما من الجنود والأفغان ، فانتهزها فرصة باعتباره أحدأحفاد تيمور أيضا ، وسارإلى الهند باثنى عشر ألف مقاتل فقط ، لكنهم كانوا مزودين بالمدافع الحديثة التى لم يعرفها حاكم دلهى الذى اعتمد على كثرة جنوده ، وكانوا مائة ألف من الفرسان مزودين بالفيلة ، والتقى الجيشان فى « پانيپت » فى رجب سنة ٩٣٢ هـ - إبريل ١٥٢٦م ، ولم تنفع الكثرة شيئا أمام تنظيم بابرومدافعه ، لاسياوقد كان إبراهيم اللودى رجلا متكاسلا مترددا ، غير معنى بتنظيم جيشه ، فدارت الدائرة عليه وقتل ، وقتل معه آلاف من جيشه وفر الباقون ، ودخل « بابر » دهلى ظافرا ، حيث نودى به ملكا على الهند فى يوم الجمعة ١٥ من رجب ٩٣٢ هـ - إبريل ١٥٢٦ م ، وسار ابنه « همايون » على رأس جيش إلى « أگرا » ، فاستولى عليها ، وغنموا من دلهى وأگرا الغنائم الكثيرة ، التى حرص بابر على توزيعها على الجنود ، وإرسال بعضها إلى كابل[1] ،عندئذ دب الذعر فى قلوب ملوك الهند

---

(١) قد أغدق بابر على الجنود والقواد تأليفا لهم ومكافأة على شجاعتهم وثباتهم ، وأرسل إلى كل فرد من رعيته فى كابل قطعة من الفضة تذكارا لفتح دلهى ، ولما قدم « همايون » لوالده جوهرة « كوهينور » أثمن جواهر العالم المعروفة ردهاله متجاوزا عنها ، وقد انتقلت هذه الجوهرة الفريدة من مملكة إلى مملكة حتى استقرت أخيرا فى تاج ملك الانجليز بصفته امبراطور الهند .

هذا ما جاء فى مذكرة الأستاذ حبيب ص ٨٩ ولكن جاء فى نزهة الخواطر ج ٥ ص٣٧٣ فى ترجمة الأمير محمد بن سعيد الأردستانى أنه جاء من الجنوب إلى « الامبراطور شاهجهان » وعرض عليه ألماسا كان وزنه ستة عشر ومائتى حبة وهى التى يسمونها « كوه نور » وهى اليوم فى إكليل ملك الدولة الانكليزية » ومعنى « كوه نور » جبل نور لكثرة ما تشعه من نور .

الهندوس ، حيث رأوا فى هذا الفاتح قوة إسلامية جديدة ربما تقضى عليهم ، فى الوقت الذى اطمأنوا فيه على ملكهم بجانب ملوك المسلمين الضعاف ، فتجمع ملوك الهندوس « راناسنگك » ملك چيتور ومعه ملوك مارڤار وآمير ، وأجمير ، وگواليار وتشنديرى «چنديرى» ، وانضم إليهم محمود اللودى أخو السلطان المقتول ، ووجد بابر نفسه أمام تكتل عظيم من قوى المسلمين والهندوس معا ، وهنا برزت مواهبه الحربية ، وقدرته فى تعبئة قواته نفسيا وحربيا ، فوقف يخطب فيهم مذكرا إياهم بالنصر القريب ، ومخوفا لهم عاقبة التخاذل أمام هذه القوى المتجمعة ، وتقدم فى التعبئة النفسية خطوة أخرى ، حيث أعلن أمام جنده أنه سيطهر نفسه من شرب الخمر ، وحطم كؤوسها وأراق ما كان عنده منها ، ثم قال لهم : هلموا بنا إذن نقسم بالله وكتابه ألا نبرح مكاننا حتى ننتصر أو نهلك جميعا . وجاوبه جنده ، فرفعوا المصاحف وأقسموا ، وغلت دماؤهم ، ولعب الحماس بنفوسهم ، وتقدموا للقتال ، فكانت الغلبة للمدفع والنفس القوية ، والتنظيم المحكم ، وبذلك تشتت شمل هؤلاء المتجمعين ، وأخذ بابر يتعقب من بقى منهم حيا ، ويأتى على ملكه ، وبذلك انكسرت قوة المقاومة أمامه ، واستقامت له الأمور ، لاسيما بعد أن طارد محمود اللودى الذى فر إلى البنگال ، وكانت تحكمها أسرة أفغانية ، وتابعه بابر حتى استولى على بيهار .

وحينما بدأت الأمور تستقر له اتجه للاصلاحات الداخلية ، فمهد الطرق للمسافرين ، وأكثر من حفر الترع ، وغرس الأشجار والبساتين ، كما نظم الضرائب ، وأقام محلات للبريد على الطريق من آگره إلى كابل . .

وقد قام بابر بتلك الفتوحات ، وهذه الإصلاحات فى الهند فى مدة وجيزة لم تتعد خمس سنوات ؛ إذ توفى فى جمادى الأولى سنة ٩٣٧ هـ آخر ديسمبر ١٥٣٠ م ، وهو فى السابعة والأربعين من عمره ، وأوصى بأن يدفن فى « كابل » فدفن هناك . . كما أوصى بأن يكون ابنه همايون ولى عهده فى الهند .

بابر فى نظر التاريخ :

وبابر يعتبر فى نظر التاريخ أحد العظماء الذين يندر وجودهم لافى الناحية العسكرية فحسب ، بل فى كل ناحية من نواحى حياته ، وهذا هو سر عظمته النادرة . فقد تغلب على جيش اللودى باثنى عشر ألفا من الجنود ، برغم خيانة حاكم لاهور له بعد أن استدعاه ، ثم تغلب على الجيوش الكثيرة الجرارة التى جمعها ملوك الهند الخائفين على ملكهم من الضياع ، حتى استطاع أن يؤسس ملكا إسلاميا ، ازدهر أكثر من قرنين من الزمان .

وكان مع نبوغه العسكرى نابغة فى مختلف العلوم ، حتى ذكر المؤرخون عنه أنه كان حنفى المذهب مجتهدا ، ألف عدة كتب فى علوم مختلفة : فى العروض وفى الفقه ، وكتابه فيه يسمى « المبين » ، كما اخترع خطا سمى باسمه كتب به مصحفا وأهداه إلى مكة .

وكان مع ذلك أديبا رقيقا ، يقرض الشعر بالتركية والفارسية ، ومن أهم آثاره التى تركها مذكراته التى كتبها بنفسه عن حياته ، وقد كتبها فى صراحة تتجلى فيها شجاعته النفسية أمام كثير من الحقائق التى ذكرها عن نفسه ، وقد كتبها باللغة التركية ، ثم ترجمت إلى الفارسية ، ترجمها عبد الرحيم ميرزا خان فى عهد أكبر ، ومن الفارسية ترجمت إلى عدة لغات أوربية ، وإن كنت لا أذكر أنها ترجمت للعربية للآن .

يقول رينان الفيلسوف الفرنسى عنها(١) : « إن هذا التاريخ تظهر عليه مسحة الصدق فى الرواية ، وعند ما يفكر الإنسان أن محرر تلك الوقائع بذلك البيان السليق هو مؤسس دولة من أعظم دول العالم ، لا يعود قادرا على ترك الكتاب من يده ، فتجد فى تلك الأسطر كلاما معقولا ، مع أصالة الرأى ، ورقة الطبع وشدة الجلد ، وبالإجمال يتجلى من كلامه حرية الفكر والدهاء والعدل ، وعدم الانقياد إلى الأوهام الخ » .

---

(١) عن حاضر العالم الإسلامى ص ٢٩٨ ج ٤ .

ولعل الأحداث التى ذكرها فى صراحة عن حياته مما تغرى بالمطالعة ، وتعطى هذه المذكرات جاذبية لدى القراء المتعطشين دائما لقراءة خبايا النفوس واعترافاتها ، مثلها مثل اعترافات « روسو » وإن كان هناك فرق كبير بالطبع بين الاعترافين .

يقول جوستاف لوبون عنها[١] : « فعدت مذكرات بابر التى شبهت بتفاسير يوليوس قيصر نموذجا حسنا فى الآداب ، ولا شىء يشمل النظر أكثر من تجلى حقيقة مؤسس الدولة المغولية بالهند « بابر » فى مذكراته تلك ، فبابر هذا الجبار الذى هو سليل جنكيزخان وتيمور لنك سار على سنة أجداده ، فأقام أهراما من الرءوس المقصولة ، ومع تبصره وجبروته هذا كان أديبا رقيقا يتكلم الفارسية والمغولية والعربية ، وله قصائد بالفارسية ، وكان صبوراً على مطالعة كتب العلوم والآداب والتاريخ — إلى أن قال :

حقا إن بابر المقدام الموهوب العالم ، الذى يعد من أقوى الفاتحين فى العالم، كان يجمع فى شخصه مغامرة عرقه ورقته وهمجيته ، فكان حينما مات - وهو ابن خمسين سنة (تقريبا) - ملك الهند الذى دوخها باثنى عشر ألف مقاتل ، بعد أن ظهر زعيم قرية ، وهو فى الثانية عشرة من عمره .. »

وقد جاء فى دائرة المعارف الإسلامية[٢] : « إن شجاعة بابر وإقدامه فوق وصف الواصفين ، وإنه لما فتح سمرقند ثانى مرة تسلق السور بمائتين وأربعين رجلا ، وقطع جبال الهندكوش فى وسط الشتاء ، وهو أمر خارق للعادة ، وكان شاعراً ، له ديوان باللغة التركية ، وكتب خاطرات حياته « بابر نامه » وقد طبعت هذه فى قازان سنة ١٨٧٥ م ، وترجمها للفارسية عبد الرحيم مرزاخان ، ومنها نقلت للغات الأوربية » .

ويذكر المؤرخون عن بابر قوته الجسمية ، حتى كان يستطيع حمل رجلين كل رجل بذراع ، والسير بهما مسافات طويلة ، وأنه عبر كل نهر صادفه ،

---

(١) حضارة الهند ص ٤٣٥ .

(٢) عن حاضر العالم الإسلامى ج ٤ ص ٢٩٨ .

وعبر نهر گنگا فى ثلاث وثلاثين ضربة بذراع ، وكان مشهورا بطول ذراعه ، وكان يتسلق الجبال العالية ، ويستمر على ظهر حصانه لمسافة ثمانين ميلا ، دون أن يدركه التعب ، ويذكر المؤرخون مع هذا أنه كان مفرطا فى شرب الخمر ، على عادة أهل زمانه ، وأنه عاد إليها بعد أن أقسم على تركها عند بدء الموقعة بينه وبين جيوش الهندوس المتحالفة ، وكان إدمانه على الخمر مما سبب له ضعفا عاما فى صحته فى أواخر حياته القصيرة ، فعجلت بشيخوخته قبل الأوان .

ذكر المؤرخ فرشته أنه صنع حوضا من المرمر للخمر ، وكان يجلس على حافته مع ندمائه يشربون ويتبادلون الشعر ، ومع ذلك يذكر أنه كان محافظا على أداء الصلاة ، لم يفته وقت منها ، كما كان محافظا على صوم الجمعة من كل أسبوع !!

ومما تجدر الإشارة إليه ، أنه فى الوقت الذى أسس فيه بابر دولة المغول فى الهند ، كانت الدولة العثمانية قد احتلت مصر والشام والبلاد العربية فى عهد سليم الأول ، وكان فى إيران الدولة الصفوية ، وفى الهند كانت البرتغال قد غزت الشواطىء ، وأسست فيها بعض المستعمرات ، بعد أن كشفوا طريق رأس الرجاء الصالح ، وأخذوا يوطدون سلطانهم على شواطىء بلاد الهند والبحار المؤدية إليها .

كما كان فيها دول إسلامية مستقلة فى گجرات ومالوا والدكن وچونبور ، وبنگال والسند .

همايون شاه

٩٣٧ هـ - ١٥٣٠ م



همايون بن بابر

ولد همايون فى كابل سنة ٩١٣ هـ - ١٥٠٦ م، وتربى تربية حربية سياسية ، كما تعلم كثيراً من العلوم المختلفة ، وعند ما توجه أبوه افتتح الهند كان ساعده الأيمن ، فقد أرسله أولا إلى البنجاب عندما استغاث به حاكم لاهور ، ولما نكث هذا عهده سار بابر ولحق بابنه ودخل الهند ، ولما استقر فى دلهى توجه همايون إلى « أكرا » ، واستولى عليها ، وهكذا ظل فى أيام أبيه قائداً مظفرا ، ثم لما مرض أبوه واشتد عليه المرض عهد بالملك له ، وأوصاه أن يحسن معاملة إخوته على ألا يغفل عنهم .

وكان لبابر أربعة أولاد ، كان همايون أكبرهم وأقربهم إلى قلبه[1] ولذا

(١) هكذا ذكر المؤرخون الهنود: سيد هاشمى وفرشته ، وإن كان بعض المؤرخين العرب يذكرون أن « كمران » كان أكبر منه .

عهد إليه بالملك فى الهند ، على أن يكون أخوه « كمران » واليا على كابل وقندهار، ثم أضاف إليه همايون ولاية شمال البنجاب أيضا ، على أن يكون تابعا إسميا لدهلى ، وأما أخواه الصغيران « هندال مرزا ، وعسكرى مرزا » فقد أعطاهما ولايات فى الهند ، وكان همايون شديد العطف على إخوته حسن المعاملة معهم، لكنهم لم يكونوا معه كذلك ، بل ظاهروه بالعداوة ، وتفرق شملهم حتى طمع فيهم أعداؤهم ، وأصبحت حياة همايون سلسلة من المصائب والمصاعب .

وقد ورث همايون من أبيه ملكا قام على الفتح والقهر ، وجروح المنهزمين لم تندمل بعد ، ولذا انتهزوا وفاة بابر ليخرجوا على همايون ويستردوا ملكهم ، وهكذا تسلم مع تاج الملك هذه المتاعب التى أحنت ظهره ، وحملته أخيراً على الفرار من الهند ناجيا بنفسه .

بدأ همايون بمحاصرة قلعة «كالنكر» كوصية أبيه ، وأثناء ذلك علم باعتداء محمود لودى بمعاونة الأفغان فى جونپور على ملكه ، فذهب إليه وطرده وأخضع جونپور له ، ثم سار إلى « شيرخان » الذى كان يحكم بيهار ، وامتد حكمه إلى البنگال ، فأظهر له شيرخان الخضوع .

وبعد ذلك سار همايون إلى گجرات حيث كان « بهادرشاه » ملكها يحمى الفارين من وجه همايون ، ويعاونهم على الهجوم على ملكه ، وتم لهمايون إخضاع گجرات ومالوا ، وذلك بخيانة أحد قواد بهادر شاه، واسمه مصطفى بن بهرام الرومى المشهور باسم خان الرومى. وفر بهادرشاه إلى ديو سنة ٩٤٢هـ - ١٥٣٦م، وفى هذا الوقت انتهز « شيرخان » فرصة انشغال همايون فى گجرات وخرج عليه ، واستولى على كثير من بلاده ، فأسرع همايون إليه والتقى الجيشان لكنه انهزم ، وقتل كثير من جيشه وغرق الكثير أيضا فى نهر گنگا ، حتى أشرف همايون نفسه على الغرق ، لولا أن أنقذه أحد السقائين الذى أعطاه قربته ، عبر عليها النهر ونجا سنة ٩٤٦ هـ - ١٥٣٩ م .

وقد ذكر المؤرخون أن شيرخان غافله حين طلب منه الصلح ، ثم صبحه بهجوم عنيف، كان من نتيجته غرق هؤلاء الآلاف من الجنود . وهذه الموقعة العنيفة التي ذهب ضحيتها الكثير لم تخل من طرافة ؛ فقد ذكر المؤرخون أن « همايون » لما جمح به فرسه نزل النهر وغرق ، وأشرف همايون نفسه على الغرق،لولا وجود رجل كان يحمل قربة يسمى «نظام» ، فقدم له قربته التي عبر عليها النهر ونجا ، وهنا أحس همايون بفضل السقاء عليه ، فوعده أن يوليه الملك نصف يوم إذا رجع إلى « آگرا » وذهب إليه الرجل بعد ما رجع لعاصمته ، فوفى بعهده له ، وولاه الملك نصف يوم ، وقد انتهز السقاء هذه الفرصة فأشبع رغبته وحقق أمله وآمال أسرته في الغنى وكثرة المال ، ونفذ له همايون كل ما أراده .

وقد عاد همايون إلى « آگرا » لتتجمع على رأسه المتاعب من كل ناحية ، فهو قد هزم أمام « شيرخان » الذي أصبح أكبر منافس له يهدده بضياع ملكه ، ومع ذلك استمر إخوته في العناد والكيد له ، غير مبالين بالموقف الخطر الذي يهدد عرش المغول ، ظانين أنهم يستطيعون أن يجلسوا عليه بدلا من همايون ، وكان هذا وهما منهم ، فقد كانت الحرب في الحقيقة امتحانا لقوة جنسين ونفوذهما : الأفغان الذين يمثلهم شيرخان ، والمغول الذين يمثلهم همايون .

وفي وسط هذه المتاعب ، لم يفقد همايون الأمل في التغلب على خصمه العنيد ، فاستمر نحو سنة يعد جيشا لمنازلته مرة ثانية ، وخرج إليه ، والتقى الجيشان قريبا من مدينة « قنوج » ، ولكنه أصيب أيضا بهزيمة منكرة في محرم سنة ٩٤٧ هـ — ١٥٤٠ م ، وفر جيشه ولاذ هو بالفرار ، وتعقبه شيرخان إلى « آگرا » ثم إلى « لاهور » ولم يجد الملك الفار من يعاونه ، حتى إخوته خذلوه وشمتوا فيه وعاونوا عدوه عليه . ويقول المؤرخون : إن همايون صار إلى حالة تعسة حتى دخل السند وهو هائم على وجهه لا يجد من يؤويه ، ولا يملك إلا بعيرا يركبه هو وزوجته وهي حامل ، حتى وصل إلى

قرية « عمر كوت » بالسند ، وهناك ولدت له ابنه « جلال الدين أكبر » الذى صار ملكا فيما بعد .

ولما وصل إلى «قندهار» فى أفغانستان سمع أن أخاه خرج إليه ليأسره ، ففر بنفسه تاركا ابنه مع أمه فى « قندهار » ، والتجأ إلى امبراطور إيران « طهماسب شاه الصفوى » ، الذى أكرمه وأحسن ضيافته . .

وخلا الجو فى الهند لشيرخان ، فدخل دلهى وآگرا ، وصار هو سلطان الهند المعروف باسم « شير شاه السورى » سنة ٩٤٧ هـ — ١٥٤٠ م ولنترك همايون فى إيران لاجئا ، لنتابع الحديث عن الهند وعن سلطانها الأفغانى الجديد ، على أن نلتقى بهمايون مرة أخرى حين يسطع نجمه ، ويعود إلى الدائرة التى يعنى بالحديث عنها التاريخ والمؤرخون .

« شيرشاه السورى »

٩٤٧ هـ — ١٥٤٠ م إلى ٩٥٢ هـ — ١٥٤٥ م

صبى عادى فر من اضطهاد زوجة أبيه ، فكان امبراطورا للهند كلها . تلك هى قصة « فريدخان » [١] فى اختصار ، وهى قصة حياة نادرة حفلت بالمتاعب والمجازفات التى لم تكن إلا لتلهب فى هذا الإنسان العجيب عزمه وطموحه ، وتجعله نادرة من نوادر الزمان .

ونحن حين نتناول حياة هذا الرجل بالدرس والتحليل نجعل أهم غاية لنا استخراج العبرة ، واستلهام العظمة لإحياء موات النفوس ؛ فإن فى دراسة التاريخ درسا للأحياء ، وعبرة لأولى الألباب .

جاء جده إبراهيم إلى بلاد الهند رجلا عاديا ، يلتمس الرزق أيام السلطان « بهلول » اللودى . وهو أفغانى من قبيلة « سور » ، ولذلك سمى « السورى »

(١) هكذا كان اسمه أولا .

ثم كان ابنه « حسن » واليا على « شهرام وخواص پور » عمالتين من عمالات « رهتاس » .

ورزق « حسن » بابنه « فريد » هذا ، وكان أكبر أبنائه ، ولكن لم تطب له الحياة فى بيت أبيه ؛ لأن زوجة جديدة شاركتهم الحياة فيه ، واستولت على قلب أبيه ، فترك لهما البيت وفر إلى « جونپور » واتجه إلى العلم كأقرانه، فقرأ : گلستان وبوستان[١] واسكندرنامه ، وكافية ابن الحاجب وشروحها ، وغير ذلك من علوم عصره ، وأراد أبوه أن يرجعه إلى بيته ، ولكن الولد أبى أن يعود إلى جنة زوجة أبيه .

وذهب أبوه بعد أعوام إلى « چونپور » ، وسمع حديث الناس عن ذكاء ابنه ، فدفعه ذلك إلى أن يصر على أخذه معه ، ويوليه بعض شؤونه ، وهنا بدأت مواهب فريد تظهر ، وبدأ الناس يسمعون منه نغمة جديدة لم يعهدوها من قبل ، فقد جمع الفلاحين والعمال عليهم وقال للفلاحين : أنتم عماد الدولة ترتفع وتنحط بكم ، لا سبيل لأحد عليكم بغير حق ، ولكم الخيار فى الطريقة التى تدفعون بها الضرائب ، وقال للعمال : إننى سآخذ بالبطش كل من يظلم أحد الفلاحين ، وكان هذا سببا فى استقرار الحياة وسعادة الناس ، فارتفع شأن فريد ، وأخذ الناس يتحدثون عنه ، وطار صيته إلى البلاد الأخرى المجاورة .

ولم يكن هذا ليعجب زوجة أبيه، فدست له ، حتى عزله أبوه بعد مدة يسيرة، فسافر إلى « آگرا » أيام إبراهيم اللودى ، وتقرب إليه وإلى دولت خان ، وظهرت مواهبه عندهم فقدروه ، ولما مات أبوه جعلوه مكانه ، فرجع إلى ميدان عمله الأول ، وأخذ يباشر شؤونه من جديد ، ولكن الأمور سرعان ماتغيرت حيث دخل « بابر » الهند وهزم إبراهيم اللودى وبدأ حكم المغول ، فالتجأ فريد إلى والى « بهار » محمد خان وخدمه بإخلاص ، وحدث أن هجم عليه أسد وهو فى رحلة للصيد ، وكاد يفتك به ، فاندفع فريد نحو الأسد

---

(١) كتابان لسعدى الشيرازى فى الأخلاق والتصوف .

فى خفة ، وقضى عليه بضربة سيف سريعة . فأعجب به وسماه « شيرخان » ومعنى « شير » أسد ، وجعله مدربا ومربيا لابنه « جلال خان » [١] لكن الأمور فسدت بينه وبين محمد خان ، فتركه وذهب إلى « جنيد برلاس » الذى كان واليا على گره وچونپور من قبل السلطان بابر شاه ، فأكرمه ومهد له الوصول إلى خدمة « بابر » ، فمكث فى خدمته مدة ، لكنه توجس خيفة منه فتركه ، وعاد إلى محمد خان والى بهار الذى عفا عنه وأعاده إلى عمله معه ، ولما توفى محمد خان تولى الأمر من بعده ابنه « جـــلال خان » القاصر ، فكان « شير خان » صاحبنا هو الحاكم الفعلى للبلاد ، حتى إن « جلال » فر إلى بنگال تاركا له « بهار » ، فعظم فيها أمره ، وأخذ يوسع نواحى بلاده ، فضم إليه قلعة « چنار » بدون حرب ، حيث تزوج أرملة حاكمها ، وكانت للقلعة أهمية كبرى فى « بهار » [٢]

ولما توفى بابر سنة ١٥٣٠ م وتولى همايون ، وشغل بالفتوح ، كان شيرخان يوطد ملكه ويوسعه على حساب ملك همايون ، كما ضم إليه البنگال ، فأخذ همايون يتجه لهذا الحاكم العنيد الذى علا شأنه واتسع ملكه ، وأصبح قرينا له يجاذبه العداء ، فسار إليه ، وكانت المواقع التى قدمنا الحديث عنها فى تفصيل عند الكلام على همايون ، والتى انتهت بانتصاره واستيلائه على العرش .

وقد أشرت فيما سبق إلى أن الحرب بين همايون وشيرخان كانت امتحانا لقوة الجنسين المتحاربين المتنافسين فى حكم الهند : المغول والأفغان . والواقع أن المغول أخذوا الحكم من الأفغان فى دلهى ، لكن بعض الإمارات والولايات كانت تحت حكم الأفغان ، وخصوصا فى الشرق - فى چونپور وبهار وغيرها ، وكان الأفغان يتطلعون إلى استرداد ملكهم الذى فقدوه ، وهم لا يقلون فى الحروب وتنظيمها عن المغول ، وكان شيرخان ينظر هذه النظرة منذ أن بدأ نجمه يسطع ، فعند ما كان فى خدمة بابر نجده يتحدث مع أصدقائه

---

(١) تاريخ شاهى لأحمد يادكار ص ١٧٦ (٢) تاريخ « شير شاه لذى الفقار

حديث نفسه فيقول لهم : « إننى لو ساعدنى الحظ لنفيت المغول من البلاد ، فقد عرفتهم فوجدتهم لا يستطيعون مقاومة الأفاغنة لو اتحدوا ، وإن المغول لا يحسنون إدارة البلاد ولا الاتصال بأهلها ؛ لأنهم يعتمدون على نوابهم ، والنواب لا يعدلون ولا يهتمون بمصالح الأفراد ، وإننى سأعمل على توحيد كلمة الأفاغنة ورفع شأنهم ما دمت حيا[١] » .

فحديث شيرخان يدلنا على النفسية التى كانت تسود المعركة، لاسيما من ناحية الأفغان على الأقل .

ومما يجدر ذكره لشيرخان أنه حين انتصر على همايون ، وغرق أكثر جنوده فى نهر « گنگا » ، وكاد هو يغرق حين باغتهم شيرخان بالهجوم ، ترك همايون زوجه وراءه ، وفر ناجيا بنفسه ، فلم تجد هذه الزوجة مفرا من أن تذهب إلى شيرخان بنفسها ، ورآها تأتى إليه دون حجاب فى توسل وخضوع ، وهنا تبرز فى القائد الأفغانى صفات الرجولة والشهامة ، ويعلو عن الحزازات والصغائر ، فنزل عن فرسه واستقبلها هى ومن معها بكل إجلال واحترام ، وطمأنهن وأكد لهن أنه يعرف فضل « بابر » عليه عندما كان يعمل عنده ، وأركبهن إلى « أگرا » فى حراسة ابنه ، وأمره بأن يعمل على راحتهن وإجلالهن طول الطريق ، حتى يصلن آمنات ، كما أمره بأن يقتل كل من تحدثه نفسه بالاعتداء عليهن . وهكذا يتصرف القواد العظام .

وعند ماتم له النصر على همايون ، وأصبح سيد الهند ، وجلس على العرش أنشد بيتين من الشعر الفارسى[٢] بقيا مرآة لنفسية هذا القائد المنتصر . يقول فيهما « اللهم إنك القوى الغنى ، وأنت العزيز المقيت للفقراء ، وإنك معطى الملك

---

(١) شيرشاه لذى الفقار .

(٢) هما : خدايا توانا تونكرتوئى   توانا ودرويش پرور توئى

فريد حسن راتو شاهى دهى   سباه همايون بما هى دهى

نقلا عن ثقافة الهند ديسمبر سنة ١٩٥٣

لفريد بن حسن ومفوض جنود همايون للأسماك ، وكان جلوس شير شاه على عرش « أ كرا » فى ٤ رجب ٩٤٧ هـ ١٥٤٠ م .

* * *

وهنا تبدأ صفحة أخرى هى من أمجد الصفحات فى تاريخ ملك من الملوك ، لقد كانت الكلمات التى قالها للفلاحين ولعماله حينما كان يرعى بعض الشؤون فى ولاية أبيه ، والتى أشرنا إليها من قبل ، كانت هـــذه الكلمات تمثل مبدأ راسخا فى نفسه لم يحد عنه طول حياته ، وكان نجاحه فى تلك الولاية الصغيرة مقدمة لنجاحه حين ولى الحكم العظيم . لقد مر فى حياته بشتى أنواع الشدائد والمصائب ، بدأ يجابهها منذ عرف الحيـاة فى بيت أبيه ، ثم تقلب فى مختلف الأعمال ، وعنـد كثير من الولاة ، وقضى عمره إلا قليلا يجاذب الشدائد وينازلها ، حتى تغلب عليها أخيرا ، ولكنها صقلته ، وجعلت منه رجلا ممتازا قل أن يجود بمثله الزمان ، وكان شيرشاه متشوقا إلى العمل ، متشوقا إلى الإصلاح ، متطلعا إلى يوم يتمكن فيه من تنفيذ آرائه ومبادئه وإصلاحاته ، كان كلما تكلم عن آماله وآرائه وما يعده للمستقبل ، ضحك منه أصحابه وظنوه فى حلم لذيذ ، ولكن الله حقق له أحلامه ، وبدأ عندما ولى أمر الهند يقوم بأعظم إصلاحات قام بها حاكم ، والمهم فى هـذه الإصلاحات أنها قامت على أساس نظرية من أرقى النظريات فى حكم الشعوب ، فالحاكم الذى يقول : إذا لم يستطع الحاكم إصلاح رعيته وإسعادها فلا يستحق أن يأخذ منهم الضرائب ، والحاكم الذى يعتبر الفلاحين عماد الدولة ، ترتفع بارتفاعهم ، وتنخفض بشقائهم ، والذى يحذر ولاته من بطشه إذا أساءوا معاملة الشعب ، هـذا الحاكم صنف نادر من الحكام ، ولعله أرقى صنف فيهم على مر التاريخ حين يوجد فى أى زمن من أزمنة التاريخ .

فلا عجب إذن إن رأينا هذا الحاكم الذى جاء إلى الحكم ، وهو مهيأ له تمام التهيئة ، ورأسه ملىء بالأفكار ، وعزمه مرهف للعمل بدون إبطاء ، لاعجب إذا

رأيناه ينجز فى أقل من خمسة أعوام مايقف أمامه المؤرخون فى حيرة وإعجاب . فقد رأيناه يضع قواعد للحكم والنظام والإدارة تبقى أساسا بعده للحكام ، وهو مع هذا كله يتأسف شديد التأسف ، لأنه تمكن من حكم البلاد وهو كبير السن ، فربما لاتسعفه قوته ، ولا يسعفه عمره من تنفيذ كل ما كان يريد ، ومع ذلك كان مانفذه عظيما ورائعا ونادرا بين أعمال الملوك .

وإذا ألقينا نظرة عامة على أعماله ومشروعاته نجدها تهدف إلى شيء واحد هو رفاهية الشعب ، والرقى بمستواه ، وتخليصه من آثار الظلم والإعنات ، لافرق بين مسلم وغير مسلم .

فقد كانت سياسة الدولة من قبله تقوم على أن الملك هو مالك الأرض كلها ، يقطعها لمن يشاء ، وعلى الفلاحين أن يزرعوها ، ويؤدوا نحو تسعة أعشار المحصول لأسيادهم أصحاب الأقطاع .

فجاء شيرشاه ومسح الأرض ، وحدد مقدار مايؤخذ من الزارعين للحكومة بنحو ربع الحاصلات ، ولهم الخيار فى أدائه نقدا أو عينا ، على أن يتمتعوا بثلاثة أرباع محصولاتهم ، ثم شدد مراقبته على المحصلين حتى لايظلموا الشعب ، وجعل للفلاح الحق فى تخطى العامل ، ودفع مايريد مباشرة لخزينة الدولة ، وبجوار ذلك حدد الضريبة التى تؤخذ من التجار دون إرهاق ، مع توفير الأمن لهم فى تنقلاتهم .

وقسم المملكة إلى مديريات ، وجعل لكل مديرية حكامها وعمالها ، وحدد لهم اختصاصاتهم ، وجعل فيهم من يراعى تصرفاتهم ويرفعها باستمرار إليه ، وبذلك أقام الحكم على أساس القاعدة الشعبية التى كان دائما شديد العناية بتوفير الرخاء والأمن لها .

ومما يتصل بعمله العظيم لرفاهية شعبه وتنظيم إدارته ، ماقام به من تعبيد الطرق وغرس الأشجار المثمرة والمظلة على جوانبها ، وبناء أماكن متقاربة على طول هذه الطرق ، لينزل فيها المسافرون فيجدوا مايريدونه من راحة وطعام وأمن ، وتمكن بذلك من تنظيم البريد ووصوله بسرعة بين أطراف المملكة .

فقد مهد شارعا أو طريقا واسعا من پنجاب إلى «سنار گاون» فى بنگال طوله نحو ثلاثة آلاف ميل ، وطريقا آخر من « أگرا » إلى « برهان پور » ، فى وسط الهند ، وطريقا ثالثا من « أگرا » إلى« چونپور » وچتور فى غربها ، ورابعا من لاهور إلى ملتان فى البنجاب ، وعلى كل ميلين بنى رباطا ، ورتب به مائدتين للمسلمين والهنادك ، وأسس به مسجدا عين فيه الإمام والمؤذن ، كما جعل فيه فرسين للبريد[١] ، تجرى إلى الرباط الآخر حيث يتسلم فارس آخر من راكبها الرسائل ، ويجرى بها ويسلمها لمن يليه ، وهكذا حتى يصل البريد بسرعة من أقصى البلاد ، وبذلك أتيح له أن يقف على أخبار البلاد أولا بأول ، وقد غرس على جانبي الطرق أشجار المانجو والجامن والكهرمن ، وهى أشجار تثمر وتظلل الطريق حتى يأكل منها المسافر ويتمتع بظلها ، ولا يزال بعض هذه الطرق معروفة للآن ، سرت بها بالسيارات ، ولاحظت أشجارا قديمة لا يزال بها أثر من حياة ، كما لاحظت بعض المبانى المتهدمة التى كانت تبنى على كل ميلين ، وقد قال لى صاحبي إنها من عهد شيرشاه السورى ، وقد يكون هذا صحيحا وتكون هذه الأشجار قد عمرت كل هذه المدة ، وإن كان هذا أمراً بعيداً ، لكن المقطوع به أن بعض هذه الطرق من أيام شيرشاه ، ولو أن الأشجار الموجودة وآثار المبانى قد تكون من عمل غيره ممن سار على طريقته وهديه ، والمهم فى هذا كله أن النازلين فى هذه الاستراحات ما كانوا ليدفعوا شيئا بل تتكفل الحكومة بنفقاتهم ، وهذا هو الأمر الذى يدعو إلى الإعجاب .

والأعجب من هذا أنه خصص سفينتين كبيرتين لنقل الحجاج كل عام ، من غير أن يدفعوا نظير ذلك شيئا[٢] ، وكان يقول : لو ساعدنى الزمان أبعث برسالة إلى عظيم الروم (يريد سلطان بنى عثمان) وأسأله أن يركب بعساكره إلى بلاد الفرس ، ونركب نحن من هنا إلى تلك البلاد ، فندفع بمساعدة ملك

---

(١) ذكر المؤرخون أنه خصص لذلك ٣٤٠٠ من أجود الخيول .

(٢) تاريخ شاهى .

الروم شر الأوباش الذين يقطعون طريق الحجاج ، ونحدث شارعا آمنا إلى مكة المباركة ، ولكن الأجل لم يمهله ، فمات قبل أن يحقق أمله[1] وقد عنى بجانب ذلك بأمور العمارة ، فنقل مدينة دلهى على شاطىء جمنا ، لما كانت تعانيه من قلة الماء ، وجعل عمارتها على النهر ، كما عنى بإعادة بناء مدينة « باتلى بترا » التى كان قد أسسها الامبراطور « أشوكا » قبل الميلاد ، ونال الزمان من مبانيها وحولها إلى خرائب ، فعمل شيرشاه على تجديدها ، وهى مدينة « بتنا » عاصمة ولاية « بهار » الآن ، وبنى كثيراً من المدارس ، وعين للطلاب والأساتذة فيها الرواتب ، وهيأ لغير المسلمين كذلك المدارس ، وجعل أوقافها فى يد رجالهم[2] .

أما أمر الجيش فقد لقى منه عناية كبيرة . كان هو بنفسه يختبر الذين يريدون الدخول فى الجيش ، وينظم شئونه ، فوضع له نظاما دقيقا ، وقيد أسماء الفرسان وأوطانهم وخصائصهم فى دفاتر خاصة ، ووزع الجيش على مراكز متعددة فى البلاد ، على أن تكون دلهى ورهتاس أهم وأكبر المراكز ، وكان هو نفسه قائداً لفرقة مكونة من مائة وخمسين ألف فارس ، وسن قانونا يقضى بتعويض كل من أصابه ضرر أثناء الزحف من الجيش ، مع التشديد على رجاله فى صيانة أموال الشعب ما استطاعوا ، فكان بذلك ثانى رجل يعنى بتنظيم جيشه ، ويضع له الأصول والضوابط بعد علاء الدين الخلجى .

وقد قامت حروب بينه وبين بعض راجوات الهند ، انتهت بنصره وضم بلادهم إليه .

وتكتب مجلة « ثقافة الهند » التى تصدرها الحكومة الهندية فتقول : كان الناس فى غاية الطمأنينة فى عهده ، حتى كان المسافرون يتركون أمتعتهم فى فناء البيت دون مراقبة ، وينامون نوما هادئا لا يزعجهم خوف[3] ، وكان

(١) نزهة الخواطر ج ٤ ص ١٥٥ . (٢) ثقافة الهند ديسمبر ١٩٥٣
(٣) تاريخ الأفاغنة ص ٢٠٦ .

الأمن كذلك يسود القرى والفلوات القفر ، فكان الرحالة ينصبون خيامهم فيها متى شاءوا . ويتركون متاعهم ودوابهم ويغرقون فى نوم عميق » .

« ولم يتعرض الامبراطور لشعبه الهندى فى قضاياه الداخلية ، فكانت ترفع إلى مجالسهم الدينية إلا ما كان منها يمس أمن الدولة وسلامتها ، فما كان هناك فرق بين المسلم والهندوسى فى المشاكل الاجتماعية ، وهذا كله إلى جانب ما كان يرسله الامبراطور من جواسيس خاصة لأنحاء البلاد ، ليوافوه بأخبار وتصرفات عمالها فيها مع الشعب » .

وتقول : وكان لهذا الامبراطور ميزة كبرى لم نرها فى غيره ـ وقد أشرنا من قبل إلى أن فيروز الخلجى قد سن هذه السنة ـ وهى عطفه على الضعفاء ، حيث خصص للشيوخ والمرضى والعميان والعجزة المقعدين رواتب تقوم بنفقاتهم من المطعم والملبس ، يأخذونها من خزانة بلدهم لا فرق بين مسلم وغير مسلم .

وكتبت تقول : وكان الامبراطور كثيرا ما يقول : على الملك أن يكون قدوة وأسوة لكل ما يطلبه من شعبه . فإن الناس على دين ملوكهم ، وعليه ألا يذهل أبدا عن أن القوة لله القادر القهار ، الذى مكن له فى الأرض وجعل له السلطان ، فالأمر بيده وحده ، يعز من يشاء ويذل من يشاء ، وعليه أن يذكر أنه ينوب عن الله فى عباده ، فتجدر به الدولة ما دام قائما بالعدل والحق ، ويستحق العقوبة إذا حاد عن ذلك (١) » .

ومن خلال هذه الكلمات نزداد معرفة بنفسية هذا الامبراطور العظيم . وقد جاء فى نزهة الخواطر (٢) ذكر برنامج عمله اليومى ، ويحسن أن نذكره هنا فى اختصار ، لنعرف من خلاله كثيرا من حياة هذا الامبراطور وأعماله .

كان يستيقظ من نومه فى ثلث الليل الأخير ، ليتهجد ويقرأ الأوراد ،

---

(١) ثقافة الهند ديسمبر ١٩٥٣ .

(٢) جـ ٤ ص ١٥١ .

ثم ينظر فى حسابات الإدارات المختلفة ، ويعطى تعليماته لكبار رجاله ، وبعد أن يصلى الفجر فى جماعة يقبل عليه الأمراء فيسلمون عليه ، ثم يسأل الناس عن حوائجهم ويعطيهم ما يحتاجون إليه ، ثم يتوجه إلى المظلومين والمستغيثين ويجتهد فى إغاثتهم ، وبعد ذلك تعرض عليه عساكره ، فينظر إليهم وإلى أسلحتهم ، ويثبت من يراه صالحا للعسكرية بعد اختباره ، ثم تعرض عليه الجبايات التى ترد عليه كل يوم ، ثم يقابل الأمراء والسفراء ، ثم يقبل على الطعام مع جماعة من العلماء والمشايخ والأمراء ، ثم يقيل إلى الظهر ، فيقوم ويصلى جماعة ، ويشتغل بتلاوة القرآن الكريم . وهكذا يمضى فى أعماله حتى يتم يومه .

كان شيرشاه يتأسف لأنه جاء إلى الحكم وهو كبير السن ، وكان يخشى أن يعاجله الموت قبل أن يحقق ما يريد للهند ، وقد وقع سريعا ما كان يخشاه ، فقد توفى فى ربيع الأول سنة ٩٥٢ هـ - ١٥٤٥ م ولو مد الله فى أجله لحفلت صفحات تاريخه بأكثر مما حفلت به ، ولكن لكل أجل كتاب

قال أحد المؤرخين الأوربيين ، وهو المستركين : « توفى شيرشاه وتلاشت أسرته ، حتى لا نجد منها أحداً لو فتشنا عنه ، إلا أنه أسس مبادىء الإصلاح العام التى استفيد منها فى العصور التى تتابعت بعده ، واهتم برفاهية الجمهور اهتماما يسجل له بالثناء »[١] .

وقال مؤرخ آخر ، هو المستر « استانلى » : « إن جودة رأيه وصلاحه لا يحتاجان إلى برهان ، وأما نظم مملكته وإصلاحاته الأخرى فقد ظل معمولا بها إلى عصر أكبر » .

---

(١) تاريخ شيرشاه لدى الفتار ص ٨٢ (نقلا عن ثقافة الهند ديسمبر ١٩٥٣) .

خلفاء شير شاه

سليم شاه : ترك شيرشاه ولدين ، هما : عادل خان الكبير، وكان ولى عهده ، وجلال خان الصغير ، وكان معروفا باسم إسلام خان ، وحينما توفى شيرشاه لم يكن واحد منهما موجوداً معه ، وكان جلال خان ، أقرب إلى العاصمة من عادل خان ، لذلك رأى أمراء شيرشاه أن يجعلوه هو الملك ، واتفقوا على إجلاسه على العرش ، وجاء جلال وجلس على العرش ، وأرسل إلى أخيه عادل يستدعيه للحضور ، لكن عادل لم يحضر إلا بعد أن أخذ الأمان لنفسه ،وعند وصوله إلى « أكرا » مثل الأخوان دورا طيبا ، فقد ترك جلال العرش وقال لأخيه: كنت أحافظ عليه حتى تحضر ، فلم يقبل عادل . وأصر على أن يبقى أخوه الصغير ملكا على أن يتولى هو أمر بعض الإقطاعيات ، وهكذا تم هذا الأمر فى سلام ، وجلس جلال على العرش باسم سليم شاه ، وانصرف عادل إلى ولايته . لكن للأسف لم يدم هذا السلام طويلا ، فقد دب فيهم داء الملوك وأبناء الملوك ، وبدأ سليم شاه بالعدوان على أخيه ، وقامت الحرب بينهما ، ومن لطيف مايرويه المؤرخ « فرشته » أن سليم شاه أرسل أحد أمرائه بقيد من ذهب إلى أخيه ليأتيه به مقيداً ، ولكن أخاه قبض على رسوله وقيده ، وراسل بعض أمراء سليم شاه ، وكانوا قد تعهدوا لعادل خان بالأمان ، فغضبوا لنقض سليم شاه العهد ، واتفقوا سرا معه على أن يحضر ويهجم على العاصمة فى الجزء الأخير من الليل ، وهم سيمهدون له طريق النصر ، وسار عادل خان بجيشه ، ومروا فى طريقهم بالشيخ « سليم سيكرى » ، وكان وليا متعبدا ، وكانت الليلة ليلة الخامس عشر من شعبان ، فنزل بجيشه عند الشيخ لإحياء هذه الليلة ، ثم ناموا ففاتهم الموعد ودخلوا العاصمة نهاراً ، ففسد التدبير واضطر الأمراء الموالون لعادل خان سرا إلى أن ينضموا لسليم شاه ، وبذلك انتصر ، وفر عادل إلى الشرق حيث انزوى عن تيار الحياة ومجرى التاريخ ، فلم يعرف أحد عنه شيئا بعد ذلك ، وبعد هذا استقام الأمر لسليم شاه ، فأخذ

فى تنظيم شؤون مملكته ، وتابع إصلاحات أبيه فى الطرق والتعمير وتنظيم الجيش ، ولمست البلاد فى عهده نعمة الرخاء والرفاهية والاستقرار ، ثم توفى فى سنة ٩٦١ هـ ١٥٥٤ م ، وهى السنة التى توفى فيها سلطان گجرات محمود ابن اللطيف الگجراتى ؛ وبرهان نظام شاه البحرى(١) ملك أحمدنگر إحدى ممالك الدكن .

وبعد وفاه سليم شاه تولى ابنه «فيروز» وكان صغيرا ، فطمع خاله «مبارز خان» فى الملك ، فقتله بعد ثلاثة أيام ، وتولى هو الملك باسم «محمد عادل شاه» وكان جاهلا يتندر الناس بجهله ، متلافا كثير البذل بلا حساب . يقول المؤرخ الهندى سيد هاشمى سمع «عادل شاه» أن الملوك السابقين كانوا يبذلون للناس، ويعطونهم ، فقلدهم تقليداً أعمى فى البذل حتى خربت الخزينة ، فاضطر لأخذ أموال كبار الأمراء والأغنياء، فأسخط الأمراء والكبار ولم يرض أحدا، وكان له وزير هندوسى الأصل اسمه «هيمو» يقول «سيد هاشمى» عنه أيضا إنه كان فى أدنى درجات الإنسان ، لا يستحق أن نتحدث عنه ، ومع ذلك سلم له عادل شاه الأمور كلها ، فزاد ذلك فى أعدائه والناقمين عليه ، ولما قامت الثورة فى البنگال سافر «هيمو» لإخضاعها ، فانتهز أحد أقارب عادل شاه هذه الفرصة وهو «إبراهيم سورى» وقبض على أگرا ودهلى ، وفر عادل منهزما نحو الشرق،حيث لحق بوزيره هيمو الذى ذهب للبنگال(٢) ، فأثار ذلك العمل طمع «اسكندر سورى» فى الملك ، وكان حاكما فى لاهور، فزحف إلى

---

(١) جاء فى تاريخ فرشته أن والده (والد المؤرخ) أرخ وفاة هؤلاء بجملة «زوال خسروان» أى زوال الملوك وبحساب جمل هذه الجملة يخرج التاريخ، وتلك عادة مؤرخى الهند وشعرائها وعلمائها ، ويعنون بمثل هذا فى إثبات التواريخ حتى نجد أنهم يختارون المولود بحيث يطابق حساب جمله تاريخ ولادته ، ولذا نسمع أسماء غريبة ، وعدة أسماء لشخص واحد، وكلها من أجل حساب تاريخ ميلاده من حروف اسمه .

(٢) سيكون لعادل ووزيره هيمو موقعة مع «أكبر» كاد يتم النصر فيها لهما لولا أن سقط هيمو من فوق جواده فتشتت جيشه وتم النصر لأكبر ووزيره بيرم كما سيأتى ..

دلهى وأكرا ، والتقى بجيش إبراهيم فانتصر عليه وجاس على العرش ، وكان همايون قد استعد وهو فى « كابل » لغزو الهند ، فزحف إليها بجيش عدده خمسة عشر ألف محارب ، والتقى مع جيش اسكندر شاه ، وأعاد التاريخ ذكرى موقعة أبيه « بابر » مع الأفغانى إبراهيم لودى ، وتم النصر لهمايون ، ودخل دلهى وأكرا ، واستعاد بذلك ملكه المفقود سنة ٩٦٢ هـ — ١٥٥٥ م ودخل باب التاريخ مرة ثانية .

عودة همايون شاه

٩٦٢ هـ — ١٥٥٥ م إلى ٩٦٣ هـ — ١٥٥٦ م

اضطر همايون أن يفر من الهند بعد أن هزمه شيرشاه سورى وخذله إخوته ، ولم يجد مأوى يستقر فيه إلا فى إيران ، حيث استضافه ملكها « طهماسب شاه الصفوى » ، وأكرمه . وظل همايون فى ملجئه يرقب الأحوال فى الهند وفى أفغانستان ، حيث كان يحكم إخوته هناك ، وكان خلفاء شيرشاه قد أغرقهم النزاع فى دمائهم ، ونسوا أن هناك عدوا يتربص لهم ، فكان بأسهم بينهم شديدا ، وطمع همايون أن يأخذ ملك إخوته أولا ، فاستعان بطهماسب شاه فأعانه بجيش صغير زحف به على قندهار ، وكانت فى حكم أخيه ميرزا كمران ، فأخذها ، وبعد ذلك بنحو سبع سنوات استطاع أن يستولى على كابل أيضا ويقبض على أخويه كمران وعسكرى ، ولكنه عفا عنهما ، وأرسلهما إلى مكة بعيداً عنه ، بعد أن ذاق منهما الأمرين ، وهكذا لم ينتقم منهما وغلب عفوه على انتقامه ، مع أن كثيراً ممن حوله لم يكونوا راضين عن هذا العفو ، وكان ساعده الأيمن فى هذا كله هو « بيرم خان » الذى صاحبه فى منفاه ، وعاش معه طول هذه المدة ، ثم قاد له الجيوش حتى تم فتح قندهار وكابل ، وأصبح فى مركز أبيه « بابر » قبل هجومه على الهند واستيلائه عليها ، وفى الوقت الذى بدأ فيه خلفاء شيرشاه وسليم شاه يتنازعون ، ويحارب بعضهم

بعضاً أخذ همايون يستعد للهجوم على الهند ، ولم يكن يفكر فى عهد شيرشاه أو ابنه سليم شاه فى ذلك لتماسك الدولة فى عهدهما ، وهجم على البنجاب بخمسة عشر ألف مقاتل ، واستولى عليها وعلى لاهور هازما جيش أميرخان وتترخان ، ثم تابع سيره إلى دلهى ، فالتقى بجيش اسكندر شاه سورى المكون من ثمانين ألف مقاتل وبضع مئات من الفيلة ، وكأن التاريخ يعيد نفسه فى موقعة بابر مع إبراهيم اللودى ، فقد انتصر همايون بجيشه الصغير على جيش اسكندر الكبير ، ودخل دلهى وأكرا منتصراً مستعيداً ملكه فيهما بعد أن فقده نحو خمسة عشر عاما ، حين خرج من الهند ناجيا بنفسه سنة ٩٤٧هـ - ١٥٤٠م، ثم عاد منتصرا إلى العاصمة سنة ٩٦٢ هـ - ١٥٥٥ م ، وفى هذه الحرب التى استعاد فيها همايون ملكه كان بيرم خان أكبر عون له فيها ، وحين أتم فتح البنجاب أنعم عليه بلقب خان خانان أى أمير الأمراء ، ثم بعد ذلك عين ابنه أكبر حاكما على البنجاب ومعه بيرم خان خانان مستشارا له لصغر سنه .

وأخذ همايون فى تنظيم أمور دولته من جديد ، لكن القدر لم يمهله طويلا . كأنه أراد له أن يسترجع الملك الذى تسلمه من أبيه ليسلمه إلى ابنه من بعده .

ويصور تاريخ فرشته آخر ساعاته ، فيقول : كان ينزل من المكتبة ، وأثناء نزوله سمع الأذان ، فجلس على السلم يدعو ويردد الأذان ، ثم قام متكئا على عصاه ، فزلقت على السلم ووقع مغشيا عليه ، وأدركه خدمه ونقلوه إلى الحرم الملكى ، وجاءوا له بالأطباء ، فأفاق قليلا ، ولكن ساعته كانت قد حانت ، فلم يجد طب الأطباء شيئا ، وتوفى فى ربيع الأول سنة ٩٦٣ هـ — يناير ١٥٥٦ م وهو فى الواحدة والخمسين من عمره ، ودفن فى المقبرة المعروفة باسمه ، وهى تعد من أفخم الآثار الفنية التى تركها المغول والتى تعتز بها الهند الآن، وقد بنيت على قبره سنة ٩٧٣ هـ - ١٥٦٥ م فى عهد ابنه أكبر ، وقد تربى همايون فى قصر أبيه « بابر » فى « كابل » ، فتعلم الفنون الحربية والسياسية على عادة أبناء الملوك فى عصره ، كما كان يعرف اللغة التركية والفارسية شاعرا عالما بالهيئة والهندسة والنجوم ، وتبحر فى علم الاصطرلاب،

وكان على العموم بارعا فى العلوم الرياضية ، شغوفا بالكتب ومطالعتها ، محباً لصحبة العلماء . ذا دين وحلم ، فكان يحافظ على الوضوء ، ويكره أن يسمى الله على غير وضوء[١] ، وكان دائماً يغلبه حلمه على غضبه ، فيعفو عمن أساء إليه ، ولا سيما إخوته ، ولعل هذا الحلم هو الذى أطمعهم فيه ، وجر عليه الكوارث منهم .

ولم يكن همايون مثل أبيه بابر فى الشجاعة والصبر والجلد ، ولذا لقى كثيراً من المتاعب بعد موت أبيه ، لأنه لم يكن يقضى على خصومه ويحاربهم حتى النهاية ، بل كان يحارب هنا ، ثم إذا لاحت له مبادىء النصر أسرع إلى مكان آخر ، ولعله كان مضطرا إلى ذلك لكثرة الخارجين عليه فى كل مكان . . ولكن همايون حمل من الأعباء مالم يحمله غيره ، ولقى فى أيامه مالم يلقه ملك . وإذا كان بابر يعد مؤسس الدولة المغولية فى الهند فإن همايون يعتبر المؤسس الثانى لها بعد أن استعاد ملكه فيها .

ومما تجدر الإشارة إليه أنه كان لمكثه مدة كبيرة فى إيران ، ومعاونة امبراطورها الشيعى له ، وقوة نفوذ بيرم خان الشيعى فى بلاطه ـ أثر كبير فى وفود كثير من الشيعة من إيران والعراق وغيرهما إلى الهند ، والعمل فى حكومته واتساع نفوذهم فى البلاط المغولى .. مما سنرى آثاره فى عهد « أكبر » ومن بعده من الملوك .

---

(١) فرشته جـ ٢ ص ٣١١ وذكر أنه كان من كبار رجاله رجل يسمى عبد الحى .. فمرة لم يكن متوضئاً فلما ناداه لم يجترىء على ذكر اسم الله (الحى) وقال « عبد الـ » فقط ، فتعجب الحاضرون وسألوه ، فقال : لم أكن متوضئاً فكرهت أن أذكر اسم الله وأنا على هذه الحالة .

جـــلال الدين أكبر

٩٦٣ هـ — ١٥٥٦ م إلى ١٠١٤ هـ — ١٦٠٥ م



جلال الدين أكبر

هو جلال الدين محمد أكبر بن همايون بن بابر التيمورى ، كانت أمه حاملا به حين فرت مع أبيه ، حتى إذا بلغت السند وضعته فى قلعة «عمركوت» حيث نزلا ضيفين عند حاكمها من الراجوات فى ربيع الأول سنة ٩٤٩ هـ ـ فبراير ١٥٤٢ م ، ثم واصل همايون سيره بأسرته حتى وصلوا إلى قندهار التى كانت تحت حكم أخيه ، ولما علم بأن أخاه يريد القبض عليه والفتك به فر بنفسه إلى إيران ، تاركا ابنه مع أمه فى قندهار عند أخيه ، ولما عاد بعد مدة إلى أفغانستان ، وفتح قندهار وكابل لحق أكبر بأبيه ، حتى إذا تم فتح الهند جعله أبوه حاكما على البنجاب ، ومعه بيرم خان خانان مستشاراً له وموجها ، وعند ما وقعت لهمايون حادثة السلم أرسل الأمراء رسولا إلى أكبر فى

پنجاب يخبره بمرضه ، ولـكن همايون توفى قبل أن يعود ، فأعلن فى البنجاب[١] المناداة به سلطانا على عرش أبيه سنة ٩٦٣ هـ – ١٥٥٦ م ، وكانت سنه فى ذلك الوقت ثلاث عشرة سنة وتسعة شهور ، ولذا قام بيرم خان وصيا عليه ونائباً عنه فى أمور السلطنة ، وقبض على ناصية الحـكم وأدار دفته ، وكان بيرم خان قائداً قوياً بصيراً بأمور الملك ، اعتمد عليه همايون فى منفاه ، وفى استرداد ملـكه ، وقد أبلى بلاء حسنا فى توطيد الملك لأكبر ، وقمع الثورات والفتن والغارات على دلهى وغيرها ، حتى استتب الأمر له أو كاد .

لم يمكث همايون طويلا بعد أن انتصر على اسكندر شاه سورى ودخل دلهى ، حتى يتعقب خصومه ، ويقضى عليهم ويقر أمور مملـكته ، بل توفى ولم تقم دولته على عمد راسخة . وكان أعداؤه الأفغان لا يزالون يقبضون على أكثر البلاد ، فاسكندر شاه سورى لازال بفلول جيشه ينتهز الفرص لينقض على ملك المغول ، وعادل خان سورى مع وزيره هيمو لا زالا فى الشرق بقوتهما ينتهزان الفرص أيضا للاستيلاء على أگرا ودهلى واسترجاع الملك مرة ثانية[٢] ، وكثير من الأمراء والحـكام طمعوا أثناء الفوضى هذه وانحلال عقد السلطنة فى أن يستقلوا ، وهكذا واجه أكبر كل هذه الصعاب .

أما عادل خان ووزيره هيمو فقد انتهزوا فرصة وجود الملك الصغير فى لاهور حين تولى الملك وهجموا على دلهى وأگرا واستولوا عليهما وعلى البلاد المجاورة ، وبذا فقد المغول بلاد دوآب[٣] واستعد هيمو لمطاردة أكبر فى البنجاب حيث كان قد توج هناك ، ولما علم بيرم خان بذلك أعد جيشه وزحف إلى دلهى ، والتقى مع هيمو فى سهول « پانيپت » ، وكان مع « هيمو »

---

(١) يقول المؤرخ فرشته جـ ٢ ص ٣١٢ : إن الرسول الذى ذهب إليه من دهلى تلاقى معه فى « كلانور » وأخبره بوفاة أبيه وهناك أديت مراسيم التعزية له وأعلن توليه العرش ..

(٢) كان عادل قد فر أمام إبراهيم سورى حين كان وزيره هيمو فى البنغـال كما سبق .

(٣) هى البلاد الواقعة بين نهرى جمنا وكنـكا شمال دلهى وشرقها، وهى الآن من ولاية «أوتر برديش» وعاصمتها (لـكنو) ودوآب معناها النهران : فدو يعنى اثنين وآب يعنى ماء .

جيش ضخم مؤلف من مائة ألف فارس وخمسمائة فيل ، ولم يكن مع بيرم خان وأكبر إلا عشرون ألفاً ، وكان ذلك فى محرم سنة ٩٦٤ هـ — ١٥٥٦ م ، وتدخل القدر فى هذه المعركة ، فكانت نهايتها على غير ما يتوقع ؛ إذ سقط هيمو من فوق جواده ، ووقع الذعر فى جيشه بعد مالاحت له بوادر النصر ، فلاذ بالفرار وواصل بيرم خان سيره حتى استرجع ما فقده من دلهى وأكرا وبلاد دواب ، بعد أن قبض على « هيمو » وقتله بيده .

أما اسكندر شادسورى الذى هزمه همايون واسترد منه ملكه فكان لايزال يتربص لاسترجاع ملكه . فحاربه أكبر حتى التجأ إلى جبال السوالك شمالا ، ثم ضيق عليه الخناق حتى طلب الصفح والأمان والسفر إلى بنكال والإقامة بها ، فأجابه أكبر إلى ذلك .

ولما بلغ أكبر سن الرشد سنة ٩٦٧ هـ ١٥٦٠ م ـ كان نضوجه العقلى مبكراً ، برغم أنه لم يتلق من العلوم والفنون مايتلقاه أمثاله من أولاد الملوك ، ويظهر أن الحياة التى عاشها ، والظروف التى اكتنفت ولادته ونشأته قد علمته كثيراً ، وكان بيرم خان أستاذه وقائده ونائبه قد حمل عبء الملك عنه منذ أن اعتلى عرش أبيه ، واستطاع أن يوطد دعائمه ، ويطارد أعداءه ، ويقضى عليهم واحدا بعد واحد ، وكان « بيرم » شيعيا متعصبا ، والشعب سنيا . كما كان فى مركز يكثر فيه حساده ومبغضوه ؛ لذلك رأى أكبر حين بلغ رشده أن ينحيه عن العمل معه فى كياسة ولطف ، وقال له إنى قضيت الكثير من عمرى فى الصيد ، وقد تحملت عنى الأعباء الثقال طول هذه المدة ، ولذلك فإنى أحب أن تستريح من عناء العمل وأحمله أنا عنك .

ولكن هذا اللطف لم يقض فى الأمر قضاء نهائيا ؛ فإن بيرم خان شعر بالحقيقة ، وحدثته نفسه ـ وهو القائد العظيم الذى دعم الدولة لأكبر وله الفضل عليه ـ حدثته نفسه بالخروج عليه ومحاربته ، فتعقبه أكبر ببعض قواده حتى اضطر لإعلان خضوعه ، وطلب الصفح من السلطان ، فعفا عنه وأشار عليه أن يذهب إلى الحجاز ليقضى هناك ما بقى من أيامه ، وفى طريق بيرم إلى

الحجاز ، وحين وصل إلى بلدة « فتن » فى كجرات قتله بعض الأفغان انتقاما منه ، ودفن فى مقبرة هناك ، ثم نقلت عظامه إلى دهلى . ثم إلى مشهد الرضا[١].

وقد واجه أكبر عندما استقل بالأمر عده مشكلات ، فقد كان صغير السن مما جعل القوادوالحكام يستخفون به ، ويحاولون الخروج عليه والاستقلال بأمورهم ، ولكن أكبر كان برغم صغر سنه شجاعا مقداما سريع البت فى الأمور ، يعتمد على عنصر المفاجأة والإقدام فى حروبه لأعدائه ، فكان يلاحقهم واحداً بعد واحد حتى قضى عليهم .

ثار عليه أحد قواده الكبار « خان زمان » واسمه « على قلى خان » ، وكان من كبار قواد أبيه ، والتف حوله كثير من الجند والقواد والأمراء ، وانتهز فرصة ذهاب أكبر لإخضاع ثورة البنجاب وهجوم أخيه حكيم مرزا عليها ، فاستولى على قنوج وأوده ، لكن أكبر رجع بسرعة إلى آكرا ، وجمع جنده وسار إلى خان زمان فى سرعة ، وكان الموسم موسم الأمطار والسيول وفيضان الأنهار ، وبرغم ذلك سار أكبر حتى وصل إلى شاطىء « كنكا » ، وكان خان زمان على الشاطىء الآخر غارقا فى بحار الأمن ، مطمئنا إلى أن أكبر لا يستطيع أن يصل إليه فى مثل هذه الأيام ، ولكن أكبر كانت له همة تتغلب على كل ما أمامه من صعاب ، فعند ما وصل إلى الشاطىء ولم يجد سفنا تنقله إلى الشاطىء الآخر ألقى بفيله إلى النهر وهو يركبه ، والأمراء والقواد من حوله يعارضونه فى هذه المجازفة الخطيرة ، ولكنه لم يبال بالمعارضة ولا بالخطر ، وأخذ معه عدداً قليلا من الجند ، وعبروا النهر ليلا ، وما إن

---

(١) نزهة الخواطر ج٣ص٦٥ وتاريخ هندلسيدهاشمى ص١٨١ ، وقدولد بيرم خان فى غزنة ولما كبر دخل فى خدمة همايون شاه حين كان وليا للعهد ثم لما صار ملكا ، وأخلص له حتى قربه إليه ولما فرهمايون شاه إلى السند لحق به هناك وحرضه على الالتجاء لإيران ، ومكث معه هناك ، وكان شيعيا والدولة الإيرانية شيعية فاستطاع أن يخدم همايون كثيراً ، ثم بعد مدة فتح همايون بمساعدته قندهار وكابل ثم الهند فكان له المنزلة الكبيرة عنده حتى جعله مربيا ومشرفا على ابنه أكبر ، ثم صار نائبا عنه ووصيا عليه لما تولى الملك بعدوفاة أبيه همايون . وكان قتله سنة ٩٨٥هـ ١٥٧٧م

أصبح الصباح وأشرقت الشمس حتى كانت طبول الحرب تدق على أبواب « كره مانك پور » التى كان خان زمان يتحصن فيها ، فذهل هو وجنده من هذه المفاجأة ، وفقد السيطرة على الموقف ، وهجم أكبر بجنده القليلين ، فقتل خان زمان وتفرق جنده ، واستولى أكبر على البلدة . وغنم الغنائم وقضى على خصم عنيد . وقد أرخ بعض الفضلاء - كعادتهم - لهذا النصر الغريب بهذه الكلمات « مبارك فتح أكبر » سنة ٩٧٤ هـ - ١٥٦٧ م [١] .

وبعد ذلك توجه أكبر إلى قلعة «رنته پور» وفتحها ، ثم إلى قلعة « چتور » فى راچبوتانا أيضا ، وكان يدافع عنها « جى مل » ، وهى قلعة يضرب بها المثل فى المناعة ، ذهب إليها على رأس جيشه ، وأخذوا يهدمون أسوارها بالمتفجرات ، وفى ليلة أطل « جى مل » من فوق أسوار القلعة ، فلمحه أكبر وسدد إليه رمية أطاحت به ، فدب الذعر والخوف فى جنوده وأهله ، وأخذوا يقتلون أنفسهم ويحرقونها ، ثم فتحوا أبواب القلعة ووقفوا عندها ليقاتلوا المهاجمين حتى آخر قطرة من دمائهم ، وفطن أكبر لهذا فساق إليهم الفيلة فمزقتهم إربا إربا ، ودخل المدينة سنة ٩٧٦ هـ - ١٥٦٨ م .

* * *

وبعد أن تم له فتح « چتور » ، وضم راچبوتانا إلى مملكته أصبحت حدودها إلى مملكة گجرات الإسلامية ، وكان كثير من أعدائه الفارين قد لجأوا إليها واستقروا فيها ، وأخذوا يغيرون على راچبوتانا ومالوا ، فتوجه أكبر لفتحها وإخضاعها ، وقد سبق أن تحدثنا عن فتح همايون لـگجرات فى زمن

---

(١) تاريخ هند لسيد هاشمى ص ١٣٢ ، ١٣٣ وكان على خان شيعيا ومن القواد الذين أبلوا بلاء حسنا مع همايون فى توطيد ملكه ، ثم اشترك فى قتال « هيمو » وكان له الفضل فى هزيمته فى أول عهد أكبر فلقبه بلقب « خان زمان » ورقاه وولاه على « جونپور » ونواحيها ثم دب الخلاف بينه وبين أكبر مما أدى إلى قتاله وقتله سنة ٩٧٤ هـ . ويقول صاحب نزهة الخواطر إن القرية التى قتله فيها وتم له النصر عليه سميت باسم « فتحپور » ولا تزال معروفة للآن بهذا الاسم قريبا من إله أباد من مقاطعة « أوتر برديش » أى للمقاطعة الشمالية .

« بهادور شاه » لكن هذا لم يستمر طويلا ، فقد استرد بهادور شاه ملكه حين هزم همايون أمام شير شاه ، وفر من الهند ، وبقيت كجرات مستقلة ، وكان يحكمها فى ذلك الوقت مظفر شاه الثالث حفيد بهادور شاه ، وكان ملكا إسميا ، أما السلطة فكانت فى يد «غلام إعتماد خان» وكان قد دخل جديدا فى الإسلام، ولم تكن حالة البلاد مستقرة ، بل كثرت فيها الفتن واختل نظام الملك ، فذهب إعتماد خان إلى أكبر ، وطلب منه أن يفتح كجرات ، ويتولى حكمها ويقضى على ما فيها من فتن داخلية ، ورآها أكبر فرصة ، فذهب بجيشه وفتحها دون مقاومة من مظفر شاه ، بل رحب به وسلم له أمر كجرات سنة ٩٨٠ هـ — ١٥٧٢ م ، ثم أخذ أكبر يتعقب أعداءه الذين فروا إليها ، وأخذوا يجمعون النـاس حولهم لمناوأته ، فتابعهم فى سرعته ومفاجآته حتى أخضعهم تماما وطهر كجرات من فسادهم .

ولما زحف أكبر بجيشه لإخضاع مدينة « سورت » وكان البرتغاليون قد أسسوا بها مركزا لتجارتهم ، وحامية من الجند تحميهم ، هب هؤلاء لمعاونة المدافعين عنها ، لكنهم رأوا غلبة أكبر فمالوا إلى الصلح معه واكتساب وده ، وعقدوا معه معاهدة تعهدوا فيها بتيسير الحج إلى مكة ، وعدم التعرض فى البحر للحجاج المسلمين ، وكانت « سورت » ميناء يبحر منها الحجاج ، ولا زال فيها للآن شارع يسمى « باب مكة » ، وهذا يفسر لنا مقدار سيطرة البرتغاليين على البحار فى ذلك الوقت .

وحين عاد أكبر من كجرات اصطحب معه ملكها مظفر شاه الثالث الذى عاش فى كنفه مدة ، حتى زين له بعض أمراء كجرات أن يفر ويعود إليها ليسترجع ملكه ، فاستجاب لهم وفر من أكرا ، وحين وصل إلى هناك التف حوله كثير من الأمراء والمحاربين ، فعين أكبر عبد الرحيم خان [1] بن

---

(١) ولد سنة ٩٦٤ هـ — ١٥٥٦ م بلاهور وأبوه هو بيرم خان أستاذ أكبر وقائده الذى انتهى أمره إلى قتله فى «فتن» بكجرات وهو ذاهب إلى الحجاز بعد أن نحاه أكبر .. وكانت =

وزيره السابق بيرم خان على رأس حملة لإخضاعه ، فلما وصل إلى گجرات انهزم أمامه مظفر شاه إلى البلاد الساحلية ، ولكنه لم يسلم بل ظل عدة سنين يحارب حرب عصابات ، وأخيرا استسلم سنة ١٠٠١ هـ - ١٥٩٢ م وقبض عليه، وفى طريقه إلى آگرا مقبوضا عليه قتل نفسه فاستراح وأراح .

* * *

بنجاب وكابل : وكان حكيم ميرزا أخو أكبر من أبيه يحكم كابل ، ومنها هاجم البنجاب ، فسار إليه أكبر وهزمه وتعقبه حتى أخذ كابل .

وقد أعاد حكيم مرزا انتقاضه على أخيه ، وهاجم البنجاب مرة ثانية بعد أن استعاد حكم كابل ، فسافر أكبر إلى البنجاب سنة ٩٨٩ هـ - ١٥٨١ م واستخلصها لنفسه ، ثم تعقب أخاه إلى كابل ، ففر إلى الجبال واعتصم بها ، ثم عفا عنه أكبر وأعاده لحكم كابل ، وظل بها إلى أن مات سنة ٩٩٤ هـ - ١٥٨٥ م فضمت للامبراطورية نهائيا ، وولى عليها مان سنگ الهندوسى ، وكان ذلك من دلائل تسامح أكبر وحكمه القومى ، إذ كانت هـــذه أول مرة يعين فيها هندوسى لحكم ولاية إسلامية كانت الهند تحكم منها قبل ذلك .

وفى البنگال : كان داود خان الأفغانى ملكا عليها ، وكان يخضع خضوعاً إسميا للمغول، ويدفع الخراج لهم، حتى إذا شعر داود خان بقوته وانشغال أكبر بحروبه امتنع عن دفع الخراج ، فسار إليه أكبر سنة ٩٨٣ هـ - ١٥٧٥ م ، وعاجله بسرعة برغم المطر والسيول ، حتى وصل إلى شرق بهار فى مدة وجيزة أذهلت أعداءه هناك ، فلم يستطع داود خان مقابلته وتجنب الاصطدام

= سن عبد الرحيم حين قتل أبوه أربع سنوات ، فاحتضنه أكبر وتربى تحت عنايته وتثقف ثقافة ممتازة ، وتدرج فى المناصب وصار مؤدبا لابنه جهانگير وفى عهده تولى قيادة الجيوش ففتح له البلاد ونال لقب خان خانان أى أمير الأمراء . وكان ممتازا بثقافته وكرمه وحبه للعلماء ومعرفته العربية والفارسية والهندية والتركية ، وصنف وترجم كتبا كثيرة ، منها ترجمة مذكرات بابر توفى سنة ٩٩٧ هـ — ١٥٨٨ م

به ، فترك أكبر بعض قواده ليتموا إخضاع البنگال وعاد ، فأخذ هؤلاء يخضعونها شيئا فشيئا ، وكان داود خان قد ذهب إلى أوريسه فى الشمال ، واعتصم بها وأخذ يهاجم منها جيش اكبر ، لكنه كان ينهزم ، ولم يبق فى البنگل قائد قوى يقف أمام المغول ، لكنها مع ذلك كانت منطقة نفوذ الأفغان الذين تجمعوا فيها بعد أن وقعت بهم الهزائم أمام المغول ، باعتبارها مملكة يحكمها الأفغان ، وكانت لهم فيها الإقطاعيات الكبيرة والكثيرة بما يصحبها من النفوذ ، ولذلك ظل نفوذ المغول فيها غير مستقر ، ولم تسلم البلاد تماما لهم إلا فى عهد جهانگير .

* * *

وكانت كشمير تحت حكم الملوك المسلمين، ولكن الفساد والفتن والمنازعات كانت تسودها ، وقد طمع أكبر فى أن يضم هذه الولاية الجميلة الفاتنة بمناظرها ونباتها وبحيراتها وهوائها إليه ، فأرسل قواده إليها ، ولكن الثلوج والبرد عاقهم عن إتمام فتحها ، وإن كان ملكها قد أعلن خضوعه لأكبر ، لكنه لم يكتف بهذا ، فأرسل جيشا أتم فتح كشمير ، ودخل ملكها فى حاشية أكبر ، وصارت ولاية من ولاياته سنة ٩٩٥ هـ - ١٥٨٦ م .

* * *

أما السند فقد ضمها أيضا إلى ملكه سنة ١٠٠١ هـ - ١٥٩٢ م ، ويعتبر المؤرخون هذه السنة سنة جديرة بالذكر فى تاريخ أكبر ، ففيها تم فتح السند وقندهار التى أصبحت ولاية من ولايات الهند ، وأوريسه ، كما تم فيها القبض على مظفر شاه الگجراتى بعد أن استمر سنين يحارب كما سبق ، وفيها أيضا قدم راجوات الهند طاعتهم لأكبر بعد أن ظلوا مخالفين له .

ونستطيع بذلك أن نقول إن مملكة أكبر اتسعت اتساعا عظيما ، فشملت الهند الشمالية والوسطى بما فيها گجرات ومالوا ، وكذلك البنگال فى الشرق وأفغانستان فى الغرب .

أكبر يتجه لفتح الجنوب

ولم يكن أكبر قد توجه إلى الجنوب ، حيث الممالك الإسلامية الخمسة التي قامت على أنقاض الدولة البهمنية في الدكن، وهي دولة بريد شاه في بيدار، وممالك بيرار ، وگولكنده وبيجابور ، وأحمد نگر ، وكان ملك أحمد نگر قد أغار على مملكة بيرار وضمها إلى ملكه سنة ٩٨٠ هـ - ١٥٧٢ م ، فقويت بذلك شوكته ، وأصبح قوة خطيرة ، وكانت الحروب لا تنقطع بين هذه الدول الإسلامية بعضها مع بعض ، وبعضها مع دول الهندوس حولها ، لاسيما مملكة ڤيچايانگر التي تقع في أقصى الجنوب في طرف شبه الجزيرة .

وفي شمال هذه الممالك كانت تقوم مملكة أخرى إسلامية هي مملكة خانديس وعاصمتها « برهانپور » ، وكانت تشتهر بقلعة عسيرگره الحصينة ، وقد ضمها ملك الگجرات أخيرا إليه ، وصارت تابعة له ، حتى ضمت الگجرات إلى مملكة أكبر ، وبقيت خانديس تابعة إسميا للمغول ، يدفع حاكمها الخراج لهم ، لكن جاء أحد الملوك وامتنع عن دفع الخراج الذي كان يدفعه الملوك السابقون فلذلك كله اتجه أكبر إلى الجنوب ، فسار إلى أحمد نگر سنة ١٠٠٤ هـ ١٥٩٥م وكان ملكها في ذلك الوقت الطفل نظام شاه ، ولكن عمته تشاند[1] «چاندبي بي» كانت هي الملكة الحقيقية ، فوقفت أمام « أكبر » وجيشه موقفا خالدا يندر أن نرى في التاريخ مثله لامرأة وربما لرجل من الرجال .

عندما سار إليها أكبر أصدرت نداء إلى الدول الإسلامية المجاورة وإلى

---

(١) هي أخت برهان نظام شاه البحري ملك أحمد نگر تزوج بها عادل شاه البيجابوري ملك بيجابور، فلما توفي قامت بحضانة ابن أخيه إبراهيم عادلشاه، وحملت أعباء السلطة عنه بجدارة وكفاءة وصبر حتى بلغ رشده ، فرجعت إلى أحمد نگر وكان ابن أخيها الصغير ملكا فحملت أعباء الدفاع عن ملكه حتى أنقذته من الوقوع في يد أكبر، واستمر الحال على ذلك مدة تفرق الأمراء فيها واختلفوا، حتى دعا بعضهم دانيال بن أكبر لدخول البلاد، وجاء أكبر وعبد الرحيم خان بجنود كثيرة وحاصروا عسيرگره وأحمد نگر وشددوا الحصار فرأت ألا بد من الصلح ، فلما عرف الناس منها ذلك اتهموها بتسليم البلاد لأكبر وقتلوها سنة ١٠٠٦ هـ ومع ذلك لم يقدروا على الدفاع عن بلادهم (نزهة ج ٥ ص ١٢٤) ومعنى تشاند باللغة الهندية « قمر » وبي بي لقب تعظيم . .

أمرائها تنبههم إلى الخطر الذى يقترب منهم ، وتهيب بهم أن يقفوا صفا واحدا معها لمجابهته ، فأسرع لنجدتها ملك بيجاپور ، بينما كان أكبر قد حاصر القلعة ، وأخذ يهدم أسوارها بالمتفجرات كما فعل فى قلعة « چتور » فى راچپوتانا ، فذعر الجنود بداخل القلعة ولاذوا بالفرار ، وهنا حضرت چاند بى بى ورفعت نقابها ، وفى يدها سيفها وعلى جسمها درعها ، وصرخت فى جنودها الفارين أن يعودوا ويثبتوا ، فاستجابوا لها وعادوا يمطرون المهاجمين بالرصاص والأحجار ، وهى تشجعهم حتى انتهى اليوم ، وكانت بعض أماكن فى سور القلعة قد تهدمت من فعل المتفجرات ، فانتهزت فرصة الليل ، وأخذت تعيد بناء ما تهدم ، وطالت المحاصرة التى كان يتولاها مراد بن أكبر ، ونال التعب والإعياء من كلا الفريقين ، وفى هذا الوقت كان جنود بيجاپور التى هبت لنجدة أحمد نكر قد اقتربت . فمال مراد إلى الصلح كما قبلته « چاند بى بى » ، على أن تكون « بيرار » للمغول ، وبذلك حالت شجاعة هذه المرأة الباسلة دون أن يكسب جيش أكبر نصرا حاسما خاطفا .

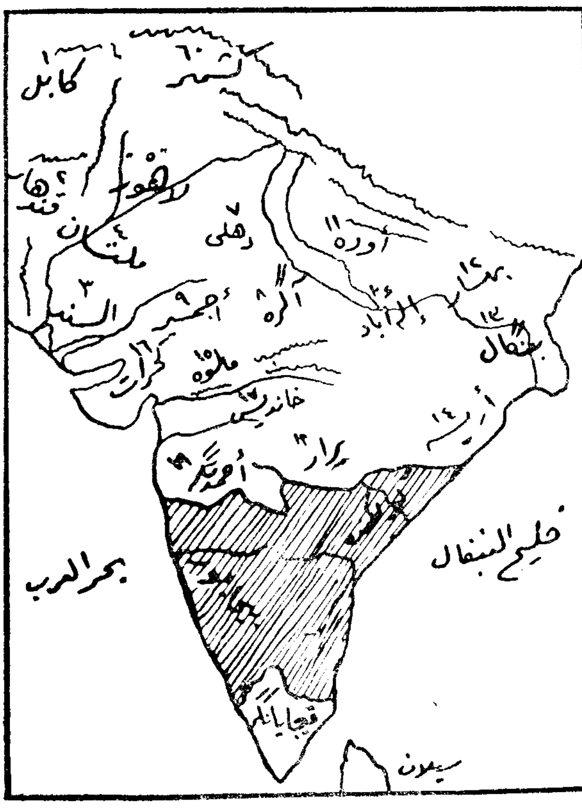
بعد ذلك قامت حرب شديدة بين جنود أكبر وبين مملكة « بيجاپور » ، ولعل ذلك حدث لنجدتها لأحمد نكر ، فوقفت الممالك الإسلامية : أحمد نكر وگولكنده مع بيجاپور واستمرت الحرب مدة لم تنته إلى نتيجة حاسمة ، ثم توفى مراد بن أكبر الذى كان يقود الجيوش ، فأسرع أكبر بإرسال ابنه الثانى « دانيال » ، ثم لحقه أكبر نفسه سنة ١٠٠٨هـ - ١٥٩٩م على رأس جيش عدته ثمانون ألفا ، ولكن كان موقف مملكة خانديس قد تغير بعد وفاة ملكها ، وقيام ابنه « شاه بهادور دل[1] » بالملك بعده ، ومنا وأته للمغول وامتناعه عن دفع الخراج لهم ، وكانت هذه المملكة تقع فى شمال الدكن ، وتعتبر ممرا إلى الممالك الإسلامية : أحمد نكر وبيجاپور وگولكنده فى الجنوب ، فاهتم أكبر بموقف هذه الدولة ورأى أن يخضعها ؛ ليفتح الطريق أمامه إلى الجنوب ، فحاصر قلعتها المشهورة « عسير گره » بينما كان ابنه دانيال يحاصر أحمد نكر ، وطالت أيام الحصار حول « عسير گره » ولقى منها عناء أكثر مما لقيه أخيرا من أحمد نكر حتى

(١) معنى بهادور شجاع ومعنى دل بكسر الدال القلب أى شجاع القلب .

جاءته الأنباء بتسليم أحمد نكر سنة ١٠٠٩ هـ - ١٦٠٠ م وهو محاصر لعسير گره ، ثم ساعدته الظروف فتفشت الأمراض فى القلعة ، ووقع ملكها «بهادور» تحت تأثير الأوهام والخوف فسلمها ودخلها أكبر ، وغنم منها الغنائم الكثيرة من الذهب والفضة وغيرهما ، وبذلك انتهت خانديس وضمت مع أحمد نكر إلى ملك المغول ولم ينل من بيجاپور وگولكنده شيئا وبقيتا مستقلتين .

* * *

بهذا أصبحت مملكة أكبر من الاتساع بحيث شملت الهند كلها ، ما عدا الطرف الجنوبى من شبه الجزيرة الذى كانت تحكمه ممالك بيجاپور وكولكنده الإسلاميتين وڤيجايانكر الهندوسية التى كانت تقع فى نهاية الجنوب . وكان راجوات الهند الذين يحكمون وسطها فى راجپوتانا وگواليار وغيرهما قد سلموا



مملكة أكبر وبيان الولايات بها « نقلا عن تاريخ الهند لسيد هاشمى »

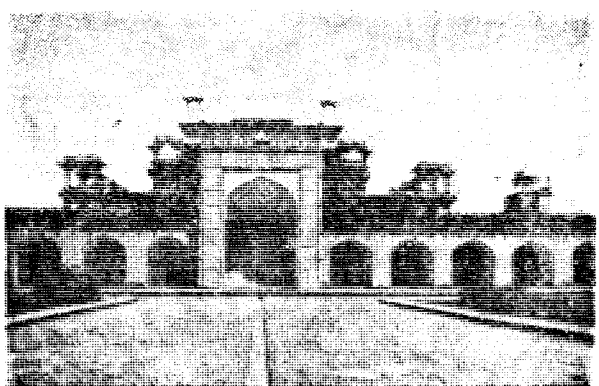
نهائيا لأكبر، إما بالحرب أو بالمصالحة، بل أصبح هؤلاء الهندوس من أكبر المعاونين لأكبر والمتحمسين له، بعد ما رأوا من حسن سياسته نحوهم، وقيام المصاهرات بينهم وبينه، وتألفت بذلك مملكة أكبر من هذه الولايات:

(١) كابل (٢) قندهار (٣) السند (٤) ملتان (٥) لاهور (٦) كشمير (٧) دهلى (٨) أكره (٩) أجمير (١٠) إله أباد (١١) أوده (١٢) بهار (١٣) بنگال (١٤) أوريسه على ساحل خليج البنگال (١٥) مالوا (١٦) گجرات (١٧) خانديس (١٨) برار (١٩) أحمد نگر.

ثورة ابنه سليم:

عاد أكبر بسرعة من الدكن حينما علم أن ابنه وولى عهده سليم قد قام بثورة فى إله أباد بقصد الاستيلاء على الملك. وترك دانيال وأبا الفضل يحكمان الدكن، وحينما وصل إلى أگرا أرسل لابنه سليم فى إله أباد التى كان يحكمها، فجاء إليه معتذرا وصفح عنه.

وفى ذلك الوقت رجع أبو الفضل من الدكن وكان بينه وبين سليم جفوة، فخشى أن يحرض أباه عليه، فأشار على أحد أتباعه «راجارام» والى «بندهيل كهند» أن يقتله قبل أن يصل، فقتله سنة ١٠١١ هـ - ١٦٠٢ م، فغضب أكبر وحزن كثيرا، وانتقم من القاتل «راجارام» شر انتقام.



مقبرة أكبر

وفى سنة ١٠١٣ هـ - ١٦٠٤ م توفى ابنه الآخر « دانيال » فى الدكن . فاغتم كثيراً ، ولم يلبث هو أن توفى فى جمادى الآخرة سنة ١٠١٤ هـ - ١٦٠٥ م بعد أن مكث ملكا على الهند نحو خمسين سنة ، وكان عمره حين توفى نحو ٦٣ سنة ودفن فى اسكندر أباد قريباً من « أكرا » .

أكبر فى نظر التاريخ :

فى كل ما تقدم صاحبنا أكبر فى حروبه وفتوحاته . وعرفناه محاربا شجاعا لا يعبأ بالصعوبات ، ولا يعرف المستحيلات حتى دانت له الهند كلها تقريبا ، ولكن لأكبر جوانب أخرى ، لعلها أكثر أهمية من فتوحاته وحروبه ، وقد ظفر هذا الامبراطور المغولى باهتمام بالغ من المؤرخين الهنود والأوربيين لم يظفر به امبراطور سواه ، وكتب عنه الأوربيون والهندوس كثيراً ، وأشادوا به ، واختلف هؤلاء عن بعض المؤرخين الإسلاميين فى تقدير بعض أعماله والحكم عليها ، ولكل وجهة ، ونحن حين نكتب هنا عن أكبر نحرص أشد الحرص على أن نضع أعماله أمام القراء ، ونحكم عليها من الزاوية الإسلامية التى تولى الحكم من ناحيتها وباسمها ، دون أن نغمطه حقه فى أية ناحية من نواحى نشاطه الأخرى .

ولد أكبر وتربى فى ظروف عصيبة سيئة بالنسبة له ، فلم يحظ بعناية من أبيه البعيد عنه ، ولم يتعلم مثل أولاد الملوك ، وحينما قدر له أن يلى عرش أبيه - وعمره ثلاث عشرة سنة - لم يتجه إلى تكميل نفسه من الناحية العلمية ، بل انصرف إلى ما ينصرف إليه أمثاله من عيش القصور ، والخروج للصيد وغير ذلك ، ومع هذا كان أكبر يتمتع بذكاء نادر ، وشخصية قوية ، وكان يضم إلى هذا جرأة غريبة ، ولقد كانت هذه الجرأة أبرز صفة فيه ، لمسنا أثرها فى حروبه ، وسنلمس أثرها كذلك فى آرائه وأعماله الأخرى ، بحيث يمكن أن نقول : إن هذه الصفة - الجرأة النادرة - كانت مفتاح شخصيته .

أكبر وسياسته فى الحكم :

وجدت من المناسب ، بل من الضرورى أن أخصص لأكبر هذا العنوان ، لأنه هو الآخر قد اختط لنفسه سياسة جديدة فى حكم الهند تختلف عن غيره من الملوك المسلمين الذين حكموها ، فقد أقام حكمه على أساس الهند للهنود لا للفاتحين ، وحكمها على أساس قومى لا تفريق فيه بين جنس وجنس، وأهل دين ودين ، وسار فى سياسته القومية هذه إلى آخرها ، مضحيا فى سبيلها بكل شىء حتى ببعض أوامر الدين ، هادفا من هذه السياسة إلى كسب ود الشعب على اختلاف نزعاته ، وإقامة حكمه على دعائم من رغبات الشعب ومصالحه ، ونظر الشعب فوجد حاكمه يسوسه هذه السياسة القومية الهندية ، ويجعل من كابل وقندهار ولايتين تابعتين للهند ، بدلا من أن تكون الهند محكومة من كابل ، وحينئذ أخلصوا له الطاعة لا سيما الهندوس وراجاواتهم، الذين لم يروا من قبل مثل هذه السياسة التى تتخذ شعارها عدم التفرقة بين أبناء الوطن الواحد ، وإلغاء ما كانوا يتضايقون منه ويشعرون بالهوان من أجله وهى الجزية ، ومع ذلك ساهموا مساهمة كبيرة فى وظائف الدولة الكبيرة والصغيرة ، حتى رأوا كثيراً من الأمور بيدهم ، ورأوا حاكم كابل هندوسياً منهم ، وهكذا وجد الهندوس فى أكبر وعهده مالم يجدوه من قبل ، بل وجدوا مالم يكونوا يحلمون به أو يتخيلونه ، وهو عقد مصاهرات بينهم وبين الملك وأبنائه وأمرائه ، ودخول كثير منهم فى حاشيته ، وتغلغل نفوذهم فى إدارة الحكم ، كل هذا جعل منهم رعايا مخلصين متفانين ، بعد أن كانوا من ألد أعداء الأباطرة والحكام المسلمين ، وكانت هذه السياسة الجديدة لأكبر تعتبر انقلابا هاما فى سياسة حكم المسلمين للهند . فظفرت هذه السياسة بالتقدير من المعاصرين ومن المؤرخين جميعا . . ولا يمكن لأحد من المسلمين الواسعى الأفق أن يعترض على أكبر فى سياسته هذه أو معظمها على الأقل . بل إنهم يرون فى عدل أكبر وسياسته نحو رعاياه صورة من صور المبادىء الإسلامية

العادلة التى تحرص على العدل بين جميع الرعايا . . .

ويمكن أن نفصل بعض ما اجملناه عن سياسته[١] :

لقد أزال الفوارق بين المسلمين والهندوس فى دفع الضرائب ، بل رفع الضرائب التى كان يدفعها الهندوس عند زيارتهم لأماكنهم المقدسة ، وفتح بابه للشاكين ، وجعل على بابه ناقوسا يدقه كل من أراد أن يقدم شكواه إليه ، وأعان الزراع وثبت ملكياتهم للأرض ، وتجاوز عن ديونهم المتأخرة . وله إصلاحات اجتماعية ، وأوامر إدارية إلى حكامه وولاته تدل على مبلغ رقى الحكم فى عهده ؛ فقد منع الزواج قبل سن الرشد ، وأباح للأرامل الهندوسيات الزواج وكن لا يتزوجن ، كما منع المرأة من إحراق نفسها إذا مات زوجها ، وامتنع عن جعل أسارى الحرب عبيدا ، وشجع العلماء الهندوس فى تعليم اللغة السنسكريتية . ومن أوامره لحكامه : أن يحيطوا علما بأحوال رعيتهم ويعاملوا الناس معاملة حسنة ويحسنوا إلى الفقراء ، وألا يعفوا عن المجرمين ، ولا يقبلوا الهدايا ، ولا يعترضوا على المخالفين لهم فى الدين ، فهم إن كانوا على الحق فلا يصح الاعتراض عليهم ، وإن كانوا على الباطل فهم مرضى يجب الرفق بهم ، ثم عليهم أن يلاحظوا دخل الناس وخرجهم ، حتى إذا زاد خرجهم كان ذلك دليلا على اكتساب حرام ، ومنع اغتسال النساء والرجال فى الأنهار سويا ، كما منع شرب الخمر وعصرها ، ومشى النساء كاشفات وجوههن . ومنع جبر أحد على الإسلام . ومن أجبر فله الخيار ، وجعل للناس الحرية التامة فى اعتناق أى دين يريدون .

وهذه التوجيهات ـ ومثلها كثير ـ تدل دلالة واضحة على مبلغ النضج فى التفكير ، وفى تسيير دفة الحكم فى البلاد .

أما ما يتصل خاصة بسياسته نحو الهندوس فيحسن أن أنقل هنا ما كتبه الأمير شكيب أرسلان فى كتابه « حاضر العالم الإسلامى »[٢] :

---

(١) نقلا عن مجلة ثقافة الهند عدد يونيو ١٩٥٥ باختصار .

(٢) ص ٣٠٠ ج ٤ فى فصل عقده عن الممالك الإسلامية فى الهند .

« يقول مؤرخو الهند من الأفرنجة أن سلطان دلهي عرف كيف يستولى على راجاوات الهند ويستأسر قلوبهم ؛ لأنه كان شهما وفياً عالى الجناب ، تام المروءة حفيظا للعهود ، ملاكا للأفئدة بشرف خصاله ونبل فعاله ، وكانت هذه البيوتات المالكة فى آمبر ، ومارقار ، وبيكانير ، الأمثلة العليا فى النبالة والأصالة ، وحب المجد ووفاء الذمة ، فلما شاهدوا من السلطان ما شاهدوه من المكارم والمعالى محضوه خالص الود ، وبايعوه من صميم القلب ، وبذلوا من دونه أرواحهم ، ووقفوا على مناصحته غدوهم ورواحهم ، فاستخلصهم لنفسه ، وعول عليهم فى مهماته ، وانتدب منهم للمناصب العلية ، وعمر بهم وبأبنائهم الأبواب السلطانية ، ورجحهم على رهطه المغول ، وجعلهم ردءاله فى المواقف ، لاسيما راجا آمبر المسمى « بهارى مال » ، وولده « باخفان داس » ، وحفيده « مان سيغ » الذى كان أخا لأكبر فى الرضاع ، وكان راجا آخر اسمه « تودار مال » اليد اليمنى لأكبر فى أعماله ، فقلده نظارة المالية ، ثم ولاية البنگال ، ولما مات بكاه بكاء الأخ لأخيه ، ولأجل زيادة التأليف بين الهنود والمغول أشار أكبر بزواج بعضهم من بعض ، وبدأ فى ذلك بنفسه ، فعقد نكاح أخت الراجا « باخفان داس » ولولده « جهانكير » على حفيدة « راجا مارقار » وأزوج كثيرين من أمراء المغول أميرات من الأسر المالكة فى بيكانير وأجمير ، ووشج بذلك علائق النسب بين الدولة التيمورية والدول البرهمية ، فتوطدت دولته وأمن شر العواقب » .

وجاء فى مجلة ثقافة الهند [١] عن أكبر من هذه الناحية :

« كان أكبر فى أول أمره ميالا إلى العلماء والصلحاء ، وكان يتبع أحكام الشريعة ويحترم الصوفية ، ويحضر بنفسه فى مجالسهم ، وكان للعلماء الكلمة النافذة فى سياسة البلاد وشئون العباد ، وكانوا لا يعاملون من خالفهم فى دينهم معاملة العدل والمساواة [٢] ، ولكن كان أكبر لا يحب أن يعمل بهذه الخطة ،

(١) عدد يونيو ١٩٥٥

(٢) هكذا فى نظر المجلة ، ولعله يشير مثلا إلى فرض الجزية على الهندوس ، وكان ذلك أبغض شىء لهم . والمجلة تصدرها حكومة الهند .

فأخذ يتبرأ منهم ، فلم يبق عنده من العلماء إلا من كان يوافقه على سياسته ، ويحذو حذوه فى إدارة شئون المملكة التى كان أكثر أهلها من غير المسلمين .

« اختار أكبر كثيرا من عادات الهندوس ، وشاركهم فى أعيادهم وترك زى الآباء وتزيا بزيهم (١١١) وتزوج بنات الأمراء والقواد من الهندوس ، فتزوج بنت راجا « جيبور » « بيهار مال » سنة ١٥٦٢ م فولدت له ابنه سليم الملقب بجهانگير ، وتزوج ببنات راجا بيكانير وجيسلمير فى سنة ١٥٧٠ م ، وزوج ابنه سليم «بمان بائى» بنت راجا بهگوان داس ، فاشتدت بذلك العلائق الودية بين الهندوس والمسلمين ، لا سيما بينهم وبين فرق الراجبوت . وكانت لهم إمارات كبيرة فى جهات مختلفة من الهند ، وكانوا بواسل محبين لوطنهم أولى بأس شديد ، وقرب إليه كثيرا من علماء الهندوس وأمرائهم ، فمال إليه الهندوس ، وحسبوه كواحد منهم ، وقاتلوا عنه ، وأعانوه على الثائرين ، ولو كانوا إخوانهم فى الدين » .

وجاء فى كتاب حاضر العالم الإسلامى أيضا عن سياسة أكبر :

« كانت نهاية أكبر سنة ١٠١٤ هـ - ١٦٠٥ م بعد أن ملأ الهند مآثر ومفاخر ، وأدار السلطنة إدارة قل من سدد لمثلها فى الأوائل والأواخر ، لأنه إلى زمانه هو كانت سلطنة الهند غير مرتكنة على قواعد ثابته وأنظمة مقررة ، بل كان السيف وحده حكما ، وكانت الثورات متصلة ، وأهواء الأشخاص هى الغالبة . فسير أكبر دولته هذه على أصول إدارة جديدة : فارسية مغولية ، غاية فى الضبط والدقة ، ورفع استبداد الأمراء والملوك ، فأرضاهم ، وأراح الرعايا من ضررهم - صنع لويس الرابع عشر فى فرنسا - وشكل الدولة على النسق الحالى المتبع فى هذا الوقت فى العالم . . الخ » .

ويقول جوستاف لوبون (١) :

« وبعد عهده الذى دام خمسين سنة من أنضر العهود الجديرة بأطيب

---

(١) فى كتابه حضارة الهند ص ٢٢٣ .

الذكر ، ونرى النظم التى انتحلها من أكثر النظم ملاءمة للشعوب التى ملكها ، وكتب لكثير من هذه النظم البقاء بعده ، وقلدها الانكليز فى الغالب » .

وفى عهد أكبر بدأت اللغة الأوردية المكونة من الهندية والفارسية والتركية والعربية تبرز إلى الوجود ، وكانت التركية لغة الأسرة المالكة ، والفارسية لغة الدولة ، والعربية لغة الدين الإسلامى .

ومما يذكر لأكبر أيضا عنايته الكبيرة بجيشه وتنظيمه ، حتى إنه أعطى أسماء معينة لمدافعه ، وكتب لها تاريخا دون فيه ما أدته هذه الاسلحة من خدمات ، وكان نابغا فى علم الحركة ، وله عدة مخترعات، منها اختراعه ما سورة للبندقية من الحديد لا تنفجر [1] .

وفى أواخر عهد أكبر تألفت شركة الهند الانجليزية سنة ١٠٠٩هـ-١٦٠٠م، وبدأ عملاؤها يتصلون بأكبر ، وينالون منه بعض الامتيازات التجارية ، كما أنه استقبل أول سفير للملك جيمس الأول فى بلاطه وهو السير « توماس رو» .

عقيدة أكبر وموقفه من الإسلام

كان لا بد لنا ونحن نتحدث عن أكبر أن نعقد له هذا البحث مادام هو قد شغل نفسه وعصره بعقيدته الدينية ، وأثار حوله كثيرا من الكلام ، بل كثيرا من الثورات ، و « أكبر » هو امبراطور إسلامى من أسرة مسلمة ، حكمت باسم الإسلام ، وأسدت إليه كثيرا من الخدمات ، لذلك كان أى انحراف عن هذا الطريق لافتا للأنظار ، ومثيرا للجدال والقلاقل ، ولو ظلت لأكبر عقيدته الدينية سرا بينه وبين الله لم تتسرب آثارها إلى أعماله السياسية والحكمية ، ودون أن تتأثر الدولة بها لكان من الممكن أن نتركها له كما هى بينه وبين الله ، ولكن الأمر كان على عكس ذلك ؛ فإن ما طبع عليه أكبر من

(١) من مذكرة الأستاذ حبيب ص ١٠٨ .

الجرأة والمجازفة فى حروبه ، وفى مصاهرته للهندوس جعلته يجهر بعقيدته التى خالف فيها شعبه المسلم ، وخالف بها ما جرت عليه أسرته الملكية من محافظة على الإسلام ، واجتهاد فى دعم تعاليمه بين الناس ، فعل ذلك دون خشية من الله أو من شعبه المسلم ، ولعل الذى ساعده على اتخاذ هذه الخطوة الجريئة هو اطمئنانه إلى الهندوس الذين أصبحوا عونه فى الملمات ، والذين يسرهم منه بلا شك أن يخطو هذه الخطوة .

وشىء آخر ألمسه من تصرفاته دفعه إلى ما فعل ، وهو ميله لأن يكون حكمه قائما على نظرياته السياسية ، بعيدا عن التقيد بأمور دينه وتعاليمه ، ورغبته بأن يكون حكمه للهند حكما قوميا ، أو إن شئنا تعبيرا حديثا قلنا حكما لادينيا ، وإن كان هذا جره إلى خطوة أخرى أجرأ من سابقتها ، حين دفعه الغرور لأن يخترع دينا جديدا مزيجا من الأديان التى عرفها ليكون دين دولته ، وليصبح هو بعد ذلك صاحب دين جديد ، يتمتع بالتقديس الذى يحظى به واضعو الأديان ـ وما أكثرهم فى الهند ، وما أكثر ما نالوا من تقديس الملايين وتفانيهم ـ أضف إلى هذا أن أكبر لم يتلق تعليما دينيا فى صغره يعصمه من مثل هذا الزلل ، وأن الذى قام على إرشاده وتوجيهه ، وكان له أكبر الأثر والفضل عليه هو بيرم خان الشيعى المتعصب ، وكان لهذا أثره فيما بعد حين قرب إليه كثيرا من علماء الشيعة وجعلهم مستشارين له ، مثل فتح الله الشيرازى وأبى الفضل الناگورى وأخيه أبى الفيض ووالدهما مبارك ، بل كان كثير من العلماء يرمونهم بالإلحاد والزندقة . وكان لهؤلاء بلا شك أثرهم فى توجيه أكبر وتشجيعه حتى أثبت كثير من المؤرخين أنه كان شيعيا .

ولنذكر لك فى تفصيل ما قدمناه فى إجمال :

ذكرت بعض كتب التاريخ عن أكبر أنه فى أول عهده حرص على تقريب أهل العلم والصلاح ، حتى كان يذهب بنفسه إلى بيت الشيخ عبد النبى أحمد

الگنگوهی (١) لاستماع الحديث . ويسوى نعله بيده ويضعهما قدامه ، وكان يرحل إلى أجمير لزيارة قبر الشيخ معين الدين حسن السجزى الچشتى (٢) راجلا فى كل سنة ، وكان يتبرك بالشيخ سليم بن بهاء الدين السيكروى (٣) وزاد اعتقاده فيه لما بشره بثلاثة بنين ، فرزق بهم بعد أن كان محروما منهم ، ولذلك سمى ابنه باسم هذا الشيخ «سليم» على غير عادة المغول فى تسمية أبنائهم،

---

(١) ولد ببلدة «كنكوه» التابعة لسهارانبور من مديريات المقاطعة الشمالية ، وتعلم على أبيه ، ثم رحل إلى مكة وسمع الحديث عن ابن حجر المكى وغيره ، وسار على مذهب المحدثين حين رجع إلى الهند ، فخالف كثيرا من الصوفية ومنهم والده فى مسألة السماع ووحدة الوجود والموالد وغيرها ، فثار العامة عليه وطردوه من بلاده ، وسمع عنه «أكبر» فطلبه سنة ٩٧١ﻫ ١٥٦٣ م وبالغ فى إكرامه ، وأغدق عليه المناصب والأموال ، فأقبلت عليه الدنيا ، واستمر على ذلك سنين حتى دخل أبو الفيض وأخوه أبو الفضل فى خدمة أكبر ، فنفسا عليه ، ودبرا له المكائد حتى غضب عليه أكبر ، وأمر بطرده من الهند ، فسافر إلى الحجاز ، ومكث بها مدة ثم طلب العفو للرجوع إلى وطنه فأذن له ، ولكنه حين عاد أمر بالقبض عليه وفوض أمره لوزيره الهندوسى «تودرمل» وللشيخ أبى الفضل فعذباه حتى مات ، وقيل قتل مخنوقا سنة ٩٩١ﻫ — ١٥٨٣ م . اﻫ من نزهة الخواطر ج ٤ ص ٢١٩ وما بعدها بتصرف .

(٢) هو الحسن بن الحسن السجزى ولد سنة ٥٣٧ ﻫ — ١١٤٢ م فى سجستان وتوفى أبوه وسنه خمسة عشر عاما ، وترك له بستانا ورحى فعاش منهما ثم أخذته الجذبة الربانية ، فترك كل شىء ، وسافر إلى سمرقند وحفظ القرآن ودرس بعض الكتب ، ثم أخذ الطريقة عن بعض رجال الطرق ، وأخذ يتنقل فى البلاد حتى وصل إلى لاهور بالهند ، ثم إلى دهلى ثم إلى أجمير واستقر بها ، وأظهر من الكرامات ، والوقائع الغريبة ماجعل الملايين يدخلون الإسلام ، وقد سمعت من المرحوم شيخ الإسلام مولانا مدنى أن تسعة ملايين دخلوا الإسلام على يديه ، ولأجل كراماته ، ويقول صاحب نزهة الخواطر : إن الحديث عن كراماته تقصر عنه الأقلام ويعتبر منبع الأولياء فى الهند وله مولد فى كل عام يحج إليه مئات الآلاف مسلمون وهندوس ، وتعتبر أجمير لدى العامة فى الهند من المدن المقدسة تقريبا ، حتى إن الجهال ربما يكتفون بالحج إليها ، ويعتبرونها المدينة الثالثة بعد مكة والمدينة ، وكل ذلك من أجل ولى الله الشيخ معين الدين الجشتى ، هذا وقد توفى سنة ٦٢٧ ﻫ — ١٢٢٩ م وله من العمر خمسة وتسعون عاما . رضى الله عنه وجزاه عن الإسلام خير الجزاء — نزهة الخواطر ج ١ ص ١٣٥

(٣) ولد سنة ٨٨٤ ﻫ — ١٤٧٩ م وقرأ على العلامة مجد الدين السرهندى وغيره من العلماء ، ورحل إلى الحجاز ، وكان بعد الحج يطوف بالبلاد العربية المجاورة ، ثم يرجع للحج . وهكذا ، حتى حج اثنين وعشرين حجة ، وقد اشتهر بالولاية فى الهند ، وكان يقيم على جبل قريبا من سيكرى على بعد ١٢ ميلا من «أكرا» واعتقد فيه «أكبر» فكان يتقرب إليه ويسأله الدعاء وتوفى سنة ٩٧٩ ﻫ — ١٥٧١ م

وبنى مدينة فى المكان القفر الذى كان يقيم فيه الشيخ قريباً من « أكرا » ؛ وجعلها عاصمة بلاده مبالغة منه فى تكريمه ، وسميت هذه المدينة « فتح پورسيكرى » وهكذا نرى أكبر مسلما خاضعا متدينا ، يحترم العلماء ويجلهم ويتقرب إلى الأولياء منهم ، وهذه بداية استمرت نحو عشرين سنة من حكمه ، ثم مع الأسف لم تتفق مع النهاية ؛ فقد تحول أكبر عن هذه الروح المسالمة الخاضعة إلى إنسان آخر ملأه الكبر والغرور ، ونفخ فيه من حوله من الشياطين ، فزينوا له أنه ظل الله فى أرضه ، وأنه لذلك لايصح أن يستمع لهؤلاء العلماء ، ولا أن يقلدهم ، بل الرأى مايراه هو ، وهو مجتهد ، بل إن مرتبته باعتباره إماما وخليفة فوق مرتبة المجتهدين ـ وهذه الفكرة قريبة جدا من فكرة الشيعة عن الإمام واجتهاده إن لم تكن هى ـ وكان هؤلاء الذين زينوا له ذلك هم المشايخ مبارك[1]

---

(١) قال عنه صاحب نزهة الخواطر ولد سنة ٩١١ هـ ـ ١٥٠٥ م . وكان مفرط الذكاء دخل أكبر أباد سنة ٩٥٠ هـ ـ ١٥٤٣ م وانتهت إليه الإمامة فى العلم والفضل ، وقال عنه صاحبه البدايونى إنه كان ذا أطوار مختلفة ، لحق بالمهدوية ثم بالطريقة النقشبندية ، ولما رأى أن أهل إيران تغلبوا ونالوا فى الدولة أعز منال صرف إليهم عنان العزيمة ، وهلم جرا ، توفى سنة ١٠٠١ هـ ـ ١٥٩٢ م ودفن بلاهور . أما ابنه الكبير أبو الفيض فقد ولد بمدينة أكرا سنة ٩٥٤ هـ ـ ١٥٤٧م تصفه نزهة الخواطر بأنه لم يكن له نظير فى الشعر والعروض والقافية واللغة والتاريخ واللغز والانشاء والطب وكانت له قدرة عجيبة فى الشعر والنثر الغير المنقوط المكون من الحروف المهملة ، وألف كتابا فى التفسير سماه « سواطع الالهام » من الحروف المهملة أيضا قال فى مقدمته من قصيدة طويلة مدحا له :

ألواح سحر أم طلسم مكرم لأسرار روح للسواطع ماهم

وكان يرمى بالزندقة والإلحاد قال البدايونى عنه : إنه مخترع الجد والهزل والعجب والكبر والحقد جمع فيه من الخصال الغير المرضية مالم يجمع فى غيره من النفاق والخبث والرياء والخيلاء والرعونة ، وكان غاية فى الفساد والعداوة لأهل الإسلام ، والطعن فى اصول الدين والصحابة ، وكان يحل المحرمات ويحرم الفرائض والمباحات ، صنف تفسير القرآن لتطهير عرضه عن ذلك بمشهد من الناس ، لكنه كان يصنفه فى حالة السكر ، وكانت الكلاب تطأ أوراقها . ذهب إليه السلطان أكبر ليعوده فى مرض موته فخرج يقول إنه كان يعوى عليه كالكلاب ، ومن عجيب أمر الناس وكرههم له أنهم أرخوا لوفاته جريا على عادتهم بهذه الكلمات « فيضى ملحدى » ، « خالد فى النار » توفى سنة ١٠٠٤ هـ ـ ١٥٩٥ م ودفن بأكرا أو لاهور .

أما أبو الفضل أخوه الصغير ، فقد ولد سنة ٩٥٨ هـ ـ ١٥٥١ م وتعلم على أبيه وأخيه ، وتضلع فى العلوم المختلفة ولاسيما العلوم الحكمية . ودعاه أكبر مع ولده إلى أكبر أباد =

ابن خضر الناگورى وولداه: أبو الفيض . وأبو الفضل وغيرهم ، وقد ذكرت بعض كتب التاريخ عنهم أنهم كانوا من الشيعة وأن التحول فى عقيدة أكبر حدث بعد اتصالهم به ودخولهم فى حاشيته، وقد كانت نفس أكبر مستعدة لمثل هذا التغرير . ميالة إلى التحرر من قيود الشريعة وإلى الاستماع للأديان الأخرى: اليهودية والمجوسية والنصرانية والوثنية ، وقد بنى فى مدينته الجديدة مكانا سماه « عباد تخانه » أى مكان العبادة التى اخترعها أكبر ومن حوله ، وهى عبادة متحررة من مراسم الإسلام . ومقتبسة من الأديان كلها ، وكأنه أراد بذلك خلق دين جديد يجمع عليه شعبه المتعدد الأديان كما جمعهم حكمه وسلطانه ، وسماه « الدين الإلهى » ، ونادى أكبر بأن الدعوة الإسلامية قد مضى زمنها بمرور ألف سنة عليها ، وأنها أصبحت لا تتفق مع زمانه ، ولا يتعين أن يكون الحق معها ، بل يكون دائرا بين الأديان والمذاهب كلها ، ولذا فلا بأس من أن نقتبس منها كلها طريقة العبادة الجديدة . وانساق أكبر فى هذه الطريقة، فأنكر الوحى والجن والملائكة والحشر والنشر وسائر المغيبات ، وأنكر المعجزات ، وجوز التناسخ ، وحرم ذبح البقرة ، وأحل الخمر (١) والميسر والمحرمات الأخر

= العاصمة فى ذلك الوقت ، فأخذ يتقرب إلى أكبر مع أبيه حتى صار من أقرب الناس إليه وعينه فيما يشبه رئيس وزرائه ، اتهم مع أخيه وأبيه بأنهم الذين زينوا لأكبر ما صنع من الخروج عن الإسلام ، وكان أعلم وزراء الدولة التيمورية وأكبرهم فى الحدس والفراسة وإصابة الرأى وسلامة الفكر وحلاوة المنطق وبراعة الإنشاء ، له مصنفات كثيرة فى التاريخ وغيره أشهرها « أكبر نامه » فى تاريخ أكبر «وآئين أكبرى» أى قوانين أكبر ونظمه ، كما ترجم حياة الحيوان للدميرى ، وكليلة ودمنه ؛ وكثيرا من الكتب الأخرى . لما قتله «راجا نرسنك ديو» بتدبير «جهانكير» لسوء العلاقة بينهما حزن أكبر عليه كثيرا وانتقم من الراجا شر انتقام ، وكان قتله سنة ١٠١١ هـ — ١٦٠٢ م (نزهة الخواطر ج ٥ ص ٢٤ وما بعدها . ملخصا) .

(١) هكذا ذكرت بعض كتب التاريخ التى نقلنا عنها هذا كما ستعرفها فى آخر هذا الكلام، وقد مر فيما نقلناه عن مجلة ثقافة الهند أنه حرم الخمر . . ولعل هذا الخلاف ناشىء من حب بعض المؤرخين له أو تحاملهم عليه ، أو لعل ذلك كله حصل فى أوقات مختلفة فى حكمه الذى بلغ أكثر من خمسين سنة .

وأمر بإيقاد النار فى حرمه الخاص على طريقة المجوس[1] ، وأن تعظم الشمس حين طلوعها على طريقة مشركى الهند ، وبدل الكلمة الطيبة ، « لا إله إلا الله محمد رسول الله » إلى « لا إله إلا الله ، أكبر خليفة الله » فلما رأى الفتنة العظيمة بإشاعة تلك الكلمة أمر أن يتفوه بها فى بلاطه ، وكان يسجد للشمس والنار فى كل سنة يوم النيروز ، مع العناية بالاحتفال به فى أنحاء المملكة ، ورسم القشقة على جبينه[2] كما اتخذ كثيرا من العادات الخاصة بالهندوس وأشاعها بين شعبه ، وكان يحث أتباعه على ترك التقليد ، يعنى به دين الإسلام قائلا : إن واضعه من فقراء الأعراب ، وأمر ألا يقرأ من العلوم العربية إلا النجوم والحساب والطب والفلسفة[3] . ويقول الأمير شكيب أرسلان فى كتابه حاضر العالم الإسلامى ، بعد أن سرد مثل ما تقدم ص ٣٠٧ « ولم يغفل أكبر عن النصرانية ، ففى سنة ١٥٨٠ م أرسل إلى رهبان البرتغال الذين كانوا فى « جوا » يستقدم منهم من يفقهه فى عقيدتهم فلبوا دعوته وأرسلوا إليه إنجيلا أمر بنقله إلى الفارسية ليفهمه ، وبعد ذلك عهد إلى الرهبان اليسوعيين بتثقيف ابنه مراد ، ثم أذن للجزويت بفتح مدارس فى أكرا ولاهور وغيرهما وكان يذهب إلى إلى كنائسهم . ويقول مؤرخوهم إنه كان يجثو على ركبته »

ثم نقل عن دائرة المعارف الإسلامية الفرنسية بشأن عقيدة أكبر ما يأتى :

« لا مشاحة فيه أنه ترك الإسلام ، ووضع عقيدة سماها « التوحيد الإلهى » وهى اعتقاد مجرد بالإله ، مما اتفقت عليه كل المذاهب ، ولكن لما كان الناس يريدون رمزا ، وتحقق أكبر أنهم يريدونه ، فقد أوصاهم بأن يجعلوا الشمس

---

(١) ذكر المؤرخ الفرنسى « رينيه غروسه » أنه جىء له بالنار المقدسة من إيران ، ولهيبها محفوظ من عصر إلى عصر منذ أيام رعاة الإيرانيين القدماء ، فاستقبلها بالتعظيم الفائق فى بلاطه . (نقلا عن حاضر العالم ص ٣٠٩ ج ٤) .

(٢) اعتاد الهنود حتى الآن أن يضعوا على جبينهم نقطة ملونة من الزعفران وغيره حتى أصبح ذلك شعارا لهم ، ورأيت غالبهم يخططون جبينهم بخطوط أفقية حول النقطة هذه ، معتقدين أن ذلك لحصول البركة ، وتسمى هذه النقطة عندهم « قشقه » وتختلف حسب أتباع كل مذهب كما سبق فى الكلام عن المذاهب الهندوسية .

(٣) نزهة الخواطر بتصرف ، نقلا عن تاريخ البدايونى المعاصر لأكبر فى كتابه « المنتخب »

رمزا للإله . وكذلك النار التي هي من طبيعة الشمس .

وقد كان لهذه الضجة التي أثارها أكبر بدينه الجديد آثار بالغة المدى في دولته ؛ فقد خرجت عليه بعض الولايات ، وحاربته ، كما ناصبه كثير من العلماء العداء وهاجموه ، وهاجموا آراءه ومؤيديه ، فشتتهم ونفى بعضهم إلى الحجاز ، مثل الشيخ عبد الله السلطانپوري[1] والشيخ عبد النبي الكنكوهي الذي كان يتبرك به من قبل ، وذلك بعد أن امتنعوا عن التوقيع على بيان حرره الشيخ مبارك بن خضر الناگوري وولداه ، وفيه يشهد العلماء بأن أكبر ظل الله في أرضه ، وأن له أن يشرع . . الخ . ووقع عليه نحو ثمانية عشر عالما بعضهم بالرضا ، وبعضهم بالإكراه ، ورأينا المؤرخين له ، يبرر بعضهم عمله ، وبعضهم يحمل عليه وعلى مؤيديه حملة عنيفة متهما إياهم بالخروج عن الإسلام .

وأعتقد أن القارىء بعد ما عرف كل هذا عن أكبر لا يشك في أنه انسلخ عن الإسلام ، وأصبح تائها شريدا بين الأديان لا يستقر على دين ، ذلك حكم لا يحتاج إلى جدال ؟ ولا أدري كيف برر بعض العلماء الذين وقفوا بجانبه سلوكه المخالف للإسلام ، وعلى أي أساس إسلامي آزروه وعاونوه ؟!

إن للمؤرخين الذين اتهموا رءوس هذه الحركة بالزندقة والإلحاد كل العذر في هذا الاتهام ، فما كان لمسلم أن يقر مثل هذه التصرفات ، فما بالك بعلماء كانوا أكبر سند لها ، وفي مقدمتهم كما سبق : الشيخ مبارك بن خضر وولداه .

قال الأمير شكيب بعد أن سرد كثيراً من أعماله المخالفة للإسلام : « عند

---

(١) ولد في سلطانپور في البنجاب ، واشتغل بالعلم من صباه ، ثم لما شب اشتهر أمره فولاه همايون شاه شياخة الإسلام ، كما كان شير شاه وابنه سليم يعظمانه ، ويتلقيان إشارته بالقبول ولقباه بصدر الإسلام ، ولقبه أكبر بمخدوم الملك ، وعظمه غاية التعظيم ، ثم دس له الشيخ مبارك بن خضر كما دس للشيخ عبد النبي الكنكوهي زميله عند أكبر ، فغضب عليه وأخرجه إلى الحرمين سنة ٩٨٧ هـ ـ ١٥٧٩ م ، فاستقبل في مكة استقبالا طيبا من جميع العلماء وعلى رأسهم ابن حجر المكي ، ثم بعد مدة عاد إلى الهند فأمر أكبر بوضع السم له حين وصل إلى كجرات فتوفي مسموما سنة ٩٩٠ هـ ـ ١٥٨٢ م اهـ (نزهة ج ٤ ص ٢٠٦ باختصار) .

مايقرأ الإنسان أعماله هذه يعرف أن الرجل قد تمجس ، وانتهى النزاع وقضى الأمر ، ولكن حين تجده معجبا بالبوذية والبرهمية والنصرانية والتصوف والتشيع ، تعلم أن الرجل وإن كان ساعيا بزعمه وراء الحقيقة فهو مختلط العقل فى المسألة الإلهية ، والجنون كما قيل فنون ، ثم علق الأمير على تأييد ثمانية عشر شخصا من حاشيته له تعليقا لطيفا يستحق أن نسجله هنا ، قال « لقد ذكرنا ذلك بالذى روى عنه الشهرستانى فى « الملل والنحل » أنه انفرد بمذهب وتبعه سبعة أشخاص لاغير ، فبينما كان يجادل ويناضل مرة عن مذهبه ، قال له مناظره : « أترى البارى تعالى خلق جنة عرضها السموات والأرض لك ولهؤلاء السبعة الذين تبعوك ؟ ! » .

وقد كان لموقف « أكبر » هذا من الدين صدى طيب فى نفوس المؤرخين الأوربيين وغيرهم ممن لايدينون بالإسلام ، ويسرهم دائما مثل هذا السلوك من المسلم ، لا سيما إذا كان فى مقام أكبر وخطره ، حتى افتخر بعض الكتاب الأوربيين بأنه كان أكثر ميلا إلى الكثلكة منه إلى أى دين أو مذهب آخر .

ونحن بالطبع لا نجاريهم فى هذا ، وإنما نأسف لأن ملكا عظيما مثل أكبر قد قام بخدمات عظيمة فى الهند لا تزال محل إعجاب وتقدير ، ومع ذلك لم يقدم أية خدمة لدينه ، بل كان على العكس هادما له ، وإن كان ذلك لا يمنعنا من تقديره كملك سياسى عظيم ، يعتبر فخر الملوك المغول ، أوملوك الشرق فى عظمته وقدرته كحاكم قوى ، شهدت الهند على أيامه عهدا من الأمن والاستقرار والازدهار الفكرى والعلمى والفنى قلما شهدته فى عصر من العصور .

أكبر والحركة العلمية والفنية

نشأ أكبر نشأة لم يتح له فيها أن يتعلم كما يتعلم أمثاله ، وحين ارتقى العرش لم يتجه إلى تحصيل الضرورى من التعليم ، فكان كما قال مؤرخوه : جاهلا بالحروف ! ! لكنه مع ذلك كان على قدر كبير من الذكاء والنبوغ وقوة الشخصية ، والرغبة فى الاستماع إلى العلماء والاستفادة منهم ، فكان مجلسه يحفل

دائما بالعلماء من كل مذهب ودين ، يتحدثون ويتجادلون فى كل ناحية من نواحى العلم ، وهو يستفيد منهم ، ويستمع لهم ، وقد أتاح لمجالسه العلمية حرية البحث مهما كانت نتيجته . فشهد مجلسه مناظرات ومحاورات دينية وفلسفية وتاريخية ؛ واستمع هو إلى علماء الأديان كلها ، يحاول كل منهم إظهار دينه بمظهر القائم على الحق وحده ، ثم أرسل لعلماء المسيحية الذين هبطوا الهند للتبشير فى ظل القوات الغربية البرتغالية وغيرها ؛ لكى يشرحوا له دينهم وطريقتهم ، ففرحوا بهذا الاتجاه ، واتصلوا به وأعطوه إنجيلا ، أمر بترجمته إلى الفارسية حتى يفهمه ، وهكذا استمع لكل الأديان ، ولعل ما سمعه من الحديث المنمق عن كل منها ، مع فقدانه الحصانة الإسلامية لعدم التعليم فى صغره جعله يتذبذب بينها جميعا ، ويقبل ما زينه له المغوون من حوله .

ولم يكن من الغريب وهذه روحه العلمية أن تنشط فى عهده وبأمره حركة التأليف . وقد عنى المؤرخون الذين أرخوا له بذكر هذه الكتب ومؤلفيها ، ونحن هنا نذكر بعضا منها ؛ لنعطى القارىء صورة من تنوع الثقافة ، والتأليف فى هذا العهد . . فمنها :

١ — ترجمة حياة الحيوان للدميرى بالفارسية ، ترجمها أبو الفضل بن المبارك سنة ٩٨٣ هـ - ١٥٧٥ م .

٢ — وترجمة الإنجيل بالفارسية ، ترجمه أبو الفضل أيضا سنة ٩٨٦ هـ ١٥٧٨ م .

٣ — وترجمة كليلة ودمنة من الفارسية الغير المتعارفة للفارسية المعروفة لأبى الفضل .

٤ — « آئين أكبرى » أى قواعد ونظم الحكم الأكبرى ، ألفه أبو الفضل سنة ١٠٠٤ هـ .

٥ — « أكبر نامه » أى تاريخ أكبر ، ذكر فيه تاريخ الهند فى أيام ملوك المغول حتى أكبر .

٦ — ترجمة «ليلاوتى» فى الحساب والمساحة من السنسكريتية لأبى الفيض ابن المبارك.

٧ — ترجمة «اتهربن ڤيدا» من الكتب المقدسة الهندية ترجمه من السنسكريتية للفارسية عبد القادر البدايونى[1] وبهادن الهندى، وأبو الفيض وإبراهيم السرهندى.

٨ — ترجمة «مها بهارت» المقدس عند الهنود للفارسية، ترجمه البدايونى والقزوينى وسماه السلطان «رزم نامه».

٩ — ترجمة «رامائن» أحد الكتب المقدسة التاريخية عند الهنود ترجمه البدايونى سنة ٩٩٧ هـ - ١٥٨٨ م.

١٠ — تاريخ الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين فى مصر والشام وبغداد للبدايونى بالفارسية.

١١ — ترجمة «تزك بابرى» أى مذكرات بابر التى كتبها عن يومياته ترجمها من التركية للفارسية عبد الرحيم بن بيرم خان سنة ٩٩٧ هـ - ١٥٨٨ م.

١٢ — ترجمة معجم البلدان من العربية للفارسية، قسمه السلطان على اثنى عشر رجلا منهم البدايونى.

١٣ — التاريخ الألفى فى تاريخ ألف سنة. أمر السلطان أصحابه بتصنيفه، واختار منهم سبعة رجال: فتح الله الشيرازى، وغياث الدين القزوينى، وهمام الكيلانى، والحكيم الكيلانى، وإبراهيم السرهندى، ونظام الدين

---

(١) من مفاخر العلماء فى أيامه، ولد سنة ٩٤٧ هـ — ١٥٤٠ م ودرس علوم زمانه ونبغ فيها وأكثرها قرأها على الشيخ مبارك بن خضر الناكورى وصحب أبا الفضل وأبا الفيض من أبناء أستاذه نحو أربعين سنة. اتصل بأكبر شاه فقربه إليه واتخذه إماما لصلواته وأغدق عليه وأمره بتأليف وترجمة كتب كثيرة تعتبر من أمهات الكتب فقام بها على خير وجه، ويعتبر كتابه فى التاريخ «منتخب التواريخ» من أهم المؤلفات التاريخية وأصدقها وقد نقد فيه أكبر ومن حوله نقداً مراً دون أية مراعاة أو خوف وتوفى سنة ١٠٠٤ هـ — ١٥٩٥ م وسنه سبع وخمسون سنة .. اهـ من نزهة الخواطر.

الأكبر أبادى ، والبدايونى ، وأمرهم أن يكتب كل منهم فى أسبوع أخبار سنة . ثم أمر السلطان أحمد بن نصر التتوى بإتمامه ، فكتب إلى أيام جنكيز خان ، ولما قتل أمر جعفر بيك بإتمامه فأتمه إلى أيام أكبر ، وكتب الخطبة له أبو الفضل .

١٤ — الطبقات الأكبرية فى التاريخ لميرزا نظام الدين الهروى .

١٥ — منتخب التواريخ للبدايونى فى ثلاثة مجلدات : الأول فى أخبار الملوك من سبكتكين إلى همايون ، والثانى فى أخبار أكبر إلى أربعين سنة من جلوسه على العرش ، وهو الكتاب الذى هاجم فيه أكبر وأبا الفضل وعقيدتهما دون أى خوف ، والثالث فى ذكر من عاصره من الشيوخ والعلماء والشعراء والأطباء .

١٦ — حل لنظم الشاهنامه للفردوسى نثره تقى الدين التسترى بأمر أكبر ، وعدا هذه ألفت وترجمت كتب كثيرة أخرى من الهيئة والنجوم والموسيقى وغيرها ، وإن الإنسان ليعجب لهذه الحركة العلمية الواسعة التى بعثها أكبر حوله . وإن كان هو فى عرف رجال التعليم جاهلا بالقراءة والكتابة .

* * *

وتتصل الحركة أو النهضة الفنية بالحركة العلمية التى رعاها أكبر ونماها ، وليس من الغريب على امبراطور واسع الأفق مثله أن يعنى بالفن حتى يزدهر فى بلاطه ازدهارا لم يشهده من قبل فى بلاط الملوك المسلمين بالهند ، وقد كان لآباء أكبر وأجداده عناية ملحوظة بالفن . رأينا ذلك عند ما جاء تيمور إلى الهند وأعجب بفن العمارة فيها ، فأخذ الفنانين معه إلى سمرقند ، ليشيدوا بها مسجده المشهور ، وكذلك رأينا بابر رجلا فنانا معجبا بالطبيعة ومظاهرها ، وإن كان اشتغاله بتأسيس الدولة فى الهند لم يتح للفن ازدهارا وسط المعارك والدماء ، ولما جاء ابنه همايون شغلته الحروب التى انتهت بفراره من الهند إلى إيران . « وهناك تعرف على كثير من رجال الفنون الذين كانوا يعملون بالبلاط الإيرانى ، وفى تبريز التقى بالمصور عبد الصمد الشيرازى ومير سيد على ، واستدعاهما سنة ١٥٤٩ م إلى بلاطه فى كابل حين استولى عليها ،

وهناك صورا له قصة الأمير حمزة الخيالية ، وهى قصة إيرانية مشهورة اشتملت على ألف وأربعمائة صورة على القماش ، وتحتفظ متاحف ڤينا ولندن بأكبر عدد منها ، ولما جاء أكبر وتميز عهده بالهدوء والاستقرار والطول أيضاً لقى الفن أكبر رعاية عنده ، لاسيما فن التصوير، فلما أنشأ مدينة « فتح پور سيكرى » ، وجعلها عاصمة له زين قصورها برسوم حائطية جميلة ، عملها له فنانون من إيران والهند ، وخطا أكبر خطوة أخرى فى تشجيع التصوير ، فأنشأ لذلك معهدا حكوميا التحق به حوالى مائة فنان ، كانوا يعملون تحت إرشاد المصورين الإيرانيين ، وجمعت لهم الصور الفنية الرائعة من إيران ليحاكوها ، فأنتجوا كثيراً منها ، كما تم فى عهده ما بدأ فى عهد أبيه من تصوير قصة الأمير حمزة السابقة ، ويوجد بعض هذه الصور فى متاحف أوربا وأمريكا ، على أن فن التصوير الأوربى الحديث الذى وصل أكبر عن طريق إرساليات الچزويت قد حاز إعجابه ؛ ففى سنة ١٥٨٠ م أهدته نسخة من الإنجيل مزينة برسوم ، كما أهدته صورا للسيد المسيح وأمه العذراء » .

« وبمتحف المتروبوليتان بأمريكا عدد من صور المخطوطات الجميلة من عصر « أكبر » وتحمل إمضاءات مشاهير الفنانين حينذاك ، وأجدرها بالذكر ثلاث صور فى مخطوطة « رزم نامه » وهى الترجمة الفارسية للملحمة الهندية « مها بهارات » ، وأكثر هذه الصور الثلاث إبداعا صورة تمثل « كرشنا » وهو يحاول أن يرفع أحد الجبال فى سيلان » .

ذلك باختصار ما كتبه المؤلف الأمريكى « ديماند » ، وترجمه الأستاذ أحمد محمد عيسى[1] عن عناية أكبر بالتصوير ، وهذا يعطينا فكرة عامة عن عنايته بنواحى الفنون الأخرى تغنينا عن الكلام عنها . إذ المهم أن نعطى القارىء صورة عن هذا الامبراطور العظيم ونواحى نشاطه وعنايته بمختلف أنواع الثقافات .

ولعلى بعد هذا الحديث الطويل عن أكبر أكون قد وفقت فى تصوير شخصيته العظيمة التى لا تقل فى نظر التاريخ عن أعاظم الرجال فى العالم ..

(١) فى كتاب الفنون الإسلامية ص ٦٩ وما بعدها.

جهانگير [1]

حكم من ١٠١٤ هـ - ١٦٠٥ م إلى : ١٠٣٧ هـ - ١٦٢٧ م



كتب جهانگير في يومياته التي كتبها بخطه والمسماة « توزك جهانگيرى [2] » يقـول :

« بفضل الله وعونه جلست على عرش الملك فى دار الخلافة « أكرا » يوم الخميس الثامن من جمادى الأخيرة سنة ١٠١٤ هـ (١٧ اكتوبر سنة ١٦٠٥م) وأنا فى الثامن والثلاثين من عمرى ، وكان لا يبق لوالدى أحد من الأولاد حيا ، إلى أن بلغ الثامن والعشرين من حياته ، فكان يتوجه إلى الصالحين من عباد الله ، ويلتمس أولياءه ليدعوا له بولد ، وقد عاهد نفسه ونوى لو رزق غلاما يعيش فإنه يزور قبر « معين الدين چشتى » منبع الأولياء فى الهند - ماشيا

---

(١) اسمه محمد سليم ولما تولى العرش تلقب بلقب « نور الدين محمد جهانگير » ومعنى جهانگير آخذ الدنيا أو مالكها .

(٢) نقلا عن مقال لمولانا عبد الحميد نعمانى فى ثقافة الهند سبتمبر ١٩٥٠ .

على رجليه ، قطعا مسافة مائة وأربعين فرسخا من العاصمة أكره إلى أجمير بكل إجلال واحترام ، فولدت ظهيرة يوم الأربعاء فى السابع عشر من ربيع الأول سنة ٩٧٧ هـ - « ١٥٧٠ » م .

وكان هناك جبل « سيكرى » على مقربة من « أكره » اتخذ الشيخ سليم سفحه سكنا له ، وكان معمرا مرتاضا ، بلغ فى الورع والصلاح مابلغ ، والتف حوله من أهالى سيكرى كثير من الناس مسترشدين به ، فلما سمع والدى عن الشيخ وعن كماله فى أحواله - وكان فى تلك الأيام أشد ما يكون رغبة فى الولد - أقبل على الشيخ ذات يوم ، وسأله مذهولا : كم يكون لى من الأولاد أيها العارف الجليل ؟ فأجاب الشيخ : إن الله يهب لك ثلاثة أولاد . فقال أبى : إنى نذرت أن أفوض الأول منهم إليك ليتربى تحت نظرك وعنايتك ، فتقبل الشيخ سليم وقال : قد جعلناه لنا سميا ، فلما حان أوان الوضع أرسل أبى أمى إلى دار الشيخ فى قرية « سيكرى » فسمانى بعد ميلادى « محمد سليم » ولقبنى بالسلطان ، وقد جعل مولدى فيما بعد دار الحكومة (العاصمة) ، تبركا به فبدلت أرض سيكرى غير الأرض ، وانقلبت غاباتها التى كانت تسكنها السباع والأسود والحشرات جنات وروضات ، ذات شوارع جميلة ، ومبان ضخمة وسماها « فتح پور » بعد ما فتح « گجرات » .

وأم سليم هى بنت راجا جيپور « بهارى مل » الهندوسى تزوجها أكبر سنة ٩٧٠هـ-١٥٦٢ م ، وقد تربى تربية طيبة « فسمع الحديث من الشيخ محمد سعيد الهروى الشهير بمير كلان ، وقرأ عليه شيئا من العلم بأمر والده ، كما سمع من المفتى صدر جهان البهانوى (١) » ، ولعل هذه التربية مع تأثير الشيخ سليم فيه قد وجهته وجهة غير وجهة أبيه ، فكان صحيح العقيدة فى الإسلام يحترم العلماء ويكرمهم .

كان أكبر من أخويه : مراد ودانيال : وزوجه أبوه بإحدى بنات

---

(١) نزهة الخواطر جـ ٥ ص ١٢١ .

راجوات الهند ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ـ ، وكان بينه وبين أبيه شيء من الجفاء، حيث كان يحس بعدم حبه له كما يحب أخويه ، كما اعترف بذلك فى مذكراته ، وقد ولاه أبوه ولاية « إله أباد » ، ولعل شعوره من أبيه بهذا الجفاء جعله يخرج عليه حينما كان مشغولا بحرب الدكن ، وإن لم يسر فى هذا الخلاف إلى نهايته ، وقد خلا له الجو من أخويه : مراد ودانيال ، حيث ماتا فى الدكن ، فلم يبق إلا هو وارثا للعرش ، وهذا هو الذى جعل أباه يتجه إليه ويصفح عنه ، ويزوده بنصائحه قبل وفاته ، ولكن ظهر له منافس صغير فى الحكم ، وهو ابنه الأكبر «خسرو» الذى كان يطمع أن يلى الحكم بعد جده ، وربما كان يستغل ثورة أبيه على جده ، ويعرف الجفوة التى بينهما ، فأداه ذلك إلى الطمع فى الحكم متخطيا أباه !! وإن كان ذلك لم يتم له، إلا أننا رأيناه فى عهد أبيه يخرج عليه وتقع الحروب بينهما حول الحكم ، وحينما ورث « نور الدين جهانكير » الملك من أبيه ـ وهذا هو الاسم الذى اختاره لنفسه عندما ولى الحكم ـ ورث ملكا واسعا ثابت الدعائم ، موطد الأركان ، ساعدت السنون الخمسون التى قضاها أبوه فى الحكم مع حسن سياسته على توطيده ، ومع ذلك فإن حكمه لم يخل من بعض المتاعب التى أثارها ابنه خسرو فى البنجاب ، ورانا سنگ الراجبوتى فى « أودى پور » وقد ظل منذ أيام أبيه متمردا ، وكذلك القائد عنبر فى أحمد نگر بالدكن وكما حدث فى كابل وقندهار .

ففى الدكن قامت ثورة فى « أحمد نگر » بقيادة « عنبر الحبشى »(١) ، بعد

---

(١) كان عنبر من العبيد الحبش الذين يجلبون إلى الهند، ودخل فى جيش عادل شاه البيجابورى ولكنه تركه بعد حين، وضاق به الحال حتى عثر على أحد الكنوز، فأخذ ينفق عن سعة ويجمع الناس حوله فاستدعاه حسين نظام شاه ملك أحمد نگر فارتفعت منزلته عنده وأصبحت السلطة بيده، ولما مات الشاه وخلفه ابنه الصغير كان عنبر هو الملك الحقيقى الذى ساس البلاد سياسة حكيمة حازمة حتى ازدهرت فى أيامه، وأكثر من شراء العبيد الأحباش وعلمهم ، فصاروا قوة كبيرة فى الدولة بعلمهم وشجاعتهم . وكان كثير الإحسان إلى العلماء والصوفية والفقراء . شجاعا استطاع أن يقف أمام المغول ويصدهم ويحتفظ لبلاده باستقلالها مدة كبيرة، وقد توفى سنة ١٠٣٥ هـ ـ ١٦٢٥ م ، ودفن قريبا من دولت أباد ، وبنى على قبره قبة عظيمة اهـ ملخصا من نزهة الخواطر جـ ٥ ص ٢٩١ .

ما خضعت للمغول فى أيام أكبر بعد حروب طاحنة ، فأرسل جهانگير إليها خان خانان لإخمادها ، ولكنه لم ينجح ، وكان عنبر قد اتخذ مقرا له فى مدينة « أورنگ أباد » ، وامتاز بحسن التدبير والشجاعة والنشاط ، فرأى أنه لا يستطيع مواجهة جيش المغول ، فلجأ الى حرب العصابات ، واعتمد فى إضعاف عدوه على المباغتات ، حتى اضطره الانسحاب من أحمد نگر إلى برهانپور فى ولاية خانديس ، وبذلك ضاعت أحمد نگر من المغول ، ولما وصلت هذه الأنباء إلى جهانگير سنة ١٠١٨ هـ — ١٦٠٩ م أعد جيشا عظيما ، وجهزه بكل ما يحتاج إليه ، وجعل على رأسه « برويز » و « خان جهان » يعاونهم « راجا مان سنگ » من ولاية برار فى الدكن ، وعبدالله خان أزبك من گجرات على أن يلتقوا جميعا فى أحمد نگر ، ولكن اتفق أن عبد الله خان أسرع إلى هناك قبل أن يصل الآخرون ، فباغته «عنبر» بطريقته حتى اضطره إلى الرجوع ، وكان لذلك تأثيره فى الجيوش الأخرى التى كانت تتقدم الى أحمد نگر ، حيث جبنت عن التقدم ، وأقام « برويز » فى «برهانپور» واستمر عنبر مسيطرا على أحمد نگر يوطد أركان المملكة ويدعم فيها سلطانه .

ولكن جهانگير لم يسكت طويلا على هذا ، فأعد ثانيا جيشا كبيرا ، وجعل على رأسه ولده « خرم »(١) القائد الشجاع ، وذهب السلطان إلى « مالوا » فى وسط الهند ليكون قريبا من الدكن حيث تدور المعارك ، ومن حسن حظ « خرم » أن الأمور حول « عنبر » قد تغيرت ، ودب فى البلاد الفساد والفتن ، فسهل ذلك مهمته حين رأى عنبر أن يتنازل عن بعض البلاد ، ويعقد الصلح ، وتم ذلك فى سنة ١٠٢٥ هـ - ١٦١٦ م .

وفى « أودى پور » براجپوتانا كان « رانا سنگ » لا يزال متمردا على الدولة ، مسببا لها بعض الاضطرابات فى تلك الناحية ، فأرسل له السلطان جيشا بقيادة « مهابت خان » وكان الرانا يحارب ويفر إلى الجبال ، ويعتصم بها وبقلاعه المنيعة فيها ، فلم يصب مهابت خان نجاحا نطمئن الدولة إليه ، فأرسل السلطان ابنه «خرم» سنة ١٠٢٣ هـ - ١٦١٤ م ، فاستطاع أن يدخل « أودى پور » ويضيق

(١) بضم الخاء وتشديد الراء ومعناها مسرور .

الخناق على الرانا والطرق المؤدية إليه ، ودام الحصار عليه مدة اضطر فيها للتسليم وتقديم الطاعة ، فعامله السلطان معاملة حسنة حين قدم إلى دهلى ، وانتهى أمره .

أما « خسرو » ابنه فقد عرفناه طامعا فى الملك منذ أيام جده بدلا من أبيه ، وكان بعض الأمراء الكبار يؤيدونه ، ولما صار الملك إلى أبيه دفعه ذلك إلى الخروج عليه ، ففر إلى بنجاب معلنا الثورة ، فأسرع جهانگير يتعقبه ، وأرسل له جيشا بقيادة الشيخ فريد بخارى الذى عينه وزيرا للجيش ، فسار إلى لاهور ، وأخذ يتعقب « خسرو » حتى فر إلى أفغانسان ، وهناك قريبا من كابل اعترضه نهر « چناب » ، ولما أراد أن يستخدم السفن لعبوره أبى الملاحون عليه ذلك ، فاغتصب سفينة وقهر ملاحها على العبور هو ومن معه ، ولكن فى وسط النهر غافلهم الملاح ، وألقى بنفسه فى النهر ، وسبح بعيدا عنهم وتركهم وهم لا يحسنون الملاحة ، فظلت سفينتهم تتأرجح فى الماء حتى تمكنت قوات جهانگير من القبض عليهم ، وسيقوا إلى كابل مقيدين بالأغلال ، وانتهى أمره بالبقاء فى سجنه حتى مات ، وقيل إنه مات بالسم .

جهانگير يتزوج :

لم نكن نعنى كثيرا بأمر زواجه هذا لولا أنه كان بما صاحبه وما أعقبه من من أحداث ذا أثر كبير فى سياسة الدولة ، فقد أحب جهانگير زوجة أحد رجاله ويسمى « شير أفكن » أى صائد الأسد ، وقد التحق بخدمة أكبر ، ثم بخدمة جهانگير ، فولاه فى « بنگال » ولكنه كما يقول جهانگير فى مذكراته علم ما يأتى به من فساد لا تحسن مغبته ، فكتب إلى أحد قواده أن يبعث به إليه ولو بالقوة ، فلما وصل إليه رسول جهانگير واسمه « قطب الدين » وأبلغه رسالة السلطان . أدرك نواياه وما يخبأ له ، فغافله بضربة قضى عليه ، ولكن

رجال قطب الدين عاجلوه هو الآخر وجعلوه جذاذا[١] .

بعد ذلك ، أبدى السلطان رغبته فى التزوج بأرملته واسمها «مهر النساء»[٢] بنت غياث الدين الطهرانى ، وكان واقعا فى حبها من قبل ، ولكنها رفضت أولا ، ثم قبلت أخيرا فتزوجها ، وسماها «نورجهان» أى نور الدنيا ، وهنا



نورجهان

دخل فى بلاط السلطان عامل جديد ، أو عنصر جديد كان له أثر كبير فى توجيه سياسة الدولة ، وما حدث فيها من كثير من الفتن والأحداث .

(١) هكذا روى جهانكير نفسه . أما الروايات الأخرى فتقول إنه أرسل قطب الدين ليقنع «شيرأفكن» بتطليق زوجته الجميلة ليتزوجها السلطان ، فلما سمع هذا الكلام رفض وثار وقتل قطب الدين ، وهذه الرواية أقرب إلى التصديق للظروف التى صاحبتها ، ولتزوج جهانكير بزوجته بعد قتله

(٢) جاء أبوها إلى الهند من طهران ، وعرفت فى أكبر أباد العاصمة بالجمال البارع ففتن بها جهانكير وكانت من خيار النساء حسنا وعلما وعقلا ، اخترعت أمورا كثيرة فى الزى والحلى والعطور ، وكانت ماهرة فى الرمى والسياسة ، شغلت الدولة بأطماعها وأغراضها ، وأثارت الخلاف بين أبناء زوجها ، وانتهى أمرها بأن قبض عليها أخوها «آصف» حين مات جهنكير فى لاهور فمكثت فيها ، وأكرمها شاهجهان طول حياتها حتى توفيت سنة ١٠٥٥ هـ – ١٦٤٥ م ، ودفنت قريبا من مقبرة زوجها (نزهة ج ٥ ص ٣٠٢)

كان جهانكير يحب نورجهان ، وكان جمالها ساحراً ، فأصبح أسيراً لها منذ تزوجها وأصبحت هى وكأنها الملك الحقيق ، تصدر الأوامر بتوقيعها مع توقيع الملك ، وضربت النقود باسمها واسمه معاً ، وجلست فى شرفة قصرها تستقبل الأمراء والأعيان والأشراف كما يفعل الملك ، وأصبح لأهلها والمتصلين بها النفوذ الأكبر فى المملكة . فصار أبوها رئيسا للوزارة بلقب « اعتماد الدولة »[1] ، وأخوها « آصف » رئيسا لتشريفات الإمبراطور ، فانتقلت السلطة الحقيقية إلى نورجهان وأهلها والمقربين إليها ، بينما كان جهانكير متيما فى حبه غارقا فى شرابه ولهوه . فأتيح لها بذلك أن تتدخل فى ولاية العهد ، وأن تعمل على تفضيل أحد أبناء جهانكير على إخوته الآخرين . فترتب على ذلك فساد وحرب بين الإخوة .

كان « خرم » ابن الملك قائداً مظفرا ، وشخصية ممتازة بين أبنائه ، وكان أكبرهم وأقواهم نفوذا لدى الأمراء والجيش ولدى أبيه أيضا ، فعملت نورجهان على أن تستولى عليه فزوجته بابنة أخيها « آصف » ، وكان لها بنت من زوجها الأول الذى قتل ، فزوجتها لابن جهانكير الأصغر « شهريار » ثم بدأت تعمل على أن يكون زوج بنتها ولياً للعهد ، فثارت خصومة عنيفة بينها وبين « خرم » الذى رأى أنها تنتزع حقه الطبيعى فى الملك بعد أبيه ، باعتباره أكبر أبنائه والقائد الذى أخضع الثورات ووطد الملك لأبيه ، على أن جهانكير تركهم فى نزاعهم ، وأوصى بالملك من بعده لابن آخر هو « برويز » الذى لم تكن له كفاية بجانب أخيه ، فثارت ثائرة « خرم » وخرج على أبيه سنة ١٠٣٢ هـ - ١٦٢٢ م ، وحاول أن يستقل بولايتى بيهار وبنگال ، ثم ترك ذلك بعد ثلاث سنين ، واصطلح مع أبيه سنة ١٠٣٥ هـ - ١٦٢٥ م ،

---

(١) هو غياث الدين الطهرانى الشيعى ولد ونشأ بايران وقدم الهند فى أيام أكبر ، فتقرب إليه وتدرج فى المناصب ، ثم لما تزوج جهانكير ببنته هذه جعله وكيلا عنه وأطلق يده فى كل أمور الدولة ، توفى سنة ١٠٣١ هـ — ١٦٢١ م ودفن فى لاهور .. (نزهة ج ٥ ص ٣٠٢) .

وإن كان ذلك قد ترك أثرا فى نفس السلطان ، ثم نرى أن أحد القواد العظام « مهابت خان » — وكان قد تعقب خرم حتى قضى على ثورته وتولى أمر بنگال — كان محبوبا من الجيش ومن « برويز » ابن الملك بنوع خاص ، فساء ذلك نورجهان لأنها تحب « شهريار » زوج بنتها ، ونسبت إليه خيانات فى عمله ببنگال ، فاستدعاه جهانگير وكان فى طريقه إلى كابل لإخضاعها فحضر مع بضعة آلاف من جنوده الشجعان ، وهناك فى كشمير كانوا يعدون للجيش جسرا يعبر عليه ، ومر عليه أكثر جنود الملك ، وبقى منهم القليل ، فانتهز «مهابت خان» الفرصة وهجم فى جرأة على الملك وأسره سنة ١٠٣٦ هـ-١٦٢٦م وصار واقعا تحت سلطانه ، وإن كان قد أدى له ما يجب من التوقير والاحترام، وظل شهورا على ذلك حتى استطاعت نورجهان بسياستها وبما انضم للملك من جنود أن تخلص الملك من سيطرة مهابت خان ، ففر إلى الجبال وطلب العفو ، فرأت نورجهان أن تعفو عنه لتستعمله أداة ضد « خرم » الذى كان يريد الفرار إلى إيران ، ثم رجع إلى الدكن حيث مزارعه وإقطاعه ، فذهب إليه وبدلا من تعقبه انضم اليه ، وأصبح من أنصاره وفى هذه الأثناء توفى « برويز » فى « برهانپور » . وقام بعد عنبر الحبشى فى الدكن « ياقوت الحبشى » فأعلن الحرب على المغول ، فأرسل له جهانگير جيشا وذهب هو إلى كشمير ليقضى فيها بعض الوقت كما هى عادة السلاطين ، وهناك عاوده مرض « ضيق التنفس » وكان شديدا ، فعادوا به ولكنه اشتدت به العلة وتوفى فى الطريق فى صفر سنة ١٠٣٧ هـ - ١٦٢٧ م [١] .. ودفن فى لاهور . وهكذا كان زواجه من « نورجهان » ذا أثر فعال فى حياته وفى الأحداث والحروب التى منيت بها الدولة نتيجة لأطماعها وأهوائها .

---

(١) تاريخ الهند لسيد هاشمى ص ٢٠٧ وما بعدها .

جهانگير فى نظر التاريخ

ذلك الذى قدمناه يكشف لنا جانبا من حكم جهانگير ، وما قام فى عهده من مشكلات وحروب .

وهناك جانب آخر يستحق أن نقف عنده طويلا حتى نرسم صورة كاملة له ولعهده من جميع نواحيه ..

جاء « جهانگير » إلى الحكم بعد أبيه أكبر ، فوجد ملكا مستقرا ثابتا واسع الأرجاء ، لكنه وجد أيضا ما أثاره أبوه من أبحاث وأعمال وتقاليد من الناحية الدينية كانت موضع غضب الكثير من رعيته .

ولم يكن جهانگير على شاكلة أبيه من هذه الناحية ، فقد كان سليم العقيدة محترما للدين وتعاليمه وعلمائه ، فسارع بإبطال ما أثاره أبوه خلافا للشريعة الإسلامية ، فألغى فكرة الدين الإلهى والأفكار التى قامت حوله ، فهدأت بذلك نفوس المسلمين ، وإن كان لم يلغ التقليد الذى يقضى بالسجود وتقبيل[1] الأرض تحية للسلطان .

ومن المسلم به بين المؤرخين أن جهانگير لم يكن فى عزم أبيه وقوة شخصيته، بل كان يغلب عليه التردد والاستسلام لمن يثق به ، وكان مفرطا فى شرب الخمر وتعاطى الأفيون حتى أفسد صحته فى أواخر حياته ، كما كان مغرما بالصيد وتتبع الحيوانات ، وبحث خواصها واقتناء الغريب منها ، وكان مولعا كذلك بالتصوير بارعا فيه مشجعا عليه ، وكان حريصا على كتابة يوميات سجل فيها ما كان يمر به من حوادث فى صراحة ، وتسمى « توزك جهانگيرى » أى يوميات

---

(١) مما قرأته فى تاريخ الشيخ أحمد السرهندى المشهور فى الهند بأنه مجدد الألف الثانى للشريعة أن بعض الحاقدين عليه وشوا به عند جهانگير : أنه ما سجد للسلطان تكبرا ، فغضب عليه وسجنه فى قلعة « كواليار » وكان شاهجهان بن جهانگير مخلصا للشيخ ، فأرسل له بعض خاصته يزينون له أن يسجد للسلطان إذا حضر عنده ، وهو يضمن ألا عتب بدوء بعد ذلك . ولكن الشيخ أبى السجود فلبث فى سجنه ثم أخرجه السلطان بعد ذلك على أن يظل ملازما لمعسكره ، فلبث كذلك ثانى سنوات حتى إذا تولى شاهجهان ترك له الحرية فعاد لوطنه (نزهة الخواطر جـ ٥) .

جهانكير ، ويتمثل فيها أدبه وبراعته فى الكتابة ، إذ كان أديبا شاعرا ، وقد ترك كذلك كتابا بالفارسية ضمنه نصائحه لأبنائه ، ويسمى « پندنامه » لازال معروفا للآن ، كما أمر الشيخ محمد بن الجلال الگجراتى بترجمة القرآن للفارسية ترجمة متقنة لا تصنع فيها ولا زيادة .(١)

وتعتبر يومياته من أهم ما تركه ، فإن مذكرات يكتبها الملك يوما فيوما ، يدون فيها حوادثه وخواطره ، ويكشف للناس ما استتر عنهم وراء الحجب الملكية لتعتبر من أمتع ما يقرأ ، كما تعتبر من أهم المصادر لمعرفة اتجاهات الملك ونفسيته ، ومن خلالها يمكن للقارىء أن يعيش معه فى حربه وسلمه ، فى قصره الخاص ومع الناس ، فى لهوه وجده ، فى مجالس الحكم وفى ميادين الصيد يطارد الطيور والوحوش ، ويدون ملاحظاته عليها ، ومما يزيد هذه اليوميات قيمة مادونه فيها من أشياء تؤخذ عليه ولم يحاول إخفاءها ، لذلك رأيت أن أضع أمام القراء نماذج منها فى موضوعات متفرقة ليروا كيف كتب هذا الملك يومياته(٢) :

« اول ما أمرت به بعد جلوسى على العرش تعليق سلسلة العدالة ، لأطلع بنفسى على شكاوى المظلومين .

« نهيت عن أخذ الجباية على الشوارع والأنهار باسم « تمغا » و « مير بحرى » نظرا إلى ضعف الناس وعجزهم ، وخشية من أن يدخل بعض الجنود دور الأهالى قهرا ويؤذوهم ، ويلين القاضى وأمير العدل جوانبهما للمعتدين » .

« عملت من أول يوم نزلت فيه مدينة « أحمد أباد » على الجلوس كل يوم مع شدة الحر والسموم ـ بعد الفراغ من صلاة الظهر ـ فى شرفة على جانب البحر ساعتين أو ثلاثة ، لايحول بينى وبين الناس باب ولا جدار ولا حارس ، وما تخلفت يوما ـ حتى أيام ابتلائى بالوجع الشديد ـ عن حضور الشرفة ،

---

(١) نزهة الخواطر ج ٥ ص ١٢٢ وتاريخ هند لسيد هاشمى

(٢) نقلا عن مقال مترجم عنها فى مجلة ثقافة الهند سبتمبر سنة ١٩٥٠ م

ولو كان فى ذلك حرمان لنفسى من الراحة والهناء .

* بفضل الله اعتادت نفسى السهر ، فلا أدع النوم ينهب أوقاتى إلا ساعتين أو ثلاث ساعات فى اليوم غالبا، فأقضى ما بقى من اليوم فى الوقوف على أحوال الملك ، وذكر الله تعالى .

* لما توالت على الأنباء باعتداء بعض الموظفين والأغنياء على بنات بعض الضعفاء ، دعوت الشيخ بنارسى وغياث الدين خان وغيرهما من الأمراء الذين قصروا فى حفظ الأمن ، فلما حضروا إلى « أگره » أمرت بحلق رءوسهم ولحاهم ، وإركابهم الحمير والطواف بهم فى أزقات البلد وشوارعها » .

ولم يخف جهانگير شيئا مما يفعله ، فتجده يدون فى تفصيل مؤامرته مع « راجا نرسنگ ديو » لقتل الشيخ أبى الفضل كبير وزراء أبيه أكبر ، خوفا من أن يفسد بينهما مما سبقت الإشارة إليه ، ونراه يكتب فى تفصيل طويل كذلك شربه للخمر ، وكيف زينها له أحد حاشيته بعد أن امتنع عنها حتى بلغ الخامسة والعشرين ، وكيف صار بعد ذلك مدمنا إدمانا أتلف صحته وعقله ، وهو لا يستطيع التخلص منها حتى إذا ما ارتعشت يده من أثر الإفراط فى الشرب تولى غيره رفع الكأس إليه ، ثم كيف أدمن على الأفيون بعد ذلك حتى مات .

ومن يومياته التى تلفت النظر ما دونه عن رحلاته للصيد وملاحظاته الدقيقة لأنواع الطيور ، وعنايته بتدوين خصائصها الغريبة ، وتصويرها ورعايته لفن التصوير بوجه عام .

ويحسن أن نضع أمامك هنا بعض هذه اليوميات والملاحظات ، يقول :

* خطر ببالى مرة وضع قائمة لما صدته منذ بدأت الاصطياد إلى اليوم ، فأمرت بذلك مسجلى الأحوال وكاتبى الأخبار ، فوضعوا قائمة علمت منها أن مجموع ذلك ثمان وعشرون ألفا وخمسمائة واثنان وثلاثون رأسا من الحيوانات، منها سبعة عشر ألفا ومائة وسبع وستون رأسا من مصائدى المختصة بى .

ثم ذكر بعد ذلك عدد كل نوع من الحيوانات المصيدة .

* أخبرنى الصيادون بأربعة أسود ، فقمت إليها ومعى النساء و، استأذنتنى

« نورجهان » بعد ما رأت الأسود ، فأذنت لها فأسقطت أسدين ، وريثما نحن كذلك إذ أطلقت على الباقيين وأردتهما فى طرفة عين ، وما رأيت إطلاق الرصاص من الهودج وإصابة من غير خطأ كما رأيت ؛ فإن الهودج ينصب على الفيل ، والفيل لا يقيم ساكنا عندما يشعر بوجود الأسد بل يتحرك ، فطربت لذلك ، وأنعمت عليها بألف أشرفى ، وسوار من الماس يبلغ ثمنه مائة ألف أشرفى .

* أتوا بطائر ، من إحدى مزاياه أنه عندما يقبل الليل ينوط رجليه بفرع أو بخشبة تنصب لجلوسه ، فيبيت معلقا مقلوبا مغردا طول الليل ، ويستوى عند ما يطلع الفجر ، ولا يغترف من الماء شربة أبدا ، فإن الماء يفعل به فعل السم .

* أهدى نجل الملك « داور بخش » أسدا تآلف مع شاة ، فكانا فى قفص واحد ، وكان الأسد يعاشرها معاشرة الحب ، ولما احتجبت عنه مرة عز عليه وازداد قلقه واضطرابه .

* ألفت الأسود وأنست حتى أصبحت تختلف إلى الناس من غير سلاسل ، وهم يأمنون أذاها ولا يحفلون بقربها .

أما براعته فى التصوير وولعه به وتشجيعه له فيتبين مما كتبه عنه . يقول عن دقة إدراكه للصور :

* لو كانت هناك صورة رسم وجهها مصور ، ورسم العين والحاجب مصور آخر فإننى أفطن للذى رسم هذا وذاك .

وأهدى إليه مرة صورة تيمور فى مجلسه ومعه أولاده وحاشيته فسر بها كثيرا ، وقال عن مهديها « خان عالم :

« من حسن الحظ لخان عالم وسعادته أن وفق لهدية ثمينة كهذه تعد من نفائس الدهر ونوادره » ثم كتب يقول :

* أرسلت « بشن داس » المصور – وكان وحيد عصره فى صناعته – إلى

العراق مع خان عالم ليرسم صورة الملك . وصورة الأعيان والأمراء فى دولته ، وكانت الصورة التى وصلت منقوله عن أصل فى العراق .

وهذا يعطينا فكرة عن مدى عنايته بهذه الناحية ، وقد جاء فى كتاب الفنون الإسلامية[1] « اعتاد هذا الامبراطور أن يصحب فى رحلاته اثنين أو ثلاثه من مصورى البلاط ، لتسجيل مايعرض أثناء الرحلة من الحوادث الهامة » ثم ذكر أسماء الفنانين الممتازين فى عصره وإعجابه بفنهم .

ويقول « أصبح رسم الصور الشخصية فى عصر جهانگير شائعا إلى حد كبير ، وكثيرا مارسم الامبراطور ، إما بمفرده أو بين رجال حاشيته ... ومن بين الصور التى ترجع إلى عهده صورة رائعة بمتحف « المتروبوليتان » بأمريكا تمثل الامبراطور يراقب معركة بين فيلين ، كما يحتفظ بصور تمثل المتصوفين والزهاد وهم يتحدثون مع الأمراء والأشراف ، وبصورة أخرى تمثل جهانگير أثناء زيارته لأحد النساك » .

وتقول مجلة ثقافة الهند[2] عن تدوين هذه اليوميات :

« إنه سجل فيها مالا يستطيعه كاتب بخفة الفكر وخطف النظر مهما يكن مقتدرا ، فهو يكتب عن الولايات : طول البلاد وعرضها ، ويكشف عن مساحتها بالضبط . وعن البلاد ومواقعها وطقسها ، منتجاتها وحاصلاتها ، وعن أثمارها وفواكهها وأشجارها وغدرانها وبحارها وأنهارها ، ثم عن عوائد الناس ومعاشرتهم مسهبا مطنبا ملتقطا من هنا وهناك » .

« وقد أكسبته هذه الرحلات الكثيرة التى اختلط فيها بشعبه عن قرب بصرا بأمور رعيته ، ومعرفة بدقائق أحوالها ، ووقوفا على أمثل الطرق فى سياستها التى كانت تدعيما لسياسة أبيه فى عدم التفرقة بين رعاياه ، فكان الجميع يتمتع برعايته وعدله وعطفه » .

---

(١) تأليف . م . س . ديماند ، تعريب أحمد محمد عيسى ص ٧٢ باختصار .

(٢) سبتمبر سنة ١٩٥٠

جهانكير والأجانب الأوربيون

تولى جهانكير الحكم، وقد ظهر على رقعة الهند ثلاث دول أوربية تتناحر من أجل السيطرة على البلاد صراحة أو باسم التجارة.

كانت هذه الدول هى البرتغال التى مضى على عملها فى الهند أكثر من قرن، وطدت فيه أقدامها وصار لها مستعمرات، وانجلترا ممثلة فى شركة الهند الإنجليزية، وهولاندا ممثلة فى شركة الهند الهولاندية، وقد تأسست هاتان الشركتان: الأولى سنة ١٠٠٩هـ - ١٦٠٠م، والثانية سنة ١٠١١هـ - ١٦٠٢م، وبدأتا تنازلان البرتغال وتنافسانها، وكل شركة تحاول أن تحظى بأكبر نفوذ عند الحكام، وأوفر قسط من التجارة، وإقامة المراكز لها داخل البلاد. وقد بدأ الإنجليز والهولنديون عملهم بغاية الخضوع، متخذين أساليب التجار فى الحصول على أكبر نجاح فى عملهم، وقد فتح أكبر بلاطه لهم، شأنه مع كل الناس، ولم يكن هؤلاء السلاطين يظنون مطلقا أن هؤلاء التجار سينتزعون الحكم منهم يوما من الأيام، وكانوا لا يلقون بالا إليهم. فما هم فى ظاهر الأمر إلا تجار يلتمسون الرزق.

فلما جاء جهانكير نظر إليهم هذه النظرة، وكان ملك الإنجليز «جيمس الأول» قد عين سفيرا له عنده هو «هوكينز»، «وحين ظهر هذا السفير ممثلا لملك انجلترا، وشركة الهند الإنجليزية معا لدى بلاط جهانكير المغولى، قال له وزراء هذا الملك: إن ملك انجلترا ليس غير سيد جزيرة صغيرة، يسكنها صيادون بائسون، فلما مضت سنتان ونصف على إقامته هنالك من غير أن يظفر بطائل عند الملك المغولى ضرع إليه أن يعطيه كتابا لمولاه، فقال له الوزير الأول: إن مما لا يناسب قدر ملك مغولى أن يكتب إلى أمير صغير كملك انجلترا. بيد أن تلك الشركة الانجليزية لم تقنط، فنالت بالدسائس براءة من الملك المغولى سمح لها فيها بأن تتاجر فى سورت، فاتسعت أعمالها بالتدريج[1]».

(١) حضارة الهند لجوستاف لوبون ص٢٤٢.

وكان قد تغير سفير الانجليز وأصبح « توماس رو » بدلا من « هوكينز » ، فاستطاع بأساليبه أن يحظى بثقة السلطان سنة ١٠٢٤ هـ - ١٦١٥ م ، وكتب يقول : إنه اختلط مع عساكر الملك نحو ثلاث سنوات ، وكان يحظى بعناية خاصة من الملك ، وظل يسعى عنده لعدم فرض ضرائب على التجارة الانجليزية حتى فاز بمسعاه ، فوق أنه فى سنة ١٦١٦ م سمح لهم بتحصين ثغر سورت .

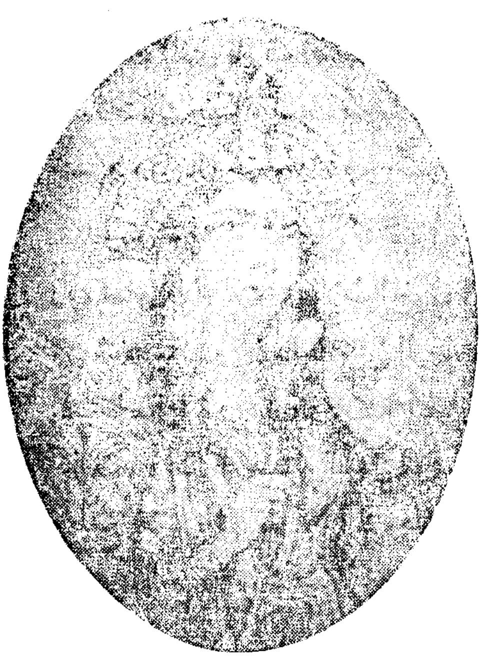
وفى عهده أيضا سنة ١٦١٦ - ١٦١٨ م افتتح الهولنديون مراكز تجارية فى سورت وأحمد أباد ، وبعض مواقع على ساحل الدكن وفى أكرا ، أما البرتغاليون فقد ركبهم الغرور حتى جرت الحرب بينهم وبينه سنة ١٠٢٢ هـ - ١٦١٣ م فأصيبوا بهزيمة ساحقة ، مما اضطرهم لتحسين أساليبهم ؛ فتحسن حالهم واستفحل أمرهم .

وهكذا بدأ الأخطبوط الأوربى يمد خيوطه فى عهد جهانگير . ولذلك يأخذ المؤرخون عليه أنه رفع الضرائب عن تجارة الأوربيين ، مما سهل لهم التغلغل فى البلاد ، ولم يكن أحد يظن فى ذلك الوقت أن الهند ستقع فى قبضة الانجليز فى النهاية .

« شاهجهان » (١)



شاهجهان



ممتاز محل

توفى جهانكير دون أن يستقر الأمر على خليفته من بعده ، وقد ترك ولدين يتنازعان الملك : « شهريار » الذى تؤيده « نور جهان » لأنه زوج بنتها ، « وخرم » الذى كان الجيش وأكثر الأمراء يؤيدونه ، وعلى رأسهم « آصف خان » (٢) أخو نور جهان ووالد زوجة خرم ، وكان هناك عدا هذين بعض الأمراء كابن خسرو وابن دانيال .

---

(١) هو الذى عرفناه سابقا باسم « خرم » بضم الخاء وتشديد الراء ، ومعناه مسرور وقد ورد ذكره باسم « كرام » فى مذكرة الأستاذ حبيب ، وهو خطأ أوقعته فيه الترجمة عن الإنجليزية . ومعنى شاهجهان أى ملك الدنيا ، وهو لقب أعطاه له أبوه بعد انتصاراته فى الحروب .

(٢) هو الأمير أبو الحسن بن غياث الدين ، نشأ فى بلاد الفرس ثم انتقل مع أبيه إلى الهند أيام أكبر . قربه جهانكير وولاه « جونبور » بعد أن تزوج بأخته ، وهو أبو « أرجمند بانو » أو ممتاز محل التى تزوجها شاهجهان والتى اشتهرت باسم « تاج محل » والتى بنى لها شاهجهان المقبرة الخالدة التى عرفت باسمها فى « أكرا » وكان له أثر فى تولية شاهجهان بعد أن قبض على أخته وعلى الأمراء . ولذلك قربه السلطان كثيرا حتى كان يحدثه « بالعم » وفوض إليه أموره . وكان عالما بارعا شجاعا كريما ، توفى سنة ١٠٥١ هـ — ١٦٤١ ودفن بلاهور .

وكان «خرم» فى الدكن شبه منفى ؛ فقد كانت هناك جفوة بينه وبين أبيه، وحينما وصله خبر وفاة أبيه بالبريد السريع عجل بالعودة إلى «أكرا»، فى الوقت الذى قام فيه آصف خان بالقبض على أخته «نور جهان» فى لاهور بعد احتكاك بينهما ؛ بسبب سعيها لتولية شهريار، كما قبض على شهريار وأبناء خسرو ودانيال حتى خلا الجو لختنه «خرم».

وكان خرم أو شاهجهان كما لقبه أبوه قائدا ممتازا. قال عنه السير «توماس رو» السفير الانجليزى فى بلاط المغول «إنه لم ير شخصية أثبت ولا أشد رزانة من شخصيته، وكان دائما عبس الوجه، ولم يشاهد مرة مبتسما، ولم يكن من المستطاع قراءة وجهه» وكان له أنصار كثيرون فى حاشية أبيه وفى الجيش كذلك، وهذا كله مهد له السبيل للوصول إلى العرش برغم مكايد «نورجهان» وطمع ختنها «شهريار»، ولما وصل إلى «أكرا» نودى به ملكا على الهند، وتسمى باسم «محمد شهاب الدين شاهجهان» وذلك فى جمادى الآخرة سنة ١٠٣٧ هـ - ١٦٢٨ م.

ولم تخل أيامه من المتاعب والحروب برغم ما كان يعم الدولة من الرخاء والرفاهية، فقد خرج عليه «خان جهان»[١] فى أول أيامه بالحكم، وقام بثورة عليه فى مالوا وشمال الدكن، فحاربه حتى اضطر للتسليم وطلب العفو، فعفا عنه وولاه أمور الدكن، وبعد مدة ألحقه بمجلسه وقربه إليه، ولكنه برغم ذلك لم تطمئن نفسه إلى الملك وكرمه. ففر وأعلن العصيان فى الدكن، وأصبح مصدر قلق للدولة، استعان بملوك الدكن المستقلين، وأخذ يحرضهم على حرب المغول، فاستجاب له مرتضى نظام شاه ملك بيجاپور، فذهب شاهجهان على رأس حملة إلى هناك، فلم يثبتوا أمامه. ولجأ خان جهان إلى الفرار، وكان معه قلة من الفوارس الشجعان الذين ما فتئوا يحاربون معه

---

(١) هو «خان جهان» بن دولت خان اللودى تقرب إلى دانيال ثم إلى جهانكير، وتدرج فى المناصب، وكان جهانكير يعتمد عليه، ويحبه حبا مفرطا لا يتصور فوقه وبعد وفاته وتولى شاهجهان توجس منه خيفة فخرج عليه اهـ من نزهة الخواطر جـ ٥ ص ١٣٩، ١٤٠.

أينما سار حتى قتل فى إحدى المواقع سنة ١٠٤٠ هـ — ١٦٣٠ م ، وكان يريد الذهاب إلى غربى الهند والاستعانة بالأفغان هناك .

فى بيجاپور وگولكندة

احتفظت هاتان المملكتان الإسلاميتان باستقلالها فى جنوب الدكن ، بعد أن ضم السلطان أكبر إلى ملكه ممالك : برار وبيدار وأحمد نكر ، وإن كانت الأخيرة قد انتقضت على المغول مرارا ، وكبدتهم خسائر كبيرة حتى استقر فيها الأمر لشاهجهان تماما ، وأصبحت قاعدة قواته فى الجنوب سنة ١٠٤١ هـ — ١٦٣١ م ، وقد مر بنا ما قامت به بيجاپور من مساعدة للثائر خان جهان ، بل لغيره أيضا من الهندوس ضد شاهجهان ، مثل ما فعلت مع أحد المراهتة الذى لم يعجبه تسليم أحمد نكر ، فقام ضد المغول بمساعدة بيجاپور . أما گولكنده [1] فقد كان ملكها شيعيا يسب الخلفاء الراشدين ويتبرأ منهم ، ويذكر اسم شاه إيران فى خطبته ويناوىء المغول ، لذلك قرر شاهجهان تجريد حملة كبيرة لاخضاع هاتين الدولتين ، فذهب الجيش أولا وحاصر « بيجاپور » ولكن القحط والوباء جعلا الجيش المحاصر يفك حصاره عنها ، ورجع شاهجهان ، وترك محله فى القيادة « مهابت خان » الذى قام بإخضاع فتح خان . فى أحمد نكر نهائيا كما سبقت الإشاره إليه .

ولما توفى مهابت خان ، وقام أحد المراهته بالثورة على المغول قرر شاهجهان الذهاب بنفسه على رأس الجيش ، لعدم كفاية ابنه « شجاع » للوقوف أمام هؤلاء الأعداء ، وكان ذلك سنة ١٠٤٦ هـ - ١٦٣٦ م ، واتخذ من دولت أباد فى مملكة أحمد نكر مقرا لقيادته ، وأرسل الرسائل لملكى بيجاپور وگولكنده ، حيث طلب من الأول « عادل شاه » عدم مساعدة المفسدين والثائرين وإبعادهم عن مملكته ، وطلب من الثانى أن يؤدى له الخراج ، ويذكر اسمه فى الخطبة بدل شاه إيران ، ويمتنع عن أعمال الشيعة من سب الخلفاء

---

(١) مكانها : فى مملكة حيدر أباد السابقة .

الراشدين والتبرؤ منهم ، فاستجاب له هذا الملك ، أما عادل شاه البيجاپورى فلم يستجب ، فاجتاح بلاده ، وقضى فى طريقه على المراهتى الثائر ، واضطر عادل شاه إلى الخضوع وتعهد بدفع الخراج للمغول . وبذلك بدأت سيطرة شاهجهان على ما بقى من الدول الإسلامية فى الجنوب ، حيث أصبحتا شبه تابعتين له واقعتين تحت نفوذه . وبعد أن أتم شاهجهان ذلك رجع إلى «أكرا» وترك أمور الدكن فى يد ولده «أورنگزيب» سنة ١٠٤٧هـ-١٦٣٧م.

مع البرتغال :

كان البرتغال يقيمون مراكز لتجارتهم فى أماكن مختلفة ، وكان لهم مركز فى «هوگلى» بالبنگال قريباً من كلكتا ، وانتهزوا فرصة تسامح ملوك المغول معهم ومع غيرهم من الإنجليز والهولنديين فأخذوا يحصنون مركزهم فى «هوگلى» ، ويتدخلون فى شئون الحكم ، وحاول والى البنگال أن يثنيهم عن عملهم ، ويردهم عن غيهم ، ولكنهم استمروا فى غوايتهم مغترين بمدافعهم وأسلحتهم الحديثة ، فأمر شاهجهان واليه أن يهجم عليهم وينتزع القلعة منهم ، ويحرمهم من امتيازاتهم التجارية ، فنفذ الوالى أمر شاهجهان ، وأسر أربعمائة من رجالهم ، وأراح البلدة من شرورهم وغرورهم ، وكان ذلك سنة ١٠٤٢ هـ-١٦٣٢ م ، وقامت بعض ثورات أخرى كما حدث من «راجا بندهيل كهند» ، وقد انتهت بقتله وخضوع بلاده ، وكما حدث من سكان التبت الذين سببوا بعض المتاعب لكشمير فقضى على متاعبهم . .

أما قندهار فى أفغانستان فكانت قد خرجت من يد المغول إلى شاه إيران ، وظلت تابعة لهم حتى قام سوء تفاهم بين واليها «على مردان[1]» وبين

---

(١) هو الأمير على بن على الشيعى تولى أمر قندهار بعد والده من قبل الدولة الصفوية فى إيران سنة ١٠٣٤ هـ — ١٦٢٤ م فى أيام عباس شاه الصفوى وظل ١٢ عاما حتى إذا توفى عباس شاه وقام بالملك حفيده — وكان ظالماً توجس منه على شراً فانضم إلى شاهجهان بولايته فقدره وولاه على كشمير وتوفى بها سنة ١٠٦٧ هـ — ١٦٥٤ م ونقل جثمانه إلى لاهور اهـ . (نزهة جـ ٥) .

شاه إيران أدى إلى أن ينضم على مردان إلى شاهجهان ، وبذلك عادت قندهار إلى الهند دون أن تراق فيها قطرة دماء ، وقد كان لهذا الرجل « على مردان » أثر كبير فى فن العمارة وتنسيق الحدائق وحفر الترع فى الهند ، مما لا يزال يذكره التاريخ بالإعجاب ، وكانت لا تزال فى دلهى قناة تحمل اسمه إلى عهد قريب ، وكان انضمام قندهار سنة ١٠٤٨ هـ — ١٦٣٨ م على أنه فقدها بعد ذلك فى سنة ١٠٥٩ هـ — ١٦٤٩ م .

عصر شاهجهان

كان عصره عصر رخاء ورفاهية لم تشهد الهند له مثيلا من قبل ، وساعد على ذلك ما تجمع فى خزائنه من الثروات الضخمة التى خلفها أبوه وأجداده .

وشاهجهان عملاق فى التاريخ ، وسيظل عملاقا ، لا بحروبه وانتصاراته ، ولكن بآثاره الفنية الرائعة التى ظلت وستظل عنوان صدق على الرقى الذوقى والفنى ، والازدهار المالى فى عهده ، مما لم تره الهند من قبله ولا من بعده .

وإن الإنسان لينظر إلى هذه الآثار والمبانى الكثيرة فتروعه ضخامتها وكثرتها ، ولكن حينما ينظر إليها نظرة دقيقة ويتفحص الفن الرائع الذى قامت عليه ، والذى يراه ماثلا فى كل كبيرة وصغيرة وعظيمة ودقيقة فيها ، فإنه يقف حائراً مذهولا أمام القدرة المالية والفنية التى خلفت لنا هذه الآثار التى تعد حقاً من معجزات الفن والزمان .

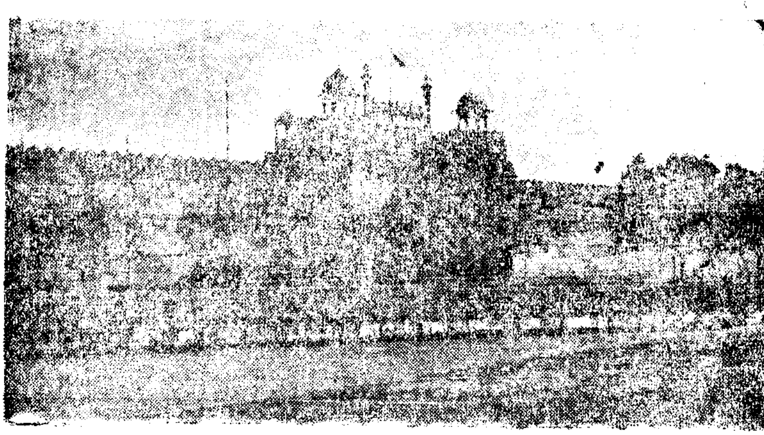
وإن القلم مهما كتب وأجاد . وأنفق من الزمان والقرطاس فى تصوير هذه الآثار وعظمتها ، فإنه لا يمكنه أبداً أن ينقل الإحساس الصادق الذى يغمر الإنسان حين يرى هذه الآثار ، ويمشى بينها ويجيل طرفه بين آياتها ، بل ينعقد لسانه ، ويخجل بيانه عن أن يتطاول فيحاول أن يحدث الناس عنها حديث حسه ونفسه .

ذلك كان إحساسى حين شاهدتها ، وقضيت وقتاً بسيطاً بينها بعد أن قرأت

عنها .. برغم أننى لم أملك من الوقت ما يتيح لى تماما الوقوف عليها كلها أو على دقائقها .

تلك كانت نظرتى ، ولو أن رجال الفن والعمارة وقفوا موقفى ، ونظروا ما نظرت لأحسوا أكثر مما أحسست ، وقدروا أكثر مما قدرت ، ودهشوا أكثر مما دهشت ؛ ذلك لأن إرهاف حسهم فى فنهم ، وعمق تقديرهم ومعرفتهم يجعلهم أكثر إعجاباً وتقديراً لهذا السلطان الفنان الذى ارتفع بذوقه إلى هذا الحد ، ولهؤلاء الفنانين والمهندسين الذين بلغوا فى إبداعهم إلى هذا السمو ، ولا يعرف الفضل من الناس إلا ذووه ...

هذه الآثار تتمثل فى القلعة الحمراء فى دلهى ، أو « لال قلعة » كما يسمونها هناك ، والمسجد الجامع المقابل لها ، ومقبرة تاج محل فى « أكرا » .



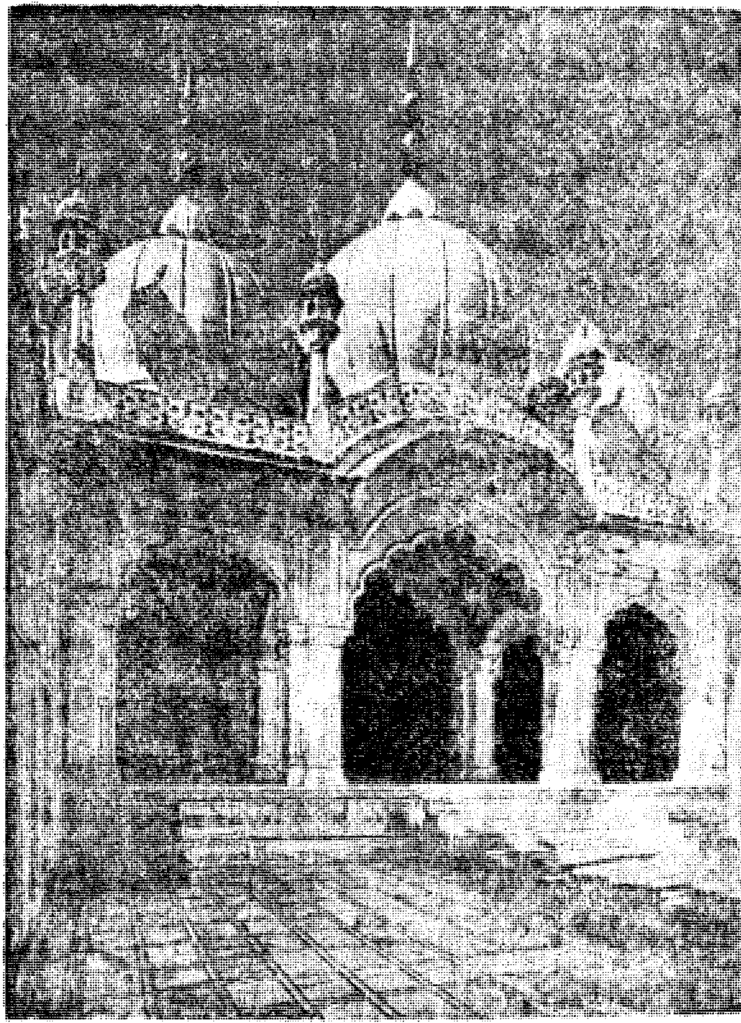
القلعة الحمراء بدهلى

أما القلعة الحمراء فهى ذلك البناء الضخم الفخم الذى بناه لسكناه ، وبنى سوره من الحجارة الحمراء ، والذى اشتمل على أمكنة متعددة لقيام الملك ونسائه وحاشيته وجنوده ، ومجلسه الخاص والعام ، وعلى مسجد يعتبر تحفة فى عالم البناء ويسمى « مسجد اللؤلؤة » من الرخام الخالص ، وإن كان صغيرا .

وقد زرتها فتعبت من التنقل فيها وراعنى ذلك التفنن فى البناء وفى الترف . والقلعة تقع على شاطىء نهر جمنا مثل القلعة الحمراء التى بناها أكبر فى « أكرا »

حتى فى شكلها الخارجى . كانت دائما مقر سلاطين المغول فى دلهى ، نزع الإنجليز منها آخر ملك مغولى « بهادور شاه » واحتلوها ، وظلوا بها حتى خرجوا من الهند فتركوا بها كثيراً من مظاهر التخريب والنهب حيث أخذوا كل ما بها من أشياء وأحجار ثمينة . يقول جوستاف لوبون[١] :

« وفى سنة ١٦٣٧ م استقر شاهجهان بدلهى ، وأنشأ فيها القصر الفخم



مسجد اللؤلؤ داخل القلعة الحمراء

(١) فى كتابه حضارة الهند ٢٢٤ ص .

الذى لم يسمح الإنجليز بغير بناء جزء منه ، فيعد مع ذلك من أجمل مبانى الدنيا » ، وقد أقامت فيها الحكومة الهندية متحفا يضم بعض آثار وصور الملوك المغول ، وفى فناء القلعة الواسع تقيم الحكومة الآن حفلاتها الرسمية لكبار زوارها من الخارج . وفى المناسبات الرسمية كذلك .

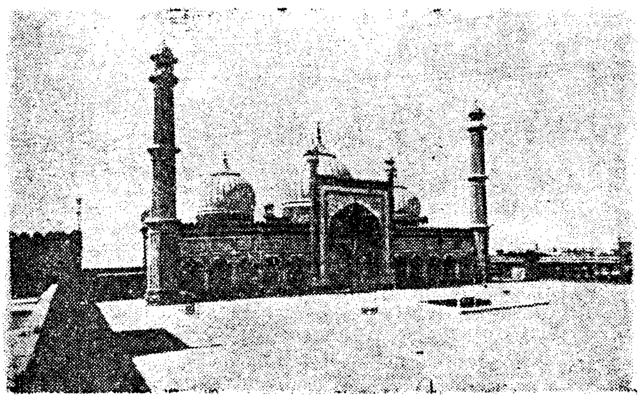
أما المسجد الجامع أو « جامع مسجد » كما يسمونه فى الهند فيعتبر أفخم مسجد بناه سلطان فى الهند كلها ، يقوم على مرتفع من الأرض عما حوله، وأكبر مساحته غير مسقوف ، يقوم وسطها حوض كبير للوضوء ، والجزء الغربى منه هو المسقوف ، يقوم سقفه على أبنية معقودة ضخمة ، أرضه من المرمر والجدران مكسوة بالمرمر كذلك إلى ثلاثة أذرع ، ومنبره كله من المرمر الأبيض الناصع ، وعلى جدرانه وأعمدته الضخمة يتجلى الفن الرفيع والمجهود الجبار الذى بذل فى تحليته .

أمر شاهجهان ببنائه سنة ١٠٦٠ هـ — ١٥٦٠ م ، وعند البدء فى تأسيسه أعلن الملك فى الناس أن الذى يتقدم لوضع الحجر الأساسى له هو الذى لم تفته التكبيرة الأولى فى صلاة الجماعة ، ولا صلاة التهجد . فسكت الناس جميعا ، ثم تقدم الملك وقال : الحمد لله ، فإنى لم يفتنى من ذلك شىء طول العمر ، ولكنى آسف لإذاعة سرى المكتوم ، وقد تم بناؤه فى ستة أعوام ، وتنافس أمراء الأقاليم فى إرسال الأحجار والمرمر لبنائه .

وقد افتتح أول مرة بصلاة عيد الفطر فيه فى موكب ملكى حافل ، ثم توالت التحسينات فيه بعد ذلك ، وله ثلاثة أبواب : الباب الكبير الشرقى المواجه للقلعة وباب شمالى يقابله ثالث جنوبى ، يصعد إليها بدرجات كثيرة .

وكان المسجد فى أيام الثورة سنة ١٢٧٤ هـ - ١٨٥٧ م مثابة الثائرين ومجتمعهم، يخطبون فيه ويثيرون الشعب ، ويعلنون القرارات ضد الإنجليز ، ولذلك احتله الإنجليز بعد أن انتصروا على الثائرين فى دلهى ، ومنعوا الصلاة فيه ، وظل كذلك حتى عام ١٢٧٩ هـ - ١٨٦٢ م . وهو الآن يغص بالمصلين كل وقت لا سيما فى آخر جمعة من رمضان . ويسمونها « جمعة الوداع » فى الهند ، ويقع

حول جدرانه من جميع النواحى دكاكين صغيرة ، أكثرها إنه لم يكن كلها من الخشب تشوه منظر المسجد ، ولذا أرادت حكومة الهند إزالتها ، لولا أن اعترضها أمر تدبير العيش لمئات من التجار المسلمين الذين يقيمون متاجرهم البائسة حوله ، ومن الناحية الشرقية بينه وبين القلعة فضاء كبير يمتد مئات الأمتار ، زرع بالحشائش الخضراء (١) ومن الناحية الجنوبية من هذا الفضاء تقع حديقة « ادوارد » الكبيرة التى لا يزال اسمها والتماثيل فيها تذكر الناس بعهود الإنجليز السوداء ، وظلمهم للشعوب وسيطرتهم على الهند .



المسجد الجامع بدهلى

وحين زرت المسجد عقب وصولى إلى دلهى فى يناير سنة ١٩٥٦م مع صديقى الأستاذ محمود فهمى زكى المذيع المصرى بالإذاعة الهندية ، والأستاذ محيى الدين ألوائى الهندى المتخرج من الأزهر والمذيع بالإذاعة الهندية العربية كذلك ، أخذا بيدى وسرنا إلى الزاوية الشمالية الشرقية من المسجد حيث تقوم هناك حجرات تضم بعض الآثار ، منها - كما يقولون - شعرات من الرسول ، وأوراق من مصحف يقولون إنه بخط الإمام على ، وغير ذلك . فرأينا هذه الأشياء وأخذ بعض الخدم يشرحون ويبالغون ، وكلامهم مثل كلام بعض

(١) وقد دفن فى هذا الفضاء الواسع مولانا أبو الكلام أزاد وزير معارف الهند فى المكان الذى كان يخطب فيه قبل وفاته بأسبوع فى مؤتمر شعبى يطالب بجعل اللغة الأوردية لغة رسمية ثانية ، وعلمت أن الذى اختار له هذا المكان هو صديقه رئيس الوزراء جواهرلال نهرو .

الناس فى مصر وغيرها عن هذه الأشياء ، لذلك استمعت إليهم ، ثم انصرفت وأنا أقول : هنا مثل ماهنالك ، والله أعلم بحقيقة الحال .

ومما لفت نظرى هذه الكثرة من أسراب الحمام التى تغطى صحن المسجد والمتشابهة فى اللون . فذكرتنى بحمام الحرمين الشريفين . والناس يتصدقون على هذا الحمام مثلما يتصدقون على حمام الحرمين . بالحبوب يبذرونها له تقربا إلى الله .

وقد شاهدت بعض العمال يقومون فيه ببعض ترميمات ، فسألت أحد الأصدقاء الذى كان يرافقنى ، فأخبرنى أن الحكومة الهندية اعتمدت مبلغا كبيرا لإجراء إصلاحات وترميمات به تشمل تغيير حجارة الأرض كلها ، وبعض الجدران ، وهذا المسجد من أفخم الآثار الإسلامية ، ويزوره كل مسلم يأتى إلى دلهى ، ويصلى فيه ولا سيما ملوك ورؤساء الدول الإسلامية ، ولهذا كله عنيت الحكومة به ، وخصصت له هذا المبلغ الضخم الذى قيل لى عنه إنه ٦٠٠ ألف روبية على عدة أعوام .

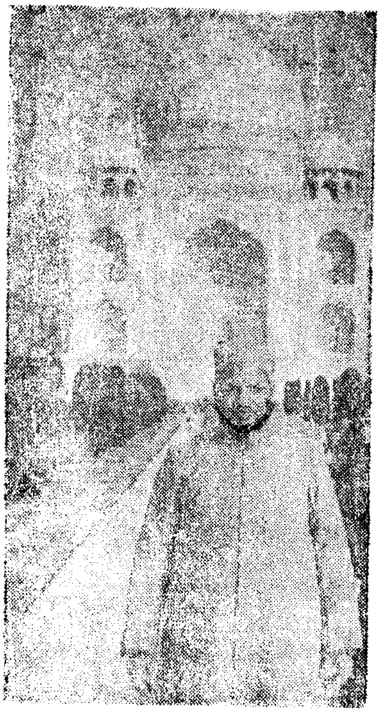
أما تاج محل : فهو الأثر الفنى الرائع الذى خلفه شاهجهان ليكون أعجوبة الدنيا من بعده ، هو ذلك البناء الذى أعده لتدفن فيه زوجته المحبوبة أرجمند بانو[١] .

أقامه خارج مدينة « أكرا » فى الناحية الشرقية منها على شاطىء نهر « جمنا » وأول مايلفت نظرك حين تترك الباب الخارجى ، تلك المبانى التى أقامها على الجانبين للعمال الذين اشتغلوا فى إقامته ، حتى إذا سرت قليلا وملت إلى اليسار

---

(١) أرجمند : اسم فارسى معناه جدير كفء لائق . وبانو : لقب يضاف للنساء مثل : بيكم ، خاتون : وهى بنت آصف خان شقيق نورجهان كانت نادرة الحسن والجمال تزوجها فى عهد أبيه وسنها عشرون سنة ، فولدت له أربع أبناء وثلاث بنات ، وتوفيت سنة ١٠٤٠ هـ — ١٦٣٠ م وسنها تسع وثلاثون سنة فى مدينة برهانبور شمال الدكن فدفنوها فى بلدة « زين أباد » ، ثم نقلوا جسدها بعد ستة أشهر إلى « أكبر أباد » فى ضواحى « أكرا » وبنى شاهجهان على قبرها هذا الأثر الذى نتحدث عنه ، ثم دفن بجوارها بعد وفاته ، وسميت المقبرة باسمها بعد تحريف بسيط فاشتهرت باسم « تاج محل » .

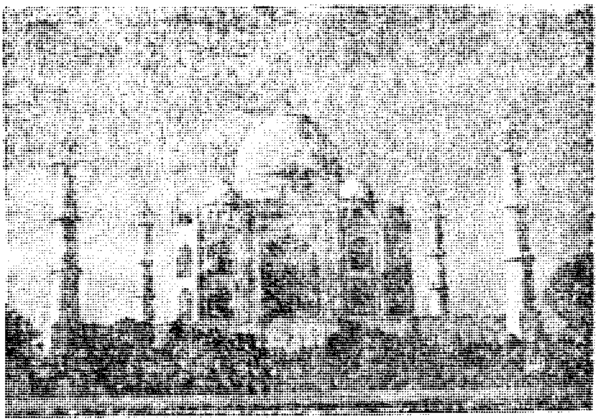
متجها للشمال رأيت بوابة كبيرة كسيت بالمرمر وكتب على جانبيها وأعلاها سورة الفجر ، وانتهت بقوله تعالى « فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » ، وقد نحتت الحروف من حجر أسود يسمونه حجر موسى ، وهى آية فى حسن الخط الثلث ، أعجبت به أيما إعجاب ، وزاد عجبى حين لفت نظرى المرشد الذى تولى لنا الشرح إلى أن الكاتب راعى فى كتابته خداع النظر الذى يرى الأشياء البعيدة صغيرة نوعا عما تكون عليه وهى قريبة ، فكان كلما ارتفع مكان الخط كبره قليلا ، وهكذا يكبره شيئا فشيئا بحيث يتناسب فى رأى العين مع الحروف القريبة ، لتبدو كلها صورة واحدة غير متفاوتة فى الصغر والكبر ، وحول ذلك نقوش بديعة على شكل أشجار وأزهار وأوراق ؛ فإذا خطونا خطوات داخل البوابة رأينا على بعد قريب باب المقبرة المرتفعة عن الأرض يسامت البوابة الخارجية تماما ، وتمر قناة صغيرة بينهما ، قامت فى وسطها تماما فوارات متوازية البعد والارتفاع ، عددها أربع وعشرون ، كانت فى أيام السلاطين تفور بماء الورد الذى يمدها من القلعة القائمة قريبا منها ، فيعطر الجو ويكسوه منظرا رائعاً ، ولا تنطلق فيها المياه الآن إلا يوم الأحد وهى مياه عادية طبعا ، وعلى جانبى القناة ممران ومنتزهان عن يمين وشمال امتازا بحسن التنسيق ، وسلامة الذوق ككل شىء فى هذا المكان .



المؤلف بالملابس الهندية عند زيارته لتاج محل
فى ديسمبر سنة ١٩٥٦

فإذا سرنا فى أحد الممرين ، واجهنا بناء المقبرة ورأينا على اليسار مسجدا

من المرمر هو مسجد اللؤلؤة ، وعن اليمين بيتا للضيافة ، ورأينا جنوبهما قليلا مبنيين للموسيقى عن اليمين والشمال أيضا . وكل هذه المبانى متناسقة متشابهة ، ولا عجب فقد كان عنصر التنسيق والتشابه هو الأساس الذى قام عليه بناء هذا الأثر الخالد الممتاز .



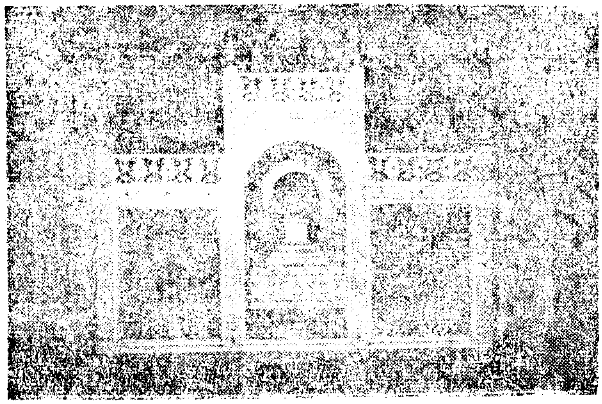
تاج محل

وبعد أن سرنا نحو مائة متر صعدنا درجات ، وخلعنا أحذيتنا ، فرأيت أن المبنى العام للمقبرة يأخذ شكل مصطبة واسعة مربعة أقيم البناء فى وسطها وبقى حوله من جميع الجهات فضاء ، وفى كل زاوية من زوايا المصطبة الأربعة قامت منارة عالية مكسوة بالمرمر الأبيض ارتفاع كل منها ١٩٠ قدما ، وقد منعت الحكومة صعود الزوار عليها ؛ لتكرر حوادث الانتحار من الراغبين فى الموت سريعا .

والبناء تتوسطه قبة كبيرة تقوم فوق القبر . وكان يعلوها هلال وحلية من الذهب زنتهما كما سمعت ٣٢ منا ، والفكرة السائدة بين الناس الذى سمعتهم هناك أن ذلك كان من ذهب ، فأخذه الانجليز ووضعوا بدله نحاسا وطول الهلال بحليته نحو ٣١ قدما .

والمدخل الرئيسى للضريح يتخذ شكل قبو مرتفع يمشى تحته الإنسان خطوات ، فيجد الباب الذى ينفذ بنا إلى الداخل، وقد كتب على واجهة القبو

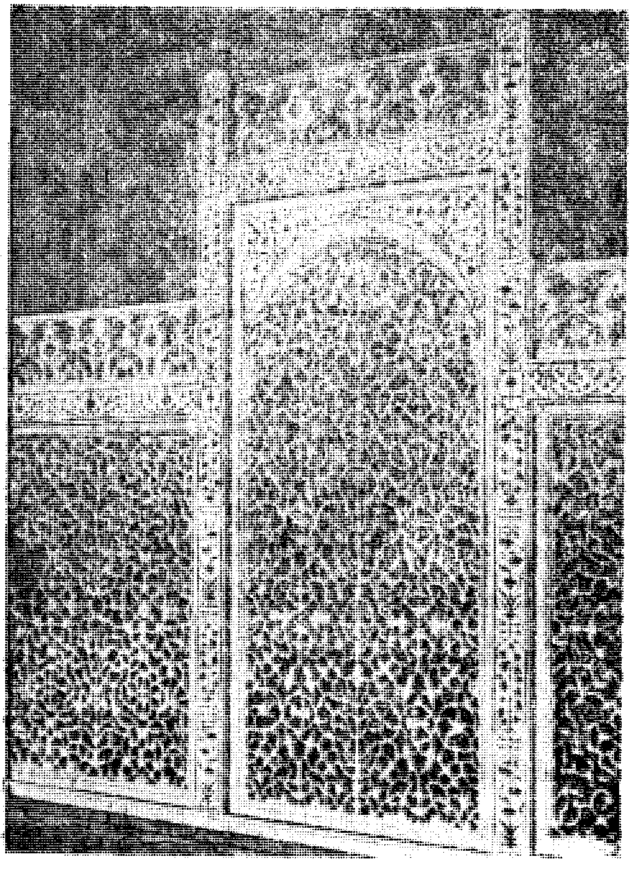
وجانبيه أيضا سورة يس والقرآن الحكيم . وعلى الباب الصغير كتبت سورة « إذا الشمس كورت » بنفس الخط والنظام والحجر الذى وصفناه سابقا على الباب الخارجى .



باب مقبرة تاج محل من الداخل

وحين تركنا الباب وجدنا أمامنا فتحة بها بضع درجات تنزل إلى الطابق الأرضى ، فنزلنا فى انحناء كأننا أمام الملك والملكة الراقدين ، نحييهما كما كانا يحيان فى دنياهما ، وتفادينا بهذا الانحناء أن تصطدم رءوسنا بالمرمر الذى كسيت به أرضية الطابق الثانى . . فوجدنا أمامنا قبرين ، على كل منهما تركيبة جميلة من المرمر من قطعة واحدة ، إحداهما كبيرة فوق قبر الملك ، وعلى يسارها تركيبة أصغر منها على قبر زوجته ، وقد زينت كل منهما بنقوش من الأحجار الثمينة الملونة فى غاية الإبداع على شكل الأزهار والأوراق . وقد وضع على ضريحه مقلمةودواة من المرمر المنقوش وكتب عليه «مرقد مطهر أعلى حضرت فردوس آشيانى صاحب قران ثانى شاهجهان بادشاه طاب ثراه توفى سنة ١٠٧٦ هـ» . أما قبرها فقد كتب عليه من فوق قوله تعالى « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . الآية » ، وقوله تعالى « كل نفس ذائقة الموت .. » وعلى الجوانب كتبت أسماء الله الحسنى . وعلى واجهة المقبرة كتب عليها « مرقد منور أرجمند بانو بيگم مخاطب بممتاز محل توفيت سنة ١٠٤٠ هـ »

وصعدنا بعد ذلك الدرجات التى نزلناها ، فوجدنا فى الطابق الذى يعلو هذا تركيبتين يحاكيان التركيبتين الموجودتين تحت ، وبساماتهما ، يحيط بهما سور من المرمر اللامع المشبك البديع والدقيق الصنع . قيل لنا إنه من صنع الفنيين الصينيين . كما قيل لنا إن شاهجهان صنعه أولا من ذهب . ثم عاد فرفعه ووضع بدله المرمر خوفا عليه من السرقة ، وقد تدلى من سقف القبة قنديل فوق القبرين ، قيل لنا إنه من صنع مصر أهداه « لورد كيرزون » . أما الأبواب فقد حليت بنقوش معدنية ، قيل إنها كانت من الفضة فأخذها الإنجليز ، ووضعوا بدلها المعدن الخالى ، وقد حليت التركيبتان كما حليت الجدران بأشكال الزهور والأوراق بأغصانها وألوانها ، حتى لتجد فى الزهرة أوالورقة عدة ألوان ، بل



جزء من المقصورة الرخامية فى تاج محل بمدينة أجرا

تجد فى الورقة تلك العروق التى تمتد فيها ، وقيل لنا إن كل هذه الأزهار والأوراق قد صنعت من الأحجار الكريمة ذات الألوان الطبيعية التى تحاكى لون الورقة والزهرة . وعدد الأحجار الموجودة فى الورقة نحو ستين حجرا من صنع الإيرانيين ، وبعضها جاء من إيران أيضاً ، وعددها فى الزهرة نحو ثلاثين .

وفى أعلى تركيبتها كتب « ياحى ياقيوم برحمتك أستغيث . إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا . . الآية » .

وفى الجوانب كتب « إن الأبرار لفى نعيم ، على الأرائك ينظرون . الآيات » . وقيل لنا إن الذى قام بكتابة الخط هو « أمانت خان شيرازى » ، وعلى جوانب القبرين ثمانى حجرات مثمنة الشكل متشابهة ، خصصت لقراءة القرآن والأوراد والأدعية ، ولاحظت كسرا بأحد الجدران ظهر منه الآجر الداخلى للجدران بعد أن زالت عنه قشرة المرمر ، قيل إن أحد المهندسين الإنجليز فعله حتى يتبين ما وراء المرمر ، وظل كذلك حتى الآن . . ورأيت عمال الحكومة يقومون ببعض إصلاحات وترميمات حرصوا على أن يرمزوا لها بحرف N الإنجليزى حتى يتميز الأصل من الترميمات الحديثة .

وكان المرمر الذى استعمل فى تشييد هذا الأثر الرائع يأتى من بلاد مختلفة أهمها « مكران » التابعة لجيبور فى راجبوتانا ، قدمه الأمراء والحكام هدية للسلطان ، وحملته الفيلة من أماكنه البعيدة .

وقد أنفق على بنائه مايوازى ٢٢٠ كرور روبيه أى ٣٢٠ مليون روبية ، مع ملاحظة أن أجرة العامل فى أيامه كانت توازى قرش صاغ مصرى ، وظل العمل فى هذه المقبرة وتوابعها اثنتين وعشرين سنة ، رمزوا لذلك بعمل قباب صغيرة فوق الأبواب ، بميزين السنين التى استغرقها العمل بالمقبرة بقباب بيضاء عددها سبع عشرة قبة ، وتوابعها بخمس قبب حمراء .

والبناء يقع على شاطىء نهر جمنا ، لذلك نجد كثيرا من الصور التى تؤخذ

له تبدو منعكسه على صفحة الماء ، ورأيت قريبا منه على حافة الماء تقريبا معبدا للهندوس صغيراً لا أدرى لماذا ومتى أقيم فى هـذا المكان ؟ ! والصورة العامة للمقبرة بيضاء ناصعة ، ويبدو رونقها وجمالها على أتم ما يكون فى الليالى المقمرة حين تنعكس عليها أشعة القمر الفضية ، فيأخذ جمالها بالألباب . أما بقية المبانى التى أقيمت حولها فتبدو حمراء ، سواء فى ذلك دار الضيافة ومبانى الموسيقى ، أم المبانى الأخرى التى يشغل بعضها الآن بعض تجار الصور والتماثيل المرمرية الدقيقة الصنع ، وعلى بعد قريب من تاج محل نرى القلعة الحمراء التى بناها أكبر على نهر « جمنا » وأكمل شاهجهان بناءها .

ذلك وصف عام لهذه التحفة الفنية الرائعة التى لا يوجد لها نظير فى العالم ، والتى تنطق برقى الذوق والفن وهندسة البناء فى ذلك الزمان ، مما يجعلها مفخرة الهند ، لا يستغنى أى سائح أو زائر عن زيارتها ، وإرواء نفسه من متعتها ، والوقوف أمامها فى خشوع وإعجاب بعظمة هذا الملك المسلم ، وعظمة الفن فى عهده ، وعظمة نفسه التى حملت هذا الوفاء النادر لزوجته المحبوبة ، وفاء ترك العالم يتمتع بهذه الدرة العظيمة فى عالم الفن والبناء . وهـذا هو الذى يجعل الحكومة تحرص على المحافظة عليه ، وترميم بعض ما يحدث فيه من خلل .

تقول مجلة ثقافة الهند[1] الرسمية «تجرى الآن بعض الترميمات والتحسينات فى « تاج محل بأكرا » وهو الأثر الذى تفخر به الهند . ويعتبر إحدى عجائب الدنيا السبع ، وقد قاوم هذا الضريح الأثرى العتيق الذى يعود تاريخه إلى ثلثمائة سنة مضت . والمبنى من الرخام الأبيض ، عوامل الزمن فلم يتأثر إلا قليلا ، وكانت آخر مرة أصلح فيها سنة «١٢٩١ هـ» - ١٨٧٤م ، ومنذ سنة «١٣٥٩ هـ» - ١٩٤٠م حتى يومنا هذا يعكف مهرة الصناع بأكرا على ترميمه ، ولا غرو فقد عاون أسلافهم منذ أجيال « شاهجهان » امبراطور المغول فى بناء هذا الأثر التذكارى الذى تكلف نحو ثلاثة ملايين جنيه لزوجته المحبوبة ، وقد اعتمدت وزارة المالية الهندية ٤٠٠ ألف روبية نفقات إصلاحه » .

---

(١) فى عددها الصادر فى مارس سنة ١٩٥٣ .

« والضريح نفسه يتألف من بناء مرمرى أبيض يقوم على شرفة عالية ، وتعلوه قبة ضخمة فى وسطه ، تحيط بها أربع قباب أصغر حجما ، وترتفع عند زوايا الشرفة أربع منارات دقيقة ، وتبلغ مساحة الضريح ١٨٦ قدما مربعا ، وقطر القبة الداخلى ٥٨ قدما ، ويخترق ضوء النهار ستارا مزدوجا من الرخام المشغول فتسقط أشعته على قبرين تحت القبة تماما للامبراطور وزوجته المحبوبة ، أما الزخارف الداخلية المطعمة بأحجار شبه نفيسه فتمتاز بألوانها الزاهية ، ورسومها الأخاذة » .

« والتاج مزار لا يسع أى سائح أن يتخلف عن زيارته ، ويقع فى حديقة فسيحة الأرجاء ، تزينها شجار السرو الباسقة وتكسو أرضها الخضرة اليانعة ، وتجرى خلالها المياه الرائعة الهادئة ، فإذا ماجن الليل وسقطت أشعة القمر الفضية على القبة اللؤلؤية البيضاء شاهد الرائى أمامه منظرا يسلب اللب ويخلب الأبصار » ا هـ

وتحدث كتاب « بين الآثار الإسلامية فى العالم » [1] عن تاج محل فقال :

« وهذا الأثر يعد أجمل العمائر الإسلامية على الإطلاق فى القرن الحادى عشر الهجرى ، ولذلك سنقف عنده قليلا نتأمل فى روعة قصته وبهاء طلعته ، وجمال تكوينه ودقة تصميمه . أمر بتشييده الملك « شاهجهان » ابن الملك أكبر [2] ليضم رفات زوجته ورفاته بعد مماته ، ولإنشائه قصة لحمتها الإخلاص ، وسداها الوفاء ؛ إذ تزوج الشاه بالأميرة [3] « ممتاز محل » التى حرف اسمها فأصبح تاج محل . وقد رزقت منه بأربعة عشر [4] ولدا ، ثم توفيت على أثر الوضع ، فحزن عليها حزنا عميقا ، وواصل البكاء ليلا ونهارا ، وعقد العزم على أن

---

(١) للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق أستاذ الآثار الإسلامية بجامعة الاسكندرية ص ٥٣ .

(٢) خطأ تاريخى وصحته شاهجهان بن جهانكير .

(٣) لم تكن من الأميرات . كما يتوهم ، بل هى بنت أحد الإيرانيين الذى قدم من إيران وخدم فى قصر الملك .

(٤) جاء فى نزهة الخواطر جـ ٥ ص ٨٧ أن شاهجهان تزوجها وعندها عشرون سنة ، وتوفيت وسنها تسع وثلاثون ، وولدت له أربعة أبناء وثلاث بنات منهم الملك أورنجزيب عالمكير .

يخلد هذا الحب ، فشيد هـذا البناء الفخم ، ونقل رفات زوجته إليه ، وقد استغرق البناء اثنين وعشرين سنة ، وكان يعمل فيه عشرون ألف عامل » . . إلى أن قال « ويتجلى في البناء سمو الذوق واتزان الأبعاد ، والتناسب بين الأجزاء والتناسق في الزخارف والألوان ، فهو بحق أجمل عمائر الهند ، ومن أروع الآثار الإسلامية في الشرق والغرب » .

تلك هي أفخم الآثار التي خلفها شاهجهان ، والتي تعتبر أهم وأروع ماتركه ملك في الهند من آثار . ولعله يتبادر إلى الذهن حين النظر إليها وإلى ما أنفق عليها من مبالغ ضخمة أن هذه المبالغ إنما ابتزها الملك من الشعب ، وأن هذا الثراء الذي يبدو في مظاهر هذه الآثار إنما قام على حساب الشعب وإفقاره .

ولـكن الواقع يسارع بنفي هذه الفكرة ؛ إذ أن استقرار الدولة ورفاهية الشعب ، وما ورثه شاهجهان من الملوك السابقين ، كان أكبر معين له على إقامة هذه العمارات دون أن يظلم ، أو يبتز المال من الشعب . قال المؤرخ الهندي سيد هاشمي[1] « إن ميزانية الدولة في عهده بلغت مبلغا لم تبلغه من قبله ولا من بعده ، حتى في أيام حكم الانجليز الذين حكموا ملكا أوسع من ملكه ؛ فقد كان يحصل من ضريبة الأرض ٢٧ كرور روبية أي ٢٧٠ مليون روبية[2] ، غير ما يحصل من كابل وقندهار ، وكان يأتيه هذا المـال دون ضغط أو ظلم ، وهذا المبلغ لم يحصله الانجليز مع كثرة تعسفهم مع الناس ، وكان الشعب يعيش في عهده عيشة طيبة ، متمتعا بعطف الملك وعدله ، حتى قال سائح انجليزي عنه ، إن الملك كان شديد العطف على رعاياه كما يحنو الأب على أبنائه » .

« وكان الملك مشهورا بكرمه وكثرة عطاياه ، وأكبر دليل على رفاهية الشعب وغناء الدولة في عهده ، أنه بعد أن أنفق كل هذه النفقات في المباني وفي إقامة عرش الطاووس من الذهب الذي تكلف عشرات الملايين من الروبيات ،

---

(١) مع تصرف من كتابه تاريخ الهند ص ٢٢٣

(٢) الجنيه المصري يساوي نحو ١٣,٥ روبيه .

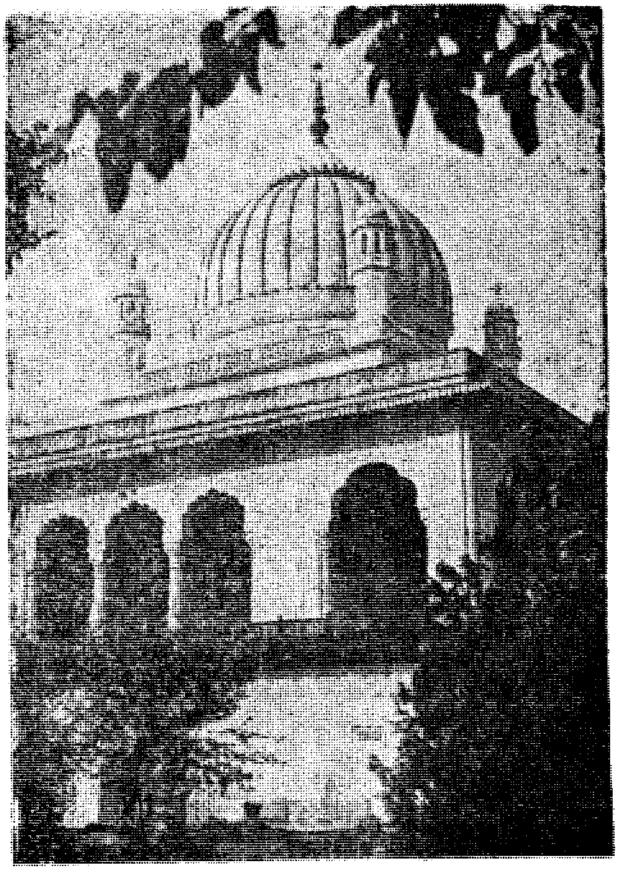
وجد فى خزائنه بعد وفاته ٢٤ كرور روبية أى ٢٤٠ مليون روبية . وكان الذهب والفضة والجوهرات التى تركها تساوى ١٥ كرور أى ١٥٠ مليون روبية ، وذلك كله يدل على أنه ما كان محتاجا إلى زيادة الضرائب على الشعب حتى يجابه النفقات الكثيرة التى ينفقها ، ولذلك يسميه المؤرخون بالملك المحظوظ ؛ لما أتيح له من الغنى والاستقرار واتساع الملك مما لم يتح لغيره من الملوك .

«ولقد كانت الزراعة والصناعة مزدهرتين فى عهده أيما ازدهار ، حتى كانت الهند تصدر من منسوجاتها الجيدة إلى أوربا كميات وافرة » اهـ .

وكان شاهجهان بروحه ونزعته محافظا على تعاليم الإسلام وآدابه ، فقد أبطل عادة تقبيل الأرض أمامه تحية له ، وكانت هذه التحية المعتادة للملوك ، حتى إن جهانكير حبس زعيم العلماء فى الهند « مولانا أحمد السرهندى » [1] مجدد الألف الثانى لأنه لم يسجد له ، فقضى شاهجهان على هذا التقليد السيء ، كما قضى على كل مظهر من المظاهر المخالفة للإسلام مما تركه جده أكبر من بعده ، ولم يبطله أبوه جهانكير . وكان كثير الإكرام للعلماء حتى قصدوه من جميع الجهات . وقد مر بنا فى قصة بناء المسجد الجامع فى دلهى صورة طيبة من حياته ، ومن المعروف عنه أنه بعد أن تاب من الخمر فى شبابه لم يرجع إليه .

---

(١) قال عنه صاحب نزهة الخواطر « ص ٤١ إنه « الإمام العارف بحر الحقائق والأسرار محى السنة النبوية . برهان العارفين والمحققين وحجة الأولياء والمتقين . آية من آيات الله العظام ونادرة من نوادر الأيام ، أخذ بيد العلم لما زلت به القدم ، وكاد يهوى فى مهاوى العدم فكان مجدد الألف الثانى برهانا ساطعا على أشرفية النوع الإنسانى . وهو أحمد بن عبد الأحد السرهندى » ولد فى بلدة « سرهند » فى شوال سنة ٩٧١ هـ — ١٥٦٣ م وأخذ العلم عن مشايخ زمانه ولاسيما علوم الحديث ، ثم قعد للتدريس وهو ابن سبع عشرة سنة ، كما أخذ الطريقة عن مشايخها وتبحر فى علوم الشريعة والحقيقة معا . ولما توفى والده سنة ١٠٠٧ هـ — ١٥٩٨ م ارتحل إلى دهلى واشتهر أمره فوشى به عند « جهانكير » فحبسه كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، وقد صنف كثيراً وقضى عمره فى إحياء السنة وإماتة البدعة حتى استحق لقب مجدد الألف الثانى من الهجرة وأصبح مشهورا به فى التاريخ ، وقد توفى فى سرهند فى آخر صفر سنة ١٠٣٤ هـ ١٦٢٤ م فدفن بها ولا زال قبره مشهورا يزار هناك للآن . اهـ مختصرا . ومن سبحة المرجان فى آثار هندستان لمولانا غلام آزاد .



مقبرة مجدد الألف الثانى الشيخ أحمد السرهندى فى مدينة سرهند

وكان شاهجهان محبا للعلم مشجعا على التأليف ، ويذكر المؤرخون أن العلامة عبد الحكيم السيالكوتى[1] ألف بأمره كتبا كثيرة ، وكان يعطيه فى العام مائة ألف روبية . وقد اتخذ اللغة الأوردية اللغة الرسمية فى عهده ، وعمل على نشرها

(١) معروف فى مصر بحاشيته على العقائد النسفية التى تدرس بالأزهر فى علم الكلام ، ولد فى قرية سيالكوت بالبنجاب ، واشتغل بالعلم وصار من نوابغ زمانه ، قدره شاهجهان حق التقدير وقربه إليه وأخذ برأيه وكافأه على تأليفاته مكافآت ضخمة ، حتى إنه وزنه مرتين بالفضة ومنحه قيمتها ، وكان كل مرة ستة آلاف من نقود زمانه ، وأقطعه قرى متعددة يعيش فيها ، ويصنف فى هدوء ، وقضى نحو ستين سنة يدرس ويؤلف حتى ترك وراءه مؤلفات وحواشى على الشروح متعددة فى مختلف العلوم . وتوفى فى ربيع الأول سنة ١٠٦٧هـ — ١٦٥٦ م ودفن فى سيالكوت اهـ نزهة وسبحة المرجان .

بوسائل مختلفة ، حتى إنه أنشأ سوقا للرجال وآخر للنساء ، وفرض التكلم والتخاطب فيهما بالأوردية حتى تنمو وتزدهر .

شاهجهان فى أواخر حكمه

كان هذا الملك المحظوظ كما سماه المؤرخون سيء الحظ فى أواخر أيامه ، فقد أصيب بمرض أقعده عن مباشرة أمور الحكم ١٠٦١ هـ - ١٦٥٧ م ، وكان له أربعة أولاد : أورنگزيب ، ودارا شكوه ، ومراد ، وشجاع ، وكان لكل منهم ولاية يحكمها . فلما مرض استدعى ابنه دارا شكوه [1] بجانبه ليباشر شؤون الحكم ، وكان أكبر إخوته ، فأخفى نبأ المرض عنهم ، وأخذ يصرف أمور الدولة . فظن شجاع ومراد أن أباهما توفى ، واتهما «دارا شكوه» بقتله ، وأراد شجاع أن يذهب إلى أگرا بجيشه لينتقم لأبيه ، ولكن أورنگزيب نصحه بالتريث ، وأكد له أن أباه حى ، واتفق الإخوة الثلاثة على إبعاد دارا شكوه ، والحيلولة بينه وبين الملك بحجة أن ذلك يقوض عرش المغول . ولما أفاق شاهجهان من مرضه ، ووقف على ثورة أبنائه على «دارا شكوه» غضب عليهم ، وأرسل ينصحهم بالهدوء والخضوع .

لكن دارا شكوه لم يكتف بهذا ، بل جرد حملة بقيادة ابنه سلمان لتأديب أخيه شجاع ، وكذلك أرسل الجيوش لتأديب بقية إخوته .

أما شجاع فقد التقى بجيش سلمان عند بنارس ، فانهزم وفر إلى بنگال ، وفى ذلك الوقت كان «أرنگزيب» قد تحرك بجيشه من «برهان پور»

---

(١) ولد سنة ١٠٢٤ هـ – ١٦١٥ م وقرأ العلم على بعض العلماء وتعلم الفنون الحربية ، وبايع أحد الصوفية ، وصنف الكتب فى سير المشايخ وغيرها ، منها سفينة الأولياء وسكينة الأولياء ، والسر الأكبر والأعظم الخ .. وبعض الناس يراه صوفيا صالح العقيدة ، ويستشهدون بمؤلفاته فى هذه الناحية ، والآخرون يرون أنه كان مثل جده أكبر فاسد العقيدة مستشهدين ببعض مصنفات أخرى ، منها ترجمة كتاب هندوسى نقش فيه صور عظماء الهنود مكان بسم الله الرحمن الرحيم وقال فى خطبة الكتاب إنه لب القرآن ، وسر مكنون لا يمسه إلا المطهرون ، وكذلك كتابه فى التوفيق بين الإسلام والهندوسية اهـ نزهة باختصار جـ ٥ ص ١٤٣ .

فى الدكن متجها إلى « أكرا » ، وانضم إليه أخوه « مرادبخش » فى « مالوا » ، وفى الطريق أرسل « أورنگزيب إلى « جسونت سنگ » القائد الراجپوتى الذى أرسله « دارا » لتأديب أخويه ، وقال له : إننى أريد زيارة أبى لا الحرب ، فإما أن تصاحبنى ، وإما أن تتنحى عن طريقى بدلا من سفك الدماء ، ولكن القائد الراجپوتى لم يستجب له ، فوقعت الحرب بينهما فى رجب سنة ١٠٦٧ هـ - ١٦٥٧ م ، وانتهت بهزيمة « جسونت » وفراره بعد القضاء على كثير من رجاله الراجپوت .

وتابع « أورنگزيب » سيره نحو العاصمة « أكرا » ، فى الوقت الذى بدأ الرعب والاضطراب يدب فيها بعد أن وصلتهم أنباء انتصاره ، ومتابعة زحفه نحو العاصمة ، حتى أراد شاهجهان أن يفر إلى دلهى ، ولكنه آثر البقاء لعله يستطيع الصلح بين أبنائه وإنهاء الحرب بينهم ، ولكن « دارا » كان مغترا بقوته ، وبالإمكانيات التى تحت يده ، معتقدا أنه سيقبض على إخوته بكل سهولة ، ولذلك كان يثور على فكرة المصالحة ، ويصر على الحرب والانتقام .

وحقا كانت القوتان غير متعادلتين ، فقد كان جيش « داراشكوه » الذى يزيد عن المائة ألف ينتظر جيش أورنگزيب ومراد البالغ ٢٥ ألفا فقط ، والذى قطع مئات الأميال وأنهكه التعب .

وتلاقت القوتان فى رمضان جنوب شرق « أكرا » على بعد ٣٠ ميلا ، وبدأت المدافع عملها ، ثم هجمت قوات « داراشكوه » على جنود الدكن ، فوقع الخلل فى صفوف الدكنيين ولكن « أورنگزيب ومراد » صمدا للمعركة صمودا عجيبا ، فقد كانا يعرفان مصيرهما لو لحقت بهما الهزيمة ، وتدخلت الأقدار فى المعركة لتصل بها إلى نهايتها المقدرة ، فلقى « رام سنگ » قائد الراجپوتيين فى صف دارا حتفه ، حين هجم على « مراد » يريد القضاء عليه ، فتفرق جنوده الراجپوت ، ووقع الخلل فى صفوفهم ، وفى ذلك الوقت وقعت الكرة الملتهبة التى كانوا يستعملونها فى الحرب على رأس الفيل الذى يركبه « دارا » ، وانفجرت ، فتركه واستقل فرسا ، ورأى جنوده هذا فظنوا

أنه يتأهب للفرار سريعا من المعركة ، نخارت قواهم المعنوية ، وأخذوا يفرون من المعركة ، ولحقهم « دارا » يسابقهم فى الفرار حتى وصل إلى « أكرا » ولكنه لم يذهب إلى أبيه خجلا مما أصابه ، بل أخذ بعض المال والجوهرات وزوجته وأولاده ، وتابع فراره إلى دلهى .

وفى ثلاثة أيام كانت الجنود الظافرة أمام العاصمة معسكرة . واستقبل أورنكزيب فى طريقه وفى معسكره كبار رجال الحاشية والقواد والأمراء . مهنئين مقدمين خضوعهم له ، ولم يفت شاهجهان أن يشترك كذلك فى تكريم ابنه المنتصر ، فأرسل إليه سيفا مرصعا بالجواهر ، وقد نقش عليه اللقب الذى منحه إياه ، وهو لقب « عالمكير » أى آخذ العالم وسيده ، ولكنه لم ينخدع ، ولم يترك الأمر فى يد أبيه المريض ، لئلا يستعيد دارا شكوه ويمكن له فى الملك ، ولذلك دخل العاصمة وقبض على أبيه واعتقله فى القلعة ، وأحاطه بكل أنواع التكريم ، حتى لم يفقد شيئا من أبهة الملك اللهم إلا السلطة التى كان قد فقدها من قبل ، وقد قضى شاهجهان فى هذا الاعتقال نحو ثمانى سنوات حتى توفى سنة ١٠٧٦ هـ - ١٦٦٦ م ، وهكذا كانت نهاية هذا الملك الذى أطلق عليه المؤرخون اسم الملك المحظوظ . رأى بعينيه القتال الدامى بين أبنائه على الكرسى الذى يشغله . وهو مريض لم يستطع أن يوقف هذا القتال ، وعاش حتى أفعم قلبه بالألم للمآسى التى خلفها هذا القتال ، أفتراه ملكا محظوظا حقا ؟!!

فر « دارا » إلى دهلى منهزما ، فكان على أورنكزيب ومراد أن يتعقباه بعد أن خلا لهما الجو فى « أكرا » حتى يقضيا عليه نهائيا ، ولكن خلو المجال لهما جعل كلا منهما يطمع فى الملك ، وبدأت حاشية كل واحد تزين له أنه الأجدر والأحق ، وتعمل لذلك ما استطاعت ، ولم يكن مراد بالرجل الذى يوضع فى كفة أمام أورنكزيب ، ولكن المطامع كثيرا ما تنسى الناس أقدارهم والحقائق البارزة أمامهم .

وأحس أورنكزيب بهذا الذى يدبره أخوه وحاشيته ، وفى ليلة كان

مراد مخمورا فأركبه على فيل ، وساقه إلى قلعة سليم فى دلهى ، ثم نقله إلى سجن قلعة « كواليار » المعروفة بسجن الأمراء ، وبذلك انتهى أمر مراد .

وفى ذى القعدة سنة ١٠٦٧ هـ - ١٦٥٧ م أعلن أنه صار ملكا على الهند خلفا لأبيه ، ولكنه أجل الاحتفال بذلك حتى يفرغ من مشاكله مع دارا الذى فر إلى لاهور ، ومع شجاع الذى عاد من بنگال إلى بنارس ، وبدأ يعد العدة هو الآخر للاستيلاء على العرش .

تعقب دارا شكوه فى لاهور ، ثم فى ملتان حتى فر إلى السند ، فأرسل بعض قواته لمطاردته والقبض عليه ، ورجع هو إلى دهلى ليحل مشكلته مع شجاع الذى أعد عدته للهجوم على أخيه ..

وكان السادات حكام إله أباد وبنارس يعاونونه ، وأمدوه بفيلة مدربة على القتال بسلاسل زنة الواحدة ٢٤٠ رطلا، تحركها فى الهواء وتضرب بها ذات اليمين وذات الشمال فلا يبقى أمامها جندى واحد ، وحين تلاقى الجيشان وهجمت هذه الأفيال وهى مخمورة حدثت الفوضى فى صفوف أورنگزيب ، حتى اضطر هو للنزول إلى قلب المعركة ، وقيد فيله حتى لا يفر ، وأمر بضرب النار على ركاب الفيلة ،فسقطوا وفرت فيلهم، وأخذت الدائرة تدور على شجاع وجنوده فلاذ بالفرار، وتعقبه بعض القواد حتى بنگال فآسام ، وهناك اختفت آثاره . واستراح أورنگزيب منه .

ولكن لازال أمر « دارا » معلقا لما ينته بعد ، وقد عاد من السند إلى أجمير وأخذ يعد عدته للهجوم ، فخرج إليه أورنگزيب وهزمه ففر ، وخلا الجو أو كاد من المنافسين له ، ولذا بدأ يعد العدة للاحتفال بجلوسه على العرش ، وكان ذلك فى رمضان سنة ١٠٦٩ هـ - ١٦٥٩ م ، وكان احتفالا رائعا عم خيره الناس جميعا : الكبار والصغار ، وزاد من روعته وبهائه وصول الأنباء إلى الملك بالقبض على داراشكوه فى السند وإرساله إليه ، وانتهى الأمر بقتله بعد أن اعتمد الملك على فتوى من العلماء بخروجه على الدين ، ومحاربته الحاكم

الشرعى ودفن فى مقبرة همايون[١] ، وبذلك صفا الجو لأورنكزيب ، وكأنما ساقته العناية الإلهية ليكون حاكما فذا ، ويصبح على مر التاريخ مثالا طيبا للملك المسلم الذى يعتز المسلمون به وبسيرته الصالحة ، وذلك على الرغم مما صاحب اعتلاءه للعرش من سفك للدماء .



شاهجهان فى متصورته الملكية يستقبل الزوار

---

(١) قبض عليه « ملك جيون » أحد أمراء السند بعد أن استضافه أياما وتقرب به إلى عالمجير . ولكنه حين ظهر فى شوارع دلهى ثانى غضب الشعب عليه فى قذائف الحجارة حتى كاد يقتل ، وحينما قتل داراشكوه وطافوا به فى الشوارع للتشهير به كانت دموع الناس تجرى أنهارا عليه ، وثانى يوم قتل الذى قام بهذه المظاهرة بفتوى من العلماء كذلك . اهـ تاريخ الهند لسيد هاشمى ، ولعل ثورة الشعب كانت لحبه لداراشكوه ولهذه الانتهازية التى دفعت « ملك جيون » إلى الغدر بضيفه ثمنا للزلفى عند الملك

أورنكزيب - عالمكير (١)



هو أبو المظفر محيى الدين محمد أورنكزيب الامبراطور المغولى المسلم، الذى يعتبره المسلمون المثل الطيب للحاكم المسلم الزاهد المتمسك بالشريعة وآدابها، العامل على إحيائها، وقد ولد فى بلدة «دوحد» شمال برودة فى كجرات بنحو ٧٠ ميلا فى ١٥ من ذى القعدة سنة ١٠٢٨ هـ - ١٦١٩ م وأمه «أرجمندبانو» المشهورة باسم «ممتاز محل» المدفونة فى مقبرة «تاج محل»، وقد ولد فى عهد جده «جهانكير» وتربى تربية دينية على يد كبار العلماء، حتى أصبح متبحرا فى العلوم الدينية، متعبدا على نسق الصوفيين برغم اشتغاله بأمور الملك، لم يشرب الخمر قط، ولم يسمع الغناء مع مهارته فى الإيقاع والنغم منذ صغره، ولم يستعمل الذهب والفضة، وأمر أن يستعاض عنهما بغيرهما، وتزهد

---

(١) معنى «أورنجزيب» زينة العرش: فأورنج معناها: عرش، وزيب معناها: زينة. ومعنى عالمجير: آخذ الدنيا وسيد العالم.

وتقشف طول مدة حكمه . ويعتبره المؤرخون أعظم امبراطور مغولى بلغت الدولة فى عهده الذروة التى لم تبلغها قبله أو بعده ، وإن كان بعض المؤرخين الهندوس والغربيين ومن له اتجاه أو مذهب خاص من المسلمين يأخذون عليه أنه كان مسلما متعصبا !! ، ولكننا نعرف أن كلمة متعصب هذه فى نظر هؤلاء تساوى فى نظر المسلمين معنى : العامل بدينه : ؛ لأن هؤلاء لا يروقهم المسلم المتمسك بدينه ، وإنما يعجبهم رجل مثل « أكبر » ، يرفعونه إلى السماء . . ولعل مثل هذا الحكم من المسلمين - أعنى أنه المثل الصالح للملك المسلم - يبدو غريبا بعد ما عرفنا من الحروب التى خاضها عالمكير فى سبيل الوصول إلى الملك وقتله لإخوته ، ولكننا نعلم أن مثل هذه الحروب لا تحكم على الرجل بقدر ما يحكم عليه عمله وسيرته فى الحكم بعد أن يستقر فيه ، وتستقيم له الأمور ويأخذ على عاتقه مسئوليتها . ونحن من خلال هذه النظرة نقدم لك هذا الامبراطور . .

حكم عالمكير نيفا وخمسين سنة لم تخل من المتاعب والحروب ، بل كانت سلسلة متتابعة من الحروب هنا وهناك ، وكثيرا ما كان الملك على رأس جيشه يباشر تأديب أعدائه بنفسه ، ويضم ممالك جديدة إلى رقعة مملكته ، حتى إنه لم يعرف طعم الراحة والإقامة الهنيئة فى عاصمة ملكه ، وقد سبقت حكمه فترة من الزمن ، وجهاز الدولة مرتبك ، والمسئولون فيها مشغولون بأنفسهم والحروب بينهم ، فأتاح هذا لمن يريد الخروج على سلطانها أن يخرج ، فلما استقر الأمر له بدأ يتجه إلى تسكين الفتن وفتح الممالك .

كان قائده « مير جملا » يقود جيشه فى الشرق ففتح « كوج بهارى » الذى كان مستعصيا على أبيه ، ثم تابع زحفه نحو الشرق يتتبع شجاع ، حتى وصل إلى أسام فأخضعها للملك المغول ، وكذلك ولاية آرا كان على حدود بورما ، ورأى نفسه قريبا من الصين فأراد أن يمد فتوحه إليها ، ولكن الأمطار حالت دون ذلك ، فرجع إلى « داكا » فى بنگال وتوفى فى رمضان سنة ١٠٧٣ هـ - ١٦٦٣ م .

وبعد ذلك بنحو سنتين استفحل أمر القراصنة واللصوص على الشاطىء الشرقى والشمالى لخليج البنگال ، فقام واليها بالقضاء عليهم وضم «ولاية چانگام» الخصبة إلى ولايته .

وفى ذلك الوقت كان أهل التبت يسببون القلاقل والمتاعب لوالى كشمير ، كما قامت قبائل الأفغان فى مناطق الجبال الشمالية الغربية بثورات على حكم المغول ، أما أهل التبت فقد تولى والى كشمير إخضاعهم ، وصاروا تابعين للدولة المغولية . وأما قبائل الأفغان فقد قام الملك بنفسه على رأس جيشه لإخضاعها سنة ١٠٨٠ هـ — ١٦٧٠ م . وعين قائده العظيم «آغر خان» لإخمادها ، وكان «آغر خان» من نوادر الرجال والقواد ، أبلى بلاء حسنا فى جيش عالمگير فى حروبه فى بنگال والدكن . وخصه الملك بعناية لم يظفر بها قائد من القواد . وقد كتب بعض المؤلفين كتاباً عن حروبه وسماه «آغر نامه» ، وقد استطاع هذا القائد الباسل أن يقضى قضاء نهائيا على تحركات الأفغان ، ويخمد أنفاسهم ويثير الرعب فى نفوسهم ، حتى كان الآباء يخوفون أولادهم بذكر اسمه ..

مع ستنامى :

بعد ذلك فى سنة ١٠٨٢ هـ - ١٦٧٢ م شغل الملك بحرب - لم تكن متوقعة - مع طائفة من فقراء الهندوس تعرف باسم « ستنامى » ، تسكن فى ناحية « نارنول » على بعد ٦٠ ميلا من دلهى . بدأت بصدام بسيط بين البوليس وأحد هؤلاء ، ولما هب رجال البوليس لنجدة إخوانهم تجمع هؤلاء وهزموهم ، فاستفحل أمرهم وقوى نفوذهم ، وزحفوا إلى دلهى حتى أصبحوا على بعد ٣٥ ميلا منها ، وشاع فى الناس أنهم ينتصرون بقوى السحر !! ، وفت هذا فى عضد جيش عالمگير وبث الرعب فيه ، فرأى الملك أن يحارب سلاح هؤلاء الفقراء الفتاك بسلاح من جنسه - ولا يفل الحديد إلا الحديد - فكتب تعويذة - وكان مشهورا بالصلاح - وأعطاها لقائديه راجابشن سنگه

وحامد خان ، فقويت روحهم المعنوية ، وهجموا على الفقراء المشعوذين فأبادوهم وأخمدوا ثورتهم ، بعد أن بدأت تمتد ألسنة لهيبها إلى أكرا وراجپوتانا .

فرض الجزية :

وفى هذا الوقت - أى سنة ١٠٨٢ هـ ١٦٧٢م - اتجه الملك إلى إعادة فرض الجزية على الهندوس تنفيذا لتعاليم الإسلام ، وهى تؤخذ من غير المسلمين نظير ما يفرض على المسلمين من زكاة وجهاد ، فى مقابل قيام الدولة بحفظ الأمن وتوفير الضرورات لهم ، وكان « أكبر » قد ألغاها عن الهندوس تمشيا مع سياسته التى أبعدها عن دائرة الدين ، وفرح بذلك الهندوس واطمأنوا ؛ إذ كانوا ينظرون إليها على أنها شعار الذل والقهر ، واستمر إلغاؤها بعد أكبر أكثر من مائة سنة فى عهدى جهانگير وشاهجهان ، ومدة كبيرة من عهد عالمگير ، لذلك كان لفرضها من جديد وقع سيء فى نفوس رعاياه الهندوس ، وثاروا وتجمعوا أمام القلعة حتى سدوا الطريق بينها وبين المسجد الجامع المقابل لها ، ولم يستطع الملك الخروج لصلاة الجماعة ، ولم تجد الوسائل السلمية لصرفهم ، وحينئذ أمر الملك بأن تتولى الفيلة تفريقهم وتشتيتهم ، وأصر على تنفيذ الشريعة فى هذه الناحية ، ولم يكن فى ذلك متعنتا أو قاصدا إهانة شعبه ، لأننا نجده من ناحية أخرى قد ألغى بعض الضرائب التى لم تفرضها الشريعة وأعفى الهندوس وغيرهم منها .

لكن الهندوس وغيرهم من المؤرخين الأوربيين لم يهضموا فكرة الملك واتجاهه لتنفيذ شريعة الإسلام فى هذه الجزئية ، وإن كانوا بالطبع قد تقبلوا بسرور إلغاء بعض الضرائب التى لا تتفق مع الإسلام ، وكانت الجزية قبل المغول تؤخذ على الرجل من ١٠ إلى ٤٠ من السكة الموجودة حينذاك ، ولكن فى عهد عالمگير كانت ١٣ روبية سنويا ، فكانت من جملة الأسباب التى دفعت الهندوس فى راجپوتانا وغيرها على الثورة .

ثورة الراجبوت :

منذ عهد أكبر ، وبعد الصلات الطيبة التى قامت بينه وبين الراجبوت خصوصا والهندوس عموما ، والدولة لم تشهد حربا مع هؤلاء الأقوياء فى عهد جهانگير وشاهجهان ، بل كانوا أداة فى يد الحكومة والجيش ، وتفانوا فى خدمتها والدفاع عنها ولو ضد أبناء جنسهم ، وكان منهم القواد والحكام والموظفون الكبار والصغار .

من هؤلاء القواد « چسونت سنگ » وكان فى جيش شاهجهان الذى وجهه داراشكوه لتأديب أورنگزيب فى الدكن ، ووقعت بينهما موقعة انهزم فيها « چسونت » وفر ، ثم عاد فقدم الولاء لأورنگزيب حين انتصر على دارا ، فعفا عنه وأعاده إلى منصبه ، وجعله قائدا على الجيش الذى وجهه لحرب أخيه « شجاع » ، ولكنه خان وانضم إلى شجاع ، ثم فر بعد هزيمته . ومع ذلك عاد وطلب العفو ، فعفا عنه وأعاده إلى مركزه . ومرة وجهه إلى كابل على رأس جيش من الراجپوت ، وفجأة علم الملك أنه جاء من كابل مع جيشه دون إذنه ، وأنه حارب أميرا من أمراء السند حين اعترض عليه وقتله ، فغضب الملك عليه لكل هذا ، وحين وصل بجيشه إلى دلهى أمر ببقائه خارجها ، وحجزه مع أهله وأولاده هناك .

ولكن بعض الجند العائدين إلى راجپوتانا استطاعوا أن يأخذوا معهم أحد أولاد « چسونت » خفية ، حيث وصل إلى « رانا(١) أودى پور » وقص عليه قصة حجز « چسونت » وأولاده ، وكان هذا الرانا مع راجا جودپور الراجپوتى أيضا يتكاسلان ويتلاعبان فى أداء الجزية ، ويعاونان الخارجين على الملك ، فرأى الملك بوادر الفتنة فى هذا ، وذهب بنفسه إلى « أجمير » ثم أرسل إليهم إنذارا بسرعة أداء الجزية والامتناع عن مساعدة الخارجين ، وأرسل جنوده سريعا إلى هناك ، فاضطروا إلى طلب العفو ،

---

(١) لقب مثل (راجا) لكنه أعلى منه

وتعهدوا بعدم حماية ابن « جسونت سنگث » ، ومكث الملك فى هذه المهمة شهوراً ورجع سنة ١٠٨٨ هـ - ١٦٨٨ م ، ولكن لم يلبث هؤلاء أن نقضوا عهدهم ، وأعلنوا الثورة جهرا على الملك ، فرجع سريعا إلى « أجمير » بجيشه ، وعين ابنه « محمد أكبر » ومعه « تهور خان » للقيادة ، وأمرهما بالذهاب لتأديب العصاة ، فى الوقت الذى أمر فيه والى الدكن ووالى گجرات بالهجوم من ناحيتهم على الراجپوت ، فاضطر الرانا للفرار ، إلى الجبال بجيشه الذى اتحد مع جيش جوديپور ، فحاصرتهم جنود الملك ، وخربوا الأراضى الخصبة حولهم حتى لا تصلهم مئونة ، وهنا لجأ الثائرون إلى الحيلة ، وأخذوا يغرون محمد أكبر ومحمد معظم ابنى الملك ، ويستميلونهما ويمنونهما حتى انضم إليهم محمد أكبر وخان أباه ، وأعلن أنه الملك ، وبدأ فى الزحف بجنوده ومعه الراجپوت إلى أبيه ، ولكن أمراء جنده حينما قاربوا مكان الملك أخذوا يفرون إليه واحدا بعد الآخر ، وعلى رأسهم « تهور خان » ، ففترت حماسة الجند وانفضوا من حوله وتركوه ، فأسقط فى يده وسارع فالتجأ إلى المراهتا فى الجنوب [1] . أما الراجپوت فلم يجدوا بدا من التسليم والخضوع ، حتى رانا أوديپور استشفع بمحمد معظم ابن الملك ، فعفا عنه وقربه إليه ، وأعطى له منصبا فى حاشيته ، وبقى كذلك حتى مات ، فخلع الملك على ابنه « جى سنگث » ، وأخويه الخلع ، وأعطاهم المناصب العالية ، فتفانوا فى خدمته والإخلاص له حتى مماتهم ، وبهذا انتهت فتنة الراجپوت سنة ١٠٩٠ هـ - ١٦٧٩ م ، وتفرغ الملك لعدو آخر ذى بأس وشدة ، أخذ يقلق الدولة فى الجنوب ويغير على المسلمين فى الدكن وهو سنبهاجى بن سيواجى المراهتى .

حروب المراهتا :

المراهتا قوم يمتازون فى الهند من قديم بلغتهم وحضارتهم الخاصة ويسكنون فى شمال بومباى وجنوبها ، ويشتهرون بشدة بأسهم مثل الراجپوت ، وهم

(١) بعد ذلك فر إلى إيران وانتهى أمره سنة ١٦٨١ .

جنس من الأجناس المتعددة التى تسكن الهند [1] ، يبدأ حديثنا عنهم هنا من عهد سيواجى أو سيفاجى أو سهواجى كما ينطق أحيانا وهو والد سنبهاجى .

بدأ سيفاجى حياته فى قرية صغيرة ، ثم التحق بجنود عنبر الحبشى الذى سبق الحديث عنه حينما تحدثنا عن أحمد نگر والمغول ، وامتاز بشجاعته ، فأخذ يتدرج فى مناصب الجيش حتى احتل مكانا رفيعا ولقى إعزازا وتكريما ، وكان المراهتا بحكم وجودهم فى مملكتى أحمد نگر وبيجاپور يقاتلون المغول فى صف هاتين الدولتين ، وأخذ سيفاجى يقوم بحملاته لحسابه هو لا لحساب هاتين الدولتين . وحينما رحل أورنگزيب من الدكن تاركا حصار بيجاپور سنة ١٠٦٦ هـ - ١٦٥٦م ، وأسرع إلى أگرا ، ودارت الحرب بينه وبين إخوته من أجل الملك انتهز سيفاجى الفرصة . وأخذ يستعد ويهجم على أماكن متعددة ، ويوسع ولايته على حساب المسلمين ، سواء فى ذلك المغول أم بيجاپور ، فأرسل اسكندر شاه ملك بيجاپور جيشا بقيادة أفضل خان لتأديبه سنة ١٠٦٧هـ - ١٦٥٧م ، ولم يكن من القوة بحيث يستطيع مجابهة جيش بيجاپور ، فاعتمد على الحيلة والغدر ، وظلت الدولة مشغولة به عدة سنين حتى تم الصلح بينه وبينها .

وحينئذ اتجه للإغارة على أملاك المغول ، فهجم على « أورنگ آباد » سنة ١٠٧٢ هـ - ١٦٦٢ م ، ونهب عدة أمكنة ، فأرسل له أورنگزيب أحد قواده على رأس جيش استطاع أن يأخذ « پونا » عاصمة سيفاجى الذى لاذ بالجبال ، ولم يستطع مجابهة المغول ، ولكن ساعده الحظ حين نقل الملك قائده إلى بنگال ، وعين مكانه ابنه « محمد معظم » ، فاستطاع أن يعود ويقوى نفسه حتى ضرب النقود باسمه ، وكانت هذه من سمات الاستقلال - وزاد على ذلك فأخذ

---

(١) اشتق اسم المراهتا من كلمة « مهارا شترا » التى تعنى « المملكة الكبرى » فهذا الاسم والعرق الذى يدل عليه قديمان فى الهند إلى الغاية ، فلا نستطيع أن نعين بالضبط حدود مهارا شترا القديمة ولا أصل الشعب الذى كان يسكنها ، فى القرن السابع عشر فقط ظهر المراهتا على مسرح التاريخ فمثلوا دورا مهما ، وفتحوا قسما كبيرا من الهند ، وأقاموا دولة أهلية ، وعددهم الآن (فى القرن التاسع عشر) عشرة ملايين ، ويعتنقون الديانة البرهمية (حضارة الهند ص١٤٧) وهم الآن يمثلون الأغلبية فى ولاية « بومباى » .

يهاجم قوافل الحجاج فى « سورت » حيث كانوا يبحرون منها للحجاز قبل أن تنشأ ميناء بومباى، واستفحل شره، وأخذ يهدد حركة الملاحة على الشواطىء، فأرسل له الملك جيشا كبيرا استولى على « پونا » مرة ثانية سنة ١٠٧٥ هـ - ١٦٦٥ م، وأخذ يتعقبه حتى حاصره، واضطره للتسليم، وشتت المراهتا وأذلهم، وتقدم « سيفاجى » خاضعا للقائد « جى سنگ »، ثم عفا عنه الملك وأحسن إليه، وعين ابنه « سنبهاجى » فى إحدى الوظائف الكبيرة تكريما له، ولما توجه الملك إلى « بيجاپور » سار سيفاجى فى ركابه وعاونه، فازداد الملك رضا عنه، وسلمه وثيقة يسجل فيها هذا الرضا.

وفى سنة ١٠٧٦ هـ - ١٦٦٦ م، توجه إلى آگرا للاشتراك فى إحدى الحفلات الملكية حاملا معه الهدايا للملك، فقوبل مقابلة كريمة، وأعطاه الملك منصبا كبيرا، لكنه استصغره وفر راجعا إلى الدكن، وهناك استعان بملك گولكنده « أبى الحسن تانا شاه » [1]، فأمده بالسلاح الذى استعمله فى الهجوم على بيجاپور وأملاك المغول معا، وكان جيش المغول فى ذلك الوقت مشغولا بحصار بيجاپور، فأتيحت له الفرصة كى يستعيد أملاكه التى اضطر من قبل للتنازل عنها للمغول، ولكنه لم يلبث أن اضطر إلى الصلح وطلب العفو من « محمد معظم » فعفا عنه، وأقطعه بعض الأراضى فى « برار » فاستقر بها، وأخذ ينظم إقطاعيته الصغيرة بما استفاده من أنظمة المغول، فقوى جيشه وأخذ يعتدى على گولكنده، كما أعد أسطولا نازل به الغربيين الذين جاءوا للهند ينازعون أبناءها السيطرة عليها، واستمر كذلك حتى توفى سنة ١٠٩٠ هـ - ١٦٧٩ م وترك رياسة قوية للمراهتا فى الجنوب خلفه عليها ابنه سنبهاجى.

---

(١) يعرف بأبى الحسن تانا شاه الحيدر أبادى لأن حيدر أباد كانت عاصمة له، وكان حصن كولكنده قريبا منها، وكان شيعيا تولى الحكم سنة ١٠٨٣ هـ - ١٦٧٣ م، وترك الحكم فى يد الهندوس بينما كان منهمكا فى ملذاته فعاثوا فى الدولة الفساد. ولد فى حيدر أباد وتعلم علوم عصره وتصوف وسطع نجمه حين قربه الملك « عبد الله قطب شاه » وزوجه بابنته، ثم اعتلى العرش بعد وفاة صهره، وكان عالما متبحرا، قبض عليه أورنجزيب فى قلعة « دولت أباد » وظل بها حتى مات، وانقرضت الدولة بموته فى ربيع الأول سنة ١١١١ هـ - ١٦٩٩ م.

ويذكر المؤرخون أن سيواجي لم يكن فى حروبه مدفوعا بعامل التعصب الديني، بل بالعوامل السياسية ، ولذا كنا نراه يتفق مع المسلمين أحيانا ، ويحارب فى صفوفهم ، وكان يحترم المصحف ويعظم المساجد ـ هكذا يذكر المؤرخ الهندى سيد هاشمي ـ وقد قيل : لى إن الهندوس يعتبرون سيفاجي من كبار المجاهدين ويحتفظون بصوره فى بيوتهم تكريما لذكراه(١) وقد أقامت له الحكومة الهندية أخيرا تمثالا باعتباره من الأبطال الوطنيين .

سنبهاجي

لم يكن سنبهاجي منذ صغره مثل أبيه ، بل كان نزاعا للشر والظلم المسلمين والهندوس على السواء ، حتى عزره أبوه كثير السوء سلوكه، وكان أبوه يتحفظ من الهجوم على المدن الهامة للمسلمين ، لكن هذا بدأ فأغار على « برهانپور » وسلب ونهب ، فاستغاث الأشراف وغيرهم بالملك ، وكان فى ذلك الوقت قد فرغ من حربه مع الراجپوت واستقر له الأمر كما قدمنا ، فتوجه بنفسه على رأس جيش عظيم إلى الدكن ، ليقضى على هذا المشاغب ويصفى حسابه معه ومع الدولتين الإسلاميتين بيجاپور وكولكنده .

أما سنبهاجي فلم يقو على مواجهة جيش الملك ، وداخله الرعب حين توجه الملك بنفسه للجنوب ، فانكمش وانصرف إلى لهوه وترفه ، وتقدم المغول فأخذوا بعض مقاطعاته التى ورثها من أبيه ، ثم زحف جيش مغولى آخر بقيادة « مقرب خان » واستطاع القبض عليه ، وسيق مقيدا على فيل يشاهده

---

(١) يقول عنه جوستاف لوبون فى كتابه حضارة الهند ص ١٤٨ : والأفاق سيواجي هو الذى أسس دولة المراتها وجعل من تلك البلديات الزراعية الصغيرة المجهولة الأمر أمة محاربة مرهوبة فى القرن السابع عشر ، وهو الذى ألف عصابات ذات بأس شديد فسارت فى الدكن وألقت الرعب فى المدن حتى هدمت الدولة المغولية .

وقد مررت ببلدة تسمى gosty فى ولاية « اندرابرديش » شمال مدراس فى ١٩٥٧/١٢/٣ وقال لى مولانا الدكتور عبد الحق مدراسى أنها كانت مركز سيواجي وله فيها قلعة ظلت حتى حيمها السلطان « حيدر على » حين استولى عليها من المراهتا .

الناس ويشمتون فيه ؛ لما أصابهم منه من ظلم وعدوان ، وفى مجلس الملك أساء وزيره الذى كان معه إلى المسلمين ، وأخذ يهاجمهم مما جعل الملك يغضب ويعاجلهما بالقتل . لكنه فى نفس الوقت احتضن ابنه « ساغو » ، ورباه وقربه إليه ؛ مما جعله دائما يذكر هذا العطف بكل إخلاص ووفاء حتى مات .

ولكن الأمر مع ذلك لم ينته ؛ فقد قام «رام راجا» أخو سنبهاجى خلفاله ، واعتمد على الإغارات والسلب والنهب هنا وهناك ، فتعقبته جيوش الملك بقيادة «سردار ذى الفقار خان» حتى اضطرته للفرار إلى «برار» سنة ١١٠٩ هـ - ١٦٩٨ م ، وانتهى أمره ، وتفرق أمر المراهتة ، لكنهم كانوا لا يزالون يغيرون ويلجئون للجبال فى كوكن وغيرها ، وكان الملك قد تجاوز سنه الثمانين ، ومع ذلك صمم على قطع دابر هؤلاء وإخمادهم ، فظل فى الدكن عدة سنوات حتى قضى على كل حصن لهم ، وخضد شوكتهم تماما وأقر الأمر فى الجنوب كله ، وكان ذلك سنة ١١١٦ هـ - ١٧٠٥ م . لكن مما لا شك فيه أن القوة الغلابة هى التى أسكتتهم ، ومثل هؤلاء ينتهزون أول فرصة لضعف المملكة ، ويهبون للهجوم عليها والاستقلال عنها .

فلنترك هؤلاء إلى حيث انتهى أمرهم ، ولنعد إلى أمر بيجابور وگولكنده .

الاستيلاء على مملكتى بيجابور وگولكنده :

كانت فى الجنوب - كما ذكرنا من قبل - خمس دول إسلامية ، قامت على أنقاض الدولة البهمنية ، وقد أخذ المغول يقضون عليها الواحدة بعد الأخرى ويضمونها إلى ملكهم ، ولكن بقيت دولتان تتمتعان باستقلالهما ، وفى عهد شاهجهان هاجمهما ابنه أورنگزيب ، وأرغمهما على تأدية الخراج ، وعدم معاونة الخارجين على سلطان المغول فى الجنوب ، ولكنهما لم يوفيا بعهدهما ، فتباطآ فى أداء الخراج ، وأخذا يعاونان سيفاجى ثم سنبهاجى وغيرهما على المغول فكانا مع المراهتة جرحا كبيرا فى جسم الدولة يحتاج إلى علاج حاسم وسريع ، ولذلك سافر الملك للجنوب بعد أن انتهى من أمر الراجپوت - كما

قلنا من قبل ـ وأخذ يعالج هذه الأمور جميعها ، وقد ذكرنا أمر المراهتة ونهايتهم ، وبقى أن نذكر أمر هاتين الدولتين .

حينما ذهب الملك للجنوب أخذ يراسلهما بشأن الخراج ، وإعانتهما لأعدائه وتواطئهم مع الهندوس ضده ، وأرسل ابنه « محمد معظم » بجيش صغير إلى « بيجاپور » لكنه لم يحرز نجاحا ، فأرسل له مددا آخر بقيادة « غازى خان » ، فالتقى بجنود بيجاپور فى « إندى » وانتصر عليها وزحف إلى العاصمة وحاصرها سنة ١٠٩٤ هـ - ١٦٨٣ م ، وطالت المحاصرة حتى وقع الخلاف بين قواد المغول ؛ بسبب ما علموه من تآمر « معظم » مع البيجاپوريين ضد أبيه ، وتعاونه معهم سرا ضد القواد الذين معه ، حقدا عليهم ، فاضطر الملك للذهاب إلى هناك ، والإشراف على الحرب بنفسه ، مما أرغم الملك إسكندر شاه على التسليم فى ذى القعدة سنة ١٠٩٦ هـ - ١٦٨٥ م وأصبحت بيجاپور من أملاك المغول ، وقد أحاط أورنگزيب الملك اسكندر شاه وحاشيته بكل أنواع التكريم وأعطاهم الإقطاعيات الواسعة .

أما گولكنده فقد كانت أشد عداوة للمغول من بيجاپور ، كان ملوكها من الشيعة ، وقد سبق أن أجبرهم شاهجهان على التعهد بدفع الخراج ، وعدم سب الخلفاء الراشدين والتبرؤ منهم ، وعلى ذكر اسمه فى الخطبة بدل اسم شاه إيران ، ولكن ملوكها لم يخلصوا فى تعهدهم ، لا سيما « أبو الحسن تانا شاه » الذى تأخر فى دفع الخراج ، وأمد سيفاجى بالسلاح ، وعاونه ضد المغول ، وأكثر من ذلك ، كان قد أعد جيشا كبيرا لمساعدة بيجاپور حين حاصرها الملك ، وزحف جيشه فعلا إلى هناك فى الوقت الذى كانت بيجاپور قد انتهت ، وشرع المغول فى الزحف إليه لتصفية الحساب معه هو الآخر .

كان أبو الحسن شاه منصرفا إلى لهوه ، تاركا أمور الحكم كلها فى يد وزيره الهندوسى « مادنا بانديت » وقد نصحه كثير من الأمراء بعدم معاداة المغول ، وبوجوب الوفاء لهم بالتزاماته ، لكنه لم يستمع لنصحهم واستمر فى عناده .

كان جيش المغول الزاحف بقيادة « محمد معظم » سنة ١٠٩٦ هـ - ١٦٨٥ م وكان فى حاشيته وأمراء جنده كثير من الإيرانيين الشيعة الذين يتلاقى هواهم مع أبى الحسن ، أو على الأقل يعطفون عليه لاتفاقهم جميعا فى المذهب ، وكان معظم نفسه متشبعاً من هؤلاء بالعطف على الشيعة وعلى أبى الحسن بنوع خاص ، وقد أداهم ذلك إلى أن يرسلوا لأبى الحسن ببعض شروط كانت خفيفة ومقبولة ، ولكن روحه العدائية جعلته يرفضها ويخرج بجيشه للحرب ، فلم يستطع أكثر الناس عطفا عليه أن يقف بجواره ، فوقعت الحرب وانتصر المغول ، ودخلوا بلدة « حيدر أباد » عاصمته فالتجأ أبو الحسن إلى حصن « گولكنده » قريبا منها ، ثم اضطر أخيراً إلى التسليم بالشروط المفروضة عليه ، ومنها حبس « مادنا باندیت » رئيس وزرائه ، وأداء الخراج ، وتسليم الأرض التى أخذها من المغول من قبل ، وكانت شروطا خفيفة بتأثير معظم والإيرانيين الذين معه أيضا ، لكن أورنگزيب رضى بها على ما فيها . وانتهى أمر « مادنا » بأن قتله بعض الخدم تخلصا منه . أما أبو الحسن فقد عاوده داؤه القديم ، ولم يوف بالشروط واستعد للحرب ، فارتحل الملك إلى « حيدر أباد » وأعاد حصار حصن گولكندة - وكان منيعا - فطال الحصار ، واكتشف الملك أن ابنه « معظم » والإيرانيين معه يتآمرون مع أبى الحسن على سلامته ، فحبسه مع من معه ، وثبت مع جيشه برغم المطر وقلة المئونة حتى بدأ التفرق فى صفوف المحاصرين ، وتقدم أحد قواد أبى الحسن ، وفتح باب القلعة فدخلها المغول ، واستولوا عليها وعلى ما فيها من أموال ومجوهرات واعتقلوا أبا الحسن سنة ١٠٩٨ هـ - ١٦٨٧ م بعد ثمانية أشهر من الحصار ، وبذلك انتهت گولكنده المستقلة ، وأصبحت هى الأخرى ضمن أملاك أورنگزيب ، ولم يبق فى القارة الهندية كلها خارجا عن أملاكه إلا المملكة الهندوسية فى الطرف الجنوبى للهند « ڤيجايانكر » ، فاتسعت مملكته اتساعا لم يشهده ملك من قبله أو من بعده ، حيث ضمت الهند وآسام وأراكان فى بورما ، وكذلك أفغانستان . وكانت تلك هى الذروة التى وصل إليها ملك المغول

وسبق أن ذكرنا أن جيش الملك ظل معنيا بعد ذلك بالقضاء على الجيوب التى كان يؤلفها المراهتا فى جسم الدولة حتى انتهى من أمرهم تماما سنة ١١١٦ هـ - ١٧٠٥ م ، ولكنه لم يعمر بعد ذلك طويلا ؛ فقد توفى فى « أحمد نكر » بالجنوب فى ٢٨ ذى القعدة سنة ١١١٨ هـ — ٢٠ فبراير سنة ١٧٠٧ م بعد أن حكم ٥٢ سنة ، وعمره نحو تسعين سنة ، ودفن فى « أورنگ أباد » ولازال قبره هناك يزار ويتبرك به .

وقد رأينا كيف قضى هذا الامبراطور حياته محاربا يتخذ من ميادين القتال سكنه الدائم ، وكأنما خلق هو لحياة النضال ، لا لحياة القصور ، وما فيها من متاع . لم يمنعه من ذلك عمره الذى بلغ التسعين ، ومات وهو فى ميادين القتال بعيداً عن عاصمة ملكه « دهلى » .. لقد كان أعجوبة من أعاجيب الزمان فى مختلف نواحيه .

أورنگزيب فى نظر التاريخ

ينظر المسلمون فى الهند إلى أورنگزيب نظرتهم إلى أولياء الله الصالحين، ولم تستقر هذه الفكرة فى أذهان المسلمين على مر القرون عبثا ؛ فإن ما عرف عنه من تدينه وورعه وزهده وتمسكه بتعاليم الشريعة يرتفع به إلى هذا المقام بلا شك ، وهذا هو الذى دفع المؤرخين الهندوس والأوربيين إلى التهجم عليه ، وتشويه سمعته ورميه بالتعصب ، ومشى معهم فى هـذا الموكب بعض المؤرخين المسلمين من الشيعة ، لأنه قضى على ملك الشيعة فى الجنوب فأصبح مذنبا فى نظرهم كذلك ومتعصبا .

ولا شك أن كلمة « متعصب » هذه كثيرا ما سمعناها من الأوربيين ، يرمون بها كل مسلم عامل بتعاليم دينه السمحة التى تكره التعصب وظلم الغير مهما كان دينه ، وهى كلمة تجرى كثيرا على لسانهم ، يخوفون بها المسلمين الذين ضعفوا أمام هجمات الغرب الحارة والباردة ، حتى أصبح من السهل على المسلم الضعيف إن يتنازل عن كثير من تعاليم دينه وشعائر عقيدته فى سبيل ألا يرميه هؤلاء

بالتعصب ، وهم فى رميهم المسلمين المتمسكين بدينهم بهذه التهمة متلبسون بها ؛ لأنهم ما دفعهم على هذا إلا تعصبهم ضد المسلمين ، وحقدهم على كل مسلم صحيح العقيدة سليم العمل بها ، ولذا وجدناهم يؤلفون مركبا يزفون فيه « أكبر » الذى خرج على دينه ، وتاه بين الأديان ، وسموه متسامحا ، فأصبحت كلمة التسامح عندهم تساوى تنازل المرء عن عقيدته ، وتلاعبه بما تفرضه عليه من واجبات ، ونحن لا نزال نرى الآن كلمة « تعصب » هذه يرمى بها ساسة الغرب وكتابه وصحافته كل مسلم مخلص لوطنه ودينه ، وكل جماعة إسلامية تحاول إعادة المسلمين إلى تعاليم دينهم ، فإذا نحن قرأنا فى كتب التاريخ وصف أورنكزيب بالتعصب فنحن ندرك تماما معنى هذه الكلمة ونقرؤها على أنها أكرم وصف لهذا الملك ، راجين أن يكون كل ملوك المسلمين ورؤسائهم على نسق أورنكزيب فهما لدينهم ، وعملا بتعاليمه السمحة ، التى يلقى المخالفون لها فى ظلها كل أمن ودعة واستقرار ، ما داموا لا يعتدون عليها ولا على معتنقيها . لقد أراد أورنكزيب أن ينفذ الإسلام فى ملكه ، وهذا ليس عيبا يعاب عليه ، ولم تكن تعاليم الإسلام فى يوم من الأيام ظالمة أو متعنته ، فإن الكثيرين من المسلمين دخلوا الإسلام بعد أن أحسوا حسن معاملته ، وحرصه على إقامة العدل والحرية بينهم ، وإن المنصفين لا يمكنهم أن يجدوا فى أعمال أورنكزيب انحرافا أو إكراها لأحد على اعتناق الإسلام ، أو تعصبا دينيا حمله على ظلم غير المسلمين .

فإذا كان قد حارب الراجپوت والمراهتا وأخضعهم فقد حارب مملكتى بيجاپور وگولكندة المسلمتين وأخضعهما ، بل حارب إخوته من أجل استقرار الحكم له . ومن المقطوع به تاريخيا أنه كان يحسن لهؤلاء بعد أن يستسلموا له ، ويغدق عليهم ويعطيهم المناصب ، وكثيرا ما كانت تتكرر منهم الإساءة ونقض العهد ، ولكنهم كانوا يلقون منه صدرا رحبا ، واستعدادا للعفو فى كل مرة . وما قتل سنبهاجى ووزيره إلا لما بدا من الوزير من تهجم على الإسلام والمسلمين فى مجلس الملك حين أتى بهما مقيدين ، وما كان لتبجح المغرورين إلا السيف ، ومع ذلك احتضن الملك ابنه « ساغو » وأغدق عليه النعم التى ظل يذكرها ويفى بها حتى مات .

ولقد كان كثير من قواده من الراجبوت ، وكان يستعين بالمراهتا ، وكذلك جميع الهندوس . فالأمر إذن لم يكن أمر دين يتعصب له تعصبا أعمى ، وإنما كان أمر حكم يجب أن يستقر ، وسياسة يجب أن تنفذ ، ولو كان متعصبا لما سلم قيادة جيوشه لقواد من الهندوس ، ولما وضع فى يدهم أمور الناس ، ولو كان متعصبا يهدم المعابد بتعصبه لما بقى فى الهند على الأقل هذه المعابد الكبيرة القديمة التى نراها الآن فى دلهى وأگرا ومترا وأورنگ أباد وغيرها من المدن الكبيرة فى الهند ، حقيقة إنه هدم بعض المعابد ، لكن ذلك كان لضرورة حربية أو وقتية ، ولم يكن لسياسة مرسومة فى الهدم ، ومن المعلوم كذلك أنه أقام وسمح بأقامة بعض المعابد ، فلا يتصور إذن أن يكون التعصب الأعمى هو الذى دفعه إلى هدم بعض المعابد[1] .

وحين فرض الجزية لم يكن هدفه الإذلال لبعض رعاياه ، بل كان يرمى إلى تنفيذ جزئية من التعاليم الإسلامية . والجزية ليست إلا ما لا يؤديه غير المسلمين للدولة نظير ما يؤديه المسلمون من واجبات الدولة خاصة بهم ، كالزكاة والجهاد ؛ لكى تقوم بواجباتها نحو الشعب من حفظ الأمن وتنفيذ المشروعات العامة ، وليس من العدل أن ينفرد المسلمون بأداء هذا الواجب للدولة دون أن يفرض نظيره على غيرهم ، وفى الوقت الذى فرض عليهم فيه الجزية أعفاهم من بعض الضرائب ، لأنه وجدها مخالفة لتعاليم الإسلام ، فلم يكن الغرض تعصبا أو أخذ مال وكفى ، ولكن كان الغرض صبغ دولته بالصبغة الإسلامية التى تحترم حقوق الآخرين وحرياتهم فى حدود القانون .

جاء فى كتاب « باكستان ماضيها وحاضرها »[2] عن « أرنگزيب » كان

---

(١) ملخصا من تاريخ الهند لسيد هاشمى ص ٢٥٩ ومن كتاب الأستاذ حبيب أحمد . وقد جاء فى نزهة الخواطر ج ٦ ص ١٣٠ فى بيان مآثره « من ذلك أنه وقف خلقا كثيرا من العلماء والمشايخ ليشتغلوا بالعلم والعبادة متطلعين فارغى القلوب عن كل هم ولم يفرق فيها بين أهل الإسلام وكفار الهند ، وتوجد مناشيره عند أحبار الهند وفى « بنارس » وغيرها حتى اليوم . اهـ

(٢) من مجموعه اخترنا لك ص ١٦ .

من أهدافه أن يجعل من بلاد الهند وحدة إسلامية ، فتخلى عن سياسة جده ، وفرض الجزية على غير المسلمين من الهندوس . وليس معنى هذا أنه كان متعصبا ، دينيا ، بل كان يريد دولة إسلامية لحما ودما ، تتبع التعاليم الإسلامية فى العدالة والمساواة دون تعصب يضر بمصلحة غير المسلمين ، فحين أشير عليه بفصل الموظفين الذين لايدينون بدين الدولة من المناصب العامة كتب يقول : « إن الدين لا علاقة له بالمسائل العلمانية ، وهذه المسائل التى نحن بصددها لا مجال فيها للتعصب » .

فالتعصب الذى يدفع المسلم إلى الظلم لم يكن موجودا قطعا عند عالمكير ، ولكن التعصب بمعنى الإخلاص للدين الذى يحرم الظلم والذى لايؤدى إليه كان مستوليا عليه حقا .

ومما لاشك فيه أن فرض الجزية قد خلق له متاعب شتى ، كان فى غنى عنها لو ترك الأمور تجرى كما هى منذ عهد أكبر ، ومن هذه الناحية يمكن أن ينقده المؤرخ كرجل سياسى كان عليه أن يغلب الحكمة السياسية على بعض تعاليم دينه ، ولكن عالمكير لم يكن قطعا من هذا الطراز ، بل كان الإخلاص للدين مستوليا عليه ، فجعل الحكم وسيلة لخدمة الدين ، ولم يجعل الدين مسخرا لأهواء الحكم . وكفاه بذلك - فى نظر كل منصف - فخرا وشرفا .

ومن الأشياء التى يتهمه بها مؤرخو الفرنجة ، أنه بدأ يخبط الأهالى بعصا عسفه ويفحش فى الجبايات والمكوس »[1] .

ونحن نضع بجوار هذا الادعاء ملخص ما جاء فى كتاب المسألة الهندية[2] « ولما كانت المجاعة وضعف الرياح الموسمية قد أجدبت البلاد فقد ألغى ثمانى ضرائب ، وإن كان حكام الأقاليم قد استمروا فى تحصيلها لأنفسهم ليجابهوا بها نفقاتهم الكثيرة . إلا أن أورنكزيب لم يفتأ يصدر التعليمات إلى

---

(١) نقلا عن حاضر العالم الإسلامى ج ٤ ص ٣١١ (٢) للاستاذ عبد الله حسين ص ١٨٧ نقلا عن كتاب حكم المغول فى الهند ص ٢١٢ وكتاب « من أكبر إلى أورنجزيب » ص ٢٧١ .

الموظفين لتخفيف الأعباء عن الأهلين ، فهو إذن كان يحمى الشعب من عسف الموظفين .

ويقول المؤرخ الهندى الكبير مولانا شبلى النعمانى فى كتابه عن أورنكزيب بالأوردية ماترجمته : « كان فى سابق عهده يؤخذ كثير من المحاصيل التى لا أصل لها فى الدين فأبطلها ، وجعل أساس التحصيل متمشيا مع تعليم الشريعة ، ولم تخسر الدولة بذلك شيئا » وجاء فى نزهة الخواطر أنه « أبطل ثمانين نوعا من المكوس سنة ١٠٦٩ ﻫ وكانت تحصل له من تلك الأبواب ثلاثون لكا (ثلاثة ملايين) كل سنة » .

ولاشك أن هذا يبعد الاتهام المذكور عن أورنكزيب . لاسيما إذا لاحظنا ماعرف عنه من تورع عن مال الرعية ، وحرص زائد على إنصافها كما سيأتى تفصيله . فلا يعقل أن يتورع الملك عن الإنفاق من بيت المال ، ويقوم بعمل الطواقى وبيعها والأكل من ثمنها ، لا يعقل أن مثل هذا الملك يرضى بأى ظلم يقع على رعيته ، وقد علم مرة أن أحد عماله حصلوا بعض الأموال من رعاياه بعد أن ألغاها ، فغضب وعاقبه ، ورد الأموال إلى أهلها . فهل مثل هذا يقال عنه إنه كان ظالما متعسفا فى تحصيل الضرائب من رعاياه ؟!!

ومن الأشياء التى أخذها عليه المؤرخون أنه قضى على المملكتين الإسلاميتين : بيجابور وگولكنده ، وكانتا سدا بينه وبين المملكة الهندوسية فى الطرف الجنوبى « فيجايانگر » مما جعل حدوده تتصل بها ، وتصبح أداة تهديد للدولة المغولية ، ثم يزيدون بأنه ماكان يصح أن يحارب دولتين إسلاميتين فى سبيل أن يضمهما إلى ملكه .

ولعل القارىء حين يرجع إلى ظروف الحرب بين هاتين الدولتين وبين أورنگزيب يعرف إلى أى حد كان معذوراً فى هجومه عليهما ؛ فلقد اشتركتا مع الهندوس المراهتا فى التهجم على أراضيه ، وقد كانت قبل هاتين الدولتين دول إسلامية ضمت إلى المغول قبل عهد عالمگير منذ عهد أكبر نفسه مثل

گجرات وأحمد نكر، وبرار وخانديس وغيرها ، فلم نسمع صوتا من المعجبين بأكبر أو من بعده يعترض عليهم لهذا العمل كما يعترضون على عالمكير !! وأعتقد أنه لو ظل المغول أقوياء لما كان لهذا الاعتراض وجود ، وعالمكير القوى لا يسأل عن ضعف خلفائه ، وتفريطهم فى صيانة الملك الواسع الذى تركه لهم ..

حقا . ما كان يصح أن تراق الدماء بين دولتين إسلاميتين لافى الهند ولافى غيرها ، لافى عهده ولا فى عهد غيره ، ولكنه لا يسأل وحده عن الأسباب التى أدت إلى هذه الحرب ، وقد ذكرنا أسبابها وظروفها سابقا . مع أنها كانت امتدادا لحروب من عهد أسلافه .

وقد ذكر مولانا شبلى النعمانى فى تاريخه عن أورنكزيب تفردات انفرد بها بين الملوك لا بأس أن نذكر طرفا منها فى اختصار :

فمنها : تنظيماته المالية والاقتصادية فيما يختص بالخراج والضرائب هادفا منها إلى تحقيق العدالة والرحمة .

ومنها : أنه عين فى كل ولاية نائباً له وأعلن فى الناس : من كان له حق على السلطان فليرفعه إلى النائب ، وأمر النائب أن يؤدى كل ما يثبت على السلطان (أى الحكومة) من حقوق ..

ومنها : أنه خصص موظفين يكتبون كل ما يقع من أحوال رعاياه ، ويرفعها إليه ، فكان بذلك يقف على أحوال رعاياه أولا بأول ، وكان لا يكتفى بذلك ، بل يختبره ويفتش عنه حتى لا يخدعه الموظفون ، وكان يعلن للناس دائما أنه ينصفهم ولو من نفسه ، وأنهم جميعا عنده سواء ..

ومنها : أنه أبطل عادة تقديم الهدايا إلى الملوك ، كما كان يفعل من قبل ، لا سيما من الأمراء وحكام الولايات الذين كانوا يشتطون فى تعويض ذلك من الرعية ..

ومنها : أنه كان يجلس للناس ثلاث مرات يوميا دون حاجب حتى يستطيع كل واحد أن يصل إليه ويرفع شكواه .

وأهم من هذا كله من الناحية الاجتماعية والشعبية أنه جاء إلى الحكم والناس ينظرون إلى الملك على أنه فوق الطبيعة البشرية ، وأنه ظل الله فى أرضه ، وكان الملوك يغذون هذه الفكرة ، بل يفرضونها على الشعب فرضا ، وكان على الناس فى كل صباح أن يقبلوا على القصر لمشاهدة طلعة الملك قبل الفطور ، وكانوا فى زمن أكبر يعتبرونها نوعا من العبادة ، ويسجدون للملك وإلا عدوا خارجين عليه ، حتى أنه فى عهد جهانگير سجن الشيخ أحمد سرهندى مجدد الألف الثانى كما يسمونه فى الهند ؛ لأنه امتنع عن السجود للملك ـ كما سبق ذكر ذلك ـ وجاء شاهجهان فمنع هذا ، ولكن بقيت تقاليد أخرى متناهية فى إذلال الشعب، فجاء أورنگزيب وألغى كل المظاهر المنافية لروح الإسلام ، وأمر أن يحيوه فقط بتحية الإسلام « السلام عليكم » ، وقضى على الأبهة والفخامة التى كانت تحيط بالملك فى قصره ، حتى المحبرة الفضة تركها ، واستعمل المحبرة الصينى ، وبلغ من حسن خلقه وتدينه أنه عفا عن بعض الذين اعتدوا عليه مرة فى الطريق ، بل ورتب لهم منحة يومية ، أما الأراضى التى كانت خاصة بالملوك قبله ، يستغلونها لنفقاتهم الخاصة فقد جعل ريعها الضخم لبيت المال ، ولم يأخذ منه إلا القليل ، وعاش طول عمره عيشة الزهاد . يقول المؤرخون الأوربيون[١] : « كان مع قسوته هذه وسفكه للدماء بعيداً عن الضعف البشرى ، فاطما للشهوات ، يصوم ويتقشف ويعيش معيشة الزهاد ، ويراقب آخرته » ، ولعل سفك الدماء الذى يشير إليه المؤرخون الأوربيون هو ما حدث بينه وبين إخوته حين كانوا يتنافسون على الحكم ، ولا شك أن الحوادث التى وقعت إبان هذا التنافس لا يمكن أن نعتمد عليها بصورة عامة لتكوين حكم تاريخى على الرجل ، بل الذى يصح أن نعتمد عليه حقا فى هذا هو تصرفه بعد أن استقر له الأمر ، كما سبق أن أشرنا إلى هذا .

وأما الحروب فكان فيها مثل غيره . على أن الذى يراقب آخرته — كما يقولون — لا يمكن أن يكون سفاكا للدماء اللهم إلا إذا اضطر إلى

---

(١) نقلا عن حاضر العالم الإسلامى ج ٤ ص ٣١١

ذلك اضطراراً محافظة على سمعة الحكم واستقراره . لقد طلق ملاذ الحياة فكان يكثر من الصيام ، ويصلي التراويح بالناس ، ويجعل طعامه فى رمضان من خبز الذرة ، ولا ينام إلا على الأرض ، ويصنع الطواقى بنفسه ويبيعها ليأكل من ثمنها — والدنيا كلها بين يديه — كما كان يكتب المصاحف لهذا الغرض — وكان معروفا بحسن الخط — وقد أهدى نسخة من المصحف بخطه إلى مكة المكرمة ، كما كتب ألفية ابن مالك فى صباه وأرسلها إلى مكة للانتفاع بها .

أما التعليم فقد ازدهر فى عهده أيما ازدهار ، ولم يكن ذلك عجبا ؛ فقد كان هو عالما محبا للعلم والعلماء ، فكثرت المدارس فى عهده كثرة لم يسبق لها مثيل، وأجرى الأرزاق على العلماء والطلاب ليتفرغوا لدراستهم ، وأنشأ المساجد الكثيرة ورتب الأرزاق للقائمين بها ، كما أصلح الشوارع والطرق ، وأكثر من إنشاء الرباطات والحمامات والاستراحات لأبناء السبيل ، وكذلك أنشأ دوراً للعجزة والمستشفيات فى أكثر البلاد . وكانت عنايته بالثقافة والآداب والتعاليم الإسلامية ، وسيرته الدينية وزهده وتقواه وتصوفه مما بعث روح الحمية الإسلامية فى النفوس ، وأحيا فيها ما كاد يندرس على يد « أكبر » من قبل ...

ومما يذكر له بالخير أنه عمل على تدوين الأحكام الشرعية للعمل بموجبها ، فجمعت الفتاوى المشهورة بين العلماء باسم الفتاوى الهندية أو العالمكيرية ، وهى فتاوى لها قيمتها العلمية بين المشتغلين بالفتوى فى العالم الإسلامى ، وقد أنفق عليها مائتى ألف من النقود المعروفة فى زمنه ، وقد وضع بنفسه كتابا فى الحديث وشرحه بالفارسية جمع فيه أربعين حديثا ، كما حفظ القرآن بعد توليته العرش(١)

---

(١) أرخ أحد الفضلاء لبدء حفظه بقوله تعالى : سنقرئك فلا تنسى : ولانتهائه من الحفظ بقوله «لوح محفوظ» وذلك جريا على المادة التى لاتزال مشهورة فى الهند من استخراج التاريخ من عبارات ذات دلالة أو اختيار أسماء تؤدى لذلك .

ذلكم هو أورنكزيب أو عالمكير الامبراطور الذى لم تشغله دنياه وحروبه المتوالية عن دينه وآخرته ، فكان امبراطورا لم تشهد الهند مثله فى اتساع ملكه وصلاح خلقه ، وحسن سيرته وسريرته .



أورنجزيب الملك الصالح يزور مع أولاده أحد الأولياء الصوفيين
ويجلس أمامه فى غاية الخضوع وقد لبس عباءته وترى الكتب بجانب الصوفى

خلفاء أورنكزيب

لكل شيء إذا ما تم نقصان . . .

كان عهد أورنكزيب هو القمة التى ارتقى إليها سلطان المغول فى الهند ، وكانت قمة شاهقة تحتاج إلى كثير من قوة الأعصاب وضبط النفس ، لكى يظل ذلك السلطان محتفظا بتوازنه فوقها ، لكنه للأسف لم يجد ما يحتاج إليه فهوى، وأخذ يتدحرج فى طريقه إلى الهاوية ، وكلما قطع شوطا بهرت أنفاسه وزاد لهثه ، وتضاعفت عليه علله وجروحه ، وهو يرتطم فى صخرة بعد صخرة حتى وصل إلى الهاوية ، وقد فقد كل شيء من أمارات الحياة فتلقفته الأيدى القاسية الغريبة لتلفه فى كفنه ، وتضعه فى قبره بعيدا عن أرضه ووطنه - لتبدأ هى عهدا جديدا هو عهد الاستعمار الانجليزى الثقيل . لقد حكم المغول الهند حكما قويا قوميا قرابة قرنين ، وكان حكما أشبه ما يكون بالعملاق الضخم القوى ، لذلك لم يقض عليه سريعا ، بل ظل ينتقل من ضعف إلى ضعف أشد منه : حتى قضى عليه نهائيا فى مدة قرن ونصف ، حيث ابتدأ بعد وفاة أورنكزيب ، وانتهى سنة ١٢٧٤ هـ - ١٨٥٧ م تلك كلمة إجمالية تصويرية تحتاج إلى تفصيل . فإليك هذا التفصيل :

شاه عالم بهادور شاه الأول

١١١٨ هـ — ١٧٠٧ م إلى ١١٢٣ هـ — ١٧١١ م



هل عرفت محمد معظم بن أورنكزيب الذى ولاه أبوه قيادة جيوشه لحصار بيجا پور فبدأ يتآمر معها ضد أبيه ؟ ! وهل عرفته هو أيضا حين توجه بجيشه للاستيلاء على گولكنده ، فتآمر هو وبعض قواده الإيرانيين الشيعة مع ملكها ضد أبيه ، وانكشفت مؤامراتهم فحبسهم الملك جميعاً ، ثم أطلق سراح ابنه ، وأرسله إلى شمال الهند ، وأعطاه لقب « بهادور شاه » أى الشجاع الباسل ؟ !

إنه هو « بهادور شاه »[1] الملك الذى ولى الحكم بعد أبيه باعتباره وليا للعهد ، ولعل أورنكزيب الرجل الصالح قد أصيب فى أبنائه ، فقد خانه ابنه « محمد أكبر » من قبل ، وتعاون مع الراجپوت ضده ، وكان ذاهبا لمحاربتهم ،

(١) ولد فى رجب سنة ١٠٥٣ هـ — ١٦٤٤ م فى أيام جده شاهجهان ، وحفظ القرآن وقرأ العلم وتدرب على الفنون الحربية .

وكانت نهايته أن التجأ إلى المراهتا ، ثم إلى إيران حيث اختفت أخباره ، وربما كان الجرح الذى أصاب قلب الملك الوالد من هذا هو الذى جعله يعفو عن ابنه الخائن الثانى ويوليه العهد ...

ومع أن بهادورشاه كان وليا للعهد فإن أخويه ـ محمد أعظم ، وكام بخش ـ لم يسلما له بالملك ، فلم يستقر له إلا بعد حرب عنيفة معهما — شأنه شأن أبيه من قبل مع إخوته — فقبل أن يموت أورنگزيب أوصى أن يكون ابنه محمد أعظم والياً على مالوا وكجرات وشمال الدكن ، بينما أعطى لابنه الآخر « كام بخش » الولاية على بيجاپور وحيدر أباد ، على أن يخضعا لأخيهما « محمد معظم بهادور شاه » حتى يظل ملكه متماسكا ، ولكن الأخوين لم يقنعا بهذا النصيب .

كان بهادور شاه فى شمال الهند « بشاور أو كابل على خلاف بين المؤرخين » حين مات أبوه فى « أحمد نگر » بجنوب الهند ، فسارع بالسفر إلى العاصمة ، وتولى أمر الملك ، وفى نفس الوقت أعلن محمد أعظم أنه ملك خلفا لأبيه ، فكتب إليه بهادور شاه أن والده أعطاه الولاية على مالوا وكجرات وشمال الدكن ، وإن كان ذلك لا يرضيه زاده حتى يرضى بدلا من الحرب بينهما ، وكان أعظم فظا جريئا يحقد على بهادور شاه ، فحين وصلته رسالة أخيه قال متهكما : كأن هذا الأبله ـ يقصد « بهادور شاه » ـ لم يقرأ قول سعدى الشيرازى الصوفى : « إن غطاء واحدا يتسع لعشرة من الفقراء ، ولكن ملكا واسعا لا يكفى ملكين » وتحرك بجيشه نحو الشمال ، كما تحرك بهادور شاه من أكبر أباد نحو الجنوب لمقابلته ، وفى « سراى جاجو » جنوب أگرا بنحو ١٥ ميلا التقى الجيشان ، وسالت الدماء ، وأصيب أعظم وتفرق جيشه . وكان ذلك فى ربيع الأول سنة ١١١٩ هـ — يونيو ١٧٠٧ م .

وبدأ بهادورشاه بعد ذلك ينظم شؤونه . فجعل أحد قواده الشيعة أميرا للأمراء بمثابة رئيس الوزراء وهو « منعم خان » [1] ولعلنا نذكر حين حملة گولكنده

(١) هو الأمير منعم بن سلطان الأكبر أبادى ، تولى عدة مناصب ، وتقرب إلى عالمجير ، =

كيف كان بهادور يظهر الميل الكثير للشيعة ويعطف عليهم (١) ، ولذا سلم امور الدولة لهذا القائد الشيعي ، الذى بدأ فى صبغ البلاد صبغة شيعية . مما جعل أهل السنة يثورون ، وكادت تكون فتنة ، لو لا أن تداركها الملك ، وأزال ما يشكو منه السنيون . .

مع الراجپوت :

كان اراجپوت قد اضطروا للسكون والخضوع أمام قوة عالمكير ، فلما توفى وقامت الحرب بين الأخوين انتهزوا هذه الفرصة ، وتجمع راجا جوديپور مع راجا « أوديپور » وأعلنا العصيان على سلطة الملك . فذهب الملك لأجمير ، وأرسل ابنه عظيم الشان مع منعم خان على رأس جيش لإخضاعهم ، وتم لهم ذلك ، ولكن شفع لهم منعم خان فعفى عنهم ، ثم أرسل إليهم قاضى القضاة لتعيين الخراج وتحصيله ، ولكنهم عادوا بعد ذلك للثورة ، حينما كان الملك فى الجنوب ، وقتلوا قائد قلعة أجمير ، فسارع الملك إليهم ، ولكنهم أسرعوا فطلبوا العفو ، فعفا عنهم أيضا .

مع أخيه كام بخش :

وحين رجع بهادور شاه من أجمير إلى العاصمة كتب لأخيه الذى بدت بوادر الثورة والعصيان منه فى الجنوب يذكره بوصاية أبيه ، التى يلتزمها على أن يخطب باسمه ، ويؤدى له المال كل سنة ، ولكن « كام بخش » كان متسرعا سيء العمل والرأى ، فرفض أن يستجيب لأخيه ، فذهب إليه بهادورشاه ، ومن سوء حظ كام بخش أو قل من سوء تدبيره أن حاشيته كانت ناقمة عليه ، لسوء معاملته ،

= وتدرج فى المناصب ، ثم تقرب إلى ابنه « شاه عالم بهادر شاه » هذا ، وعاونه فى حروبه ضد إخوته فقربه إليه وولاه رئاسة الوزارة ، وكان شيعيا عالما تقيا كثير العطف على الرعية توفى سنة ١١٢٢ هـ — ١٧١٠ م ، اهـ باختصار من نزهة الخواطر ص ٣٧٥ ج ٦ .

(١) جاء فى نزهة الخواطر ج ٦ ص ١٠٤ أنه كان شيعيا ، أمر أن يدخل فى خطب الجمع والأعياد لفظ الوصى عند ذكر سيدنا على رضى الله عنه ، ولما ثار العلماء والعامة اجتمع بالعلماء وأخذ يناقشهم ، دفاعا عن تشيعه ، ولكنه اضطر أمام ثورة الشعب إلى الرجوع عن ذلك والعودة بالخطب لما كانت عليه اهـ باختصار .

ولعدم دفعه رواتب الجند ، مما جعلهم يتركونه حينما علموا بتحرك بهادور شاه نحو الجنوب حتى لم يثبت معه إلا ٤٠٠ أربعمائة محارب ، فكان من الطبيعي أن ينهزم ، وقد جرح هو وابنه وجيء بهما إلى الملك ، فأخذ فى العناية بهما وبعلاجهما ، ولكنهما لعنادهما أصرا على رفض كل رعاية منه ، حتى ماتا متأثرين بجراحهما ، وكان ذلك فى ذى القعدة سنة ١١١٩هـ - فبراير ١٧٠٨ م .

مع المراهتا :

لم يظهر من المراهتا أى عداء ظاهرى فى عهد بهادور شاه ويظهر أن ما أصابهم من الإرهاق فى عهد أبيه من ناحية ، وما تمتع به بعضهم من عطفه الكبير من ناحية أخرى جعلهم لا يرفعون رءوسهم بحرب . كان «ساغو» أو «ساهو» ، كما تذكره بعض الكتب قد عاش فى كنف أورنكزيب بعد أن قتل أبوه «سنبهاجى» ، وظل وفيا لنعمة الملك حتى مات ، وحين وقعت الحرب بين أبنائه : بهادور شاه وأخويه : استأذن ساغو أن يستقر فى بلاده فأذن له كبير القواد «ذو الفقار خان» ، وعينه واليا على «كوكن» من قبل المغول ، على أن يقوم بتحصيل الخراج ويسلمه للدولة نظير نسبة يأخذها منه ، كما تعهد بإصلاح بعض الأراضى ، وكان هذا العمل هو اللبنة الأولى فى بناء قوة المراهتا ودولتهم التى صارت أكبر خطر على دولة المغول بعد ذلك ، مما جعل المؤرخين يأخذون على بهادور شاه هذه الغلطة .

مع السيك :

أول مرة تظهر فيها هذه الطائفة على مسرح السياسة ، وتدخل من باب التاريخ . ولذا يناسب أن نعطى عنها فكرة ولو موجزة للقارىء .

امتاز القرن الخامس عشر بقيام طائفة من المصلحين الهندوس بعد اختلاطهم الكثير بالمسلمين ، وكان غرضهم إصلاح الهندوسية وما يخالطها من عبادة الأوثان والتفريق بين الطبقات ، مثل «بابا كبير داس» ، «سوامى ولب» «أجاريا» ، «مهاتما جيتنيه» و«گرونانك»[1] «NANK» . وهذا الأخير هو الذى أسس مذهب «السيك» .

---

(١) معنى «كرو» عظيم . قديس .



جرو نانك

ولد فى سنة ٨٧٤ هـ - ١٤٦٩م، بالقرب من مدينة لاهور ، وسلك طريق الصوفية ، كما يقال إنه استرشد بطريقة الصوفى الكبير ، بابا فريد الدين شكر كنج ، المشهور بالهند ، وقرأ القرآن وذهب إلى مكة للحج ، وكانت دعوته تقوم على التوحيد والمساواة ، وإن كان يقول بالتناسخ كالهندوس ، وقد لقيت هذه الدعوة نجاحا فى البنجاب وسمى أتباعه ، بالسيك ، أو السيخ أى المريدين . . وأتباعه الآن لا ينكرون استرشاده بطريقة ولى الله بابا فريد الدين ، كما لا ينكرون ذهابه لمكة ، بل سمعتهم يفخرون بذلك ، والمسلمون يقولون إنه كان مسلما حقيقة ، وأخذ يدعو إلى مذهب وسط حتى لا ينفر منه الهندوس ، ولكنه مات قبل أن يكشف لأتباعه عن حقيقته ، فبقى مذهبه مستقلا . . ، وكانوا فى مبدئهم جماعة صوفية يعبدون الله على طريقة الصوفية . وإن كان مظهر حياتهم العامة كالهندوس ، وكان شعارهم المحبة والتسامح والتطهر من الآثام ، ولا يهاجمون الرسول صلى الله عليه وسلم بل يعتبرونه مرشدا عظيما وتوفى . . ، نانك ، سنة ٩٤٥ هـ - ١٥٣٨ م .

وقام بعده بالإرشاد « كروآنكد » وهو الذى أسس لغتهم المعروفة باسم « كرونكى »[١] وتوفى سنة ٩٦٠ هـ - ١٥٥٢ م وخلفه « كرو أمرداس » وهو الذى أسس مدينة « أمرتسر » عاصمتهم الروحية فى قطعة أرض أعطاها لهم الامبراطور المسلم « أكبر »

وخلفه صهره « كرو رام داس جى » الذى توفى سنة ٩٨٩ هـ - ١٥٨١ م ، فخلفه ابنه « أرجن ديو » الذى جمع كتابهم المقدس « كرانت صاحب »[٢] وفى أيامه كان حاكم البنجاب من قبل « جهانكير » هو « جندو شاه » الذى أراد أن تقوم مصاهرة بينهما، ولكنه أنكر ذلك ، فنشأت العداوة بينه وبين الحاكم ، مما جعله يتهمه بالثورة ضد الملك ويقتله سنة ١٠١٥ هـ - ١٦٠٦ م فخلفه ابنه « هركوبند » الذى أخذ يبث فى مريديه الروح العسكرية ، فبدأت الدعوة تتحول تدريجيا إلى دعوة مسلحة .

ولما مات سنة ١٠٥٤ هـ - ١٦٤٤ م خلفه « كرو هر رائى » ثم « هركرشن » ، ثم « تيغ بهادور » الذى توفى سنة ١٠٨٦ هـ - ١٦٧٥ م ، وخلفه ابنه « كروكوبند سنگ » الذى صرف همه فى تدريب أتباعه تدريبا عسكريا ، ومكث نحو عشرين سنة بهم بين جبال الهملايا ليعودهم حياة الخشونة والحرب ، وقد بدأ بعد ذلك يستعمل القوة الحربية ، فاستولى على البلاد الجبلية ، وسلب ونهب مافيها ، ثم تقدم للبنجاب ينهب ويقتل ويدمر ، وكأنه يستعرض قوته الحربية ، فتصدى له حاكم البنجاب ، وظلت الحروب بينهما قرابة اثنتى عشرة سنة هلك فيها آلاف من زهرة أتباعه السيك .

ثم حل الصفاء محل الحرب ، وذهب مع « بهادور شاه » المغولى إلى الدكن ليحارب فى صفه ، ولكنه قتل هناك ، وقيل إنه غرق ، فقام أحد أتباعه واتهم المسلمين بتدبير قتله ، وادعى أنه هو « كوبند سنگ » نجاه الله من تدبيرهم ،

---

(١) وهم الآن يقومون بحركة كبيرة فى البنجاب لجعل هذه اللغة لغة رسمية للمناطعة مما أدى إلى صدام بينهم وبين الهندوس .

(٢) جمع فيه أقوال المرشدين السابقين، وسمعت أنه يتضمن كثيرا من معانى الآيات القرآنية .

ورجع إلى البنجاب ليبث الحقد والكراهية فى نفوس أتباعه للمسلمين ، وليشن حربا متواصله بينه وبينهم فهاجم قلعة « سرهند » بقوة عظيمة ، وقتل قائدها واستولى عليها سنة ١١٢٠ هـ - ١٧٠٨ م ، ثم سيطر على المناطق الشمالية كلها حتى امتد نفوذه قريبا من دلهى ، وقتل الآلاف من المسلمين والهندوس على السواء ، فجرد لهم « بهادورشاه» جيشا تحت قيادة ابنه « عظيم الشأن » واستعد له السيك بجيش عظيم ، لكنهم انهزموا هزيمة نكراء ، وطاردتهم الجيوش الملكية ، وحاصرتهم فى حصن « لوكره » واستطاع قائدهم « بندا » الذى أدعى أنه « كوبندسنگ » أن يفر من الحصار ، بينما تقدم أحد أتباعه المخلصين وسلم نفسه على أنه القائد ، وبذلك أخمدت هذه الثورة ، ورجع الملك إلى « لاهور » وتوفى بعد ذلك بعدة شهور (محرم : سنة ١١٢٣ هـ - ١٧١١ م).

* * *

وقد كان مالقيه « السيك » على أيدى المسلمين فى هذه الموقعة وما تلاها من التنكيل والانتقام سببا فى ازدياد العداء وتمكنه فى قلوب السيك للمسلمين ، حتى استمر العداء بينهم على مر الأيام ، برغم أنهم أقرب الطوائف بعضها لبعض من الناحية المذهبية ، وقد تجلى ذلك بشكل واضح فى أيام التقسيم سنة ١٩٤٧م وماحدث فيها من مذابح ، حيث كان السيك أسرع الناس إلى قتل المسلمين والمسلمات والتنكيل بهم والتمثيل بجثثهم ، لإشباع مافى نفوسهم من حقد تاريخى على المسلمين ، وقد زرت معبدهم الكبير فى دلهى فى شارع « چاندنى چوك » ، وكانوا متجمعين فيه للعبادة ، فأحاطوا بى مرحبين حينما عرفوا أننى مصرى ، وسألتهم عمن يعبدون ولمن يسجدون ؟ فقالوا لله الواحد ، وكان واعظهم يعظهم ، وبعد ما انتهى من وعظه أخذ يعطى كل واحد منهم شيئا من الطعام للبركة ، وحاول أن يعطينى ، ولكنى اعتذرت ، لأنهم يأخذونه فى أيديهم ، وبه السمن أو الزيت الكثير ، ثم أخذوا يطلعوننى على الحجرة التى كان محبوسا فيها أحد زعمائهم فى أيام الملوك المسلمين .

وقد أقيم المعبد فى نفس المكان منذ خمسين سنة ، وقبل أن أخرج جاءوا

بعقود الورد . ووضعوها فى عنق على طريقتهم فى تكريم ضيوفهم ، وأعطونى بعض الكتيبات عن مذهبهم ، وقد زرت أيضا معبدهم الصغير فى مدينة « ديوبند » التى كنت أقيم فيها ، ورأيت كتابهم المقدس محفوظا فى مكان بالمعبد ، وحينما يحضرون للعبادة — وغالبا ماتكون فى الصباح الباكر — يضعونه على منضدة وسطهم ويتعبدون ويرتلون شيئا منه . ورأيت فى جانب آخر الطبول المختلفة الأحجام مع المزامير التى يستعملونها عند تراتيلهم ، وقد تقابلت مع كثير منهم من مختلف الطبقات ، وتحدثت معهم فكانوا فى غاية الرقة ، وعرفت منهم أن لهم لوازم خاصة يمتازون بها عن غيرهم ، ويعتبرونها من شعائر دينهم ، فهم يطلقون شعورهم لايعتدون على أية شعرة فى جسمهم[1] ، ولذا تجد شعور رءوسهم طويلة يلفونها تحت عمامة يتميزون بها حتى الأطفال فى المدارس ، وتبع ذلك ميزة ثانية هى « المشط » الذى يلازمهم دائما لتمشيط شعورهم ، ومنها الأسورة المعدنية الخفيفة فى اليد « كالغويشة » سألت أحدهم ولماذا هذه ؟ — وكان ضابطا فقال : لأنها من تعاليمنا ، وتذكرنى بالله . ومنها « الخنجر » فكل منهم لابد أن يحمل خنجرا صغيرا أم كبيرا ، ومنها اللباس القصير تحت الملابس كما نفعل نحن عادة . وعامة أهل الهند لايلبسونه ويكتفون بلبس السراويل الطويلة البيضاء مثل البنطلون وإن كانوا لايثنون طرفها ، وهم يحرمون الدخان على أنفسهم ، بل ويتضايقون من رائحته . وقد لاحظت أن بعضهم كان يترك مكانه إذا دخن أحد بجواره ، وهم شديدو التمسك بتعاليمهم ، مقبلون على التعليم أكثر من غيرهم ، وكثير منهم يفضلون العمل فى الجيش ، وهم الآن يطالبون بولاية خاصة لهم واعتبار لغتهم لغة خاصة ، وإن كان عددهم قليلا لايصل إلى عشرة ملايين ، لكنهم نشطون ومتعاونون وأكثرهم مثقفون .

---

(١) والمسلمون فى الهند يحافظون على إعفاء اللحى ويطيلونها كذلك حتى يكاد مظهرهم يتفق مع مظهر السيك ، لولا أن المسلمين يقصون شعر الشارب ، ويهذبون لحاهم وهذا محرم عند السيك ذلك هو الفارق فى المظهر ، وقد يخفى على كثير من زوار الهند .

جهان دار شاه ، وفروخ سير [١]



فروخ سير

كان عظيم الشأن بن بهادور شاه خبيرا بشؤون الحرب والإدارة ، تربى فى رعاية جده أورنكزيب ، ورافق أباه فى كثير من الحروب ، وقاد بنفسه بعض الحملات التى كتب له فيها النصر ، وكان من حسن حظ الدولة أن يتولى أمورها بعد أبيه ، لكنه أصيب فى الحرب التى دارت بينه وبين إخوته من أجل العرش ؛ فقضى عليه قبل أن يستقر على العرش ، وبعد ذلك استطاع « جهان دار شاه » بمساعدة « ذى الفقار خان » أكبر القواد أن يقضى على منافسة أخويه ويتولى العرش ، وكان لاهيا عابثا منصرفا عن شؤون الدولة ، جعل همه أولا فى القضاء على منافسيه من إخوته وأبنائهم .

فى ذلك الوقت كان « فروخ سير » [١] ـ أى محمود السيرة ـ فى بيهار ،

(١) ورد ذكره فى بعض الكتب التاريخية باسم « فاروق سير » وهذا غلط لعله نشأ عن الترجمة من الانجليزية مع عدم معرفة معنى « فروخ » بتشديد الراء واسم فروخ كثير فى الهند ومعناه هنا محمود السيرة والنقيبة .

فأخذ يعمل لجمع الحكام حول أبيه «عظيم الشأن» عندما علم بوفاة جده. لكنه أتاه نبأ قتل أبيه سريعا، فأخذ يعمل على الانتقام له مستعينا بحاكم «عظيم أباد - بتنا» الشريف حسين وأخيه[1] عبد الله حاكم إله آباد، وزحف بجيشه إلى العاصمة، وفى الطريق تقابل الجيشان عند «كجوا» التى تقابل عندها من قبل أورنكزيب وشجاع من أجل الخلاف على العرش أيضا، وكان السادات من قبل يعاونون «شجاعا» وإذا كانوا قد هزموا حينذاك فإن من جاء بعدهم استطاعوا أن يكسبوا المعركة مع «فروخ سير»، وقد ساعدهم على ذلك الخلاف الذى دب بين صفوف الجيش الملكى حتى مزقه، وجعل جيش «فروخ سير» يتقدم سريعا نحو العاصمة دون مقاومة تذكر، وهناك تقابل الجيشان مرة أخرى، وكان يمكن لجهان دار شاه أن ينتصر بجيشه لولا أنه كان عاكفا على اللهو والشراب مع عشرات من النساء والمغنيات والراقصات اللاتى جئن معه إلى ميدان القتال، وقد استطاع الشريف عبد الله أن يصل إلى الخيمة الملكية، ويهجم عليها، فأوقع الذعر بالملك ومن معه. فلاذوا بالفرار ووقع الخلل فى صفوف الجيش، فانتصر «فروخ» وجلس على العرش سنة ١١٢٤ هـ - ١٧١٢ م.

وأخذ بعد ذلك فى تطهير الحاشية، والانتقام من أعوان الملك السابق شر انتقام، وحدثت ثورة فى دلهى فأرسل لقمعها الشريف عبد الله، وأعطاه لقب «قطب الملك الصديق الوفى»، كما أعطاه منصب الوزارة وأعطى أخاه الشريف حسين لقب أمير الأمراء، وكان هذان الشريفان هما الحاكمين الحقيقيين، فقد كان فروخ مدينا لهما بنصره، وكانا قويين فلم يستطع أن يقف أمام أية رغبة من رغباتهما،

---

(١) من السادات الحسينيين. وقد لعبا دورا هاما فى التغلب على حكم المغول، وصار الملوك دمى فى أيديهما، وكان الشريف حسين عالما فاضلا شجاعا كريما محبا العلماء وكان أحسن من أخيه عبد الله الذى كان مع شجاعته جاهلا مغترا مشتغلا بالنساء تاركا أموره إلى أحد الهندوس، واسمه للقيق حسن. تقرب إلى عالمكير وإلى من جاء بعده من الملوك، وتولى على «أجمير» ثم على «إله أباد».

فكان من الطبيعي أن يصبح الأمر كله بيد السادات ، وأن يشعر الملك وحاشيته بالمضايقة منهم والرغبة في الخلاص من سيطرتهم ، وكان في حاشيته القاضي عبد الله[١] فأعطاه لقب « مير جمله خان خانان » ، وولاه على « عظيم أباد » تنفيذاً لرغبة السادات ، كما أعطى « قليج خان[٢] بهادور » لقب نظام الملك فتح جنگ ، وولاه على الدكن وكان كلاهما ممن يكرهون السادات ويعتمد عليهم الملك . ولذا عملوا على إبعادهما عنه . إلى عظيم أباد والدكن .

ومما يجدر ذكره أن نظام الملك هذا هو رأس الأسرة المالكة التي حكمت في حيدر أباد الدكن حتى انتهت سنة ١٩٤٧ م بضم المملكة إلى الهند حين التقسيم ..

* * *

---

(١) هو القاضي عبد الله الخراساني نواب مير جمله معظم خان خانان مظفر جنگ تقرب إلى عالمگير فولاه القضاء ، ولما تولى فروخ سير الملك سار معه من بتنا إلى دهلي ، وصار من أقرب الناس إليه ، وكان معاديا للسادات فعملا على إبعاده عن دهلي فولاه ولاية « عظيم أباد » ، ثم رجع بعد مدة وتقرب إلى السادات ونال تقديرهم حتى توفي .

(٢) اسمه قمر الدين بن غازي الدين السمرقندي واشتهر باسم « نواب نظام الملك آصف جاه » عاش من عهد عالمگير إلى عهد محمد شاه . ولد سنة ١٠٨٤ هـ — ١٦٧٣ م ، ولقبه عالمگير بلقب « چين قليچ خان » وولاه « بيجاپور » ، وفي أيام شاه عالم بهادور الأول ولاه على « أوده » ، ثم تضايق من الجو حوله فلزم بيته ، ثم عاد لمنصبه في عهد « جهان دارشاه » ، ولما تغلب « فروخ سير » قربه إليه وأعطاه لقب « نظام الملك فتح جنگ » مع ولاية الدكن ، وفي عهد رفيع الدرجات ولاه على « مالوا » ، ولكنه بعد مدة سار للدكن ، وقام بالأمر فيها عنوة ، ولما تولى محمد شاه استقدمه لدهلي وولاه الوزارة مع ولاية الدكن ، وظل مدة متمكناً من النفوذ والسلطان ، ثم أحس بتدبير المؤامرات حوله من حساده ومن الملك نفسه لأن نظام الملك كان يقف في سبيل شهواته حتى انتهى الأمر بعزله عن الدكن أو بالأحرى بأخذ ولاية الدكن منه ، فاستأذن الملك في الخروج الى ناحية الشمال « مراد أباد » ، ولكنه توجه إلى الدكن وقاتل واليها ، وهزمه واستولى عليها ، ثم استرضاه محمد شاه حين جاء نادر شاه للهند ، ولقبه بأمير الأمراء ، وأقام بدهلي راغباً في إصلاح أداة الحكم ، لكنه رجع لما يئس من الإصلاح ، وظل حاكماً على الدكن حتى توفي ، وظلت مملكة حيدرأباد في ذريته حتى انتهت سنة ١٩٤٧م ، كان من أعظم الرجال وأصلحهم وأشجعهم توفي سنة ١١٦١هـ — ١٧٤٨ م ، ودفن برهانبور .

وقد انتهز الراجپوت فرصة الخلاف والحرب بين الطامعين فى العرش وثاروا وأعلنوا استقلالهم ، فسار إليهم الشريف حسين على رأس جيش وتمكن من هزيمتهم وفر الراجا الثائر إلى الجبال ، وطلب الصفح والعفو عنه وفى هذا الوقت وصل إلى الشريف حسين كتاب من أخيه ينبئه بازدياد الخلاف مع الملك ، ويأمره بالرجوع حالا ، فرأى أن يقبل الصلح والعفو ، عن الراجا على أن يكون ابنه مع بعض الجنود الراجپوت فى جنده ، ورجع إلى دلهى ، وهنا طلب الأشراف من الملك أن يبعد « مير جمله » من القصر ويوليه ولاية بهار ، وأن يتولى الشريف حسين حكم الدكن ، فقبل الملك هذه الشروط ولم يكن بد من قبولها ، وفى الوقت نفسه أرسل سراً إلى داود خان حاكم كجرات أن يتربص فى طريق الشريف حسين إلى الدكن ويقضى عليه ، ولكن كتب على هذه المؤامرة الفشل ، وقتل داود خان ، وأصبح الشريف حسين سيد الدكن ، وأخذ فى تقريب السادات وتوليتهم المناصب .

* * *

مع السيك:

وفى هذا الوقت قام السيك فى الشمال بثورة جائحة ، وأخذوا كعادتهم فى الاعتداء على المساجد والمقابر ، وقتل آلاف من المسلمين والهندوس دون تفرقة بين الصغير والكبير ، حتى كانوا يبقرون بطون الحوامل ، كما أخذوا فى تدمير البيوت وإحراقها ، ونهب كل ما تصل إليه أيديهم .

وكان على رأس هذه الثورة « بندا » الذى ادعى من قبل أنه « كوبند سنك » ، وثار على المسلمين واستطاع الفرار من الحصار فى عهد بهادور شاه ، فوجه لهم الملك جيشا بقيادة عبد الصمد خان فتعقبهم حتى حاصرهم فى قلعتهم ، وأخيراً اضطروا للتسليم سنة ١١٢٦ هـ — ١٧١٤ م فقتل منهم نحو ثلاثة آلاف ، وقبض على ثمانمائة من كبارهم ، وعلى رأسهم قائدهم « بندا » ، وساقهم إلى العاصمة ، وسار بهم فى الشوارع تشهيراً بهم ثم قتلهم .

ويقول المؤرخ الهندى سيد هاشمى(١) : إن الناس يتناقلون قصصا غير صحيحة عن هذه الواقعة ويقولون إن الملك وضع جثثهم أحياءاً ، وبنى عليها الجدران .. الخ . ولكن ذلك كله غير صحيح ، ولذا فإن المؤرخ « الفنستن » الذى كتب عن الهند لم يجد رواية تؤيد هذه الأقوال . كما أن المؤرخ الهندى « خافى خان » الذى عاصر هذه الواقعة وشهدها كتب يقول : « إن الملك انتقم من « بندا » شر انتقام لاعتدائه على الناس وتقتيله الآلاف من الأبرياء ، وزيادة فى تعذيبه أجبره على أن يقتل ابنه بيديه ، ثم قتل هو بعد ذلك . » ولم يذكر المؤرخون أكثر من هذا ولو حدث شىء مما يتناقله الناس لكتبه خافى خان كما كتب هذه الواقعة ...

وهذه الواقعة من الحوادث التى يتناقلها السيك ويعلمونها لأبنائهم ليثيروا فيهم الحفيظة دائما على المسلمين ، ولذا نجدهم من اشد الناس عداوة للمسلمين .

فى هذا الوقت ظهر الخلاف شديداً بين الملك وبين السادات ، وكثرت المؤامرات من الملك عليهم ، مما اضطر عبد الله أن يطلب من أخيه حسين فى الدكن أن يرجع سريعا إلى دهلى ، فاستجاب له ورجع ومعه بضعة آلاف من جنود المراهتا ، فانزعج الملك من ذلك ، وكان جبانا متردداً ، بينما ثار الشعب على السادات ، وهاجم جنود المراهتا ، حتى فروا أمامه تاركين أسلحتهم وملابسهم ، ويقول المؤرخ « خافى خان » وهو شاهد عيان لهذه الحالة : إن المنبوذين اشتركوا فى الهجوم على جند السادات الذين فروا هلعين ، والشعب يجردهم حتى من ملابسهم ، وكان الملك يستطيع فى هذه الحالة أن ينزل ضربته القاضية بالسادات ، معتمداً على من معه من الجنود وعلى الشعب الثائر الناقم عليهم ، لكنه لم يتحرك ولم تكن فيه نخوة الملوك التيموريين كما يقول المؤرخون ، وبذلك ضاعت الفرصة من يديه ، واغتنمها السادات ، فقبضوا عليه وحبسوه ، وجاءوا بحفيد بهادور شاه من السجن وكان اسمه « رفيع الدرجات » وأجلسوه على العرش فى ٩ من ربيع الأول سنة ١١٣١ هـ -

---

(١) ص ٢٦٩ فى الحاشية من كتابه تاريخ هند .

١٧١٩ م وبعد أيام قتلوا فروخ سير ، فثار الشعب عليهم حتى لم يستطيعوا أن يظهروا فى الشوارع ..

وكان رفيع الدرجات مسجونا منذ صغره ، وقد أصابه مرض العظام ، فلم يمكث طويلا فى الحكم ؛ إذ مات فى رجب من هذه السنة .

رفيع الدولة :

فأجلسوا مكانه على العرش أخاه الأكبر «رفيع الدولة» ، وفى ذلك الوقت كان الشعب غاضبا هائجا فهجم على أكرا ، وأخرج « نيكوسير » حفيد عالمگير من سجنه ، وأجلسه على العرش بمساعدة « راجا جى سنگ » بينما كان الملك رفيع الدولة مريضا ، فأسرع السادات بجيشهم إلى أكرا ، حاملين معهم الملك ، ولكنه مات فى الطريق بعد ثلاثة شهور وأيام من توليه الحكم .

محمد شاه : (١)

ورأى السادات أن الموقف يكاد يفلت من أيديهم ، فأسرعوا فى طلب الشاب «روشن أختر» حفيد بهادور شاه ، وأجلسوه على العرش بعد ماقضوا على المعارضين ، ونادوا به ملكا على البلاد باسم « أبى المظفر ناصر الدين محمد شاه » فى فتحپور سكرى فى ١٥ ذى العقده سنة ١١٣١هـ-١٧١٩م ، وقبضوا على « نيكوسير » الملك الذى أقامه الشعب ، وتقدم راجا « جى سنگ » بطلب العفو فعفوا عنه . وصفا الجو بذلك للسادات ليتصرفوا كما يشاءون ، ويتلاعبوا بأمور الملك كما يريدون ، دون أن يكون للملك أى أثر فى شؤون الملك ، ومع ذلك كان الأشراف يحسون بعدم الاطمئنان ، ويدركون أن لهم بعض الخصوم الأقوياء الذين لا بد من القضاء عليهم ، وكان « نظام الملك » أحد هؤلاء

(١) حصل لبس فى كتاب المرحوم الأستاذ محمد حبيب « بين الهند وباكستان » حيث ذكر أن رفيع الدولة اسمه محمد شاه وأنه عاش مدة كبيرة حتى جاء نادر شاه لغزو الهند . والواقع أن رفيع الدولة مات بعد شهرين كما تقول بعض الكتب أو ثلاثة كما تقول كتب أخرى ، وتولى بعده « روشن أختر » المسمى « محمد شاه » وهو الذى عاش حتى غزوة نادر شاه .

الخصوم ، فقد كان قائدا ذكيا قويا ينال تقدير الأمراء والحاشية . وكان بعيدا عن العاصمة خلال هذه الحوادث التى مرت بها .. كان فى « مالوا » حاكما عليها بعد أن أخذ الأمير حسين حكم الدكن .



محمد شاه

الصراع مع السادات :

فى هذا الوقت وصلته رسالة سرية من « قدسية بيگم » أم الملك الشاب تقول فيها : « إن ملك التيمورية صار لعبة فى يد الأشراف ، وإنقاذه متوقف عليك بعد الله سبحانه وتعالى ، وأن الملك أصبح دمية يحركها الأشراف ، حتى لم يعد يخرج للصيد إلا بأذنهم ، وهذا فوق أنهم الآن يدبرون الأمر لاستئصال الملك والقضاء عليك ، فافعل ما ترى لإنقاذ الموقف . . »

وكان نظام الملك فى « مالوا » محصورا بين نفوذ السادات فى الشمال والجنوب حيث كان فى الدكن حاكم من قبل الأشراف ، فرأى أن يتوجه بضربته أولا للجنوب ، وسار بجيشه سريعا إلى هناك ، واستطاع أن يهزم قوات السادات ، ويصبح سيد الدكن بغير منازع ، وكان ذلك سنة ١١٣٣ هـ ـ

١٧٢٠ م . وبلغت هذه الأخبار « أكرا » فطار صواب السادات ، وقرروا أن يقوموا بعمل سريع لإنقاذ الدكن .

وسار الشريف حسين مع الملك الشاب على رأس جيش عظيم نحو الجنوب ، وفى الطريق دبر الملك مؤامرة ، وقضى على خصمه الشريف حسين وعلى كثير من السادات ، وارتد بالجيش نحو الشمال ليقضى على الشريف عبد الله الذى أظهر الجلد والشجاعة تجاه هذه الأنباء المفجعة ، وأخذ واحدا من أبناء الأسرة المالكة ونادى به ملكا بدلا من « ناصر الدين محمد شاه » الملك الثائر عليهم .

وتلاقى الجيشان بين دلهى وأكرا ، واستمرت الحرب عنيفة يومين ، دارت الدائرة بعدهما على الشريف الذى قبض عليه ، وانتهت بذلك سيطرة الأشراف ، وتخلص الملك من تسلطهم ، واستعاد نفوذه كاملا . وكان ذلك فى صفر سنة ١١٣٣ هـ - ١٧٢٠ م .

* * *

نظام الملك :

وكان من الممكن حينئذ أن يقوم الملك بعمل يجدد به شباب الدولة الهرمة ، ويعيد إليها ما فقدته من قوة وهيبة ، ولكنه كان عن ذلك مشغولا بلهوه وعبثه ، فظلت الأمور تسير فى مجراها الطبيعى ، فزادت الدولة ضعفا على ضعفها ، ثم رأى أن يستدعى نظام الملك من الدكن وأنعم عليه بقلب « آصف جاه » ، وأعطاه الوزارة سنة ١١٣٥ هـ - ١٧٢٢ م ، وكان نظام الملك رجلا مجربا قد حنكته الأيام ، ويمكن أن يقدم للدولة الكثير من الخدمات لو مكن له فى ذلك ، ولكن القدر كان يتربص بهذه الدولة ، ويحول بينها وبين أيدى المصلحين حتى تصل إلى نهايتها المحتومة . قدم اقتراحات لإصلاح حال الدولة تدور حول منع الإقطاع الذى يسبب الكثير من الفساد والظلم للشعب ، ومنع تقديم الهدايا للملوك والرؤساء لما يترتب عليها من فساد فى جهاز الدولة ، وأيضا وجوب فرض الجزية من جديد بعد ما ألغيت فى عهد رفيع الدولة

بمعاونة بعض راجوات الهندوس ، وأخيرا وجوب مساعدة إيران فى حربها ضد بعض الأمراء الأفغان ، ردا لجميل إيران عند ماساعدت همايون فى العودة إلى العرش .

ولم ترق هذه الإصلاحات الجديدة فى نظر الحاشية التى يهمها اللهو ومجالس الشراب مع الملك ، فرفضت . ففكر نظام الملك فى الرجوع إلى الدكن .

وكانت هناك ظروف تضطره إلى هذه العودة بجانب رفض اقتراحاته ؛ فإن المراهتا الذين أصبحوا ذوى شوكة قوية فى الجنوب بدءوا يرفعون رءوسهم ضد المسلمين فى الدكن ، وبجوار هذا ـ تلك المؤامرة التى دبرها بعض رجال القصر ضده فى الدكن ، حيث أوعزوا إلى أحد القواد « مبارز خان » فى حيدر أباد أن يهجم على « أورنگ أباد » مركز حكم نظام الملك .

فلهذا كله عاد سريعا إلى الدكن ، وقضى على مبارز خان وقتله بعد حرب بينهما ، كما قضى على المراهتا بعد حروب عنيفة ، وأصبح نظام الملك سيد الدكن المرهوب الجانب ، لاسيما بعد أن تم الصلح بينه وبين المراهتا ، الذين انصرفوا بعد ذلك إلى جهات أخرى من أجزاء الدولة الإسلامية المفككة ، فأغاروا على مالوا وگجرات ، ونهبوا وقتلوا ودمروا ، ولم يكن فى هذه البلاد حاكم قوى يردعهم ، فأشاعوا الرعب والفزع مع سيطرتهم عليها . وكان سلطان دلهى عاجزا ضعيفا غارقا فى ملذاته ومؤامراته ، فزاد جهاز الدولة اختلالا وزاد طمع الطامعين فيها .

وإزاء هذه الحالة اضطر الملك مرة ثانية أن يستعين بنظام الملك سنة ١١٥٠ هـ - ١٧٣٧ م ، فاستجاب له وذهب إلى دلهى ليقف بجواره ، ولكنه لم يمكث عدة شهور حتى هجم « نادر شاه » ملك إيران على الهند . .

غزو نادر شاه للهند

يعتبر نادر شاه مجدد شباب الدولة الإيرانية بعد ما رزحت كثيرا تحت حكم الأفغان ؛ فقد استطاع أن يرجع حكمها إلى يد أبنائها ، وأن يزحف على ما جاوره من البلاد فى العراق وأفغانستان وغيرهما ويضمها لحكم إيران . . أما سبب اتجاهه للهند، فقد اطلعت على روايتين مختلفتين : رواية تقول: إن بعض وزراء الملك المغولى بالاتفاق مع شاه ولى الله الدهلوى العالم الكبير لما رأوا فساد الأمور يستفحل،وطمع الهندوس فيها ، وهجومهم عليها دون أن تستطيع ردها عنهم ، طلبوا منه أن يسير إليهم ليقضى على فساد الملك وحاشيته ، ويصد عن المسلمين عدوان الهندوس ، فاستجاب لهم وسار نحو الهند بجيوشه . .

ورواية أخرى تقول: إن بعض الأفغان الذين كانوا يحاربهم نادر شاه فروا إلى الهند ، وطلب تسليمهم فلم يستجيبوا له ، فرأى هذه فرصة لمتابعتهم والهجوم على الهند والتمتع بما فيها من أموال وخيرات ، وهذه رواية كتب التاريخ الهندية ، وأياما كان السبب ـ أحدهما أو كلاهما ـ فقد بدأ نادر شاه بالهجوم على قندهار وكابل ، وكانت تحت سلطان الهند فضمهما إلى ملكه ، ثم تابع هجومه على الهند الشمالية حتى وصل إلى لاهور وقبض عليها وعلى البنجاب . وظلت دهلى تغط فى نوم عميق حتى كان على بعد ١٢٥ ميلا منها . . حيث أعد محمد شاه جيشا سار نحو الشمال ، وتلاقى الجيشان فى رمضان سنة ١١٥١ هـ - ١٧٣٨ م عند « كرنال » فى البنجاب ولم يكن الجيش المغولى بحالة تسمح له بإحراز النصر لتفرقه وتخاذله ، حتى إن القتال لم يستمر طويلا حتى انضم حاكم أوده « برهان الملك سعادت خان » إلى نادر شاه ، ولم يجد نظام الملك آصف جاه بدا من طلب الصلح ، الذى تم على أن يدفع لنادر شاه ٢٠ مليون روبية . . ولكن نادر شاه بعد ذلك اعتقل الملك محمد شاه بحيلة من حيله ، ووصل إلى دهلى منتصرا ، وأمر بذكر اسمه فى الخطب ، وإزاء هذا العمل الذى اعتبره الشعب غدرا للعهد لقى نادر شاه من الشعب معارضة وثورة

اضطر إلى أن يطفئها ، فأباح المدينة لجنوده ، فعاثوا فيها الفساد ، حتى تركوها أثرا تنعى من بناها . نهبوا وقتلوا ودمروا ، فشهدت دهلى من البأساء ما لم تشهده من قبل ، فقد قتل من أهلها أكثر من مائة ألف ، وسلب منهم نحو ١٥٠ مليون روبية ، هذا فوق عرش الطاووس الثمين الذى أسسه شاهجهان من الذهب الخالص ، وكانت قيمته تساوى ستة ملايين من الجنيهات ، والجوهرة النادرة فى العالم التى كان شاهجهان اشتراها من أحد التجار ، وزين بها تاجه وتوارثها الملوك ، حتى وقعت أخيراً فى يد نادر شاه . ويقال إنه حين رآها لأول مرة ، وأضاءت أمامه ذهل ، وقال فى دهشة : «كوهى نور» أى جبل نور ! ! فصارت هذه الكلمة التى أطلقها نادر شاه وهو فى حالة ذهول علما عليها ، وقد تنقلت هذه الماسة من يد إلى يد حتى استقرت فى تاج ملك انجلترا . . .

وعاد نادر شاه بعد ذلك إلى إيران ، ولكنه ترك الملك ومملكته جثة هامدة لا حراك فيها ، تتواثب عليها النسور ، وتتخطفها الجوارح ، ويركلها كل من يقرب منها ، لم يعد للملك هيبة ، ولم يعد له نفوذ حقيقى على بلاده ، بل ولا على امرأته وقواده ، فأخذوا يتصارعون .

ومن الأسف أن ذلك كله كان يحصل وأعداء المملكة حولها ينهشون جسمها من كل جانب ، سواء أكانوا من أهل الهند نفسها ، أم من الانجليز الذين ثبتوا أقدامهم فيها ، وأخذوا يعملون حسب خطة مرسومة للاستيلاء عليها . .

وشغل الملك عدة سنين مع أمرائه المختلفين ، ومع المغيرين على مملكته من المراهتا والسيك ، والراغبين فى الاستقلال من الولاة المسلمين ، على أنه لم يفق طويلا من ضربة الغزو الخارجى حتى كان يطرق أبواب الهند غاز جديد قوى هو أحمد شاه الأفغانى .

أحمد شاه الأبدالى (١)

أو أحمد شاه الدرانى الأفغانى : هجم على الهند من الشمال ، واستولى على « لاهور » ، فأرسل له محمد شاه جيشا بقيادة ابنه « أحمد » وتلاقى الجيشان قرب « سرهند » وتمكن المغول من هزيمة الأبداليين ، فرجعوا إلى كابل فى ربيع الأول سنة ١١٦١ هـ — ١٧٤٨ م . وفى الوقت الذى كان فيه أحمد بن الملك يتعقب الأبداليين ويطهر البلاد منهم جاءه نبأ مرض أبيه ، فكر راجعا إلى دلهى ، وانتهز الأبداليون الفرصة فرجعوا إلى الهند واستولوا على لاهور وتوفى محمد شاه سنة ١١٦١ هـ — ١٧٤٨ م ، وخلفه على العرش ابنه أحمد شاه ، ولم يرث إلا ملكا مريضا تجتمع عليه العلل من كل جانب ، فغرق هو الآخر فى المؤامرات والدسائس والخلافات ، ومضت عليه عدة سنوات ثم كانت نهايته مؤلمة ، فقد قبض عليه أحد القواد ، وأخرج عينيه ، وأجلس مكانه على العرش « عالمكير الثانى » سنة ١١٦٧ هـ — ١٧٥٤ م ..

وكان هذا القائد هو غازى الدين حفيد نظام الملك آصف جاه الذى عين وزيراً للپنجاب بعد ذلك ، وكان الأفغان يسيطرون على لاهور ، فسار إليهم وانتزع لاهور منهم ، ولما علم أحمد شاه الأبدالى بذلك تقدم بجيشه من أفغانستان إلى الهند ، واضطر غازى الدين إلى الخضوع وطلب العفو منه ، فعفا عنه ، وتقدم إلى دلهى ، وكانت لا تزال عامرة بالخراب والبؤس منذ غزوة نادرشاه ، فدخلها وقضت جيوشه هو الآخر على ما كان قد بقى بها من أمارات الحياة ، ثم تقدم إلى « أگرا » وحاصرها ، ولكن الوباء تفشى فى جنوده فاضطر لتركها والرجوع إلى أفغانستان سنة ١١٧١ هـ — ١٧٥٧ م .

وقبل رجوعه طلب منه عالمكير أن يساعده على تثبيت سلطته ضد الثائرين عليه من كل جانب ، فاستجاب له وأبقى جيشا فى دهلى بقيادة نجيب الدولة ليسانده على إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الحطام المتناثر .

---

(١) سمى كذلك نسبة إلى قبيلة كان أبوه حاكما عليها ، وهو أفغانى الأصل ، كان فى جيش نادر شاه ، ولما قتل قام لأخذ ثاره مستعينا بالجنود الأفغان وأخذ يؤسس له ملكا ضد الفرس . وجعل عاصمته ، (كابل) .

ومن العجب أن فى هذه السنة التى دخل فيها الأبدالى دهلى فاتحا منتصراً كان الإنجليز فى الشرق .. فى بنـگال ، يحاربون سراج الدولة حتى تمكنوا من التغلب عليه والسيطرة على البنـگال كلها ، بينما هؤلاء فى دهلى مشغولون بالحرب فيما بينهم !!

رجع الأبدالى وترك نجيب الدولة نائبا عنه ، ولكن غازى الدين الذى استخذى من قبل أمامه لم يركن إلى الاستسلام النهائى ، فأخذ يدبر المؤامرات ضد نائبه نجيب الدولة وضد الملك ، وبلغ به العناد غايته حين استعان بالمراهتا لتنفيذ أغراضه !! وجاء معهم إلى دهلى واستولوا عليها ، وفر نجيب الدولة مع ولى العهد « شاه عالم الثانى » إلى المشرق ، تاركين الملك فى قبضة الفاتحين الذين أبقوه رمزا ، وتابعوا سيرهم نحو البنجاب ، فطردوا منها الموظفين والأمراء الأفغان ، وبذلك سيطر المراهتا على أكثر أجزاء الهند ، وعلم أحمد شاه الأبدالى بذلك فجهز جيشه وسار إلى الهند ثانيا ، وحين علم غازى الدين بتحرك أحمد شاه اتهم عالمـگير بالتواطؤ مع أحمد شاه ونائبه ، وقتله سنة ١١٧٣ هـ - ١٧٥٩ م ، وأجلس مكانه على العرش ابن « كام بخش » ، ولكنه لم يكد يفرغ من ذلك حتى كان الأبدالى قد وصل إلى شمال الهند ، واستولى على لاهور ، وطرد المراهتا منها وتقدم إلى سهارنپور ، ففر غازى الدين من دهلى .

موقعة پانى پت :

وتقدم الأبدالى ، ولكنه لم يستقر بجيشه اللجب فى دهلى ، فقد خربها المراهتا عند انسحابهم منها بعد ما نالها من تخريب سابق متكرر ، وأقام فى « دوآب » منطقة ما بين النهرين : جمنا وگنگا .

وحدثت عدة مواقع بين الأبدالى والمراهتا انهزموا فيها شر هزيمة ، وقضى على عشرات الألوف منهم ، وكان ذلك فى سنة ١١٧٤ هـ - ١٧٦٠ م .

ولما وصلت هذه الأنباء المحزنة إلى ملكهم وزعيمهم فى الجنوب اضطرب

وغضب ، فقد كان يظن أنه بعد سيطرة المراهتا على الهند لن يقف أمامهم أحد ، وأنهم قد قبضوا على زمام الأمور فلم يعد لهم منازع ، وأن سطوة المسلمين قد قضى عليها نهائيا ، وهذا الخطر الجديد جاء ليعيد لهم ذكرى محمود الغزنوى ومحمد الغورى والأفوياء من المغول التيموريين ، وقد يتمكن الأبدالى من أن يجدد شباب الدولة الإسلامية ، ويركز سلطانها من جديد فى الهند ، بعد ما أمل المراهتا وغيرهم من الهندوس أنها قد زالت ، وأن السلطة رجعت لهم ، لهذا كله عمل هؤلاء على أن يثيروا الهندوس كلهم ضد هذا الغزو الجديد ، فجمعوا جيشا ضخما مكونا من ثلثمائة ألف مقاتل ، تسنده مدفعية قوية ، كان على رأسها « إبراهيم خان گاروى » المسلم الذى تعلم فنون المدفعية الحديثة من الفرنسيين فى الدكن ، وكانت فرقة المدفعية مكونة من ١٢ ألف رجل و٢٠٠ مدفع ، وعلى رأس الجيش كله القائد المراهتى « سدى شيوكو » المشهور باسم « بهاو » ، وتحرك هذا الجيش الضخم ليقضى على الأبدالى والخطر الذى يسير فى ركابه ، وكان جيشه مكونا من أربعين ألفا ، ومدفعية صغيرة مكونة من ٤٠ مدفعا ، ووصل المراهتا إلى دهلى ، وتجاوزوها إلى الشمال الغربى قليلا . وفى « پانى پت » التى شهدت أكثر المواقع الحربية فى الهند تقابل الجيشان فى جمادى الآخرة سنة ١١٧٤ هـ - يناير سنة ١٧٦١ م ، وضغطت مدفعية المراهتا على الأبدالى فتقهقر ، ثم فى سرعة خاطفة ، وتنظيم جيد كر عليهم كرة أذهلتهم ، وأوقعت الذعر والخبال فى صفوفهم ، بينما أخذ الجيش الأفغانى يعمل فيهم القتل ، حتى قتل فى ميدان المعركة نحو مائتى ألف مقاتل ، ولاذ الباقون بالفرار ، وتعقبهم الأبدالى وخرج عليهم أهالى القرى ينتقمون منهم ، لما أصابهم من تعسفهم ، فوقعوا بين خطرين حتى قتل الكثير منهم ، وقد قضى على أمرائهم وزهرة رجالهم ، وغالب قوتهم فى هذه المعركة ، فكانت الموقعة الفاقرة التى كسرت ظهورهم وقضت على غرورهم .

شاه عالم الثانى :

وقد مكثت دلهى مدة بدون ملك ، ولما انتصر الأبدالى نادى بشاه عالم الثانى[١] سلطانا على دهلى ، وكان فى بنگال ، فأقام الأبدالى مقام شاه عالم ابنه « جوان بخت » ، ورجع إلى أفغانستان بعد أن أبقى له نوابا فى دهلى ، ولكن جسم الدولة كان مريضا ، فلم يجد فيه هذا الدواء - وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ؟ ! - ولو أن الأبدالى مكث فى دهلى وأعلن حكمه فيها ، وقبض على ناصية الأمور لكان من الممكن أن يتغير مجرى التاريخ . . ولكن هكذا أراد الله . . وتوفى أحمد شاه فى سنة ١١٨٧ ﻫ - ١٧٧٣ م .



شاه عالم الثانى

ظل « شاه عالم » بعيداً عن دلهى عدة سنوات ، وملكها تتلاعب به الأيدى ، وقد اشتد أزر المراهتا من جديد على يد ملكهم « مادهافاراو » ، ونظم جيشه تنظيما حديثا على النسق الأوربى ، ثم زحف على دلهى واستولى عليها وأعاد شاه عالم إليها وولاه السلطة ، فعينه شاه عالم إمارة الجيوش كلها ، وأصبحت امبراطورية المغول فى كفالته[٢] .

---

(١) تذكره بعض الكتب باسم (أعلم الثانى) . (٢) حاضر العالم الإسلامى ج ٤ ص ٣١٢

وكان شاه عالم قد أراد أن يسترد البنگال من الإنجليز بالاتفاق مع بعض الأمراء المسلمين ، فوقعت بينهما حروب انتهت بانتصارهم فى « بكسر » سنة ١١٧٨ هـ - ١٧٦٤ م ، مما اضطره إلى أن يترك لهم السيطرة على بنگال وأوريسا وبهار ، مكتفيا منهم بخراج يؤدونه إليه قيمته مليونان و ٦٠٠ ألف روبية ، ثم حدث بعد ذلك أن اعتدى عليه أحد القواد « غلام قادر خان روهلا » ، وكان قابضا على زمام الأمر فى دهلى من قبل فقلع عينيه ، مما أفقده كل هيبة كان يتمتع بها .

والحق أن شاه عالم لم تكن له أية شخصية فى الحكم ؛ فقد كان يعيش فى كفالة المراهتا ، وأخيرا تدخل الإنجليز ، وجعلوه تحت حمايتهم ، ودفعوا له مرتبا شهريا قيمته تسعون ألف روبية ، على أن يتولوا إدارة شئون البلاد نيابة عنه ، وكان ذلك سنة ١٢١٩ هـ - ١٨٠٤ م ، ولم يمكث طويلا حتى مات سنة ١٢٢١ هـ - ١٨٠٦ م .

محمد أكبر الثانى :

وتولى الملك من بعده ابنه « محمد أكبر الثانى » ، وعاش كوالده فى كفالة الإنجليز الذين قد بلغوا من السيطرة حدا شمل الهند كلها تقريبا ، ومكث مدة طويلة فى الحكم حتى توفى سنة ١٢٥٣ هـ - ١٨٣٧ م .

بهادور شاه :

وتولى بعده ابنه « سراج الدين أبو ظفر بهادور شاه » ، وعين له الإنجليز مرتبا سنويا قدره مليون ومائتا ألف روبية ، وكان ظلا فقط لا نفوذ له ، حتى فى القلعة الحمراء التى يسكنها فى دهلى !! وكان الحاكم الإنجليزى فى ذلك الوقت « لورد كاينىنگ » ، والقائد العام « دلهوزى » ، وقد وجه الإنجليز إلى بهادور شاه إنذارا بأنه آخر ملك يسكن القلعة ، وأنها ستكون بعده ثكنة عسكرية ، وأن المخصصات التى يأخذها منهم ستنتهى بانتهاء حياته ، وكان معنى ذلك القضاء على ملك المغول ، وبالرغم من ضعف الملك كما رأيت ، فقد



سراج الدين أبو ظفر بهادور شاه



زنيت محل شريكته فى المنفى

وقع هذا الخبر على الشعب ولا سيما المسلمين وقع الصاعقة ، فقد كانوا — المسلمون منهم والهندوس — ينظرون إليه مهما كان ضعيفا على أنه حاكمهم الوطنى . أما الإنجليز فغزاة أجانب معتدون ، لا سيما وقد ضجت الهند كلها من مظالمهم ، وأخذ أحرارها يستعدون للثورة عليهم ، وفى هذا الوقت أيضا اخترع الإنجليز الخراطيش المدهونة بشحم الخنازير والبقر ، وكانوا يجبرون جنودهم على كسرها بأسنانهم بدل السكين . والبقر محرم على الهندوس تحريم الخنزير على المسلمين ، فولد هذا العمل تبرما عاما فى الجنود انقلب إلى ثورة جامحة ضد الإنجليز للتخلص منهم ، وجعل الثائرون الملك بهادور شاه قائدا عليهم ، فلما فشلت الثورة قبض عليه الإنجليز ونفوه إلى رانگون فى بورما مع زوجته « زنيت محل » وبعض أولاده ، وظل هناك حتى مات ، فكان آخر ملك مسلم تولى ملك الهند مما سيأتى تفصيله بعد إن شاء الله .

حضارة المسلمين فى الهند

من الواجب علينا بعد أن انتهينا من عرض التاريخ الإسلامى فى الهند أن نقف وقفة قصيرة، لنتحدث حديثا إجماليا عما خلفه هؤلاء المسلمون من حضارة فى الهند. بعد ما مر من حديث مشاع عنها يستشفه القارىء من تاريخ السلاطين. وكلمة حضارة تمثل فى أذهاننا نواحى متعددة من النشاط الإنسانى، وتعنى إنتاجه فى العلم والأدب والفن والمبانى، وأنظمة الحكم والحياة والصناعة والتجارة.. الخ.. فماذا كان نصيب المسلمين فى الهند من ذلك كله؟ إن الحديث عن ذلك يقتضى جهدا، ويحتاج إلى بسط ربما يصل إلى كتاب مستقل، ولكن إذا لم نستطع ذلك الآن فلا بأس من أن نعطى فكرة إجمالية عنه.

* * *

كان الفاتحون الأول للهند من المسلمين العرب، ولاشك أنهم نقلوا إلى البلاد التى فتحوها واستقروا فيها دينهم، وكثيرا من تقاليدهم وعاداتهم ولغتهم، وقد انحسر الفتح الإسلامى العربى، وانحصر على نقطة صغيرة فى غرب الهند وهى السند، فلم يكن لهذا العهد ملامح كبيرة، وإن كان لايمكن أن ننكر أثر ذلك فى نواح متعددة ومنها لغتهم مثلا، فاللغة السندية لاتزال للآن تكتب بالحروف العربية وتضم كثيرا من اللغة العربية. كما أن المسلمين فيها يمثلون الأغلبية الساحقة.

وبعد ذلك بقرون جاء المسلمون فاتحين على يد محمود الغزنوى، ثم توالى فتح المسلمين، واطرد حكمهم للهند حتى انتهى بانتهاء حكم المغول بعد نحو ثمانية قرون ونصف قرن..

ولم يكن هؤلاء الفاتحون عربا، ولكنهم كانوا - بلاشك - مسلمين متحمسين للإسلام، يحملون حضارة بلادهم فى أفغانستان وفارس وماوراء النهر، وهى حضارة يمكن أن نقول عنها فى عمومها إنها حضارة فارسية، ولو أن الحضارة الفارسية قد اندمجت فى الحضارة الإسلامية العامة، لكن هؤلاء كانوا فارسى

اللغة والثقافة ، لأن اللغة الفارسية كانت هى لغة المسلمين السائدة فى تلك البلاد، هذا بجانب لغتهم الأصلية التى عرفوها من بيئاتهم الخاصة .

لذلك كانت اللغة الرسمية لهؤلاء الحكام هى اللغة الفارسية ، حتى بعد أن ولدت اللغة الأوردية وتكونت وأصبحت لغة رسمية كذلك ، فلم تتزحزح اللغة الفارسية عن مكانتها كثيرا ، إذ ظلت لغة الحكام والأرستقراطيين ، والعلماء والأدباء والشعراء من المسلمين وغيرهم ، والنتاج الذهنى الإسلامى فى الهند فى تلك العهود إنما عبرت عنه اللغة الفارسية ، حتى لنجد الكتب التى ترجمت من السنسكريتية والعربية فى عهد هؤلاء الحكام ترجمت للفارسية ، والكتب التى ألفت لهم وفى عهدهم لغتها فارسية ، ولا عجب فى ذلك، فاللغة الأوردية هى لغة حديثة العهد بالوجود عمرها نحو أربعمائة سنة ، ومما لاشك فيه أنها لم تبلغ درجة النضج أو الكمال إلا بعد ذلك بكثير .

وكان هؤلاء الفاتحون مسلمين ، وبعضهم كان حديث العهد بالإسلام مثل المغول ، لأنهم أسلموا بعد أن فتحوا البلاد الإسلامية ، وأزالوا الخلافة العباسية ، وقد حكموا فى الهند بلادا واسعة تدين بالوثنية منذ آلاف السنين، وكانت لهذه البلاد حضارة قديمة حافلة بأنواع المعارف والتقاليد ، والمسلمون فيها كانوا قلة ولم يكن عندهم بلاشك ـ ما كان للعرب الفاتحين دائما من الحماسة لنشر الإسلام ولغته ، لذلك لم يكن لهؤلاء الحكام من الأثر فى نشر الإسلام ولغته وتقاليده مثل ما كان للعرب المسلمين ، ولم يلجئوا إلى القوة فى جبر الهنود لاعتناق الإسلام ، وهذا حسن ومطابق للإسلام ، إلا أنهم لم يكونوا ـ فى جملتهم ـ بسلوكهم ولا بمرغباتهم ودعايتهم ذوى أثر كبير فى جذب الهندوس للإسلام ، ومن هؤلاء الحكام من شذ عن الإسلام وتعاليمه مثل أكبر ، لذلك نرى الأغلبية فى البلاد التى كانت عاصمة الحكم الإسلامى غير مسلمة كما فى دلهى وأكرا ، ونرى أغلبية سكان الهند غير مسلمين بالرغم من طول مدة الحكم الإسلامى لها ، إذ ظل نحو ثمانية قرون ونصف قرن متتابعة .

ولكن مما لا جدال فيه أيضاً أن المسلمين أثروا بدينهم وآدابهم وتقاليدهم فى المجتمع الهندى فى كل ناحية من نواحيه ، وهذا أمر طبيعى فى شعب يعيش عيشة واحدة ، ويختلط عن قرب اختلاطا كبيراً .

كتبت مجلة (ثقافة الهند) التى تصدرها الحكومة الهندية فى عددها الصادر فى ديسمبر سنة ١٩٥٦ مقالا تحت عنوان « آثار الإسلام فى الهند » نقتطف منه ما يأتى لمناسبته لهذا الموضوع :

« لقد كان أكبر أثر لفكرة الإسلام الأخلاقية على المثقفين من الهندوس فى تلك الحقبة هو عن طريق الفارسية ، كواسطة تفاهم تأثرت هى الأخرى بدورها إلى حد كبير بالعربية ، وعن طريق كتب التعاليم المقدسة التى ظهرت فى عهد الإسلام ، والنتيجة العظمى لهذا الأثر هو النمو التدريجى للاعتقاد المتسع فى وحدانية الله ، ونمو العقائد التوحيدية المحلية ، والنتيجة الثانية هو خلق لغة جديدة هى الأوردية التى أصبحت أكثر اللغات شيوعا فى الهند »

« وهناك آثار أخرى أكثر من أن تسرد بالتفصيل ، إذ أنها تشمل دائرة بالغة الاتساع ، فأنت تراها فى طراز المبانى والبيوت والموسيقى والرسم والحرف والفنون وفى الهندام والألقاب والرياضة ، وبالاختصار فى حياة البلاد بأسرها »

ثم أخذ يسرد فى تفصيل أثر المسلمين فى هذه النواحى مما أكتفى هنا بإثبات فقرات منه حتى لا يطول بنا الحديث :

« أما فن البناء فكان أكثر فروع الفن اجتذابا لاهتمام المسلمين ، فكان بناء المساجد والمقابر والقصور من أعظم مميزات عهود الحكام المسلمين الأوائل ، وتمثل النبوغ الفنى للعمال فى رسم الأشكال البديعة على الجدران ، وتنمية التناسق والتناسب فى الأبنية »

« وقد عرض « بابر » ذوقا رفيعا فى الرسم ، ويقال : إنه أحضر إلى الهند معه تحفا مختارة من الرسوم التى استطاع جمعها من مكتبة أجداده من سلالة تيمورلنك ، وقد نقل بعضها إلى إيران « نادرشاه » بعد غزوه الهند ، ولكنها

طيلة بقائها فى الهند تركت أثرا عظيما وخلقت دافعا جديدا لفن الرسم فى الهند ».

« وقد برهن أكبر حفيد بابر على أنه راعية عظيم للفن من كل فروعه ، وكان له أكثر من مائة مصنع للفنون والحرف ملحقة بالقصور الملكية ، وكل منها كمدينة » .

« وقد بنى مصنعا قرب القصر حيث كانت الأستديوهات والغرف الخاصة بالفنون الأرفع والأكثر شهرة ، مثل الرسم والصياغة وصناعات الأقمشة والسجاجيد والستائر والأسلحة ، وكان أكبر يتردد عليها كثيرا ويراقب أعمال الذين يمارسون تلك الفنون » .

« يوجد عدد كبير من النماذج الهندية البديعة فى مختلف المتاحف الأوربية ، فنى المكتب الهندى بلندن والمتحف البريطانى وبودليان فى أكسفورد تحف بديعة نادرة للفن ، يصعب على العالم الغربى إعطاءها حقها من التقدير البالغ الروعة ».

« ويتصل بهذا الفن فن تزيين المسلمين للكتب الدينية والأدبية القديمة بحواش ذهبية مزخرفة ، مما جعل الهندوس يقتبسونه أيضا ، وكان المسلمون هم الذين أحضروا الورق للهند » .

«وقد ساهم المسلمون كذلك فى الرقى بالفن الموسيقى ، حتى كان سلاطينهم يخترعون بعض النغمات الجديدة ، واستحدث المسلمون عددا من الأدوات الموسيقية الجديدة ، واطلقوا على بعضها أسماء فارسية » .

« وكذلك أدخل المغول فن تنسيق الحدائق والعناية بها ، مما لانزال نرى أثره فى « لاهور وسرى نگر » فى كشمير ، وقد كان لهم ولع بجمال الطبيعة ، حتى كانوا يسافرون المسافات الطويلة إلى پنجاب وكشمير ؛ للتمتع بالمناظر الطبيعية الخلابة ، ولذلك كانوا يجتهدون دائما فى إيجاد مثل هذه المناظر فى قصورهم وبساتينهم الخاصة والحدائق العامة » .

« وبجوار ذلك بلغ الرقى فى تنظيم الإدارة وضبط أداة الحكم حدا بقى الكثير منه معمولا به إلى عهد الإنجليز » .

« أما المكتبات وتنظيمها والعناية بها فقد كان للمسلمين شغف خاص بذلك، وعلى رأسهم ملوكهم وحكامهم، ولقد مات همايون على إثر إصابة حدثت له على السلم وهو نازل من مكتبته التي كان يحب أن يقضي فيها كثيرا من وقته، كلما خلا من مشاغل الحروب وتنظيم الدولة ».

وهكذا كان للمسلمين أثر وأي أثر على رقي الحياة في الهند في جميع مظاهرها خلال القرون التي تولوا الحكم فيها . اهـ .

ويقول جوستاف لوبون في كتابه (حضارة الهند)[1] « مارس المسلمون في الهند مثل النفوذ العميق الذي مارسوه في جميع أقطار العالم التي فتحوها، ولا أمة ـ كالمسلمين تم لها من النفوذ البالغ ما تم للمسلمين كما أثبتناه في كتابنا « تاريخ حضارة العرب » ولا تستثن الرومان من ذلك . ففي مدة سلطان المسلمين الذي دام في الهند سبعة قرون[2] غير فريق كبير من الشعب الهندوسي دينه ولغته وفنونه تغييرا عظيما، وظل هذا التغيير باديا بعد زوال ملكهم »

ويقول الأستاذ مسعود عالم الندوي[3] :

« كان أهل الهند يعبدون ثلاثين مليونا من الآلهة منذ قديم الزمان، فلما خالطوا المسلمين، وقرع سمعهم صوت الحق ترقت فكرتهم الدينية، وجعل مصلحوهم يغيرون شيئا فشيئا » .

« وأول من قام بالإصلاح « شنكرا چورچ » المولود سنة ٧٨٦ م والذي دعا إلى وحدة الوجود وعبادة معبود واحد هو « شيفا » (وهو إله الموت عندهم) وكان ذلك زمن قدوم المسلمين في « مليبار » .

ثم يليه « رامانج » الذي دعا إلى عبادة « ڤشنو » (وهو إله الحياة عندهم) وقد ولد هذا المصلح في القرن الحادي عشر .

---

(١) ص ٢١٧

(٢) بل ثمانية قرون ونصف من سنة ١٠٠١ م إلى ١٨٥٧ م حيث زال حكم المغول وبدأ عهد الإنجليز

(٣) في مقال له بمجلة الضياء العربية التي كان يصدرها في لكنو بالهند عدد رجب ١٣٥٤ هـ تحت عنوان (المسلمون في الهند وتأثيرهم في دينها وحضارتها) . وقد أهدت لي دار العلوم ندوة العلماء في لكنو بعض أعداد الضياء القديمة مشكورة .

«ثم نهض رجال مثل (كبير)[١] و «گرونانك» و «چيتن» الذين اقتبسوا من تعاليم الإسلام السامية ما يلائم هواهم وأسسوا دينا جديداً . ولا يزال دين «نانك» - وأتباعه يدعون «بالسيك» لا يزال هذا الدين القائم على التوحيد منتشرا فى البنجاب على الخصوص ، وأتباعه من أشجع الهنود ، وهم أقرب إلى الإسلام منهم إلى الوثنية ، لكن السياسة جعلتهم منحازين إلى الهنادك ، و «نانك» هذا قرأ القرآن وزار بيت الله الحرام» .

«وقام فى القرن السالف مصلح كبير فى «بنگال» اسمه «رام موهن رائى» قرأ القرآن وتعلم العربية والفارسية والسنسكريتيه وبرع فيها ، ولما شاهد أن دين البراهمة لا يتمكن من مقاومة تيار التعليم الحديث الذى يكاد يجرف البقية الباقية من حضارتهم أسس دينا جديداً سماه (برهمو سماج) ، وأكثر تعاليم هذه الطائفة من التوحيد والمساواة ونكاح الأيامى وغيرها مقتبسة من الإسلام ، وقد مات سنة ١٨٣٣ م وبدينه يدين (طاغور) ، فيلسوف الهند ، وأكثر كبار رجال الهنادك فى بنگال» .

«وكذلك قام مصلح آخر «ديانند»[٢] فى شمال البنجاب ، ودعا بنى قومه إلى التوحيد والمساواة ، وأسس طائفة «آريا سماج» التى هى أشد أمم الهند عداوة للذين آمنوا . لكنهم مدينون للإسلام ، ولو أنكر الجاحدون» اهـ .

وقد كان تأثر الهندوس بالمسلمين فى شمال الهند أكثر منه فى جنوبها ؛ لأن الحكم الإسلامى لم يصل للجنوب إلا متأخرا ، وكان الحكم الإسلامى يتبعه حتما الاختلاط الكثير بالمسلمين ، وتأثر الهندوس تبعا لذلك .. لذلك تجد جنوب الهند أعرق فى عبادة الأوثان من شمالها . قال الميجر «ج . د . باسو» ، وهو من كبار مؤرخى الهنادك فى العصر الحاضر[٣] :-

---

(١) كان شاعرا ومن والدين مسلمين ، وكان صاحب فكرة ترمى إلى المزج بين الإسلام والهندوسية ولا يرى فرقا بين (برام) و (رحيم) وبين الكعبة وكيلاش وبين القرآن وپوران (ثقافة الهند ديسمبر ١٩٥٦)

(٢) فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

(٣) فى كتابه ارتقاء القوة المسيحية فى الهند ج ٢ ص ١٠٦ (نقلا عن الضياء) .

« هذه الوثنية الشنيعة والاعتقاد بالخرافات الضاربان أطنابهما فى جنوبى الهند ، إنما يرجع سببهما إلى انعدام نفوذ الحكومات الإسلامية لا غير » .

وقال مؤرخ آخر هندوكى (السير ب . س . رانى) :

« أثرت روح الإسلام الديموقراطية أيما تأثير فى تقليل مفاسد نظام الطوائف بين الهنادك ، فدب بذلك دبيب التسامح والتنور فى حياة البلاد الإجتماعية » .

وبجوار ذلك تأثر الهندوس بعادات المسلمين وتقاليدهم ، بل وملابسهم ومعيشتهم ، فمن المعروف عن الهندوس البساطة التامة فى معيشتهم بخلاف المسلمين الذين يعنون بالمظاهر كثيرا ، وإن كان ذلك الأثر لم يخرج الجميع عن البساطة التى هى شعار سكان الهند ، وقد أدى طول حكم المسلمين إلى مشاركة الهندوس لهم فى بعض مظاهر أعيادهم وفى بعض كلماتهم الدينية مثل: بسم الله ـ الحمد لله ـ إن شاء الله ـ السلام عليكم . الخ .

وحين انتشرت اللغة الأوردية أصبحت لغة المسلمين والهندوس على السواء ، وفيها كثير من الكلمات العربية .

* * *

وحين استقر الحكم للمسلمين فى الهند على مر القرون ، أخذوا يعملون على توسيع رقعة مملكتهم ، وتوحيد البلاد تحت سلطانهم ، وبذلك رأت الهند نوعا من توحيد الحكم والسياسة ربما لم يعرفوه من قبل .

وبجوار هذا انصرف المسلمون إلى الرقى بالبلاد من الناحية العلمية والأدبية والفنية والصناعية والمعمارية .

فشهدت الهند عهودا زاهرة فى هذه النواحى كلها لم تشهدها من قبل ، وكانت فى ذلك تضارع أرقى البلاد فى عصورهم ، بل ربما كانت تفوقها . فكان بلاط الملوك المسلمين ملتقى العلماء والأدباء والفنيين من كل الأقطار ، حيث يلقون العناية والاكرام ، فبرز فى العهود المختلفة علماء فطاحل ، كانوا ولازالوا

فخر الهند بل فخر البلاد الإسلامية كلها ، كالإمام حسن محمد الصغانى[١] ومجدد الألف الثانى أحمد بن عبد الأحد السرهندى[٢] والشاه ولى الله الدهلوى[٣] وفطاحل العلماء من أسرته، والسيد أحمد[٤] الشهيد والسيد مرتضى الزبيدى[٥]

---

(١) نسبة إلى «صاغان» معرب «جاغان» قرية بمرو . أتى آباؤه منها . ولد بمدينة لاهور شمال الهند سنة ٥٥٧ هـ أو سنة ٥٧٧هـ على خلاف بين مؤرخيه، وتعلم بها ثم رحل إلى «غزنة» ثم إلى بغداد ، ثم إلى مكة وعدن ثم عاد لبغداد ، وتمتع بأنعامات الخليفة وأرسله إلى سلطان الهند «شمس الدين ألتمش» سنة ٦١٧هـ ــ ١٢٢٠م ثم خرج من الهند سنة ٦٢٤هـ ــ ١٢٢٥م ثم عاد إليها فى عهد السلطانة رضية بنت ألتمش ، ورجع منها إلى بغداد حيث توفى سنة ٦٥٠هـ ــ ١٢٥٢م ، ثم نقل إلى مكة حسب وصيته . قال عنه السيوطى «إنه كان حامل لواء اللغة» وقال الذهبى « كان المنتهى إليه فى اللغة» وقال الدمياطى :إنه كان إماما فى اللغة والفقه والحديث. ومن مؤلفاته «مشارق الأنوار النبوية فى صحاح الأخبار المصطفوية » وله شروح كثيرة ، ومنها العباب الزاخر فى اللغة فى عشرين مجلدامات قبل أن يتمه ، ومنها مجمع البحرين فى اللغة أيضا، والنوادر فى اللغة والتراكيب وله عدا ذلك كثير من الكتب فى الحديث واللغة . اهـ ملخصا من نزهة جـ١ ص١٣٧ .

(٢) سبقت ترجمته .

(٣) هو شيخ الإسلام وإمام المجددين فى الهند قطب الدين أحمد ولى الله بن عبد الرحيم، ابن وجيه الدين العمرى الدهلوى ولد سنة ١١١٤ هـ — ١٧٠٢ م فى أيام السلطان عالمكير كان والده من كبار المشايخ فى عصره بدهلى ، فرغ من تحصيل العلوم فى الخامسة والعشرين وتصوف وبايع على يد والده فجمع بين العلم والتصوف ، وبلغ فى كل منهما شأواً عظيما ، حتى أصبح رأس مدرسة كبرى فى الهند للان ، وكان فصيحاً فى العربية والفارسية ، وله عدة تصانيف تعتبر الغاية فى السمو العقلى والدينى ، وأهمها كتاب « حجة الله البالغة » المعروف . عاش حرباً على البدع والتقليد الأعمى ، وكان يجنح إلى الاجتهاد والترجيح بالرغم من أنه حنفى ، فكان يضعف بعض آراء الحنفية أحياناً تبعاً لقوة الدليل . وقد ترجم القرآن للفارسية ولم يبال بالمعارضين ، وله عدة كتب فى الفقه والحديث والتفسير تعتبر من أمهات الكتب ، كما أن له ديوان شعر بالعربى، جمعه ابنه الشاه عبد العزيز وبعض مؤلفات فى التصوف . وقد حاول إنقاذ حالة الحكم الإسلامى من الضعف ومن تلاعب الملوك ولهوهم . وتوفى سنة ١١٧٦هـ — ١٧٦٢م وعمره ٦٢ سنة ، ودفن فى دهلى مع والده . اهـ

(٤) ستأتى ترجمته .

(٥) هو السيد محمد مرتضى بن محمد الحسينى البلجرامى ثم الزبيدى علماً وشهرة ثم المصرى وفاته ولد بالهند فى بلدة « بلكرام » سنة ١١٤٥ هـ — ١٧٣٢ م وتلمذ على شاه ولى الله الدهلوى وغيره من مشاهير العلماء بالهند، وأجازوه فى رواية الحديث ، ثم ارتحل لطلب العلم فدخل زبيد باليمن وأقام بها مدة طويلة، فاشتهر بالزبيدى، ثم ارتحل إلى مصر سنة ١١٦٢هـ — ١٧٥٢م ومكث بها حتى توفى، وكان نادرة عصره بارعا فى علم اللغة والأنساب والحديث والتصوف، =

صاحب تاج العروس فى شرح القاموس ، وغيرهم كثير من فطاحل العلماء الذين أفرد لهم بعض المؤلفين كتبا خاصة ، بسيرهم وأعمالهم[١] ، وقد كان الملوك يتنافسون فى إنشاء المدارس والإغداق على العلماء ، وترجمة الكتب الثمينة ، كما كان للعلماء مركز مرموق عند الملوك ، فكانوا يعظمونهم ويقدمونهم على أنفسهم ، ويذهبون إلى زيارتهم فى بيوتهم ، وربما كان بعض العلماء يمتنع عن مقابلة الملوك أحيانا برغم إلحاحهم فى طلب الزيارة ، فنرى السلطان شمس الدين ألتمش يستأذن على الشيخ بختيار الكعكى فى بيته ، ويدخل خاضعا ويسلم عليه كما يسلم المملوك على الملك ، ثم يجلس عند رجليه ويدلكهما ، ويذرف الدموع أمامه ،حتى يدعو له الشيخ ثم يأمره بالانصراف .

ونجد السلطان جلال الدين فيروز خلجى وخلفه السلطان علاء الدين، يحاولان زيارة الشيخ نظام الدين البدايونى ، فيمتنع عن استقبالهما ويقول : إن لبيتى بابين لو دخل هو من باب خرجت من الآخر . والسلطان « أكبر » كان فى مبدأ حكمه يذهب للعلماء فى بيوتهم ، ويزورهم ويستمع إليهم ، وكان يمشى عشرات الأميال لكى يزور ولى الله « معين الدين الجشتى » فى أجمير ، كما أنه كان يعظم ولى الله الشيخ سليم سيكرى ، وبنى مدينة فى مكانه القفر الذى كان يقيم فيه واتخذها عاصمة مدة من الزمن ، وسمى ابنه « سليم جهانگير » باسمه ، ولقد كان بعض الملوك من العلماء المؤلفين ، والأدباء الفنانين البارزين، مثل بابر وجهانگير وأورنگزيب وفيروز شاه ملك گولكنده الذى كان ماهرا فى علم النبات والهندسة . وغيرهم ، وقد سبق الحديث عن ازدهار الفن فى عهد المغول . فى عهد أكبر وخلفائه ، فلا حاجة لإعادة الحديث عنه هنا .

= ومن أهم مؤلفاته تاج العروس شرح القاموس، وإتحاف السادة المتقين فى شرح إحياء علوم الدين، وغير ذلك من أمهات الكتب ، ولعظم شهرته كاتبه ملوك النواحى من الترك واليمن والحجاز والهند والمغرب والسودان وفزان والجزائر. وكان يعرف التركية والفارسية فوق معرفته بالعربية والأردية ، ومن تلامذته الجبرتى المعروف الذى أفاض فى الحديث عنه وعن منزلته بين الحكام والمسلمين عامة فى كتابه « تاريخ الجبرتى » وكتب عنه باستفاضة تحت وفيات ١٢٠٥ هـ ـ ١٧٩١ م.

(١) سبحة المرجان فى آثار هندوستان لغلام على آزاد البلجرامى ، نزهة الخواطر للعلامة عبد الحى الحسنى .

أما أنظمة الحكم فبالرغم من أنها كانت قائمة على أساس جمع السلطة كلها فى يد الملك ، كما كان سائداً فى العالم فى ذلك العصر ، إلا أن الهند فى ظله قد بلغت من الرقى مبلغا سعدت به بين الدول الأخرى وربما سبقتها فى ذلك .

ومن المهم أن نشير إلى أن الحكم الإسلامى لا سيما فى عهد المغول كان قائما على أساس حكومة وطنية تعمل لصالح الوطنيين ، فلم يكن الحكام يعدون أنفسهم غرباء عن الشعب ، خصوصا بعد أن اندمجوا فيه وتصاهروا معه ، وكان الحكم متجها دائما لخدمة الشعب والرقى به فى جميع النواحى الزراعية والصناعية والتجارية ، ويتمثل ذلك فى إقامة المستشفيات والحمامات ، وحفر الترع والأنهار والآبار ، وبناء الجسور والمدارس ، وإنشاء الحدائق والمتنزهات العامة والأحواض المائية الواسعة ، وضمان الدولة للعجزة عن العمل والمرضى ، وإنشاء الطرق القصيرة والطويلة ، حتى ربطوا أجزاء الهند الشاسعة بعضها ببعض ، ونظموا البريد تنظيما يضمن وصول الرسائل بسرعة ، وعنوا بإنشاء الاستراحات على طول الطرق . بحيث يضمن فيها المسافر ما يحتاج إليه من راحة وماء وغذاء ، وغرسوا الأشجار المثمرة ، وغيرها على الطرق ، وعملوا على إقرار العدل ووصول الشكاوى للملك ، فوق أنه كان يجلس للشعب دون حاجب يستمع لشكاواه ولو ضده ، ورأينا فيما سبق كيف كانوا يحرصون على إنصاف الرعية بتعليق أجراس على أبواب القصر ، يستطيع أى مظلوم أن يدقها ليعلن الملك بشكواه ، كما كان بعضهم يجلس أمام القاضى فيحكم عليه دون تمييز بينه وبين أفراد رعيته ، وقد وضعوا أنظمة مالية وأخرى إدارية وزراعية ، وظل بعضها أساسا للعمل به حتى فى عهد الإنكليز .

* * *

أما المبانى وما وصلت إليه من رقى ، فقد سبق الحديث عنها مفصلا فى مناسباتها ، وكذلك فن الرسم والتصوير .

وبجوار ذلك قامت الصناعات المختلفة فى الهند ، ولاسيما صناعة الأقمشة

الحريرية وغيرها ، وكانت تصدر إلى مختلف الأقطار حتى تصل إلى أوربا نفسها ، وكانت الشركة الإنجليزية فى بدء عهدها تصدر منها البفتة وغيرها إلى انجلترا ، وكان الأوربيون يفضلون الثياب الزاهية المصنوعة فى الهند عن صناعة بلادهم . ومن المعلوم أن خيرات الهند ومحصولاتها الوافرة هى التى أطمعت الغرب فيها ، فجاءوا إليها من كل أمة حتى استقر الأمر فيها للاستعمار الإنجليزى .

وأحب فى هذا المقام أن أضع أمام القارىء بعض ما كتبه المؤرخون عامة عن حضارة المسلمين فى الهند ، ولاسيما المؤرخون الغربيون الذين تعودنا منهم غالبا ألا يثبتوا حسنة للمسلمين إلا إذا كانت واضحة لاسبيل إلى إنكارها أو الشك فيها .

وأبدأ أولا بما قاله المؤرخ المسلم الأمير شكيب أرسلان[١] :

« إن المدنية الإسلامية فى الهند كانت خلاصة مدنيات عديدة : إذ اجتمعت فيها عناصر الحضارات العربية والفارسية والتركية والمغولية والصينية والهندية والبوذية وغيرها ، ولكن الحضارة الفارسية كانت فيها ذات الشقص الأوفر ، حتى صارت الهند بواسطة الإسلام كأنها قطعة من إيران ، واشتهر فى الهند كثير من الشعراء الفطاحل الذين كانوا يتحدون عظماء الشعراء الفارسية ، حتى إننا لا نجد بعد العرب فى العالم الإسلامى ، لغة وثقافة تضارعان الفارسية وثقافتها » .

ويقول المؤرخ والفيلسوف الفرنسى الكبير جوستاف لوبون[٢] :

« والمسلمون حين أدخلوا إلى الهند حضارة العرب أدخلوا معها رغبة كبيرة فى العلوم والآداب والفنون ، وما شادوه فى عواصمهم : أحمد أباد ، آكرا ، دهلى ، بيجابور وغيرها من المبانى ينطق بعظيم حمايتهم للفنون . وما انتهى إلينا

(١) فى كتاب حاضر العالم الإسلامى ج ٤ ص ٣١٩

(٢) فى كتابه حضارة الهند ص ٤٢٣ .

من تراجم ملوك المسلمين يثبت لنا أن هؤلاء الملوك كانوا يشجعون الأدب والعلوم أيضاً، وأنهم كانوا يتعهدونها بأنفسهم، وليس ذلك فى كبرى الممالك وحدها، بل فى صغراها أيضا، ومن ذلك أن ملك مملكة گولكنده الصغيرة «فيروز شاه» كان يزاول علم النبات والهندسة والشعر، ولا يحيط نفسه بغير العلماء والشعراء والمؤرخين مع أشاغيله فى الحروب، وعلى تلك السنة سار ملوك المغول التى كانت حضارتهم أكثر هذه الحضارات ازدهارا» اهـ

ويقول عن الامبراطور «أكبر»(١) :

فترى أنه أحصى الأراضى ومسحها وقدر أنواع تراب الولايات، وفرض الخراج على حسب الخصب، فجعل ثلث الغلات للدولة، وثلثيها للمزارعين، وألغى كثيراً من الضرائب، وصار يدفع إلى ضباطه رواتبهم نقدا بدل الإقطاعيات، وداومت دولة المغول على الازدهار فى عهد خلفائه: جهانكير وشاهجهان وأورنجزيب» - ويقول أيضا(٢) :

«وقد حفزت ضرورة اطلاع الملوك على مايحدث فى الولايات إلى تنظيم شؤون البريد، لتسير بسرعة وانتظام فى كل ناحية، فلا تزال تجرى فى كثير من الجهات، فالبرد (بضم الباء والراء) كانوا سعاة مشاة(٣) يتناوبون أعمالهم بين مسافة ومسافة فى الطرق العامة. وكانت تنصب على جوانب الطرق حجارة بيض ترى ليلا، حفظا للسعاة من الضلال، ويظهر أن الطرق كانت جيدة فى عهد المغول، ، فقد زعم «تافرنيه» الذى ساح فى الهند أواسط القرن السابع عشر أن طرق الهند خير من طرق فرنسا وإيطاليا، وكان خفراء من الجنود يحافظون على السياح، فكانوا مسئولين تجاه قادتهم المقيمين بالمدن الكبرى عن كل ما يصاب به من يرافقونهم منهم» اهـ.

---

(١) ص ٤٢٤ المصدر السابق. (٢) ص ٤٢٨

(٣) بل كانوا أيضا يركبون الخيل المخصصة لذلك.

ويقول عن فخامة الملك أيام الامبراطور « أورنگزيب »[1] :

« كان الملك إذا حط رحله فى مكان نصبت له فيه الخيام بسرعة عجيبة ، فيخيل إلى الناظر أن مدينة خرجت من الأرض ذات شوارع وميادين ومفارق وحصون حسنة التخطيط ، وكان لكل خيمته من تلك مكان معلم من قبل على خريطة مرسومة ، فتبدو قصور الملك المتحركة مشتملة على ما فى أروع المبانى من وسائل الراحة » اه .

ويقول[2] :

« وسار المغول على غرار المسلمين الآخرين ، فأداموا حضارة هؤلاء ، محبين للآداب والعلوم والفنون حبا جما ، فرحبوا بالعلماء والشعراء ورجال الفن مهما كان جنسهم ، ولا تزال المبانى التى شادوها ـ فلم يصنع الغرب ما هو أروع منها ـ تثير العجب ، ولم تكن العلوم دون الفنون حظوة فى دولتهم ، فأنشئوا المدارس وأقاموا المراصد ، وحب المغول لعلم الفلك ورثوه كابرا عن كابر » وفى التعليق على هذا كتب يقول :

« لا يزال يرى فى دهلى مرصد أنشئ فى العصر المغولى قد أقامه « راجا جيبور » « جى سنگ » للملك المغول محمد شاه سنة ١٧٢٠ م الخ » ويعرف بين الناس بالهند باسم « جنترمنتر » باللغة الهندية أى آلة الرصد . ثم يقول بعد ذلك « ولم يبد المغول حماة للآداب والعلوم وحدها ، بل ترى الكثير منهم قد حذقوها أيضا ، فالحق أن حب الآداب ولاسيما الشعر كانناميا عندهم ، فألف بعضهم كتبا مهمة فيها » اه .

وقد سبق الحديث عن عناية بابر وأكبر وجهانگير بالعلوم والآداب والتأليف والتصوير فلا حاجة لتكرار الحديث هنا .

وقال اللورد « ماكولى »[3] :

---

(١) ص ٤٣١ . (٢) ص ٤٣٤ .

(٣) عن مجلة الضياء عدد شعبان ١٣٥٤ .

« إن الفتيات الأوربيات يلبسن ويتزين بثياب ثمينه تنسج بالهند ، ولا يخترن عليها أبدا ثياب بلادهن » .

وقال اللورد كلايف مدير عام شركة الهند الانجليزية أمام اللجنة النيابية سنة ١٧٧٦ م .

« إن بلدة « مرشد أباد »(١) تدانى « لندن » فى بهائها وجمالها ، وإنما الفرق بينهما أن الأولى يملك أهلها المزارع الخاصة بهم اكثر مما تملكه الثانية ، ويبلغ عمرانها عدة ملايين (لعله أراد المقاطعة كلها) حتى لو أرادوا إبادة الانجليز لكفتهم العصى والحجارة فى طردهم » ولورد « كلايف » هذا هو الذى انتصر على حاكم « مرشد أباد » « مراج الدولة » سنة ١١٧١هـ - ١٧٥٧م ، واستولت الشركة عليها وعلى البنگال كلها .

وقال المؤرخ الانكليزى « ونسنت » وهو شديد التعصب ضد المسلمين(٢) :

« مما لا ريب فيه أن مدينة « أحمد أباد » كانت تعد من أجمل مدن العالم من بدء عمرانها إلى القرن الثامن عشر للميلاد أى زهاء ثلاثة قرون » .

أما ابن بطوطه فيصف مدينة دهلى ويقول :

« وهى المدينة العظيمة الشأن الضخمة ، الجامعة بين الحسن والحصانة ، وعليها السور الذى لايعلم له فى بلاد الدنيا نظير . وهى أعظم مدن الهند ، بل مدن الإسلام كلها بالشرق » .

وكان ابن بطوطة قد جاء إلى الهند فى عهد السلطان « محمد تغلق » وذلك قبل أن يمر على دهلى مدة كبيرة تحت حكم المسلمين ، ولا شك أنها ازدهرت أكثر من ذلك فى عهد المغول ، وقد كانت الهند الإسلامية مهوى أفئدة المسلمين ، وملاذ الخائفين الفارين منهم ، بعد اجتياح المغول للبلاد الإسلامية أمام هولاكو ، كما قامت السفارات بينها وبين المالك المختلفة حولها .

---

(١) من مدن بنغال .

(٢) فى كتابه تاريخ اكسفورد ص ٢٧١ نقلا عن الضياء .

ويجمل بى أخيرا أن أضع أمامك ملخص مقال كتبه أحد المؤرخين الهندوكيين عن أثر الإسلام فى الهند وقد عدد تلك المنن العظيمة بعشر (١) :

١ — وصل الإسلام الهند بالبلدان الخارجية ، حتى ازدهرت فيها الملاحة والتجارة البحرية التى كانت مفقودة فيها منذ قرون .

٢ — بسط الأمن جناحيه فى أكثر بقاع الهند ، ولاسيما أقطارها الشمالية وذلك لم يكن متيسرا قبل ملوك المسلمين .

٣ — تكونت وحدة سياسية بتأسيس قسم واحد من الحكومة فى جميع أقسام الهند .

٤ — اتحدت الأوضاع والملابس فى الطبقات العالية والمتوسطة من غير مافرق بين المسلمين والهنادك .

٥ — نشأ فن جديد ممتزج من الفنون الهندية والصينية ، وكذلك تكون فن حديث بديع فى البناء ، وترقت صناعات حديثة أخرى من الطراز العالى .

٦ — ظهرت لغة مشتركة مسماة بالهندوستانية (وهى الأوردية) ، وكذلك راج أسلوب خاص فى الإنشاء بالدوائر الرسمية أتجه الكتاب الهنادك العاملون فيها ، وازداد هذا الأسلوب رواجا ، حتى استعاره كتاب اللغة المرهتيه فى كتاباتهم ونسجوا على منواله .

٧ — تمكنت اللغات الأهلية من الذيوع والانتشار تحت ظلال الحكومة المركزية فى دلهى ولم يتيسر ذلك من قبل .

٨ — التجديد الدينى ، وظهور المتصوفة أيضاً مدين لقدوم المسلمين ، ورسوخ أقدامهم فى الهند .

٩ — ازدادت الكتب التاريخية واتسع نطاقها حتى أصبح التاريخ فنا مستقلا .

١٠ — كل ماحصل من الرقى فى فنون الحرب وأدوات الحضارة يرجع فضله إلى الحكومات الإسلامية .

---

(١) لخصه الأستاذ مسعود عالم الندوى فى مجلة الضياء .

وخير الكلام وأوجزه فى ختام هذا الموضوع ماقاله أمير البيان شكيب أرسلان فى كتابه ، فقد قال بعد أن سرد الكثير عن هذه الحضارة[١] :

« وبالاجمال فمن شاهد تلك الآثار، وقرأ هاتيك الأخبار يعلم أن الإسلام تحقق بحضارة باهرة ، وعاش أعصرا زاهرة ، واحتوى على مآثر صورية ومعنوية ، وفضائل باطنة وظاهرة ، يحق للسلمين أن يباهوا بها سائر الأمم على شرط أن يقتدوا بأوائلهم » اه

تلك هى الحضارة الإسلامية التى قامت على أرض الهند . وظلت مئات السنين يغذيها أصحابها ويزيدون فيها ، ويدعمون قواعدها ويعلون بناءها ، ويغرسون فى كل ناحية بذورها ، فتنمو على مر الأيام ، وتمتد فروعها وأغصانها ، ويتمتع الناس بثمارها وظلالها .

ظلت هكذا حتى أراد الله أن يقضى على الملك الإسلامى فى الهند ، وأن يغير الحال بعد ما تغيرت النفوس ، وأن يزيل هذا الملك العظيم على يد الإنجليز ـ والإنجليز دائما فى كل مكان ـ فأخذ وجه الحياة يتبدل ، وتنكرت الظروف للمسلمين ، فأصبحوا عبيدا بعد أن كانوا سادة ،واشتد ضغط الإنجليز عليهم فى كل ناحية من نواحى حياتهم ؛ خوفا من أن يرفعوا رءوسهم ، ويستعيدوا سلطانهم، وأخذ الإنجليز ينشرون لغتهم وثقافتهم، وعكف المسلمون الذين خافوا على دينهم وثقافتهم من الفاتحين الغاشمين . عكفوا على حفظهما بما استطاعوا أمام التيار الغربى الجارف .

وتطورت الحياة فى الهند ، وتطور أكثر الناس فيها ، ولكن بقى أكثر المسلمين ، وعلى رأسهم العلماء ـ ينظرون إلى هذا التطور نظرة مريبة ، فبثوا الألغام فى طريقه ، وملئوا عقول الناس بأن كل حديث بدعة ضلالة ، وكانوا فى ذلك ـ على ما أعتقد ـ مدفوعين بالنية الطيبة ، مع الخوف من الفسادالغربى

---

(١) حاضر العالم الإسلامى ج ٤ ص ٣٤٢

الذى يفد مع الاستعمار فى كل مكان ، فحاربوه وحاربوا معه كل جديد تقريبا[١] وعكفوا على علوم الدين يفهمونها على قدر استطاعتهم ويفهمونها للناس ، وذلك فى نظرهم هو الطريق الصحيح لكسب العلم فى هذه الحياة ، وما عدا ذلك فرجس من عمل الانجليز ، لابد أن تسد أمامه الأبواب والمنافذ ، حتى لايتطرق إلى نفوس المسلمين ، فيخلخل فيها عقائدهم وإيمانهم ، ويضعف عنايتهم بأمور دينهم .

وهكذا أصبح عامة المسلمين فى الهند حينذاك محصورين بين ضغط الحكومة واضطهادهم وإفقارهم ، وتهيئة كل سبل الجهل والضعف لهم ، وبين فكرة العلماء فى محاربة كل جديد ، ولو علما نافعا من علوم الطب والهندسة والكيمياء وما على شاكلتها ، فتأخر المسلمون ، تأخروا عن الركب كثيرا ، ومن تعلم منهم تعليما حديثا فقد تعلم بعد أن حطم القيود من حوله ولم يبال بسخط العلماء ، بل نقم على مر الأيام منهم ومن أفكارهم ، وتبعا لهذا نشأ خصام عنيف بينهم وبين العلماء وأتباعهم ، كما حدث بين متخرجى جامعة عليگرة مثلا وبين العلماء الديوبنديين وغيرهم ، وكانت النتيجة على كل حال تأخر ركب المسلمين ، وانزواءهم قليلا أو كثيرا عن إخوانهم فى الوطن من الهندوس .

وبقيت بالرغم من كل هذا آثار آبائهم وأجدادهم تشير إلى عظمة الماضى وتنفخ فيهم أن يهبوا ليصلوه بحاضرهم ، إن لم يكن فى ميدان الحكم ففى ميدان التقدم والعلم .

تلك هى الآثار والحضارة التى لا تزال الهند الحاضرة تعتز بهما للآن ، كما سيعتز بهما كل من يأتى من سكان هذه البلاد إذا حماها الله من التعصب الهدام .

(١) ولا زلنا نرى ذلك للآن حتى فى كراهة كثير من المسلمين للملابس الإفرنجية (البدلة وتوابعها) حتى فى حلاقة الرأس يكرهون التدريجة المعتادة عندنا فى مصر ويسمونها انجليزية ، حتى إن بعض العلماء يعيب لبس الحذاء ذى الرباط لأن الانجليز كانوا يلبسونه ، ويكرهون الأكل بالملعقة والشوكة والسكين لذلك أيضا ، ويتحاشون — فى اختصار — التشبه بالانجليز فى أى شىء ، وهذه روح فى أصلها طيبة لكن المبالغة فيها وقياس دين المرء على أساسها شىء يضايق كثيرا .

الغرب يتحرك نحو الهند

البرتغال

تحدثت فى مبدأ هذا الكتاب عن علاقة الهند القديمة بغيرها من الدول الواقعة على الغرب منها ، سواء أكانت دولا عربية أم غيرها ، وكيف كانت تجارتها ومحصولاتها تنقل إلى ذلك العالم الغربى منها بوساطة التجار والبحارة العرب ، وقد ظل الأمر كذلك ، بل ازداد على مر الأيام نتيجة للحكم الاسلامى وتقدم البلاد ، وازدياد حاجات العالم لتجارة الهند وخيراتها ، وكانت هذه الخيرات تصل إلى أوربا عن طريق مصر والبلاد العربية ، وكانت تصل مصر إما عن طريق بحر العرب ، ثم البحر الأحمر إلى السويس ، ومنها تنقل برا إلى الاسكندرية ، وإما عن طريق الخليج الفارسى فنهر الفرات ، ثم تنقل السلع برا إلى موانى الشام ، ومن هذه الموانى فى الشام أو من الإسكندرية كان التجار الأوربيون وبحارتهم يتولون نقلها وتصريفها فى أوربا ، وكانت الضرائب تجبى على هذه السلع ، تتولى جبايتها الدول التى تمر بها ، ولقد جاء على مصر وقت امتد فيه نفوذها على الشام فكانت تسيطر على الطريقين ، وتجبى الضرائب منهما ، وكثيرا ما تكون مرتفعة نظراً لحاجات الملوك للمال . . .

وقد كان الغربيون يجدون حرجا من ارتفاع الضرائب ، ومن تحكم المسلمين فى تجارتهم ، ولا سيما ملوك مصر الذين تولوا طرد الصليبيين من الشرق ، وكان هناك بجوار ذلك منافسة بين تجار البندقية وتجار « جنوا » فى احتكار السلع الآتية من الهند لبيعها فى أوربا بالثمن الذى يريدونه .

وقد استطاع تجار البندقية أن يسيطروا على نقلها ، ويحتكروا التجارة فيها ،

وكانت تدر عليهم الأرباح الوفيرة التى يسيل لها اللعاب ، ونتج من ذلك تغيظ أهل جنوا وبحثهم عن وسيلة ينتصرون بها على البندقية .

وكان هناك حالة نفسية فى أوربا عقب الحروب الصليبية ، وعقب حروب الأندلس وطرد المسلمين منها ، وكانت البرتغال هى التى تتولى هذه الحركة فى الأندلس ، إذ كانت تعد نفسها حامية العالم المسيحى ومنقذة الأندلس من المسلمين ، كما كانت تعتبر من الواجب المقدس عليها أن تعمل للقضاء على نفوذ الإسلام فى أى مكان كان :

وكان المسلمون يسيطرون على طرق التجارة البرية والبحرية منها ، ويتحكمون فى فرض الضرائب ، فنتج عن هذا وذاك رغبة فى التخلص من حكم المسلمين ، بل والقضاء على سيطرتهم على البحار ، بل والقضاء عليهم فى الهند نفسها . وفى العالم الإسلامى ما أمكن .

ووجد أهل « جنوا » شريكا لهم يرغب فى التخلص من هذا الاحتكار وإن اختلفت الأسباب ، وبذلك تلاقت جهود جنوا والبرتغال .

وكان هذا التلاقى بدء مجهود جبار ظل يبذل عشرات السنين للوصول إلى الهند عن طريق آخر غير الطريق الذى يسيطر عليه العرب ، وهو طريق رأس الرجاء الصالح . .

وقد بدأ العمل لتحقيق هذا الهدف « الأمير هنرى » ابن الملك يوحنا الذى تولى طرد العرب من الأندلس ، والذى اشتهر فيما بعد باسم « هنرى الملاح » .

هنرى الملاح : (١٣٩٤ هـ - ١٤٦٠ م) .

كان هذا الأمير متشبعا بكراهة المسلمين وبالرغبة فى نشر المسيحية والقضاء على الإسلام ، وكان رئيسا لطائفة تدعى « فرسان يسوع المسيح » .

وقد غفل بعض المؤرخين عن بواعثه فى العناية بحركة الكشف ، فادعوا أنه كان يعنى بها لذاتها ، ولكن الواقع الصحيح يدل على أنه انبعث لهذا العمل

برغبة دينية قبل كل شىء ، وهى إضعاف المسلمين بكل الوسائل التى يستطيعها .
وكان أول شىء فى نظره هو القضاء على نفوذهم فى البحار الشرقية ، والتخلص من سيطرتهم على تجارة الشرق فى مصر والبلاد العربية ، ولتحقيق هذه الغاية استغل مالية الجماعة المسيحية التى كان يرأسها ، وبدأ يرسل البعثات البحرية لكشف سواحل أفريقيا الغربية لقصد الوصول إلى الهند، وكانت هذه السواحل مجهولة تماماً فى ذلك الحين .

وقد حصلت هذه الحملات الكشفية على نجاح إثر نجاح شجعه على مواصلة العمل ، لكنه مات سنة ٨٦٥ هـ - ١٤٦٠ م قبل أن يحقق هدفه .

ولكن النجاح الذى لقيته هذه البعثات فى معرفة البلاد الغنية ، واستغلال ثروتها على الساحل الأفريقى الغربى ، جعل البرتغال تتابع العمل الذى بدأه هنرى الملاح ، حتى اكتشف « بارتلوميو دياز » سنة ٨٩٣ هـ - ١٤٨٧م رأس العواصف فى طرف أفريقيا الجنوبى ، وهو الذى سمى - تفاؤلا - رأس الرجاء الصالح ، ولأنه كان مفتاح الرجاء للوصول إلى الهند .

وفى سنة ٩٠٣ هـ - ٨ يوليو ١٤٩٧ م خرج « ڤاسكودى جاما » على رأس حملة يريد الوصول بها إلى الهند عن هذا الطريق ، فوصل إلى رأس الرجاء ، واستدار شمالا على الساحل الشرقى ، وقد فطن التجار العرب الذين كانوا يسيطرون على التجارة فى مدن الساحل الشرقى لأفريقيا إلى هدف البرتغال من هذه الرحلات ، وعندما وصل إلى « موزمبيق » ، وأخذ يستطلع الأنباء عن الطريق للهند ، خشى العرب أن يكون هذا بدء صراع معهم بقصد انتزاع التجارة من أيديهم ، فحنقوا عليه وأحجموا عن مده بأية معلومات ، وهكذا لقى من العرب فى كل ثغر مر به .

لكنه استطاع بمعاونة أحد الربابنة الهنود أن يعرف معلومات عن الطريق ، بل أخذه معه ليدله عليه ، حتى وصل إلى « كاليكوت[1] » فى ٢٠ مايو

---

(١) تقع كاليكوت جنوب الهند فى ملابار على شاطىء بحر العرب ، وهى من البلاد التى =

سنة ١٤٩٩ م - ٩٠٥ ه‍ ، وكانت مركزاً هاماً من مراكز التجارة العربية فى الهند ، كما كانت « ملقا » أهم المراكز العربية فى الجزائر الشرقية للتجارة معها ، ومع الصين واليابان ، وكان العرب هم أصحاب التجارة وأسياد البحار فى هذه المناطق من قديم ، ومع أنه كانت تقوم بينهم وبين الهنود والصينيين منافسات شأن التجار دائما ، إلا أن الملاحة والتجارة كانت حرة لا يتدخل ملك ولا جماعة فى القضاء على جماعة ، وكانت سفنهم الصغيرة أو الكبيرة خاصة بالتجارة ، ولا تعرف الحرب ولا تستعد لها ، لذلك كان وصول المراكب البرتغالية الكبيرة حادثا جديداً لهم ..

وعند ما وصل «دى جاما» إلى « كاليكوت » - كانت فى حكم « الزامورين » أو « السامرى » الهندوسى ، وكان للعرب عنده مكان ملحوظ ، فأخذوا يغرونه بالطارىء الجديد ، وينبهونه للخطر الكامن وراء مجيئه هكذا مدججا بالأسلحة ، مما جعل « الزامورين » يستريب فيه ، ويقبض عليه أولا هو ورجاله ، ثم أطلقه بعد مدة تمكن فيها « دى جاما » من إظهار نواياه الحسنة ، وعقد معه معاهدة تجارية ، وحمل مراكبه بمختلف السلع والأحجار الكريمة وعاد إلى « لشبونه » فى سبتمبر سنة ١٤٩٩ م - ٥٠٩ ه‍ .

وقد استطاع « دى جاما » فى رحلته هذه أن يجمع معلومات عن التجار العرب والبحرية العربية ، فلما رجع أخذ يهون على الملك البرتغالى أمر القضاء على العرب أعداء دينه ، فإن سفنهم الصغيرة لا تستطيع الثبات أمام السفن البرتغالية الكبيرة المسلحة ، كما أخذ يبشره بإمكان تكوين مستعمرة برتغالية كبيرة فى الشرق ، ويجب أن نشير إلى أن هذا الوقت الذى وصل فيه

= وصلها الإسلام مبكراً على يد التجار والبحارة العرب ، وقد زرتها فى نوفمبر ١٩٥٧ م فوجدت بها جالية عربية للتجارة ، وللمسلمين فيها نشاط وحرية وعدة مدارس صغيرة وكبيرة ، ولا تزال ميناء ومركزاً للتجارة مع العرب .

البرتغاليون إلى الهند كانت تقوم فى شمالها ووسطها عدة دول إسلامية قوية بجانب حكومة دلهى فى عهد «اسكندر اللودى» فكان فى كجرات دولة إسلامية قوية، وفى «مالوا» كذلك، كما كان فى الدكن أربع ممالك إسلامية قامت على أنقاض الدولة البهمنية الإسلامية، هذا عدا الممالك الإسلامية فى شرق الهند.

ولكن كان يجاور الممالك الإسلامية فى الدكن بعض الممالك الهندوسية، وأهمها فى الطرف الجنوبى مملكة «فيجايانكر» وكانت الحروب والعداوات دائمة بين الهندوس والمسلمين فى هذه المنطقة.

وكانت مصر فى حكم المماليك الشراكسة، وقد تولى السلطان الغورى حكم مصر بعد وصول «دى جاما» للهند بنحو سنتين، كما كان فى تركيا السلطان سليم الأول، وقد كان اكتشاف الطريق الجديد للهند أكبر ضربة وجهت لمصر والبلاد العربية الإسلامية التى كانت تمر منها التجارة، وتمتلىء خزائنها بالمال، ولا سيما مصر التى كانت تملك كل الطرق التجارية فى ذلك العهد، وذلك بما كانت تجبيه من الضرائب وما يدخل فى جيوب أهلها من المال، نظرا لقيامهم بنقل التجارة وغيره، إذ أن ذلك كله قد انتهى بتحول التجارة عن بلادهم إلى الطريق البحرى الجديد.

كبرال:

بعد «فاسكو دى جاما» خرج «كبرال» سنة ٩٠٦ هـ - ١٥٠٠ م متجها إلى الهند من الطريق الجديد على رأس أسطول مسلح بالمدافع، وبدأ الاحتكاك بينه وبين العرب التجار منذ وصل إلى ميناء «كاليكوت»، فدمر بعض سفنهم كما دمروا له المركز التجارى البرتغالى فيها، وانضم «الزاموررين» للعرب، فأخذ «كبرال» يستغل الخلاف الذى بينه وبين الأمراء المجاورين له

فى « كتشن »[١] « وكانانور » فانضموا إليه وساعدوه ، ولكنه أخيرا اضطر أمام قوة الزامورين البحرية إلى العودة للبرتغال ، ولكن محملا بالبضائع والنفائس الشرقية . .

وإزاء هذا العداء الذى بدا من الزامورين وانحيازه للعرب ، أعدت البرتغال حملة قوية تحت قيادة « دى جاما » ليقضى على العرب ويجبر الزامورين على الانصياع له ، وسار « دى جاما » إلى الهند يعترض كل سفينة عربية ويحطمها ، حتى نشر الرعب فى البحر العربى ، وبلغت هذه الأنباء المزعجة أسماع الزامورين فاستعد له ، ولكن سفنه كانت غير مزودة بالمدافع مثل السفن البرتغالية ، مما أوقع بها خسائر كبيرة فى إحدى المعارك كما أنه قتل أيضا ، وقام خلفه من بعده على خطته ، ولكنه رأى ألا قبل له بمنازلة هذا العدو وحده ، فاستعان بملك مصر « قانصوه الغورى » ـ وكلاهما فى الهم شرق ـ فكتب السلطان الغورى للبابا يتوعده بتخريب الأماكن المقدسة ببيت المقدس إن لم يستدع البرتغاليين من الهند ، ويأمرهم بالكف عن عدوانهم على البحار ، ولكن البرتغال لم نعبأ لهذا ، واستمرت فى عدوانها للقضاء على العرب المسلمين ، وأرسلت حملة بقيادة « فرنسيسكو ألميدا » ، وكانوا قد وضعوا خطة لذلك : أن ينزعوا « ملقا » فى الجزائر الشرقية من العرب ، كما ينزعون شاطىء أفريقيا الشرقى منهم ، ثم يستولون على « عدن » و « هرمز » مفتاحى البحر الأحمر والخليج الفارسى ، وبذلك يتمكنون من استئصال شأفة المسلمين نهائيا فى البحار وفى التجارة . .

ولو أن المسلمين فى جميع الدول تنبهوا لهذا ، وتركوا خلافاتهم ليقابلوا عدوهم لأمكن لهم أن يقضوا على البرتغال ، ويرجعوها إلى رقعتها الصغيرة

---

(١) فى الجنوب من كاليكوت ، وقد زرتها فى نوفمبر سنة ١٩٥٧ أما « كانانور » ففى الشمال منها وقد زرتها كذلك ، والمدن الثلاثة تقع على بحر العرب . . ولكن كوتشن ميناؤها أكبر من كاليكوت بكثير .

فى أوربا ، ولـكنهم للأسف قد أهمتهم أنفسهم ولم يتعد نظرهم مواقع أقدامهم، لذلك اتيح لهذه الدولة أن تسيطر على الشرق ، وأن تهزم البحرية الإسلامية، وتقضى على النفوذ العربى فى البحار .

استجاب « قانصوه الغورى » لطلب الزامورين الذى انضم إليه فى الوقت نفسه ملك الـكجرات السلطان «محمود بيكرو» ، وجاءت السفن المصرية بقيادة الأمير حسين وكان مزودا بأحدث الأسلحة ، وانضم إلى الأسطولين ، واستطاعوا أن يهزموا البرتغال أولا أمام سواحل ملابار بكاليكوت سنة ٩١٤ هـ - ١٥٠٨م ، وكاد أمل البرتغال يقضى عليه ، لولا أن تشبث « ألميدا » بالأمل ، وأعاد تجميع ما بقى من أسطوله ، واتجه به نحو الشمال ، حيث كان الأسطول المصرى بقاعدته فى « ديو » من موانى « كجرات »، وهناك ساعدته الخيانة فى التغلب ، فقد كان حاكم « ديو » من قبل السلطان محمود من أصل أوربى، فانضم سرا للبرتغاليين ، ومنع تموين الأسطول المصرى ، فاستطاعوا بذلك هزيمة الأسطول المصرى والهندى سنة ٩١٤ هـ ٢ فبراير ١٥٠٩م . وإزاء هذه الحالة ، وإزاء الظروف الجديدة فى مصر، حيث كان الأتراك بقيادة سليم الأول يتحرشون بها للقضاء على سلطان المماليك وضمها إليهم ، إزاء هذه الظروف رجع الأسطول المصرى ، وبذلك انفتح الباب الواسع للنفوذ البرتغالى فى الشرق وفى البحار ، وكان ذلك بدء استعمار الغرب للشرق مئات السنين التى تلت هذه الواقعة ، ولو قدر للأسطولين المصرى والهندى هزيمة البرتغاليين ، والسيطرة على البحار ، وطردهم منها إلى الغرب لـكان من الممكن أن يتحول مجرى التاريخ ، وتتخلص الدول الشرقية من استعمار طال أمده ، ولا زالت تعانى للآن أثره .

ومن المهم أن نشير مع ذلك إلى ما فعله البرتغاليون تطبيقا لخطتهم فى القضاء على العرب فى شرق أفريقيا ،فقد هجموا على الموانى التى يسود فيها النفوذ العربى فأحرقوها ونهبوها ، وقتلوا الآلاف من سكانها، حدث هذا فى «كاوه» وفى « موزمبيق » بقيادة « ألميدا » وهو فى طريقه للهند . .

وقد قتل « ألميدا » أثناء رجوعه فى جنوب أفريقيا ، فتولى أمر القيادة « البوكيرك » سنة ١٥٠٩ هـ - ١٥١٥ م ، وهو أعظم قائد برتغالى متعصب وطد نفوذ البرتغال فى الشرق .

فقد استطاع الاستيلاء على « جزيرة سقطرة » ، واتخذها قاعدة بحرية له ، ثم طلب من ملك هرمز ، على الخليج الفارسى الخضوع له ، ودفع الخراج بعد أن هزمه وأغرق ٤٠٠ سفينة له ولغيره ممن تجمعوا لحربه فاستجاب له ، ومع ذلك لم يستطع إخضاع « الزامورين » فى « كاليكوت » بالرغم من الهجوم المفاجىء عليه . فإنه استطاع أن يتصدى للعدو ، وينزل به هزيمة شديدة حتى قتل أحد القواد ، وحمل « البوكيرك » نفسه مجروحا إلى سفنه . بعد ما حاول محاولة يائسة الاستيلاء على كاليكوت واتخاذها قاعدة له ، ومات فى « جوا » سنة ١٥١٥ م ، وكان البرتغاليون قد استطاعوا بمساعدة الهندوس المراهتا ، وفى مملكة فيجايانكر أن يستولوا على « جوا » سنة ١٥١٠ م ، وكانت فى آخر أملاك عادل شاه ، وقد انضم الهندوس للبرتغاليين مدفوعين بعامل الكراهة للمسلمين ، والرغبة فى القضاء على نفوذهم ، كما منحوهم بعض القواعد فى بلادهم لتوطيد أقدامهم . وهكذا جمعت هؤلاء الرغبة فى القضاء على النفوذ الإسلامى ، وقد استطاع « البوكيرك » أن ينشىء قواعد برتغالية فى : ديو ، وجوا ، وملقا - التى استولى عليها من العرب - وهرمز ، وسقطرة .

وبذلك وطد نفوذ البرتغال فى الشرق ، وأصبح مرهوب الجانب صاحب نفوذ واسع ، فقد كانت الملاحة فى البحار تحت رحمته ، وإن كانت قواعده فى الهند لم تتعد عدة بلاد اتخذها مراكز لتجارته ، وحصنها للدفاع عنها .

وظلت البرتغال فى الهند حوالى قرن أصابها فى نهايته الانهيار ، حيث استولى عليها الملك « فيليب الثانى » ملك أسبانيا ، وضمها إلى أملاكه وأصبحت مستعمراتها فى الهند تحت حكم الأسبان ، وذلك سنة ٩٨٨ هـ - ١٥٨٠ م ، وبالرغم من أن البرتغاليين هم الذين فتحوا الطريق لأوربا إلى الهند ، وسبقوها إلى استغلال خيراتها ، والسيطرة على بعض بلادها ، فإنهم لم يستطيعوا الثبات فيها كثيرا ، وربما كان

للمنافسين الذين ظهروا بعد ذلك من الهولنديين والانكليز والفرنسيين، والذين استقبلهم الهنود استقبالا حسنا ليخاصوهم، أو على الأقل ليقضوا بهم على البرتغاليين الذين لم يفتأوا منذ نزلوا الهند يسيئون إلى دولها ، ويتدخلون فى المنافسات بينها ، ويعملون على التبشير بالدين المسيحى - ربما كان ذلك من أهم الأسباب فى القضاء على النفوذ البرتغالى فى الهند ، حيث لم يبق لها إلا « جوا » و « دمن » و « ديو » ، وهى مدن صغيرة حولها بعض قرى على الساحل الغربى من الهند ، وهذه هى الولايات الصغيرة التى تتمسك البرتغال بها للآن ، برغم إلحاح الهند عليها بتركها كما فعلت انجلترا وفرنسا[١] .

هولنـــدا

بدأت خيرات الشرق تتدفق على أوربا بكثرة بوساطة البرتغاليين ، وبدأت الأموال تتدفق على البرتغال من وراء ذلك ، وكان الهولنديون باعتبارهم أمة بحرية يتولون نقل التجارة الهندية من الموانى الأسبانية والبرتغالية إلى أوربا الشمالية ، وكانوا فى ذلك الوقت تابعين لأسبانيا ، ولكنهم قاموا بثورة أدت إلى إعلان استقلالهم سنة ١٥٨١ م ، فحرمهم الملك « فيليب » لذلك من نقل التجارة إلى الشمال ، ولم يسكت الهولنديون على هذا الحرمان ، بل إنه دفعهم إلى المجازفة — وكانوا أمة بحرية — فخاضوا البحار التى خاضها البرتغاليون من قبل ، ووجدوا فى ذلك عنتا شديدا ، لأن البرتغاليين جعلوا سر البحار والطرق التى اكتشفوها خاصا بهم ، وتألفت الشركات الهولندية من أجل التجارة الهندية ، ثم اندمجت هذه الشركات فى شركة واحدة باسم شركة الهند الهولندية ١٠١١ هـ - ١٦٠٢ م .

ونزلت هولندا ميدان المنافسة مشبعة بالعداء للبرتغاليين ، والرغبة فى القضاء عليهم فى الهند .

---

(١) كانت فرنسا تسيطر على بعض مدن على الساحل مثل نبوماهى شمال كاليكوت وغيرها فتركتها بعد انسحاب الانجليز . وقد زرت نيوماهى فى رحلتى الجنوب فى نوفمبر سنة ١٩٥٧

وكانت خطة الهولنديين فى الشرق هى السير فى هدوء مع أهل البلاد للحصول على أكبر قدر ممكن من التجارة، غير متدخلين فى مسائل التبشير بالمسيحية، وإن كانت أساليبهم قد اعتمدت على القوة فيما بعد، وقد استطاعوا أن يهزموا الأسبان والبرتغال. ويؤسسوا محطة تجارية فى «جزيرة جاوا» بأندونوسيا عام ١٠٠٧هـ - ١٥٩٨م، وبدءوا من ذلك الوقت يتوسعون فى جزر الملايو بعقد المعاهدات تارة، وبالقوة تارة أخرى، واستولوا على ملقا من البرتغاليين سنة ١٠١٥هـ - ١٦٠٦م، ثم أسسوا عاصمة لهم فى «جاوا» تسمى «بتافيا» سنة ١٠٢٩هـ - ١٦١٩م، ومنذ ذلك الوقت وهم يستعمرون أندونيسيا حتى بعد الحرب العالمية الأخيرة، حيث استطاعت أندونيسا أن تخوض معهم حربا بعد جلاء اليابانيين، انتهت بإعلان استقلالها وتكوين جمهورية مستقلة بها.

أما فى الهند فقد استولوا على «سيلان»، ثم عقدوا معاهدة مع الزامورين ضد البرتغال سنة ١٠١٣هـ - ١٦٠٤م واستولوا على «كوتشن» سنة ١٠٧١هـ - ١٦٦٠م، وأنشأوا مراكز تجارية فى سورت وأحمد أباد وأكرا، ولم تتوسع هولندا كثيراً فى الهند؛ إذ لم تستطع منافسة الإنجليز، فوجهت كل نشاطها إلى الجزر الشرقية الغنية بالمحصولات. وفى سنة ١٢٤٠هـ - ١٨٢٤م تنازلت عن أملاكها فى الهند لانجلترا مقابل استيلائهم على أملاكها فى «سومطرة».

انجلترا وشركة الهند الشرقية الانجليزية

بلغ التنافس بين الدول الغربية حد السعار فى الاستيلاء على أراض جديدة، والحصول على مغانم وفيرة من خارج بلادها، فاتجهت فى اكتشافاتها واستعمارها نحو الغرب ونحو الشرق، واصطدمت بعضها بعض، واستطاع الأسطول الانجليزى أن يقهر «الأرمادا» الأسبانى سنة ٩٧٧هـ - ١٥٨٨م وفتح هذا النصر الباب للسيادة البحرية الانكليزية.

وفى ذلك الوقت كانت البلاد الشمالية الأوربية تشكو مر الشكوى من

ارتفاع أسعار التوابل التى تستوردها البرتغال وأسبانيا من الشرق ، وبدأت رءوس تفكر فى عمل ما تعمله هذه الدولة المحتكرة ، وتذهب بنفسها لجلب التجارة من هذه البلاد الشرقية ، واجتمع بعض زعماء لندن لبحث هذه الفكرة ، وشجعهم على ذلك ما حصلت عليه بعض السفن البريطانية من جواهر وبهارات ، وعقاقير ومنسوجات من سفينة هولندية استولت عليها ، حين كانت قادمة من الشرق محملة بخيراته ، فأسال ذلك لعاب الإنجليز ، وجعلهم يقررون تأليف شركة تجارية تقوم بهذه المهمة ، وتقدموا بطلب للملكة « اليزابيث » لتأليف هذه الشركة ، فصدر المرسوم بتأليفها فى سنة ١٠٠٩ هـ ٣١ ديسمبر ١٦٠٠ م .

وقد ساعدت الدولة على ذلك « مدفوعة بعاملين : أولهما سياسى ، وهو العمل على كسر شوكة أسبانيا ، وثانيهما تجارى ، وهو حرمان الأسبان من احتكار التجارة الهندية العظيمة الأرباح ، وتحويل جانب منها إلى أيدى الإنجليز »[١] .

وكثير من المؤرخين يقولون : إن غرض الشركة أولا كان تجاريا بحتا ، ولعلهم فى هذا يأخذون بظاهر ما أعلنته الشركة عند قيامها ، ولكنى أخالف هؤلاء وأستريب فى نية الشركة ؛ فإن ذلك الزمن كما قلت سابقا كان زمن تسابق بين الدول فى كسب مستعمرات جديدة فى الغرب والشرق ، والإنجليز حين ألفوا هذه الشركة كانوا يعلمون جيدا ما فعلته البرتغال فى الهند فى مدى قرن من الزمان ، من تأسيس مستعمرات بها ، وبسط نفوذها عليها بجانب التجارة ، فلا بد أنهم حين هموا بتأليف الشركة وضعوا أمام نظرهم هذه الحقيقة ، إن لم يكن من الأهالى فمن الحكومة على الأقل ؛ فقد تعلمنا من خطط الانجليز أنهم يخفون دائما مآربهم الحقيقية وراء مظاهر مختلفة ، ونحن المصريين قد أخذنا درسا منهم فى هذه الناحية ، حينما تستروا وراء المال لاحتلال مصر واستعمارها ، فلا يمكن لنا الآن أن ننخدع بمظاهر أقوال

---

(١) تاريخ أوربا الحديثة ص ٢٩١ .

الشركة دون أن ننظر إلى الحقائق التى كانت تختفى وراء هذا القول وهذا العمل ، وإن أعمال الشركة فيما بعد كفيلة بأن تؤيدنا ، وتجعلنا نخالف هؤلاء المخدوعين ، لا سيما وتلك السياسة الخفية كانت سياسة فرنسا وهولندا فى الهند وفى الجزر الشرقية ، فلا يعقل أن تكون انجلترا أم الاستعمار بريئة من هذه النية .

بدأت الشركة ضعيفة فى أول الأمر كشأن كل مولود ، واعتمد الانجليز على الحيلة والتودد إلى حكام الهند وتقديم الهدايا المختلفة لهم ، وكان الحكام متضايقين من البرتغال ، وسلوكها الخشن معهم ، فتقبلوا الانجليز بقبول حسن ، وربما فكر بعضهم فى استغلالهم لضرب البرتغاليين ، وكسر شوكتهم ، وتقرب الانجليز إلى الملك « أكبر » المغولى الذى كان يفتح بابه لكل طارق من هؤلاء ومن المبشرين أيضا ، وكان ظاهر هؤلاء التجارى مع قوة ملوك الهند باعثا لهم على ألا يفكروا فى العواقب ، فما كان أحد يظن أن هؤلاء الذين جاءوا يلتمسون الرزق ، ويقفون بباب الأمراء والحكام وأصحاب التجارات ينقلبون يوما من الأيام إلى سادة يتحكمون ، فلم يكونوا فى نظر الحكام إلا تجارا مرتزقين ، من أجل هذا لم يعطهم الحكام أية عناية من الناحية السياسية ، وأحيانا كانوا يعطفون عليهم ويمنحونهم بعض التسهيلات ، كرفع الضرائب عنهم ، وإعطائهم إذنا بإنشاء مراكز تجارية لهم ، ولم يكن المركز إلا قطعة أرض يقام فى ناحية منها بعض أكشاك خشبية للموظفين ، يحيط بالجميع سور من الأسلاك أو من غيرها ، شأنها شأن مراكز « بنك التسليف » المعروفة فى مصر ، وكان يقوم بحراسة هذه المراكز حراس وطنيون ، ثم تدرجوا فجعلوا الحراس أيضاً من أبناء جنسهم ، وأخذوا يسلحونهم بحجة الحراسة ، ومن هنا نبت الجيش الإنجليزى ـ المكون من الإنجليز ومن أبناء البلاد الذين انخرطوا فى سلكهم ـ تكون الجيش الذى أخضع الهند لسلطان الإنجليز فيما بعد ، وقد رأت الحكومة الانجليزية أن تعين لها معتمدين لدى حكام الهند ، فإن ضرورة وجود الانجليز والتجارة الانجليزية أصبحت تقضى

باتصال حكومى على أى نوع كان ، ولم يكن ذلك الاتصال موجودا من قبل ، فعين الملك « جيمس الأول » ممثلا له فى بلاط الملك المغولى ، جهانكير » .

« وحين ظهر هذا السفير ممثلا لملك انجلترا وشركة الهند الانجليزية معا لدى بلاط « جهانكير » المغولى قال له وزراء هذا الملك : إن ملك انجلترا ليس غير سيد جزيرة صغيرة يسكنها صيادون بائسون ، فلما مضت سنتان ونصف على إقامته هناك دون أن يظفر بطائل عند الملك المغولى ضرع إليه أن يعطيه كتابا لمولاه ، فقال له الوزير الأول : إن مما لايناسب قدر ملك مغولى أن يكتب رسالة إلى أمير صغير كملك انجلترا ، بيد أن تلك الشركة الانكليزية لم تقنط ، فنالت بالدسائس براءة من الملك المغولى سمح لها فيها بأن تتاجر فى « سورت » ، فاتسعت أعمالها بالتدريج »[1] ، وكان قد تغير السفير وأصبح «توماس رو» ، فتقرب إلى الملك ، واختلط بحاشيته ، واستطاع أن يحصل على إذن بمعافاة التجارة الانجليزية من الضرائب ، فاستطاع هذا أن ينشىء محطات تجارية للشركة فى « سورت » سنة ١٠٢١ هـ - ١٦١٢ م ثم فى « برهانپور » و « أجمير » و « أگرا » بعد ذلك بسنين قليلة .

واشتدت المنافسة بين الشركات الانجليزية والهولندية والبرتغالية. ولكن اتجه هم الانجليز أكثر إلى الشركة الهولندية الجديدة ، أما البرتغاليون فلم يعد لهم خطر كبير ، وباسم المنافسة بينها وبين الهولنديين أخذت تحصن مراكزها لحماية تجارتها ، وقد استطاعت سنة ١٠٤٣ هـ - ١٦٣٣ م أن تحصل على إذن بإنشاء مركز تجارى لها فى البنگال ، وفى سنة ١٠٤٩ هـ - ١٦٣٩م أقامت أول حصن لها فى الهند وهو حصن « سنت جورج » فى مدراس - وقد تحول الآن إلى متحف زرته فى ديسمبر ١٩٥٧م ويقع على شاطىء البحر - على أنها كادت تصاب بالإفلاس حين اشتدت منافسة الهولنديين من جهة ، وحين أصدر « كرومويل » سنة ١٠٦٦ هـ - ١٦٥٥ م أمرا بمنع احتكار الشركة للتجارة

---

(١) حضارة الهند ص ٢٤٢ .

الهندية ، ولكن ذلك لم يلبث طويلا ، فعند ماتولى « شارل الثانى » أعاد لها مكانتها واحتكارها ، ووسع نفوذها ، وجعل لها الحق فى إعلان الحرب على من يقف فى سبيل مصلحتها ، وعظمت أرباح الشركة حتى كانت تتراوح مابين ١٠٠ ، ٢٠٠٪[١] .

وقد اشترت سنة ١٠٧٢ هـ - ١٦٦١ م مدينة « بمباى » من البرتغاليين ، واتخذتها مركزا للشركة ، وأصبح لها فروع فى كل مكان بالهند تقريبا . بعد أن نفذت إلى داخل البلاد ، ولم تقتصر على السواحل ، وذلك حسب ضرورة الشراء والبيع فى مراكز التجارة المختلفة .

فرنسا تدخل ميدان المنافسة فى الهند

وفى سنة ١٠٧٥ هـ - ١٦٦٤ م تألفت شركة فرنسية سميت : شركة الهند الشرقية الفرنسية ، وكان قيامها مختلفا فى ظاهره عن قيام الشركة الانجليزية ، فقد تألفت برأى الوزير الفرنسى « كولبير » ، وأعانها بقرض حكومى وضمان حكومى أيضاً ، والحق أن فرنسا تأخرت كثيرا عن زميلاتها فى العمل بالهند ، ولكن ذلك كان لظروفها الداخلية ، فلما تولى « كولبير » عمل على إقامة هذه الشركة ، وكان مقصدها مرسوما من أول الأمر ، ليس التجارة فحسب ، بل السيطرة أيضاً ، وبذلك دخل ميدان المنافسة عامل جديد قوى ، له أغراضه الواضحة فى التحكم ، وبسط النفوذ على الهند وطرد الغربيين منها .

واستطاع الفرنسيون أن يتخذوا لهم مركزا تجاريا فى « سورت » سنة

---

(١) هكذا يقول كتاب تاريخ أوربا الحديثة ص ٢٩٢ ، ولكن ما اطلعت عليه من كتب التاريخ الهندية تفيد أن شارل الأول سنة ١٦٤٥ — ١٦٤٩ طلب من الشركة مالا (١٠ آلاف جنيه) على سبيل القرض فامتنعت الشركة فحلت بها المصائب ، ولما جاء كرومويل بعده بنظام الجمهورية قدمت له الشركة ٣٠ ألفا من الجنيهات قرضا ، فعاونها حتى انتشلها من الخراب ، ولما جاء « شارل الثانى » بعده لقيت منه الشركة معاونة أكثر حتى ربحت أرباحا عظيمة ، فقدمت له هدية أربعمائة ألف جنيه ، وبهذا يكون « كرومويل » قد نفخ الروح فى الجسد الميت و « شارل الثانى » قد أعاد إليه شبابه — هكذا جاء فى كتاب (نقش حياة . .) ص ٦٦٠ ، ٦٧٢ .

١٠٨٥هـ - ١٦٧٤ م ، وأخذوا يعملون على التودد للأهالى واكتساب ثقتهم ، وفى نفس هذا العام أنشأوا مركزا تجاريا لهم فى « بوند شيرى » على الساحل الشرقى جنوب مدراس بنحو ٨٠ ميلا ، وأسسوا بها قلعة حصينة ومدينة حديثة ، وأخذوا يدربون الأهالى على الدفاع عن القلعة والمدينة معا .

وفى الوقت الذى كانت المنافسة بين الانجليز والفرنسيين على أشدها أصيب الانكليز بضربة قاصمة من « الامبراطور أورنكزيب » ، حين حدثتهم نفسهم بفرض سلطانهم على بعض أملاكه فى البنكال . فاضطروا لطلب الصلح ، ودفع غرامة مالية كبيرة ، وذلك سنة ١١٠١ هـ - ١٦٨٩ م ، على أنه سمح لهم فى السنة التى تليها بإنشاء مركز وتحصينه فى كلكتا سمى « حصن وليم » سنة ١٦٩٠م وقد تأثرت الشركة بتلك الضربة ، وبما كانت تنفقه على تحصين مراكزها للدفاع عنها ضد الفرنسيين وغيرهم ، ثم زادت نكبتها حين سمحت الحكومة الانجليزية بإنشاء شركة أخرى تجارية ، فاضطرت تلك لإيقاف أعمالها لمدة ثلاث سنين ، ثم اتحدت الشركتان تلافيا للخسارة الفادحة التى أصابتهما ، وسميت الشركة الجديدة باسم « الشركة المتحدة » سنة ١١١٤ هـ - ١٧٠٢ م .

وإلى هذا الوقت لم تستطع شركة من هذه الشركات أن تفرض نفوذها على جزء من أراضى الهند التى كانت فى حكم الإمبراطور القوى «أورنكزيب» ، لكن بعد وفاته سنة ١٧٠٧ م بدأت الدولة القوية فى الضعف والتفكك ، وأخذت الحكومات المستقلة تتكون فى المناطق المتعددة ، وتقوم الخلافات والحروب بينها ، فكان ذلك من حسن حظ المتنافسين على الصيد ، فقد بدءوا عمليتهم الحقيقية فى السيطرة ، وكسب الزمن والبلاد إلى جانبهم ، وانقضت النسور الجائعة على الجسم المريض تنهشه وتزيده ضعفا من كل جانب ، وهو لا يرحم نفسه ، بل يهيء لآكليه أحسن الفرص لأكله والقضاء عليه .

وقد بلغ التنافس بين الانجليز والفرنسيين ذروته حين قامت الحرب بين

انجلترا وفرنسا فى حرب الوراثة النمساوية التى بدأت سنة ١٧٤٠ م فى أوربا وانتقلت هذه الحرب بطبيعة الحال إلى ممثليهما فى الهند .

دوبليكس :

وكان على رأس الشركة الفرنسية فى ذلك الوقت قائد ماهر ، ومجرب حكيم وسياسى قدير هو « دوبليكس »[١] ، فصمم على أن يجلى الانكليز من الهند ، وينفرد هو بجسم الدولة المغولية المريض ، وقد وفق كثيرا فى مهمته ، وأجلى الانكليز عن مدراس سنة ١١٦٠ هـ - ١٧٤٧ م ولكنها ردت إلى الانجليز بعد ذلك حينما عقد الصلح بينهما .

وقد خرجت فرنسا من الحرب فى أوربا منهزمة ، وكان موقف «دوبليكس» حينذاك حرجا ، إذ أصبحت دولته عاجزة عن مده بمال أو رجال ، ولكنه كان رجلا قديرا ، فقرر أن يعتمد على نفسه فى القيام بمهمته فى الهند ، وأخذ يتدخل فى الخلافات الناشبة بين الأمراء المتنازعين على الحكم فى الجنوب ، واستطاع أن ينصر فريقا على آخر ، ويكتسب من ذلك منزلة ونفوذا واسعا ، فوقف بقوته الشخصية أمام الانجليز الذين يخشون سطوته فى الهند .

« وهكذا استفحل أمر « دوبليكس » ، وعظم نفوذه من غير أن يكلف فرنسا شيئا ، فلما رأى الانكليز أنهم كادوا يجلون عن جميع ما يمتلكون فى الهند تذرعوا بحوك الدسائس فى « قصر فرساى » ، فاستطاعوا بوسائل لا يزال أمرها سرا غامضا أن يحملوا لويس الخامس عشر على استدعاء « دوبليكس » ، وعلى ترك جميع ما فتحه ، فكان هذا أخزى عهد قطعه ملك فرنسى ، ويئس « دوبليكس » وعاد إلى فرنسا ليموت فيها يائسا »[٢] ، وكانت عودته سنة ١١٦٨ هـ - ١٧٥٤ م .

كان هذا العمل أشد ضربة وجهت لنفوذ فرنسا فى الهند ، فلم تقم لها قائمة بعد ذلك ، ولم يستطع من جاءوا بعده أن يحافظوا أو يسترجعوا شيئا من نفوذ فرنسا الذى اضمحل بعد استدعائه .

---

(١) ويرد اسمه أحيانا « دوبليه » .   (٢) حضارة الهند ص ٢٤٤ .

وبذلك كسبت الشركة الانجليزية كثيرا ، واستطاعت أن توطد أقدامها ، لاسيما وقد تولى أمرها « مستر كلايف » سنة ١١٧٠ هـ - ١٧٥٦ م ، بعد أن أظهر مواهبه فى استرداد أحد المواقع من حلفاء دوپليكس ، وظهر الانجليز فى الهند بمظهر القوى النفوذ ، المتفوق على منافسيه الغربيين ، لاسيما بعد أن انتزعوا « بوند شيرى » من أيدى الفرنسيين ، وأخذوا يتدخلون فى شؤون البلاد لفرض سيطرتهم عليها . .

موقعة پلاسى سنة ١١٧٠ هـ - ١٧٥٧ م

ورأى حاكم البنگال « الأمير سراج الدولة » أن الانجليز أصبحوا لا يكفون عن التدخل فى شؤون الحكم ، وكان رجلا مخلصا لبلاده ، غيورا عليها من التدخل الأجنبى ، ففكر فى أن يوقف هذا التدخل ، ويقضى على الشر قبل أن يستفحل ، فهاجم حصن « وليم » فى « كلكتا » ، واستولى عليه من الانجليز ، واعتقل عددا من رجالهم الذين ماتوا فى معتقلهم الضيق ، ولكن الانجليز سرعان ما استعانوا بقوتهم البحرية التى جاءتهم بالمدد من مدراس ، فاستردوا الحصن وعقدوا صلحا معه .

وقد تفادى سراج الدولة بعد ذلك الدخول معهم فى حرب ما أمكنه ذلك ، وكان من الجائز أن يقف الأمر عند هذا الحد ، لكن الانجليز لم يريدوا ذلك ، لا سيما بعد أن لاحت لهم الفرصة للتخلص من « سراج الدولة » الحاكم الوطنى ، وكانت هذه الفرصة تتمثل فى اتصال بعض الخونة من جيش « سراج الدولة » بالانجليز ، وكان على رأسهم أحد قواده وهو « مير جعفر » ، وأخذ الانجليز يتصلون به سرا ، وكانوا يذهبون إلى بيته فى زى النساء المحجبات ، حتى إذا وثقوا من مساعدته نقض « كلايف » المعاهدة ، وهاجموا سراج الدولة بجيش عدته ثلاثة آلاف تقريبا ، منه نحو ٩٠٠ جندى انجليزى ، أو ٦٥٠ كما جاء فى حضارة الهند ، والباقى من الهنود ، وكان جيش سراج الدولة مكونا من ٦٠ ألفا ، لكن عدم التسليح الجيد مع خيانة بعض القواد أضعفا مركزه ..

وعند ما تقابل الجيشان قرب « بلاسى » سنة ١١٧٠ هـ - ٢٣ يونيو ١٧٥٧ م ،

نفذ الخائنون خطتهم ، وتراخوا عن القتال ، ولكن « مير مدن » ومهراجا موهن لال » القائدين الوفيين ثبتا بمن معهم من الجنود ، وهجموا على الانجليز، حتى اضطروهم إلى الفرار والهرب بين الأشجار ، وكان على رأس مدفعيتهما أحد الضباط الفرنسيين . ثم تدخلت الطبيعة فى المعركة ، فأمطرت السماء وفسدت أكثر الذخيرة التى فى أيدى الجيش البنگالى، واستؤنفت المعركة بعد الظهر ، وبرغم فساد كثير من الذخيرة ، وتوقف المدافع ، فقد هجم « موهن لال ، ومير مدن» وأحدثوا الرعب فى صفوف الانجليز ، وأخذ « كلايف » يستنجز الخائن « مير جعفر » ما وعد به ، وفى هذه الحالة أصيب « ميرمدن » ، فدب اليأس فى نفس سراج الدولة ، لكنه مع ذلك أصر على الاستمرار فى الحرب ، وأمر « جعفر » بالهجوم لمساعدة « موهن لال » الذى أصر على متابعة الهجوم مهما كلفه الأمر ، وكان قائدا وفيا قل نظيره بين القواد ، وحينئذ رأى « مير جعفر » الفرصة قد سنحت لتنفيذ خيانته ، فاشترط على سراج الدولة أن ينسحب « موهن لال » أولا ، ويترك له الميدان ، واستجاب له سراج الدولة فى براءة ، وأرسل إلى قائده الوفى أن يتخلى عن القيادة ، ولكنه أبى أولا ، ثم خضع إزاء إصرار سراج الدولة ، وفى الوقت الذى أخذ فيه « موهن لال » ينفذ أوامر الانسحاب أرسل «مير جعفر» لأصدقائه الانجليز أن يهجموا سريعا ، فى الوقت الذى حدث فيه الاضطراب والعصيان فى صفوف الجند ، وانصرفوا من الميدان ، وبذلك تحقق سراج الدولة من الفشل الذريع وفر من الميدان ، وذهب لعاصمته « مرشد أباد » متنكرا فى زى الشحاذين ، ولجأ إلى قصره . . أما « موهن لال » القائد الوفى الشجاع فقد أسر فى ٢٥ يونيو بعد ما أنكر على « مير جعفر » خيانته وموقفه المزرى ، فعذبه جعفر وقتله وصادر أملاكه .

وفى ٢ يوليو قبض على سراج الدولة فى « مرشد أباد » وقتل بأمر « كلايف » ، وعندما تقدم قاتله نحوه سجد لله شكرا ، وأخذ فى الاستغفار ، فعاجله بضربة خربها صريعا شهيد الدفاع عن بلاده وشرفه . .

وقد كان جزاء خيانة « جعفر » أن ولاه الانجليز حكم البنغال[1] ، كان هذا جزاءه عند الانجليز ، وما أقسى جزاءه عند الله والناس .

فقد ظل الناس يذكرون هذه الموقعة ، ويحتفلون بذكراها الحزينة كل عام ، وهذا الشاعر الفيلسوف محمد إقبال يسجل على « جعفر » ، وزميله « صادق » الذى خان المجاهد العظيم « سلطان تيبو » ، وانضم للإنجليز فى ميسور يسجل عليهما هذا العار فى بيت من الشعر الأوردى يردده كل متعلم فى الهند :

جعفر أزبنگال صادق أزدكن ننگ دين ننگ ملت ننگ وطن

ومعنى هذا البيت الأوردى أن جعفر من بنگال وصادق من دكن عار الدين وعار الملة وعار الوطن .. نعم .. ولعنة الله على الخائنين ..

وقد كانت هذه الموقعة مفتاح تحول فى تاريخ الهند ، فبدأ النفوذ الانجليزى يسيطر على البنگال ، فلم يكن الخائن « جعفر » سوى ظل أسود ودمية قبيحة يلعب بها أسياده الانجليز ، ومنذ ذلك الوقت دخلت بنگال فى حكم الانجليز ، وأخذ شبحهم ونفوذهم المخيف يزحف على ولايات الهند المتفرقة المتخاذلة ، لا سيا بعد أن حاول « مير قاسم » - الذى خلف جعفر على حكم البنگال أن يسترد النفوذ الوطنى ، ويطرد الانجليز بمساعدة « شاه عالم » الذى كان قد ولاه « أحمد نادرشاه » ملك المغول ، وشجاع الدولة[2] ، ولكنهم هزموا جميعا فى موقعة « بكسر » سنة ١١٧٨هـ - ١٧٦٤ م ، واضطر « شاه عالم » أن يتنازل للانجليز عن حق الإشراف المالى على البنگال وأوريسة وبيهار ، على أن يأخذ

---

(١) ومع هذا فقد جاء فى كتاب قصة الحضارة ج ٣ لمؤلفه (ديورانت) وترجمة الدكتور زكى نجيب محمود أن جعفر دفع إلى الاورد (كلايف) مبلغاً يعادل ستة ملايين ريال نظير توليه الإمارة . (عن الهند والغرب ص ٧٦)

(٢) هو جلال الدين بن أبى المنصور التركمانى حكم فى بلاد (أود) بعد وفاة أبيه ولما انهزم مع زملائه فى (بكسر) أشار عليه بعض أصدقائه بالالتجاء للانجليز فالتجأ إليهم فولوه الحكم فى (أوده) تحت سيادتهم وتوفى سنة ١١٨٨ هـ — ١٧٧٤ م (نزهة ج ٦ ص ٥٧) .

منهم مليونين و ٦٠٠ ألف روبية ، وبذلك توطد نفوذ الانجليز أكثر مما كان، وأقاموا حكاما وطنيين يتلاعبون بهم كما يريدون .

واجتازت الشركة بعد ذلك دورا من الاختلال والضعف الإدارى ؛ لانتشار الرشوة بين رؤسائها وموظفيها ، وسعيهم إلى جمع المال بكل وسيلة ، بعد أن توطدت أقدامهم وانتشر نفوذهم ، فأرسلت الحكومة الانكليزية « اللورد كلايف » إلى الهند بعد أن كان قد غادرها ، فعمل على القضاء على الرشوة وإصلاح الإدارة والجيش ، وحسن العلاقات بين الشركة وأمراء الهنود ، ثم عاد إلى لندن سنة ١١٨١ هـ — ١٧٦٧ م .

وقد كان من الممكن أن تسير الأمور سهلة لينة أمام الشركة ، فإن سلطان المغول قد ضعف ، وأصبح فعلا فى حماية الشركة ، فلم يكن هناك خوف من جانبه .. لكن كان أمام الانجليز منافسوهم من الفرنسيين الذين كانوا لا يزالون يهددون نفوذهم فى الهند ، وكان أمامهم أيضا قوتان جديدتان : إحداهما قوة « المراهتا » الذين سيطروا على أغلب أجزاء الهند ، وأنشأوا لهم دولة مرهوبة الجانب ، وثانى القوتين : قوة « حاكم ميسور » الجديد « حيدر على » ومن بعده ابنه « سلطان تيبو » .

وقد تولى أمر الشركة فى ذلك الوقت « ورن هستنجز » ، وكانت الشركة فى حالة من الاضطراب والضعف ، جعلت الحكومة الانجليزية تمدها بقرض كبير ، على أن تصبح خاضعة تماما لإشراف الحكومة ، وأن يعين حاكم عام للهند يكون مسؤلا أمام الحكومة عن شئون الإدارة فى الهند ، وأن تكوّن محكمة عليا فى كلكتا تشرف على أمور القضاء فى البلاد الخاضعة لهم .

وكان على الحاكم الجديد أن يتغلب على المصاعب الكثيرة التى تحيط بالشركة. وحدث أن قامت الحرب بين فرنسا وانجلترا سنة ١١٩٢ هـ - ١٧٧٨ م ، فامتدت هذه الحرب إلى ممثليهما فى الهند ، واجتهد كل منهما للقضاء على الآخر قضاء تاما حتى يخلو له الجو فيها . رأى « هستنجز » أن ينازل المراهتا للقضاء

عليهم ، وكانوا قد هزموا قبل ذلك هزيمة منكرة ، كادت تقضى على شوكتهم تماما فى موقعة « بانى بت » سنة ١١٧٤ هـ - ١٧٦٠ م على يد « أحمد نادرشاه » ، حيث قتل أكثر من مائتى ألف ، فأضعف ذلك من قوتهم ، لكنهم أخذوا بعد ذلك يستعيدون هذه القوة ، فعاجلهم الانجليز بالحرب للقضاء عليهم ؛ فهم حلفاء الفرنسيين ، ويخشى أن يؤدى هذا التحالف إلى طرد الشركة الانجليزية ، وتمكن « هستنجز » من هزيمة المراهتا ، والاستيلاء على « گواليار » أمنع معاقلهم ، ثم اضطر لعقد صلح معهم حينما جاءته الأنباء بقيام سلطان ميسور « حيدر على » بالإغارة على أملاك الانجليز فى « مدراس » سنة ١١٩٤ هـ - ١٧٨٠ م . فتم الصلح سنة ١٧٨٢ م مع المراهتا ، وتفرغ بعد ذلك إلى حاكم ميسور .

ومن الواجب أن نقف هنا قليلا مع حاكم ميسور الذى شكل خطرا كبيرا على الانجليز فى الجنوب وكاد يقضى عليهم ويطردهم من الهند .

حيدر على

كان جنديا فى جيش ولاية « ميسور » الواقعة على الشاطىء الغربى فى جنوب الهند ، ويبلغ عددها نحو ستة ملايين أغلبهم من الهندوس ، وأخذ يترقى فى الجيش ، لما أبداه من الشجاعة والبسالة فى هزيمة أعداء الراجا الهندوسى ، ولاسيما المراهتا سنة ١١٧٣ هـ - ١٧٥٩ م ، فسمى حينئذ « بفتح حيدر بهادر »(١) . ثم صار صاحب الكلمة العليا فى الولاية والوزير الأول للراجا الذى كان منصرفا للتعبد والتصوف . وبعد موت الراجا كان ابنه الذى خلفه فى قبضة « حيدر » ، حتى أصبح هو الملك الفعلى ، وضرب النقود باسمه .

---

(١) هو حيدر على بن فتح على خان ولد سنة ١١٥٠ هـ - ١٧٣٧ م وكان أبوه فى خدمة راجا ميسور الهندوسى « ناندرام » فتدرب حيدر على الفنون الحربية ودخل فى خدمة الراجا سنة ١٧٤٩ وظل يترقى حتى صار قائدا . ثم تخلص من وزير الراجا وصار هو الوزير الحاكم الفعلى ثم صار ملكا على ميسور .

وقد خشى الإنجليز من ظهور هذه القوة الجديدة ، وتحالفوا مع المراهتا ونظام الملك فى حيدر أباد ، ثم هجموا من مدراس على « ميسور » بقيادة « أيركوت » ، القائد الإنجليزى ؛ فاستطاع حيدر أن يردهم سنة ١١٧٩ هـ - ١٧٦٥م . وفى سنة ١٧٦٩م هجم بستة آلاف من الفرسان فجأة على « مدراس » فأحدث الارتباك فى صفوف الإنجليز ، واضطرهم لطلب الصلح بالشروط التى يمليها عليهم ، مع عقد معاهدة دفاعية معه ، وقد رضى « حيدر على » بهذا الارتباط الدفاعى مع الإنجليز ، نظرا لقوة جيرانه « المراهتا » الذين أصبحوا أكبر خطر فى الهند فى ذلك الوقت ، وقد كان لهزيمة الإنجليز فى « مدراس » أثر سىء فى انكلترا ، فانحطت قيمة أسهم الشركة ، وازداد خوف الانجليز من المستقبل بالنسبة لها .

وقد حدث بعد عقد هذه المعاهدة بسنة أن هجم « المراهتا » على « ميسور » بجيش جرار ، فقام « حيدر على » لصدهم ، وانتظر أن يهب حلفاؤه الإنجليز لمساعدته ، ولكنهم ترددوا ، ثم أحجموا عن الوفاء بالعهد ، وادعوا أنهم على الحياد ، وانهزم « حيدر » أمام « المراهتا » فحفظها فى نفسه للانجليز ، وازداد حنقه عليهم ، وكانت حالة الشركة السيئة من الأسباب التى حملت الإنجليز على عدم دخول الحرب مع « حيدر » ، ومنذ ذلك الوقت قرر هذا الرجل العظيم أن يعتمد على نفسه ، فعنى بتكوين جيش قوى من الجنود المدربين ، كما أنشأ بحرية قوية ، وأخذ يستعين بالفرنسيين فى تكوين هذا الجيش وتسليحه ، ثم هجم على « المراهتا » وهزمهم ، واسترد البلاد التى فقدها ، وزاد عليها حتى وصلت حدود بلاده إلى نهر « كرشنا » ، وفى سنة ١١٩٢ هـ - ١٧٧٨ م قامت الحرب بين فرنسا وانجلترا ، حينما أعلنت الأولى الانضمام مع الأمريكيين علنا فى حرب الاستقلال ضد الإنجليز ، فعمل نواب فرنسا فى الهند على تضييق الخناق على الشركة الإنجليزية حتى تجلو عن الهند ، وأخذوا يستميلون إلى جانبهم الحكومات الهندية ، ويمدونها بالسلاح والفنيين لتدريب جيوشها ، فاستطاعوا بذلك أن يكونوا قوة هددت الانجليز فى الهند ، وفى الوقت نفسه

أخذ القائد الإنجليزى يعمل على إضعاف فرنسا فى الهند وطردها منها ، فأعلن « حيدر على » أن الهجوم على أملاك الفرنسيين يعتبر هجوما عليه ، ولم يبال الإنجليز بهذا ، وهجموا على الموانى الفرنسية ، فهاجمهم « حيدر على » فى « مدراس » وهزمهم فى عدة مواقع ، واستولى على أسلحتهم . مما جعلهم يستعجلون « هستنجز » فى إرسال مدد إليهم ، فجاءهم المدد من بنگال ، وفى الوقت نفسه أعانهم نظام حيدر أباد ، وسمح لجنودهم بالمرور فى أراضيه ، وكذلك راجابهونسلا بعد أن أخذ مليونا وستمائة روبية . وكان الإنجليز فى ذلك الوقت فى حرب مع المراهتا ، فعقدوا معهم صلحا لكى يتفرغوا لحيدر على كما سبق .

وكان هذا المدد بقيادة « أيركوت » ولكن حيدر حاصرهم مع الفرنسين ، وفى أثناء المعركة تراجع الفرنسيون ، وتركوا الحصار البحرى ، وبذلك انفتح الطريق البحرى أمام الإنجليز لتموين جيوشهم ، وإمدادها بالرجال والسلاح ؛ فهجموا عليه هجوما عنيفا بمدافعهم ، وثبت لهم حيدر ، ثم اضطر للتراجع وترك السواحل فى سنة ١١٩٥ هـ - نوفمبر ١٧٨١ م ، ومع ذلك ظلت الحرب الداخلية التى كان يقودها ابنه « فتح على » المشهور فيما بعد باسم «تيبو سلطان» ، وفى منطقة « الكرناتك » غربى مدراس قضى على أكثر من ألفين من جنودهم ، ثم جاءه المدد من الفرنسيين ، ولكن « حيدر على » لم يمهله القدر حتى تتم هذه المعركة ، فمات سنة ١١٩٦ هـ - ١٧٨٢ م واضطر ابنه « فتح على » أن يرجع للعاصمة ليتم فيها مراسم الملك .

تيبو سلطان :

وكان «فتح على» «تيبو سلطان»[1] قد عرف بالشجاعة والبسالة فى الحروب التى خاضها ضد الانجليز والمراهتا فى أيام أبيه ، فلم تلن قناته حين تولى الملك ،

(١) هكذا ينطقونه فى الأوردية ، أما فى العربية فينطق «السلطان تيبو» ويطلقون عليه فى الهند السلطان المجاهد الشهيد .

بل كان أصلب عودا ، وأشد خطرا على نفوذ الانجليز حين واصل الحرب ضدهم . وفى الوقت الذى كانت فيه رحى الحرب لاتزال دائرة فى الهند انتهت الحرب بين فرنسا وانجلترا بمعاهدة «فرساي» (٢٠ يناير سنة ١٧٨٣م) . وبذلك أصبح « تيبو سلطان » وحده فى الميدان ضد الانجليز . ومع هذا فقد قابلهم حينما هجموا عليه من الشمال على الساحل ، وهزمهم شر هزيمة ، وأخذ أسلحتهم وأسر الكثير من جنودهم ، ثم استولى على « منكلور » وفيها مثل بين يديه ممثل فرنسا وانجلترا . أما ممثل فرنسا فقد حضر ليعلن أنهم وقعوا صلحا مع الانجليز ، فهم بعد ذلك لا يدخلون ضدهم فى حرب ، وأما ممثل انجلترا فكان لتوقيع صلح معه ، تعهد فيه كل من الطرفين بإنهاء الحرب وإطلاق الأسرى ، ورد ما أخذه من أملاك الآخر ، وكان ذلك فى سنة ١١٩٨ هـ - مارس ١٧٨٤ م .

وفى فبراير سنة ١٧٨٥ م عاد هستنجز إلى لندن وجاء بدله « كورنواليس » ، وقد أعلن أن الشركة لا تتدخل فى الخلافات الداخلية بين الولايات ، وبرغم ذلك فإن خطابه فى يوليو ١٧٨٩م إلى نظام حيدرأباد ، ووعده له بمساعدته ضد أعدائه ، كان فيه وعد أو على الأقل شبه وعد بوقوفه مع حيدرأباد ضد ميسور ، فاعتبره « تيبو سلطان » موقفا عدائيا ضده ، وقد حدث أن هاجم « تيبو » راجا تراوانكور الهندوسى المتحالف مع الانجليز ، وذلك لمنازعات بينهما ، مما زاد الحالة توترا ، وعمل الانجليز على الاتفاق سرا مع نظام حيدرأباد والمرهتا ضد « تيبو سلطان » سنة ١٢٠٤ هـ - ١٧٩٠ م ، على أن تقسم ميسور بينهم عند الاستيلاء عليها ، ثم هجموا فى فبراير من نفس السنة على ميسور من عدة جهات . فقاتل « تيبو » قتالا نادر المثال فى البطش والمهارة . وكسر الكولونل « فلويد » الانجليزى . واجتاح المنطقة الانجليزية حتى وصل إلى جوار مدراس . مما اضطر الانجليز أن يسوقوا عليه جحفلا جرارا تحت قيادة « كورنواليس » نفسه . فردوا « تيبو سلطان » للوراء ، حتى دخلوا « منكلور » على شاطىء بحر العرب وغيرها من المراكز الحصينة ، فالتمس « تيبو » الصلح . فأجيب إليه على شرط أن يتخلى عن قسم من بلاده ،

ويدفع غرامة قدرها ٧٥ مليون فرنك (٣٠ مليون روبية) وتم ذلك فى سنة ١٢٠٧ هـ - ١٧٩٢ م (١) .

* * *

بعد ذلك عاد « كورنفاليس » إلى لندن وجاء بدله « سيرجون شور » ، فمشى على سياسة عدم التدخل ، والمهم أنه لم تحصل حرب بينه وبين ميسور فى مدته ، ولما اشتعلت الحرب بين نظام حيدر أباد والمراهتا لم يتدخل بينهما ، مع أن الشركة وعدت نظام حيدر أباد من قبل بمساعدته ضد أعدائه ، وقد هزم النظام أمام المراهتا ، مما خلف فى نفسه مرارة من الانجليز ، فبدأ يميل لأعدائهم الفرنسيين ، ويستقدم ضباطا منهم لتدريب جنوده ، وأخذت تتكون فى الجنوب شبه جبهة معادية للانجليز ، على رأسها « تيبو سلطان » القوى العنيد الذى لا تزال مرارة الهزيمة تحز فى نفسه ، ويتربص بالانجليز الدوائر ، وكانت الحرب قد بدأت بينهم وبين الفرنسيين فى أوربا سنة ١٧٩٣م ، فاشتد النزاع بينهما أيضا فى الهند ، وأخذ الفرنسيون يستميلون المراهتا ، ويرسلون إليهم الأسلحة والضباط ، وكانت الحكومة الانجليزية نظرا للفساد الذى عم إدارة الشركة وموظفيها قد اصدرت عدة قوانين لإصلاحها جعلتها تحت إشراف الحكومة المباشر ، بحيث تختار هى الحاكم العام .

وفى سنة ١٢١٢ هـ - ١٧٩٨ م اختارت (ولزلى) حاكما عاما ، وكان الخلاف بين الشركة و « تيبو سلطان » قد بلغ أقصاه ، بينما كانت خطة نابليون لغزو الشرق قد أصبحت معروفة ، وحينما جاء إلى مصر أخذ يستعد للتحرك نحو

---

(١) حاضر العالم الإسلامى ج ٤ ص ٣١٩ . وقد رأيت فى متحف سانت جورج بمدراس فى ديسمبر سنة ١٩٥٧ صورة لتيبو وهو جالس ومعه ولداه الصغيران اللذان أصر الانجليز على أخذهما رهنا عندهم حتى لا يعود إلى محاربتهم ، وكان يودعهما فى هذه الصورة المؤثرة للغاية .. ورأيت بالمتحف صورة كبيرة للقائد « كورنفالس » الانجليزى وهو يتسلم الولدين الصغيرين !!! وكان يتولى شرح الصور لى العالم والزعيم المسلم الكبير الدكتور عبد الحق مدراسى وكان ضليعا فى عدة لغات منها العربية ، وقد توفى عليه رحمة الله فى مارس ١٩٥٨ .

الشرق ، ويرسل رسله إلى شريف مكة وإمام مسقط ، يفاوضهما فى المحافظة على طريق مواصلاته ، كما أرسل إلى «تيبو سلطان» فى الهند ، وقد استغل «تيبو» هذا الخلاف ، وأخذ يستفيد من الفرنسيين ، ويتحالف معهم ، ويستعين بجنودهم وأسلحتهم ، حتى أنشأ جيشا قوياً وبحرية عظيمة ، كما أجرى عدة إصلاحات فى مملكته جعلتها من أقوى الممالك فى ذلك الوقت ، وهذا ما جعل «ولزلى» يحسب حسابا كبيرا لهذه القوة ، ويجعل أهم أعماله فى الهند القضاء عليها قبل أن تقضى هى على الشركة ، وعمد إلى الحيلة والدس ، فاتصل بنظام حيدرآباد ، الذى كان قد استقدم بعض الضباط الفرنسيين لتدريب جنوده بعد انهزامه أمام المراهتا وعدم معاونة الإنجليز له ، واستطاع «ولزلى» بالحيلة والتهديد أن يضمه إلى صفه ، ويحمله على طرد الضباط الفرنسيين ، والاستعاضة عنهم بضباط انجليز .

وعندئذ أخذ «ولزلى» يحتك بحاكم «ميسور» فأرسل له لكى يتخلى عن محالفة الفرنسيين وعن الموقف العدائى ضد الإنجليز ، ولكن «تيبو» لم يعبأ بهذا الإنذار ، فهجم الانجليز عليه بجيش جرار يقوده مشاهير القواد ، كان منهم شقيق (ولزلى) الذى صار فيما بعد (دوق أف ولنجتون) ، وحاصروا «تيبو» فى العاصمة (سرنگاپتم) ، ولكنه استبسل فى الدفاع ، وحاربهم بكل شجاعة ، وفى الوقت الذى كان فيه مستبسلا فى الدفاع تقدم أحد قواده الذى كان يعتمد عليهم ، وهو (مير صادق[1]) ففتح القلعة للانجليز فتمكنوا من الاستيلاء

(١) و«مير صادق» هذا هو الذى دمغه الشاعر إقبال مع الخائن الآخر (جعفر) فى بيت من الشعر سبق أن ذكرته عند الكلام عن موقعة «بلاسى» فى (بنغال) ، ولا زال اسمهما يتردد على الألسنة بكل احتقار ولعلنا لا ننسى فى هذا المقام أيضاً موقف حكام حيدر أباد وارتمائهم فى أحضان الانجليز منذ أن وطئت أقدامهم أرض الهند حتى خرجوا منها ، وانتهى حكمهم حين ضمت الهند هذه الولاية إليها بعد حرب مع حكومة الهند عقب الاستقلال أريق فيها دماء الآلاف من المسلمين ، وقد مزقت هذه الولاية الآن بين ولايات متعددة ، حتى لا يظل اسمها عالقا بالأذهان ولا يمنعنا إنكارنا على هؤلاء موالاتهم للانجليز من أن نشيد بعنايتهم بالعلوم الإسلامية واللغة الأوردية والنهوض بهما ، كما شاهدت آثار ذلك بنفسى حين زيارتى لحيدر أباد فى ديسمبر ١٩٥٧ م ؛ فقد كانت مظاهر النهضة فى جميع مرافق الحياة بارزة شاهدة بفضل ملوك حيدر أباد السابقين .

عليها ، وخر «تيپو» المجاهد شهيدا فى ساحة المعركة . ودفن فى «سرنگاپتم» ولازال قبره هناك يذكر الناس بعظمته وجهاده لتحرير الهند وطرد الانجليز منها.

وقد انتهت ميسور ، وأصبحت تحت حكم الإنجليز ، فجاءوا بطفل من الأسرة الهندوسية التى كانت تحكم من قبل ، وعينوه حاكما إسميا تحت لجنة وصاية تشرف عليه ، بينما قبضوا على أسرة (تيپو) ونقلوها إلى (كلكتا) ، وجروا لهم بعض الأرزاق لمعيشتهم ، وأعطوا نظام حيدرأباد بعض الأطراف لضمها إلى ولايته ، جزاء له على موقفه معهم ، بينما أنعمت الحكومة الانجليزية على (ولزلى) ؛ لنجاحه فى القضاء على أكبر عدو لهم فى الهند .

وبذلك انطوت صفحة حياة هذا المجاهد ، بينما بدأ التاريخ ينشر له صفحة مشرقة الجلال ، لن تنطوى على مر الأيام ، وسيبقى هو وأبوه «حيدرعلى» مثلين حيين على الجهاد والاستبسال فى سبيل الدفاع عن الحرية والكرامة . .

ومن العجب أن الانجليز بعد أن تمكنوا من الهند ، وأخذوا يفرضون عليها ثقافتها لم يتورعوا عن الإساءة للأموات احتراما لبطولتهم بعد أن انتهت عداوتهم فى حياتهم ، فأخذوا يشوهون سمعة هذا البطل . وبلغ بهم الحقد والإسفاف إلى الحد الذى جعلهم يسمون كلابهم باسم «تيپو» ، وتابعهم مع الأسف الشديد بعض الهندوس ، مما أثار غضب أحد الكتاب الهندوس وهو الأستاذ «فتح چند نسيم» فكتب فى صحيفة «الجمعية»[1] يندد بعقلية بعض إخوانه الهندوس الذين تابعوا الانجليز فى الإساءة إلى بطل عظيم دافع عن بلاده ، وبذل الغالى والنفيس فى سبيل تخليص الهند من الاستعمار الانجليزى ، ولو قدر له الانتصار لما شهدت الهند الاستعمار الانجليزى ، الذى ظل يمتص دماءها أكثر من مائة عام .

وبالقضاء على «تيپو» استراح الانجليز من أخطر عدو لهم ، وأصبح

---

(١) التى تصدرها جمعية العلماء فى دهلى ، وقد استمعت لترجمة هذا المقال فى شوال ١٣٧٦ وأعجبت بروح الكاتب وإنصافه ، لا سيما وهو شديد العناية بإبراز مواقف البطولة التى وقفها المسلمون ضد الإنجليز ..

من السهل لهم السيطرة على الجنوب ، بعد أن يقهروا المراهتا الذين كانوا يمثلون القوة التى يخشاها الانجليز بعد « تيپو » ، ولذلك أخذ (ولزلى) يعمل على بث الفرقة فيما بينهم مستغلا أطماع بعضهم ضد بعض ، وبذلك استطاع أن يدخل معهم فى حرب هدت من كيانهم ، لكنها لم تقض عليهم تماما ، ثم عقد معهم (ولزلى) صلحا قبل رجوعه إلى (لندن) ، لوقوع خلاف بينه وبين المشرف على الشركة هناك حول خططه الاستعمارية فى الهند ، والشطط الذى يرتكبه فى سبيل ذلك ، على أن الانجليز بعد ما انتصروا على (نابليون) توطد مركزهم فى الهند والشرق كله ، وتخلصوا من منافسة الفرنسيين ، واستولوا فى سنة ١٨١٥م على رأس الرجاء الصالح وسيلان وجزيرة مورنياس وجزائر سيشل وغيرها .

بعد ميسور

من الممكن أن نقول بسهولة إنه بعد القضاء على حاكم ميسور القوى تنفس الإنجليز الصعداء ، فقد تخلصوا من حاكم قوى عنيد ، وانفتح أمامهم المجال للسيطرة على باقى أجزاء الهند حسب الخطة التى وضعوها .

حقيقة بقى أمامهم « المراهتا » فى الجنوب « وهم قوة لا يستهان بها . لكنها تضعضعت أولا بعد موقعة « پانى پت » سنة ١٧٧٢ م مع أحمد شاه الأبدالى ، ثم لاحقهم الإنجليز ثانيا بضربات جريئة هدت من قوتهم أيضا ، ثم أعملوا فيهم حرب التفرقة ، فنجحوا أيما نجاح - وهى وسيلتهم دائما فى التسلط على الشعوب - . فنجد « ولزلى » بعد الانتهاء من ميسور يستولى على مقاطعات « كرناتك » وتانجور فى الجنوب ، ويرتب لحكامها مرتبات ، ثم ينشب أظفاره فى مملكة « أوده » فى الشمال[1] ، فقد كان بها بضعة آلاف من جنود الشركة بحجة معاونتها ، فطلب من حاكمها أن يزيد العدد ، وأن يتنازل للشركة فى الوقت

---

(١) وكانت عاصمتها لكنو وحكامها مسلمون

نفسه عن مقاطعتى « دوآبه » ورهيل كهند » نظير مصاريف هؤلاء الجنود ، ولم يكن الحاكم من القوة بحيث يستطيع أن يرد أى طلب من هذا القبيل . .

ولما عاد « ولزلى » حل محله « كورنفاليس » لكنه مات بعد شهرين من وصوله إلى كلكتا سنة ١٢٢٠ هـ - ١٨٠٥ م .

ثم جاء بعده سير جورج بورلو ، وفى سنة ١٢٢٢ هـ — ١٨٠٧ م جاء «لورد منتو» وعقد صلحا مع السيك وأمراء الهند . وازدهر الحكم الانجليزى وقوى فى عهده ، وبعده عاد لورد « هستنجز » سنة ١٢٢٨ هـ — ١٨١٣ م ، وقامت فى عهده حرب بين الشركة وبين نيبال انتهت بسيطرة الانجليز عليها ، حتى وصل نفوذهم إلى الهملايا ، على أن المهم أن هذا الرجل توجه إلى «المراهتا» الذين كانوا لا يزالون يقضون مضاجع الانجليز فقضى عليهم ، وأصبحوا خاضعين تماما الحكم الشركة ، وقد اعتقل ملكهم فى كانبور ، وأجرى عليه الأرزاق وذلك سنة ١٨١٨م ، وأظن أنه بعد القضاء على المراهتا لم يعد فى الهند من يرفع رأسه أمام الانجليز ، ولذا أخذ الحكام يتقاطرون لإظهار حبهم ومودتهم وتحالفهم معهم ، وكان كل من يخالف الشركة أو يبدى أى تباطؤ فى الاستجابة لها يخلع من الحكم ويولى بدله ، وكانت الهند أشلاء ممزقة ، فسهل على الانجليز السيطرة على هذه الأشلاء ، حتى ملك المغول نفسه فى دهلى كان يتقاضى منهم مرتبا تاركا كل الأمور بيدهم .

وفى سنة ١٢٣٩هـ - ١٨٢٣م . استولى الانجليز على آسام وأراكان وتناسرم فى بورما ، فاتسعت حدود مملكتهم من الشرق ، ولكن بقيت من الناحية الغربية مفتوحة ، أعنى الناحية التى كان الغزاة يتدفقون منها دائما إلى الهند من جهة أفغانسان والسند ، وكانت هذه الناحية تقلقهم ؛ فإنه من الممكن أن يأتى للهند غاز جديد يضيع على الشركة كل جهودها فى السيطرة على الهند ، لاسيما والروس فى ذلك الوقت كانوا يهددون إيران وأفغانستان بجيوشهم ، ومن الجائز أن تنحدر هذه الجيوش بعد ذلك إلى الهند ، وفى البنجاب والسند كان الأمراء

لايزالون متمتعين بنفوذهم ، بعيدين عن نفوذ الشركة التى حصرت همها فى الجنوب والبنگال والوسط .

لذلك حاول الانجليز أن يخضعوا أفغانستان لهم حتى تكون سداً بين الهند والروس ، وكان ملكها فى ذلك الوقت « دوست محمد خان » فهجموا عليها من ناحيتين ، وفى طريقهم إليها استولوا على بعض الحصون لأمراء السند ، وتلاقى الجيشان الزاحفان فى « قندهار » ، ثم ساروا إلى « غزنه » واستولوا عليها ، وأخذوا منها أبواب « معبد سومنات » التى كان قد أخذها الغازى « محمود الغزنوى » عند هدمه لهذا المعبد سنة ١٠٢٦م ، ويقول بعض المؤرخين إنهم أرجعوها للهند ، على أن مولانا حفظ الرحمن مدير جمعية علماء الهند وعضو البرلمان المركزى ، أكدلى أنهم أخذوها إلى لندن وليس لها وجود بالهند.

وبعد الاستيلاء على « غزنة » ، زحفوا إلى العاصمة « كابل » ، وما كان ملكها فى ذلك الوقت مستعدا لمنازلتهم ، فتركها وذهب إلى الشمال ، فدخلها الانجليز ، وأجلسوا على العرش « شاه شجاع » ولكن رجال القبائل الأفغانية المشهورة بقوتها وشدة مراسها وكرهها للأجنبى ، شقوا عصا الطاعة عليه ، لأنه وصل إلى العرش عن طريق الأجانب ، فاستعان الانجليز بالرشوة ليشتروا سكوتهم ، وأنفقوا فى ذلك كثيرا . مما أوقعهم فى أزمة جعلتهم يمسكون بعدها عن الرشوة ، فعادت القبائل للثورة على الانجليز الذين لم يثبتوا أمام هؤلاء الأفغان فى كثير من المواقع ، وبالرغم من أن الملك « دوست محمد خان » الذى فر وترك عاصمته من قبل عاد فسلم نفسه للانجليز الذين أرسلوه بدورهم إلى كلكتا محاطا بمظاهر الاحترام سنة ١٢٥٦هـ - ١٨٤٠م ، وبالرغم من أن الانجليز قد قوى ساعدهم بهذا التسليم ، فإن رجال القبائل لم يهنوا ولم يستكينوا ، وكان (محمد أكبر خان) ابن الملك المستسلم يقود هذه الثورة ، فزحف إلى (كابل) ، وحاصر الانجليز فيها ، ومنع الطعام والمؤن حتى دب فى قلوبهم اليأس ، واضطروا للتسليم والخروج من أفغانستان ، على شرط أن يتركوا مدافعهم وبعض رجالهم رهائن فى (كابل) ، وكان ذلك سنة ١٢٥٧هـ -

١٨٤١م ، وخرج الجيش المنكسر فى طريقه إلى الهند ، ورجال القبائل الأفغانية تهاجمه من كل مكان ، حتى أفنته عن آخره ، ولم ينج منه إلا شخص واحد ، رجع إلى المعسكر الانجليزى فى « جلال آباد » بالهند ، وكان هذا الجيش مكونا من خمسة عشر ألفا ، وتم ذلك فى سنة ١٢٥٨ هـ - ١٨٤٢ م .

وإزاء هذه الكارثة التى أصابت الانجليز تجرأ أمراء السند ، فاحتجوا عليهم لاختراقهم أراضيهم ، فكان الرد على هذا الاحتجاج أن استولوا على السند وضموه إلى أملاك الشركة .

وبعد ذلك قامت حرب بين السيك وبين الانجليز من سنة ١٨٤٥هـ-١٨٤٩م انتهت بانهزام السيك وضم البنجاب التى كانت تحت حكمهم إلى الشركة ، وكان آخر حكام السيك «مهاراجه رنجيت سنگ» ، وقد استولى الانجليز على أملاكه ونقوده ومجوهراته ، وكان منها الماسة المشهورة « كوه نور »[1] التى كانت أولا فى عرش الطاووس الذى أخذه « نادر شاه الإيرانى » من دلهى بعد غزوها سنة ١٧٣٩م ، ويقال هنا فى الهند أن « نادر شاه » قتله الأفغانيون عند عودته ، وربما انتقلت هذه الماسة إلى يدهم ؛ لأن المعروف أن السيك استولوا عليها من بعض الزوار الأفغان ، وظلت فى يدهم حتى أخذها الانجليز ، ووضعوها فى تاج الملكة فى ذلك الوقت وظل به ، وقد سمعت أن الهند طالبت به الانجليز كما طالبت بالمكتبات التى نقلوها من الهند إلى لندن ! ! .

وبعد الاستيلاء على البنجاب وصلت حدود أملاك الشركة إلى الحدود الطبيعية للهند فأصبحت آمنة من هذه الناحية .

مملكتا حيدر أباد وأود :

سيطر الانجليز على كل أجزاء الهند فعلا ، وشمل حكمهم ونفوذهم كل مملكة أو إمارة فيها ، وأصبح من فيها من الملوك والأمراء دمى يلعب بها الحاكم

---

(١) تاريخ الهند لسيد هاشمى ص٣٩٨ نقلا عن المؤرخ «كين» فى كتابه تاريخ الهند ج٢ ص٢٠١

العام للشركة كما يريد ، لكن بقيت مملكتان إسلاميتان واسعتان هما مملكة « حيدر أباد » فى الجنوب ومملكة أوده فى الشمال ، وهما وإن كانتا خاضعتين للانجليز فعلا ، إلا أن مظهرهما باق برغم انهيار كل ماحولهما من الإمارات والممالك ، ويظهر أن هذا الشكل وحده لم يعجب السادة الانجليز فى لندن ، فأصدروا تعليماتهم للحاكم الانجليزى فى الهند « دلهوزى » بإزالة ما بقى لهما من هذا المظهر . .

وكان فى « حيدر أباد » جيش انجليزى تحت اسم حمايتها ومعاونتها ضد أعدائها ، وكان فيها رؤساء وقواد انجليز يشرفون على جيشها أيضا ، وكانت مصاريف هؤلاء جميعا تدفعها الشركة وتحسب دينا مؤجلا على المملكة ، وهى طريقة اتبعتها فى كثير من الممالك والإمارات الهندية ؛ لتتخذ هذا الدين وسيلة بعد ذلك إلى التدخل فى شؤونها والاستيلاء عليها ، وهذا مااتبعته مع مملكة « أوده » من قبل حين ضمت بعض مقاطعاتها نظير الدين الذى لها ، ثم كان وسيلة للقضاء عليها نهائيا كما سيأتى . .

أما « حيدر أباد » فقد أخذ الانجليز يتعللون معها بأن أمور الحكم فاسدة ، وأن الملك يترك الحكم لوزراء فاسدين يستدينون بالربا ، مما سيجر على الدولة الخراب ، وجعلوا هذه التعللات مقدمة لإلحاق حيدر أباد بأملاكهم ، ولكن لأمر ما لم يقدم « دلهوزى » على هذه الخطة ، واكتفى بأن يعقد معاهدة مع « حيدر أباد » تقضى بضم إحدى مقاطعاتها « برار » إلى الشركة نظير الدين الذى عليها . وكان ذلك سنة ١٢٧٠ هـ - ١٨٥٣ م - وبقيت حيدر أباد بملكها ، وإن كان للانجليز النفوذ الفعلى عليها . بعد ذلك اتجه « دلهوزى » إلى « أوده » التى كانت تتخذ « لكنو » عاصمة لها ، وقد تكونت هذه الدولة فى القرن الثانى عشر الهجرى حين استقل بأمورها « سعادت خان » الذى كان واليا عليها من قبل حكومة دلهى . وبعد وفاته تولى « شجاع الدولة » فكان ملكا عليها حين غزا « أحمد شاه الأبدالى » الهند ، وقد تحالف مع شاه عالم ملك دهلى ومير قاسم حاكم البنكال ليخلصوا الهند من حكم الانجليز ويستردوا البنكال منهم ، ولكن

قوة الانجليز المنظمة استطاعت أن توقع الهزيمة بالمتحالفين فى « بكسر » سنة ١٧٦٤م واضطر شجاع الدولة أن يعقد صلحا معهم .

وبعده تولى ابنه « آصف الدولة » وكان كريما سخيا كثير الإنفاق ، شيد البناء الضخم المعروف فى لكنو باسم « إمام باره » وقد زرته فى التاسع من المحرم سنة ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦م ، فدهشت لفخامته وضخامته كأنه قد حفر فى جبل ، ويعتبر مركز الشيعة فى لكنو . رأيتهم يستعدون فيه للاحتفال بيوم عاشوراء الموافق ذكرى استشهاد الحسين فى كربلاء ، ولهذه الذكرى فى الهند أهمية بالغة بحيث يشترك فيها السنيون والشيعيون على تفاوت بينهم فى هذه المشاركة ، فالشيعة قد اعتادوا أن يصنعوا من الخشب ما يشبه « النعش » أو قبة الحسين ، ويسيرون بها فى الشوارع فى أشكال مختلفة كبيرة وصغيرة يحملها جماعة أو واحد ، ثم يسيرون خلفها فى بكاء وحزن ويسمونها « التعزية » ، ويضربون خدودهم وصدورهم بالحديد والحجارة حتى تسيل دماؤهم ، ويسقطون صرعى وتحملهم عربات الإسعاف لعلاجهم ، وذلك حزنا على ما جرى للحسين رضى الله عنه ، وتتجمع فى « إمام باره » هذه « التعزيات » وفيها يكون الاحتفال الرسمى ، حيث يجلس زعماء الشيعة يستقبلون المعزين ، كأن جثة الحسين بجانبهم ، وكأنه قتل منذ لحظات ، والحكومة الهندية تعطل الأعمال الرسمية فى جميع أنحاء الدولة ثلاثة أيام بهذه المناسبة ، مع أنها تعطل أعمالها يوما واحدا بمناسبة عيد الفطر ويومين فى عيد الأضحى . وهذا التقليد من أيام الانجليز الذين كانوا يجاملون الحكام السابقين لهذه الدولة من الشيعيين ، وجميع الشيعة فى الهند ، وكل القرى والمدن هناك تجد فيها هذه الظاهرة يفعلها الشيعة ، ويجاريهم بعض العوام من السنيين ، وإن كان العلماء والعقلاء السنيون يحاربون هذه العادة ، ويمنعون السنيين من الاشتراك فيها ، حتى رأيت دار العلوم ديوبند الدينية وهى أكبر معهد دينى فى الهند ، تبالغ فى المنع وعدم المشاركة فى أى مظهر من ذلك ، فلا تعطل أعمالها فى ذلك اليوم برغم أنه عطلة رسمية .

وبعد آصف الدولة تولى أخوه « سعادت على خان »

وبعده « غازى الدين حيدر » ثم « نصر الدين حيدر » الذى ارتقى العرش بمساعدة الانجليز ، وبعده « أمجد على شاه » ثم « محمد على » ، وبعده « واجد على شاه » . وقد رأيت صورهم وآثارهم فى متحف كبير فى لكنو ، وفى عهد هذا الأخير أراد دلهوزى أن ينحيه عن العرش بحجة الفساد فى أعمال الحكومة ، برغم أنه كانت هناك معاهدة عقدت سنة ١٨٣٧ م تمنعه من ذلك ، وإن كانت تبيح للشركة إدارة الأعمال والإشراف عليها ، ولم يستمع دلهوزى لنصيحة « لورنس » وقبض على « واجد على شاه » ، واعتقله فى « كلكتا » سنة ١٢٧٣ هـ - ١٨٥٦ م ، ويقول المؤرخ « كين » : « إن الشركة خالفت المعاهدة ، وأجبرت الأهالى على تنفيذ قوانين الشركة التى لم تكن متفقة والوضع فى البلاد ، وهى تظن أنها فعلت ما تستحق عليه الشكر ، وفعلا تلقت هذا الشكر بعد ذلك فى ثورة جامحة سنة ١٢٧٤ هـ — ١٨٥٧ م »(١) ..

بعد ذلك تقدم « دلهوزى » خطوات نحو واقع الأمور فى الهند ، فقد أصبحت الألقاب فيها كما يقول أحد الشعراء « ألقاب مملكة فى غير موضعها » ، فألغى هذه الألقاب التى يحملها الملوك والأمراء فى الوقت الذى يتقاضون فيه مرتبات من الشركة ، وكأنهم موظفون على المعاش ، مثل حاكم « أركات » وتانجور ، كما حرم « نانا صاحب » وارث ملك المراهتا « باجى راو » من المرتب ، وأكثر من هذا وجه إنذارا للملك المغولى « بهادور شاه » القابع فى قلعته بدهلى بأنه سيكون آخر رجل يحمل لقب الملك من أسرته ، وأن القلعة ستؤخذ منه ، وتحول إلى ثكنة للجيوش الانجليزية . وهكذا خلا جو الهند كلها من منافس أو مقاوم للإنجليز ، وأصبحوا فيها الأسياد المطاعين ، وانحسر النفوذ الوطنى وحل محله النفوذ الأجنبى ، ولم تقف هذه الكثرة الهائلة من الهنود أمام الشركة ، وتتغلب عليها أو تحد من نفوذها .

وإن المرء ليتساءل كيف يتم ذلك ؟ وكيف استطاعت الشركة تدريجياً التسلط على الهند والتغلب على كل سكانها ؟ !

---

(١) نقلا عن تاريخ الهند لسيد هاشمى ص ٤٠١ .

لقد بدأ الانجليز عملهم فى الهند خضعا متملقين تحت ستار التجارة ، حتى إذا حانت لهم الفرصة للعمل عملوا ، واعتمدوا على مبدئهم المعروف « فرق تسد » ، ولم تكن الهند فى الحقيقة فى حاجة إلى عناء كبير لبث بذور التفرقة ؛ فقد كانت من أخصب البيئات لنمو أساليب التفرقة فيها ، بل كانت هى نفسها متشتتة متطاحنة ، طحنتها خلافات الدين واللغة والجنس ، هذه الخلافات التى أضيفت إليها الخلافات حول العروش المتعددة فى الهند ، ولسنا نجد كالهند بلدا تحمل اسما واحدا ، ثم نجد الشعب الذى يسكنها عدة شعوب متباعدة تمام التباعد ، فاقدة تماما كل مقومات الشعب الواحد ، فاللغة مختلفة ، والأصل مختلف ، والأديان مختلفة ، والطبائع والعادات والآمال متباعدة ، وإذا أضفت إلى كل هذا تلك الحروب التى لم تنطفىء على أرض الهند ، وما كانت تتركه من حزازات ومرارات بعيدة الغور فى النفوس ، أدركت كيف كان من السهل على الانجليز أن يستفيدوا من كل ذلك ، وأن يستولوا على الهند بحفنة قليلة من جيشهم ، مسخرين أبناء الهند ومالية الهند للوصول إلى مآربهم ..

وإن ما تراه فى الهند الآن من قيام حكومة واحدة مركزية تحكم شعبا متحدا ليعد من معجزات الزمان ، ولعل الاستعمار له الفضل فى ذلك حين جعلهم جميعاً هدفاً لضرباته وسهامه مدة كبيرة من الزمن جعلتهم ينسون فروقهم فى سبيل التخلص من آلامهم ، ومع هذا فلا تزال هذه الفروق تعمل عملها ـ وإن كان محدودا ـ فى بناء الدولة الهندية .

واسمع ما يقوله المؤرخ والفيلسوف الاجتماعى الفرنسى « جوستاف لوبون »(١)

« قد يعجب الإنسان لأول وهلة من قهر تلك الملايين الكثيرة بسهولة ، مع أنه يجب أن تكون جيوش الفاتحين مؤلفة من جنود كثيرين لا من بضعة آلاف من الجنود ، ولكن عجبه يبطل إذا عرف أن كلمة الهند ليست سوى تعبير جغرافى ، وأن الهند بلاد وشعوب مختلفة أشد الاختلاف ، وأنها لا تحتوى على ما تعرفه أوربا من معنى « الأمة الواحدة » ، أى وحدة العرق واللغة

(١) فى حضارة الهند ص ٢٤٨

والمشاعر المؤدية إلى وحدة المصالح . وأنها لا تشتمل على قومية هندية كالقومية الفرنسية أو الألمانية أو الطليانية ، الخ ، وإن بعض شعوب الهند المختلفة أجنبي عن بعض ، وأن نظام الطوائف الذي يفرق بين مختلف طبقات العرق الواحد يوجب نظر أي هندوسي إلى أكثرية أبناء قومه الساحقة كغرباء مثل الأوربيين»

ويقول : « والإنكليز توصلوا إلى فتح الهند برجال الهندوس وأموالهم ، وإن شئت فقل بجنود غير جنودهم ، ونقود غير نقودهم ، فالحق أن الهند دانت للانكليز بجيوش مؤلفة من الهندوس ، وبأموال أدتها حكومات من الهندوس » .

ويقول الأستاذ «سيلي» الإنجليزي[1] : « فتحت الهند بجنود ثلاثة أرباعها من الهنود ، والربع الآخر من الانكليز ، وحينما كنا منشغلين بفتح بلاد يعدل عمرانها عمران أوربا كلها وجدنا السبيل ممهدة ، والعقبات مذللة ، وما اضطر قاطنو انكلترا إلى أداء ضريبة ، أو استقراض لأجل تحقيق هـذا المطلب ، وما تكبدوا أي عناء ، ولا مست حاجة إلى تجنيد . وصفوة القول أن فتح الهند لا نحسبه فتحا في الحقيقة ، إذ لا فضل فيه لانكلترا ودولتها وجندها » .

ويقول « جون ميكوم » : « لولا مساعدة أبناء الهند لما غلبت على أمرها »

ويقول الأمير شكيب أرسلان في هذا المعنى[2] : —

« لما كانت البلاد زاخرة بمختلف من الأقوام المتحدرة من الأروم المتنازعة ، والعروق المتقاطعة في كل عصور التاريخ ، كان ذلك مذهبا لحولها وقوتها ، فعجزت عن صد الفاتحين ، ولم تقو على الوقوف في وجه أهل الغلب والاجتياح الذين توالوا عليها دورا بعد دور ، وليس هذا بالأمر الغريب ، وأهل البلاد متباينون لم يختلطوا بعضا ببعض ، بل ظلوا منقسمين انقسامات لا تحصى ، يتعادون ويتنازعون ، وهم على ما لا نهاية له من الفوارق دما ولغة وتهذيبا ودينا »

هذه الحقيقة الواقعة التي يلاحظها كل مؤرخ للهند هي التي جعلت من الصعب تكوين أمة متحدة المشارب والآمال ، بحيث تترابط للدفاع عن آمالها إذا تعرضت لأذى في أية منطقة من المناطق التي تسمى الهند . .

(١) في كتابه توسع إنجلترا

(٢) حاضر العالم الإسلامي ص ١٧٧ ج ٤

وقد أدرك الباحثون والمفكرون والحكام من الانجليز هذا المعنى فاستغلوه لمصالحهم وتثبيت مراكزهم ، وعرفوا أن بقاءهم فى الهند مرتبط ببقاء هذه الحالة ، فأخذوا يزيدون فى عوامل التفرق ، ويذكون نار الخلافات حتى طحنت الهند طحنا ، مما جعل عقلاء الهنود يدركون هدف الانجليز ، ويحسون ثقل المظالم التى تنصب عليهم جميعا ، والتى صهرتهم فى نارها ، فاتجهوا إلى التعالى عن هذه الاختلافات وتناسيها بقدر ما يمكن حتى يستطيعوا أن يتخلصوا من العذاب الذى يصبه المحتل فوق رءوسهم، فكانوا كما يقول الحكيم العربى « إن المصائب تجمعن المصابينا » ، فأخذوا يتعاونون ، ومن هنا عرفوا الطريق إلى الحرية وطرد الأجنبى ، فساروا عليه حتى وصلوا إلى نهايته ، فكان أمرهم مع الانجليز كما قال احدهم وهو الأستاذ «سيلى» (١) : تغيب امبراطوريتنا الهندية عن الوجود عند ما يبدأ الشعور القومى ينمو فيها ، وعندما يشعر الناس فيها بأن من العار مساعدتنا على دوام سلطاننا » .

ويمكن القول بأن هذا الشعور القومى المشترك بدأ فى الهند مصغرا عندما أحس الشعب ـ المسلم والهندوسى على السواء ـ بما أصابه من أرزاء ، وما صار إليه من فقر واضمحلال على يد الشركة الانجليزية ونظامها الذى كانت تحرص على تنفيذه كلما استولت على ناحية من نواحى الهند ، وكانوا لتفرقهم لا يشعر أحدهم بما اصاب زميله على يد الانجليز بل ربما أعانهم عليه ، حتى إذا تم للانجليز أكل جميع الأجزاء سقط فى يد الهنود ، وعرف آخر واحد منهم ختمت به بريطانيا غذاءها الهندى الدسم أنه أكل ـ كما يقول المثل العربى ـ يوم أكل الثور الأبيض .

وحين أطبق الانجليز قبضتهم على الهند ، وأحست بقسوتها ، وظهر لهم الأسد الانجليزى على حقيقته ، بدءوا يفكرون فى التخلص منه ، ويحاولون فك رقابهم من قبضته ، فكانت المحاولة الأخيرة اليائسة التى تمثلت فى ثورة سنة ١٢٧٤ هـ ـ ١٨٥٧ م . هذه الثورة التى امتزج فيها دم المسلم بدم الهندوسى دفاعا عن وطنهم .. وأخرجت لنا مثلاحية عالية فى الفداء والتضحية ، كما أرتنا مثلاحية سافلة فى الإجرام والاعتداء .. كما سنرى فى الصفحات الآتية .

---

(١) حضارة الهند ص ٢٤٨





وردت أسماء بعض البلاد في هذه الخريطة مختلفة في النطق عما جاء في الكتاب مثل كاليقوط (كاليكوت) ودامون (دمن) وروهلخند (روهلكند)

الثورة الهندية

أسبابها – حوادثها – نتائجها

سنة ١٢٧٤ هـ – ١٨٥٧ م

كان الغرور يدفع بالإنجليز إلى الظن بأنهم كلما استولوا على جزء من الهند وأدخلوا فيه نظمهم كأنهم دفعوا بالحياة فى شرايينه ، وأن الناس لا بد أن يحمدوا لهم هـذا ويقبلوا أيديهم ـ الأيدى التى صفعتهم ! ! ، والغرب كله غارق فى هذا الغرور ، حتى سمى احتلاله لبلاد غيره ، ونهبه أرزاقه وتخريبه لمرافقه وحيويته ، سمى هذا (استعمارا) من التعمير ، ونحن جاريناه فى ذلك فى كل كتاباتنا العربية ، لكن انقلبت الكلمة من معناها الذى أراده الغربيون المحتلون إلى لفظ فقد كل معناه الأول ، وحمل معنى جديداً مغايراً كل المغايرة له ، وهو الظلم والاستبداد والتخريب لكل حيوية الأمة .

ومن العجيب ونحن بصدد الكلام عن الثورة الهندية أن الانجليز أطلقوا على أهل البلد الذى احتلوه ونهبوه واغتصبوه ، فقام أحراره يمنعونهم من السلب والنهب والاغتصاب ، ويطالبونهم بالعودة إلى جزرهم ، وترك البلاد لأصحابها الشرعيين ، سمى الانجليز أهل البلاد الذين يقفون ضد الغاصب الناهب « بغاة » هكذا بلا حياء ! ! ـ وسرت هذه الكلمة مع سريان حكمهم فى البلاد فاستعملها أهل الهند وسموا أنفسهم « بغاة » كما سماهم الانجليز ! ! والثورة تحمل معنى كريما هو غليان العواطف ، والتهاب الشعور ، والقيام ضد الظلم والطغيان طلبا للحرية والاستقلال ، أما البغاوة فهى الخروج على السلطان الشرعى بدون وجه حق . وهى التعدى والظلم على صاحب الحق . . . « فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله » .(١)

وقلب الحقائق بهذا الشكل هو ما رأيناه ونراه دائما فى سلوك المحتلين الغاصبين الغربيين ، الذين يسمون أنفسهم « العالم الحر » ويدعون أنهم ينشدون الحرية ، فى الوقت الذى يئدون فيه حريات الشعوب ، ويصبحون هم أحرارا حقا ، لكن فى قتل حريات الآخرين ! ! وهم يخنقون أنفاس الشعوب ، ثم يسمون اليد التى تمتد لفك الخناق يدا إرهابية باغية يجب قطعها ! ! وهكذا

(١) قرآن كريم من سورة الحجرات .

والثورة الهندية حين أشعلها الأحرار الهنود أرادوا أن يحرقوا بلهبها الحبل الذى أحاط بعنقهم ، وأرادوا أن يستردوا النعم التى كانوا يتمتعون بها من قبل ثم فقدوها على أيدى .. الاستعمار !!

والثائرون حين يقذفون بأنفسهم فى اللهب ، لايختارون هذا الوضع إلا بعد أن يحسوا بلهب أشد منه ، وحين يقبلون على التضحية باسمى الثغور ، لا بد أنهم قد تركوا وراءهم جحيما لم يعد لأنفسهم به طاقة ، فأقبلوا على الموت فرارآ من الحياة ، وكأنهم مقبلون على حياة النعيم .

فهل بلغت الحالة فى الهند هكذا على يد السادة الانجليز ؟!! وماذا كانت الحياة إذن قبل أن يدوس الانجليز بأقدامهم هذه الأرض ؟ .

هذا ما يحتاج لتفصيل ، ربما لايتسع له كله المقام ، ولذا نعول على التركيز بقدر الإمكان ، مراعين أن نعطى للقارىء صورة وافية على كل حال .

الهنــــد بين عهدين

عهد الحكم الإسلامى ، وعهد الشركة

كانت الهند طوال القرون التى مرت بها تنعم فى ظل الحكومات الإسلامية بكثير من الأمن والاستقرار والرفاهية ، سواء أكانت الحكومة المركزية فى دهلى أم حكومات الولايات المستقلة . وكان الجميع يتنافسون فى الرقى بالشعب وتوفير حاجاته . ونشأت حضارة ظلت تنمو وتزدهر فى ظل رعاتها الحكام . وكان أبناؤها يتولون أمورها ، سواء منهم المسلمون أم الهندوس . وكانت خيراتها تستغرقها ، وتتداول فى أراضيها ، ولاتذهب بعيداً عبر البحار ، ليعيش عليها شعب آخر حرم من الخصب ومن وسائل النعيم والحياة .

والحكام المسلمون وإن كانوا قد انحدروا إلى الهند من خارجها . لكنهم كانوا يحكمون الشعب لصالح الشعب . فقد أصبحوا على مر الأيام من أبنائها ، وأصبحت الدماء الهندية الأصيلة تجرى فى عروقهم . لا سيما بعد أن تزاوج

الملوك والأمراء مع الأسر الهندية العريقة، فارتبط العرش بالشعب برابطة الدم والنسب. ولم يعد هناك الفارق الذي يفرق بينهما..

فلم يكن الملوك إذن ينظرون إلى الشعب على أنهم غرباء عنه، مستعبدون له. بل كانوا ينظرون إليه على أنهم من صميمه. كما كان الشعب ينظر إليهم هذه النظرة. ويجد فيهم دائما صدى آلامه وآماله. حين يراهم يهبون للتخفيف عنه كلما وجدوه مثقلا بالضرائب والكوارث. وكما كان يجد فيهم صدى أفراحه حينما كانوا يشاركونه أعياده. فكان الحكم لذلك حكما وطنيا. حتى لو صدر عنه أي ظلم أو عسف فهو كما يصدر من أية حكومة وطنية على شعبها. وفي ظل هذا الحكم انصرف الشعب إلى الإنتاج والعمل واستغلال خيرات بلاده، لصالحه هو لا لمصلحة شعب آخر. فازدهرت الزراعة. وارتقى العمران. وتقدمت الصناعة. ونمت حتى كانت الهند تصنع ما يكفيها ويفيض عن حاجتها، فتصدره للخارج ويتهافت الناس على تجارة الهند وصناعتها، لاسيما الملابس. فكانت تسبق انجلترا فيها بمراحل، فتوفرت الخيرات، وتكدست في الخزائن، حتى أصبحت الهند مضرب الأمثال في الغنى والثروة وخزائن الذهب والفضة والأحجار الكريمة..

وكان كثير من الناس ينعمون بخيرات الحكم الوطني، ويتمتعون بعطايا الملوك والأمراء - وما أكثرها - سواء من الأراضي أم المال. والجميع منصرفون إلى أداء واجباتهم الدينية. وواجدون من المدارس ودور العلم الكثيرة المنتشرة في كل مكان ما يقدم لهم غذاءهم العلمي والديني، سواء أكانوا من المسلمين أم الهندوس. وكان المسلمون على الخصوص مطمئنين إلى أن الحاكم مسلم، مهما خرج على تعاليم دينه أحيانا فهو في روحه مسلم، فكانت القافلة تسير في طريقها مهما أصاب الرأس الحاكمة من ضعف. ومهما قامت في البلاد من حرب تسلم الحكم من رجل إلى رجل آخر..

وهكذا كانت الهند سعيدة، أو على الأقل مستقرة آمنة راضية بما هي فيه

ومع ماسبق أن ذكرناه فى حديثنا عن المدنية والحضارة فى العهد الإسلامى فى فصل سابق ، فإننى أرانى فى حاجة لأن أضيف إلى كلامى هناك كلاما آخر كتبه المؤرخون ، ولا سيما الغربيون والانجليز منهم على الأخص ، فهم إن لم يكونوا متعصبين لأقوامهم فإنهم لا يظلمونهم . ويحابون الشرق على حسابهم . وهذا الذى أنقله هنا يلقى مزيداً من الضوء على الهند فى ظل الدولة الإسلامية قبل العهد الانجليزى وبعده .

قال المؤرخ الانجليزى « ألفنستن » ، ج٢ :

كانت بنگال تفوق جميع البلاد فى خصبها وحسن موقعها ووفرة إنتاجها ، وكثرة محصولاتها ، فهى بقعة تغنى الإنسان عن جميع الحاجات فى معترك الحياة ، إذ كانت مشبع الجائع ، ومروى الظمآن . ومقضى ذوى الحاجات . يوجد بها من القماش ولاسيما الحرير ما لا يدانيها فيه أى مكان من الأرض[١] .

ويقول المؤرخ « پيتر ولدويل » :

« كان سكان هذه المنطقة (الهند) فى رغد من العيش ، وسعة من الرزق يقضون حياتهم مطمئنين آمنين من الخطر والخوف على النفوس والنفائس ، إذ لم يكن الملوك يتحينون الفرص لحرمان رعاياهم مما يتمتعون به من الحياة الطيبة ، ومارزقوه من الأموال الطائلة ، وما منحوه من العظمة والأبهة[٢] .

ويقول المؤرخ الدكتور « روبرتسن » :

« حاصلات الذهب والفضة فى الهند كانت تجارتها كثيرة الربح فى كل عصر من عصور تاريخها ، فلا نكاد نجد قطرا من الأقطار المسكونة يغنى أهله ويكفيهم مثلها ، فهواؤها الملائم لهم ، وأرضها الخصبة ، وبراعة ساكنيها وكفاءتهم كل ذلك هيأ لهم ما كانوا فى حاجة إليه لبقائهم » .

وقال لورد « كلايف » أحد مديرى الشركة الذى سبق الحديث عنه مرارا

---

(١) ، (٢) نقلا عن مجلة الضياء العربية عدد شعبان ١٣٥٤ ، وكانت تصدر من لكهنو .

«إن بنگال تصلح بذخائرها لأن تجعل أهلها أكثر أهل الأرض سعة ونعيما» وقال فى شهادته أمام اللجنة النيابية التى كانت تحاكمه سنة ١٧٦٦م :

«إن بلدة «مرشد أباد» تداني «لندن» فى بهائها . الخ ماقلناه سابقا .

وقال «مستر دار» :

إن سواح بنگال سيشهدون لها على أثر وفاة «سراج الدولة» (الذى قتله الانجليز بعد انتصارهم عليه فى موقعة بلاسى سنة ١٧٥٧م) بأنها أغنى بلاد العالم ثراء، وأكثرها عمرانا، وأوفرها إنتاجا وزراعة . فالتجار والأغنياء يقضون أعمارهم فى خفض ودعة . والصناع يعيشون عيشة رغدة وحياة طيبة» .

ويقول «لورد ماكولى» :

«إن الفتيات الأوربيات يلبسن ويتزين بثياب ثمينة تنسج فى الهند . ولا يخترن عليها أبدا ثياب بلادهن»[1] .

ويقول المؤرخ الإيرانى[2] : «أحمد أباد ، عاصمة الـگجرات ، ولها فضل كبير على سائر مدن الهند من حيث العمران والمدنية . ولا نبالغ إن قلنا إنه لايوجد مثلها فى جميع أنحاء العالم . وأسواقها واسعة بخلاف المدن الأخرى» .

ويأتى المؤرخ الانجليزى المتعصب ضد المسلمين «فنسنت» فيؤيد هذا القول ويقول : «مما لا ريب فيه أن مدينة (أحمد أباد) كانت تعد من أجمل مدن العالم من بدء عمرانها إلى القرن الثامن عشر ، أى إلى عهد الانجليز .

ويقول جوستاف لوبون[3] : «بلغت «أحمد أباد» ذروة عظمتها فى العصر المغولى ، فبدت أجمل مدينة فى الهندوستان وفى العالم على مانحتمل . فكان عدد سكانها يزيد على المليونين ، وكان لمصانع ديباجها ومخملها وحريرها وطيلسانها وورقها شهرة فى كل مكان» .

ويقول الـكسندر هملتون : «إن صناعة النسيج كانت رائجة فى الهند .

---

(١) كل هذه الأقوال عن المصدر السابق . (٢) أمين الرازى فى كتابه هفت أقليم .
(٣) ص ١٧٥ من كتابه حضارة الهند .

حتى إنه كان يوجد فى مدينة واحدة خمسون ألف عامل (فى عهد أورنگزيب) وكانت تصدر الثياب إلى الخارج وخاصة أوربا . وفى سنة ١٧٩٤ استوردت الهند « مثانى » فقط من الثياب ولم تكن جيدة »[١] ، والمن ثمانون رطلا .

ويقول بروفيسر ولسن : « كانت صناعة الحديد فى إنجلترا حديثة بينما كانت فى الهند أقدم منها بمئات السنين »[٢] .

ويقول سير هنرى مدير الشركة : إن الهند كانت قارة صناعية ، ولكنها الآن جعلت قارة زراعية[٣] .

ويقول « روبرت نايت » : « لما قدمنا إلى گجرات أول مرة سنة ١٨٠٧ م كان فيها الغنى والثروة . والآن نرى الكثير من أهلها لا يجدون ما يسترون به أجسامهم . والإقطاعيون يؤدون إلينا ثلاثة أضعاف ما كانوا يؤدونه لمن قبلنا . ولذا اضطروا أن يستدينوا بالربا من طائفة « البنيا » (وهى طائفة مالية تجارية كاليهود فى جمع المال) . فإذا عجزوا عن سداد ديونهم استولى الدائنون على أملاكهم وقراهم . ولو استمر الحال على ذلك فلا نتصور كيف يكون المستقبل[٤] » .

ويقول سير بارتر فرير[٥] :

« كان مجلس ابن الملك يجتمع فيه كل الناس ، ويتحدثون له بما يريدون ، وبذلك كان الملك يعرف حال الرعية ، ومدى تنفيذ القوانين عليها » .

ويقول مستر « برنير فرانسيس » فى كتابه عن أحوال الهند[٦] :

---

(١) ، (٢) ص ٩٣ من كتاب حكومة خود اختيارى « أى الحكومة المختارة الحرة » بالأوردو لمؤلفه المؤرخ الهندى الكبير سيد طفيل أحمد .

(٣) كتب ذلك سنة ١٨٢٣ (نقلا عن ص ٩٣ من المصدر السابق) .

(٤) المصدر السابق ص ٤٨ .

(٥) من كتاب مسلمانون كاروشن مستقبل (أوردو) ص ٩٥ أى المستقبل المضىء للمسلمين لمؤرخ (سيد طفيل) أيضاً .

(٦) عن كتاب (نقش حياة) لشيخ الإسلام فى الهند المرحوم مولانا حسين أحمد مدنى أى مذكراته عن حياته ص ١٠٧ .

« يحافظ الملك على رعيته كما يحافظ على أسرته وأعزته . ولا يصبر على ظلم يصيب الشعب من الحكام أو الجنود » .

ويقول « مستر توماس منرو » يصور حالة الهند قبل الإنجليز[1] :

« ما كان هناك نظير لفلاحة الهند وصناعتها وعمالها ، فقد كان لهم السبق الأعلى فى كل ذلك ، وكانت توجد المدارس فى كل قرية ، وكل الناس يحبون الضيافة والبر ، وأفضل من هذا أنهم كانوا يكرمون المرأة ويحافظون على عفتها محافظة تامة ، فكانوا بذلك مهذبين حقا ، وإنى أعتقد أن الاتجار بين الهند وأوربا والإنجليز على الخصوص ، سيتيح لهم (للإنجليز) فائدة كبيرة من هذه الناحية » .

هكذا يعترفون بأنهم سيستفيدون من أخلاق أهل الهند .

ويقول « لورد وليم بنتنك » ـ وكان حاكما فى الهند ـ فى تحقيق أجرى سنة ١٨٨٢ م[2] .

« إن أكثر الأشياء كانت فى عهد الحكومات الإسلامية أحسن منها فى عهد السيطرة الإنجليزية ، فالمسلمون سكنوا فى البلاد التى فتحوها ، واختلطوا مع أهلها وتزاوجوا معهم ، والمسلمون أعطوا الحقوق كلها لأهل الهند ، وكان الفاتح والمفتوح سواء فى المزاج والعواطف والمودة . وما كانت بينهم تفرقة بأية حال ، وعلى عكس ذلك كانت سياسة الإنجليز فى الهند ؛ فإنهم لم يشركوا معهم الهنود فى أى أمر من أمور الحكومة ، ومن جانب آخر أنشبوا أظفارهم فى خيرات البلاد ، وقبضوا على كل شىء » .

ويقول المؤرخ الهندى « بانديت سندرلال » فى كتابه « السيطرة الإنجليزية على الهند » :

---

(١) عن المصدر السابق ص ١٠٧ أيضا .

(٢) نقلا عن كتاب (نقش حياة) لمولانا مدنى ص ١٠٨ نقلا عن ميجر باصو فى كتابه حكومة المسيحيين فى الهند ص ٤٤٦ ج ٤

« فى عهد جهانگير وأورنگزيب ومن جاءوا بعدهما كانوا يعزون المسلمين والهندوس على السواء . ولا يفضلون بعضهم على بعض . وكانت جميع المذاهب سواء فى الحقوق وفى الحرية . كما أعطيت المقاطعات الكثيرة لكثير من الهندوس ، فلما جاء الإنجليز وقبضوا على الولايات الهندية أخذوا يهينون الشعب ومذاهبه الدينية ، وجعلوا التفرقة على أساس اللون بين الأوربيين والهنود ، بقصد إذلال الهنود ، مع أن الإنجليز جاءوا تجاراً وضيوفاً ، فوجدوا من الملوك والشعب كل إكرام ، ثم جلسوا فى مجالس الملك ، ثم بالتدريج سيطروا على الهند ، وعزلوا حكام الهند ، وأحلوا بدلهم حكاماً منهم » .

ويكتب السيد طفيل أحمد المؤرخ الهندى فى كتابه « روشن مستقبل » [١]

« كانت الحالة العامة فى زمن المسلمين أن الملوك والأمراء يهتمون بأمر التعليم ، ويوقفون لذلك المقاطعات الكثيرة . وبعد انتهاء نفوذ حكومة المغول فى دهلى كان فى « روهيلكند » ونواحيها « من مملكة أود » خمسة آلاف من العلماء يدرسون فى المدارس المختلفة ، ويدفع لهم مرتباتهم حافظ رحمت خان » .

ويكتب « الكبتن الكسندر هملتون » فى مذكراته عن الرحلة الهندية فيقول : « فى عهد « أورنگزيب » كانت الكليات أربعمائة فى بلدة (تاتا) فى السند » : فإذا كان هذا عدد المدارس الكبيرة فى بلدة بعيدة عن العاصمة فما عدد مدارسها الصغيرة ، وما عدد المدارس الكبيرة فى المدن الهامة ، مثل دلهى وأگرا وغيرهما ؟!

« ويكتب المقريزى فى خططه : أنه كان فى عهد محمد تغلق ألف مدرسة فى دهلى » .

ويكتب « مستر لدلو » [٢] فيقول : « فى العصور الماضية كانت المدارس

---

(١) نقلا عن كتاب « حياة حافظ رحمت خان ص ٢٧٤

(٢) (نقش حياة) لشيخ الإسلام ص ١٨٥ نقلا عن تاريخ باسوجه ص ١٤ وروشن مستقبل ٣٤ ·

الكثيرة فى كل قرية ، وأبناؤها كانوا يتعلمون فيها . ولكن بعد ما سيطرنا عليها أغلقنا المدارس فأصبحوا جهالا ».

وكتبت « إندين ريفورم سوسائتى » سنة ١٨٥٣ م فى رسالة لها تقول [١] :

« كانت المدارس فى كل موضع بالهند . لكنا حرمناهم من التعليم بعد أن ألغينا اللجنات القروية التى كانت تقوم به . وما أقمنا بدلها شيئا » .

ويقول تيلر : « مما لايختلف فيه اثنان أن الهند كانت مركزا علميا كبيرا يتفجر نور العلم من عقولها ، وكانت الأمم الأوروبية القديمة المتحضرة ترتوى من ذلك المنهل العذب . وتتحلى بما فيه من علم وأدب وصناعة)[٢] .

هذه حالة التعليم المزدهرة فى عهد ملوك المسلمين . ولا شك أن ذلك كان راجعا إلى عنايتهم بالشعب وتعليمه، كما كان راجعا إلى كثرة المال الذى ينفقونه وينفقه الشعب فى أمر التعليم . وكانت الهند فى هذه العهود مضرب الأمثال فى الغنى والثروة .

يقول الامبراطور « جهانگير » فى مذكراته :

« كان ملوك الهند يوزنون بالذهب فى الأعياد ، ويوزعون مايساويها من المال على الفقراء والمساكين ، وأول ماوزنت كان وزنى ثلاثة من وعشرة سير ثم زاد وزنى ، وكنت أوزن فى السنة مرتين : مرة فى أول السنة الشمسية ، ومرة فى أول السنة القمرية . وأنفق مايساوى وزنى على الفقراء والمساكين» .

وكان الملوك يخرجون للتنزه مساء كل يوم ، فيأخذ الواحد منهم كيسين من المال ، فيهما نحو آلاف الروبيات ، وفى الطريق يبذلون هذا المال على الفقراء . فكان الشعب ينعم بالخيرات من كل ناحية ، وكان كل دخل الهند لأهلها لايخرج منه شىء ، حتى تكدست الأموال فى الخزائن ، وصارت مضرب

---

(١) نقلا عن (روشن مستقبل ص ١٢٤)

(٢) عن الضياء

الأمثال فى الغنى . وهـذا هو ما أسال لعاب الغرب ، وأغراه بالتجارة معها وسلب خيراتها ، حتى نضبت هـذه الخيرات من أيدى أهلها ، وبدأت تتدفق على الغرب ليعيش عليها أهل أوربا ـ ولا سيما الإنجليز ـ فى رغد وأمن وسعة ، بينما أهلها يموتون جوعا . ويشقون من الفقر والجهل والذل .

يقول جوستاف لوبون[1]: « ظلت الهند أغنى بلاد العالم آلافا من السنين، وازدهرت الفنون فيها على الدوام ، وما فتئت الأمم تبحث منذ أقدم أدوار التاريخ عن أدوات الهند الفنية وحليها ونسائجها ، حتى صار من الممكن أن يقال إنها استنزفت مال الدنيا فى ألوف السنين . أجل ـ إن الثورات وتبديل الأسر المالكة مما كان يؤدى إلى انتقال الثروات بين حين وحين ، بيد أن هـذه الثروات كانت تبقى فى الهند ، فيستعملها مالكوها الجدد كأسلافهم فى تشييد المبانى والقصور ، واقتناء النفائس، وتشجيع الفنون . واليوم صارت بلاد الهند أفقر بلاد العالم بعد أن كانت أغناها ، وبلاد الهند قد هزلت بعد أن خضعت منذ قرن لنظام مؤد إلى امتصاصها ، وقد بينا أن فن البناء شرع يغيب عن الهند منذ رسوخ الانكليز فيها ، وسيكون مصير الفنون الأخرى مثل ذلك بعد زمن قليل » .

ولقد حرصت فيما سبق على أن أدع الأقلام الأوربية ـ وخاصة الانجليزية منها ـ تصور نعيم أهل الهند فى ظل ملوكها المسلمين ، حتى لا يكون هناك مجال للشك فى هذا التصوير ، فمثل هؤلاء لا يكتبون الحق الذى يصور هذه الحالة الطيبة إلا إذا كان واضحا لا يمكن إنكاره ، وكان عندهم شىء من الإنصاف العلمى للتاريخ الذى يكتبونه للأجيال المقبلة ، وهذا الذى نقلته هو قليل من كثير مما كتبوه ، ونقلته كتب التاريخ الهندية، ونشرته فى عهد السيطرة الانجليزية على الهند ، وأعتقد أنه أيضا قليل من كثير مما يجب أن يكتب .

---

(١) ص ٥٠٣ من كتابه حضارة الهند وهذا الـكتاب ألف أثناء الاحتلال الإنجليزى للهند

وكانت الظروف تحول دون كتابته خوفا من بطش السلطة القائمة [١] ، ولعل مؤرخى الهند يقومون بواجبهم إزاء تاريخها حين يكتبونه الآن فى حرية ، فقد سمعت الكثير من هذا الذى يؤمله المثقفون فى مؤرخيهم المعاصرين ، وهم يعيدون كتابة تاريخ الهند فى حرية وطلاقة .

لقد كتب المؤرخون الهنود كثيراً من أعمال الانجليز السيئة فى الهند ، ولكنهم جميعا كانوا يحرصون على نقل أقوال الانجليز التى دونوها فى كتب نشرت وتبودلت فى انجلترا ، حتى لا يكون هناك مجال للسلطة الانجليزية فى الهند ، أن تحول بين هؤلاء وبين نشر ما ينقلون ، ولكنهم مع ذلك لم يسلموا من مطاردتها ..

وها أنذا أنقل لك فيما يأتى بعضا من أقوال هؤلاء الذين يصورون لنا ما فعله الانجليز فى الهند ، مما دفع أهلها دفعا إلى الثورة عليهم للتخلص منهم ، بعد ما أحسوا بقبضتهم تضيق وتشتد على أعناقهم ، فمنذ بدأ الانجليز يسيطرون ويحكمون ظهرت نواياهم ، وأخذوا يفرضون على الشعب قوانينهم الجائرة التى ترمى إلى إفقاره ، وامتصاص دمه وتجهيله وزلزلة عقائده .

ومن العجب حقا أن الشعب الهندى الكبير لم يفطن إلى ما كان يفعله الانجليز بالولايات التى استولوا عليها ، حتى يأخذ حذره ويحاصر الخطر ، ويقضى عليه قبل أن يستفحل ، وتنتقل عدواه إلى بقية أجزاء الهند !!

ولعل التفكك والتناحر اللذين كانا يسودان الولايات الهندية فى ذلك الوقت ، ولا سيما بعد موت « أورنگزيب » هما اللذان ساعدا الانجليز على بلوغ ما يريدون ، وجعلا الهنود لا يحسون ما يقع فى جوارهم ، بل ربما كانوا يساعدون الانجليز أحيانا ضد إخوانهم .

---

(١) لما كتب مولانا محمد ميان ناظم جمعية علماء الهند كتابه التاريخى (ماضى العلماء المجيد) ونقل فيه مثل هذه الأقوال قبضت عليه حكومة الانجليز فى الهند ، وحاولت مصادرة الكتاب ، ولكنه كان قد نقل من المطبعة إلى مكان آخر ، وعاقبت صاحب المطبعة ، وقد سمعت ذلك من المؤلف الفاضل . والآن يعيد كتابة تاريخه من جديد بعد جلاء الانجليز .

كتب « مستر ميكلم لويتس » أحد القضاة الانجليز فى مدراس يقول[١] :

« نحن أذللنا الذوات من أهل الهند ، ومسخنا قانون وراثتهم ، وغيرنا قواعد الأعياد وعقود النكاح ، وما وقرنا شعائر مذاهبهم ، بل كنا نضحك عليهم ؛ ونجعل شعائرهم سخرية ، وأخذنا أوقاف المساجد ، وزورنا فى الدفاتر ، وأخذنا جميع ولاياتهم ، وخربنا جميع البلاد بالسلب والنهب والقتل ، وآذيناهم . وفرضنا عليهم الضرائب الباهظة ، وجعلنا أعزة أهل الهند أذلة يتيهون فى الأرض » .

ويقول « لورد ماكولى » فى رسالته إلى الحاكم العام « لورد هستنجز » بصدد القوانين التى سنوها فى الهند[٢] :

« إننا نجبرهم على القسم حتى فى صغائر الأمور ، ولم يكونوا متعودين ذلك ، وشرفاؤهم يعدون القسم شكا فى شرفهم ، وهذا عار عليهم ، وفضلا عن ذلك فإنهم يعدون الحجاب أهم شىء ، فلو دخل أحد بيتهم ورأى السيدات فإنه عار لا يغسل إلا بالدم . ومع ذلك فإن أهل « بنگال وأوريسة وبهار » كانوا أهدافا لهذه الغلطات ، وقد اجتمع حول الإنجليز جماعة هم أسوأ أهل الهند من الحلافين الكذابين النهابين ، فى الوقت الذى قبضنا فيه على الشرفاء ، وملأنا بهم السجون ، ثم دخلت الجنود الإنجليزية والموظفون بيوتهم ، يفعلون بنسائهم ما يريدون ، مع أننا رأينا الأشراف يقتلون على أبواب بيوتهم دفاعا عن حرماتهم ، وأنهم لم يجزعوا من السلب والنهب الذى وقع من « المراهتا » مثلما جزعوا من فعل الإنجليز وهتكهم للأعراض » .

ويقول « لورد ماكولى نفسه[٣] » : « إن أنهار الثروة فى الهند كانت تنساب إلى انجلترا » .

---

(١) فى كتابه فى السياسة الهندية ص ٧٦ .

(٢) ص ٦٣٠ نقلا عن « روشن مستقبل » ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٣) نقلا عن كتاب حكومة خود اختيارى أى الحكومة المختارة ص ١١٢ لسيد طفيل أيضاً بالأوردية .

ويقول « مستر بروكس إيدسن (١) » :

« إن المال الذى جمعه الملايين من الهنود فى عدة قرون أخذناه نحن إلى انجلترا » .

ويقول « لورد ماكولى أيضا » : « كما كانوا سابقا يخدرون الرجل القوى الشجاع بالأفيون ليذهب عقله وقوته ، فهكذا قام نظام حكمنا على جعل الهنود جبناء » .

وقد لاحظ المؤرخون أن أخلاق الهنود تغيرت وانحطت كثيرا ، نتيجة لعمل الشركة الإنجليزية فى الهند ، فإن أعمال الموظفين والجنود الإنجليز ومن التف حولهم من أراذل الناس كانت ذات أثر سيء فى أخلاق الشعب ، ثم كان الفقر الذى أصاب الكثرة من أهل الهند ذا أثر كذلك فى تحويل أخلاقهم الحسنة إلى أخلاق وعادات سيئة ، فبينما كانوا يحرصون على الصدق والأمانة حتى ليقول « جنرال سيلمان » الذى وكل إليه حفظ الأمن : « إننى رأيت كثيرا من قطاع الطرق يحرصون على الصدق ، ولو كان فيه هلاكهم » ، إذا بهم يتحولون فى أخلاقهم إلى الكذب والسرقة والغش والخديعة ، بحيث أصبح ذلك مظهرا عاما للناس ، وذلك أثر لما ذكرته من قبل من أخلاق الموظفين الإنجليز ومن التف حولهم من أراذل الناس ، ثم من الفقر الذى يضطر الناس إلى ارتكاب ذلك .

وقد كتب أحد القسيسين الإنجليز فى مدراس إلى مديرى الشركة سنة ١٠٨٧ هـ - ١٦٧٦ م يقول : « إنكم تسيئون إلى إلهكم وإلى دينكم بأعمال موظفيكم ولو تعلمون ما يعملون لجرت دموعكم أنهارا » (٢) .

وقد كانت الشركة تحرص على هذا النوع من الموظفين الذين يشكو منهم القسيس ، كى يحققوا لها أهدافها فى السلب والنهب ، دون مراعاة لضمير أو

---

(١) المصدر السابق ص ١١١ ، ١١٢ نقلا عن كتابه قانون التمدن والانحطاط .

(٢) روشن مستقبل ص ٣٤ نقلا عن كتاب أوراق قديمة عن الهند البريطانية لمؤلفه « وهيلر » ص ٧٠ .

شرف أو قانون ، وهذا يظهر لنا بجلاء من رد الشركة على الحكومة الانجليزية حين طلبت منها تعيين أحد الأشخاص « سير ادورد مائيكل بورون » فى إحدى وظائفها بالهند ، فقد كان رداً غريباً يستوقف النظر حقاً ، ويرينا إلى أى حد بلغ استهتار هؤلاء . قالت الشركة فى ردها :

« لا يمكن أن يتحمل المسؤولية فى الشركة رجل « جنتلمان » . وإننا نلتمس من الحكومة أن تترك لنا حرية اختيار الموظفين ، حتى ننتخب من يتناسب مع عملنا وهدفنا وبقية موظفينا ، فنحن نخشى أن يدخل فى الشركة رجل مثل « مستر ادورد » من الشرفاء ، فيفسد علينا عملنا ، وتنتهى تجارتنا إلى الإفلاس »[١]

ويقول (هستنجز) الذى كان حاكماً عاماً للشركة فى أواخر القرن الثامن عشر عدة مرات[٢] : « الانجليزى بعد ما يجيء إلى الهند يصبح إنساناً آخر يرتكب الجرائم ، متحامياً فى كلمة (انجليزى) ولا يخطر بباله أنه يعاقب على جريمته » . ونحن فى مصر نعرف مدى صدق هذا القول .

وقد اعتمد الانجليز على جماعة من التجار ، وجد كل فى الآخر فرصته التى يبتغيها ، وهؤلاء التجار يعرفون فى الهند باسم (البنيا)[٣] ، وهم فى الحرص على المال والمهارة فى ابتزازه بأى طريق كاليهود . فسولوا للانجليز وسهلوا لهم كل سوء ، كما ساعدهم الانجليز على كسب الثروات الطائلة ، حين كانوا يعتمدون عليهم فى تحصيل الأموال ، وهؤلاء كانوا يقرضون أصحاب الإقطاعيات الذين يضطرون أمام الضرائب الباهظة التى كانت تفرضها الشركة عليهم إلى الافتراض بالربا الفاحش منهم ، ثم يعجزون عن سداد الديون ، فيتولى (البنيا)

---

(١) روشن مستقبل ص ٣٥ نقلا عن كتاب برتش انديا ، أى الهند البريطانية لمؤلفه جيمس مل ص ٢٢ (٢) من كتاب علم المعيشة لبرنى ص ٥٨٥ ، (٣) ويعرفون أيضاً باسم « الماروارية » نسبة إلى منطقة « مارواز » من راجبوتانا ، يقول جوستاف لوبون ص ١٣٤ « كلمة » مارواوى فى الهند مترادفة وكلمة اليهودى فى البلاد الأخرى وينقل عن المؤرخ الهندى سيد ملابارى « لا يقوم المارواري بعمل لايدر عليه ربحاً مائة فى المائة . والمروورى مع كونه من أتباع وشنو لايحترم الآلهة ، ويفضل ديناراً حاملا صورة الملكة على أكثر هذه الآلهة حرمة » .

على أملاكهم بمساعدة الانجليز الذين يشاركونهم مكاسبهم . وهكذا فتح الباب واسعا لثراء هؤلاء مع الانجيز على حساب إفقار الأهالى .

وبهذا عمت البلاد التى تحت سيطرة الشركة روح من الانتهازية البغيضة التى لاتبالى بخلق أو شرف ، أبطالها الانجليز وطبقة من التجار ، وضحاياها أهل البلاد المساكين . والخلق الكريم الذى عرفه الهنود قبل مجىء الانجليز . ولقد شكا حاكم (كرنات) فى مدراس إلى مديرى الشركة وقال : « إن عمالكم يجيئون وليس لهم عمل هنا ، ولا أنتم تدفعون لهم المرتبات التى تكفيهم ، ولكنهم حين يرجعون بعد سنوات يرجعون بآلاف الجنيهات ، فمن أين لهم هذه المبالغ الكبيرة ؟ » .

نعم من أين هذه المبالغ الكبيرة للموظفين حين يعودون . حتى لاحظ الشعب الانجليزى وحكومته هذا ، فكانوا يضجون من أفعالهم ويحاكمونهم ويدينونهم ـ الكبير والصغير منهم على حد سواء ـ ولكن من أين للشركة أيضا هذه المبالغ والأرباح الكثيرة ، فقد كانت أرباحها أكثر من ٢٠٠ ٪ أحيانا .

وقد أعطت (كرومويل) حين تولى الحكم بعد شارل الأول سنة ١٠٦٠هـ ـ ١٦٥٠م مبلغ ستين ألف جنيه لمساعدته لها ، ثم أعطت شارل الثانى الذى تولى بعده ، مايصل إلى أربعمائة ألف جنيه ليساندها ويساعدها[1] ومعلوم أنها بدأت التجارة فى الهند بعشرات الآلاف من الجنيهات ، وأصيبت بصدمات عدة مرات ، وكما أنفقت الكثير فى المنافسة مع البرتغال والهولنديين وغيرهما ، فمن أين لها كل ذلك حتى ترشو الملك بأربعمائة ألف جنيه ؟! فقط !!

إن الأمر حقيقة كما قال لورد ماكولى : « إن انهار الثروة فى الهند كانت تنساب إلى انجلترا » .

ولهذا أصبحت الهند كما قال سيرجون لورنس سنة ١٢٦٠هـ ـ ١٨٤٤م

---

(١) كتاب معيشة الهند ص ٦٧ وما بعدها .

« إن الهند أصبحت مفلسة ، حتى إن أكثرهم قد هاموا على وجوههم »[1]

لقد كانوا يفرضون ضرائب باهظة على الشعب ، بلغت أضعاف ما كان يؤخذ منهم فى عهد ملوك المسلمين باعتراف الإنجليز أنفسهم ، وبجوار ذلك حاربوا الصناعة الهندية حتى قضوا عليها تماما ، وتحولت الهند من قطر صناعى زراعى إلى قطر زراعى فقط ، وذلك ليخلو الجو للصناعات الإنجليزية ، وكانوا يجبرون العمال على العمل فى الشركة بأجور زهيدة والسياط مسلطة على ظهورهم ، وبذلك فرضوا الإفلاس على الشعب تماما .

يقول مستر هنتر : « لقد أوجب أعضاء الدولة على الزراع خراجا أكثر مما يستطيعون ، فربما لا يبقى لهم ولأولادهم من الزرع ما يقتاتون به » .

ويقول سير هنرى سنت جورج مدير الشركة [2] : إن الهند كانت قارة صناعية ولكنها الآن جعلت قارة زراعية .

وقال مستر إيندر يوسيم أمام لجنة سيمور سنة ١٢٧٥ هـ - ١٨٤١ م : لما أغلقت الصناعة على أهل الهند تحولوا للزراعة[3] .

وجاء فى تقرير مصلحة التجارة (١٧٦٦ - ١٨١١ م) ما يأتى :

كان الصناع والمحترفون يكرهون على العمل للشركة ، ويؤخذ منهم ميثاق غليظ لا يزيدهم إلا خسارا ، ولا يجدون بجانبهم وليا ولا نصيرا ، يستغيثون ولا مغيث ، ويجبرون على عمل لا تشتهيه نفوسهم ، وكثيرا ما اضطروا إلى دفع غرامات لإعراضهم عن العمل ، وكان الحائكون يعاقبون عقوبة هائلة تكون فيها عبرة لغيرهم ، وكانت تنتهى عادة بتركهم العمل)[4] .

ويقول بولتس ص ٧٣ [5] :

كان يصب على أبدان الصانعين البائسين من المظالم والعقوبات ما لا يتصوره

---

(١) خود اختيارى ص ٤٣

(٢) خود اختيارى ص ٩٣ (٣) المصدر السابق

(٤) ، (٥) نقلا عن مجلة الضياء شعبان ١٣٥٤

العقل ، كأنهم جعلوا عبيدا للشركة ، فإن الغرامة والحبس والتعهد الجبرى والضرب بالعصا ، كل ذلك أبادهم وقطع حبلهم ، وأتى على حرثهم ونسلهم .

ويقول جيمس تيلر[١] :

كان من نتائج كساد سوق التجارة والصناعة أن انحطت (دها كه) ـ عاصمة بنگال ـ عمرانا ، فإن عمرانها الذى كان يضم مائتى ألف قد صار إلى ثمانية وستين ألفا فقط ، وأسرع الفقر إلى ازدياده أكثر مما أسرع العمران إلى انتقاصه .

ويقول كارل ماركس فى كتاب « حكومة الإنجليز فى الهند »[٢] :

لقد محت الحملة الأوربية آثار المنازل ، وما أبقت لها عينا ولا أثرا ، ولم يصبح للصناعة الهندية من أسواقها نصيب ، وأخذت أوربا ترسل خيوطها إلى تلك البلاد بقدر ما يمكنها ، حتى انعدمت الخيوط الأهلية ، ولم يبق فيها شىء ، فتلك البقعة التى كانت مركز القطن مستها الحاجة إلى خيوط خارجية فبدأ ورودها إلى الهند من سنة ١٨١٨ م ، ووصل مقدارها سنة ١٨٣٧م ـ أى بعد تسع عشرة سنة ـ إلى خمسة آلاف ومائتى ضعف ما كان أرسل فى أول الأمر .

وقال ميجر وينجت ، يصور مقدار ما أفادته بريطانيا من الهند[٣] :

« فى القرن التاسع عشر للميلاد أعطت الهند لانجلترا من النقود ماينيف على ألف ألف مليون ، وقد أنفق أبناء وطننا فى سبيل التجارة الهندية والقيام بها مائة وثلاثين مليون روبية ، فالتجارة فى الهند أهم منها فى جميع الممالك الأخرى ، فكثير من شبابنا وفقرائنا يطعمون فيها ويرزقون ، ولا يزيد دولتنا قوة ومنعة فى بقاع الأرض إلا سيطرتها على الهند » .

وهذا الذى يتحدث عنه الميجر فيما أعطته الهند لانجلترا فى القرن التاسع عشر غير ما أخذته منها من قبل ، طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر .

---

(١) ، (٢) ، (٣) نقلا عن مجلة الضياء شعبان ١٣٥٤

فلقد كانت الشركة تتصرف فى الهند تصرف (الحواه) ، لاتراعى أى شرف أو ضمير فى سبيل المال . وهذه حادثة مع حاكم « الكرنات » فى مدراس نذكرها على سبيل المثال [١] : فقد احتاج ملك الكرنات إلى مال ليصرف مرتبات الجنود ويهدىء ثورتهم . وتدخل الانجليز وعرضوا عليه قرضاً ، فقبله نظير إعطائهم بعض المقاطعات على سبيل الرهن . وتسلموا الرهن واستولوا على خراجه . وماطلوا فى الدفع وهو يطالبهم . والجنود تنتظر حتى مضت سنتان ، ثم بدءوا يدفعون له من محصول الأرض التى استولوا عليها ، وبذلك لم يخسروا شيئاً ، ولم يدفعوا فلساً نظير الأرض التى أخذوها . وهكذا كانوا يفعلون فى الهند لكسب الأموال الطائلة بطريق الحيلة والغدر . حتى كانت موقعة « بلاسى » فى البنگال سنة ١٧٥٧ م ، التى انتصروا فيها ، فبدأت تجارتهم تتخذ وجهاً جديداً فيه ملامح القوة والبطش ، ثم أضافوا إلى تجارتهم فى الأموال تجارة أخرى درت عليهم المكاسب الخيالية ، وهى التجارة فى العروش والحكام ، فكانوا كلما ساعدوا حاكماً على أن يصل للحكم تنهال عليهم الثروة من الحاكم الذى ساعدوه ، فوجدوها طريقة أكثر ربحاً ، وأوفر دخلا فتعاملوا بها أيضاً !!

فبعد انتصارهم فى « بلاسى » وإجلاسهم « الأمير جعفر » الخائن الذى تآمر معهم ضد سراج الدولة ، أخذت تنهال الأموال على « قلعة وليم » فى بنگال فدفع مير جعفر ثلاثين مليوناً من الروبيات عطية « لكلايف » ؛ وأعطاه مقاطعة فى جنوب كلكتا . خراجها السنوى مليون روبيه . ودفع لأعضاء مجلس الشركة فى بنگال ستمائة ألف ، وهذا شىء خاص بالأفراد ، وهو غير المصاريف التى تتقاضاها الشركة منه نظير مساعدتها له . والتى لم يستطع دفعها كلها ، فدفع بعضها نقداً وأعطاها (٢٤) مديرية نظير الباقى لها تستولى على دخلها ..

---

(١) روشن مستقبل ص ٣٩ نقلا عن مصنفات برك جـ ٣ ص ٢٠٩ إلى ٢١٠ .

يقول لورد ماكولى [١] :

« كان الذهب والفضة ينهالان على الشركة وعمالها كالمطر ، وصل ثمانية ملايين روبية إلى كلكتا من « مرشد آباد » (فى قلعة وليم التى بنيت حولها كلكتا الحالية) عن طريق البحر ، وكانت المراكب أكثر من مائة ، والأعلام ترفرف عليها ، وفيها المزامير وآلات الطرب ، وكانت « كلكتا » الحالية خرابا لم تبن بعد » .

وهذه المبالغ التى أمكن حصرها غير المبالغ التى استولى عليها الانجليز بالسلب والنهب . وفى هذا يقول «لورد كلايف» نفسه، الذى كان مديرا للشركة فى ذلك الوقت ، وتمت على يده موقعة «پلاسى» : «جمعنا الثروة العظيمة بالنهب من سكان بنگال البالغ عددهم فى ذلك الوقت ثلاثين مليونا [٢]» .

ويقول « بروكس إيدسن » فى كتابه « قانون التمدن والانحطاط » [٣] :

« أرسل الانجليز الخزائن الممتلئة بالمال إلى لندن ، كما أرسل الرومان خزائن اليونان إلى « روما » ، ولقد كانت الخزائن التى أرسلت من الهند ثمينة لايستطيع الإنسان تقديرها » ، ويمكن أن أقول إنها كانت أكثر من الأموال الموجودة فى أوربا كلها » .

ويقول أيضا : « بعد حرب «پلاسى» ووصول أنهار الثروة إلى « لندن » ظهر أثرها حالا فى رقى البلاد ، وإنشاء الصناعات المختلفة ، ونشاط الأسواق التى كانت من قبل جامدة خامدة » .

ومثل هذا يقول « سير وليم ديجبي » وكل الذين أرخوا لانجلترا والهند .

---

(١) في كتاب تاريخ كلايف ص ٥١٧ نقلا عن (نقش حياة) لشيخ الإسلام ص ٢١٥ .

(٢) نقش حياة ص ٢١٥ نقلا عن جريدة « تنظيم أمرتسر » الصادرة فى ٢٨ أغسطس ١٩٢٨ .

(٣) المصدر السابق ص ٢١٦ وحكومة خود اختيارى ص ٧٩ نقلا عن كتاب «unhappy india» ص ٣٢٣ .

ويذكر كتاب « روشن مستقبل » ص٤٧ المبالغ التى استولى عليها الإنجليز من حكام بنكال نظير مساعدتهم فى حكم البلاد فيقول :

فى سنة ١٧٥٧	دفع الأمير جعفر	٣٠,٦١٠,٧٥٠	روبية
فى سنة ١٧٦٠	« الأمير قاسم الذى جاء بعده	٢,٦٢٧,٦٩٠	«
فى سنة ١٧٦٣	« الأمير جعفر ثانيا	١٤,١٨٤,٩٩٠	«
فى سنة ١٧٦٥	« الأمير نجم الدولة	١,٩٧٦,٩٠٠	«

وهكذا كان سلوك الإنجليز فى الهند واستيلاؤهم على المال بشتى الطرق. فقد كانوا كلما استولوا على ولاية وضعوا أيديهم على أموالها وخزائنها ومجوهراتها ، ونقلوها إلى لندن ، كما حدث فى ميسور بعد قتل تيبو سلطان ؛ وفى كرناتك وأود ، وممالك المراهتا والبنجاب والسند وغيرها . وكان حكام الشركة يمثلون مع الملوك فى الهند ما نعرفه عن « البلطجية » فى مصر . « فقد طلب « هستنجز » من « راجا بنارس » ـ وكان من أتباعه ـ مالا ورجالا ، فلما شكا الراجا من كثرة ما يطلب منه عزله ، وولى بدله آخر استجاب له ، وفى « مملكة أود » لم يتورع عن محاصرة أم الملك وجدته فى قصرهما بجيوشه لينهب منهما مليونا من الجنيهات ، لا لشىء إلا لأنه يريد مالا ، وأنهما تملكان هذا المال[1] » .

ويذكر المؤرخون بجانب ذلك حيلة أخرى من حيلهم . وصلت إليها الشركة بواسطة أحد الأطباء الإنجليز ، الذى استدعاه « فروخ سير » ملك دهلى لعلاج بنته ، بعد ما استعصى علاجها ، وكان يدعى الدكتور « هملتن » . ولما نجح فى علاجها فرح الملك ، وأراد أن ينعم على الدكتور بمال كثير جريا على عادة الملوك ، ولكن الدكتور تصرف حسب الخطة الموضوعة التى تطلبها الشركة ، فلم يقبل المال ، والتمس شيئا آخر ، ربما بدا بسيطا فى نظر الملك ومستشاريه فى ذلك الوقت . فلم يفطنوا إلى ما يترتب عليه من نتائج

(١) من تاريخ أوربا الحديثة ص ٣٢٣ .

وخيمة ، وهو إعفاء تجارة الشركة من الضرائب . فأجابه الملك إلى ما طلب ، وكان صدور القرار بذلك بمثابة أمر صدر بإعدام التجار الهنود وإفلاسهم ، في الوقت الذي فتحت فيه أبواب الثروة والتحكم والسيطرة للانجليز .

فقد بدأ الإنجليز يتاجرون أفراداً وجماعات في كل شيء صغير وكبير ، في القصب والأرز والبان والسمن ، وكل ما يحتاج إليه أهل الهند . وأخذوا ينزلون الأسواق عارضين تجارتهم بثمن أقل مما في أيدي التجار الهنود ، فلم يستطع هؤلاء منافستهم ، فحل بهم الخراب والإفلاس : وسيطر التجار الإنجليز على الأسواق والمكاسب ، وأخذ بعض التجار الهنود يحتمون بهم ، ويشترون منهم هذه الحماية بمبالغ ضخمة يدفعونها لهم ، على أن يقيدوا تجارتهم ، باسمهم ليعفوا من الضرائب مثلهم . وبدا شبح الخراب يخيم على البلاد ، ويحل ضيفاً ثقيلا عليها فوق ما هي فيه . واضطر « الأمير قاسم » حاكم بنگال وقتئذ أن يشكو إلى الشركة ، ويقول لها : « في كل قرية ، وفي كل مدينة يذهب الإنجليز ، ويتاجرون في كل شيء حتى السمك والتمباك ، ولم يتركوا لأهل البلاد شيئاً ، وهم يأخذون الأشياء من الأهالي جبراً بأرخص الأثمان ، ثم يبيعونها للناس بأسعار غالية ، وبمثل هذا وبإعفائهم من الضرائب تحل الخسارة والخراب بالبلاد »(١) .

ولم تعر الشركة هذه الشكوى شيئاً من الاهتمام ؛ لأن الطريقة التي يشكو منها الأمير هي الخطة المرسومة لها للربح ، مما اضطر معه الأمير قاسم أن يعفي الأهالي من الضريبة على تجارتهم كذلك ، وكان هذا تحدياً منه للشركة ، وقضاء على أرباحها التي أحست لذتها ، وإهداراً لمعنى الامتياز الذي حصلت عليه من الملك « فروخ سير » ، ولم تنظر طبعاً إلى أن هذا حاكم من حقه أن يعفي أبناء البلاد ، كما أعفاهم الملك الآخر وهم أجانب . طبعاً لم تنظر الشركة إلى هذا ، وإنما نظرت إلى مكاسبها وأرباحها فقط . ولذا غضبت على الأمير ، وأساءت

---

(١) من تاريخ دت ص ٢٣

إليه . حتى اضطر لترك الحكم والفرار لشمال الهند . والاتفاق مع « شجاع الدولة » ملك « أود » . و « وشاه عالم » ملك « دهلى » للوقوف فى وجه النفوذ الإنجليزى . فكانت موقعة « بكسر » سنة ١٧٦٤ م التى انهزموا فيها أمام تنظيم الإنجليز وأسلحتهم الحديثة ، ثم عقدوا صلحا مع « شاه عالم » ، وبمقتضاه أشرفوا على تحصيل الأموال . والتصرف فيها . وهو مايسمى بالأشراف على « الديوانى » ، فكانوا يحصلون أموالا كثيرة ، وينفقون قليلا ، ويأخذون لأنفسهم الكثير . معتمدين على نفوذهم ، وعلى المعاهدة التى أعطتهم حق الإشراف ، بعد أن لم يكن لهم أى حق من قبل . وهكذا أخذوا يزحفون ، وأخذ البلاء والخراب يزحفان معهم على شعب الهند أينما حلوا ، بينما أخذت أنهار الأموال تتدفق على « لندن » كما قال لورد ماكولى .

لقد كانت البنكال أول مقاطعة هندية تلقت ضربات الإنجليز وأفواههم مفتحة ، وأيديهم ممتدة للسلب والنهب ، كما كان فى الجنوب ، ولذلك ظهر فيهم أولا آثار هذا البلاء الذى لازم ظل الإنجليز أينما ساروا ، فتبدل رخاؤهما فقرا ، وأمنهما خوفا ورعبا ، وسعادتهما شقاء ونصبا ، حتى ليقول لورد كلايف نفسه[١] :

« كفى أن أقول فى مظالم بنكال بأنى ماسمعت وما شاهدت مثل هذه المظالم والأعمال السيئة والفساد وأخذ الرشوة » .

فتحولت « مرشد أباد » التى كانت تضاهى لندن ـ كما قال أحد الإنجليز ـ إلى أطلال وخرائب ، بعد أن فر منها أكثر سكانها ، وأصبحت بنگال التى كانت جنة الهند ـ كما قالوا ـ موطن الشقاء والبؤس والخراب ، وكذلك كان الحال فى الجنوب .

يقول فرنسيس براون[٢] :

---

(١) فى كتاب تاريخ كلايف لمصنفه « ميلكم » نقلا عن خود اختيارى ص ١٠

(٢) عن مجلة الضياء

« إنى أعلن أن (مليبار) درست معالمها ، وانحط شأنها ، وباد كل من فيها من سكانها ، بما صبت عليهم بريطانيا من أنواع المظالم والعقوبات ، وبما ضربته عليها وعلى أهلها من الذلة والمسكنة » .

وهكذا وبمثل هذا زحف الخراب على الهند كلها ، حتى ليقول سر فريدرك ترويس فى سنة ١٨٢٠ م يصور حالتها[١] :

« إن منظر الهند يكدر قلب كل ناظر إليها ، ويمكن الألم فى دماغه ، وكذلك أهلها أكثر منها خسرانا . كأنه ما بقيت فيهم نسمة من الحياة . ويخيل للناظر إليهم أنهم خامدون . أبدانهم ملفوفة فى ثياب رثة وسخة بالية . أثر الفقر ظاهر على وجوههم ، كل همهم أن يحصلوا على كسرة من الخبز يسدون بها رمقهم ، ويقاسون ما يقاسون من نصب وعرق من أجلها فقط ، لهم أجسام هزيلة ووجوه مصفرة » .

وفى كتاب بنگال فى عهد الشركة الهندية الشرقية (سنة ١٧٨١ م) جاء ما يأتى [٢] :

« قد هلكت الممالك بعد أن شد على أهلها الخناق بكل ما يمكن من الأساليب ، واجتيح نحو نصف أملاك الأعيان الأباة فى زمن أقل من ستة أعوام ، فدمرت أخصب الأراضى ، وغرب خمسة ملايين من الرجال الجادين الأبرياء وأودى بهم » .

ويقول « ولسن » [٣] : « إن جلب المال من الهند لانجلترا جعل الهند جسما بلا روح ، فإن استنزاف الدم من رجل مريض بفقر الدم يقضى عليه » .

وهكذا تجمع أقوال الانكليز أنفسهم على شناعة ما فعلوا بالهند وما آل إليه أمرها على أيديهم ، وهم لا يزالون يزحفون فى عهد الشركة .

ويلاحظ أنهم بعد أن تمكنوا من الهند ، وفرضوا سيطرتهم عليها .

---

(١) ، (٢) مجلة الضياء (٣) كتاب unhappy india ص ١١٢

وأخذوا فى تنظيم شؤونها بقوانين يصدرونها ، كان هدفهم تنظيم سيطرتهم ونهبهم ، وإفقار أهل الهند وإذلالهم ، وتحويل البلاد إلى بقرة حلوب لأهل بريطانيا لا لأهل الهند ، فالهنود ـ فى نظرهم ـ أراذل متأخرون لا يصلحون لعمل إلا أن يكون تافها وحقيراً ، وهم لا يعاشرون ، ولا يختلط بهم .

يقول مستر توماس منرو فى تقريره عن القوانين التى وضعوها للهند :

« لاحظ ولا نصيب لأهل الهند ، ولا دخل لهم فى الحكومة ، ولا يوجد أحد منهم فى قيادة الجيش ، ولا فى الضباط ، ولكن فى بعض الأعمال الحقيرة ، وفى كل مكان يحتقرون ، ظنا أنهم من أراذل الأمم ، وجميع الأمور المهمة فى الجيش وفى الدواوين فى يد الانجليز ، ولذلك تذهب جميع الأموال من الهند إلى أوربا » [1] .

ويكتب مستر كنزى فى مذكراته :

« هذا العمل محير جدا : إن شرفاء الانجليز ورحماءهم يحتقرون أهل الهند ، ويعملون على إذلالهم وتحقيرهم ، وفى الحقيقة أنهم لا يستحقون ذلك لأنهم شرفاء » [2] .

ويكتب مستر «لدلو» فى كتابه «برتش إنديا» أى الهند البريطانية :

« إن الانجليز لو فتحوا جميع الهند ، وقبضوا عليها فتكون النتيجة أن يصير أهلها أذل الناس » .

وهذا ما حدث فعلا بعد أن تسلط الانجليز عليها كلها ، فصاروا أذل الناس وأفقر الناس ، وأكثرهم جهلا حتى صار يضرب بهم المثل فى هذه الأمور كلها بين الأمم ، وإذا تواطأ الفقر والجهل على أمة أورثاها الذل، وكان الموت أولى بها من الحياة .

ولقد وجدت أثناء مطالعاتى إحصائية طريفة ، أو قل إنها مفجعة

---

(١) من تاريخ « دت » ص ١٦٦ جـ ٢ .

(٢) خود اختيارى ص ١٨ .

لو أردنا الحقيقة . نقلها مولانا مدنى فى كتابه «نقش حياة»[1] تبين ما حدث من المجاعات والقحط فى كل من انجلترا والهند فى الألف الثانى المسيحى ، أردت أن أضعها هنا لنتبين منها مقدار ما جنته انجلترا من الهند ، ومقدار ما جنت عليها :ـ

من سنة	إلى سنة	كان فى انجلترا	كان فى الهند	حالة القحط
١٠٠٠م	١١٠٠م	٢٠ قحطا	٢	عام
١١٠٠م	١٢٠٠م	١٥ »	١	محلى فى نواحى دهلى
١٢٠٠م	١٣٠٠م	١٩ »	٣	محلى
١٣٠٠م	١٤٠٠م	١٦ »	٣	»
١٤٠٠م	١٥٠٠م	٠٩ »	٢	»
١٥٠٠م	١٦٠٠م	١٥ »	٣	»
١٦٠٠م	١٧٠٠م	٠٦	٣	غير معين

ومعنى هذا أنه فى سبعة قرون وقع القحط فى انجلترا مائة مرة ـ مع ملاحظة انخفاض نسبته فى القرن الذى نزلوا فيه إلى الهند ـ بينما وقع فى الهند سبعة عشر فقط ، وكان ذلك قبل سيطرة الانجليز على الهند واستغلالها خيراتها، لكن هذه الحالة تبدلت تماما بعد ما حل الانجليز بالهند وتمكنوا منها ، فمن سنة ١٧٠٠ إلى سنة ١٨٠٠ م وقع القحط فى انجلترا سبع مرات أى فى مدة قرن ، ولكن فى الهند من سنة ١٧٠٠ — ١٧٤٥ م وقع أربع مرات ، ومن سنة ١٧٦٩ إلى سنة ١٨٠٠ م وقع القحط سبع مرات ، فالمجموع إحدى عشرة مرة، ومن سنة ١٨٠١ م إلى ١٩٠٠م وقع قحط واحد فى انجلترا ، أما فى الهند فوقع إحدى وثلاثين مرة .. هكذا :ـ

(١) ص ٢٤٨ عن جريدة « أنيس لود هيانه » ٢٧ يونيو سنة ١٩٢٦ .

من سنة ١٨٠٠ إلى سنة ١٨٢٥م خمس مرات مات فيها ٥ مليون هندى أى فى ربع قرن

من سنة ١٨٢٦ إلى سنة ١٨٥٠م اثنان مات فيهما مليون فقط فى ربع قرن

من سنة ١٨٥١ إلى سنة ١٨٧٥م ٦ مرات مات فيها ٦ مليون أو عشرة عند بعض المؤرخين فى ربع قرن أيضا .

من سنة ١٨٧٦ إلى سنة ١٩٠٠م ١٨ مرة مات فيها ٢٦ مليونا .

وهذا الإحصاء يبين للقارىء فى جلاء ووضوح كيف أخذت حالة الهند فى التدهور . حتى صار أهلها فرائس الجوع والمرض ، ثم الموت فى عهد الانجليز الذين أخذت بلادهم ترتقى وتسعد على حساب هذا الشعب المسكين ، وغيره طبعا من الشعوب المماثلة له .

بلاد عاشت ولاتزال تعيش على السلب والنهب . وحرمان أهل البلاد الشرعيين من الضروريات لتنعم هى بلذة الحياة !!

ومن العجب أن يحاول بعض المؤرخين الانجليز أن يعللوا ماحدث فى الهند من القحط بأسباب طبيعية محلية : من كثرة الأمطار والحرارة وغير ذلك . كأن هذا لم يكن يحدث من قبل . وكأن الطبيعة تغيرت سنتها عند ماحلوا هم فى الهند .. ربما !!

وقد قلت فيما سبق : إن الانجليز لما بدءوا فى تنظيم سيطرتهم على الهند منذ أوائل القرن التاسع عشر كان أمامهم أهداف ، هى التى عملوا لها من قبل ذلك ، ولكنهم أخذوا يضعونها فى قوالب براقة ، ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب ، وكان من أعمالهم ثم من خططهم المنظمة ، أن يقضوا على التعليم الوطنى الحر الذى كان يقوم به الملوك السابقون ، والأغنياء من الشعب . وكان تعليما غير مدخول ، يهدف إلى تربية النفس وتقويمها ، وإعدادها لخدمة دينها وبلادها ، وطبعا وجد الانجليز فى هذا التعليم خطراً عليهم ، فقضوا عليه ، ثم لم يقيموا بدله شيئا يذكر ، فقد كانت خطتهم أن يعصبوا عيون الشعب حتى لايرى مهازلهم ،

ويحس مفاسدهم ، ويقوم فى وجههم كما حدث فى أمريكا . وكانوا يعلمون ذلك تماما ، ويعملون بما قاله أحدهم وهو مستر سميدى : « إنه إذا غلب شعب أوقطر على أمره ، فلا بد أن القوة الفاتحة تفسد على المفتوحين تعليمهم . وتأخذ زمامهم بأيديها طوعا أوكرها ، فما لاريب فيه أن العلم لايمكن أن يرضى بالعبودية طويلا » .

ولهذا وجدنا أحد أعضاء المجلس التعليمى الانكليزى فى الهند يقول سنة ١٧٩٣م: « مافقدنا أمريكا إلا لسفاهتنا ، وإذننا فى قيام المدارس والكليات هنالك ، ويجب ألا نعيد هذه السفاهة فى الهند » .

هكذا أراد الانجليز . وهكذا فعلوا ، حتى إذا ظهر خطؤهم وتذمر الشعب منهم ، اضطروا لأن يقوموا بشىء من التعليم ذرا للرماد فى العيون ، ولكن بطريقة تقضى على خلق المتعلمين ، وعلى الروح الدينية والوطنية فيهم ، وعلى قدر ماينتفعون بهم فى الوظائف ، وكانت خطتهم كما قال أحدهم : « ينبغى أن نعلم الهنود ونربيهم بقدر ماينفعنا فى تجارتنا وحكومتنا » ، وعلى أساس أفكارهم الانجليزية وأذواقهم ومشاربهم كما قال لورد ماكولى : « علينا أن نعد من أهل الهند جماعة تشبه الهنود فى اللون والدم . وتماثل الانجليز فى الفكرة العقلية » .

وهذه هى خططهم العامة فى مستعمراتهم حتى تبقى فى قبضتهم ، كما كانوا فى مصر .

الإنجليز والدين :

وبجانب مافعله الإنجليز فى إذلال الشعب وإفقاره وتجهيله ـ كما رأيت ـ أضافوا عملا آخر كان له أثر خطير ، بل ربما كان أخطر مما تقدم كله فى إثارة النفوس ، وإهاجة حقدها وغضبها .

فلقد حرصوا على أن يستقدموا معهم طوائف المبشرين ليقوموا بواجبهم المعروف فى خدمة الاستعمار ، والمبشرون دائما كانوا طلائع الاستعمار وعمده ، وقذائفه اللينة الملمس لهدم معنويات الأمم ، وتمهيد الطريق أمام المستعمرين ،

فلا عجب إن اعتمد عليهم الإنجليز فى العمل بالهند ، وساعدوهم بشتى الوسائل على أداء رسالتهم الخيرية !!!

وحين نظر الشعب بمختلف أديانه إلى يد المستعمر الدخيل الذى أفقرهم وأذلهم تمتد إلى أقدس شىء لديه ، وهو عقيدته ، مستعملا فى ذلك كل إمكانياته، ازداد غضبه وحنقه ، وربط بين أساليبه فى الإفقار والتجويع ، وأساليبه فى زعزعة العقائد ، وفهم أن ذلك يجرى حسب خطة موضوعة ، لتبديل عقيدة الشعب إلى المسيحية البروتستانتية التى تحميها بريطانيا ، والإنسان قد يصبر على الفقر ، وقد يتحمل الضغط والعسف ، ولكنه يتحول إلى أسد هائج إذا خدش فى دينه وعقيدته ، ومن هنا ازدادت ثورة العلماء ، واشتد حنقهم على الإنجليز ، ووجدوا الدلائل القوية لشحن النفوس بالثورة ضد الدخلاء ، واستجاب لهم الشعب فى سهولة ويسر .

ونحن نضع أمامك ماقرره « سير سيد أحمد خان » أحد رجال الهند البارزين فى كتابه « أسباب ثورة الهند » ، وهو رجل معروف بميوله الإنجليزية ، فلا يمكن أن يكون متحاملا عليهم ، يقول(١) :

« لقد تيقن أهل الهند أن الإنجليز سيحولونهم إلى النصرانية ، متخذين من التجويع والإذلال وسيلتهم إلى ذلك ، كما فعلوا مع اليتامى الذين فقدوا آباءهم فى مجاعة سنة ١٨٣٧ م ، وكان القسيسون المبشرون يتقاضون مرتباتهم من الشركة ، وكبار الموظفين من الإنجليز يستغلون مراكزهم فى تحسين المسيحية لصغار موظفيهم الواقعين تحت سيطرتهم ، كما كانوا يجمعونهم فى بيوتهم بالقسس يحاولون التأثير عليهم وجذبهم للدين المسيحى ، ويأتون بالشبهات والشكوك ليزلزلوا عقائدهم ، وبلغت هذه الدعاية أقصى حد ، حتى لم يعد الموظفون الهنود يأمنون على دينهم .

---

(١) نقلا عن كتاب « شندرماضى » أى « ماضى علماء الهند المجيد » لمولانا محمد ميان ص ١٧ — ١٨ ج ٤ ملخصا من كتاب أسباب ثورة الهند ص ١٧ — ٢٣

وكان المبشرون يوزعون الكتب مجاناً ، وهي محشوة بالطعن على أديان أهل الهند وزعمائهم الدينيين ، كما كانوا يذهبون إلى اجتماعات المسلمين والهندوس في حماية البوليس ، ويأخذون في تحقير عقائدهم دون مبالاة . والناس يسمعون كل هذا وتثور نفوسهم، ولكنهم يخشون سطوة البوليس .

ونشط المبشرون كذلك في فتح المدارس التبشيرية بعون الشركة ، يعلمون فيها الدين المسيحي ، حتى اعتقد الناس أن الغرض من فتح هذه المدارس أن تكون شبكة لاصطياد أولادهم وتنصيرهم ، وكانوا يمتحنون الطلاب في الكتب الدينية المسيحية ، ويسألون الصغار : من ربكم ؟ ومن ينجيكم ويفديكم ؟ ولا ينجح إلا الطالب الذي يجيب حسب عقائدهم ، ثم يعطونه الجوائز ! ! ثم فتحوا - بجوار ذلك - مدارس للبنات ، وزادوا على طريقة تعليمهم توجيهاتهم للطالبات برفع الحجاب ، وهو شيء حساس بالنسبة للمسلمين في الهند ، وربما الهندوس أيضا ، فاعتقد الناس أن الإنجليز يجتهدون من كل سبيل للقضاء على دينهم وتقاليدهم ، حتى إنهم سموا الهنود الذين اشتركوا مع الإنجليز في هذا الأمر « بالقسس السود » . وقد كانت الوظائف الصغيرة التي تركت للهنود لا يمكن الحصول عليها إلا بشهادة من هؤلاء القسس .

وفوق ذلك تلقى موظفو الحكومة خطابات - ولعلها منشورات - من أحد القسس الكبار، يلح فيها عليهم باعتناق الدين المسيحي . ولهذا كله فهم الشعب أنها خطة موضوعة لتنصيره . وأن « اللورد كيننگ » جاد في ذلك، وأنه أخذ على نفسه عهدا أمام الحكومة أنه في مدى الثلاث السنوات الباقية له سيتم هذه المهمة ! !

وكان هذا مما آثار حنق ملك دهلي وأثار ثائرته على الإنجليز (١) .

وكان عمل الإنجليز في الهند نحو زعزعة العقائد وتنصير الشعب قائمة على خطة موضوعة حقا ، ربما لفوها في ستائر مختلفة ، ولكنها لم تخف عن

---

(١) المصدر السابق لسير سيد أحمد ص ٣٢٢

الشعب ، ومع ذلك لم يستطع الانجليز أن يستمروا فى نفاقهم طويلا ، فقد وقف أحد أعضاء البرلمان سنة ١٢٧٤هـ - ١٨٥٧م يقول فى صراحة :

« الحمد لله الذى أرانا هذا اليوم الذى أصبحت فيه الهند تحت سيطرة انجلترا ، وأمكن أن يرفرف علم المسيح عليها كلها ، وعلينا أن نجمع قوانا ونبذل جهدنا فى تنصير شعب الهند ، ولا نترك الكسل يستولى علينا »(١).

ذلك كلام صريح أمكن لهم أن يقولوه بعد أن أصبحت الهند فى قبضتهم ، وتمكنوا من هزيمة الثوار ، وإن كانت خطتهم قد سارت عليه منذ وطئت أقدامهم أرض الهند ، وبدءوا يتدخلون فى شئونها ..

فهذا لورد ماكولى يكتب إلى أبيه رسالة من الهند يقول فيها : عن التعليم الذى أقاموه فى الهند : « لقد أثر هذا التعليم فى الهند كثيرا ، حتى لا يوجد واحد منهم يعرف الانجليزية وبقى على صداقته لدينه ، وإنى متيقن بأننا إن صابرنا على خطتنا التعليمية التى وضعتها فسوف لا يبقى هندوسى على دينه فى مدة ثلاثين سنة ، وكان لورد ماكولى معنيا بوضع أنظمة التعليم الجديدة فى الهند .

وبالطبع لم يكن هجومهم على الدين الهندوسى فقط ، بل كان هجومهم أقوى مايكون على الإسلام ، باعتباره الدين السماوى الذى كانت تسير عليه الهند فى نظمها باعتبار حكومتها الإسلامية ، ولكنه ربما قال ذلك لاعتقاده أنه من السهل التأثير على الهندوس .

وقال العالم الانجليزى « مونيه وليامز » عن أثر التربية الانكليزية فى الهنود(٢) :

« إنهم يهملون لغتهم ، ويزدرون آدابهم وفلسفتهم ودينهم ، من غير أن يكسبوا شيئا من صفات الأوربيين »(٢) .

ثم قال جوستاف لوبون : « يضاف إلى ذلك الارتباك الهائل لدى الهندى المثقف ، وتجريد التربية الأوربية له من أى خلق ، فما كان يستند إليه فى سيره

---

(١) تاريخ الماضى المضىء لعلماء الهند ص ٢٦ نقلا عن خود اختيارى ٩٦ .

(٢) نقلا عن حضارة الهند ص ٦٩٣ .

من الأسس الدينية المتينة قد زال إلى غير رجعة ، فهو قد خسر إيمان آبائه من غير أن يستبدل به مبادىء سير الأوربى ، ثم قال : « ذلك هو أثر التربية الأوربية فى شعب غير ناضج !! ويمكن تقدير ذلك بأحسن مما تقدم عند المقايسة بين أولئك المثقفين . وبين من تخرج فى المدارس المحلية الخالصة . فهؤلاء يظهرون متزنين مهذبين محترمين ، جديرين بأن يتبوءوا مقاعد فى أرقى مجالس أوربا العلمية على خلاف أولئك المثقفين » .

ويقول : « قد أدى تطبيق التربية الأوربية على الهندوسى إلى تقويض ثقافته السابقة التى نمت له مع الزمن ، وإلى إحداث مالم يعرفه من الاحتياجات من غير أن تمن عليه بوسائل قضائها »(١) .

وأحب أن أضع أمامك أيضا تصوير هذه الحالة بقلم زعيم من زعماء الثورة وهو « مولانا فضل حق خير أبادى » الذى خاض غمارها فى دهلى ، وتزعم العلماء ، وأصدر الفتاوى ، وخطب وحض على الثورة فى كل مكان ، ثم لما انتصر الانجليز اعتقلوه ، ونفوه إلى « جزائر أندمان » فى خليج البنگال حتى توفى هناك ، ولكنه ترك تصويرا قيما صادقا باللغة العربية نثرا ونظما للثورة وأدوارها ، ثم ما أصابه فى منفاه ، وقد امتاز أسلوبه بالسجع والتركيز ، وهذا هو ماقاله عن موقف الانجليز من أديان الهند ، حين أخذ فى سرد أسباب الثورة « هذه الواقعة ، الفازعة الفاقرة ، التى جعلت الأمراء فقراء صعاليك ، والملوك مماليك » :

« من قصتها : أن النصارى البراطنة ، شحنوا صدورهم بالشحناء الباطنة ، بعد ماتسلطوا على ممالك الهند وأقطارها ، وقراها وأمصارها ، وأذلوا أعزة رؤسائها بالاستقصاء ، ولم يذروا فيها من يبدى لهم قرنه بالاستعصاء ، هموا بأن ينصّروا كلا من قطانها وسكانها تنصيرا ، ظنا بأن هؤلاء الضعاف لايجدون وليا ولا نصيرا ، ولايستطيعون سوى الانقياد محيصا ومصيرا ، ليصير الناس

---

(١) حضارة الهند ص٦٩٩ .

كلهم ، كمثلهم ، من ملاحدة ، متوافقين على ملة واحدة ؛ لتخيلهم أن اختلاف الثلل[١] والملل ، من أقوى العلل ، لتطرق الخلل ، فى بقاء التسلط والعمل . فجدوا كل جد ، وبذلوا كل جهد ، لرفع هذا الاختلاف ، بابتداع الحيل ، فبنوا لتعلم الأطفال والأغفال ، وتلقينهم كتب لسانهم ودينهم فى القرى والبلاد مدارس ، وصيروا معالم العلوم والمعارف والمدارس التى بنيت فى العهود السوالف دوارس »[٢] .

ويقول فى هذا من قصيدته الدالية التى نظمها فى منفاه عن ملكة بريطانيا :

همت بتنصيرهم قبلا وهم شيع   من مسلمين ومن عباد أبداد[٣]

أى عن عباد أصنام . يريد الهندوس .

وقد كان موقف الإنجليز نحو أديان الهند هذا الموقف من الأسباب القوية فى توحيد الشعور بين المسلمين والهندوس ، ضد عدوهم المشترك ، فتناسى كل منهم ما كان يتمسك به من عدم الاختلاط ، ولا سيما الهندوس الذين يعتقدون أن لمسهم للمسلمين ينجسهم ، ويوجب عليهم أن يتطهروا من من ذلك بالاغتسال ، تناسوا كل ذلك فى سبيل تخلص أعناقهم من الغل الذى وضعه الإنجليز فى أعناقهم ، فخاضوا الثورة جنبا لجنب ، وإن كان حظ المسلمين من ذلك قد فاق حظ الهندوس ، وكان ذلك أمرا طبيعيا ؛ لأن الكوارث التى نزلت بالمسلمين لم ينزل مثلها على زملائهم الهندوس .

تعنت الإنجليز مع المسلمين

حكم المسلمون هذه البلاد منذ فتحها محمود الغزنوى فى أول القرن الحادى عشر ، وظلوا يتداولون حكمها دولة بعد دولة ، حتى جاء الإنجليز إليها

---

(١) جمع ثلة وهى الفرقة والجماعة .

(٢) ملخصا من كتاب « الثورة الهندية » ص ٥٥ وما بعدها .

(٣) المصدر السابق ص ٤٦٢ .

تجارا ، فأكرموهم وأتاحوا لهم فرصة المتاجرة ، ومنحوهم كثيرا من الامتيازات ، فكانت الباب الذى دخلوا منه إلى السيطرة شيئا فشيئا ، حتى تم لهم القضاء نهائيا على الحكم الإسلامى فى سنة ١٢٧٤ هـ - ١٨٥٧ م ، ومعنى ذلك أن هذا الحكم ظل فى الهند ثمانية قرون ونصف ، كان المسلمون فيها هم السادة والحكام ، وكانت الشريعة الإسلامية هى الأساس العام لحكم البلاد .

وهذه مدة ليست قصيرة فى نظر التاريخ ، وهى كفيلة بتثبيت دعائم المجد للمسلمين ، فقد ظلوا فى هذه القرون يجمعون خيوط السيطرة فى أيديهم ، فمنهم الملوك والأمراء ، ومنهم الحاشية والقواد والضباط إلا قليلا من الهندوس الذين كانوا يحوزون ثقة الملوك ، ومنهم حكام الولايات ، وحكام المدن والقرى ، إلا قليلا من الهندوس أيضا كانوا يشتركون فى حكم المدن والقرى تحت إشراف الحكام المسلمين ، ومنهم القضاة الذين يحكمون فى المسائل المدنية والجنائية حسب أوامر الشريعة الإسلامية ، وكل هؤلاء كانوا يتمتعون بالرواتب والعطايا من الملوك ، فيصبحون من ذوى الثروات الكبيرة أو الصغيرة ، ومن أصحاب النفوذ والجاه فى البلاد ، ويرثهم أبناؤهم فى مناصبهم أحيانا وفى ثرواتهم .

كان هذا يتمتع به المسلمون بجانب اعتزازهم بشىء أهم ، وهو أنهم الحاكمون ، وأن شريعتهم نافذة يسرى سلطانها على الكبير والصغير ، وملوكهم يوقرون علماءهم ، ويوفرون لهم أداء رسالتهم الدينية ، بما يعطونهم من مال ، وبما ينشئونه من معاهد ، لدراسة الشريعة والتفقه فيها ، وما يوقفونه هم والأمراء والأعيان على هذه المدارس ، وعلى المساجد أيضا من إقطاعيات وعقارات توفر للطلاب والعلماء التفرغ لمهمتهم ورسالتهم فى خدمة دينهم .

وقد جاء الملوك والأمراء وبعض هؤلاء الأعيان والأهالى من خارج الهند حقا ، لكنهم اتخذوا منها وطنا لهم هم وذرياتهم ، ونسوا أوطانهم الأصلية ، وتضافروا على النهوض بالبلاد والرقى بها ، ودفع الأعداء عنها ،

حتى أصبحت جنة ، ذكرها المؤرخون باسم « جنة آسيا » تمتع بخيراتها سكانها جميعا ، كما تمتعوا بعدل الملوك والحكام وعطفهم دون تفرقة بينهم .

وكان أكثر الهندوس منصرفين للتجارة والزراعة والصناعة ، مشاركين مع ذلك فى وظائف الدولة الكبيرة والصغيرة ، لكنهم لم يكونوا معتمدين على الوظائف ، ولا سيما الكبيرة منها اعتماد المسلمين .

٧ فلما جاء الإنجليز ، وبدأ نفوذهم يتسع ، وبدأ الملوك يكلون إليهم الإشراف على بعض الأعمال فى الولايات ، كانوا يتعهدون للحكام المسلمين بإبقاء كل وضع على حاله . دون المساس بنظم الشريعة ولا بنظام الوظائف ، ولكنهم كانوا حين يأنسون من نفسهم القوة ، ومن الحاكم الضعف ، يعمدون إلى نقض تعهدهم ، وإلى الحد من نفوذ المسلمين بعزل موظفيهم ، وإحلال الإنجليز أو الهندوس أحيانا محلهم ، ثم يعمدون إلى تغيير القوانين الإسلامية كلية ، وعزل القضاة المسلمين ، وتعيين قضاة منهم يحكمون على أساس القوانين الجديدة التى وضعوها ، بدلا من الشريعة الإسلامية ، كما حدث فى بنگال بعد سنة ١٧٦٤ م ، وهكذا أخذ الإنجليز يزحزحون المسلمين عن أماكنهم التى احتلوها منذ ثمانية قرون ، ويقضون على أمجادهم شيئا فشيئا ، ويحيلون عزهم إلى ذل ، وغناهم إلى فقر ، وسعتهم إلى ضنك ، فتحمل المسلمون من عسف الإنجليز الذى نزل بالهند ما لم يتحمله زملاؤهم الهندوس .

وكان هؤلاء الإنجليز يتصرفون مع المسلمين هذا التصرف مدفوعين بعاملين : أولها : روح التعصب ضد الإسلام الذى لم ينسه الإنجليز منذ الحرب الصليبية ، حتى جاءوا للهند ، بل لم ينسوه بعد ذلك حين احتلت جنودهم مدينة «القدس» فى الحرب العالمية الأولى ، فهتف قائدهم حين دخلها .. « اليوم انتهت الحروب الصليبية » فكان لهذا التعصب أثره بلا شك فى كل مواقفهم مع المسلمين .

وثانيهما : إدراكهم أنهم يسلبون الحكم من أيديهم ، وأنهم يحرمونهم

مجدا ظلوا يتوارثونه مدى هذه القرون ، وليس من السهل على المسلمين أن يسلموا فى يسر بالقضاء على هذا المجد ، لذلك ركز الإنجليز سهامهم على المسلمين فى كل أنحاء الهند ، حتى تركوهم جسدا بلا روح ، وعزلوهم تماما عن تيار الحياة بجميع أنواعها ، فلا سلطان ، ولا غنى ، ولا نفوذ ، ولا وظائف ، ولا تعليم ، وأصبح ملوك الأمس وسادته أذلة فقراء ، ربما لا يجدون ما يأكلون ، وأصبحت قصورهم العامرة خرابا .

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا   أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وصار الذين كانت الدنيا فى أيديهم يسعون إلى لقمة يأكلونها ، أو رقعة من الثياب يلبسونها ، فتسخر الدنيا منهم ، وتولى ظهرها لهم ، والناس ينظرون إلى هذا ويتحسرون، وتفيض قلوبهم من الدمع حزنا ألا يجدوا هم الآخرون ما ينفقون . جدب ، وذلة ، وحسرة ، اشترك فيها سيد الأمس والمسود . ولم يكن ذلك كله إلا على يد الشياطين البيض الوافدين من الغرب . فلم يكن عجبا إذن أن نرى أناسا من هؤلاء المهضومين المظلومين يهبون كالأسود ، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من هيبتهم الضائعة ، ودنياهم المدبرة ، ودينهم المعتدى عليه .

أريد بعد تقرير هذه الحقائق أن أترك الحديث عنها أيضا للوثائق التاريخية التى دونها مؤرخون إنجليز ، لم يمنعهم تعصبهم من ذكر الحقائق أحيانا. هذه الحقائق التى لم يكن من السهل على متعصب إنكارها .

أرسل اللورد « النبرو » حاكم الهند العام « دوق ولنجتن » سنة ١٢٥٩هـ ـ ١٨٤٣ م ، كتابا جاء فيه :

« إنه لا يمكن الإغضاء عن حقيقة جلية ، وهى أن الأمة المسلمة معادية لنا بعقيدتها ، فالبرنامج الحقيق عندنا أن نبتغى مرضاة الهنادك »(١) .

فعلى أساس هذه الحقيقة الجليلة تصرف الإنجليز مع المسلمين تصرف

---

(١) مجلة الضياء نقلا عن كتاب «unhappy india» ص ٣٩٩

العدو الخانق القادر على عدوه ، فعملوا بكل ما يمكنهم على خنق أنفاس عدوهم ، بينما عملوا على استرضاء الهنادك ؛ لأنهم فى رأيهم ليسوا أعداء لهم بحسب عقيدتهم كالمسلمين ؛ ولأمر آخر تيقنه الإنجليز ، وهو العمل المتقن على التفرقة بين السكان ، وإرضاء الكثرة الهندوسية على حساب المسلمين .

وكثيرا ماكانوا يستولون على أملاك المسلمين ، ويعطونها للهنادك ، وكثيرا ما كانوا يعزلون الموظفين المسلمين ، ويعينون بدلا منهم الهنادك ، وهكذا كانوا يحققون هدفين بعمل واحد ، أو يضربون عصفورين بحجر واحد ـ كما يقال .

ويدون أحد الموظفين الكبار الإنجليز فى البنگال مشاهداته لأحوال المسلمين ، ومعاملات الإنجليز لهم وذلك فى كتاب له . سماه «مسلمو الهند[1]» ، وهو «w.w. Henter» ونشره لأول مرة سنة ١٢٨٨ هـ - ١٨٧١ م ، وقد كتب فيه : « إننى قضيت فى البنگال مدة كبيرة ، وشاهدت أشياء كثيرة ، أكتبها كما عرفتها ، وأقدمها للإنجليز الذين لا يعرفون حقيقة الحال فى هذه البلاد ، وما طرأ على أهلها من انحطاط ، كما قرر فى مقدمة كتابه : أن الإنجليز للآن لم يفهموا عقلية الشعب الذى يحكمونه ، ولذا تجىء تصرفاتهم بعيدة عن الصواب ، كما أنهم يفصلون أنفسهم عن الشعب بهوة واسعة » ، وهو كثيرا ما يتحامل على المسلمين وشريعتهم ، لكنه مع ذلك يذكر كثيرا من الحقائق التى تدمغ قومه بالعار .

يكتب ليصور لنا الطريقة التى وصلت بها الشركة إلى السيطرة فيقول :

« إننا ما قبضنا على الهند مثل الفاتحين ، ولكن الشركة اعتمدت على الحيلة والمعاهدات ، حيث تقدمت للملوك ، فأخذت منهم الإذن بالإشراف الإدارى على بعض ولاياتهم ، وتعهدت ألا تمس النظم القائمة ، وكان عمالها يعرفون

---

(١) اسمه بالأوردو (هماری هندوستانی مسلمان) وترجمتها الحرفية (مسلمو هندنا) وهو مترجم للأوردية

أنفسهم حق المعرفة ، ويتصرفون فى حذر ، معلنين أن الشركة نائبة عن الملك فى الإدارة ، ولذلك أبقت العمل بالنظم الإسلامية ، وعينت القضاة والعلماء المسلمين فى المحاكم ، وهذه حقيقة غابت عن كثير من الكتاب الإنجليز الذين يكتبون عن الشركة ويعيبونها ، ولو أننا قبضنا على كل شىء دفعة واحدة ، وأخذنا فى يدنا الحكومة والملك لوقعنا فى ورطة عظيمة ، وجابهنا ثورة عاتية ، إذ أن المسلمين كانوا يهبون للجهاد الذى يعتبرونه فى هذه الحالة فرض عين على الذكور والإناث . ولكننا تحاشينا ذلك ، فأبقينا اسم الملك ، وحكمنا باسمه على الولايات ، وكانت النقود والأوامر نصدرها باسمه ، وإن لم يكن له أى نفوذ ، وأخذنا بالتدريج نغير شيئا فشيئا ، حتى تغيرت الهند من دار الإسلام إلى دار الحرب ، دون أن يحس أحد بوقع هذا التغيير ، حتى إننا لا نعرف تماما متى بدأ ؟ .

فحين تمكنا من السلطة أقدمنا على التغيير ، ووضعنا القوانين الجديدة ، وأبطلنا العمل بالشريعة الإسلامية ، وعزلنا القضاة والعلماء المسلمين ، وكذلك الموظفين المسلمين (١) .

وينقل مولانا مدنى هذا الكلام فى كتابه « نقش حياة » ويعلق عليه فيقول :

« هكذا فعل الإنجليز الذين أكرمهم الملوك المغول « أكبر ، وجهانكير وشاهجهان ، ومن بعدهم » ، وقد أخطئوا خطأ كبيرا ، إذ أكرموهم ومنحوهم الامتيازات التى مكنت لهم فى الهند ، حتى قبضوا على كل شىء ، ثم صاروا يعاملون المسلمين معاملة « الضرة » ، وأخرجوهم من القضاء ، ومن جميع الأعمال الكبيرة ، وكان هذا جزاء الإحسان عند الإنجليز ! ! »

ويقول « هنتر » أيضا :

---

(١) ملخصا من ص ٢٢٧ — ٢٢٩

« حينما قبضنا على الهند كان المسلمون فيها أرقى السكان عقلا وسياسة وعملا وعلما ، وكانوا يمتازون بقوة الجسم والشجاعة ، ولكننا مع ذلك أغلقنا جميع أبواب العمل بالحكومة فى وجوههم ، بعد ما كانوا يتولون المناصب الكبيرة والصغيرة ، وكان الهندوس يتقبلون كل ما يحصلون عليه من الوظائف بالشكر ، والإنجليز فى ذلك الوقت يشتغلون كتبة وملاحظين للأعمال ، ولكن تغير الحال بعد ما قبضنا على السلطة ، بحيث لا تجد من المسلمين ضباطا أو قوادا أو قضاة فى المحاكم العالية » ، ثم يذكر « أنه كان فى بنگال من القضاة فى المحاكم العالية ٢١ قاضيا ، منهم هندوسيان ، والباقى من الإنجليز ، ولا يوجد فيهم مسلم واحد . . »(١)

ويذكر هذا الكاتب الإنجليزى اعتراضات المسلمين على حكم الإنجليز وتصرفهم فيقول :

« إنهم يتهموننا اتهامات لم توجه إلى أية حكومة فى العالم ، ولا يصح أن نغض النظر عنها بحال من الأحوال ، فهم يتهموننا : (١) بأننا أغلقنا عليهم أبواب المعيشة الطيبة التى كانت توفر لهم الحياة الكريمة ، (٢) وبأننا قضينا على تعليمهم الدينى ، وروجنا فيهم التعليم الذى لا يخدم دينهم ولا ينشط روحهم ، (٣) وبأننا ضيقنا الحياة على القضاة المسلمين ، حين عزلناهم من مناصبهم التى كانوا يؤدون فيها بجانب عملهم المدنى والجنائى عقود النكاح والطلاق ، وأحكام الدين الخاصة بهم ، (٤) وبأننا حلنا بينهم وبين أداء واجبات دينهم ، (٥) وهذا عندهم جرمنا الفظيع - أننا أخذنا الأوقاف الإسلامية التى وقفها كبار المسلمين للإنفاق منها على التعليم والمساجد ، وصرفنا ريعها فى غير ما جعلت له (٢) ، وغير هذه توجد اتهامات كثيرة ، ومن السهل أن يثبتوا علينا كل

---

(١) ملخص من ص ٢٣٧ من كتابه « مسلمو الهند »

(٢) ذكر الكاتب فى ص ٢٥٥ وما بعدها أنهم لما أشرفوا على بنغال وجدوا أنفسهم محرومين من ربع دخل المقاطعة بسبب الأراضى الموقوفة على المساجد والمدارس ، وكانت معفوة من الضرائب ، فوضع « ورن هستنجز » مشروعا للاستيلاء عليها سنة ١١٨٥ هـ ، - ١٧٧٢ م =

ذلك بسهولة ، إذ أنهم صادقون فى دعواهم ، وهم يرددون ذلك جهرا ويقولون : إنكم أيها الإنجليز أخذتم الديوانى (أى إدارة أعمال الدواوين) ، والمحاكم نيابة عن ملوك المغول ، لتحافظوا عليها وتنموها وترتقوا بها ، وكنتم فى ذلك الوقت الخدام والعمال عند ملوك المغول بمقتضى العهود التى أخذت عليكم ، ولكنكم تمردتم ، ونسيتم إحسان المحسنين ، بعد أن أنستم فى أنفسكم القوة . وقبضتم على الحكم »[1]

ومن اللازم أن نفسر هذا الوضع الذى يتحدث عنه هذا المؤرخ الإنجليزى ، فعند ما بدأ نفوذ الإنجليز يسرى فى البلاد نشأت فكرة تقوم على جعل أعمال الحكومة فى يد الإنجليز ، على أن يبقى الحكم باسم الملك ، ويذكر اسمه فى المساجد ، وتضرب النقود باسمه ، وهكذا ، يعنى يفصلون بين الحكم وبين الملك . . ويجعلون الملك رمزا للحكم الإسلامى ، أما إدارة الأعمال كلها فتكون بواسطة الإنجليز على أنهم نواب الملك . وهذا ما يعبرون عنه دائما باسم (أعمال الديوانى) ، وهذه الفكرة هى التى عارضها العلماء وقاموا فى وجهها وقالوا : لا يتصور أن يكون هناك ملك إسلامى بدون حكم إلا إذا تصورنا الشمس بدون ضوء ، وقام جهاد العلماء وصدرت فتاويهم من أجل هذا الوضع الشاذ ، وأعلنوا حين صار هذا الوضع سائدا فى الهند أنها أصبحت دار حرب ، ويجب على المسلمين أن يهبوا للجهاد ضد المتسلطين الإنجليز ، حتى يردوا الحكم إلى يد الملك ، ويصبح هو الحاكم الفعلى لا الإنجليز . .

ولقد كان من نتيجة تعنت الإنجليز مع المسلمين ، وتشريدهم وسد سبل الرزق فى وجوههم ، وانتزاع أراضى الأوقاف منهم أن تحولت حالهم من اليسر إلى العسر ومن العز إلى الذل .

= ولكنه فشل ، فعاود الكرة لورد كورنوفاليس سنة ١٢٠٧ هـ — ١٧٩٣ م ففشل أيضا . وكذلك سنة ١٢٢٩ هـ — ١٨١٥ م فلجأت إلى المحكمة وكان قضاتها من الإنجليز ، فحكمت بها للحكومة ، فزاد دخلها ثلثمائة ألف جنيه من الضرائب عليها ، ثم يقول : من الحقائق التى لا يمكن إنكارها أننا لو لم نخاف الأمانة والتدين حين استولينا على الأوقاف الإسلامية لما حرم مسلمو الهند اليوم من معاهدهم العلمية وأنظمتهم العالية .

(١) ملخصا من كتاب « مسلمو الهند » ص ٢٠٧ ، ٢٠٨

ويصف « هنتر » هذه الحالة التي شاهدها بنفسه - بعد أن وصف حالهم أيام أن كانوا هم السادة والحكام - فيقول : « هـذه حقائق عن بنكال التي عشت فيها زمنا طويلا ، أكتبها كما شاهدتها عن حالتي اليسر والعسر للأسر الملكية وغيرها ، ليعرف الشعب الإنجليزي ماعرفته في هذه البلاد ، ومع ذلك فإن ما أذكره عن بنكال يمكن أن يصدق أيضا على كل مقاطعات الهند التي وقعت في قبضتنا ، ثم يقول بعد هذا :

« إن في مرشد أباد، وماحولها كثيرا من الأمراء الذين كانت لهم سطوة في الماضي ، مما لانزال نرى آثاره في قصورهم التي تدهش الإنسان حين يرى فيها آثار المجد السابق ، ومع ذلك فقد تحولت هذه القصور التي يسكنها هؤلاء الأمراء إلى خرابات ، فسقوفها قد خربت ينهمر منها المطر على سكانها الأمراء، كأنه لافرق بين داخل القصر وخارجه . وقد تحولت الحدائق التي كانت ممتلئة بالورود المتنوعة إلى أرض جدباء ممتلئة بأشجار الشوك ، وأصبحت الأحواض الجميلة التي كانت تحوطها الورود ، وتسبح في مياهها الأسماك الملونة، أصبحت حفرا ممتلئة بالقاذورات » .

« ولقد شاهدت كثيرا من هـذه الأسر وزرتها في بيوتها ، ورأيت كثيراً من الأولاد والأحفاد من الذكور والإناث ، وليس لهم باب الرزق ، فيقترضون ولا يستطيعون سداد القروض ، فيتجمع عليهم الدائنون في منازعات تصل إلى القضاء ، وتنتهي بالحكم عليهم . . إلخ »(١)

ويقول أيضا : « في كل مكان تذهب إليه في البنكال حتى في الغابات تشاهد المسلمين قصورا عظيمة بحدائقها وأحواضها ، ولكنها صارت كلها خرابا الآن ، وتجد بجانب ذلك مساجد للعبادة ، مما يدل على إخلاصهم في نشر الإسلام » ، ثم يستطرد فيقول : « وفي الحق إنهم اعتمدوا في نشر دينهم على الفطرة البسيطة ، وعلى المساواة التي جعلها الإسلام من أهم أسسه ، حيث

---

(١) ص ٢١٦ من كتاب « مسلمو الهند »

أعطوا البراهمة حقوقا متساوية مع المسلمين سواء بسواء ، وكان ذلك أهم سبب فى انتشار الإسلام فى بنـگال » .

هذا تصوير لحالة الأسر التى كانت لها السيادة فى الماضى ، وهو تصوير مؤلم ومفزع ، تتفتت له القلوب ، فما بالك بالأسر الأخرى التى كانت أقل منها ، أسر الموظفين الذين طردوا ، أسر أصحاب الأراضى الذين نزعت منهم أراضيهم ، نتيجة للضرائب الباهظة ، أسر القضاة ، أسر العلماء المدرسين ، أسر الضباط والجنود المسلمين الذين طردوا من عملهم ، هذه الأسر التى أصبحت أحق الناس فى العالم بالعطف والرحمة كما يقول « هنتر » نفسه . .

لا شك أن هذا التصرف الجائر مع المسلمين خاصة يعتبر وصمة عار على الإنجليز ، وهو مما يحيل الجبان إلى أسد هصور ، وكان هذا مما دفع بالمسلمين إلى الثورة ، كى يتخلصوا من البلاء الذى نزل بهم .

موقف العلماء من الإنجليز وأثرهم فى الثورة

كانت العوامل السابقة تفعل فعلها فى نفوس أهل الهند جميعا ، وتشحنها بالثورة والغضب على الإنجليز ، وكان هناك بجانبها عامل هام آخر ، لعله أهم من كل العوامل السابقة ، لأنه عامل روحانى نفسانى . والعوامل الروحية تتقدم دائما العوامل المادية ، وتعلو عليها ، وكان يقوم بهذا الجانب علماء المسلمين الذين وجدوا فى تسلط الإنجليز وضعف السلاطين قضاء على الدين وعلى الحكم الإسلامى معا ، فهبوا يدفعون هذا الخطر وينبهون الناس إليه بمختلف الوسائل .

ويعتبر العالم الكبير « شاه ولى الله الدهلوى » رأس هؤلاء العلماء ، وذلك لما قام به من مجهود عظيم فى تنبيه المسلمين والحكام منهم كذلك إلى الخطر المقبل عليهم ، وإلى التمسك بدينهم .

ومن واجب كل مؤرخ للهند أن يقف ولو قليلا مع هذا المصلح الكبير

الذى يعتبر صاحب مدرسة فكرية عظيمة ، لا يزال لها للآن أتباع ومريدون فى الهند يفتخرون بنسبتهم إليها ..

شاه ولى الله ومدرسته

اسمه أحمد بن عبد الرحيم بن وجيه الدين ، واشتهر باسم شاه[1] ولى الله الدهلوى . ولد بدهلى فى ١٤ من شوال سنة ١١١٤ هـ - ١٧٠٤م ، وقد اعتادوا فى الهند أن يسموا المولود اسما يوافق حساب جمله سنة ميلاده ، وكان اسمه على هذا الأساس « عظيم الدين » ، وكان أبوه - عبد الرحيم - من العلماء الممتازين الذين راجعوا « الفتاوى العالمگيرية » الشهيرة ، ويذكر مؤرخوه أن اسم ولى الله لصق به منذ ولادته ، حين بشر أبوه مرارا فى الرؤيا بولادة ولد صالح له ، وممن بشره من الأولياء كذلك قطب الدين بختيار كعكى وطلب أن يسمى باسمه ، ولذا سمى بقطب الدين أحمد واشتهر بولى الله ، وإن كانت سيرته المباركة تجعله جديرا بهذه الشهرة .

تعلم فى كنف أبيه ، فحفظ القرآن فى السابعة ، ثم أخذ يدرس علوم زمانه على والده وعلى كثير من المشايخ ، فأتمها وهو فى سن الخامسة عشرة ، وحينما توفى أبوه سنة ١١٣١ هـ - ١٧١٩ م ، قام بالتدريس ، واشتهر بالتفوق ، فوفد عليه الطلاب من كل ناحية ، ثم رحل إلى الحرمين للحج ، وللتزود من العلم على رجال الحديث المعدودين هناك سنة ١١٤٣ هـ - ١٧٣١ م فقرأ كتب الحديث عليهم ، وأخذ منهم الأجازات فى روايته . وأدى فريضة الحج وعاد فى أوائل سنة ١١٤٥ هـ - ١٧٣٢ م ، ليستأنف حياة الجهاد فى سبيل الدين والوطن ، وأصبح علما ومرجعا فى علوم الحديث والتفسير على الأخص ، واشتغل بالدراسة والتأليف فى بيت أبيه أولا ، ثم لما كثر طلابه واشتهر أمره أعطاه السلطان محمد شاه بناء كبيرا للمدرسة ، وافتتحها بنفسه ، واشتهرت باسم

(١) كلمة شاه تضاف إلى بعض الأسر للتشريف فقط .

« دار العلوم »[1] . تخرج علماء ممتازين على غراره فى الفهم وحرية البحث ، كما أخرج كتبا عدة باللغة العربية والفارسية تعتبر من أمهات الكتب فى أبوابها ، وأهمها فى العربية : كتاب « حجة الله البالغة » المشهور ، كما قام بترجمة القرآن إلى الفارسية ، وقد بلغت كتبه ٥٤ كتابا بالعربية والفارسية .

وقد توفى أورنكزيب وعمر الشيخ أربع سنوات ، وعاش حتى عاصر بعده تسعة ملوك آخرين : بهادور شاه ، جهاندار شاه . فروخ سير ، رفيع الدرجات، رفيع الدولة ، محمد شاه . أحمد شاه ، عالمگير الثانى. شاه عالم الثانى .

وقد بلغت الدولة فى عهد هؤلاء مبلغا من الضعف جعلها مطمعا للطامعين فى الداخل والخارج ، فأغار عليها المراهتا والسيك ، واستقل كثير من الأمراء عن دهلى ، وغزاها من الخارج نادر شاه الإيرانى ، ثم أحمد شاه الأبدالى الأفغانى ، وخربت دهلى مرتين أثناء غزوهما ، وطمع الفرنسيون والهولنديون والبرتغال والإنجليز فى البلاد ، وتنافسوا فى اغتنام خيراتها حتى انفرد بها الإنجليز ، وتحكموا فيها وأذلوا أهلها .

وكانت البلاد ضائعة بين ملوك وأمراء وطامعين فى الحكم ، يتعاركون ويتفننون فى القتل والانتقام ، كما يتفننون فى اللهو والشراب ، وبين رعية ضل رعاتها ، فراحت ترعى كالسائمة ، منصرفة إلى اللهو والفساد ، وبين علماء جامدين مقلدين متزمتين ، وصوفيين خرجوا عن حقيقة التصوف إلى العبث بالدين .

ونظر الشيخ فرأى البناء ينهار على يد أصحابه ، فقام وشمر هو وتلامذته لينقذ ما يمكن إنقاذه ، وركز جهاده فى التدريس والتأليف ، والنصح لعامة الناس وملوكهم ، وكان بروحه الصوفية وآرائه الجديدة فى فهم القرآن والحديث ، وحملته على التقليد الأعمى والتزمت والجمود صاحب مدرسة

---

(١) وقد سألت فى دهلى عن هذه المدرسة فقالوا لم يعد لها أثر، وإن كان يوجد هنا حى يسمى باسم شاه ولى الله .

عظيمة . كان لها أثرها فى تطور الفكر فى الهند ، حتى إن أولاده وتلامذته ساروا على نهجه ، وانتسبوا إلى مدرسته ، وظل كثير من العلماء ينتسبون إليها للآن ، ولما كان كثير من هؤلاء العلماء المنتسبين إلى مدرسته الفكرية الصوفية قد أثروا تأثيرا كبيرا فى مجرى الحياة ، وفى حوادث الهند وثورتها ، فإن شاه ولى الله قد عد رأس هؤلاء المجاهدين فى سبيل دينهم ووطنهم .

وبعد حياة حافلة بالعمل توفى فى ٢٦ محرم سنة ١١٧٦ هـ - ١٧٦٣ م ، وكان له من الأولاد شاه عبد العزيز ، شاه رفيع الدين ، شاه عبد القادر ، شاه عبد الغنى ، وكانوا حقا أولاد أبيهم فى العلم والجهاد فى سبيل الدين والوطن ، قام شاه عبد العزيز مكان أبيه ، وخلفا له على مدرسته وفكرته ، فنهض بالعبء . وكان عبئا ثقيلا يتطلب رجالا ، فبعد موت الشاه ولى الله بسنة واحدة انهزمت جيوش الملوك المسلمين أمام الإنجليز فى «بكسر» سنة ١٧٦٤م ، وبذلك فقدوا الأمل فى أى انتصار بعد ذلك ، ودب اليأس فى قلوبهم ، وطغى الإنجليز وسيطروا ، وأصبح شاه دلهى كموظف لديهم ، ليس له نفوذ على ملكه ، وصدق عليه المثل الذى كان يقال سابقا عن أحد الملوك المسلمين فى الهند « شاه عالم من دلهى إلى بالم » يشير إلى أن نفوذ الملك لم يتجاوز حدود دهلى (١) .

أما النفوذ الفعلى فكان للإنجليز ، إلى حد أنهم كانوا يتحكمون فيمن يدخل دلهى ومن يخرج منها ، حتى منعوا « شجاع الدولة » ملك « أود » من دخولها ، وكشروا عن أنيابهم ، وبدت نواجذ الشر من أفعالهم ، حتى تجرأ مندوب الشركة سنة ١٢١٨هـ - ١٨٠٣م على إجبار الملك على توقيع قرارات قدمها إليه ، ثم أعلن فى غير خوف أو حياء أن «الخلق لله ، والملك للملك ، والحكم للشركة» . يشير بذلك إلى الفصل بين الملك وبين القوة التنفيذية ، حيث يبقى ملكا بدون ظل ، واسما بلا نفوذ ، أما النفوذ والسلطة والحكم الفعلى ففى يد الإنجليز ،

(١) و « بالم » اسم قرية فى ضواحى دلهى بها المطار الآن المسمى بهذا الاسم .

وكانت هذه الخطوة الثانية فى سيطرتهم على الهند ، فهم إلى الآن لم يجرءوا على خلع الملك ، بل أعلنوا أنهم يحافظون على بقائه، وإن كانوا يأخذون سلطة التنفيذ فى أيديهم ، بحجة إصلاح الأمور !!

ولكن الشعب ـ وعلى رأسه العلماء ـ لم يستسيغوا هذه الخطوة، فماذا يعملون باسم الملك ؟ وماذا تستفيد البلاد من شخص جرد من سلطانه ؟ لقد عارض الشاه ولى الله من قبل مثل هذه الفكرة ، وقال : إنه لا يتصور وجود ملك مسلم بدون نفوذ إلا إذا تصورنا الشمس بدون ضوء ، وأن معنى الإمام أن يرعى مأموميه ويقيم العدل بينهم .

لذلك هب الشاه عبد العزيز[١] يستثير الشعب لحماية سلطانه ، والجهاد فى سبيل إبقاء الحكم الإسلامى فى يد أصحابه ، بعد أن عجز الملوك والأمراء عن كبح جماح الإنجليز ، فأصدر فتواه المشهورة بأن الهند الآن أصبحت دار حرب لا دار إسلام ، وعلى المسلمين أن يهبوا جميعاً للجهاد ، وقال[٢] : إن إمام المسلمين الآن أصبح لا حول له ، ولا تنفذ أحكامه ، والحل والعقد صار بيد المسيحيين الإنجليز ، حتى لم يعد أحد يستطيع دخول دهلى إلا بإذنهم ، وهم يحصلون الخراج ، ويعينون الموظفين ، ويدفعون المرتبات ، ويشرفون على القضاء والأمن وتنفيذ الأحكام ، وهم وإن كانوا لا يتعرضون للشعائر الدينية مثل الصلاة والأذان والذبح والأعياد ، إلا أن الأمور الأساسية فى الإسلام لا يحترمونها . ولا يدعونها فى يد أصحابها ، فوق أنهم يهدمون المساجد بغير اكتراث ..

---

(١) هو الإبن الأكبر للامام ولى الله الدهلوى ولد سنة ١١٥٩ هـ — ١٧٤٦ م وتتلمذ على والده وكثير من مشاهير العلماء حتى أصبح من أفذاذهم ، لا سيما فى علم الحديث، بحيث لا تجد واحداً الآن من علماء الحديث بالهند إلا وهو متصل السند بشاه عبد العزيز ، وهو صاحب كتاب « التحفة فى الرد على الشيعة الاثنى عشرية » ، التى ترجمت للعربية وطبعت بتعليق الأستاذ محب الدين الخطيب ، وغير ذلك من الكتب القيمة ، وتوفى سنة ١٢٣٩ هـ ـ ١٨٢٣ م فى دهلى .

(٢) نص الفتوى موجود فى كتاب « فتاوى عزيزية » للشاه عبد العزيز باللغة الفارسية طبع دهلى ص ١٦ ، ١٧ .

من أجل هذا تصير كل بلاد يقبض عليها الإنجليز بهذا الشكل قد انتقلت من دار الإسلام إلى دار الحرب . » ثم أخذ يذكر أدلة ذلك من فعل النبي صلى الله عليه وسلم ، وخلفائه الراشدين » .

وعلى هذا الأساس انتشرت الدعوة فى طول البلاد وعرضها بأن واجب المسلمين الآن أن يهبوا للدفاع عن بلادهم ذكورا وإناثاً ، وأخذ العلماء يطوفون بالمدن والقرى يفهمون الناس ذلك ، ويستثيرونهم ، وعلى رأس هؤلاء العلماء أبناء الشاه ولى الله وتلامذته .

ومما يثير الإعجاب حقا أن العلماء لم يقتصر دورهم على الكلام ، بل إنهم كونوا الجيوش ، وخاضوا الحروب لإنقاذ المسلمين من الإنجليز وغيرهم من أهل الهند ، كالسيك الذين انتهزوا فرصة ضعف ملوك دهلى فعاثوا فى پنجاب مفسدين ، يقتلون المسلمين ويهدمون دورهم ، وينهبون أموالهم ، ويهتكون أعراضهم ، وينزلون بهم من البلايا والمصائب ما تقشعر منه الجلود . .

وهذا هو الذى دفع « سيد أحمد عرفان بريلوى » أحد تلاميذ مدرسة شاه ولى الله ، والسالكين على طريقته إلى أن يهب لإنقاذ إخوانه المسلمين من يد هؤلاء السيك ، وأعتقد أن المظالم الشديدة والإبادة التى كان السيك يقومون بها تجاه المسلمين ، هى التى جعلت هذا المجاهد يتجه أولا وفى سرعة إلى پنجاب ، وكان إقداما منه لم يسمع بمثله ، ولذا يعتبر من أبرز العلماء فى حركة الجهاد التى قامت فى الهند ، وكان لإقدامه أثر كبير فى بعث الهمم فى النفوس ، حتى اقترنت أثره فى الجهاد والفداء ، ولذا نحب أن نعطيه حقه ، ونقف معه وقفة تليق بموقفه فى الدفاع عن المسلمين .

سيد أحمــــد بريلوى

الشهير باسم « سيد أحمد الشهيد »

ولد فى قرية « راى بريلى » من أعمال لكنو فى غرة المحرم سنة ١٢٠١ هـ - ١٧٨٦ م من أسرة كريمة ، اشتهرت بالعلم والتقوى ، وينتهى نسبها إلى سيدنا الحسين بن على رضى الله عنهما[١] ، ولم تتجه نفسه إلى التعليم برغم حرص والده ومعلميه على تعليمه ، حتى إذا توفى والده وهو فى السابعة عشرة من عمره ترك بلدته ، وسافر إلى لكنو ، وانخرط فى سلك الجنود عند أحد الأمراء المسلمين .

ولم يمكث طويلا ، ثم توجه إلى دهلى سنة ١٢٢١ هـ - ١٨٠٦ م ، حيث جذبته مدرسة شاه ولى الله ، فتتلمذ على شاه عبد القادر ، وتلقى الصوفية من أخيه شاه عبد العزيز ، حتى أتى من العلم والمعرفة ما تندهش له العقول ، وهو فى الحادية والعشرين ١٢٢٢ هـ - ١٨٠٧ م ، ثم حن إلى حياة الجندية والجهاد ثانية فذهب إلى معسكر « أمير خان » فى « تونك » بإقليم راجستان ؛ وأخذ يحثه على الجهاد والقتال فى سبيل الله ، ويشجعه فى حربه للإنجليز ، ثم رجع إلى دهلى بعد أن اصطلح أمير تونك معهم ، وأخذ يدعو المسلمين إلى التمسك بدينهم ، وترك البدع والخرافات الشائعة فى أوساطهم ، متعاونا فى ذلك مع العالمين الجليلين ، الشيخ عبد الحى والشاه إسماعيل من أسرة شاه ولى الله ، وقد بايعاه على الدعوة والجهاد ، ثم رحل إلى « بتنا » واتسع نفوذه ، وكثر أتباعه ومريدوه ، ومن هناك رحل إلى الحجاز للحج سنة ١٢٣٧ هـ - ١٨٢٢ م ، وكان ذلك بعد أن هزم محمد على الوهابيين وأجلاهم عن الحجاز ، ورجع بعد سنة ليستأنف حياة الكفاح والجهاد والدعوة إلى الله ، حتى صار له أتباع

---

(١) وهى الأسرة التى ينتسب إليها الأستاذ أبو الحسن الندوى العالم الهندى المعروف والذى يشرف على دار العلوم فى لكنو ، وقد أصدر جزأين فى تاريخ السيد الشهيد بالأوردية ..

ومريدون فى كل نواحى الهند ، يبايعونه على التطهر والجهاد ، وأخذ يعد العدة لإنقاذ المسلمين من براثن «السيك» فى پنجاب ، وبدأ فراسل الأفغان بقصده ، وطلب منهم العون والمساعدة ، فاستجابوا له ، وانتشرت دعوته للجهاد فى إيران وأفغانستان ، وتحمس الجميع شعوباً وحكومات لإنقاذ المسلمين من السيك والإنجليز معاً ، ولما وثق من مساعدة الأفغان له كون جيشاً من أتباعه المجاهدين فى الهند ، وسار به نحو الحدود الشمالية الغربية ، وعسكر هناك سنة ١٢٤٠ هـ - ١٨٢٤ م ، ثم أرسل إلى حاكم السيك «رانجيت سنگ» يدعوه إلى الإسلام أو الجزية ، فاستشاط الحاكم غضباً ، وزحف بجيشه لقتال المسلمين ، ووقعت بينهم عدة معارك كان النصر فى أكثرها للمجاهدين المسلمين.

وقد كان السيد المجاهد يحرص فى دعوته على شيئين : أولهما - تطهير الدين من البدع والخرافات الفاشية فى العوام ، وثانيهما - الدعوة إلى الجهاد . فظن بعض العوام والعلماء أن هناك صلة بين دعوة المجاهد والدعوة الوهابية التى شوهت سمعتها فى الهند ، نظرا لقيامها بهدم القباب فى مكة والمدينة وغيرهما ، مما جعل الرأى العام الإسلامى يكرهها ، ويكره كل من يتصل بها ، ومن الأسف أن العوام فى الهند وبعض العلماء انساقوا وراء عواطفهم ، وتأثروا بدسائس الإنجليز والسيك ، ولم يفرقوا بين دعوة المجاهد لتطهير الدين من البدع ، والدعوة الوهابية التى يكرهونها ، بل ربطوا هذه بتلك ، ثم لم يراعوا الظروف الخطيرة التى يمر بها المسلمون ، والتى تستدعى التكاتف العام ، وعدم الالتفات إلى مثل هذه التفاهات الشكلية ، والعواطف الذاتية ، والدعايات التى يروجها الانجليز كذلك ، فطعنوا المجاهدين من الخلف ، وأشاعوا بين العوام أن هؤلاء المجاهدين ورئيسهم من الوهابيين ، فنفروا منهم بعض الناس ، وأتاحوا للأعداء أن يستفيدوا من هذه الخلافات ، بل إنهم بالفعل أعانوا الأعداء على إخوانهم المجاهدين - ويابئس ما صنعوا - فدس بعضهم السم للسيد المجاهد فى عشائه ، وأراد الله أن ينجيه منه - بعد ما ظل مغمى عليه بضعة أيام - ليواصل الجهاد فى سبيل الله والمسلمين ، وقد بويع السيد المجاهد

بالإمارة للمسلمين ، ونودى باسمه فى الخطب ، ثم زحف على مدينة « بشاور » وهزم حاكمها من قبل السيك ، « سلطان محمد خان » ، واتخذها عاصمة له ، وأقام الحدود وعين القضاة ، ونفذ شرع الله ، ويظهر أن الظروف اضطرته لذلك ، لأنه لم يكن يطمع فى يوم من الأيام فى إمارة أو رياسة ، بل كان كل همه أن يستخلص الهند من يد الانجليز والسيك المفسدين ، ويتركها لحكامها الأصليين .

وأقضت هذه الانتصارات مضاجع « السيك » وأراد « رنجيت سنگ » أن يخرج لقتال المجاهدين ، لكنه لم يستطع لتغلغل السيد فى الجبال ، وبثه الدعوة فى القبائل وقوة نفوذه فيها ، وإذا كان « السيك » لم يستطيعوا منازلة السيد المجاهد فى هذه النواحى فإن المتزمتين من علماء الدين ، والصوفية المزيفين استطاعوا أن ينفروا بعض العوام والأمراء منه كما قلت ، بدعوى أنه وهابى ، وحينما رأى السيد ذلك ، بادر بترك البلاد مرتحلا إلى « مظفر آباد » فى نواحى جبال « كشمير » ، ووقعت بينه وبين « السيك » مناوشات كتب له فيها النصر .

ولما علم أن قائد السيك « شيرسنگ » توجه بجيشه إلى « بالاكوت » ، سبقه إليها وحصنها ، ولكن بعض جنوده خانوه ، وأخذوا الرشوة من « السيك » ، وتواطئوا معهم ، فهجموا على المسلمين بغتة ، ووصلوا إلى مكان رئاسة المجاهدين الذين استماتوا فى الدفاع عن أنفسهم حتى استشهد الكثير منهم ، وعلى رأسهم المجاهدان : سيد أحمد ، وشاه إسماعيل الدهلوى اللذان اشتهرا فيما بعد باسم السيد أحمد الشهيد ، والسيد إسماعيل الشهيد وذلك سنة ١٢٤٦هـ - ١٨٣١ م ، ولقيا ربهما (١) ، بعد أن أديا رسالتهما الدينية والوطنية على خير

(١) وقد دفنا فى « بالاكوت » حيث استشهدا ، ولم يصدق كثير من أتباع السيد أحمد أنه استشهد وظنوا أنه اختفى ، وسيعود إليهم ، وظلوا على هذا الاعتقاد مدة حتى يئسوا من عودته ، وقد أخبرنى الأستاذ أبو الحسن الندوى أنه رأى « وثائق » فى متحف لاهور كتبها إنجليزى كان نائبا عن حكومته عند « السيك » وقتذاك ، ويقول فيها : إنه بعد دفن السيد الشهيد أخرج المتعصبون من « السيك » جثته وأحرقوها ، وقد اطلعت وأنا فى مدراس عند =

ما يؤديها مجاهد مخلص ، ولم يكن استشهادهما ليفل من عزيمة أتباعهما ، فقد حمل اللواء بعد السيد خلفاء له ، أخلصوا لله عملهم وحملوا أرواحهم على أكفهم ، واستمروا فى كل مكان بالهند يدعون الناس إلى الجهاد ، جهاد السيك وجهاد الإنجليز معا ، وقد كان لهذه المواقع الحربية ، واستشهاد من استشهد فيها دوى عظيم ، استيقظ عليه النائمون ، وتحمس بعده الكسالى الخاملون ، وسرت الدماء فى العروق تطلب الثأر للدماء المراقة ، وتنشد بالأرواح الكرامة المضاعة ، وكان الإنجليز بعد ذلك الوقت قد استولوا على پنجاب ، وأصبح «السيك» فى حمايتهم ، فأنذروا المجاهدين أن الحرب مع «السيك» حرب معهم ، ولم يبال المجاهدون بالطبع بهذا الإنذار ، فقد كان من أهدافهم حرب الإثنين معا ، وبدأ الجهاد العنيف ضد الإنجليز فى النواحى الجبلية الغربية على الخصوص ، حيث كان الجبليون الأشداء المتعصبون من أتباع الشهيد ، فأخذ هؤلاء يقضون مضاجع الإنجليز ، وينازلونهم فى حروب عنيفة كلفت أعداءهم الغالى من المال والرجال .

ومع تلامذة الشاه ولى الله وأتباع السيد الشهيد المنتشرين فى الهند قام

= العلامة الدكتور عبد الحق على كتاب ظهر حديثا باسم المهدوية فى الإسلام للأستاذ سعد وطبعته لجنة النشر والتأليف الأزهرية ، فوجدته قد عد السيد أحمد الشهيد من الذين ادعوا المهدية وأن شيخه بشره بذلك الخ . . والعارف بحقيقة تاريخ السيد الشهيد ينفى تماما هذه الفكرة المفتراة عليه ، فهو لم يدع ذلك مطلقا لنفسه ، وكان فى إخلاصه وحماسه الدينى وشدته فى محاربة البدع والخرافات بعيدا عن مثل هذه الادعاءات ، وقد سألت الأستاذ أبا الحسن الندوى الذى كتب تاريخه مطولا عن ذلك ، فنفاه نفيا قاطعا ، وقال: ليس فى تاريخه أية حادثة تشير إلى أنه ادعى شيئا من ذلك ، وإن كان بعض أتباعه قد افتتنوا بعد وفاته فخيل لهم أنه لم يمت ولكنه اختفى وسيرجع إليهم ، ولكنهم سرعان ما رجعوا عن خيالهم بعد ما مضت مدة على استشهاده . أما زميله السيد اسماعيل الشهيد فهو حفيد الإمام ولى الله الدهلوى وابن الشاه عبد الغنى الدهلوى (وكلمة شاه هنا تضاف لبعض الأسر فى الهند على سبيل التكريم) ، تتلمذ على أعمامه الأفاضل بعدما توفى أبوه وهو صغير ، ونبغ فى علوم الدين والرياضة وفى الفروسية والرماية ، وكان دائما يدعو الناس إلى التمسك بالسنة والقيام لجهاد الإنجليز ، وانضم إلى السيد أحمد وسارا معا إلى حرب السيك حتى لقى ربه شهيدا ، وله مؤلفات عدة قيمة بعضها بالعربية .

غيرهم من العلماء - وإن كانوا يخالفونهم فى بعض الآراء - ليستثيروا الشعب ضد العدو ، ولم يقتصروا فى استثارتهم على المسلمين ، بل كانوا يثيرون الهندوس أيضا لتخليص الوطن من عدوه ، ومن الواجب أن نشير إلى أن السيد أحمد الشهيد وإن كان قد حارب السيك لمظالمهم الفظيعة على المسلمين ، فإنه كان يرمى من وراء حركته العامة إلى تحرير البلاد كلها من أيدى الإنجليز، حتى إن بعض أمراء الهندوس انضم معه حين حربه للسيك ، وكان دائما يرسل رسائله إلى الأمراء الهندس يستحثهم على الأتحاد معه لحرب الإنجليز ، وهكذا لم تقتصر دعوة المجاهدين - وعلى رأسهم السيد الشهيد - على المسلمين ، بل شملتهم مع الهندوس ، لغاية واحدة وهدف مشترك ، هو تخليص البلاد مما تعانيه من ظلم الإنجليز .

ومن الحق علينا أن نذكر أن الشعب - فى جملته - تجاوب مع الداعين ، وأخذ الخطباء والشعراء يخطبون ، وينشدون الشعر لإثارة الحماس والدعوة إلى الفداء ، وكان كثير من الأمراء الهندوس قد أصابهم العنت على يد الإنجليز ، وكثير منهم أدرك الخطر على حقيقته ، وعرف أن النار ستحرق البيت كله ، فبادروا إلى الاتفاق مع المسلمين ، ناسين الفروق التى كثيرا ما عملت عملها فى التفريق والتشتيت بينهم وبين المسلمين .

لقد أصبحت نغمة الجهاد ضد الانجليز على كل لسان ، وشغل كل عالم ، وأصبحت المنشورات تكتب وتوزع ، والناس يطوفون - علماء وغيرهم - بالمدن والقرى لهذا الغرض ، وكان بعضهم يتزيا بزى السائلين الرث . وبلغ بهم الأمر إلى حد أنهم اخترعوا مسألة توزيع الأرغفة على حراس المدن والقرى، وكل من يأخذ رغيفين عليه أن يصنع ستة أرغفة ويوزعها - وهكذا ، وكان أحد العلماء « أحمد على شاه » يوزع الخبز مع « زهر النيلوفر » على المسلمين والهندوس ، وانتشرت هذه العملية فى طول البلاد وعرضها ، ولابد أنهم كانوا يرمون من ذلك إلى هدف تجميع الناس على الثورة ، باسم الخبز المشترك حتى لايخونوه، وفى الهند يرمزون إلى كل خائن بقولهم « نمك حرام » أى ملح

حرام لم يؤثر فيه ، كما نقول عندنا (خائن العيش والملح) ، هذا ما أراه ، ولو أن لمؤرخي الهند تعايلات أخرى اختلفوا عليها على قرب العهد ، فقال بعضهم: إن ذلك كان يرمز إلى الثورة من أجل الخبز ، و بعضهم يرى أن ذلك كان رمزا للإفلاس لإهاجة الخواطر ، ويرى المؤرخ الهندى المعاصر « سندرلال » أن الخبز كان رمزا للحرب من أجل الحياة ، والزهر كان رمزا للحرب من أجل الدين[١] .

وهذه المسألة فى ذاتها تدل على مدى اشتغال الشعب بالاستعداد والتهيؤ للثورة ضد الانجليز ، حتى أصبح كل واحد يستطيع الاستيلاء على قلوب الناس حين يقف ويعلن عداوته للانجليز ، ودعوتهم للوقوف فى وجوههم، فقد ذكر أحد العلماء أن أحد كبار الموظفين فى المحاكم لقيه فى ذلك الوقت وسأله عن حاله ، فأجاب : أنه سيء جدا ، فقال له : أنت رجل عالم ، وعليك أن تأخذ القرآن المجيد ، وتذهب إلى القرى ، وتعظ الناس وتحثهم على الجهاد ، ففعلت كما أشار على ، فتلقيت من الشعب الكثير من الروبيات[٢] .. وهكذا انتشر الداعون للثورة والجهاد باسم الدين يلهبون الشعور ، حتى كان جبناء البنغاليين يتحولون إلى أسود فتاكة مثل الأفغانيين ، بمجرد مايسمعون الداعين للثورة ..

يقول مستر « اى . سى . بيلى » سكرتير حكومة الهند :

«إن الجنون الدينى المستمد من القرآن الكريم قد اشتعل إلى أقصى حد ، وبدا الخطر الأكبر من ثورة المسلمين التى ألهبها العلماء المتعصبون الغاضبون على الانجليز ، بما لهم من أثر كبير على العوام الجهلاء »[٣] .

ويقول مستر هنتر :

---

(١) كتاب « ماضى العلماء المجيد » ﺣ٤ ص٢١ لمولانا محمد ميان .

(٢) المصدر السابق ص ٤ .

(٣) روشن مستقبل ص١٠٨ نقلا عن كتاب «مسلم الهند» لمسترهنتر .

«كان علماء شمالي الهند أول من أفتى بوجوب الجهاد ضد الانجليز، ثم سرت هذه العدوى إلى مسلمي البنگال الذين أصدروا منشورات تحض على الجهاد، حتى أن الشيعة الذين يعادون هؤلاء العلماء لم يستطيعوا أن يخالفوهم، فأصدروا هم كذلك منشورات مثلهم»[1].

وقد زاد النفوس اشتعالا ما أقدم عليه «دلهوزى» من اعتقال «واجد على شاه» ملك «أود» وضم بلاده للشركة سنة ١٢٧٣هـ - ١٨٥٦م، وكذلك إلغاؤه كثيرا من الألقاب والمرتبات التي كان يتمتع بها بقايا ملوك الولايات التي ضمت للشركة من قبل، مثل حاكم «أركان» و «تانجور» ومثل «ناناصاحب» وارث ملك المراهتا، وأكثر من ذلك كله هذا الإنذار الذي وجهه هو «واللورد گيننگ» إلى ملك المغول «بهادور شاه» المسن القابع في قلعته، بأنه سيكون آخر ملك يتمتع باللقب والمرتب وسكنى القلعة التي ستصير بعده ثكنة للجيش الانجليزي، وقد كانت من قبل مهوى الأفئدة، ومحط الرجاء، ومسكن الملوك العظماء، فأي غم أصاب الهنود ولا سيما المسلمين؟ فلئن كان ملكهم قد بلغ من الضعف إلى نهايته، لقد كان الأمل أن يقوى هذا الملك بواسطة الشعب الذي يسنده، حتى يبقى حكم الهند في يد أبنائها، ولقد رأينا الشعب بمختلف دياناته يقف خلف «بهادرشاه» يسنده ويقوى ظهره، وتقدم المراهتا وغيرهم ممن عاشوا كثيرا محاربين لملك المغول، تقدموا مختارين، فأعلنوا طاعتهم له، ووضعوا نفوسهم وما يملكون رهن إشارته، في سبيل طرد الانجليز من البلاد. فملك المغول - إذن - على رغم ضعفه كان رمز الشعب على اختلاف طبقاته، والقضاء عليه وعلى مركز ملكه. وتحويله لثكنة يسكنها صعاليك الانجليز، هو قضاء على أمل للشعب ظلوا متعلقين به، ومن شأن هذا التصرف أن يزيد في غضب النفوس، بل إنه ليبلغ بها إلى غايتها في الغضب، وفي الاستبسال من أجل الإبقاء على أملهم.

---

(١) روشن مستقبل ص ١٠٨ نقلا عن كتاب «مسلمو الهند» لمستر هنتر.

ومن أجل هذا أخذت الجهود المبعثرة تتحد ، والغضب الذى يجرى كالسيل هنا وهناك بدأ فى التجمع والتنظيم ، وقام جماعة يدبرون ويضعون الخطط للقيام بثورة جماعية فى الهند كلها ، بحيث لا يستطيع الانجليز مجابهتها ، فيضطرون لترك البلاد والرحيل عنها لأهلها ؛ هكذا قدر المدبرون ودبروا ـ المسلمون منهم والهندوس ـ حتى قيل إنهم عينوا ١١ مايو سنة ١٨٥٨ م موعداً لقيام الثورة فى جميع أنحاء الهند . وكتبت المنشورات ، وتفرق الخطباء يخطبون ، ويجهزون لذلك اليوم . ولكن هل أحكموا التدبير وأتقنوا تنظيم الثورة فى جميع النواحى ، وفى وقت واحد كما ينبغى ؟ ، وماذا كانت نتيجتها ؟

كل هذه أسئلة تجد الجواب عنها فيما يأتى ..

الثـــــــورة
أدوارها ونهايتها

كان من المصادفات العجيبة أن تندلع الثورة من الجنود فى ثكناتهم العسكرية فى « ميرت[١] » ، وفى اليوم الذى قيل إنه حدد لقيام الثورة ، ولأسباب داخلية تتصل باستهتار الإنجليز بعقائد الجنود من الهند ، وتعسفهم فى معاملاتهم . .

فقد جلب الإنجليز « خراطيش » كانوا يدهنونها بشحم الخنازير والبقر ، وكان يتعين على الجنود قطع هذا الشحم المتجمد قبل استعمال هذه الخراطيش ، ولتعنت الإنجليز واستهتارهم كانوا يأمرون الجنود بقطعه بأسنانهم ، وكان فيهم كثرة من الهندوس وقلة من المسلمين ، والبقر محرم أكله على الهندوس تحريم الخنزير عند المسلمين ، فتذمر الجنود وعصوا الأوامر الصادرة لهم فى هذا الشأن استجابة لعقائدهم الدينية ، وطلبوا إعفاءهم من هذه العملية ، ولكن الإنجليز فى نوبات غرورهم أخذتهم العزة بالإثم ، ورأوا فى عمل الجنود ذنبا لا يغتفر ، وعصيانا لا بد أن يقابل بالقمع ، حتى لا تحدث أحد نفسه بالخروج على أوامرهم ، وحتى يذلوا الجنود ، وبالتالى من كان وراءهم من الأهالى فى ناحية حساسة وهى عقائدهم ، واستمروا فى غرورهم ، وأنزلوا بالجنود العصاة عقاباً قاسيا ، حيث حكموا على ٨٥ منهم بالسجن عشر سنوات ، وتفننوا فى إذلالهم بشتى الوسائل ، وأدع هنا وصف هذه المحاكمة لمؤرخ أمريكى هو « إدورد تومس »[٢] يقول :

---

(١) شمال دلهى بنحو ٥٠ ميلا لا يزال للآن فيها معسكر كبير للجيش الهندى .. وهى من مدن الولاية الشمالية (يو — بى) الهامة .

(٢) فى كتابه Lhe ather Sideofmedal ترجمة مجلة الضياء عدد ربيع الأول سنة ١٣٥٤ وقد عنى المؤرخ الأمريكى باظهار الجانب الذى حرص الإنجليز على إخفائه من حوادث الثورة ، ويعتمد عليه المؤرخون المسلمون والمنصفون من غيرهم فى إبراز مظالم الإنجليز وفظائعهم فى الهند .

« سيق ٨٥ جنديا إلى المحكمة العسكرية تحت مراقبة الحراس ، وحكم عليهم بهذا الحكم الفظيع ، ثم عريت أجسامهم من ملابسهم العسكرية ، وكبلوا بالحديد ، وكان منظراً مؤلما تسيل له قلوب رفقائهم ، إشفاقا عليهم ورحمة بهم ، وكان فى المحكوم عليهم من خدم الإنجليز خدمات جليلة ، وحارب فى صفوفهم ، ولقى الشدائد والأذى فى سبيل مرضاتهم ، وشكى جميع الأسرى إلى القائد سوء حالهم ، وتذرعوا إليه بكل ما يمكن من الكلمات الرقيقة ، والدموع المنهمرة ، حتى لا يبتليهم بهذا الذل والهوان ، لكنه لم يصغ إليهم ، فلما يئسوا من رؤسائهم شخصوا بأبصارهم إلى زملائهم قائلين : ما لكم تشاهدون كل ما نحن فيه من الذل والخزى وأنتم ساكتون ؟ أولا تحسون المذلة ؟ . أم انطفأت أرواحكم ؟ ما بالكم لا تحركون ساكنا فى شأننا ؟ ! . فوجدت هذه الكلمات سبيلا إلى قلوب أصحابهم ، ونزلت عليهم كالصاعقة ، فاعتزموا شيئا أسروه فى أنفسهم ، ولولا الجنود المدججة بالسلاح والآلات النارية لوثبوا عليهم ، وأطلقوا سراح إخوانهم ، لكنهم كظموا غيظهم ، وانطوت صدورهم على الحقد والعداء للظالمين ، وأصبح الذين كانوا يضحون بالنفوس والنفائس لنيل مرضاة رؤسائهم ، يتربصون بهم الدوائر ويقعدون لهم بالمرصاد » .

وهكذا صارت قلعة « ميرت » بركانا يغلى بالغضب على الإنجليز جزاء تعنتهم وظلمهم الذى لم يستطيعوا التبرؤ منه .

يقول القائد العام للشركة فى ذلك الوقت « أنسر » (Anser)[١] :

« قد شاهدت بنفسى الخراطيش التى كانت مبعث الريبة ، فوجدت أن الجنود كانت على حق فى امتناعهم عن استعمالها ، وما كنت إخال أن هذه الخراطيش تدهن بشحوم البقر والخنزير ، فالحق أنهم لم يحفلوا بعواطف الجنود الأهلية » .

---

(١) المصدر السابق .

ويقول حاكم الهند العام وقتئذ « لورد كيننگ » عن هذا الحكم (١) :

« بلغ هذا الحكم من السفاهة مبلغا لا يوجد له نظير فى تاريخ الهند ، وبذلك اضطرمت نار الثورة وشب لهيبها » .

كانت هذه المحاكمة فى ٩ مايو سنة ١٢٧٤ هـ - ١٨٥٧ م ، ولم يأت اليوم الثانى حتى وثبت الجنود فى معسكر «ميرت» على رؤسائهم الإنجليز ، يقتلون ويدمرون ، ومنها بدءوا زحفهم إلى العاصمة « دهلى » .

يقول مولانا فضل حق خير أبادى فى كتابه « الثورة الهندية » عن هذه الواقعة (٢) :

« فعمدوا - أى الإنجليز - بادىء بدء بمكائدهم إلى أن يذلوا جنودهم ، من مسلميهم وأهاندهم ، عن رسومهم وقواعدهم ، ويضلوهم عن أديانهم وعقائدهم ، لزعمهم أن الجنود من الأبطال ، إذا ارتضوا لأديانهم بالأبدال ، وتلقوا أحكامهم بالقبول والامتثال ، لا يكون لغيرهم مساغ ومجال للنكول ، مخافة النكال ، فكلفوا الأهاند منهم - وهم جم غفير وجمع كثير - بإذاقة شحوم البقير ، والمسلمين - وهم قليل نزير - بإذاقة شحوم الخنازير ، فانحرف كل من الفريقين عن الطاعة والانقياد ، حفظا لما لهم من الدين والاعتقاد ، فأخذوا يقتلون فريقهم ، ويقطعون طريقهم ، ويغتالون طرخانهم وبطريقهم (٣) ، ومنهم من اعتدى وأساء ، وارتكب الفظاظة والقساء (القسوة) ، فقتل الولدان والنساء ، فاستحق الخذلان والهوان ، من اغتيال النسوان ، واستوجب الخزى والصغار ، من قتل الصبية الصغار ، ثم إن كلا من الجنود المنحرفة قد انتهضوا من معسكرهم ومقامهم ، بعد الفتك بأمرائهم وحكامهم ، فسار كثير منهم إلى

(١) المصدر السابق .

(٢) ص ٢٥٩ وكان من زعماء المجاهدين ونفى بعد فشل الثورة إلى (جزائر أند مان) فى خليج البنغال ، وكتب عنها هذا الكتاب الذى يعد أصدق تصوير لها .

(٣) ألقاب لرؤساء الفرق : الطرخان يكون على رأس خمسة آلاف والبطريق على رأس عشرة آلاف جندى ..

إلى دار الملك « دهلى » التى هى مصر مشهور، وبلد معمور ، ومثوى لجمع كثير من آل تيمور » .

كيف دخل الثوار الجنود « دهلى » :

زحف الجنود الثائرون إلى دهلى فى صباح الحادى عشر من مايو ، وكان من الطبيعى أن يقوم الجيش الإنجليزى فى دهلى بصدهم عن دخولها ، ولكنهم هزموه وعبروا « كوبرى » نهر « جمنا » ودخلوها ، ويحسن هنا أن أنقل شيئا من مذكرات امرأة انجليزية عاشت فى المعمعة ، ووصفت أهوالها[1] ، قالت بعد أن تحدثت عن بلبلة أفكار الانجليز ، وخوفهم من أنباء الثورة المقبلة ؛ واعتقادهم أن قائد الانجليز فى « دهلى » - جنرال كراو - كفيل بالقضاء على أية ثورة بما لديه من أسلحة ، قالت : بينما كنا نتحدث فى بيتنا الذى كان يقع على الطريق الآتى من «ميرت» إذ رأينا الغبار قد ارتفع من جانب «ميرت» ، والجنود الانجليزية - الفوارس منهم والمشاة - يستقبلوننا تارة ، ويستدبروننا تارة أخرى ، ثم علمنا بعد حين أن الجنود الهنود فى الجيش الانكليزى قد فروا وانضموا للثوار ، والذين بقوا يحاربون حرب الفرار ، وجنود الثوار تهجم عليهم من كل جانب كالبحر ، فأقام الجنرال « كراو » مدفعا على تل كان هناك لدفعهم ، ولكنهم لم يبالوا بهذا المدفع ، وتقدموا إلى « دهلى » تاركين جرحاهم وقتلاهم بجوار حائطنا » .

ولما تركت بيتها خارج أسوار دهلى ، وأرادت الاحتماء داخلها ، وسارت متخفية . استطاعت أن تشاهد كثيرا من أدوار الثورة . فتقول « وكان على الجسر «الكوبرى» زحام من أهل البلد ، قد خرجوا لاستكشاف الحادثة ، فلما سمعوا خبر هزيمة « جنرال كراو » ، وأن جنده يفرون من الثوار . أخذتهم النشوة، وكانوا ينظرون إلينا - ونحن نسير أمامهم - بالازدراء والاحتقار ، لكننا

---

(١) وهى مسز هورتست ترجمت مذكراتها للفارسية ومنها ترجمها للعربية السيد على الزينى بجامعة لكنو، ونشرت بالضياء عددى رجب وشعبان سنة ١٣٥٤ ننقلها على علاتها .

ما أظهرنا شيئا من الكبر والزهو ، وإلا لقتلنا جميعا ، وياليت ذلك قد كان ، ولم نرما رأيناه بعد من شدائد الحياة ، فلما وصلنا إلى أبواب دهلى (وكان عليها سور يحيط بها مثل كل المدن فى الأيام الماضية) وجدناه منسدا بالازدحام ، وكان الناس يخرجون من داخل البلد ويصيحون : اقتلوا الانجليز حيث وجدتموهم ، ولاتبقوامنهم رجلا أو امرأة ولا ولدا » .

وتقول : « فلما وصلنا عند حصن سليم الغورى ، رأينا أهل المدافع قد وقفوا مستعدين ، ينتظرون الأوامر لإطلاقها على الثوار ، ولكنهم كانوا من الأهالى ، فألقوا القنابل فى الخندق ، ونهبوا السلاح ، ولحقوا بالثوار ، فتقويت بذلك روحهم المعنوية ، وجاء الثوار يتعقبون جند جنرال « كراؤ » الفارين ، وأخذوا فى قتل الانجليز ونهب أموالهم ، ووقع الشغب فى كل مكان » .

وتقول حينما نظرت من مخبئها إلى الخارج : « رأينا جماعة من الانكليز يقتلون ويحرقون بأيدى الهنود ، وحينما انتقلت من مخبئها إلى مخبأ آخر تقول : « ومشينا فى البيت فرأينا فى كل جانب وزاوية جثث القتلى والمضروبين الذين كانت لا تزال أجسامهم حارة ، والدم كان يسيل فى كل مكان ، حتى كانت الأقدام تزل فيه ، كما كانت الحيطان ملطخة بالدم كذلك » .

وحينما جاء لهم خادمهم الفيال المسلم ، الذى كان يرعى فيلهم سألوه عن الأخبار . فقال لهم : « إن البلدة كلها فى يد الثوار ، وأنهم اختاروا ملكهم الشيخ المتهدم للجلوس على عرش الحكومة (أى حاكما وقائداً للثورة ، ومن قبل لم يكن له أى نفوذ لأن الحكم كان بيد الإنجليز) ، ونهبوا كل بيت انكليزى ، وقتلوا كل من وجدوه من الانكليز ، والجنود الانكليز ، الذين اجتمعوا فى المعسكر قد تفرقوا ، ولو أن مخزن الذخائر لا يزال فى يد الجنرال كراؤ » .

وتقول معلقة على حديث زوجها لها ، وهم فى مخبئهم يطمئنها إلى انتصار الانجليز :

، وكانت هذه الكلمات لتسليتنا فقط ، وإلا فإن زوجى كان عارفا أن الجنود الأهلية إنما بغوا ؛ لأنهم لا يريدون سيطرة الانجليز عليهم ، للتباين الموجود فى القومية والوطن والدين والعادات والتقاليد ، ويريدون إعادة الدولة المغولية ، لأن الانكليز قد أهانوهم فى المعاشرة ، وأفسدوا عليهم دينهم ، حتى أجبروهم على عض الخراطيش ، وكسرها ، وهى مدهونة بشحوم الخنازير والبقر .

وبينما نحن فى هذا الكلام ، إذ سمعنا صوتا مدويا زلزل بنا الأرض فوقعنا كلنا من شدته ، وعلمنا أن ذلك أثر تفجير الانجليز لذخائرهم ، خوفا من استيلاء الثوار عليها ، حين عجز الضباط عن المقاومة ، وقد فنى البارود والضباط إلا قليل منهم ، وكان هذا فى اليوم الثالث عشر من مايو » .

وتقول : « إن خادمنا الفيال جاء وأخبرنا أنهم شالوه عنا ، وأن رئيس الشرطة قد قرر جائزة ثلثمائة روبية لكل من يأتيه برأس رجل من الانجليز ، ومائتين وخمسين لرأس المرأة ، وللطفل مائتين . فارتعدنا من هذه الأخبار ، ونسينا ما كنا فيه من الجوع » .

وتقول حين خرجوا وراء زوجة الفيال ، وقد ارتدوا جميعا الملابس الهندية للتخفى والذهاب إلى مخبأ آخر : « نخرجنا لابسين الملابس التى أتت لنا بها ، نقفو أثرها مارين بشوارع وسكك دهلى التى كانت ملطخة بالدماء ، وما رأينا فى الطريق أحداً إلا الكلاب والأغربة والنسور التى تنهش أجسام الموتى » .

ثم تقول : « وبعد ذلك بأيام خفض الهنود من ثورتهم ، وكانوا يقتلون ذكور الانجليز بعد التحقيق معهم والمرافعة عنهم ، وكانت الأوامر تصدر من ملك الهند « سراج الدين محمد بهادر شاه » ، ويستحيون النساء ، وكانوا أولا يعرضون الإسلام عليهم ، فكثير من الانكليز دخلوا فى الإسلام وخلصوا أنفسهم من أيدى الظلمة »(١)

(١) لما قبض الملك على السلطة أصدر أوامره بعدم الاعتداء على النساء والأطفال والإنجليز غير المحاربين ، ويظهر أن ما تقوله الكاتبة كان بعد صدور هذه الأوامر ، أما قبلها فكانت الثورة بلا عقل تسيرها رغبة الأهالى فى الانتقام .

ثم تقول : « وبعد هذه الشدائد عزمنا على الخروج من دهلى إلى « أكرا » ، وأخذ فيالنا يهيء لنا أسباب السفر ، لكن أخباره وصلت إلى رئيس الشرطة فشنقه ، لأنه من المسلمين الذين يعينون الكفرة المسيحيين ، وعلقه فى جزع شجرة كانت فى فناء دارنا ، ولكن ما كانت عندنا فرصة لنقضى حق الجزع عليه ، ونقيم المأتم حزنا على هذا الرفيق الوفى » .

تلك صورة خاطفة آثرت أن أعجل بها هنا قبل الكلام على التفاصيل ، وهى على كل حال ليست صورة غريبة عما يلازم هذه الثورات من حوادث ، تأتى نتيجة لاشتعال عواطف الحقد والكراهية على قوم معتدين متعنتين .

* * *

نرجع بعد ذلك للوراء لنذكر أن العلماء دعوا لاجتماع عام فى المسجد الجامع بدلهى ، وأعدوا فتوى بإعلان الجهاد وقعها كثير من العلماء البارزين ، ولما شاعت هذه الفتوى فى هذا الوقت ثار كثير من الناس ، وتجمع فى دهلى عشرات الآلاف من الجنود الثائرين ، وفى الوقت نفسه أصدر الثائرون من المسلمين والهندوس إعلانا مشتركا ، يقضى باختيار الملك المغولى المسن « بهادور شاه » قائدا أعلى للثوار ، وانضوى المراهتا - الذين كانوا دائما محاربين للملوك المغول - انضووا تحت حكمه راضين مختارين فى سبيل جهاد مشترك لأخراج الإنجليز ، وكان اختيار الملك المسن رمزا لرضاء الجميع عن الحكم الوطنى المغولى ، وإن لم يكن الملك فى شيخوخته قادرا على قيادة ثورة عارمة كهذه الثورة ، فوق أنه لم تكن هناك شخصية قوية يتجه إليها الثائرون تقودهم فى هذه الظروف الحرجة . .

وقد جعلت القيادة العامة على الجنود الثائرة لبعض أبنائه مثل « ميرزا مغل » و « خضر سلطان » ، ولم تكن لهم تجربة فى مثل هذه الشدائد ، وكان على المدفعية رجل شجاع ماهر هو « بخت خان » ، وانقض الأهالى مع الجنود على الإنجليز فى كل مكان ، وهزموا قواتهم التى تعرضت لهم ، وأخذوا

يقتلون كل من يرونه من الانجليز ، رجلا كان أم امرأة أم طفلا . كانت ثورة النفوس جارفة ، وانطلق كل ثائر ينفس عما فى نفسه من غل وحقد على هؤلاء الذين أذلوهم ، وكادوا لدينهم وسلطانهم . وسيطر الثوار على الموقف فى « دهلى » وجرت دماء الانكليز أنهارا فى الشوارع والبيوت ، وكان القتل مصير أى فرد يتواطأ مع عدو البلاد ، أو يخفيهم فى بيته ، وكان من الممكن أن تنجح هذه الثورة فى دهلى ، وفى غيرها لو وجدت القيادة الرشيدة الحازمة ، والتنظيم الذى يعرف كيف يستغل العواطف المشتعلة ، والإخلاص الذى ينفى خبث الخبثاء ، والخائنين الجبناء ..

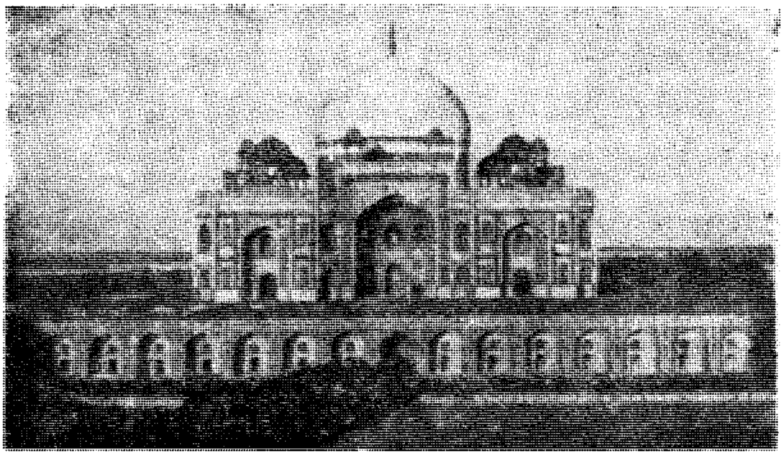
ولكن ما أراده الله كان ، وهو لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، ولا يمكن للشجرة التى ظل السوس ينخر فيها طويلا أن تثبت أمام العواصف العاتية ، وكانت الثورة تحمل فى طياتها كثيرا من عوامل الضعف ، وعدم الاستعداد لمجابهة القوة المنظمة بمثلها ، كما أن كثيرا من المحيطين بالملك كانوا على صلة بالانجليز ، وبجانب هذا كان كثير من التجار الهندوس قد وجدوا الثراء والانتعاش على يد الانجليز ، مما جعل الانجليز يجدون أسنادا لهم وأعوانا فى كل ناحية ..

وفى أثناء الثورة وبعد ما ظهرت بوادر الفشل ترك الملك ـ الذى جعله الثوار قائدا عاما لهم ـ قلعته مع أهله وأولاده ، والتجأ إلى مقبرة « همايون » خارج البلد ، بعيدا عن مركز الخطر ، فكان لهذه الخطوة أثرها السيء جدا فى نفوس الثوار ، حيث بعثت فى قلوبهم الذعر والخوف ، وتفاعل هذا العامل مع العوامل الأخرى ، فلم يلبث الانجليز أن سيطروا على الموقف فى دهلى بعد أن استمرت الثورة أربعة شهور أى فى ١٩ سبتمبر سنة ١٨٥٧ م .

ولعل خير ما تقرؤه فى وصف هذه الثورة وأدوارها ، هو ما دونه أحد زعمائها وهو مولانا فضل حق خير آبادى الذى أشرت إليه مرات من قبل ، والذى اشترك فى إيقاد اللهب وعاش وسطه حتى انطفأ . كتب يقول(١) :

---

(١) ص ٣٦١ وما بعدها من كتابه الثورة الهندية ما



مقبرة همايون فى نيودلهى الآن وهى من الآثار الإسلامية الخالدة

« ذهب كثير من الجيوش إلى دار الملك دهلى ، فأمروا بها من كان من قبل من بينهم رئيسا[١] ، وقد رد إلى أرذل العمر ، وهو فى الحقيقة لزوجه[٢] ووزيره مأمور ، وكان عامله الذى كان فى المعنى واليا عاليا ، للنصارى مواليا ، وفى حبهم غاليا ، ولمن عداهم مبغضا قاليا ، وكذا بعض عشيرته الأقربين[٣] يفعلون ما يشاءون ، ويعملون بآرائهم وفى طاعته يراءون ، وهو إمر لا يعلم أمرآ ، ولا يأمر برأيه أمرا ، ولا يفقه خيرا ولا شرا ، ولا يحكم بشىء جهرا وسرا ، ولا يملك نفعا ولا ضرا ، هذا وقد انتهض من بعض القرى والبلاد ، جمع من المسلمين الجلاد ، للغزو والجهاد ، بعد الاستفتاء والاستشهاد ، من العلماء الزهاد ، وإفتائهم بوجوب الجهاد ، وقد أمر ذلك الأمر على الجيوش ، بعض من له الأحفاد والأبناء ـ يريد ميرزا مغل وخضر سلطان وغيرهما ـ ، وكانوا من السفهاء الخوان الجبناء ، والمتنفرين من العقلاء الأمناء ، لم يشهدوا ملحمة وحربا ، اختاروا للمعاشرة والمشاورة سرقة من أهل السوق ، وانغمروا

---

(١) يقصد بهادور شاه .

(٢) يقصد الملكة زينت محل وحكيم أحسن الله خان كما جاء بهامش الكتاب .

(٣) [illegible] ل وغيره » .

فى الترف والفسوق ، وكانوا يأخذون من الناس بحيلة تزويد الجيوش وتجهيزهم مالا جما ، ثم يأكلون كل ما يأخذون أكلا لما ، ألهتهم ملاهيهم فى رخاء العيش . فأخرتهم عن مقدمة الجيش ، يبيتون نياما ، ويظلون سكارى ، وإذا انتبهوا وصحوا فهم أغفال حيارى ، هجمت عليهم بالجنود النصارى ، وقد عسكروا على جبل شاهق ، ونصبوا عليه مجانق[1] يرمون بها المساكن والدور ، كأنها شهب وصواعق . والجنود المنحرفة (الثائرون) أشتات مختلفة ، صاروا طرائق قددا ، بعضهم لا يطيع أحدا ، والبعض لا يجدون ملتحدا ، منهم من ونت لفقره طاقته ، وأقعدته عن القيام بالحرب فاقته ، ومنهم من عوقه عن الحرب ما نهب ، ومنهم من هرب وقلبه رهب ، ومنهم من طغى وبغى ، ومنهم من يستنكف بلبس الشفوف ، عن الدخول فى الصفوف ومنهم من كان يجالد ويحارب ، والنصارى بعد ما وهنوا ، استمدوا فى الحرب هنادك الغرب ، فأمدوهم بكثير من العدد والعدد ، وأعانوهم بمدد بعد مدد ، فى أقصر المدد ، فجمع النصارى على ذلك الجبل كثيرا من الأعوان . فمن جنودهم أشياعهم البيض ، ومنهم أجراؤهم من أراذل الهنادك ، والمسلمين الذين ارتدوا بولاء النصارى عن الإيمان ، وباعوا دينهم ببخس من الأثمان . . »

« وقد ائتلف بالنصارى من سكان البلد آلاف ائتلافا ، فالهنادك كلهم معهم وأما المسلمون فقد اختلفوا اختلافا ، فبعضهم للنصارى قالون ، وبعضهم لهم موالون ، فى حبهم غالون ، يجدون لكسر الجنود الثائرة بالحيل والمكائد ، ويجتهدون فى فل شوكة المجاهدين ، وتبديد شملهم ، وتفريق جمعهم . »

« وطفق النصارى يحملون على البلد وأبوابه ، والمجاهدون وفريق من الجنود ، يعوقونهم عن البلد ، يتجالد الفريقان ليلا ونهارا ، ركبانا ورجالا ، وكانت الحرب بينهما أربعة أشهر سجالا[2] ، فذاق كثير منهم شهد الشهادة ، وسعدوا إذ صعدوا معارج السعادة ، « وللذين أحسنوا الحسنى وزيادة » ،

---

(١) لا بد أنها المدافع ، لكن يظهر أن السجعة حكمت عليه .

(٢) من ١١ مايو إلى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٥٧ م .

وما بقى من المجاهدين إلا قليل ، يبيتون جياعا ، ويصبحون إلى الغزو سراعا » فكانوا مع جمع من الجيش يحفظون السور ، ويسدون الثغور » .

ثم وصف بعد ذلك كيف انتهز الإنجليز فرصة نوم حراس إحدى المواقع واستولوا عليها ، ثم أخذوا منها يضربون البلد والسور المحيطة بها[1] ، حتى هدموا بعض أجزائه ، وسيطروا على القلاع المشرفة عليه ، وبحيلة حربية « دخل فريق من النصارى وجنودهم من باب أوهنوه ، وسور هدموه ، فلم يجدوا مزاحما ولا مقاوما » ، ثم استمالوا أهل الجهة التى دخلوا فيها وحصنوها ومنها أخذوا يزحفون ويستولون على بيت بعد آخر ، ويتحصنون فيه ، ويضربون من يظهر من الثوار ، وفى ذلك الوقت « خرج الملك مع من له من آل وعيال ، إلى مقبرة هى من البلد على ثلاثة أميال ، (مقبرة همايون) ، وكان مطيعا لزوجه وعامله الخوان . مغترا بما كان يختلقه من الكذب والبهتان ، ويسول له أن النصارى بعد تسلطهم يتبعونه بإحسان ، ويمكنونه فى الملك بأبهة وسلطان ، وكان مغرورا مسرورا ، وخرج مع الملك من له من الأمراء والأجراء ، تاركين فى بيوتهم أمتعتهم ، وبخروجهم من البلد استولى الرعب على كثير من سكانه ، فخرج كل من مكانه ، فلما خلت الديار من أهلها ، دخلت النصارى وجنودهم فيها ، فمالوا على ما وجدوا فيها من المال . واغتالوا من بقى فى الدور من النساء والأطفال ، والضعفاء من الرجال . . »

وكان وقتا تشيب لهوله الولدان ، ومع ذلك ثبت فريق من المجاهدين ، يقاتلون هنا وهناك ، ولكن البداين من الهنادك بالاشتراك مع مرزا إلهى بخش منعوا كل قوت عن المجاهدين ، وحالوا بينهم وبين ما كان يجبى إليهم من ثمرات القرى « حتى ظلوا وباتوا جياعا ، والتاعوا التياعا ، فاضطروا أشد اضطرار ، وفروا أشنع فرار ، فاستولى النصارى على البلد وأبوابه ، وقلعته وسوره ، وأسواقه ودوره . . »

---

(١) وقد دلنى بعض الزملاء على آثار الضرب فى السور عند بوابة كشمير فى دلهى ويسمونها (كشميرى جيت) .

ومن المؤسف حقا أن تقوم الخلافات الكثيرة بين زعماء الثوار ، وأن تسول للأمراء وبعض حاشية الملك نفوسهم خيانة المجاهدين ، وطعنهم من الخلف ، وأن يشتغل أبناء الملك بالخلاف فيما بينهم من أجل العرش فى هذا الوقت ، وأن يعملوا على إضعاف المجاهدين وقوادهم الأمجاد ، مثل « جنرال بخت خان » ، وقد كانوا يظنون بعقولهم الساذجة أنهم بما يقدمونه للإنجليز ضد إخوانهم سيقربهم لديهم ، ويجعل لهم الحظوة عندهم ، ولكن خيب الله ظنونهم ، فكانوا ضحايا غدرهم مثل غيرهم . . وهكذا تمكن الإنجليز من الانتصار على الثائرين بعد أربعة أشهر ، ولم يساعدهم على ذلك إلا حسن تنظيمهم وثباتهم ، فى الوقت الذى اشتغل فيه أكثر الثائرين ، ولا سيما بعض رؤسائهم بأنفسهم ومطامعهم ، فجرت عليهم سنة الله ، وكان أمر الله قدرا مقدورا .

الثورة فى المناطق الأخرى

ولنترك دهلى الآن ـ بعد أن وقعت فى قبضة الإنجليز ـ لنعرف أخبار الثورة فى المناطق الأخرى .

فمن المؤسف حقا أن الثورة لم تقم كلها فى وقت واحد ، كما كان منتظرا ، وقد أتاح ذلك للإنجليز فرصة التفرغ لمنطقة بعد أخرى ، كما أن مناطق الثورة قد انحصرت فى وسط الهند : فى دهلى ، وكانبور ، وجهانسى ، ولكنو ، وتهانه بهون ، وبعض مناطق الحدود التى كانت من قبل فى ثورة ضد الإنجليز .

ففى البنگال مثلا قامت ثورة على يد « منگل باندى » فى ٢٢ مارس سنة ١٨٥٧ فى منطقة « دمدم » ، ولكنها أخمدت بسرعة ، قبل أن تبدأ الثورة فى المناطق الأخرى ، وأعدم هذا الرجل فى ٨ مايو . .

ولما قامت الثورة فى دهلى لم تقم فى لكنو ، وكانبور ، وجهانسى إلا متأخرة ، بعد أن وصلتهم أخبارها بأسابيع . .

فى ١٤ مايو وصلت أخبار الثورة إلى « كانپور » فقام « نانا صاحب » المراهتى بالثورة فيها . وكان يسكن فى « ديتهورا » ، ولـكنه لم يشرع فى هذه الثورة إلا فى السابع من يونيو ، أى بعد مضى نحو شهر على الثورة فى « دهلى » وكان « نانا صاحب » متفقا مع ثوار دهلى على الثورة ، وأعلن معهم خضوعه للملك « بهادور شاه » ، وقد هاجم الإنجليز فى كانپور بالمدافع ، وقاتل قتال الأبطال هو وقومه من المراهتا ، وفتك بهم فتكا ذريعا ، ولما يئس من النصر قضى على كل من كان تحت يده من الإنجليز نساء وصبيانا ، وألقى بجثثهم فى بئر ، اتخذ منه الإنجليز مزارا بعد أن انتصروا ، أما هو فبعد هزيمته ترك كانپور واختفى . .

أما لـكنو : فقد قامت الثورة فيها أيضا متأخرة مثل كانپور ، وكان الأهالى ساخطين على الإنجليز ، لاسيما بعد اعتقالهم ملـكهم «واجد على شاه» ، وكانت زوجته وتسمى « حضرت محل » لا تزال فى لـكنو العاصمة ، هى وابنها الصغير « مرزا رمضان على » الذى عرف باسم « برجيس قدر » ، فقام الثوار والزوجة الباسلة على رأسهم ، لتنتقم لزوجها ووطنها ، وكان بعض رؤساء الثوار فى دهلى مثل « جنرال بخت خان » ، ومولانا « أحمد الله شاه مدراسى » المعروف باسم « دلاورجنگ » وغيرهما قد فروا منها ، وتركوها بعد أن لعبت بالثورة الأغراض والأهواء والدسائس ، وانضموا للثوار فى لـكنو ، وقام أحمد الله شاه بتنظيم الحركة ثم فى ٥ يونيو سنة ١٨٥٧ م ، أعلنوا جلوس « برجيس قدر » على العرش ، وانتزاع أمر الحـكومة من يد أحمد الله شاه ، وكان ذلك بمساعدة نواب أحمد على خان المعروف باسم « مموخان » الذى يقول فيه مولانا فضل حق « إن المملكة فوضت الأمر كله ، حله وعقده ، إلى عامل خامل ، لم يكن للأمر أهلا ، يستصعب كل سهل ، ويحسب كل صعب سهلا » ثم مضى يصف فساده وسوء اختياره لرجاله وقواده ، وكان من نتيجة ذلك أن غضب عليهم مولانا أحمد الله شاه مدراسى ، ثم تنحى عن العمل .

وعندما أحس الإنجليز بالثورة تحصنوا هناك فى قصور حصنوها ، وجاءهم المدد ، وكان الثائرون قد هجموا عليهم هجمات متوالية ، وأحرقوا بعض هذه القصور ، التى لا تزال للآن فى لكنو ، ـ كما رأيتها ـ وفيها آثار التخريب والحريق ، وقد حولها الإنجليز بعد انتصارهم إلى متحف حربى ، عرضت فيه أسلحة ذلك الوقت ، ونسقوا الحديقة التى أمامه ، وأقاموا فيها تمثالا لأحد القواد ، المهم أن الثائرين فشلوا ، فاضطروا إلى تسليم لكنو للإنجليز ، وخرجوا هائمين على وجوههم وفى الوقت نفسه تقدم الإنجليز ، وحاصروا قصر « بيكم حضرت محل وولدها الملك برجيس قدر » ، وكل من كانوا معها « قد فروا من مراصدهم فراراً ، لم يستطيعوا معه قراراً ، وتركوها وابنها وحيدين فى قصورهما ، وخانهما كثير من أولياء دولتهما ، وأركان سلطنتهما ، ونكثوا المواثيق والأيمان ، واستبدلوا الكفر بالإيمان ، فدخل النصارى البلد ، فوجدوا بيوتها خالية ، وحاصرت جنودهم وأعوانهم مقصورة كانت فيها الوالية ، فخرجت مع ابنها وامرأتين من صواحبها متخفية راجلة ، ودخلت محلة أخرى عاجلة ، ومكثت فى تلك البلدة ثلاثة أيام تستعد ، وتستنفر الناس ولكن دون جدوى ، فلما استيأست من الأعوان نفرت مع ابنها وعدة من الأنفار ، للسفر إلى القاع والقفار ، فاجتمع لها جماعات من الفرسان والرجال ، بل وربات الحجال ، وهم حفاة عراة ، وقد كانوا قبل من السراة »[1]

ولما أحست الملكة «حضرت محل» أن معها جمعا تستطيع به منازلة الإنجليز ، عسكرت فى إحدى البلاد ، واستعدت للحرب والجلاد ، ولكن للأسف لم يستطع من معها الثبات أمام الإنجليز ، ففر الكثير وبقى قليل يحاربون حتى استشهدوا فى بلدة « نواب گنج » قريبا من لكنو .

وعند ما انهزم الثوار فى لكنو ذهب بعض رؤسائها إلى مدينة

---

(١) من كتاب الثورة الهندية لمولانا فضل حق ص ٣٩٦ بتصرف .

« شاهجهانپور » الواقعة على الغرب منها ، وأقاموا حكومة إسلامية في مركز « محمدى » التابع لها ، وكان من هؤلاء مولانا أحمد الله شاه مدراسى وجنرال بخت خان، واتصل بهم « نانا راؤ المراهتى » الذى قاد الثورة فى كانپور هو ومولانا عظيم الله كانپورى وغيرهم ، واستطاعوا أن يهزموا الإنجليز أولا ، ولكن النصر انقلب بعد قليل إلى هزيمة استشهد كثير منهم فيها .

أما الباقون فقد فروا إلى « نيبال » . فى أقصى الشمال . وقد قتل مولانا أحمد الله بواسطة خيانة دبرهاله الراجا الهندوسى « بلديو سنگ » ، حيث دعاه إلى مائدته ، وأظهر له حمايته ، ثم غدر به وقتله .

أما « حضرت محل » فقد ذهبت مع ابنها « برجيس قدر » إلى نيبال ، وعاشا هناك حتى ماتت . وبعد ذلك رجع « برجيس » إلى « كلكتا » ، حين اطمأن إلى عفو الإنجليز عنه ، لكن دبرت له مؤامرة لقتله بواسطة السم ، ومات وانتهى .

وفى «جهانسى» جنوب دلهى قامت الثورة بقيادة « رانى لكشمى باى »(١) الهندوسية ، وكان الإنجليز قد وضعوا يدهم على ولايتها قبل ذلك بسنوات ، فأرادت هذه المرأة الباسلة أن تنتقم لنفسها منهم ، فوقعت بينها وبينهم عدة معارك ، انتهت بانتصارهم أيضا كما انتصروا فى المواقع الأخرى .

موقعة شاملى وتهانه بهون

عندما قامت الثورة شارك العلماء فيها مشاركة فعلية فى كل ناحية ، وحملوا السيف والبندقية مع إخوانهم ، ولكن هناك موقعة يستحق أن نفرد لها مكانا خاصا ، وهذه هى الموقعة التى دارت رحاها فى هذه المدن التابعة المديرية « مظفر نگر » شمال « ميرت » بين العلماء والإنجليز ...

---

(١) وقد عنيت الحكومة الهندية باخراج طوابع بريد تذكارية لها ١٩٥٧م، وهى راكبة فرسها تقود الثورة ضد الإنجليز بمناسبة مرور مائة عام على الثورة وإن كانت زميلتها فى الثورة ضد الإنجليز فى لكنو « حضرت محل » زوجة واجد على شاه » لم تحظ بهذه العناية !!

فعند ما قامت الثورة فى دهلى كان تلامذة مدرسة شاه ولى الله وأتباع السيد أحمد الشهيد المسترشدين بطريقته يفكرون فى القيام بعمل إيجابى ، وأتباع السيد الشهيد لم يكفوا عن الحرب والجهاد منذ استشهد ، فلاعجب أن ينتهزوا هذه الثورة العامة ويخوضوا غمارها . .

اجتمع من هؤلاء العلماء الصوفيين الكبار: الحافظ ضامن ،والحاج إمداد الله ، ومولانا محمد .. وبحثوا فى أمر قيامهم بثورة ضد الانجليز ، لكن رأى مولانا محمد كان يقضى بالامتناع عن ذلك ؛ لعدم الاستعداد ، وعدم وجود أسلحة توازن مافى أيدى الانجليز ، وإزاء هذا الاختلاف استدعوا مولانا محمد قاسم نانوتوى[١] ، ومولانا رشيد أحمد گنگوهى[٢] ، وكانا من تلامذة مدرسة شاه ولى الله أيضا ، ومن كبارالعلماء الصوفيين كذلك ، ولما قال مولانا محمد لاتوجد عندنا أسلحة توازى ماعند الانجليز قال مولانا قاسم : ألاتوجد معنا أسلحة مثل ما كانت فى يد أهل بدر ؟ . قالوا : نعم كفى ، ولنا فى رسول الله أسوة حسنة ، وشمروا عن سواعدهم ، ودعوا الناس للجهاد ، وجعلوا إمامهم مولانا الحاج إمداد الله ، ومولانا قاسم قائدا عاما ،ومولانا رشيد قاضيا

---

(١) ولد فى قرية «نانوتا» التابعة لسهارانبور سنة ١٢٤٨ هـ — ١٨٣٢ م ودرس فى دهلى وظهرت عليه علامات النبوغ منذ صغره وتشبع بروح مدرسة الشاه ولى الله وأولاده ، وصار من الأفذاذ وهو شاب ، واشترك فى الثورة وسنه ٢٥ سنة ولما فشلت اختفى مدة حتى أعلن العفو العام وكان يقضى أكثر مدة اختفائه فى ديوبند . ثم عمل مع جماعة من المخلصين على تأسيس مدرسة عربية دينية تقوم على صيانة التعاليم الإسلامية من فساد الغرب ونوايا الانجليز فأسسوها سنة ١٢٨٢ هـ — ١٨٦٧ م فى مسجد صغير لا يزال للآن وقد كبرت مدرسته وصارت أعظم معهد دينى فى الهند وما حولها وقد قمت بالتدريس فيها سنتين وثلاثة شهور . وله مؤلفات أوردية قيمة فى غاية التركيز وسمو العبارة وحفيده الآن مولانا محمد طيب مدبر دار العلوم بديوبند . ويعتبر مولانا قاسم من نوادر العلماء فى عصره وبعد عصره وتوفى سنة ١٢٩٧ هـ — ١٨٧٩ م ودفن بديوبند .

(٢) ولد سنة ١٢٤٤ هـ — ١٨٢٨ م فى بلدة كنگوه التابعة لسهارانبور ، وتعلم فى دهلى على علماء من أبناء وأحفاد شاه ولى الله ، وأخذ الطريقة عن الحاج أمداد الله ، ثم اشترك فى الثورة وقبض عليه واستمر فى السجن ستة أشهر ، ثم خرج واشترك فى تأسيس دار العلوم ديوبند والتدريس بها وظل قائما بالتدريس وهداية الناس حتى أصبح له أتباع كثيرون وتوفى سنة ١٣٢٣ هـ — ١٩٠٥ م ودفن فى بلدته وأحفاده للآن معروفون فى كنكوه وله عدة مؤلفات قيمة بالأوردية .

ومولانا محمد منير النانوتوى والحافظ ضامن قائدين على الميمنة والميسرة ، وكان هؤلاء جميعا محل اعتقاد من العامة ، فتجمع المجاهدون حولهم من كل ناحية ، وأتوا بأسلحتهم ، وكانت كلها من الطراز القديم حتى البنادق ، وكانوا يعنون بالتدريب من قبل .

وبدءوا فى «تهانه بهون» التابعة لمظفر نگر قريبا من ديوبند - فاستولوا عليها وعلى ماحولها ، وأقاموا فيها الحكم الإسلامى ، وأخرجوا منها الحكام الانجليز ، فلما وصلت هذه الأنباء إلى الانجليز تحركوا من « سهارانپور» ومعهم مدافعهم ، متجهين إلى بلدة « شاملى » ، وعلم العلماء بذلك ، ففكروا كثيرا : كيف يقابلون المدافع بالسيوف والبنادق القديمة ؟ ! ولم يلبثوا كثيرا حتى رأى مولانا رشيد أن يقوم بعمل جرىء ضد هذه القوة الزاحفة ، وأسرع فأخذ كتيبته المكونة من أربعين مجاهدا ، وكمن بين الأشجار فى طريق هذه القوة ، حتى إذا مرت بهم أمطروها برصاص بنادقهم ، ففر الانجليز وتركوا مدافعهم وأسلحتهم ، واستولى عليها مولانا رشيد وحملها إلى إمامهم « الحاج إمداد الله » فأثار هذا شعلة الحماس فى نفوس المجاهدين ، وقد ألقوها أمامهم فى المسجد .

ثم تقدموا فقبضوا على مديرية « شاملى » بعد معركة حامية بينهم وبين الانجليز استشهد فيها الحافظ محمد ضامن قائد الميسرة ، وبرغم استشهاده فان انتصارهم وما كان يترامى إليهم من أنباء انتصارات إخوانهم فى دهلى وغيرها شد من أزرهم وأزر العوام ، حتى كانوا يطاردون الانجليز بالعصى والحجارة ، يشترك فى ذلك كل الأهالى حتى النساء والصبيان ، ولكن بعد فترة جاءت الأخبار المؤسفة من دهلى حين هزم الثوار واستولى الانجليز عليها ، وأخذوا ينكلون بأهلها ، ففت هذا فى عضد المحاربين ، وخمدت فيهم روح الحماس ، فلم يعد مفر أمامهم من إلقاء السلاح ، والنجاة من أيدى أعدائهم الذين أخذوا يطاردونهم لينتقموا منهم ، فهاجر مولانا إمداد الله إلى مكة . وسطع نجمه هناك ، وأصبح يدعى شيخ العرب والعجم ، وكان من كبار الصوفيين ، وقبضوا

على مولانا رشيد وظل فى السجن ستة أشهر حتى صدر قانون العفو العام ، فأفرج عنه . أما مولانا قاسم النانوتوى فقد اختفى حتى صدر قانون العفو فسلم من السجن .

وهؤلاء العلماء المجاهدون هم الذين قاموا بإنشاء دار العلوم ديوبند التى صارت أكبر معهد دينى عربى فى الهند والبلاد الآسيوية الشرقية ، وقد واصلوا جهادهم فى سبيل حماية المسلمين وأخلاقهم وعقيدتهم من شرور المستعمرين ، وتشددوا فى ذلك حتى خاصموا كل ثقافة انجليزية ، بل كل ملبس ومظهر انجليزى ، ولا زال هذا المبدأ سائدا فى هذه المدرسة وأمثالها للآن ، ويعتبر ذلك مثلا حيا فى المحافظة على كيان المسلمين ، ولو أنه حمل فى طياته بعض العيوب والمضار .

ونعود بعد ذلك إلى أخبار الثورة فلا نجد منطقة غير هذه المناطق السابقة قد قامت فيها ثورة تذكر ، ففى جنوب الهند لم يتحرك أحد ، وكان نظام حيدر أباد على رأس المعاونين للانجليز . وفى الشمال الغربى حيث البنجاب ، وحيث الرجال المحاربون الأشداء لم يحدث فيها إلا ثورة خفيفة لم تدم طويلا ، وكان السيك فيها أكبر حرب على الثائرين ، متفننين فى تعذيبهم : مسلمين أم هندوسا ، وفى الحدود الشمالية حدثت بعض ثورات أو على الأصح ، استمر أتباع المرحوم سيد أحمد الشهيد فى حربهم للانجليز الذين وجهوا لهم قوات حربية كثيرة ، ذاقت الشدائد على يد هؤلاء المجاهدين الذين لم يلقوا سلاحهم حتى بعد أن انهزمت الثورة بل ظلوا شوكة قوية فى ظهر الانجليز لمدة طويلة . وكذلك قامت ثورات فى بعض مدن مقاطعة « يوبى » مثل إله أباد ، وفتحپور ومراد آباد ، وبجنور ، وغيرها ، ولكنها كانت فى عمومها ثورات خفيفة ، تمكن الانجليز من إخمادها والتنكيل بالأهالى فيها ، والانفراد بالسلطة العامة التامة فى الهند .

أسباب فشل الثورة

وهكذا! فشلت الثورة التى كان منتظر لها أن تنجح ، ومن الأسف أن القائمين على أمرها لم يحكموا تدبيرهم ، ولم يجمحوا شهواتهم ، إلا قليلا من المخلصين الذى آثروا الجهاد والاستشهاد ، ومن يقرأ مظالم الإنجليز وتعنتهم مع الهند فى كافة نواحى الحياة يعتقد أن الشعب كان سيعصف بهم بين يوم وليلة ، ولكن حين جد الجد لم نجد إلا بعض النواحى تتحمل عبء الثورة وحدها فى غير تنظيم واستعداد ، ولذا أشك كثيراً فى رواية التاريخ التى تقول إن الثوار حددوا وقتا معينا هو ١١ مايو ؛ فإن هذا الوقت قد جاء ولم تقم ثورة فى أية ناحية من نواحى الهند ، أما دهلى فأعتقد أن الثورة فيها قامت نتيجة ثورة الجند ، وقدومهم إليها من «ميرت» ، فقام الأهالى معهم فى هذا التاريخ تقريبا ، فالحقيقة التى أطمئن إليها أنه لم يكن هناك تنظيم محكم لجهاز الثورة ، ولا استعداد لها ، وليس أدل على ذلك من أن الثورة لما قامت فى دهلى فى ١١ مايو ، وبلغ خبرها إلى النواحى الأخرى بعد ذلك بيومين أو ثلاثة لم تقم أية ثورة فى هذه النواحى مباشرة . فقد تأخرت لكنو ، وكانپور قريبا من شهر عن قيام ثورة دلهى ، فلو كان هناك تنظيم ووقت متفق عليه لقامت الثورة فى وقت واحد كما كان يرتجى . وإلا اتهمنا القائمين بهذه الثورة بالتقصير ونقض العهود فيما بينهم ، وعلى كلا الحالين فالذى حدث ما كان يصح أن يحدث بين قوم أرادوا التخلص من عدو شرير ، متمكن مستعد بالأسلحة الحديثة . من أجل ذلك أميل إلى ما قاله المرحوم مولانا أبو الكلام أزاد وزير معارف الهند السابق فى المقدمة التى كتبها لمؤلف الدكتور « سين » المعاصر الهندى عن هذه الثورة حيث قال[1] :

« إنه لم يقم دليل للآن على أن هذه الثورة كانت نتيجة مشروع متفق عليه من قبل ، أو كان تدبيرها سببا فى تآمر الجنود الهنود (الذين يعملون فى الجيش

---

(١) اطلعت على هذه المقدمة مترجمة للاوردية فى عدد الجمعية الخاص بذكرى هذه الثورة الصادر ١١ مايو فى سنة ١٩٥٧

الإنجليزى) مع الشعب على الثورة ، وإعدام حكومة الشركة ، وطرد الإنجليز من الهند » ، ولا شك أن ظواهر قيام الثورة تؤيد هـذا القول تماما .

فأول سبب لفشل هذه الثورة هو اعتمادها على العواطف المشتعلة ، وعدم العمل على تنظيمها وقيامها كلها فى وقت واحد ، وعدم شمولها للبلاد كلها ، مما أتاح للإنجليز فرصة واسعة للقضاء على الواحدة تلو الأخرى .

فما سبق عرفنا أن المواطن التى قامت بالثورة محدودة ،وأنها انحصرت تقريبا فى وسط الهند الشمالى ، بينما سكتت النواحى الأخرى ، أو ساعدت الإنجليز .

٢ ــ ومن أسباب فشل الثورة كذلك انضمام « السيك» للإنجليز ، وهم قوم أولو بأس وشدة ، وكانوا يسيطرون على البنجاب الشهيرة بقوة رجالها ، وأقاموا فيها ملكا نزعه الإنجليز من أيديهم قبل الثورة بمدة قليلة . ومع ذلك رأينا هؤلاء يسارعون فى إرضاء الإنجليز ، ومناصرتهم ضد إخوانهم المواطنين دون أن يغضبوا لملكهم المسلوب ، أو لكرامتهم الجريحة ، أو يمنعهم ضميرهم من الفتك بمواطنيهم زلفى للإنجليز ، بل لقد كان هؤلاء يتفننون فى تعذيب إخوانهم المواطنين لاسيما المسلمين تفننا سبقوا فيه ساداتهم الإنجليز ، يقول السيد محمد لطيف فى كتابه « تاريخ پنجاب »[1] « وماوقيت « بنجاب » شر الثورة ، فحسب ، بل كانت مستعدة لتدبير كل الوسائل لإبقاء مجد الإنجليز فى الشرق ، وكان الموقف جد خطير ، لكن « بنجاب» ظهرت مع الإنجليز بمظهر القوة التى لاتغلب » ، وكان هذا المؤرخ من الممالئين للإنجليز .

٣ ــ ومن الأسباب أيضاً موقف الجنوب حكاما وشعوبا ، ولا سيما ملك « حيدر أباد » ، فقد وقف مع الإنجليز ضد مواطنيه الهنود . وملوك حيدر أباد كانوا دائما مع الإنجليز ، حتى ضد الملوك المسلمين ، كما فعلوا مع السلطان « تيبو المجاهد » سلطان ميسور ـ كما سبق أن بينا ذلك فى حربه مع الإنجليز ـ

---

(١) ص ٥٨١ طبعة ١٨٩١ م

وقد ضمن موقفهم فى صف الإنجليز الهدوء فى القسم الجنوبى من الهند ، مما جعلهم يتفرغون بقواتهم لإخماد الثورة فى الشمال .

٤ — ومن الأسباب الخارجية تدفق الجنود الإنجليز على الهند فى ذلك الوقت بمحض المصادفة ، فقد كان كثير منهم ذاهبا إلى الصين فى مناوشات مع الإنجليز هناك ، فلما قامت الثورة نزلوا فى الهند لإخمادها ، وقد استطاع الإنجليز بجنودهم الذين وصلوا إلى « كابل » كذلك أن يسدوا الطريق فى وجه أى عون يأتى للهند من روسيا ، كما استطاعوا أن يمنعوا عنها أى عون من الدول الخارجية بسيادتهم البحرية . وهكذا وقفت الهند وحدها أمام الإنجليز دون أن تجد عونا خارجيا .

وفى الحقيقة كانت الهند تستطيع وحدها لو اتحدت أن تطرد الإنجليز بالعصى والحجارة كما اعترف بذلك رؤساؤهم ولكنهم لم يتحدوا فجرت عليهم سنة الله .

٥ — وقد كان هذا التفرق أهم سبب فى فشل الثورة ، حتى إن الذين قاموا بها اختلفوا فيما بينهم وتنازعوا ، حتى أكل بعضهم بعضا ، وكان بعضهم عونا للإنجليز مثل « ميرزا إلهى بخش » صهر الملك ، وغيره ممن كانوا يتولون أعمالا هامة فى قيادة الثورة ، وهم فى نفس الوقت خونة وجواسيس للإنجليز .

وثورة تحيط بها هذه الظروف كلها مصيرها حتما إلى الفشل امام قوم أتقنوا ضروب الحرب والكيد والتفرقة بين المواطنين . ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة تلك الحادثة التى ترينا كيف كان الإنجليز يحاربون بكل الأسلحة الممكنة ، وهذا شأنهم دائما ، فلا عجب .

لقد زوروا منشورا باسم الملك وزعوه فى كثير من البلاد وقت قيام الثورة ، تضمن وعدا من الملك للمسلمين خاصة بأنه بعد الانتصار سيوزع عليهم وحدهم الاقطاعيات الواسعة ، فلما علم الملك بذلك ركبه الهم حتى لتقول بنت له : إنها قامت فى الليل فلم تجده على سريره ، فدعرت ثم ذهبت إلى المسجد

الملحق بالقصر ، فوجدته جالسا يبكى ويتضرع إلى الله ؛ ثم علمت منه أنه ما استطاع النوم لهذا المنشور المزور عليه ، وفى الصباح ركب فيلا ، ومشى فى شوارع البلد أثناء الثورة ، يعلن أن ما نشر مكذوب عليه ، وأنه ينوى بعد الانتصار أن يؤلف لجنة مشتركة من المسلمين والهندوس تختار باسم الشعب من يكون ملكا عليهم .

ويحسن بعد ذلك أن أضيف إلى ماتقدم مما ذكره المؤرخون للثورة رأى المرحوم مولانا أبى الكلام أزاد .

فهو يقول : إن قواد الثورة لم يتفقوا ، بل كان بعضهم يحسد بعضا ويتآمر ضد أصحابه وزملائه ، فى الوقت الذى كان الإنجليز فيه متماسكين، وإذا استثنينا بعض القواد المخلصين مثل « أحمد الله مدارسى » وأتباعه فإننا نجد أن كثيرا ممن قاموا للثورة قاموا لأسباب شخصية ، وظلم وقع عليهم أخيرا من الإنجليز، فانقلبوا أعداء لهم بعد أن كانوا أصدقاءهم .

بعد فشل الثورة

وهكذا قدر للإنجليز أن ينتصروا على هذه المحاولة الأخيرة التى قام بها الأحرار من أجل بلادهم ، وحين انتصروا خلا لهم الجو ليفعلوا بالبلاد مايريدون ، فماذا فعلوا ؟ ! وماذا لقيته البلاد على أيديهم ؟ ! بعد أن دفعوها دفعا إلى الثورة بأعمالهم التى سبق الحديث عنها كما صرح بذلك كثير من مؤرخيهم حيث ليقول « مستر ليكى » « إن كان فى العالم ثورة على حق فهى ثورة مسلمى الهند وهنادكها »[١] ، نعم كانوا على حق . ولكن مع ذلك فعل الإنجليز ـ بعد انتصارهم ـ بهم ما فعلوا .

ومما لا شك فيه أن الثوار حين قاموا بثورتهم انطبعت تصرفاتهم بطابع الثورة التى تسيطر عليها العواطف المتأججة ، عواطف الحب للوطن التى دفعتهم

---

(١) حكومة خود اختيارى ص ٣٢ .

إلى التضحية ، وعواطف الحقد التى دفعتهم إلى صب غضبهم على ظالميهم ، ومغتصبى بلادهم وأقواتهم وحرياتهم ، فوقعت تصرفات هوجاء ، راح ضحيتها بعض الأبرياء من نساء الإنجليز وأطفالهم أيضا ، ومن المعروف أن الثورة لا عقل لها ، وقد يرتكب فيها كثير من الأشياء التى تمليها الظروف ، وإن تكن خارجة عن حدود العقل والحكمة .

ولا شك أن الإنجليز حين الثورة قتلوا كثيرا كما قتل منهم الكثير ، فهذه طبيعة الثورات والحروب ، ولكن مما لا يشك فيه عاقل أيضا أن الثورة حين تنهزم أمام جهاز حكومى منظم مسئول ، فإن هذا الجهاز لا يصح له أن يتصرف تصرفات الرعاع ، ولا أن يتعدى فى تصرفاته محاكمة القائمين بأمر الثورة الذين قادوها ، إن كان يريد الانتقام ، على أن تكون محاكماتهم داخل نطاق الظروف المحيطة بهم ، وعلى أن تجرى المحاكمات فى هدوء ، بعيدة عن اشتعال العواطف الذى هو من طبيعة الثورات ، لا من طبيعة الحكومات . لا سيما إذا كانت الثورة قد فشلت ، والعواطف قد هدأت ، فإذا عاقبت الحكومة الثوار فإنه لا يصح مطلقا أن تنزل إلى الدرك الذى نعيبه على الرعاع الثائرين ، ولا يصح كذلك أن تتفنن فى أنواع التنكيل حتى تفوق أشد المجرمين إجراما ، وتأتى من الأفعال مالا يمكن أن يفعله إنسان لا يعرف مسئولية ، ولا يحمل ضميرا .

فهل سار الإنجليز — وهم القوم المتمدنون المتحضرون ، الذين تعالوا على الشعوب بما يدعونه من تمدن وحضارة — هل ساروا بعد انتصارهم سيرة الحكومة المتمدنة ؟ ! وماذا فعلوا فى الشعب الذى ظلموه أولا ، ثم كبتوا أنفاسه حين قام يريد التنفس الحر ؟ .

لقد فعل الإنجليز بالثائرين بل وبغيرهم ما لا يمكن لعقل أن يتصوره ، ولا لضمير أن يتحمله ، حتى وجد التاريخ من عقلاء الإنجليز أنفسهم من يتبرءون من أفعال بنى قومهم الوحشية . ويصمونها بأبشع ما يمكن أن يوصم به عمل فى التاريخ ..

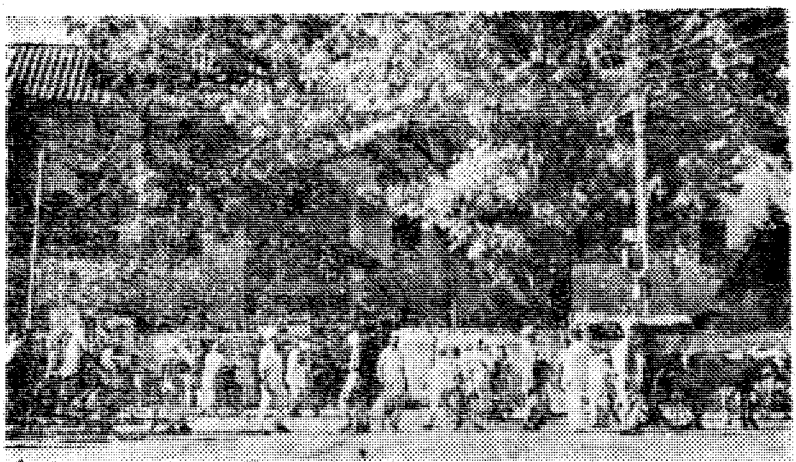
ولقد كتب المؤرخون ـ ولا سيما الإنجليز كثيرا ـ عنها ، وكانوا فى جملة كتاباتهم متحاملين على الهند بالطبع ، فسموا أهل الوطن المطالبين بحقهم بغاة!! ووصفوهم أوصافا قبيحة ! وأخذوا يبررون أفعال بنى قومهم ، ويعللون الحوادث تعليلا مناسبا لأفكارهم ومصالحهم ، ويشوهون كل وجه جميل لهذه الثورة ، وساعدهم انتصارهم وحكمهم للبلاد مدة طويلة على أن يكتبوا ما يشاءون ، ويقلبوا الحقائق كما يريدون ، وأن يحولوا بين الكتاب الآخرين وما يريدونه من إظهار الحقائق . .

ومع ذلك كله ، ومع حرصهم على أن تبدو أفعالهم سليمة ومعقولة ، فإن سوء تصرفاتهم ووحشيتهم ، وخروجهم على كل قانون وضمير وإنسانية ، كل ذلك لم تستطع الأساليب المصطنعة أن تخفيه كله ، فظهر بعضه فى أقوالهم ومذكراتهم ، وهذا البعض هو الذى يمكن لنا أن نستشهد بشىء منه على ما فعل هؤلاء بالهند وقوادها وأهلها حين انتصروا عليهم ؛ لأن الحقيقة لابد أن يهيىء الله لها من يجلوها يوما من الأيام ، وقد كتب مؤرخ أمريكى هو « مستر إدوارد تومس » كتابا عن تاريخ الهند سماه « The other side of medal » وترجمته الحرفية « الجانب الآخر للميدالية » كما نقول : الجانب الآخر للصورة . . صور فيه الناحية الأخرى التى حرص الإنجليز على إخفائها فى الهند ؛ لأنها النواحى التى تدمغهم بالظلم والوحشية ، وعلى هذا الكتاب يعتمد كثير من مؤرخى الهند كما نقلنا وسننقل عنه الكثير . .

وإذا كان المسلمون قد تحملوا النصيب الأكبر فى الظلم قبل الثورة ، ثم قاموا بالعبء الأكبر فيها ، فإنهم تحملوا كذلك من ضروب الانتقام والتنكيل مالم يتحمله غيرهم . .

ففى دهلى : قبضوا على الملك ومن كانوا معه فى مقبرة همايون من زوجه وأولاده وحاشيته ، وساقوهم إلى البلد مقيدين فى ذلة وانكسار ، وفى الطريق أطلق الضابط « هيدسن » بندقيته على أبناء الملك وأحفاده ، فقتل ثلاثة منهم

هم : « ميرزا مغل ، وميرزا خضر وميرزا أبو بكر »[1] وقطعوا رؤوسهم وتركوا جثثهم فى الطريق مدة ، ثم سولت لهم نفوسهم المتحضرة المتمدنة !! أن يتجاوزوا فى التمثيل بالقتلى ، والتنكيل بأبيهم الشيخ المتهدم إلى حد تشمئز منه النفوس . .



كوتوالى فى شارع تشاندنى تشوك فى دهلى حيث علقت جثث القتلى

فعند ما قدموا الطعام للملك فى سجنه وضعوا رؤوس الثلاثة فى « إناء » وغطوه ، وجعلوه على المائدة أمامه ، وكانت مفاجأة مذهلة ، بل قاتلة حين كشف الغطاء ، فلم يجد طعاماً ، بل وجد بدله رؤوس أبنائه الثلاثة ، وقد غطيت وجوههم بالدم الأحمر القانى !!! وهنا يتمالك الشيخ الضعيف نفسه ،

---

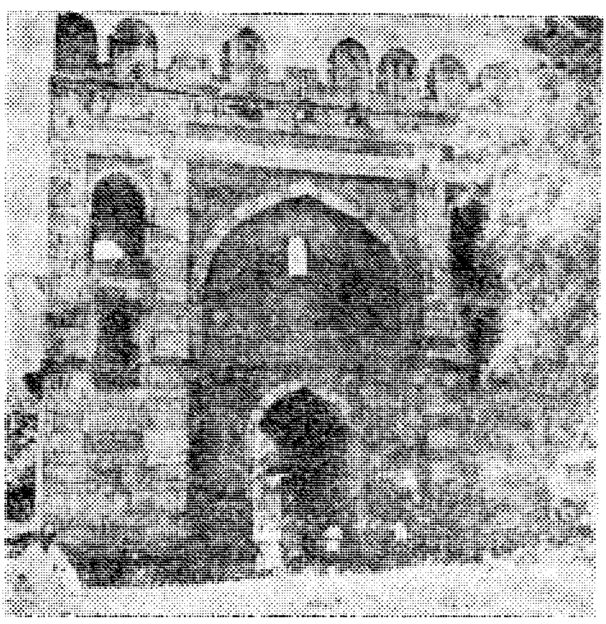
(١) جاء فى كتاب « دهلى كى جان كنى » أى (دهلى فى النزع الأخير) لحسن نظامى أن ميرزا إلهى بخش ذهب إليهم فى صحبة الضابط هدسن ليقنعهم بضرورة الخروج من المقبرة حتى خرجوا، ولما ضربهم « هدسن » بغدارته وسقطوا يتمرغون فى دمائهم وقف على رأسهم فرحا بهذا المنظر ، ثم أخذ فى كفه حفنة من دمهم وشربه ، وقال: لو لم أفعل هكذا لظلت نفسى فى ثورتها. لقد كنت أثور كلما سمعت أسماء هؤلاء . ثم قطع رؤوسهم ، وعلق أجسامهم على مكان الشرطة « كوتوالى » وقدموا الرؤوس إلى أبيهم، ثم بعد ذلك علقوها على بوابة لا تزال معروفة للآن فى نيو دلهى باسم « خونى دروازه » أى بوابة الدم وهى قائمة وحدها بجانب الشارع تحدث بهيكلها وباسمها عن فظائع الإنجليز .

وتظهر فيه طبيعته الملكية المغولية ، طبيعة الأنفة والعزة ، ويقول فى رباطة جأش غريبة : « إن أولاد التيموريين البواسل يأتون هكذا إلى آبائهم محمرة وجوههم » ، واحمرار الوجه فى إطلاق اللغة الأوردية كناية عن الظفر والانتصار ، فيقولون : جاء محمر الوجه : أى ظافرا منتصرا .

وبعد ذلك أخذوا هذه الرؤوس ، وعلقوها على بوابة كبيرة تسمى للآن فى نيودلهى باسم « خونى دروازه » أى بوابة الدم .

ومع منافاة هذا العمل لأبسط قواعد الإنسانية والمروءة ، فإن القائد الإنجليزى العام فى البنجاب « مونتجمرى » أرسل إلى القاتل « هيدسن » ، لا ليلومه أو يؤنبه على هذه الوحشية ، بل ليهنئه بها فيقول :

« عزيزى هيدسن . أهنئك بما قمت به من القبض على الملك ، وقتل أولاده ، وأرجو أن تقتل كذلك أبناء الأسرة المالكة الآخرين »(١) .



خونى دروازه أى بوابة الدم حيث علقت رؤوس القتلى

(١) مجلة الضياء نقلا عن كتاب « ادورد تومس » The other side og me 'al »

وأعتقد أن أى إنسان مهما كان حين يقرأ هذه الحادثة ، لا يجد ألفاظاً تساعده على وصف ما فيها من خسة ودناءة ووحشية ، فى الوقت الذى يعجب فيه أيما إعجابا بتماسك هذه الملك الضعيف ، حين فوجىء بهذا المنظر على مائدة الطعام !! نعم ، وهكذا فعل مدعو المدنية والحضارة !!

وبهذه الروح الخبيثة روح الانتقام والتشفى انهالوا على دلهى وأهلها يدمرون ويقتلون وينهبون، حتى بلغ عدد قتلاهم سبعة وعشرين ألفا[1]. وحتى هدموا أكثر أحياء دهلى وتحولت إلى أنقاض ، وقد احتلوا المسجد الجامع بخيولهم ، وعطلوا الصلاة فيه لعدة سنين ، وكانوا لا يجدون إنسانا يظنون أنه مسلم بلحيته ، أو قصر ملابسه إلا اقتلوه، حتى تكدست الجثث فى الشوارع ، وجرت الدماء أنهارا ، وقد كتب بعض الإنجليز أنهم كانوا يتحاشون الخروج إلى الشوارع ، حتى لا تؤذى هذه المناظر نفوسهم !!

جاء فى كتاب الثورة الهندية لمولانا فضل حق[2] :

« والنصارى بعد استيلائهم على البلد ، عمدوا إلى أخذ الملك وأولاده وأحفاده ، وهم لم يبرحوا مستقرهم ، مستوثقين بمن غرهم بأكاذيبه وسرهم ، وكان فى تلك المقبرة مغرورا مسرورا ، فأضحى مأسورا مكمودا مصفودا ، وأخذوا من معه من الأبناء والأحفاد ، مقرنين فى الأصفاد ، وذهبوا به إلى البلد ، مع من معه من الأهل والولد ، فاغتال أحد ضباطهم «هيدسن» أبناءه وأحفاده بالبندق أثناء الطريق، وأهدوا رؤوسهم مقطوعة ، إلى رئيسهم (الملك) فى خوان موضوعة ، وتركوا جثثهم منبوذة ، ثم علقوا تلك الرؤوس مجذوذه ، وحبسوه فى بيت من سم الخياط ، ثم نفوه من ممالك واسعة ، إلى بلاد شاسعة (رنجون فى بورما) مع زوجه التى كانت لهم موالية ، وقد خابت فيما طمعت ، وسلبت أموالا قد جمعت، وقد شينت ، بعد ما كانت زينت[3]، وقتلوا كل من وجدوا

---

(١) كتاب نقش حياة لمولانا مدنى ص ٤٧ ج ٢ نقلا عن « تبصرة التواريخ » وماضى العلماء المجيد .

(٢) ص ٣٧٩ وما بعدها .

(٣) كان اسمها « زينت محل » وقد قصد بهذا التورية .

من قومه بالضرب والخنق ، كما قتلوا ممن عداهم كثيرا من الخلق ، ولم ينج من هؤلاء الضعفاء إلا من فر مستخفيا ، متواريا بالليل ساريا ، وقليل ما هم » .

« ثم النصارى قتلوا من كان فى نواحى المصر وتلك الأرجاء ، من الأراكن أعضاء الحكومة والرؤساء ، وغصبوا أرضهم وعقارهم ، ومساكنهم وديارهم ، وأمتعتهم وأموالهم ، وأسلحتهم وأثقالهم ، وأفراسهم وأفيالهم ، ثم أهلكوهم وعيالهم جميعا ، ثم إنهم حشروا جنودهم بكل سبيل ، ليأخذوا من فر بالأخذ الوبيل ، فأخذوا كثيرا من الهاربين ، وما نجا منهم إلا القليل ، ونهبوا كل ما كان معهم حتى الجلاليب ، ثم بلغوهم عظماءهم ، فقضوا عليهم بالخنق والتقتيل ، ولم يذر الفتك شبانا ولا ضعافا ، حتى بلغ القتلى والخنقى آلافا . . »

« وجل من ابتلى بظلم الظلام ، أهل الإيمان والإسلام ، وأما الأهانند « الهندوس » فقد سلموا ، إلا من ظن به أنه ممن يعاند ، ولم يسلم من المسلمين إلا من فر من بيته مهاجرا ، ومن كان للنصارى ناصرا ، وفى دينه قاصرا ، أو من كان لهم جاسوسا ، ومن رحمة الله ميئوساً ، كعامل الملك[1] ، الذى يتولاهم ، بل سلطهم وولاهم » .

« وقد خرجت الخواتين[2] ، والمحصنات من النساء ، فى هذه الداهية الدهياء ، وعجزن ـ وفيهن عجائز وعجازى ـ عن الفرار الإعياء ، فمنهن من هلكت من غلبة الفرق ، ومنهن من أهلكت نفسها بالغرق ، صونا لعرضها وحرمتها ، وحفظاً لعفتها وعصمتها ، وأكثرهن صرن سبايا ، وابتلين برزايا ، فمنهن من استرقها بعض الخزان (الأراذل) ، ومنهن من بيعت بأبخس الأثمان ، وكثير منهن هلكن عطشا وجوعا ، وكثير غبن فلم يستطعن رجوعا ، ولم يرلهن أثر ، ولم يسمع عنهن خبر ، وكثير أصبحن بلا أولياء ، من بعولة وآباء ، وإخوة وأبناء ؛ إذ كان كل يوم من هذا الزمن الكريه ، يوم يفر المرء من أخيه

---

(١) يريد وزيره حكيم أحسن الله خان ومثله كذلك ميرزا إلهى بخش صهر الملك .

(٢) « جمع خاتون » وهى كلمة تلحق باسم النساء كما تلحق كلمة « خان » بالرجال للتعظيم .

وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، فكم من نسوة أصبحن أيامى ، وأطفال أمسوا يتامى ، وكم من ثكلى تبكى وتنوح ، وثكلان تعبر عبراته عن حزنه وبسره ببوح ، وقد صار البلد قاعا صفصفا ، وأهلوه تفرقوا وتمزقوا ، وذهبوا أيدى سبا » .

ذلك وصف كتبه شاهد عيان ، آثرت أن أنقله على طوله ، لما فيه من صدق فى الخبر ، ودقة فى التصوير ، تغنينى عن كل تعقيب .

ولننتقل إلى أقوال الإنجليز أنفسهم :

يقول « سبنسر وولپول » : إن ما فعله نادر شاة الوحشى بدلهى من النهب والسلب والقتل تجاوزه الإنجليز بكثير ، بعد ما استولوا على دهلى ، ولقد نصبوا المشانق العامة فى الشوارع ، وصلبوا ثلاثة آلاف رجل ، كان منهم تسعة وعشرون من الأسرة الملكية[١] .

ومثل هذا القول قاله « ألفنستن » وكان من القواد الذين قادوا حملات التعذيب ، ويظهر أنه كان يتباهى ويفتخر بهذا العمل ، وقد بلغ بهم التبجح إلى حد أن يكتب « نكلسن » إلى « أدورد » يقول : علينا أن نسن قانونا يبيح لنا إحراق الثوار وسلخ جلودهم وهم أحياء ، لأن نار الانتقام التى تأججت فى صدورنا لا تخمد بالشنق وحده[٢] ، وهل كانوا فى حاجة إلى قانون ليفعلوا ذلك ؟ ! !

ومما يجدر ذكره أن « نكلسن » هذا هو الذى كتب يمدح « والد مرزا غلام أحمد » قاديانى ، ويقول : «إن فى «قاديان» تسكن هذه الأسرة التى وجدنا فيها دون جميع الأسر الوفاء للانكليز » . ! ! ومرزا غلام أحمد قاديانى هو الذى ادعى النبوة ، وأبطل فرض الجهاد ، وملأ كتبه بالثناء على الانجليز مفتخرا بأنه وأباه من قبل من أصدقائهم الأوفياء ، ويتبعه القاديانيون فى الهند وغيرها .

---

(١) عن نقش حياة لمولانا مدنى ص ٤٧ ج ٢ .

(٢) ماضى العلماء ص ٨٥ نقلا من كتاب أدورد تومس الامريكى « الوجه الثانى . . » .
«the othe side of medal».

ويكتب « مجيندى » فى مذكراته :

« وبتنا تلك الليلة ، وكنا حراسا على المسجد الجامع فى دهلى، نمضى أكثر أوقاتنا فى قتل الأسرى الذين قبضنا عليهم صباحا ، نقتلهم بالرصاص أو بالشنق، ولكن مع ذلك كان يظهر على وجوههم آثار الشجاعة والصبر ، مما يدل على أنهم كانوا يضحون بأنفسهم لهدف عظيم،ولذلك كانوا لا يخافون من الموت أو القتل » .

ويذكر مستر « تومسن » للسير « هنرى كوتن » عن أحوال بعض المسلمين المسجونين فى بنجاب ما يأتى :

أتانى ذات ليلة عسكرى من طائفة « السيك » ، وبعد ما حيانى بالتحية العسكرية خاطبنى قائلا : لعل الرئيس يحب أن يشاهد المسجونين ! ؟ فقمت وهرولت مسرعا إلى السجن ، فرأيت المسلمين الأشقياء عراة مطروحين على الأرض ، يلفظون آخر أنفاس حياتهم ، وقد شدت أيديهم وراء ظهورهم ، ووجدت أجسامهم قد أحرقت بواسطة النحاس الملتهب من رءوسهم إلى أقدامهم ، وتفوح منهم الروائح الكريهة . فلما رأيت هذا المنظر المفزع أشفقت عليهم لسوء حالهم ، ورأيت أن أريحهم من هذا العذاب ، فأطلقت عليهم الرصاص من « الطبنجة » التى كانت معى » . فلما سمع « كوتن » هذه القصة المؤلمة سأل « تومسن » : ولكن ماذا فعلت بالذين تولوا كبر هذا التعذيب الشنيع ؟ ! قال : ما فعلت شيئا . . ! !

ويعلق المؤلف الأمريكى على هذه الحادثة فيقول : « منظر فاجع : أناس يحرقون أحياء بالنار المشتعلة ، والإنجليز والسيك قائمون حولهم يتلذذون برؤيتهم كأنهم فى منتزه عام ! » (١)

نعم لقد فقد الإنجليز بعد انتصارهم كل إحساس بمعانى الإنسانية ، وتجاوزوا فى انتقامهم كل ما يتصوره الإنسان . رأوا أن القتل بالرصاص

---

(١) كتاب ماضى العلماء ص ٩٥ نقلا عن كتاب إدورد تومس « الوجه الثانى » ص ٤٠ ، ٤١ وعن مجلة الضياء .

سهل على المقتولين، فاستعملوا المشنقة ، وكانوا يشنقون فى كل مكان ، ويقفون حول المشنقة يضحكون ويصفقون ، وكانوا يشدون ضحاياهم على فم المدافع ، ثم يطلقونها فتتناثر أشلاؤهم فى كل مكان ، وكانوا يلفون أجساد الضحايا المسلمين بجلود الخنازير ، ويخيطونها عليهم ، أو يدهنونهم بشحومها ثم يحرقونهم ، وكانوا يجبرونهم على فعل الفاحشة بعضهم ببعض ، وكانوا يحشرون الناس فى البيوت ثم يشعلون النار فيها ، فيتحول المساكين إلى رماد رجالا ونساء وأطفالا ! ! ، وكانوا . . وكانوا . . . لم يتركوا وسيلة للتنكيل والتعذيب يتفنن العقل فى إخراجها إلا فعلوها بضحاياهم ، ولم يفرقوا بين ثائر ومهادن ، فالكل عندهم ثائر ، وأى جندى هندى بالمشرق يسأل عما فعله أى جندى بالمغرب ! ! صور مخزية تمت على يد مدعى الحضارة ، ستظل فى التاريخ وصمة عار على جبينهم . وكم على جبينهم من وصمات !

ففى « بشاور » قبض على ١٢٠ جنديا بتهمة أنهم التحقوا بالثوار ، ولم يكن أحد منهم قد اعتدى على أى انكليزى ، ولكنهم فقط اضطروا للالتحاق بالثوار ، فكتب قائد البنجاب « جنرال نكلسن » إلى « ادورد » حاكم « بشاور » يقول له : إنى أرجو منك العفو عن ٥٥ أسيراً من هؤلاء ، لأن ضباطهم أكدوا لى أنهم ما شاركوا فى الثورة بأى نصيب ، وأما الباقون فليصهروا بنيران المدافع والقنابل ، فرد عليه يقول : « إنه لا يمكن العفو عنهم ؛ لأنهم كانوا يقاتلون فى صفوف الأعداء ، وبودى أن أجزيهم جزاء قاسيا حتى يعتبر بهم المعتبرون ، ورأيى أن أقتل ثلثهم من رؤسائهم وأشرارهم ، أما الباقون فلا أرى إلا أن أعاقبهم بأنواع شتى من العذاب أقلها الحبس ثلاث سنوات »[1] .

وكتب الضابط « لورد روبرت » رسالة إلى أمه يقول لها :

« سافرنا من « بشاور » إلى « جهلم » مشاة ، نقتل الثوار فى الطريق ، ونجردهم

---

(١) ماضى العلماء المجيد ص ٦١ نقلا عن كتاب لإدورد تومس « الوجه الثانى » ص ٣٤ ، ٣٦ . وعن مجلة الضياء .

من الأسلحة ، ولما وجدنا أنهم لا يبالون بالشنق ، كنا نشدهم على المدافع ونطلقها فتتناثر أجسامهم ، ولا ريب أن هذا أسلوب فظيع ، لكن لا مندوحة لنا عنه ، وقد حدث يوما أن انتبهنا على رعد المدافع ، وفى الوقت نفسه سمعنا أنينا ، فاستفسرنا عن ذلك ، فعلمنا أن أحد الضباط عبأ مدفعه ، وشد على فوهته أحد الثوار ، ثم أطلقه فتناثرت أجزاء الرجل فى الهواء ، وأصاب رأسه المتطاير أحد المارين ، فصرخ من شدة ما أصابه من الألم . . »[١]

وكتب مستر دى لين مدير جريدة « تايمز أف أنديا » بناء على ما جاء فى أجندة « رسل »[٢] :

« كان المسلمون الأحياء يخاطون بجلود الخنازير ، ثم يخيطونها عليهم أو يدلكونهم بشحومها ؛ ثم يحرقونهم وهم أحياء ، كما كان يجبر أهل الهند على أن يفعل أحدهم الفاحشة بزميله ، وهذه التصرفات ستظل وصمة عار على جبين المسيحيين الانكليز ، لا تمحى على مر الأيام »[٣]

يقول « ادورد تومس » الأمريكى :

قد كان كل جندى أهلى متهما بالاشتراك فى الثورة ، وقتل نساء الانكليز وصبيانهم ، سواء كان بريئا أم مذنبا ، بعيدا عن المعركة أم قريبا منها ، حتى إن الجندى فى « بشاور » بأقصى الشمال يسأل عن مقتول إنكليزى فى « دهلى » .

وذكر مستر « بجندى » فى مذكراته حادثة فظيعة شاهدها بعينيه فقال : « إن الإنكليز والسيك كانوا يطعنون جنديا هنديا بالحراب ، لكن طعناتهم لم تقض عليه نهائيا ، وبقى فيه رمق من الحياة ، وحينئذ جمعوا الحطب وأشعلوا فيه النار ، ثم ألقوا الهندى المسكين فيها ، ولبثوا يشاهدون هذا المنظر بكل فرح وسرور »[٤] .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) ص ٤٣ المطبوعة فى مايو سنة ١٨٥٨ .

(٣) نقلا عن كتاب « ماضى العلماء المجيد » ص ٦٠ ج ٤ .

(٤) تعريب مجلة الضياء عن المؤرخ الامريكى .

وكتب اللورد «كاينكگ» إلى الملكة «ڤكتوريا» وكان حاكما فى الهند يقول : — «إنهم قتلوا خمسين ألفا من الأهالى من غير ما إثم ارتكبوه ، أو ذنب اقترفوه»[١] .

فكم قتلوا إذن ممن ظنوهم قد اشتركوا فى الثورة ؟!!

وكتب «مستر كوپر» وكان مشرفا على القوات فى شمال الهند :

فى أول أغسطس سنة ١٨٥٧م حل عيد الأضحى ، فكانت فرصة لإبعاد الجنود المسلمين فى الجيش الانجليزى ، حتى يخلو الجو لتعذيب الثوار المسلمين دون أن يجدوا من يعطف عليهم ، فأعطيناهم — أى المسلمين — إجازة لقضاء عطلة العيد فى «أمرتسر» ، وبقى ضابط مسيحى مع السيك الأوفياء لنا ، وأخذوا فى قتل المسلمين المقبوض عليهم بكل اطمئنان ، ولكن ظهرت أمامهم مشكلة دفن هذه الجثث ، حتى لا تظهر روائحها الكريهة فتؤذى الناس ، ثم حلت المشكلة حين وجدوا بئرا جافا يرمونها فيها ، فأخذوا يقتلون عشرة بعد عشرة رميا بالرصاص ، فلما بلغ عدد القتلى ١٥٠ قتيلا كان القاتل قد تعب ، وكان شيخا كبير السن ، فأعطوه فرصة ليستريح ، وبعد قليل استأنفوا عملية القتل ، وحين بلغ العدد ٢٣٧ جاء الضابط المشرف على السجن ، وأخبرهم أن الباقين من الثوار لا يستطيعون الخروج من السجن ، فذهبوا إليهم وكان منظرا مرعبا حين فتحوا الباب فوجدوا من فيه جثثا هامدة ، وكانوا ٤٥ ماتوا من شدة الفزع والحرارة ، وكان الكناسون يتولون إلقاء هذه الجثث فى البئر»[٢] .

ومن الغريب أن «لورنس» «وروبرت» ومونتجمرى كتبوا إلى مستر «كوپر» المشرف على هذه القوات يهنئونه بهذا العمل المجيد !!![٣] .

ويقول المؤرخ الأمريكى «إنهم لم يكتفوا بالشنق بل كانوا يحرقون

---

(١) عن المصدر السابق .

(٢) ماضى العلماء ص ٦٢، ٦٣ نقلا عن كتاب « الوجه الثانى . » ص ٥٥ .

(٣) نقلا عن المصدر السابق ص ٥٧

القرويين بعد أن يغلقوا عليهم بيوتهم ، ويشعلون النار فيها ، فيصيروا رمادا»[١]

وكتب مندوب جريدة «تايمز أف إنديا» يقول :

«لقد تركت السير في شوارع دهلي بعد ما رأيت بالأمس حادثا مفجعا ، رأيت جثمان أربع عشرة امرأة من النساء المحجبات ملقاة في الطريق ، وقد قتلهن أزواجهن ، خوفا على عفتهن من الجنود الانكليز ، ثم انتحر الأزواج بجانبهن ..»[٢]

وهذا الخبر وحده كاف في تصوير ما أصاب الأهالي من فزع وجزع ، نتيجة الأعمال الوحشية التي قام بها الإنجليز ..

ويقول «إدورد توماس[٣]» : كان الجنود الإنجليز ينهبون دكاكين الخمور ، ويشربون ما فيها حتى يسكروا ، ثم يخرجون إلى الشوارع يقتلون كل من يقابلهم بلا تمييز» .

وحين شاع في الهند القتل والإحراق والنهب بدون تمييز ، حتى تحولت المقاطعات الشمالية خاصة إلى جحيم - أصدر الحاكم العام الإنجليزي أمرا لجنوده بتجنب الإحراق للقرى ، كما أمر الحكام بعدم تعذيب الأهالي الذين لا يحملون سلاحا ، وسلب حق الشنق العام من يد بعض الحكام الإنجليز الذين أساءوا التصرف في استعمال هذا الحق .. كما أنه عين «جون جرانت» حاكما لوسط الهند ، ليضع حدا للمجازر البشرية التي عمت المدن مثل إله أباد وكانپور وغيرهما ، ومع ذلك لم يخضع الجنود لأوامره ، وكانوا يستهترون به ويطلقون عليه اسم «الملك العطوف» ولم يبالوا به ، وقد حدث مرة أن الجنود الإنجليز كانوا راجعين من إحدى القرى بعد إحراقها ، وكان يرافقهم في مهمتهم بعض الجنود الهنود الأوفياء . ومع ذلك استداروا عليهم فقتلوهم رميا بالرصاص دون مبالاة .

---

(١) نقلا عن المصدر السابق ص ٦٣

(٢) ماضي العلماء ص ٦٨ نقلا عن المصدر الأمريكي السابق ص ٧٠

(٣) ص ٧٠ من كتابه «الوجه الثاني»

وفى هذه الحادثة قالت « تايمز أف إنديا » : « إن هذا تصرف وحشى » . والأوامر الصادرة من الحاكم العام بمنع الإحراق العام والشنق العام ، وبتعيين حاكم لوسط الهند ليخفف من هذه الجرائم . أقول هذه الأوامر نفسها أكبر دليل على إسراف الإنجليز فى هذه الناحية إسرافا دعا الرؤساء إلى اتخاذ مثل هذا الموقف ، ومع ذلك لم يستمع الجنود وضباطهم لهذه الأوامر ، واستمروا فى طغيانهم يعمهون .. فقد استولى عليهم سعار الانتقام من الثائرين وأهلهم وكل من اتصل بهم ، وسكروا بنشوة النصر ، فلم يقفوا عند حد فى التنكيل بأهل الهند ، وذاقت منهم الويلات التى تقشعر لذكرها الأبدان .

ويكفى ماقدمناه نموذجا لتصرفاتهم ، على أن قراء العربية ليسوا فى حاجة كبيرة إلى ذكر تفصيلات كثيرة من هذا النوع ، فقد شاهدوا وقرءوا الكثير من تصرفات الإنجليز فى بلادهم فى ظروف كهذه ، ولو أن الذى فعلوه فى الهند قبل مائة سنة قد يفوق كثيرا ما فعلوه فى البلاد العربية التى نكبت باحتلالهم فى هذا القرن ..

محاكمة بهادر شاه وانتهاء الحكم الإسلامى

ويمكن القول بأنه لم تأت أواخر سنة ١٨٥٧ م حتى كان الأمر قد تم لهم فى الهند ، وسيطروا على الموقف فى كل مكان ، وبدءوا بعد أن مضت حدة الانتقام الفوضوى فى كل مكان يقيمون محاكم صورية ، لمحاكمة المتهمين بالثورة عليهم .

ويهمنا هنا محاكمة واحدة هى محاكمة الملك « بهادر شاه » ومعرفة ما انتهى إليه أمره فيها .. لقد قبضوا عليه وقتلوا ثلاثة من أولاده رميا بالرصاص فى الطريق ، وهم مقيدون مساقون إلى محبسهم ، وقطعوا رءوسهم ، وقدموها فى طبق كبير إلى والدهم الشيخ الضعيف ، ضمن أطباق الطعام التى كانوا يقدمونها له ـ كما ذكرنا ذلك من قبل ـ واختاروا له حجرة ضيقة فى قلعته

وقصره الذى كان يحكم منه ، وأترك وصف محبسه للأستاذ صابر حيث يقول[1] :

«كان بهادور شاه يستمر فى محبسه بحجرة ضيقة ، متربعا على سرير بسيط ، عليه تكية واحدة ، وكان دائما مستغرقا فى تفكيره ، حتى ما كان يحس بالانجليز حين يجيئون عنده ، ينظرون إليه مستهزئين ، وعلى بعد ثلاثة أقدام كان يوجد رئيس الحرس ، وعلى باب الحجرة اثنان مسلحان ، وقد جردوه فى حجرته من كل شىء حتى الورق والقلم ، وحتى اضطر مرة أن ينقش بعض الأبيات على الجدار ، وكان شاعرا مجيدا ، وهى أبيات تصور تفكيره ونفسيته فى هذه الفترة العصيبة من حياته . يقول فيها : « إن القصر الذى أصبح الآن قفرا كان من قبل آهلا بالسكان . والمكان الذى استولى عليه ابن آوى كان عامرا بالإنسان ، والمكان الذى لا نجد فيه الآن إلا الخزف والحصا والتراب كان مملوءا بالجواهر واليواقيت ، إن أحوال العالم تتقلب دائما ، فأين كنت من قبل ؟! وأين أنا الآن ؟! إن الذى لا يذكر الله فى رغد العيش ، أو فى وقت الغضب والطيش ، لا يعد من الآدميين » .

وقد بدأت محاكمته فى دهلى فى ٢٧ يناير سنة ١٨٥٨ م ، وسيق كالمجرمين إلى ساحة المحكمة المؤلفة من الانجليز ، وبدأت المحاكمة بالسؤال العادى : هل لك اعتراض على المحكمة ؟ فقال : لا .. ، ثم وجهوا إليه التهم الآتية :

(١) أنه تعاون مع آخرين فى الثورة ضد الشركة ، مع أنه كان يتقاضى مرتبه منها ، وكان عليه أن يكون وفيا لها !! .

(٢) أن ابنه ميرزا مغل تعاون مع آخرين ضد الشركة ، مع أنهم كانوا من رعاياها ، وعليهم أن يكونوا خاضعين لها ، لكنهم فيما بين ١١ مايو ، وأول أكتوبر سنة ١٨٥٧ م غدروا ، وأشاعوا أن بهادور شاه صار الحاكم للهند ، ودبروا المؤامرات مع « بخت خان » لقلب الحكومة الانجليزية فى الهند ، وأعانوا الجنود على ذلك !!

---

(١) نقلا عن مقال له باللغة الأوردية بجريدة « الجمعة » لسان حال جمعية العلماء ٦ اغسطس ١٩٥٧ .

(٣) حوالى ١٦ مايو أمر وشارك فى قتل ٤٩ من الانجليز رجالا ونساء وأطفالا داخل القلعة ، كما حرص على قتل الانجليز أيا كانوا ، ووعد ببذل المكافأة على ذلك !!

وقد رد الملك بنفى هذه التهم جميعها ، وأنه كان لاسلطان له أثناء الثورة[١] ولكنهم استمروا فى محاكمته ، واستطاعوا الحصول على مكتوبات تؤيد دعواهم ، كما أن بعض حاشيته وخدمه قد جندهم الانجليز للشهادة ضده !!

ومع أنه من الثابت أن بهادور شاه حين تولى قيادة الثورة ، وأصبح فى فى يده زمام الحكم، كان أول أمر أصدره أنه لابد من المحافظة على أرواح الانجليز وأموالهم ، ويجب على كل واحد من الرعية أن يمسك عن الاعتداء، وأنه بعد هذا الأمر لم يحصل اعتداء ما على غير المحاربين من الانجليز ، كما أعترف بذلك بعض كتابهم[٢] ، أقول بالرغم من ذلك فان السادة المنتصرين لم يطيقوا صبرا على وجود الملك بدون محاكمة وبدون حكم .

فحين انتهت جلسات المحاكمة التى طالب المدعى فيها بإعدامه ، كان رأى الأكثرين من أعضائها ومن كبار القواد فى الهند أن يعدم، ولكن «لورد كاينگ» عارض هذا الرأى ، ورأى أن يستبدل النفى بالإعدام ، وتم له ماأراد من نفيه خارج الهند . .

وفى يوم الخميس ١٧ اكتوبر سنة ١٨٥٨م نفذ أمر النفى ، ورحل هو وأسرته[٣] وبعض أفراض حاشيته إلى مدينة « رنگون » عاصمة بورما وكان عدد المرحلين ٣٥ فردا . وحينما نزلوا به فى « رنگون » أركبوه عربة مكشوفة للجماهير، وساروا به إلى مقره فى شارع كلكتا فى أطراف المدينة ، وخصصوا

---

(١) كتاب « محاكمة بهادور شاه لخواجه حسن نظامى صـ ٢١ .

(٢) كما جاء فى العدد الخاص عن جريدة . « نئى دنيا » أى الدنيا الجديدة بمناسبة عين استقلال الهند الصادر فى ١٦ أغسطس ١٩٥٧ م .

(٣) منها زوجته زينت محل وأولاده جوان بخت ، كاثوم زمانى بيجم ، رونق زمانى بيجم، وابن صغير ثان هو جشيد بخت .

له مكانا لمحبسه ، ولزوجه وأولاده مكانا بجانبه ، ووضعوا الجميع تحت حراسة شديدة(١) .

وفى أول نوفمبر سنة ١٨٥٨ م فى عهد الملكة فكتوريا صدر قرار بنقل حكم الهند من يد الشركة إلى يد الحكومة البريطانية ، وتم تعيين أول حاكم عام من قبل الملكة وهو لورد « كاينگك » وأعلنت الملكة على البلاد الإعلان التالى(٢) : ـ

من الملكة إلى الأمراء والزعماء والأمة الهندية ..

نحن فكتوريا حامية العقيدة ـ بفضل الله ـ ملكة المملكة المتحدة لبريطانيا وإيرلندا ، والمستعمرات وملحقاتها فى أوربا وآسيا وأفريقيا وأمريكا واستراليا ، نعلن بهذا ونصرح بأنه بناء على نصيحة المجلس وموافقته ، قد أخذنا على عواتقنا الحكومة المذكورة ، وبهذا ندعو جميع رعايانا فى داخل حدود هذه الأراضى أن يكونوا مخلصين موالين حق الموالاة لنا ولورثتنا وحلفائنا ، وأن يقدموا خضوعهم إلى سلطة الذين سنقوم بتعيينهم بعد من آن لآخر ... ومن أجل هذا قد عينا « شارلس جون فيكونت كاينگك » أول وال وأول حاكم عام على أراضينا ، لكى يدير شؤون حكومتنا باسمنا ... » وجاء فيه « ثم إننا قد وافقنا وأبقينا فى الهند جميع المعاهدات والتعهدات المعقودة معهم تحت سلطة شركة الهند الشرقية الموقرة ، ولسنا نريد مزيدا من التوسع عن ممتلكاتنا الحالية .. وسنحترم ما للأمراء الوطنيين من الحقوق والمكانة أسوة بنا (!!!)

ونحن لا نعتزم أن نفرض عقيدتنا المسيحية على أحد من رعايانا ، الذين سوف ينعمون بحماية القانون ، فى غير فارق بين الأديان وفى غير محاباة (وقد اضطرت الملكة لهذا نظرا لما اقترفته حكومة الشركة من قهر الناس على الدخول فى المسيحية كما سبق بيانه) .. ونحن نبدى أسفنا الشديد لما نزل بالهند من أعمال الرجال الطامعين الذين خدعوا مواطنيهم بالأنباء الكاذبة ، وقادوهم

(١) ص ٤٤ من كتاب « دهلى كى سذا » بالأوردية ومعناه « عقاب دهلى » لخواجه حسن نظامى
(٢) ملخصا من كتاب المسألة الهندية للأستاذ عبد الله حسين

إلى العصيان الذى قمعناه بقوتنا (وهذه عادة الإنجليز كلما احتلوا بلدا سموا أصحابه المدافعين عن حريتهم بالبغاة الكذابين الطامعين .. ولا ندرى من الباغى الكذاب الطامع ؟ ! ولكن متى عرفت لغة الاستعمار معنى الحياء ؟ !)

ثم تقول : « ونحن نبسط عفونا على هؤلاء الذين يرغبون فى العودة إلى واجباتهم العادية ، ولكننا لن نعفو عمن باشر قتل الرعايا البريطانيين (!! ولكن الآلاف الذين قتلهم البريطانيون بصورة بشعة لا حساب لهم ولا قيمة !!) ، أما الذين قبلوا مختارين إيواء القتلة مع العلم بجنايتهم ، أو الذين كانوا فى الثورة بمثابة زعمائها أو المحرضين عليها فإننا نضمن بقاءهم أحياء على أن يحاكموا ، وستقدر العقوبات عليهم بمراعاة جميع الظروف التى حملتهم على طرح الولاء لنا (!!) . أما أولئك الذين يثبت أنهم قد ارتكبوا جرائمهم بسبب تصديقهم الأنباء الكاذبة التى كان ينشرها ذوو الأغراض فسيعاملون بقدر كبير من التسامح ، أما بالنسبة لجميع الذين حملوا السلاح ضد الحكومة فإننا نعدهم ـ بإعلاننا هذا ـ بالعفو الشامل غير المقيد ، وتناسى كل ما اقترفوا ضدنا وضد تاجنا وكرامتنا (هكذا !!!) .. وسيمتد هذا العفو إلى جميع الذين يؤدون هذه الشروط قبل أول يناير التالى ... وحين يأذن عفو الله بأن يعود السلام إلى الهند ، فإننا نشهد الله على أننا سنمضى بالبلاد الهندية فى طريق التقدم والسلم والنهوض بالأعمال العامة .. الخ » .

* * *

وبذلك دخلت الهند رسميا ضمن مستعمرات التاج البريطانى ، وظلت كذلك حتى اضطر الانجليز للجلاء عنها سنة ١٩٤٧ م وأعلنوا استقلالها فى ١٥ اغسطس من هذه السنة ...

وبودى ـ أخيرا وبعد كل ما تقدم ـ أن أضع أمام القارىء صورة بجملة لعهد الشركة ، ثم لعهد الحكومة فى الهند ، كتبه « ول ديورنت » فى كتابه « قصة الحضارة »[1] :

---

(١) من ص ٤٠ ج ٣ ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود

« كانت شركة الهند الشرقية قد تأسست فى لندن عام ١٦٠٠ م ، لتشترى منتجات الهند وجزر الهند الشرقية بأثمان بخسة ، وتبيعها بأثمان مرتفعة بأوربا. وقد أعلنت الشركة عام ١٦٨٦ م ، عزمها على إقامة مستعمرة انجليزية واسعة فى الهند ، بحيث تكون متينة الدعائم فتدوم إلى الأبد ، وأنشأت مراكز تجارية فى مدراس وكلكتا وبمباى ، وحصنتها وجاءت إليها بجنود ، وخاضت معارك القتال ، ورشت وارتشت ، ومارست غير ذلك من مهام الحكومة ، ولم يتردد « كلايف » فى قبول الهدايا التى بلغت قيمتها أحيانا مائة وسبعين ألفا من الريالات ، قدمها له حكام الهند المعتمدون على نيران مدافعه ، كما ظفر منهم بالإضافة إلى تلك الهدايا بجزية سنوية ، تعادل مائة وأربعين ألفا من الريالات. وعين الأمير جعفر حاكما على البنگال ، لقاء مبلغ يعادل ستة ملايين من الريالات ، وراح يضرب كل أمير وطنى بالآخر ، ويضم أملاكهم إلى حظيرة شركة الهند الشرقية شيئا فشيئا ، وأدمن أكل الأفيون ، واتهمه البرلمان ، وبرأه ، ولكنه أزهق روحه بيده سنة ١٧٧٤ م . وأما « وارن هستنجز » وهو شجاع علامة قدير فقد جمع من الأمراء الوطنيين مبلغا كبيرا يقدر بربع مليون ريال ، ضريبة عليهم دفعوها فى خزينة الشركة ، وقبل الرشاوى لقاء وعد بألا يفرض ضريبة أكثر مما فرضه ، ثم عاد ففرض ضريبة ، واستولى للشركة على الأراضى التى لم تستطع دفعها ، واحتل « أود » بجيشه ، ثم باعها لأحد الأمراء بمليونين ونصف من الريالات ، وتسابق الهازم والمهزوم فى الرشوة ، وفرضت على أجزاء الهند التى خضعت لسلطان الشركة ضريبة أراض بلغت خمسين فى المائة من وحدات الإنتاج ، بالأضافة إلى فروض أخرى كانت من الكثرة والقسوة بحيث فر ثلثا السكان ، وباع آخرون أبناءهم ليسدوا ما كانوا يطالبون به من ضرائب متصاعدة ، يقول ماكولى « جمعت فى « كلكتا » أموالا طائلة فى وقت قصير ، ودفع بثلاثين مليونا من الأنفس البشرية إلى أقصى حدود الشقاء ، نعم قد تعودوا من قبل أن يعيشوا فى جو من الطغيان ، إلا أنه لم يبلغ بهم كل هذا المدى » . . فما

جاءت سنة ١٨٥٧ م ، حتى كانت جرائم الشركة قد أفقرت الجزء الشمالى الشرقى من الهند إفقارا أوغر صدور الأهالى ، فشقوا عصا الطاعة فى ثورة يائسة ، وعندئذ تدخلت الحكومة البريطانية ، وقمعت العصيان ، وتولت هى الحكم فى الأراضى التى سيطرت عليها . واعتبرتها مستعمرة للتاج ، ودفعت عن ذلك تعويضا سخيا للشركة ، وأضافت ثمن الشراء هـذا إلى الدين العام فى الهند ، ولقد كان هذا فتحا للبلاد غاشما صريحا » ...

كان هذا تصويره الإجمالى لعهد الشركة الذى انتهى بضم الهند لمستعمرات التاج ، ونحن نريد أن نقف بهذا الجزء من الكتاب إلى انتهاء الحكم الإسلامى، على أن نتبعه إن شاء الله بجزء آخر عن الهند فى عهد الإحتلال ، وبعد الاحتلال ، وما شاهدته أثناء إقامتى فيها ، ولكن ذلك لا يمنع من أن أعلق على هذا العهد الذى قطعته ملكة بريطانيا لأهل الهند فى إعلانها السابق ، ولا أريد أن أتولى التعليق بنفسى بل أتركه لهذا الكاتب المؤلف الغربى « ول ديورنت » الذى يقول فى إجمال :

« وقد عاد هذا الفتح ببعض المزايا على الهند .. ولئن حارب الإنجليز مائة وإحدى عشرة حربا فى الهند ، مستخدمين فيها أموال الهند ورجالها ؛ ليتمموا فتحها ، لقد تمكنوا بعدئذ من نشر السلام على ربوع شبه الجزيرة كلها ، ومدوا الطرق الحديدية ، وأقاموا المصانع والمدارس ، وفتحوا الجامعات فى كلكتا، ومدراس ، وبومباى ، ولاهور ، والله أباد ، ونقلوا من انجلترا علومها وفنونها الصناعية إلى الهند ، وألهبوا الشرق بروح الغرب الديموقراطية ، ولعبوا دورا هاما فى إطلاع العالم على ما شهدته الهند فى ماضيها من ثروة ثقافية غزيرة ، وكان ثمن هذه الخيرات كلها طغيانا ماليا ، مكن لطائفة من الحكام المتتابعين أن يبتزوا ثروة الهند عاما بعد عام ، قبل عودتهم إلى بلادهم الشمالية ، وكان ثمن هـذه الخيرات طغيانا اقتصاديا ، قضى على الصناعات الهندية ، وقذف بملايين صناعها الفنيين إلى الأرض يزرعونها ، فلا تكفيهم طعاما ، وكان ثمن هذه كذلك طغيانا سياسيا كان من أثره — وقد جاء بعد طغيان

أورنكزيب الضيق الأفق بزمن قصير —[1] أن يميت روح الشعب الهندى قرنا كاملا ».

ونعود بعد ذلك إلى ملك الهند المسلم الذى نفى إلى « رانكون » :

لقد انتهى الحكم الإسلامى فى الهند، ووضع الإنجليز نهايته على أيديهم، بعد أن استمر ثمانية قرون ونصف، وتخلصوا من آخر ملك مسلم فيها، ونفوه مع أهله وحاشيته.. وظل فى محبسه المنعزل حتى وافته المنية فى عصر يوم الجمعة ١٤ جمادى الأول سنة ١٢٧٩ هـ - ٧ نوفمبر ١٨٦٢ م وقد بلغ من العمر ٨٩ سنة. وكان عمره حين تولى العرش فى ١٧ سبتمبر سنة ١٨٣٧ م ستين سنة، وحين قبض عليه كانت سنه ٨٥ سنة فيكون قد أمضى فى منفاه نحو أربع سنين..

وهكذا انطفأ آخر مصباح فى الأسرة التيمورية التى حكمت الهند منذ استولى الملك « بابر » عليها سنة ٩٣٢ هـ - ١٥٢٦ م، ونزع ملكها من يد أسرة « اللودى » المسلمة.

مات فى محبسه على سرير حقير، وما حوله أحد إلا زوجته « زينت محل » وولداه، وأخفى الإنجليز خبر وفاته ورأوا أن يدفنوه قريبا من مكانه مبالغة فى الإخفاء، ولم يحضر أحد دفنه إلا طبيبه، وحافظ محمد إبراهيم أستاذ ابنه جمشيد بخت، فتوليا تكفينه والصلاة عليه، وحفرا قبره ودفناه، وكانا آخر من لازم الملك المغولى الراحل، وآخر من أسلماه إلى أمه الأرض.

وقد تولى الإنجليز حراسة قبره مدة طويلة، ولم يكن للقبر أية علامة أو بناء عليه، ولذا كادت تضيع معالمه بعد ما نبتت الحشائش عليه، وداسته الخيل بحوافرها فى ميدان التدريب الذى كان بجواره، وما كانت هناك علامة باقية تشير إليه إلا شجرة السدر بجواره.

---

(١) يلاحظ أن أورنجزيب محل حملة شديدة من المؤرخين الغربيين وبعض مؤرخى الهند، وعلة هذه الحملة ما حرص عليه أثناء حكمه من تنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية، وإعادة فرض الجزية على الهندوس. وقد تكلمنا عن هذا بتفصيل حين الحديث عن « أورنجزيب ».



بهادور شاه على فراش الموت ، وقد كتب باللغة الأوردية ما ترجمته :
آخر أنفاس ظفر بهادور شاه المحبوس فى رنجون
وقد ظهرت عليه أمارات الموت (عبارة فى الأوردية تفيد أن قريب الموت تنحرف حاسة الشم فيه) مات وليس حوله مؤنس ولا رفيق ، وقد طرأت عليه سكرات الموت ، وبعد دقائق توفى
وهذا التصوير له حين موته .
يا أهل الهند : أنا ذاهب ومرتحل عن الدنيا ، وأفوض
أموركم إلى الله ، الذى ألقى آخر ستار على سلطنة تيمور !!

ولقد كان الملك المنفى من أجود الشعراء . وكان لا يفتأ يقرض الشعر عن حاله ، ويتصور ما سيصيب قبره بعد وفاته ، فقال فى شعر يفيض بالعبرات :
« من يوقد الشمع على قبرى ؟ ومن يأتى إليه بالورود ؟ نعم لا ورود ولا شموع ، حتى لا تأتى فراشة تحوم حولى ، ولا يصدح بلبل غريد فوق قبرى ، بعد وفاتك يا ظفر ، من يأتى على قبرك ليقرأ لك الفاتحة ؟ » .

ولد وعاش والدنيا حوله تخدمه ، وتمشى فى ركابه ، وتلتمس رضاه .

وها هو ذا يعيش أواخر أيامه سجينا ، فانطلقت شاعريته الفياضة الحزينة ، تصور التعاسة التى لازمته آخر حياته ، وكأنه كان يتنبأ !!

فقد عمد الإنجليز إلى منع أى أحد من زيارته ، وإلى إضاعة معالم قبره ، حتى لا يتجمع الناس حوله ، ويذكرون ـ كلما تجمعوا ـ قصة غدرهم وظلمهم من أولها إلى آخرها . .

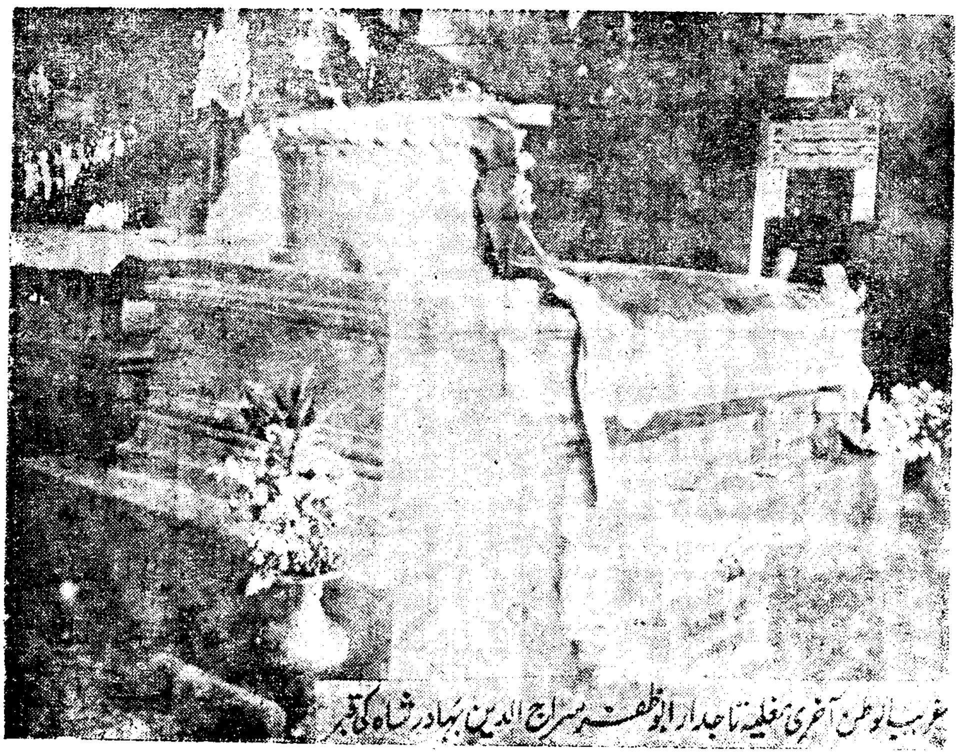
ولقد قام بعض المخلصين من المسلمين، وحاولوا مرارا أن يقنعوا حكومة بورما الانجليزية بإقامة بناء على القبر، أوحتى بالسماح لهم بإقامة هذا البناء ، ولكن ظلت جهودهم تذهب هباء ، وظل الإنجليز يتعنتون حتى مع رفات القبر ، حتى ليذكر الأستاذ « سيد أبو ظفر الندوى » فى مذكراته حين زيارته لبورما وبحثه عن قبره فى ٢٣ يوليو سنة ١٩١٥ م أنه وجد القبر قد اندرس تحت أرجل الخيول فى ميدان التدريب الذى كان قريبا منه . وقد قام السيد عبد السلام رفيق ـ مؤسس الصحافة الأوردية فى بورما ـ بجهود جبارة لدى الحكومة ، ليقنعها ببناء مقبرة لبهادورشاه ، ولكن مساعيه كلها فشلت ، مع أنهم فى الهند عنوا ببناء مقبرة عظيمة على رماد أحد ملوك المراهتا السابقين ، وظل الأمر كذلك حتى تألفت لجنة من المسلمين فى بورما لجمع اكتتابات لبناء المقبرة ، وفى سنة ١٩٣٢ م ذهب وفد إلى نظام حيدر أباد برئاسة « داود جى أحمد » ومعهم خريطة هندسية لمشروع بنائها ، وطلبوا من الملك المسلم أن يساعدهم فى هذا الغرض ، ولكنه أبى !! ولعله راعى فى إبائه عواطف أصدقائه الإنجليز!! فذهبوا إلى بومباى وجمعوا من المسلمين فيها أربعة آلاف روبية ، وهو مبلغ قليل ، ترجع قلته إلى خوف الناس من الإنجليز ، وتملقهم لعواطفهم القاسية ، ولم يكف هذا المبلغ إلا لتغطية نفقات سفر الوفد ، وعاد من الهند إلى بورما خائبا !!

ولكن الجهود تضافرت بعد ذلك برئاسة حاج داود أحمد رئيس بلدية بورما حتى تم بناء المقبرة فى سنة ١٩٤٦ م ـ نعم بعد نحو قرن من الزمان .

والإنجليز يحاربون رفات القبر !!

وقد توفيت زوجته زينت محل بعده بنحو ٢٢ سنة ، وذلك فى ١٤ شوال سنة ١٣٠٣ هـ - ١٧ يوليو ١٨٨٦ م ودفنت بجواره ، . كما دفنت معه أيضا بنته « رونق زمانى بيگم » التى توفيت فى ٣٠ ذى القعدة سنة ١٣٤٩ هـ - إبريل سنة ١٩٣٠ م .

والمقبرة التى بنيت بعد نحو قرن من الزمان عبارة عن سور ، فى وسطه قبر الملك ، وزينت محل ، ورونق زمانى . وبجانبه بيت من خشب ، مغطى بالصفيح (الصاج) لإقامة الزوار ، وعلى يمينه مسجد وبيت للطعام من الخشب أيضاً ، وقد أصبح مزارا للناس من كل ناحية . .



قبر ظفر بهادور شاه فى رنجون — بورما
ومكتوب عليه بالأوردو « قبر غريب الوطن آخر ملوك المغول أبو ظفر سراج الدين بهادور شاه »

ومما يجدر ذكره فى هـذا المقام أن القائد الهندى المشهور « سبهاش تشندر بوس » حينما قام على رأس جيش ضد الإنجليز فى الحرب الماضية لإخراجهم من الهند ، ذهب إلى قبر « بهادورشاه » فى سبتمبر سنة ١٩٤٣ م ، وأدى له التحية العسكرية ، تقديرا لموقفه الخالد فى محاولة إخراج الإنجليز من الهند سنة ١٨٥٧م ، وعاهد الله أمام قبره أن يظل مجاهدا حتى تتحرر الهند ، ويخرج الإنجليز منها ، وتتحقق أمنية الملك المظلوم الراقد بعيدا عن وطنه ، ضحية غدر الإنجليز وتعنتهم . . . . ثائر يحيى رفات ثائر . .

وقد كتب على اللوحة التى وضعت على قبره ما يأتى :

بسم الله الرحمن الرحيم

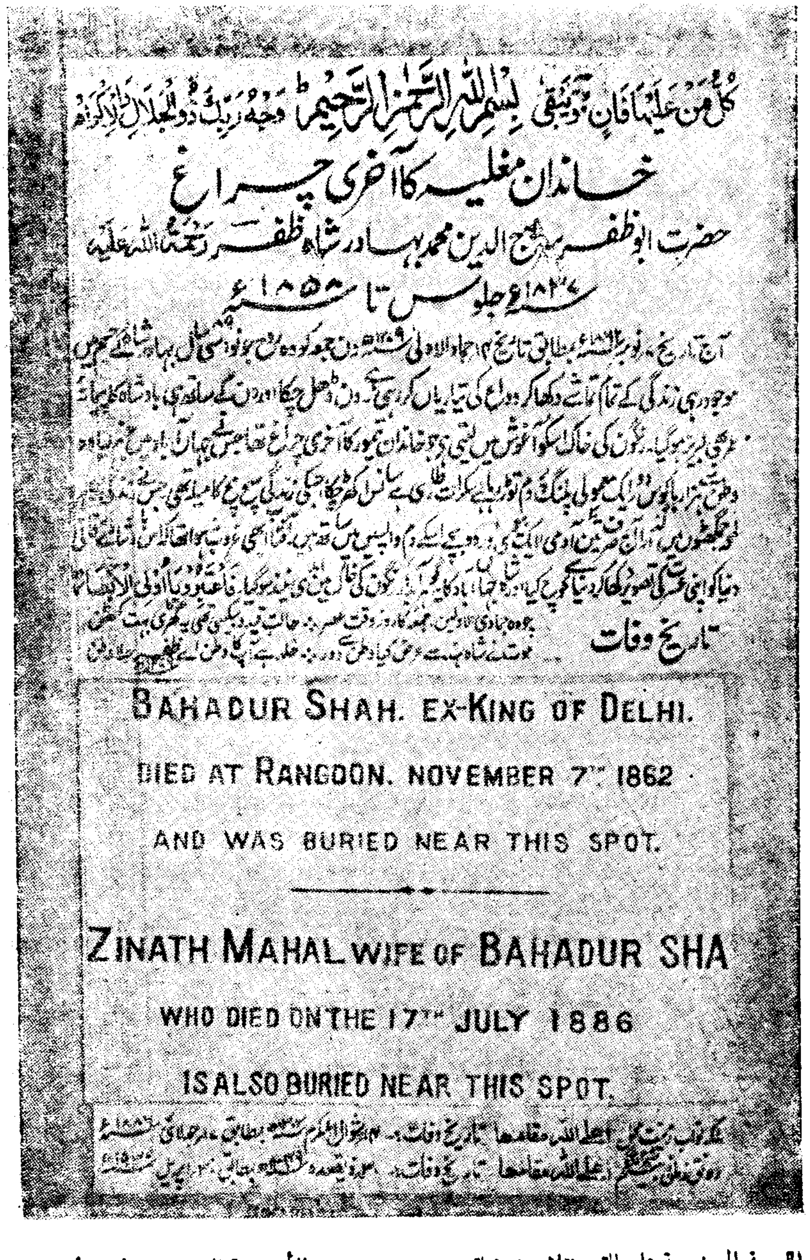
كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام

آخر مصباح فى أسرة المغول الملكية

حضرة أبو ظفر سراج الدين محمد بهادر شاه ظفر رحمة الله عليه .

جلس على العرش من سنة ١٨٣٧م إلى سنة ١٨٥٨ م

« اليوم بتاريخ ٧ نوفمبر سنة ١٨٦٢ م - ١٤ جمادى الأولى ١٢٧٩هـ يوم الجمعة صعدت الروح التى استقرت فى بهادرشاه ٨٩ سنة . وودعت جسده إلى الأبد ، فغربت شمسه ، وفاضت كأس عمره . واحتضنت أرض «رانگون» اخر مصباح فى الأسرة التيمورية . ولد فى « جهان آباد - دهلى » ولكنه عانى سكرات الموت بعيدا عن الوطن بآلاف الأميال ، على سرير بسيط حقير . وكانت حياته ربيعا حافلا بالخدم والحشم ، ولكنه مات وماحوله إلا ثلاثة : زوجته وولداه - وقبل أن تغرب شمس النهار فاضت روحه ، بعد ماعرف العالم حالة أسرته المنكودة ، فاستقر الجوهر اللامع من دهلى فى أرض « رنگون » .. فاعتبروا يا أولى الأبصار .



اللوحة الموضوعة على القبر نقلا عن مجلة « دور جديد » الأوردية التي تصدر في رانجون ، وقد أهداها لي أخونا المولوي محمد سالم قاسمي المدرس بدار العلوم ديوبند .

وتحت هذا كتب تاريخ وفاته فى بيتين من الشعر بالأوردية ترجمتها :

« فى أربعة عشر من جمادى الأولى يوم الجمعة وقت العصر » .

« كانت هذه اللحظة لحظة حاسمة فى تاريخ الغربة والسجن » .

« قال فيها ملك الموت لملك الهند ، وهو بعيد عن وطنه » .

« إن جنة الخلد هى وطنك يا ظفر ، يا غريب الوطن » .

ثم كتب تاريخ وفاته بالانجليزية هو ومن دفن معه ، وتحته كتب بالعربية فى أسفل اللوحة :

ملكة نواب زينت محل : أعلى الله مقامها : تاريخ الوفاة ١٤ شوال سنة ١٣٠٣هـ مطابق ١٧ يوليو سنة ١٨٨٦م . بنت الملك : رونق زمانى بيگم : أعلى الله مقامها : تاريخ الوفاة ٣٠ ذى القعدة سنة ١٣٤٩هـ مطابق ٣٠ ابريل سنة ١٩٣٠م

* * *

أما الأمير « جوان بخت » فقد ذهب الانجليز به إلى سجن فى بلدة « مولمين » قريبا من الحدود لرغبتهم فى تفريق الأسرة ، ومنعوا أى اتصال بينه وبين الأهالى ، والمصدر الذى نقلت عنه هذه المعلومات كلها[1] يقول : ولذلك لم يعرف عنه شىء ، غاية ما هنالك يوجد قبر ، ولكن لم يكتب عليه شىء حتى تعرف صاحبه . أما الأمير « جمشيد بخت » فقد كان صغيرا عند نفيه مع أبيه ، ولذا صاحبه أستاذه « حافظ ابراهيم » ، وفى « رنگون » دخل مدرسة انجليزية ، وكان سجنه فى بيت خشبى أمام سجن أبيه ، وعند ما كبر تزوج من أسرة بورمية سنة ١٩٠٥م ، فرزق باسكندر بخت ، وهو الوحيد الذى بقى ذكرى لهذه الأسرة الملكية ، وإن كان لم يعرف عنه شىء بعد ذلك[2] .

---

(١) معلوماتى عن بهادورشاه وأسرته فى « رنجون » نقلتها عن العدد المخصوص لمجلة « دور جديد » الأورديه الصادرة فى « رنجون — بورما » عدد ٢٩٨ بتاريخ ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٥٦م لصاحبها ورئيس تحريرها مولانا إبراهيم مظاهرى .

(٢) أخبرنى مولانا محمد ميان المؤرخ أنه لما ذهب لبورما تقابل مع فرد من ذرية الملك هناك .

ولما توفى جمشيد بخت سنة ١٩٢١ م ، تحمس المسلمون هناك لدفنه بجوار والده ، ولكن الحكومة الانكليزية حالت دون ذلك ، وحاربت بقوتها وسلطانها الجثة الهامدة ، وخشيت اجتماع الولد مع أبيه تحت التراب فدفن فى مكان آخر !!

* * *

وأما كلثوم زمانى بيگم : فقد تزوجت من أمير مسلم صينى على الحدود ، ولكن سرعان ما طلقت لاختلاف الطبائع بينها وبين زوجها ، ولم يعرف شىء عنها بعد ذلك .

وأما حافظ إبراهيم أستاذ جمشيد بخت فقد سعى بعد وفاة الملك لكسب العيش ، فاشتغل إماما وخطيبا ومدرسا فى مسجد برانگون مدة ١٩ سنة ، ومن تلامذته يوجد إمام وخطيب « مسجد بنگالى » فى « رانگون » للآن ، وهكذا كان مصير هذه الأسرة الملكية التى شاء لها سوء طالعها أن تكون نهايتها مأساة على يد الانكليز الذين أمعنوا فى كيدهم لها ، وتعنتهم معها حتى قضوا على كل أثر لها ..

وقد عنيت بالسؤال عن ذرية الأسرة التيمورية التى حكمت الهند قرابة قرنين ونصف قرن ، وتفرعت كثيرا ، وهل يوجد منها أحد الآن بالهند يعرفه الناس ، فلم أظفر بجواب يدل على تعارف الناس على أحد من هؤلاء الآن !!

ولا شك أن كيد الإنجليز ، وإمعانهم فى إزالة أى أثر حى لهذه الأسرة يذكر الناس بالعهد السابق كفيلان بتحقيق هذه النهاية ، وبالقضاء على كل معالم هذه الأسرة الملكية ، حتى لم يعد لها ذكر إلا فى بطون كتب التواريخ ، وفى أشعار جيدة تركها الملك السجين ، وكان شاعرا مجيدا ، ففاضت نفسه بلوعاتها شعرا حزينا ، لا يزال كثير من الناس بالهند يرددونه فى حزن وألم ، كلما ألمت بهم مصائب ونزلت بهم أحداث وكلما تذكروا مصير الملك المظلوم.

وكان الملك الحزين كثيرا ما يحلوله ترديد أبيات قالها فى منفاه ، وظل

يناجى الرسول صلى الله عليه وسلم بها حتى مات ، لا نستطيع أن ننقلها بما هى عليه من روعة وموسيقى حزينة ، ولذا نكتفى بنثرها هنا ، ونسدل بها الستار على نهاية هذا التاريخ الإسلامى العتيد ، على الفردوس الإسلامى المفقود :

« يا رسول الله . ما كانت أمنيتى إلا أن يكون بيتى فى المدينة بجوارك »
« ولكنه أصبح فى « رنگون » وبقيت أمنياتى مدفونة فى صدرى »

« يا رسول الله ، كانت أمنيتى أن أمرغ عينى فى تراب أعتابك »
« ولكن ها أنذا أتمرغ فى تراب « رنگون »

« وبدلا من أن أشرب من ماء زمزم ، بقيت هنا أشرب الدموع »
« الدامية ، فهل تنجدنى يا رسول الله .. ولم يبق من حياتى إلا عدة أيام !!؟ »



تشاند بى بى (قمر) وهى تقود جيوش مملكة أحمد نكر وتدافع عن القلعة أمام جيوش « أكبر » وقد نشر الكلام عنها فى صفحة ٢٠٧ ، ٢٠٨ من الكتاب .

فهرس الموضوعات

فهرس التراجم بالهامش

الصفحة

الصفحة

فهرس الصور والخرائط